دكتور محمد حسن العيدروس

تاريخ الخليج العربي
الحديث والمعاصر

Bibliotheca Alexandrina
0093297

تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر

تأليف

دكتور محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب – جامعة الكويت

الطبعة الثانية

١٩٩٨م

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

5, Maryoutia st., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

إهـداء

إلى والدى الذى شاءت إرادة الله أن ينتقل إلى جواره ، بعيداً عنى فى أبو ظبى بين أبنائه وأسرته وعشيرته بعد صراع مرير مع المرض الخبيث .

بينما أنا فى الكويت أخط الكلمات الأخيرة من هذا الكتاب الذى يؤرخ لصانعى التاريخ من الموتى من أبناء القبائل العربية على سواحل الخليج العربى وهم فى صراع مرير مع الاستعمار الأوروبى الغربى الخبيث .

وإلى أحفادهم اليوم ليعرفوا بعض ما صنع أجدادهم من ملاحم بطولية فى تاريخ المنطقة .

" وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ المُؤْمِنِينَ "

صدق الله العظيم

(سورة الذاريات الآية ٥٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدلله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطاهرين ، أما بعد ، فقد كتبنا تاريخ الخليج العربى كوحدة واحدة متكاملة وليس تاريخ أقطار الخليج العربى الذى كتب عنه كثيراً . وظهرت العديد من المؤلفات التى تتكلم عن التاريخ القطرى فى حين أن ما كتب عن تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر بطريقة متكاملة قليل . وهذه دراسة لقضايا أكثر عمقًا فى التاريخ الحديث والمعاصر بهذه الطريقة المتكاملة ، ولكنها ليست شاملة .

تنقسم هذه الدراسة إلى عشرة فصول ، الأول عن الاستعمار الأوروبى فى الخليج العربى ويبدأ بالوضع فى الخليج العربى قبيل مجيىء الاستعمار البرتغالى فى كل من مسقط وخورفكان وقلهات ومملكة هرمز العربية ودولة الجبور ثم عن الاستعمار البرتغالى فى الخليج العربى منذ عام ١٥٠٧ - ١٦٥٠ ، ودور المقاومة العربية ضد الاستعمار البرتغالى ثم طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٤ وتحرير المدن العمانية من الاستعمار البرتغالى . وبعدها عن شركات الهند الشرقية الأوروبية الرأسمالية منها شركة الهند الشرقية الهولندية وشركة الهند الشرقية البريطانية ، ثم عن تنافس الشركات الأوروبية فى الخليج العربى وتنافس الانكلو - هولندى فى الخليج العربى وتفوق شركة الهند الشرقية الهولندية على البريطانية . ثم عن شركة الهند الشرقية الفرنسية .

يتناول الفصل الثانى الساحل الشمالى للخليج العربى والمقاومة العربية للإستعمار الهولندى والبريطانى ودور الشيخ مهنا بن ناصر فى إنهاء الوجود البريطانى من ميناء «ريق» ثم تحرير جزيرة «الخرج» من الاستعمار الهولندى . ثم الحملة الإيرانية - البريطانية المشتركة ضد الشيخ مهنا بن ناصر ، وبعدها عن إمارة عربستان وقبيلة بنى كعب ثم عن البصرة تحت حكم «المغامس» من «المنتفق» وبعدها تحت حكم أفرآسياب ثم عن الإحساء . ودور بنى خالد وهجرة العتوب إلى الكويت والبحرين .

يشمل الفصل الثالث الساحل الجنوبى للخليج العربى ونبدأ بدولة اليعاربة ١٦٢٤- ١٧٥٣ والقوة البحرية فى عهد اليعاربة ومد السيطرة العمانية إلى المحيط الهندى . وامتداد السيادة العمانية إلى شرق افريقيا والحرب الأهلية العمانية . ثم قيام سلطنة عمان البوسعيدية والتنافس الانجلو - فرنسى فى عُمان . ثم ساحل عمان ١٧٥٦ - ١٨١٨ واتحاد قبائل رأس الخيمة واتحاد قبائل أبوظبى . ثم انفصال ساحل عمان عن عمان ١٧٥٦ والصراع بين بريطانيا وساحل عمان .

يحتوى الفصل الرابع التنافس الانكلو - مصرى فى الخليج العربى ١٨١٨ - ١٨٤٠ والموقف البريطانى من الوجود المصرى فى الإحساء ١٨١٨ . وفكرة التعاون العسكرى البريطانى مع المصريين ضد رأس الخيمة . والحملة البريطانية عام ١٨١٩ واتفاقية ١٨٢٠، ثم الحملة البريطانية ضد بنى «بوعلى» ، ثم السياسة البريطانية فى الخليج العربى وتدعيم النفوذ البريطانى فى المنطقة واتفاقية الهدنة البحرية ١٨٣٥ - ١٨٥٣ وبريطانيا وتجارة الرقيق . ثم عن مصر والخليج العربى ١٨٣٨ - ١٨٤٠ ومقاومة بريطانيا الوجود المصرى فى الخليج العربى. ثم الانسحاب المصرى من الخليج العربى .

ندرس فى الفصل الخامس التنافس الانجلو - عثمانى فى الخليج العربى ١٨٤٠ - ١٩١٤ . ونبدأ بالاحساء فى أعقاب الانسحاب المصرى ١٨٤٠ - ١٨٤٣ ، ثم عن القائمقام العثمانى فيصل بن تركى وضم الإحساء لنجد واهتمام العثمانيين بالإحساء ١٨٦١ - ١٨٧١ . والحملة العثمانية على الساحل الغربى من الخليج العربى ١٨٧١ والتنافس الأنجلو - عثمانى فى خور العديد ، ثم عن بريطانيا والاتفاقيات المانعة وبريطانيا وعمان واتفاقية ١٨٩١ واللورد كيرزون والسياسة الاستعمارية ١٩٠٣ والنشاط الروسى فى الخليج العربى وبريطانيا وألمانيا .

نتكلم فى الفصل السادس عن التاريخ الاقتصادى للخليج العربى فى العصر الحديث ١٥٠٧ - ١٩٠٨ ونقسم هذه الفترة إلى مرحلتين الأولى عن تنافس شركات الهند الشرقية الأوروبية ١٥٠٧ - ١٨٢٠ وتجارة البصرة فى عهد المغامس وتجارة البصرة فى عهد آل أفرآسياب وفى المرحلة الثانية عن فترة هيمنة الاستعمار البريطانى على الخليج العربى ١٨٢٠- ١٩٠٨ والنشاط الاقتصادى التقليدى فى الخليج العربى وبريطانيا والنشاط التجارى فى الخليج العربى .

يحتوى الفصل السابع الحديث عن الخليج العربى فيما بين الحربين ١٩١٤ - ١٩٤٥ . وعن الأوضاع فى الخليج العربى قبيل الحرب العالمية الأولى ، وعن الدولة العثمانية والخليج العربى والأوضاع فى شرق الجزيرة العربية والكويت وعربستان ثم عن بريطانيا والحرب ضد الدولة العثمانية فى الخليج العربى ١٩١٤ - ١٩١٨ وعن الخليج العربى فيما بين الحربين ١٩١٨ - ١٩٣٥ وبريطانيا والتسويات السياسية وقضايا الحدود والأوضاع فى إمارات الخليج العربى فيما بين الحربين والحركات الإصلاحية فى الخليج العربى ثم عن الخليج العربى أثناء الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .

نتناول فى الفصل الثامن الخليج العربى عقب الحرب العالمية الثانية حتى الانسحاب البريطانى ١٩٤٥ - ١٩٧١ عن بريطانيا والخليج العربى والاتحاد السوفيتى والخليج العربى والولايات المتحدة والخليج العربى والانسحاب البريطانى من الخليج العربى ٦٨ - ١٩٧١ والاحتلال الإيرانى للجزر العربية .

نتناول فى الفصل التاسع عن الخليج العربى من الانسحاب البريطانى حتى قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربى ثم نبدأ عن أمن الخليج العربى والولايات المتحدة وأمن الخليج العربى والإتحاد السوفيتى وأمن الخليج العربى وإيران والعرب وأمن الخليج العربى والتغييرات الأمنية والسياسية فى الخليج العربى فى الفترة من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٩٠ والسوفييت وجمهورية إيران الإسلامية والحرب العراقية - الإيرانية ثم قيام مجلس التعاون الخليجى .

يحتوى الفصل العاشر التاريخ الاقتصادى للخليج العربى المعاصر ١٩٠٨ - ١٩٩٠ واكتشاف النفط وأهميته والتجارة فى الخليج العربى فى الفترة ١٩٠٨ - ١٩٢٨ وصناعة النفط . ومرحلة المناصفة بين الحكومة والشركات البترولية ١٩٥٠ - ١٩٦٠ ومرحلة المساهمة فى العمليات المتكاملة ١٩٦٠ - ١٩٧٣ ، ثم قيام منظمة «الأوبك» ومرحلة التأميم والصناعة والتسعيرة .

ينقسم الفصل الحادى عشر التاريخ الاجتماعى لشرق الجزيرة العربية أى « الساحل الغربى للخليج العربى» إلى قسمين : الأول عن التاريخ الاجتماعى قبل عصر النفط فى شرق الجزيرة العربية ، ويتناول علاقة الإنتاج بالمجتمع والعلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية التى تحتوى على النظام القانونى والنظام السياسى والنظام التعليمى والمرأة والقيم

والعادات والنظام الدينى ، أما القسم الثانى فهو عن التاريخ الاجتماعى فى عصر النفط فى شرق الجزيرة العربية ويتناول ، التغيير الاجتماعى والطبقات الاجتماعية التى تحتوى على الطبقة التجارية والطبقة الوسطى وطبقة العمال الوافدة والآثار الاجتماعية المترتبة على السكان وآثار العمالة الوافدة على التآلف الاجتماعى وآثار العمالة الوافدة على الثقافة العربية . وأخيراً البناء الاجتماعى والتحديات المعاصرة .

يشمل الفصل الثانى عشر التاريخ الثقافى لشرق الجزيرة العربية «الساحل الغربى للخليج العربى» ، ونبدأ بالتاريخ الثقافى قبل عصر النفط فى شرق الجزيرة العربية ومنها الأدب الشعبى والحركة الفكرية ثم عن التاريخ الثقافى فى عصر النفط ويتناول الغزو الفكرى الغربى لشرق الجزيرة العربية والاستعمار الثقافى فى شرق الجزيرة العربية والتبشير فى شرق الجزيرة العربية والتعليم الغربى الحديث وتأثيره وكتابات المستشرقين . ثم العلاقة بين التنمية الشاملة والثقافة ويتناول التربية والتعليم فى أقطار مجلس التعاون الخليجى ونتائج التعليم الثقافية والاتصال الجماهيرى وواقع الثقافة فى مجلس التعاون الخليجى، ثم الفئة المثقفة والتعليم والوعى السياسى وأزمة الثقافة والمثقف فى مجلس التعاون الخليجى . وأخيراً الثقافة وظاهرة الإقليمية فى مجلس التعاون الخليجى .

أرجو أن يمثل هذا الجهد المتواضع إضافة إلى المكتبة العربية لتاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر وإسهامًا فى تاريخ أمتنا العربية والإسلامية راجيًا من الله العلى القدير أن يوفقنى إلى كتابة ما يرضاه .

دكتور محمد حسن العيدروس

الفصل الأول
الاستعمار الأوروبى فى الخليج العربى

الوضع فى الخليج العربى قبيل مجيىء الاستعمار البرتغالى .

مسقط - خورفكان - قلهات - مملكة هرمز العربية - دولة الجبور.

الاستعمار البرتغالى فى الخليج العربى ١٥٠٧ - ١٦٥٠م

المقاومة العربية ضد الاستعمار البرتغالى .

طرد البرتغاليين من «هرمز» ١٦٢٤ م

تحرير المدن العمانية من الاستعمار البرتغالى ١٦٥٠م

شركات الهند الشرقية الأوروبية الرأسمالية .

(أ) شركة الهند الشرقية الهولندية .

(ب) شركة الهند الشرقية البريطانية .

تنافس الشركات الأوروبية فى الخليج العربى .

التنافس الانكلو - هولندى فى الخليج العربى .

تفوق شركة الهند الشرقية الهولندية على البريطانية .

(جـ) شركة الهند الشرقية الفرنسية .

الوضع فى الخليج العربى
قبيل مجيىء الاستعمار البرتغالى

أتاحت حالة الفراغ السياسى والعسكرى التى أعقبت سقوط بغداد فى يد المغول ، ومن ثم تفكك الإمبراطورية المغولية ، الفرصة أمام قوى محلية صغيرة أن تنمو وتفرض سلطانها على مدخل وبعض سواحل الخليج العربى ؛ مثل مملكة هرمز العربية ودولة بنى «جبور» فى البحرين والإحساء وبنى نبهان فى عُمان .

التنافس والصراع كان هو السائد بين ملوك «هرمز» وشيوخ «الجبور» فى الخليج العربى قبل وصول البرتغال ، وعلى الرغم من أن «الجبور» كانوا هم القوة الصاعدة ، إلا أن «هرمز» كانت هى القوة الرسمية المتصدية للزعامة وكان عليها أن تتكفل بحماية الخليج العربى من الإحتلال البرتغالى رغم التفكك السياسى الذى كانت تعانى منه . ولعل مما يلفت النظر أن الدولة الصفوية الناشئة قرب «الأناضول» فى ذلك الوقت لم تتعاون مع مملكة «هرمز» العربية لمقاومة الاستعمار البرتغالى(١) .

تلك الملاحظة لها أهميتها الخاصة، ليس لأن ذلك دليل واضح على عدم تبعية «هرمز» للدولة «الصفوية» أو الدول التى سبقتها فى إيران ، بقدر ما يرجع إلى عدم مقدرة إيران فى ذلك الوقت على احتلالها كما كانت تتخوف من منافستها ، إضافة إلى أن مملكة «هرمز» العربية كانت أقدم بكثير من الدولة الصفوية التى نشأت بعد نهاية ممالك الأتراك فى شمال إيران و «الأناضول» ، وكانت عاصمتها فى «تبريز» قبل أن تنتقل إلى «أصفهان» بعد تدميرها واجتياحها من قبل العمانيين ، ومن هناك بدأت تتجه وتتوسع نحو سواحل الخليج العربى الشرقية ، كما وجدت لاحتلال البرتغال الصليبى لمملكة هرمز العربية فرصة سانحة للتعاون معه ضد الدولة العثمانية الإسلامية .

عند وصول البرتغاليين كانت هرمز حاضرة لدولة كبيرة تسيطر على جزر أخرى فى الخليج العربى علاوة على بعض المدن فى سواحل عمان والبحرين ، وتعج بالثروات التجارية ، لذلك أصبحت هدفًا للبرتغاليين عند وصولهم وأهم المراكز التجارية فى الخليج العربى قبل وصول البرتغاليين هى : مسقط ، خورفكان ، قلهات .

مسقط :

وصفت مسقط آنذاك بمدينة كبيرة آهلة بالسكان تحيط بها من الداخل جبال كبيرة ومن ناحية البحر تقترب من حافة المياه ، وبأنها المركز الرئيسى التجارية لمملكة هرمز - تدخلها كل السفن التى تبحر فى هذه الأجزاء لكى تتجنب الجانب المقابل الذى به أجزاء كثيرة ضحلة - وسوقًا للخيل والبلح وهى مدينة جميلة ذات منازل رائعة وتكثر بها زراعة القمح والذرة والشعير التى تكفى حمولة كل السفن التى تجىء لأخذها (٢).

خورفكان :

دخلت هذه المدينة فى صراع وتنافس فى التجارة مع هرمز ، وهى ميناء بحرى كبير يقع على ساحل خليج عمان وقد وصفها «البوكيرك» بقوله : إنها من أجمل المدن ، فمناخها معتدل وصحى وهى على شكل «قدم لجمل كبير» يكثر بها التجار ، كما أنها غنية بالزراعة فيكثر فيه القمح والذرة والبرتقال والبلح وغيره من الفواكه ، وميناؤها من الموانى الممتازة ومنها يتم تصدير الخيول إلى الهند .

قلهات :

تعتبر «قلهات» من أقدم وأهم الموانى على ساحل خليج عمان كما كانت «صور» و«رسيوت» و «قريات» و «مرباط» و «صلالة» و«شحر» من المواقع الهامة على بحر العرب والتى كانت أيضًا من أهداف البرتغاليين .

مملكة هرمز العربية :

ينبغى فى بداية الحديث عن الأوضاع السياسية فى الخليج العربى أن نميز بين هرمز القديمة التى فى البر الأصلى وبين هرمز الحديثة «فهرمز» بمفهومها القديم كانت تشمل اجزاء دخلية على الساحل الشرقى من الخليج العربى والتى كانت أهم وأقوى التنظيمات السياسية والتجارية وقد أخذت تلك المملكة مركزها التجارى منذ القرن الحادى عشر الميلادى حين أصبحت أهم منطقة لتجميع السلع التجارية فى الخليج العربى وأكبر منافس لميناء «قيس» الذى حل خلال الفترة من القرن الثانى عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر محل ميناء «سيراف» الذى كان من أهم الموانىء التجارية العربية فى الخليج العربى .

تعتبر مملكة هرمز عربية منذ نشأتها كما أن أصل الأسرة المالكة التى تعاقبت على حكم هرمز يرجع إلى أصول عربية يمنية . وقد كتب أحد حكامها تاريخ كامل عن تلك المملكة هو «طوران» ومؤسس هذه السلالة هو الأمير «محمد درهم كوب» وهو شيخ عربى جاء من اليمن وعبر الخليج العربى وكون مملكة هنالك وقد يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرن العاشر ويعتبر الملك «ركن الدين محمد» الثانى عشر فى سلسلة ملوكها (٣).

استمرت «هرمز» تحتل مكان الصدارة والتجارة البحرية إلى أن قضت جحافل المغول على الدولة العباسية وسقطت عاصمتها بغداد فى عام ١٢٥٨ وحينئذ لم تسلم مملكة «هرمز» من الدمار عندما تمكن «التتار» فى عام ١٣٠١ من شن غارات مستمرة على المدينة والاستيلاء على كل شىء فيها وعملوا الذبح والتقتيل فى سكانها ، وقد قدر للرحلة «ماركوبولو» أن يكون آخر شاهد على عظمة هرمز حين زارها فى عام ١٢٩٢ وأعطانا وصفًا شيقًا عنها وأفاض فى الحديث عن جوانب كبيرة من حركتها التجارية ، ومما يستلفت النظر أن الطاقة التجارية الكبيرة التى تمتع بها سكان هرمز لم تجعلهم يستسلمون لغارات المغول المدمرة وإنما انتقل «بهاء الدين» الملك الخامس عشر من السلالة مع شعبه وهجروا مدينتهم فى البر الأصلى إلى جزيرة «قشم» وأخيراً إلى جزيرة «جيرون» وهو الإسم القديم لجزيرة «هرمز» ، والتى لاتبعد كثيراً عن مدينتهم القديمة وأخذوا من هناك يزاولون نشاطهم التجارى ، وبمضى الزمن أخذت جزيرة «جيرون» تنتعش إقتصاديًا وتستعيد مجد «هرمز» القديمة (٤).

تيمنًا بعظمة مدينتهم السابقة «هرمز» أطلق «اياز» الملك السادس عشر فى هرمز القديمة ابن «بهاء الدين» وملك لهرمز الجديدة نفس الاسم القديم لمملكتهم القديمة للجزيرة الجديدة «جيرون» تذكاراً لبلادهم الأصلية (٥). ونمت هرمز وأصبحت عاصمة لأكبر تنظيم سياسى وتجارى شهدته منطقة الخليج العربى وشملت أجزاء من السواحل الشرقية للخليج العربى وكذلك الغربية وامتد نفوذها الإدارى حتى البصرة فى بعض الفترات واستمرت حوالى مائتى عام حتى استولى عليها الاستعمار البرتغالى .

مما يذكر أن جزيرة هرمز التى كانت قاعدة لتلك المملكة المترامية الأطراف التى زارها الرحالة «ابن بطوطة» فى رحلته الأولى التى قام بها فى الفترة من ١٣٢٥ إلى ١٣٤٩ ، وقد خلف لنا وصفًا ممتعًا عن هرمز وسلطانها وتجارتها وحياتها الاجتماعية وقدم لنا صورة شيقة عما كانت عليه المملكة من عظمة وثراء ، وفى وصفه للجزيرة ذكر أن مدينة هرمز كبيرة بها

أسواق حافلة وأنها مرسى «للسند» و «خرسان» و «الهند» ، ومنها كانت تحمل سلع الهند إلى العراق وايران وخرسان ، وقد بدأ ابن بطوطة رحلته إلى هرمز حين توجه إليها من عمان ، وقام أولاً بزيارة المدينة القديمة التى وجدها خاوية مهدمة لاحياة فيها وليس بها سوى القليل من صيادى السمك الذين اتخذوها ملجأ لهم لقضاء أوقات راحتهم ، وذكر ابن بطوطة أن هرمز الجديدة تبعد عن هرمز القديمة قرابة ثلاث فراسخ وأنها تقابلها من ناحية البحر وأبدى إعجابه بأسواق المدينة المجهزة تجهيزاً حسنًا كما وصف ملك هرمز «قطب الدين» بالكرم والتواضع والأخلاق النبيلة غير أنه وجده مشغولاً ويتهيأ للحرب ضد «نظام الدين» . وذكر ابن بطوطة أنه استقى معلوماته التاريخية عن مملكة هرمز من وزير الملك شمس الدين محمد بن على ، والقاضى عماد الدين الشونكارى ، وقد أسهب ابن بطوطة فى الحديث عن حياة السكان واعتمادهم فى معيشتهم على السمك والتمر الذى يجلب إليهم من عمان والبصرة ، واسترعى نظر ابن بطوطة ندرة مياه الشرب الغالى الثمن التى تُجمع عن طريق الأمطار ، وذكر أن هناك صهاريج وخزانات صناعية كبيرة لجمع المياه حيث يذهب الناس لجلب مياه الشرب بآنية كبيرة من القرب يملأونها ويحملونها على ظهورهم .

قامت بين مملكة هرمز وجزيرة قيس والبحرين حروب ترتب عليها سيطرتها على البحرين عام ١٣٢٠ حين تمكن ملكها قطب الدين الرابع فى السلالة الجديدة من أخذ جزيرة قيس وإخضاع البحرين .

لم يكن الرحالة المسلمون وحدهم الذين استرعى انتباههم أهمية هرمز وإنما جذبت شهرة الجزيرة إنتباه عدد كبير من الرحالة الأوروبيين نذكر من بينهم الأب «اودوريك» الذى زار الجزيرة فى عام ١٣٣٠ وقال بأنها مدينة محصنة تحصينًا قويًا وتشمل مخازن ثمينة وتقع على جزيرة تبعد عدة أميال عن البر الأصلى وليس فيها أشجار ولا ماء عذب وهى غير صحية وشديدة الحرارة وعاصمتها هرمز وهى مدينة فاخرة ولها سوق مجهزة أحسن تجهيز وهى بمثابة مستودع بضائع الهند والسند .

زار الرحالة «لودفيج مارتمان» هرمز فى عام ١٥٠٢ ، أى فى السنوات القليلة السابقة مباشرة لوصول الاستعمار البرتغالى إلى هرمز ، وكان بكتابته عنها خير شاهد على عظمتها ومما ذكره أنه كان يوجد بمينائها ما يزيد أحيانًا على ثلاثمائة سفينة تجارية لمختلف بلدان العالم راسية على أرصفتها البحرية ، كما كان يقيم فيها بصفة دائمة أكثر من أربعمائة تاجر وأن

معظم تجارتها كانت من اللؤلؤ والأحجار الكريمة والحرير والعقاقير والتوابل كما نستنتج من وصفه بأن المدينة فى تلك الأيام فى أوج تطورها ورخائها التجارى فيقول (٦) :

«مضينا فى رحلتنا فجئنا إلى مدينة تدعى هرمز وهى لا ثانية لها فى الموقع الممتاز وتكثر فيها اللآلى ، وتبعد عن القارة إثنى عشر ميلاً ويندر فيها الماء والذرة لدرجة كبيرة ويؤتى لها من مناطق أخرى بكل المؤن الضرورية لغذاء السكان ، وعلى بعد ثلاثة أيام من السفر البحرى يغوص أشداء الغواصين على أحسن وأكبر اللآلىء ،ويرى أحيانًا ما يقرب من ثلاثمائة سفينة وغيرها من أنواع السفن التى تأتى هناك من أماكن وبلاد عدة ، وملك المدينة مسلم . ويوجد هنا حوالى أربعمائة تاجر ووكيل يمكثون بصورة مستمرة لنقل البضائع التى تأتى من المناطق الأخرى مثل الحرير واللؤلؤ والأحجار الكريمة والتوابل وما شاكل ذلك ، ويعيشون على الأرز فى الدرجة الأولى إذ ليس لديهم أنواع أخرى من الذرة والحبوب » . ومن هذا يتضح علاقة هذه الجزيرة القوية مع الهند من حيث إستيراد المواد التجارية والغذائية وخاصة الأرز .

قدم «بير رانيل» وصفًا شيقًا لعظمة المدينة وازدهارها وأشار إلى أن التجار يقدمون إليها من جميع أنحاء العالم ويتبادلون السلع ويعقدون الصفقات التجارية فى هدوء يندر أن نجد مثله فى أى مكان تجارى آخر . فى حين ذكر الرحالة البرتغالى «دورات باربوسا» بأن المدينة ليست كبيرة على قدر ما هى جميلة ، ووصف بيوت أثريائها بأنها أشبه ما تكون بالمتاحف لما تحويه من تحف وقطع أثاث واردة من الهند والصين والسجاد الفارسى الفاخر والقناديل المصرية ذات النقوش الشرقية البديعة ، ولاشك أن الإزدهار التجارى الذى تمتعت به جزيرة هرمز كان يعود بالدرجة الأولى إلى موقعها الاستراتيجى فى المضيق المؤدى إلى الخليج العربى ، وأضيف إلى ثرائها التجارى الدخل الذى كانت تحصل عليه من المكوس الجمركية التى كانت تفرضها على الموانىء التابعة لها حتى قدر دخل الدولة من هذه الرسوم وحدها بأكثر من ستين ألف ريال ، هذا إلى جانب استغلالها لمصائد اللؤلؤ التى أضافت إليها مصدراً هامًا من مصادر ثروتها .

على الرغم من المساحة الصغيرة للجزيرة فان ملوك هرمز كانت لهم سلطة شكلية فقط إذ تركت السلطة الفعلية فى أيدى مجموعة من التجار ، ورغم أن الجزيرة كانت تجمع من مختلف الأجناس إلا أن اللغة العربية كانت هى لغة التعامل كما كان معظم سكانها من العرب إذ أن طبيعة النشاط البحرى التجارى الكبير فى تلك الفترة التى لم تقتصر على تجارة الهند وشرق

أفريقيا وإنما امتد إلى قلب العالم الإسلامى وأصبحت جزيرة هرمز تمثل الحلقة الهامة فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب وخاصة حين دخلت المدن الإيطالية ذلك الميدان وأصبحت هرمز مثلاً يضرب على الثراء ويعرفها رجل الشارع الأوروبى واعتبارها خاتم العالم وأن من يمتلكها يمتلك العالم ، ولم تحصل هرمز على شهرة تجارية فحسب بل حصلت على شهرة فى عالم الأدب حين أشاد بها بعض الكتاب والشعراء وعلى رأسهم الشاعر البريطانى «جون ميلتون»(٧) فى ديوانه الفردوس المفقود حيث أورد بيتًا من الشعر جاء فيه إذا كان العالم مجرد خاتم هرمز هى جوهرته ، كما كتب فى نفس القصيدة : شاب مرتفعًا على عرش سام يليق بالملوك .. ويطغى دون عناء على ثروة هرمز والهند ، أو حيث يغدق الشرق الفنان بأغنى الأيادى .. اللآلىء والذهب البربرى على ملوك بلاده .

لعل من ينظر الآن إلى تلك الجزيرة التى تكاد تكون خالية من السكان يدهش كثيراً حين يعرف أن سكانها كانوا يبلغون فى الفترة ما قبل الإحتلال البرتغالى أكثر من أربعين ألف نسمة وكانوا يعيشون على مستوى عال من الرفاهية والثراء بالرغم من أنهم كانوا يحضرون جميع احتياجاتهم الرئيسية من خارج الجزيرة إذا ما قلت الأمطار ، وقد اشتهر من بين ملوك السلطان «قطب الدين فيروز » الذى حكم حتى عام ١٤١٧ ، وكان يلقب بملك هرمز والبحرين والإحساء والقطيف وهو السلطان الذى كان قائمًا بالحكم حين زار ابن بطوطة حتى عام ١٤٣٥ ، وكان يوصف بأنه صاحب هرمز والبحرين وكان يتبعه بعض أجزاء من عمان والقطيف وقلهات .

دولة الجبور :

سيطر «الجبور» على منطقة الإحساء والبحرين منذ بداية القرن الخامس عشر وهذا الوضع أتاح للجبور أن يمدوا سيطرتهم إلى عمان الداخلية نفسها وعندما وصل الاستعمار البرتغالى إلى السواحل العمانية التابعة لهرمز انفرد الجبور بالساحل الذى لم يجد مساندة تذكر إضافة إلى المناطق الداخلية من عُمان .

نجد الأوضاع فى البحرين خلال الجزء الأخير من القرن الرابع عشر تشابكًا فى علاقاته بكل من هرمز من جهة وبالإحساء من الجهة الأخرى ، الأول بسبب وضعها التجارى والثانى لنفوذ أسرة الجبور فى الإحساء ولاسيما مقرن بن أجود بن زامل الذى تسميه المصادر العربية بسلطان البحرين والقطيف والذى استفاد من ضعف الأحوال فى مملكة هرمز العربية ، وراح يركز نفوذه

. فى الإحساء والبحرين حتى إذا ما توفى الملك «فخر الدين طوران» وتنازع أبناؤه الأربعة على عرش أبيهم فى هرمز وهم مقصود وشهاب الدين وياس وسلفور فالتجأ الأخير إلى زعيم الإحساء أجود بن زامل فوافق هذا شريطة أن يتنازل له سلغور نهائيًا عن كل حق يدعيه فى البحرين ، فوافق «سلغور» مع تحفظ واحد وهو أن يترك له ملكية خاصة لبعض بساتين البحرين ، ووقع بذلك إتفاقًا مكتوبًا مع زعيم الجبور .

عندما استلم سلغور الحكم فى هرمز حاول التملص من من إتفاقه مع الجبور وراح يطلب بتقسيم عوائد البحرين مع اجود بن زامل الذى رفض ذلك وتمسك بالنص الحرفى للاتفاقية المكتوبة الأمر الذى ادى إلى نشوب القتال بين هرمز والإحساء . وبدأت هرمز تشدد من حملاتها ضد القطيف والبحرين وفشلت الحملات التى شنها سلغور بقيادته شخصيًا وكذلك حملات وزيره ريس نور الدين وأيضا حملات ولده طوران بن سلغور ، وقد يرجع ذلك إلى وقوف سكان البحرين إلى جانب اخوانهم الجبور ضد عرب هرمز ، وانتهت تلك الخلافات إلى حل وسط تضمن استمرار الصلاحيات الإدارية للجبور فى البحرين على أن يتعهدوا بدفع بعض إيراداتها إلى هرمز مع الإعتراف الإسمى بتبعيتها . على أن هذه المعاهدة لم تكن تمثل سوى فترة مهادنة لصالح فريقين أحدهما كان يمثل طموحًا قويًا عربيًا ويجمع تحت جناحه عواطف القبائل العربية فى سائر شرق الجزيرة العربية وفى معظم جزر الخليج العربى والثانى فريق الدولة التجارية البالغة الغنى ، وأخذ كل فريق يعزز مركزه بالوسائل والمزايا المتاحة له ، فهرمز تستخدم المال والنفوذ والقوة البحرية ، والجبور يستخدمون عاطفة القومية العربية لتجمع القبائل العربية ويستغلون مركزهم فى شرق الجزيرة العربية ، وخاصة فى عمان حيث يستطيعون من هناك تهديد هرمز فى أخطر المواقع ألا وهو مدخل الخليج العربى الجنوبى الذى تعول عليه للإبقاء على وجودها (٨) .

لاننسى الحروب التى خاضتها هرمز ضد أهم مركزين تجاريين للعرب فى الخليج العربى فى القرن الرابع عشر ألا وهما البحرين وجزيرة قيس ، وهى حروب تواصلت فيما يبدو حتى عام ١٣٢٠ بتمكين الملك قطب الدين من الإستيلاء على قيس واخضاع البحرين ، وليس ذلك وحسب ولكن الجزء الأكبر من الساحل الشمال الغربى لعمان (ساحل عمان) ظل لفترة طويلة تابعًا لمملكة هرمز .

قد يتسائل البعض كيف تمكنت مؤسسة سياسية محدودة الحجم فى جزيرة بركانية ضئيلة وقاحلة كهرمز من مد نفوذها على كل تلك المناطق ؟ وللإجابة على ذلك يمكن القول بأن هرمز كانت كسائر المدن التجارية السابقة كقرطاجنة وتدمر والبتراء تمد نفوذها على مساحات شاسعة بفضل المال الذى يمكنها من تجييش الجيوش وجمع الأتباع والموالين . وفى حالة هرمز فان المعابر والمحطات والجزر البحرية لها ما للحياة نفسها من أهمية ، فلو منع المرور عبر مضيق هرمز بسبب وجود معادى على أحد جانبى الخليج العربى أو كليهما فان ذلك معناه الموت المحقق لجزيرة هرمز . ومن هنا كان لابد على الأقل من تحييد عمان (ساحل عمان) حتى نهاية رأس مسندم ، وكذلك ضمان سلامة وأمن العبور من الجانب الشرقى للخليج العربى المواجه له . أما لزوم البحرين لهرمز فيكاد لايقل أهمية عن ذلك فهى محطة الإتصال بشمال الخليج العربى ووسيلة ضمان لسلامة السفن المحملة بالبضائع الهندية والصينية وغيرها مما يصدر عبر البصرة وتحمله القوافل البرية إلى سواحل البحر المتوسط ، وكان التنافس على النفوذ فى ساحل عمان (دولة الإمارات العربية المتحدة حاليًا) مستمراً بين القبائل العربية وخاصة «الجبور» و «العوامر» . أما فى عمان فقد استمرت حالة التنافس بين الساحل والجبل أو بين عمان الساحل وعمان الداخل وكان يمثلها فى تلك الفترة النبهانيون مما أفسح المجال لطموح أجود بن زامل الجبورى للتدخل فى عمان عن طريق ساحل عمان وبسط نفوذه عليها ، وذلك عندما وقف إلى جانب القبائل المعارضة لحكم النبهانيين الذين كانوا على علاقة قرابة ونسب مع ملوك هرمز ، ولم يتردد أجود بن زامل فى إرسال قوات كبيرة عام ١٤٨٧ بقيادة إبنه سيف لمساندة زعيم القبائل العمانية المعارضة لحكم النبهانيين وهو عمر بن الخطاب الخروصى ، وبتمكينه بالفعل من طرد سليمان بن سليمان النبهانى وذلك مقابل امتيازات حصل عليها الجبوريون أضافت كثيراً إلى قوتهم وجعلت منهم الخصم الأساسى لمملكة هرمز (٩).

ولدى وصول البرتغاليين إلى الخليج العربى أوائل القرن السادس عشر أشادوا فى تقارير أرسلوها إلى لشبونة بالسلطان مقرن بن زامل سلطان البحرين والإحساء وساحل عمان وبسمعته الممتازة وازدهار مملكته .

الاستعمار البرتغالى فى الخليج العربى

بعد فشل الحملات الصليبية المتكررة التى جندتها أوروبا لغزو الشرق العربى واحتكار موارده وثرواته ، اتخذت لها وسيلة أخرى لتحقيق مطامعها الاستعمارية وهى ما سمى بالاكتشافات الجغرافية والتسلل إلى النقاط الحيوية فى الوطن العربى والوثوب من تلك النقاط إلى بقية أنحاء آسيا وافريقيا كلها ، وكان الإستيلاء على طرق التجارة التى تربط الشرق بالغرب أولى الأهداف التى استهدفتها حركة الاستكشاف الأوروبية ، كما كان ظهور الثورة الصناعية فى أوروبا وتبلور الرأسمالية الاحتكارية من العوامل الأساسية لنشوء الاستعمار الحديث الذى يعنى بالإستحواذ على موارد البلاد المفتوحة وطاقاتها البشرية والطبيعية وتحويلها لخدمة الرأسمالية الاحتكارية الأجنبية . وكانت البرتغال أول الدول الاستعمارية الأوروبية التى اتجهت إلى الشرق لتوطيد أقدامها فيها وكان الخليج العربى مفتاح الشرق من أبرز المناطق التى وجهت البرتغال أنظارها إليها . وكان ملك البرتغال هنرى الملاح يحلم منذ طفولته بتقويض مراكز الإسلام فى أى مكان يستطيع الوصول إليه ولذلك قام بالهجوم على سبتة فى المغرب واحتلها عام ١٤١٥ كما احتل مدينة طنجة أيضًا ١٤٣٧ وكانت خطته تنطوى على تطويق العالم الإسلامى وايصال العالم المسيحى إلى الهند مباشرة. وقد وجد هنرى الملاح فى بابوات أوروبا خير مشجع له على مغامراته تلك وأكبر نصير بالرجال والمال والسلاح وفوضه البابا نيقولاس الخامس عام ١٤٥٤ حق الإستيلاء على جميع الممالك والدول التى يحتلها حتى بلاد الهند ، ولقد ظفر خلفاء هنرى الملاح بتفويضات مماثلة من البابا كالسينوس الثالث ومن جاء من بعده . وهكذا تجددت الحملة الصليبية على العرب والمسلمين فى الحملات التى بدأها البرتغاليون ، وكان وصول البرتغالى فاسكو دى جاما بمساعدة الملاح العربى الشهير أحمد بن ماجد إلى الهند بالدوران حول القارة الأفريقية والتوجه من رأس الرجاء الصالح إلى البحر العربى والمحيط الهندى يمثل أولى بوادر الإنقلاب العالمى الخطير الذى وضع الأسس الحديثة للرأسمالية والاستعمار الأوروبى الجديد الذى أخذ يعتمد على الغزو والاحتلال للسيطرة على موارد البلاد المفتوحة وتأمين المصادر الأولية للصناعات الجديدة واحتكار الأسواق لتصريف المنتجات الصناعية [1].

وما عرفت البرتغال هذا الطريق حتى بادرت إلى احتلال الشرق وأوجدت لها نقاط ومراكز وقلاع على امتداد تلك الطريق وبناء مستعمرة «غوا» فى الهند وجعلها قاعدة استعمار فى الشرق وأول نقطة وثوب برتغالية إلى الخليج العربى .

بذلك نجح البرتغاليون فى احتكار التجارة وإضعاف ما كان للعرب من نشاط ظاهر . واتسم ذلك الصراع بنزعة دينية صارخة وتعصب قوى وهى الروح الصليبية التى صبغت حركة الاستعمار البرتغالية انتقامًا من المسلمين العرب الذين حكموا اسبانيا والبرتغال فترة طويلة ، ومع هذه النزعة الدينية حمل البرتغاليون معهم أطماعًا اقتصادية وسياسية ، فقد كان من بين أهدافهم البحث عن مواطن الذهب ، والاتصال باحدى الممالك المسيحية فى الحبشة . وبدافع الروح الصليبية تتبعوا المسلمين وكل من تاجر معهم بوحشية وقسوة وعنف وأقاموا وكالات تجارية فى كل ميناء هام وعقدوا المعاهدات مع الامراء وحكام الدول لضمان احتكار تجارة تلك البلاد التى كانوا يريدون أن يطردوا منها المسلمين ، ولم يهتم البرتغاليون كثيراً بالتوسع الاقليمى وإنما باقامة امبراطورية تجارية على السواحل وكذلك بنشر المذهب الكاثوليكى وخاصة فى افريقيا ولكنهم لم يتمكنوا من التبشير لدى العرب فى المنطقة .

أدرك البرتغاليون أهمية الاستيلاء على الخليج العربى والبحر الأحمر لاغلاق المنافذ التجارية ووقف الملاحة العربية ، وأرسل ملك البرتغال حملة بحرية فى عام ١٥٠٦ بقيادة «تريستان دى كونها» يرافقه الفونسو دى البوكيرك لحرق سفن المسلمين ، وقام البرتغاليون باحتلال قلعة جزيرة سوقطرة بعد قتال عنيف ومقاومة باسلة من سكانها ثم أبحر تريستان إلى الهند بعد أن ترك الاسطول البرتغالى بقيادة البوكيرك لفرض الحصار على مدخل البحر الأحمر باحتلال عدن والذى فشل فيها البوكيرك فشلاً ذريعًا لبسالة سكانها مما دفعه للتوجه إلى مدخل الخليج العربى لاحتلاله ، فوصل إلى جزيرة «مصيرة» ثم أبحر إلى «رأس الحد» .

قام البرتغاليون بالعدوان على الموانىء العربية التى مروا عليها واشعال النار فى السفن التى وجدوها راسية ، وواجه البوكيرك مقاومة عنيفة من سكان «صور» التى اشتهر سكانها بالملاحة ودخل البرتغاليون «قريات» بعد قتال عنيف وقاموا بمجزرة رهيبة ونهبوها وأشعلوا النيران فيها .

بذلك لم تخل العمليات البرتغالية العسكرية الأولى رغم ضراوتها من مقاومة عربية تصدت لها بكل قوة ، وعندما توجه البوكيرك إلى مسقط وجدها معززة بالرجال وجاء وفد

من قبل شيخ الجبور ناشده بعدم التعرض للمدينة ، ويبدو أن هذه المفاوضات لم تكن إلا مراوغة من شيوخ الجبور ولذلك بادر البرتغاليون عندما لاحظوا سكان مسقط يستعدون فى الخفاء لتنظيم صفوفهم باشعال النار فى المنازل والمساجد والسفن الراسية فى الميناء ، ولم يطلقوا سراح الأسرى سوى بعض الشيوخ والنساء بعد أن جدعوا أنوفهم وآذانهم .

بعدها اتجه الأسطول البرتغالى إلى صحار ثم إلى خورفكان وبما أن سكانها هبوا لمقاومتهم فانهم قاموا بتدميرها وحرقها بعد نهبها وقطع آذان وأنوف الأسرى . ثم اتجه الأسطول البرتغالى إلى «هرمز» التى تصدت بكل بسالة وبعد قتال مرير أجرى الطرفان المفاوضات وأعلن ملك هرمز ولاءه للبرتغاليين. وتضمنت نصوص المعاهدة أن يدفع ملك هرمز للبرتغاليين جزية سنوية قدرت بخمسة عشر ألف «زرافين» ومن ثم قام البرتغاليون بفرض سيادتهم بطريقة تعسفية وأمروا بمنع أية سفينة من ممارسة الملاحة فى الخليج العربى قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية . وبذلك كتب البرتغاليون السطر الأول فى استعمار شعوب الشرق ، وبعد استيلاء البوكيرك على قلعة هرمز بدأ يستعد فى بناء حصن كبير عرف فيما بعد بحصن «النصر» وكان ذلك الحصن هو الأول فى سلسلة كبيرة من القلاع الحصون العسكرية التى شيدها الاستعمار البرتغالى على سواحل الخليج العربى والمحيط الهندى . ومن ذلك الحصن سوف ترتكز سيطرة البرتغاليين على الخليج العربى طيلة فترة استعمارهم التى استمرت ما يقرب من قرن من الزمان وأصدر البوكيرك أوامره المشددة بأن يتم بيع السلع البرتغالية بأسعار رخيصة بهدف كسب الأسواق التجارية لصالح البرتغال [١١].

وأرسل شاه إيران اسماعيل الصفوى فى عام ١٥١٥ مندوبًا إلى جزيرة هرمز لتهنئته القائد الصليبى البرتغالى البوكيرك لاحتلاله مملكة هرمز العربية بدلاً من مواجهته طالبًا منه المساعدة لاحتلال البحرين والاحساء وقمع الثورة التى نشبت من قبل الشعب البلوشى فى منطقة مكران الذين ذاقوا الويل من تعصبه الفارسى ضد القومية البلوشية ، وفيما يلى شروط تلك الإتفاقية.

(أ) على البرتغاليين أن يوفروا سفنًا ودعمًا من الأسطول البرتغالى لشاه إيران اسماعيل الصفوى لاحتلال البحرين والإحساء .

(ب) أن يقدم البرتغاليون المساعدات العسكرية لاخماد ثورة «مكران» ، ومنع القومية البلوشية من الاستقلال .

(جـ) على البرتغاليين الدخول فى تحالف مع شاه إيران ضد العثمانيين .

وبذلك عزز القائد البرتغالى البوكيرك احتلاله لهرمز بعد الاعتراف الفارسى له وعين ابن أخيه «بيرو» نائبًا له واستخذى له شاه إيران فى مقابل وعود بأن يناصروه على العرب والعثمانيين الذين تقدموا فى شمال إيران ولكن البرتغاليين لم يساعده بل قلبوا له ظهر المجن فى هرمز واكتفوا بوعود بالمساعدة ضد العثمانيين فى الوقت الذى كان البرتغاليون أنفسهم يحلمون فى انتزاع بعض الأقاليم العربية فى الخليج من الجبور كالبحرين والإحساء ، وفى الوقت نفسه استطاع شاه إيران اسماعيل الصفوى النجاة بأعجوبة بعد هزيمته أمام السلطان سليم فى معركة «جالديران» (١٢).

تم تعيين سواريز بعد وفاة البوكيرك فى منصب نائب الملك فى الهند ، واتبع هذا الحاكم الجديد سياسة تختلف تمامًا عن سلفه والتى أثرت فى تطور الأحداث السياسية والاقتصادية فى الخليج العربى واستهدفت انعاش التجارة البرتغالية سلميًا دون اللجوء إلى التنكيل والبطش . وتم تعيين الضباط لتحصيل الضرائب وبذلك انغمسوا فى التجارة بل وتحول القادة العسكريون إلى تجار مما أفسح المجال للنشاط التجارى التقليدى فى الخليج العربى ولكن بشرط أن يتم تحت الإشراف البرتغالى لفائدتهم وحققوا العديد من المكاسب واستفادوا من أساليب تجارة المضاربة التقليدية . وبدأت كميات كبيرة من البضائع تتدفق إلى المنطقة ، ورغم ذلك لم تخفف الأضرار التي كان يعانى منها التجار العرب لعبء الضرائب الكبيرة التى فرضت عليهم .

بذلك لم ينظر عرب الخليج إلى السياسة الجديدة على أنها كانت تستهدف تخفيف السيطرة الاحتكارية وإنما نظروا إليها باعتبارها زيادة فى التحكم والسيطرة البرتغالية ولم تلبث أن استعرت الكراهية فى نفوس عرب الخليج ، بسبب التعسف فى فرض الضرائب والتسلط العسكرى البرتغالى الذى لم يقتصر على هرمز وإنما امتد إلى غيرها من موانىء المنطقة وخاصة عندما اتجه البرتغاليون بحكم حمايتهم لهرمز وتصرفاتهم فى شؤونها إلى السيطرة من خلالها على البحرين والإحساء وغيرها من المناطق التى كانت تابعة لمملكة هرمز العربية وباسم ملكها خاض البرتغاليون صراعًا عنيفًا ضد الجبور . ومن المحتمل أن ملوك هرمز اضطروا إلى هذا الصراع بعد أن ألزمهم البرتغاليون بدفع ضرائب سنوية كبيرة لم يكن فى طاقتهم دفعها إلا بالسيطرة على البحرين والمناطق الأخرى التى كانت تابعة لهم . وبذلك توحدت مصالح الطرفين واستهدف هذا التحالف استعادة ممتلكات هرمز وتعرضت البحرين

لهجوم برتغالى - هرمزى مشترك فى عام ١٥٢٠ أثناء تغيب السلطان مقرن بن زامل الجبورى لتأدية الحج وتولى المقاومة نائبه الشيخ حميد . وعندما عاد السلطان مقرن بن زامل قام بتجميع قواته وتعزيز استحكاماته فى البحرين والإحساء فى الوقت الذى عاود فيه البرتغاليون والهرمزيون هجومهم الثانى فى يوليو ١٥٢١ بعد فشل الهجوم الأول ، وكانت القوات التى أعدها ملك هرمز تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل من العزب تحملهم مائتى سفينة ويقودهم وزير ملك هرمز الرئيس شرف الدين ، أما القوة البرتغالية فكانت تتكون من أربعمائة مقاتل تحملهم بضع سفن كبيرة الحجم مزودة بالمدافع الكبيرة . واستطاعت القوات المشتركة دخول البحرين ونزلوا على مقربة من المنامة ، ورغم البسالة التى قام بها السلطان مقرن بن زامل فى محاولته رد ذلك الهجوم الكاسح إلا أنه لم يلبث أن وقع أسيراً فى أيدى القوات البرتغالية الذين بادروا باعدامه ، ولاشك أن ذلك أدى إلى انهيار معنويات قواته التى انسحبت إلى الإحساء . وكان مقرن بن زامل أول حاكم فى الشرق العالم الإسلامى يلقى حتفه فى معركة ضد الاستعمار البرتغالى (١٣).

المقاومة العربية ضد الاستعمار البرتغالى :

ثار العرب فى ساحل عمان وعمان ضد الاحتلال البرتغالى عام ١٥١٩ ولكن البرتغاليين تمكنوا من إخماد هذه الثورة بعد أن حاصرت السفن البرتغالية الموانىء العربية على الرغم من أن التحالف الذى حدث بين البرتغاليين ومملكة هرمز . إلا أنه لم ينقض وقت يذكر حتى تبين للملك طوران سطوة البرتغاليين واستغلالهم لهرمز وأنهم لم يهدفوا من ذلك التحالف إلا التمهيد لسيطرتهم العسكرية والتجارية على المنطقة وتأكد له ذلك حينما بادر البرتغاليون بتعزيز استحكاماتهم العسكرية والسيطرة الكاملة على التجارة والملاحة فى جميع المناطق الخاضعة لسيادة ملك هرمز طوران الذى اخذ يترقب فرصة تسنح له ولعماله فى عمان والبحرين بهدف التحرر من السيطرة البرتغالية . وسرعان ما جاءته تلك الفرصة حين وصلته الأنباء بأن البرتغاليين يواجهون صعوبات فى الهند وأصبحوا مضطرين إلى سحب جزء كبير من قواتهم فى الخليج العربى لمواجهة مشاكلهم هناك ، ولذلك بادر الملك طوران باصدار أوامره السرية إلى كل الرؤساء التابعين له فى عمان والبحرين والإحساء لإعلان الثورة ضد البرتغاليين لمقتل أميرهم مقرن بن زامل (١٤)، وكان ملك هرمز يرمى من وراء تلك الثورة الإطاحة بالنفوذ البرتغالى .

من الأمور التى تبعث الاهتمام أكثر مما تثير الدهشة أن يتوصل عرب المنطقة فى ذلك الوقت المبكر إلى خطة محكمة لتوقيت الثورة ومهاجمة الحصون البرتغالية دفعة واحدة وحددوا ليلة ٣٠ نوفمبر ١٥٢١ ، وهو الأمر الذى أدى إلى إيقاع خسائر فادحة بالبرتغاليين بل كادت هذه الثورة تقضى على الوجود البرتغالى برمته خاصة حين ثار سكان البحرين وقتلوا قائد الحامية البرتغالية وعدداً كبيراً من جنودها . ومع ذلك فانه على الرغم من التقدم السريع الذى أحرزه الثوار إلا أن هذه الثورة فشلت فى تحقيق هدفها ، وقد يرجع ذلك إلى الخلافات التى كانت لاتزال قائمة بين شيوخ الجبور ومملكة هرمز وبين حاكم مسقط الذى كان أيضًا على خلاف مع هرمز . ومن ثم وجد البرتغاليون فى تلك الخلافات فرصة سانحة لاستغلالها برغم أنهم خسروا أرواحًا كثيرة لأن الهجوم الموحد كان مفاجأة لهم ، وقد بادر البرتغاليون بارسال حملة أخرى لاستعادة نفوذهم فى الخليج العربى وسرعان ما وصل أسطول برتغالى من الهند واتجه أولاً إلى صحار ودمرها تدميراً تامًا ثم تقدم إلى هرمز فاستعادها مرة أخرى وأبرمت معاهدة فى ٢٣ يوليو ١٥٢٣ والتى عرفت بمعاهدة «ميناب» مع شيخ هرمز الجديد(١٥) ، الملك «محمود» البالغ من العمر ١٣ عاما بعدما هرب الملك السابق طوران لفشله من الثورة وخوفا من انتقام البرتغاليين إلى جزيرة «قشم» .

أدى هذا الفشل إلى وضع نهاية للحكم الوطنى فى مملكة هرمز وأخذ البرتغاليون يحولون حمايتهم المقنعة إلى تسلط عسكرى سافر كما أخذوا يخضعون هرمز والمناطق التابعة لها إلى شتى أساليب الضغط والارهاب مما جعل سكانها يفرون إلى جزر وموانىء الخليج العربى الأخرى . ومع ذلك فان البرتغاليين لم يتمكنوا بأسلوبهم التعسفى أن يقضوا على الحركة التجارية فى الخليج العربى وبدأ الركود الاقتصادى يتضح فى هرمز وانتهت البقية الباقية من عمرانها الحضارى وازدهارها الذى عاشته من قبل ، وعلى الرغم من التعاظم الذى وصلت إليه السيطرة البرتغالية فى أعقاب معاهدة ميناب ١٥٢٣ إلا أن عرب الخليج لم يستسلموا تمامًا للبرتغاليين وقامت الكثير من حركات المقاومة العربية ضد الاستعمار البرتغالى فى كل من عمان والبحرين ، ففى عام ١٥٢٦ ثار سكان مسقط وقلهات ضد البرتغاليين لكثرة عمليات الابتزاز فى تحصيل الضرائب التى كان يقوم بها قائد الحماية البرتغالية فى مسقط ولكن نائب ملك البرتغال فى السند قصد هرمز على رأس اسطول كبير فى عام ١٥٢٨ وتمكن من اخضاع ثورة مسقط ثم أمر نائب ملك البرتغال بترحيل المعارضين للحكم البرتغالى من عمان وهرمز .

تخلص نائب ملك البرتغال أيضًا من الوزير شرف الدين الذى كان يسير أمور هرمز باعتبار محمود ملك هرمز صغير السن بشكل معادى للمصالح البرتغالية وذلك بنفيه إلى لشبونه عام ١٥٢٩ . وكانت البحرين قد نجحت فى تحرير الجزيرة من الاستعمار البرتغالى والانفصال عن مملكة هرمز بعدما قضت على الحامية البرتغالية فيها كما فشلت محاولات البرتغال فى استعادة البحرين ومما زاد فى انتشار الثورات والاضطرابات ضد الاحتلال البرتغالى فى الخليج العربى تدخلهم فى الخلافات الداخلية واشعال الفتن ومساعدة بعضهم ضد الآخر لخدمة المصالح البرتغالية . ومن مملكة هرمز حاول البرتغاليون فى عام ١٥٢٩ مد نفوذهم إلى البصرة فاغتنموا طلب «راشد بن مغامس» شيخ البصرة المساعدة البرتغالية ضد شيخ عربستان وبعد أن قدم البرتغاليون مساعدتهم إلى راشد بن مغامس نشب نزاع بين الجانبين لرفض راشد التنازل للبرتغاليين عن بعض حصون البصرة ومقاطعة التجارة العثمانية وتسليم بعض السفن العثمانية الموجودة فى ميناء البصرة ، وانتقم البرتغاليون بقصف بعض الأماكن التابعة لهم(١٦).

بعدما نجح سكان البحرين فى ثورتهم وامتنعوا عن دفع الضرائب المقررة عليهم وفشل قائد الحامية البرتغالية فى البحرين فى قمع تلك الحركة مما أجبره على سرعة الانسحاب إلى القاعدة الرئيسية فى هرمز ولكن البرتغاليون عادوا وفرضوا احتلالهم على البحرين بفضل الامدادات التى جاءتهم من الهند. ونتيجة لتلك الحركة التى قام بها سكان البحرين خلع حاكمها من أسرة الجبور وتم اخضاع البحرين للحكم البرتغالى المباشر. وبرغم ذلك لم تستقر الأمور وتوالت حركات المقاومة العربية التى قام بها سكان البحرين ضد الاحتلال البرتغالى وما اتسم به من تعسف فى فرض الضرائب حتى أن السنوات الفعلية التى مارس فيها البرتغاليون سيطرتهم على البحرين لم تتعد أكثر من أربعين عامًا من تلك الفترة .

يمكن القول بأن الجبور كانوا هم القوة العربية التى تحدت وقاومت الاحتلال البرتغالى فى عنفوان قوتها ويؤكد ذلك أن كثيراً من المصادر البرتغالية قد اعترفت بقوة الجبور وتحديهم للنفوذ البرتغالى كما يتضح ذلك من تعليقات الفونسو دى البوكيرك ومن كتابات المؤرخ والرحالة البرتغالى فاريا سوسا؛ إذ يؤكد لنا البوكيرك أنه عندما حاصر ميناء صحار وصلت إلى الميناء نجدات عربية كانت تتألف من عشرة آلاف مقاتل بزعامة شيخ من شيوخ الجبور. وحينما حاصر البرتغاليون مسقط فى عام ١٥٠٧ سارع زعماء الجبور إلى نجدة المدينة وأكدت

كثير من التقارير البرتغالية أن مقاطعات «الجبور» كانت تمتد امتداداً كبيراً على طول سواحل الخليج وأن أبناء السلطان أجود - الذى حكم خلال فترة من ١٤٧١ إلى ١٧٩٦ أى قبل وصول البرتغاليين إلى الخليج العربى بعدة سنوات - كانوا يتقاسمون السلطة السياسية فيما بينهم وكان أكبرهم يقيم فى عمان ويدين له أخواه الآخرين بالولاء ، وقد اشتهرمن بينهم محمد بن أجود الذى كان يحكم البحرين والإحساء (١٧)، وكان من الطبيعى أن تؤدى سيطرة البرتغاليين على هرمز منذ عام ١٥١٥ إلى مواجهات ضد الجبور وذلك بسبب الصراعات التى كانت قائمة بين ملوك هرمز وشيوخ الجبور وهذا ما جعل البرتغاليين يعمدون إلى مساندة ملوك هرمز للتخلص من نفوذ الجبور الذى وصل إلى درجة كبيرة من القوة والاتساع وعندما فشلوا فى ذلك قاموا بعدة جملات أدت فيما بعد إلى إنهاء حكم الجبور على البحرين وإخضاعها لحكم الاستعمار البرتغالى المباشر .

عندما استولى السلطان سليمان القانونى على بغداد فى عام ١٥٣٤ قدمت عليه الوفود من شيوخ القبائل العربية من البصرة وعربستان والاحساء والبحرين للترحيب به ولاعلان الولاء والطاعة للحكم العثمانى الجديد ومنح العثمانيون الرئيس مراد حاكم البحرين لقب سنجق بك ، وكان حكام البحرين الجدد الذين عينهم البرتغاليون بعد خلع أسرة الجبور التى قاومتهم قد اعتادوا على نقل ولائهم بين حكام هرمز وبين حكام الإحساء من الجبور وفقًا لمصالحهم السياسية والاقتصادية حتى تم اخضاعها لحكم هرمز مرة أخرى . وفى عام ١٥٤٣ بلغت عائدات ملك هرمز من الجمارك فى البحرين ٣٠٠,٠٠٠ «كروسادو» وعدة آلاف أخرى من «الاشرفيات» التى استحقت على هرمز كضرائب عليها .

عندما ثار سكان الإحساء فى عام ١٥٥٠م على ملك هرمز وطلبوا الحماية العثمانية حرص البرتغاليون ملك هرمز على إخضاع الإحساء أيضًا مما أدى إلى طرد العثمانيين منها ولم يبذل العمانيون جهداً حيويًا لاستعادة نفوذهم على البحرين التى عادت إلى سيطرة مملكة هرمز العربية الخاضعة للسيطرة البرتغالية حتى عام ١٥٥٩ عندما أرسلوا قواتهم لاستعادة نفوذهم على البحرين . وقد ضمت القوة العثمانية سفينتين وسبعين مركبًا شراعيًا و ١٢٠٠ من الإنكشارية ولذلك طلب حاكم البحرين الجديد الرئيس مراد النجدة من ملك هرمز، فتحرك أسطول برتغالى نحو البحرين ولكن العثمانيين استدرجوه إلى كمين وألحقوا به خسائر كبيرة بلغت نحو سبعين رجلاً ثم وصلت نجدات برتغالية أخرى من هرمز مما أدى إلى إرغام القوة العثمانية على الاستسلام للبرتغاليين وعودة البحرين لسيادة مملكة هرمز العربية (١٨)، الخاضعة للسيطرة البرتغالية .

ثار سكان البحرين من جديد ضد الاحتلال البرتغالى عام ١٦٠٢ وحاصر الثوار الحاميات البرتغالية وشرعت السفن العربية تتحرش بالأسطول البرتغالى ووجد البرتغاليون أنفسهم فى وضع لايستطيعون معه الصمود بوجه الثوار العرب فأرسلوا أسطولاً وقوات كبيرة من الهند وهرمز واستطاعت اعادة البحرين من جديد لحكم الهرمز واستمرت كذلك حتى جاء البعاربة وحرروا البحرين من الاستعمار البرتغالى وضموا البحرين إلى عمان .

خلاصة القول بأنه رغم التسلط العسكرى المتفوق للاستعمار البرتغالى وأعماله الارهابية من قتل وبطش إلا أن ذلك لم يقف حائلاً دون مواجهتهم بالكثير من حركات المقاومة التى تعرضوا لها من عرب الخليج وتعدد الحركات والثورات رغبة فى التخلص من نفوذهم وكسر احتكارهم التجارى تحقيقاً للمصالح الاقتصادية للتجار العرب فى المنطقة . كما لايمكننا فى نفس الوقت استبعاد الدافع الدينى الذى كان ظاهراً فى كثير من تلك الحركات ضد الصليبية البرتغالية وخاصة حينما بدأ العثمانيون يظهرون فى مياه الخليج باعتبارهم ذوى زعامة دينية إسلامية ، ورغم أن التقدم العثمانى جاء متأخرا بعض الشىء كما لم يكن عند العثمانيين المقدرة البحرية للقضاء على البرتغاليين إلا أنهم بذلوا جهوداً فى ذلك .

تم إرسال حملة سليمان باشا الخادم عام ١٥٣٧ على رأس أسطول من ثمانين سفينة لكنه لم يتمكن من منازلة البرتغاليين فى المياه الهندية بسبب نجاحهم فى تجميع قواهم وحشدها لملاقاته ومن ثم اتجه إلى منطقة الخليج العربى واستولى على مسقط وحاصر جزيرة هرمز ، وقد أشعل هذا ثورة القبائل العربية فى القطيف على البرتغاليين فأطاحوا بهم وأخرجوهم من قلاعهم لكى يسلموها للعثمانيين . غير أن البرتغاليين سرعان ما بعثوا بقواتهم التى تمكنت من استرداد القطيف مما دفع بالعثمانيين إلى الانتقام عندما سيروا حملة بحرية من ثلاثين سفينة و١٦ ألف مقاتل كان على رأسها «بيرى بك » فى يوليو ١٥٥٢ تمكنت من انزال أشد الضربات بالبرتغاليين كما تمكنت من اعادة الاستيلاء على مسقط بعد أن أوقعت بقائدها البرتغالى فى الأسر وشنت هجومها على جزيرة «قشم» وإن كانت قد عجزت عن إسقاط هرمز بسبب قدوم التعزيزات البحرية البرتغالية المرسلة من «غوا » فى الهند مما اضطر بيرى بك إلى التخلى عن قيادة الأسطول لخشيته من فقدان الغنائم التى حصل عليها ، ومن ثم استدعى إلى «الآستانة» حيث أعدم هناك فى أغسطس عام ١٥٥٣ لأنه جاوز التعليمات الصادرة إليه(١٩).

عهد السلطان العثمانى إلى مراد بك سنجق الإحساء بقيادة السفن المتبقية المتجمعة فى البصرة وأمره باعداد سفن أخرى لكى تنضم إليها فما أن انتهى من ذلك حتى تقدم بأسطوله عبر الخليج العربى نحو البحر الأحمر لمواجهة الأسطول البرتغالى المتجه نحو جدة . غير أن الأسطول البرتغالى اعترض سبيله بالقرب من جزيرة هنجام وألحق به الهزيمة فاضطرت السفن العثمانية المتبقية إلى التوجه نحو البصرة حيث كانت نواة لأسطول جديد عهد السلطان العثمانى بقيادته إلى سيدى على بن حسين الذى غادر البصرة فى يوليو عام ١٥٥٤ وتوجه إلى البحرين ورأس مسندم واصطدم بالأسطول البرتغالى عند مسقط فى أغسطس عام ١٥٥٤ . ونشبت معركة التحم فيها الجانبان بالأيدى وانتهت بهزيمة العثمانيين وفرار قائدهم إلى الهند خوفًا من السلطان ، ثم تجددت المعارك بين العثمانيين والبرتغاليين فى الخليج العربى عام ١٥٥٧ قرب مسقط . وعلى الرغم من انتصار البرتغاليين فى تلك المعارك فان العثمانيين سرعان ما عادوا إلى تحرشهم بالبرتغاليين وتمكنوا من فرض حصارهم على البحرين والاستيلاء على مسقط عام ١٥٨١ غير أنهم لم يقدر لهم بالبقاء فيها أو فى غيرها من مناطق الخليج العربى فتركوا أمر الخليج وشأنه لأبنائه ليقاوموا الاستعمار البرتغالى واكتفوا بالولاء الدينى الذى يكنه عرب الخليج للعثمانيين (٢٠) .

طرد البرتغاليين من هرمز :

عند وصول الأسطول البحرى لشركة الهند الشرقية البريطانية إلى ميناء «جاسك» على ساحل مكران فى بلوشستان فى مهمة تجارية عادية طلب قولى خان حاكم شيراز فى عام ١٦٢٢ من الوكيل التجارى لشركة الهند الشرقية البريطانية فى ميناء جاسك ومن أسطوله طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، وفى حالة رفض طلبه فان ذلك قد يؤدى إلى إلغاء الامتيازات الاحتكارية للشركة البريطانية التى وجد ممثلوها أنفسهم فى ورطة حقيقية لعدم وجود رغبة لمحاربة البرتغاليين الأوربيين المسيحيين من جانب ، ومن جانب آخر عدم وجود رغبة فى فقدان مصالحهم التجارية الاحتكارية الرابحة فى إيران ففضلوا الأخير ولكنهم حددوا شروطًا معينة مقابل طرد البرتغاليين من مملكة هرمز العربية وتسليمها لإيران ، مما يعنى إحلال النفوذ البريطانى محل النفوذ البرتغالى فى هرمز وبالتالى فى الاحتكارات التجارية البريطانية وإطلاق يدها فى إيران وفيما يلى تلك الشروط (٢١) :

١- تقسيم غنائم هرمز بالتساوى بينهم وبين إيران .

٢- تقسيم الرسوم الجمركية العائدة من مرور التجارة فى هرمز بين الجانبين مستقبلاً .

٣- تسليم هرمز لإيران وأن يقوم البريطانيون بتجارتهم فيها بدون رسوم جمركية إلى الأبد.

٤- أن يختص البريطانيون بالأسرى المسيحيين وأن يختص الإيرانيون بالمسلمين والعرب .

٥- أن يؤؤل الحصن الموجود فى هرمز بكل ما فيه من أسلحة وذخائر وعتاد إلى البريطانيين ويسمح باقامة قلعة خاصة بهم .

٦- أن تعفى التجارة البريطانية من الضرائب فى الموانىء الإيرانية القريبة من هرمز .

لم تصادف القوات البريطانية وجنود الإيرانيين مقاومة كبيرة من جانب البرتغاليين فقد بدأت القوات بمهاجمة الحصن البرتغالى فى جزيرة «قشم» المجاورة لهرمز والذى كان مقامًا لتأمين موارد المياه فى هرمز . وعلى أثر ذلك سلمت حامية هرمز فى يناير عام ١٦٢٢ ولم يكتف شاه إيران بتسلمه لجزيرة هرمز العربية وإنما تطلع بعد ذلك إلى العبور نحو الشاطىء الغربى للخليج العربى إلى ساحل عمان (الإمارات العربية حاليًا) ، ولكنه لم يوفق إلا باحتلال خورفكان وصحار مدة قصيرة . ولم يلبث البرتغاليون أن تمكنوا من طرد الإيرانيين وإعادة احتلالهم لخورفكان وصحار فى حين نجح الإيرانيون فى احتلال رأس الخيمة فى ساحل عمان (دولة الإمارات حاليًا) وتقاسموا مدينة رأس الخيمة مع البرتغاليين) . وأقام الإيرانيون حصنًا مقابل الحصن البرتغالى . لقد كان سقوط هرمز ضربة للنفوذ البرتغالى فى الخليج العربى ولكنه لم يضع حداً نهائيًا لهم وقد ظل الإيرانيون عاجزين عن تخليص السواحل الشرقية من جميع الحصون البرتغالية وبقى أحدها قائمًا فى مدينة كنج فى جنوب إيران حتى نهاية القرن السابع عشر تقريبًا حتى قيض لعرب عمان أن يتموا المرحلة النهائية فى تحرير منطقة الخليج العربى [٢٢] من الاستعمار البرتغالى وفلوله المتبقية .

تحرير المدن العمانية من الاستعمار البرتغالى :

قامت دولة البعارية فى عمان الداخلية بعد خسارة البرتغاليين هرمز وتعزيز دفاعاتهم واستحكاماتهم الحصينة فى المدن الساحلية فى عمان عام ١٦٢٤، ولما كانت التركة التى ورثتها دولة اليعارية مثقلة بالفوضى والتجزئة والانقسام لضعف السلطة المركزية فى عهد

دولة «بنى نبهان» ، فقد انصرفت جهود مؤسس دولة اليعاربة الامام ناصر بن مرشد ١٦٢٤- ١٦٤٩ إلى توحيد القبائل العربية وتوطيد الأمن وتثبيت الاستقرار فى عمان الداخل والساحل ، وبعد أن نجح فى تحقيق ذلك أخذ يشن سلسلة من الهجمات ضد البرتغاليين فى المدن العمانية .

هاجم الإمام ناصر بن مرشد مسقط عام ١٦٤٠ ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها . غير أن ذلك الهجوم كان مقدمة لهجمات أخرى أشد خطورة على الوجود العسكرى البرتغالى فى ساحل عمان (دولة الامارات حاليًا) ، وتمكنت القوات العثمانية من تحرير رأس الخيمة من الاحتلال الإيرانى والبرتغالى معًا ثم اتجهت إلى خورفكان واستطاعت تحريرها أيضًا ، وتمكنت القوات العمانية فى ٧ نوفمبر ١٦٤٧ من تحرير صحار وطرد الحامية البرتغالية منها ، وجاءت الضربة القوية التى أطاحت بالبرتغاليين فى الخليج العربى عام ١٦٤٨ ودامت المعركة ثلاثة أشهر استولت خلالها القوات العمانية على الدفاعات البرتغالية الخارجية وأرغمت الحامية التى أنهكها الجوع والمرض على طلب الصلح لأول مرة فى تاريخ الاستعمار البرتغالى فى المنطقة .

فرض اليعاربة شروطهم التى رفضتها القوات البرتغالية فى البداية ولكنها اضطرت فى ٣١ / أكتوبر ١٦٤٨ للموافقة عليها بعد سيطرة القوات العمانية على المرتفعات المحيطة بالقلعتين وتضمنت الشروط التى فرضها الامام ناصر بن مرشد على قائد القوات البرتغالية فى مسقط ، إضعاف السيادة البرتغالية فى الخليج العربى وحرمان قواتها فى مسقط من مواردها المالية كما بينت الاتفاقية أن السيطرة البرتغالية فى مسقط تسير نحو نهايتها المحتومة وما على العرب سوى حشد قوات أكبر والقيام بهجوم شامل على القوات البرتغالية فى مسقط ، ولذلك رفض ملك البرتغال الشروط السابقة واعتبرها إهانة شخصية له وإذلالاً لشرف بلاده وأمر باعلان الحرب مرة أخرى ضد العرب فى عمان .

تولى الامام سلطان بن سيف حكم دولة اليعاربة عام ١٦٤٩ بعد وفاة الامام ناصر بن مرشد وعقد الامام الجديد العزم على تحرير مسقط من البرتغاليين فقاد حملة عسكرية من «الرستاق» وقام بعدة هجمات على مسقط وفى الوقت المحدد أحاطت قوات اليعاربة بالقوات البرتغالية فى هجوم ليلى مفاجىء وتسلقت الأسوار واندفعت بأعداد كبيرة فى شوارع مسقط وأسواقها وقتلت كثيراً من البرتغاليين بعد أن اخترقت دفاعاتها ذات الحراسة المشددة وطردت

الجنود البرتغاليين من بوابتى المدينة وطاردتهم بعنف فى شوارعها واضطر قائد القوات البرتغالية لاصدار أمره بالانسحاب إلى القلعتين الحصينتين «الميرانى» و«الجلالى» التى بناها البرتغاليون وقاموا بترسيمها وبتقويتها فى عام ١٦٣٤ . وكانت قوية للغاية ، وبرغم ذلك استطاع الجنود العمانيون إرغام القوات البرتغالية فى القلعتين على الاستسلام فى ١٦٥٠/١/٢٣ وكانت أنباء حصار مسقط قد وصلت إلى الهند فى ١٦٥٠/١/١٨ فأمر نائب ملك البرتغال فى «غوا» بارسال أسطول لنجدتها ولكن بعد فوات الأوان ، وبتحرير مسقط خسر البرتغاليون آخر قلعة حصينة لهم فى منطقة الخليج العربى ، حاول نائب الملك البرتغالى فى «غوا» استعادتها مرة أخرى فأرسل إليها أسطولاً فى أوائل عام ١٦٥٢ ولكن قائده تهيب من مواجهة الأسطول العمانى العربى خوفًا من مدفعية قلعتى مسقط (٢٣).

شركات الهند الشرقية الأوروبية الرأسمالية

بدأت البرجوازية التجارية فى أوروبا الغربية والتى كانت النواة الأولى لنمو الرأسمالية بتأسيس شركات تجارية لكسر الاحتكار البرتغالى على تجارة الشرق التى كانت تدر أرباحًا طائلة ، وقد سبقتهم فى ذلك هولندا ثم بريطانيا وتعقبتهم فيما بعد فرنسا .

(أ) شركة الهند الشرقية الهولندية :

قرر التجار الهولنديون فى اجتماعهم فى امستردام عام ١٥٢٩ تأسيس شركة الهند الشرقية التى تم تنظيمها وفق مرسوم صدر فى ٢٠ / ٣ / ١٦٠٢ وأعطى مجلس الأمة الهولندى الشركة الجديدة احتكار التجارة الشرقية وسلطات السيادة الواسعة لعقد المعاهدات والمحالفات مع الدول والممالك فى المحيط وفوضها القيام باحتلال الأراضى وبناء الحصون والقلاع وإعداد الجيش وإعلان الحرب لتتمكن من منافسة الشركات والقوى الأوروبية فى الشرق وبذلك أصبحت شركة تجارية استعمارية .

احتلت شركة الهند الشرقية الهولندية «جاكرتا» فى ٣٠ / ٥ / ١٦١٩، ومن ثم توسعت وقامت بالاستيلاء على المراكز الاستراتيجية المهمة التى كانت للبرتغال فى المحيط الهندى وبذلك سبقوا البريطانيين فى الوصول إلى المراكز التجارية الرئيسية للسلع الاستراتيجية فى الشرق ، واستطاعت شركة الهند الشرقية الهولندية فى فترة قصيرة نقل التوابل والبهارات على نطاق واسع وحققت أرباحًا كثيرة . أما وكالتهم التجارية فى الساحل الغربى من الهند ، فقد تأسست فى مدينة سورات ثم مدوا نشاطهم إلى موانىء اليمن فى عام ١٦١٧ بهدف

التبادل التجارى معهم ، ثم حصلت شركة الهند الشرقية الهولندية على ترخيص من اليمنيين بالتجارة فى موانئهم ، وفى يوليو ١٦١٨ سمح لهم باقامة قنصلية فى «مخا» و «عدن» ومن ثم انتقلوا إلى الخليج العربى بعد سقوط هرمز من البرتغاليين .

(ب) شركة الهند الشرقية البريطانية :

قام التجار البريطانيون فى لندن بتأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية فى ١٥٩٩/٩/٢٢ وكان صدور المرسوم الملكى البريطانى بتأسيس شركة الهند الشرقية فى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ بداية الاستعمار البريطانى للهند والأقطار المجاورة لها عندما منح المرسوم شركة الهند الشرقية البريطانية حرية التجارة والاحتكار فى الهند والمناطق المجاورة لها . وقد وقعت منطقة الخليج العربى فى دائرة نفوذها الاحتكار حيث كانت ترنو بنظرها لاخضاعها لسيطرتها تأمينًا لوجودها الاستعمارى فى الهند ، وحظر المرسوم منح الامتيازات للآخرين فى المحيط الهندى إلا بموافقة مجلس الشركة البريطانية ، واستهدفت الشركة فى البداية الحصول على جزء من ثروات المنطقة وتوفير السلع الأساسية من التوابل والحرير والمنسوجات الشرقية للأسواق البريطانية من تجارة الشرق مباشرة

أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية فريقًا من الخبراء لدراسة الساحل الشرقى وقدمت تقريرها مقترحًا إقامة مقر للشركة فى ميناء «جاسك» الواقع على ساحل بلوشستان فى إقليم مكران ، وصفته بأنه أفضل مكان للتجارة البريطانية وعن طريقها يتم إرسال البضائع إلى المدن الإيرانية الداخلية . كما لاننسى أن البريطانيين نظروا إليها من الناحية الأمنية لوقوعها خارج الخليج العربى الذى يتحكم فيه البرتغاليون إضافة إلى سهولة رسو السفن لوقوعه إلى الشرق من هرمز

أصدر شاه إيران فرمانًا فى فبراير بتقديم المعونة لكل سفينة بريطانية تصل إليها وتعهد الشاه بنفسه بحسن معاملة رعايا البريطانيين مما يدل على حرص شاه إيران على كسب صداقة البريطانيين . وبعد تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية وكالتها فى ميناء جاسك البلوشى أقامت وكالة لها فى جمبرون (بندر عباس) فى عام ١٦٢٢ بعد سقوط هرمز وأخرى فى أصفهان وثالثة فى شيراز ، ثم توطدت علاقة الشركة الهندية البريطانية بالخليج العربى بعدما تمكنت من طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٢ وحققت مكاسب وامتيازات اقتصادية واسعة .

تنافس الشركات الأوروبية فى الخليج :

اعتمدت السياسة البرتغالية فى المنطقة على جمع الضرائب فى حين كان الهولنديون والبريطانيون يعتمدون فى سياستهم الاقتصادية لشركاتهم التجارية فى البداية على تهريب البضائع. وكان الفرق الأساسى الذى أدخله البرتغاليون على تجارة المنطقة هو أن التجار العرب أصبحوا يتعاملون مع ممثلى أو وكلاء دولة عسكرية استعمارية تفرض هيمنتها بالقوة، وأن الأسعار محددة بالاتفاقيات الرسمية بين الدول كما أن التجارة أصبحت مقننة بواسطة الحكومة البرتغالية دون أن تغير من واقع العلاقات الاقتصادية السياسية على المستوى المحلى .

إذا ما اعتبرنا سقوط هرمز ومسقط والبحرين تعبيراً عن الأزمة البنائية للاقتصاد التقليدى وتجارة المضاربة التى مارسها العرب ، فان شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية كانتا وسيلتين أدخلتا الخليج العربى فى النظام الاقتصادى الرأسمالى الناشىء الذى هيمنت عليه الأنظمة فى غرب ووسط أوروبا الصناعية الجديدة ، ولكن الاقتصاد التقليدى وتجارة المضاربة فى المنطقة لم تنهار مرة واحدة بل استمرت لفترة طويلة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وهذا راجع لعدة أسباب منها الصراع الأوروبى البرتغالى - الهولندى ثم الهولندى - البريطانى ثم البريطانى - الهولندى ثم البريطانى - الفرنسى قبل أن تنفرد بها بريطانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى لتفسح المجال أمام الولايات المتحدة وفرنسا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها اليابان وألمانيا .

لكن السؤال كيف تفوقت شركتا الهند الشرقية الهولندية والبريطانية على شركة الهند الشرقية البرتغالية ومن ورائها نظامها العسكرى الاستعمارى بأسطولها البحرى ؟

قد يرجع ذلك إلى عدة أسباب : منها التنسيق بين نشاطات الدول الأوروبية الغربية والتى كانت تجس نبض دول العالم الثالث عن طريق هيمنة شركاتها التجارية والرأسمالية قبل أن تتحول إلى دول استعمارية بعدما ازدادت فى التوسع الصناعى واحتياجاتها للمواد الأولية والسوق المستهلكة لتصريف إنتاجها وبذلك اتجهت لتستعمر شعوب العالم الثالث .

اعتمدت فى سياستها الأسلوب التجارى الاقتصادى ثم التغلغل السياسى والعسكرى ولازالت هذه السياسة تتبعها الدول الغربية الرأسمالية حتى يومنا هذا وإن اختلفت فى طريق أسلوبها الجديد بايجاد وكلاء ومستشارين تجاريين وعسكريين فى دول العالم الثالث تحت غطاء حرية التجارة والديمقراطية والشركات متعددة الجنسيات وحقوق الإنسان وغيرها من الشعارات الزائفة .

هناك ارتباط وعلاقة قوية ووثيقة بين شركات الهند الشرقية وحكوماتها الهولندية والبريطانية عن طريق التجار والوكلاء الذين كانوا بمثابة الرواد الأوائل للتجارة الرأسمالية التى بدأت تتغلغل فى بداياتها الأولى عن طريق الموانىء والمدن التجارية الساحلية حتى نهاية القرن التاسع عشر قبل أن تتغلغل إلى استعمار تلك الدول إنطلاقًا من هذه الموانىء والمدن التجارية الساحلية إلى مصادر المواد الأولية والأسواق التجارية وتكريس شعوب المستعمرات لخدمة اقتصادها الرأسمالى .

هذا ما كان يفتقر إليه البرتغاليون ، وكما أضعف نظامهم احتكار ملك البرتغال لتجارة السلع المربحة ، فلم يترك مجالاً للبرجوازية التى كانت أكثر نشاطًا فى النظام الهولندى الذى استطاع تأسيس الشركات الاحتكارية الذى كان يربط قواعد عريضة ومؤثرة فى الشعب والمجتمع الديمقراطى بحركة الاستعمار ، إضافة إلى عدم وجود نظام دقيق أو انضباط فى البحرية البرتغالية ، وتكرر حوادث التمرد والخلافات بين الضباط والبحارة ، أما السبب الذى أنهى التفوق البرتغالى فيرجع إلى ظهور قوتين بحريتين قويتين منافستين للبرتغاليين فى المحيط الهندى فى أوائل القرن السابع عشر؛ وهما الأسطولان اللذان يتبعان شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية اللتين أجهزتا على النظام البرتغالى إضافة إلى قوة الأسطول اليعربى العمانى الذى لم يكتف بطرد البرتغالين من عمان والخليج العربى وإنما استمر فى ملاحقته فى مستعمراته وأسطوله فى شرق افريقيا وتوجيه ضربات قوية فى القواعد البرتغالية الرئيسية في «غوا» نفسها فى الهند ، ولهذا لم يحاول الهولنديون والبريطانيون الاصطدام بالأسطول اليعربى العمانى وهما فى بداية دخولهما المنطقة .

تميز المنافسان الاستعماريان الهولندى والبريطانى بأنهما كانا أكثر إدراكًا للمصالح التجارية وقد استطاعا أن يحظيا بمكانة أفضل عند دول المنطقة كما سوف نلاحظ ذلك من خلال دراستنا لتنافس شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية فى الخليج العربى وخاصة فى إيران .

هناك سبب آخر هو أن سياسة الشركات الهند الأوروبية مثل الهولندية والبريطانية والفرنسية فى الفترة التى تلت إنهيار السيطرة البرتغالية لم تكن قائمة على سياسة الاحتكار التجارى العسكرى كما كانت عليها سياسة البرتغاليين ؛ وإنما طورت نفسها واتبعت مختلف الأساليب للتنافس التجارى وانصرفت تلك الشركات الأوروبية إلى تأسيس مراكز تجارية

لشركاتها وإقامة قواعد عسكرية قبل أن تنمو لها أنياب وتتحول فيما بعد إلى استعمار أشد فتكًا من البرتغاليين ولكن بطريقة حضارية جديدة تناسب النظام الرأسمالى الجديد باستغلال الشعوب ومقدراتهم الاستراتيجية وتكوين امبراطوريات . واستمرت كذلك حتى بعد استقلال تلك الشعوب .

بدأت شركات الهند الشرقية الأوروبية تنتهج سياسة تهدف إلى الحصول على الربح بطرق عقلانية وبكفاءة عالية فى توظيف رأس المال والموارد الاقتصادية والمادية لتوليد هذا الربح ولإحداث التراكم الرأسمالى من ناحية ثانية ، ولم تكن هذه الظاهرة حكراً على أوروبا بعد القرن الخامس عشر كما أن هذه الظاهرة عالمية قديمة لاترتبط بالرأسمالية أو تختص بها ، إذ أن تجارة المضاربة التى ازدهرت بل كانت عماد الثروة التجارية الاسلامية العربية الأولى بين القرنين الثامن والحادى عشر وخاصة تجارة «الحضارمة» فى المحيط الهندى بين الشرق افريقيا وجنوب شرق آسيا والبحر الأحمر قامت على أسس رأسمالية واضحة .

استطاعت بريطانيا أن تحسم الصراع الأوروبى الاقتصادى لصالحها بعد أن هيمنت عليها الأرستقراطية التقليدية ولم يشكل التجار أى ثقل أو البيروقراطية العسكرية التى كانت تتولى اتخاذ القرارات ، ولكن المزاوجة الرأسمالية فى الظروف التاريخية للقرن السابع عشر كان لها أثر بالغ فى استيعابها للعالمين القديم والجديد . ولهذا فان الأساطيل التجارية لشركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية كانت تتمتع بحماية كاملة من الأساطيل الحربية التى كانت تمولها والتى حققت نجاحًا بهزيمة البرتغاليين على الطرق التجارية البحرية فى المنطقة وكانت من نتيجتها سقوط هرمز وملقا . واتبعت شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية فى البداية نفس السياسة التجارية التقليدية أى تجارة المضاربة مع الوكلاء التابعين لهما وكانتا قادرتين على أن تستدخلا تكاليف الحماية بسعر الكلفة بتمويل الأساطيل الحربية عن طريق طرف ثالث كسلطان أو شيخ أو ملك ، كما كان يفعل البرتغاليون أيضًا فى الوقت الذى كان فيه تاجر المضاربة مضطراً إلى أن يدفع تكاليف الحماية فى شكل ضرائب فى كل ميناء ومحطة حسب تقلبات الأوضاع وجشع الحكام. ولم يكن البرتغاليون يقومون بالتجارة بأنفسهم وإنما كانوا يكتفون بشحن البضائع إلى لشبونه على السفن عن طريق شركات حكومية وتحصيل الضرائب والرسوم من الموانىء التجارية(٢٤).

لم تكتف شركات الهند الشرقية الهولندية والبريطانية من استدخال تكاليف أتاوات الحماية فى ظل السفن الحربية الحاملة للمدافع وإنما استطاعت أيضًا بتركيبتهما المؤسسية الخاصة وبتوظيف الوكلاء على نطاق عالمى ، وهو هدف لم يستطع أحد تحقيقه فى تجارة المضاربة التقليدية . وقد تم هذا بتكوين الأصول على المدى البعد وليس عن طريق الربح السريع المباشر وتحقيق التحكم الاحتكارى بالسلع الاستراتيجية بتكوين الأصول فى التجارة العالمية تعبران عن سياسة جديدة فى التجارة مما أدى إلى التحول الاقتصادى لصالح غرب أوروبا بشكل نهائى مع التفوق العسكرى الهولندى أولاً ثم البريطانى والفرنسى ثانيًا ، ونتج عنه انتقال مركز الثقل الاقتصادى التقليدى من موانىء الشرق بما فيها موانىء البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى (٢٥)، الذى أصبح مركز الثقل الاقتصادى فى التجارة العالمية فى القرن الثامن عشر ومع ظهور تفوق الولايات المتحدة فيما بعد أصبح هذا الثقل إلى يومنا هذا يمثل مركز التجارة العالمية للرأسمالية إضافة إلى اليابان .

تختلف السلع الاستراتيجية بما تدره من الأرباح وبمقدار الكمية المتداولة فى الأسواق العالمية وبدرجة تأثرها بالنشاطات الاحتكارية لشركات الهند الشرقية الهولندية والبريطانية؛ فالحرير الصينى تأثر بدرجة أقل من البهارات وبخاصة بعد دخول الحرير السورى مجال التبادل العالمى فى نهاية القرن الثامن عشر وأصبح البريطانيون والفرنسيون التجار الذين سيطروا على شراء الحرير السورى ، وقد تأثرت الحركة التجارية فى المنطقة بهذه النشاطات الاحتكارية فى حين بقيت تجارة المضاربة التقليدية ضيئلة فى الوقت الذى حققت الشركات الأوروبية مكاسب كبيرة واستطاعت فى النهاية الحصول على نصيب الأسد من عمليات البيع والشراء فى السلع الاستراتيجية مما أثر ذلك سلبًا على مجتمعات المنطقة وهذا ما يؤدى فيما بعد إلى شن بعض الهجمات وظهور المقاومة العربية ضد الهيمنة الأوروبية إلى أن تستطيع بريطانيا فى النهاية السيطرة السياسية والعسكرية وتبدأ مرحلة الاستعمار البريطانى للخليج العربى .

وتأثرت تجارة السلع عالية السعر مثل البهارات والتوابل بدرجة أكبر من جراء نشاط شركات الهند الشرقية الأوروبية الاحتكارية وذلك فى الفترة المبكرة فى النصف الأول من القرن السابع عشر عندما سيطرت الشركات الأووبية على تجارة المنطقة التى كان العرب يقومون بتجارتها من الصين والهند والسند إلى الخليج العربى والبحر والأحمر ومن ثم توزع

إلى أوروبا عن طريق موانىء سوريا ومصر ، ولكنها أصبحت تحت سيطرة الشركات الأوروبية التى تنقل إلى غرب أوروبا مباشرة بدون العرب ، ومن هناك توزع إلى مختلف الدول الأوروبية والبضائع التى لا يحتاجونها يأتون بها إلى الآستانة وبقية المدن العربية والاسلامية الأخرى ويبيعونها بخمسة أضعاف سعرها ويحققون أرباحًا من ورائها ويجنون الكثير من المال مما أصبح معه الذهب والفضة نادراً في الدول الاسلامية وبدأ يتجه ويصب فى غرب أوروبا (٢٦).

استطاعت هذه الشركات أن تفرض احتكارها على الشرق بشكل تزامن مع ضياع سيطرة العرب على تجارة المحيط الهندى وشرق المتوسط ، وهذا التحول الشبه الفجائى فى انقلاب الموازين التجارية لصالح شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية أدى إلى خسارة اقتصادية كبيرة للموانىء التجارية فى المنطقة ومن ثم لاقتصاد تجارة المضاربة التقليدية التى بدأت تختفى، وهذا ما أدى إلى سيطرة هولندا وبريطانيا ومن ثم فرنسا التى ستلحق بهما بالاحتلال العسكرى وتستعمر مناطق التجارة الرئيسية فى المحيط الهندى حيث مصادر السلع التى كان تجار المضاربة العرب الوسطاء الرئيسيين لها .

بذلك يمكن القول بأن مجىء شركات الهند الشرقية الأوروبية إلى المنطقة كانت سلمية برغم مرافقة أساطيلها الحربية لحماية تجارتها ، ولكن عندما اكتشفت تلك الشركات ومن ورائها حكوماتها الأوروبية دول الشرق فى المحيط الهندى والتى لديها إمكانيات اقتصادية وثروات هائلة ومواد خام غنية ولكن ليس لديها قوة عسكرية تحمى تلك المقدرات فبدأت تسيطر عليها عسكريًا وتحكمها استعماريًا . وبعد استقلال تلك الدول فانها بدأت تحكمها بطريقة أخرى سياسية واقتصادية وعن طريق الإقراض المالى والبنوك بدلاً من الحكم العسكرى المباشر الذى كلفها الكثير إضافة إلى تحسين سمعتها القبيحة . واليوم نجد هذا النوع من الاستعمار الاقتصادى السياسى الذى يتحكم فى مصير الشعوب العربية والنامية حيث الثروات الكبيرة مع الضعف الشديد فى القدرة الدفاعية لهذه الثرات الهائلة مما جعل الدول الرأسمالية وعلى رأسها الولايات المتحدة تتحكم كيفما شاءت حاليًا .

نظرًا لتلك الحالة فى بداية القرن السابع عشر فان الموازين السياسية والعسكرية اتخذت منعطفًا آخر قبل أن تستقر وتشتد القبضة الاستعمارية على شعوب المنطقة نتيجة للصراع الأوروبى الذى أعقب خروج البرتغال ، فقد استقر الهولنديون فى مدينة جميرون (بندر عباس) قبل البريطانيين الذين الذين كانوا فى جاسك ومن ثم هرمز ، ولذلك كان وضع شركة

الهند الشرقية الهولندية أفضل من شركة الهند الشرقية البريطانية لتحكمهم فى تجارة الخليج العربى بعدما ورثت جميرون مملكة هرمز ، لذلك حدث صراع وتنافس بينهما .

التنافس الأنكلو - هولندى فى الخليج العربى

قدم شاه إيران امتيازات كبيرة لشركة الهند الشرقية البريطانية مقابل توسيع نطاق حكمه وتوسيع حدود مملكته إلى بلوشستان فى إقليم مكران واخضاع القومية البلوشية لحكمه ، كما كان قد فعل الشىء نفسه مع البرتغاليين وتعاون معهم ولم يحاول حكام إيران تحرير هرمز من الاستعمار البرتغالى وإنما تم استبدال الحكم العسكرى البرتغالى بالهيمنة الاقتصادية للشركات الاحتكارية الرأسمالية البريطانية والهولندية .

فقد طلب شاه إيران المساعدة من البرتغاليين لتوسيع مملكته تجاه بلوشستان مقابل الاعتراف الإيرانى بالاحتلال البرتغالى لمملكة هرمز العربية ، ولكن البلوش كانوا أقوياء استطاعوا صد الهجمات الإيرانية ونجحوا فى إبعادهم عن بلادهم برغم المساعدات البرتغالية، وهنا نجد شاه إيران يعيد الماضى من جديد ويعرض على البريطانيين امتيازات اقتصادية واغراء وتنازلات كثيرة مقابل إخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز التى تحكمها أسرة عربية لضمها إلى مملكته ومد السيطرة الايرانية إلى بلوشستان فى مكران وإنشاء مدينة جديدة فيها فى جمبيرون وتسميتها باسمه «بندر عباس» .

لأجل تحقيق تلك الأهداف منح شاه عباس الأول شركة الهند البريطانية الامتيازات والتسهيلات التجارية فى ميناء جاسك فى بلوشستان بساحل مكران مقابل تحرير هرمز من البرتغاليين ، كما حاول شاه إيران الاستفادة من البريطانيين لمحاربة الدولة العثمانية كما فعل مع البرتغاليين الذين استفادوا منه ولم يقدموا له سوى الوعود ، وهكذا فعل البريطانيون الذين أخضعوا معظم الموانىء والمدن الإيرانية لاحتكاراتهم التجارية وأصدر شاه إيران فرمان فى أغسطس ١٦١٧ منح بموجبه امتيازات واسعة لشركة الهند الشرقية [٢٧].

يرجع اهتمام شركة الهند الشرقية الهولندية بالخليج العربى بعد فشلها فى احتكار التجارة فى الموانىء العربية بجنوب الجزيرة العربية فى حضرموت واليمن وصعوبة الملاحة فى البحر الأحمر للسفن المسيحية باختلاف جنسياتها بعدما حولها العثمانيون إلى بحيرة اسلامية خوفًا على الأماكن المقدسة بعد التهديد المسيحى البرتغالى .

لهذا فان الهولنديين اتجهوا إلى الخليج العربى لأن مصلحتهم كانت مرتبطة مع شركة الهند الشرقية البريطانية بمقاومة البرتغاليين وإضعاف نفوذهم ولذا فانهم قدموا للبريطانيين مساعدات عسكرية وقاموا بتسليح السفن البريطانية بموجب اتفاق عام ١٦١٩ مما كان له دوراً كبيراً فى طرد البريطانيين للبرتغاليين من هرمز عام ١٦١٩ وهذا ما دفعهم لأن يتجهوا إلى الخليج العربى وبعثوا «هاربرت فينش» ممثلاً عن الشركة الهولندية إلى أصفهان حيث وجد استقبالاً حاراً وحفاوة بالغة من قبل شاه إيران الذى كان يرحب بأية قوة مسيحية تقدم له المساعدةِ ضد الدولة العثمانية والعرب فى الخليج وخاصة ضد العمانيين والبحرين .

حصل الهولنديون على امتيازات كبيرة عندما منح شاه إيران فرمانًا شمل امتيازات واسعة رغم معارضة كثير من المسؤولين الإيرانيين والبريطانيين ، ويتكون الفرمان الإيرانى من ثلاثة وعشرين بنداً يحتوى على تسهيلات تجارية لشركة الهند الشرقية الهولندية فى البيع والشراء فى جميع أنحاء إيران دون أن يلتزموا بشراء نوع معين من المنتوجات الإيرانية ولايلزمهم الفرمان بدفع العوائد الجمركية نقداً ، ويحق لهم استخدام أوزانهم عند البيع والشراء ، وإعطاء شركة الهند الهولندية مطلق الحرية فى وكالاتها التجارية ولايجوز لأحد من الإيرانيين الذهاب إلى إحدى هذه الوكالات إلا باذن مسبق من رئيسها ، وأعطى الحق للشركة الهولندية باستخدام القوة إذا دعت الضرورة كما تعهد شاه إيران شخصيًا بدفع كل الخسائر التى قد تلحق بهم نتيجة السرقة والسطو على وكالاتهم فى جمبرون «بندر عباس» وسمح لهم الفرمان الإيرانى بممارسة شعائرهم الدينية وإقامة الكنائس والأديرة وحيازة الأسلحة وشراء العبيد وعدم ارتباطهم بالمحاكم المحلية . كما طلب الشاه من رعاياه تقديم كافة التسهيلات للشركة الهولندية من توفير القوافل والمأكل والمشرب إذا ما دعت الضرورة لذلك. ومما جاء فى الفرمان الإيرانى بأنه إذا ما اعتنق أحد الهولنديين ديانة الاسلام للشركة الحق فى نفيه خارج إيران ومصادرة أمواله . ثم أعفى شركة الهند الشرقية الهولندية من الضرائب الجمركية المستحقة عليها إبتداء من عام ١٦٢٣ (٢٨).

سلم شاه إيران لرئيس وفد شركة الهند الشرقية الهولندية رسالة إلى رئيس الحكومة وذكر فيها ترحيبه العميق بقدوم الشركة الهولندية إلى بلاده ثم أوضح فيها أن للشركة الحق فى البيع والشراء فى جميع أنحاء إيران بدون استثناء والسماح لهم بانشاء وكالة تجارية فى جمبرون «بندر عباس» .

استهدف شاه إيران من موافقته على جميع مطالب شركة الهند الشرقية الهولندية (التى فاقت جميع التوقعات رغم معارضة رجال البلاط المقربين له) الحصول على الدعم العسكرى الهولندى لأجل التوسع تجاه العراق العثمانى من جهة الغرب وتجاه العرب فى الجنوب وخاصة عمان ، بعدما رفض ذلك البريطانيون والهولنديون ولم يستجيبوا لطموحات شاه إيران التوسعية تجاه العراق وعمان ، إذ لم يكن فى نيتهم الدخول فى المعارك العسكرية بجانب شاه إيران ضد أية قوة ، وكان هدف الهولنديين إحتكار تجارة إيران وخاصة الحرير وضرب المصالح التجارية البريطانية فيها .

ظهرت الخلافات بين حلفاء الأمس ؛ أى الهولنديين والبريطانيين بشكل واضح منذ عام ١٦٢٣ بعدما حصلت شركة الهند الشرقية الهولندية على الامتيازات الإيرانية السخية وزادت هذه الخلافات بعد إنشاء الوكالة التجارية الهولندية إلى جانب البريطانيين ، وعمل الهولنديون على إساءة سمعة البريطانيين لدى الإيرانيين . واتبعوا فى سبيل ذلك مختلف الوسائل الممكنة ، مما أدى ذلك إلى قلة العائدات التجارية لشركة الهند الشرقية البريطانية فى «بندر عباس» ، وخاصة بعدما أصبح الهولنديون يدفعون أسعاراً عالية لشراء الحرير لحرمان البريطانيين الذين كانوا يرفضون شرائها بسبب ارتفاع أثمانها وقام الهولنديون بشرائها وبذلك كسبوا تجار الإيرانيين إلى جانبهم .

مرت وكالة شركة الهند الشرقية البريطانية بظروف صعبة فى «أصفهان» منذ عام ١٦٢٤ حتى توقفت عن العمل ، واستلمت خطاباً من الملك جيمس الأول يأمر وكيلها باغلاقها إذا لم يستطع الحصول على امتيازات كبيرة فى إيران ، مما اضطر شاه إيران إلى منحهم امتيازات جديدة إلا أنها كانت مؤقتة . فى حين توقفت الوكالة البريطانية عن العمل فى «بندر عباس» كادت أن تغلق أبوابها للخسائر التى لحقتها ، وبرغم التعاون الوثيق الذى حدث بين شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية فى عام ١٦٢٥ لصد هجمات البرتغاليين على بندر عباس إلا أن ذلك لم يمنع الهولنديين من العودة من جديد إلى مضايقة البريطانيين وخلال فترة قصيرة أصبحت شركة الهند الشرقية الهولندية مسيطرة على الوضع التجارى وحصلوا على أرباح وفوائد أكثر من البريطانيين ، وبذلك بدأ التنافس العنيف بينهما وهو مبدأ الرأسمالية التى لا ترحم .

أخذت شركة الهند الشرقية الهولندية فى تحدى المراكز والوكالات التجارية لشركة الهند الشرقية البريطانية فى إيران وإلحاق الأذى بهم واحتكار تجارة التوابل والبهارات والحرير ولم

يبدوا أى تسامح مع البريطانيين . ولتشديد الخناق على البريطانيين امتنع الهولنديون عن دفع الضرائب الجمركية فى بندر عباس بحجة أن ٥٠ ٪ من العائدات الجمركية ستذهب إلى البريطانيين .

لاترجع خسارة البريطانيين إلى منافسة الهولنديين فقط وإنما إلى سوء تخطيطهم ؛ ليس فى السياسة التجارية فى الأسواق الإيرانية فحسب ، وإنما أيضًا لتعاملهم واعتمادهم على الصادرات البريطانية من المنسوجات والعملات الفضية والذهبية . ونظراً لبعد المسافة فان الأقمشة كانت تصل متأخرة وتتلف إذا ما خزنت للمواسم القادمة . وكانت تصدر فى كميات أكبر من احتياجات الاستهلاك المحلى للمقايضة بالحرير إلى درجة أن الشركة البريطانية دفعت مرتبات جنودها وموظفيها فى الوكالة أقمشة بريطانية بدلاً من النقود ، فى حين اختلفت السياسة التجارية الهولندية التى اعتمدت على المنتوجات الشرقية نفسها أكثر من الصادرات الأوروبية والعملات النقدية فى هذه الفترة قبل أن تتغير من تجارة المضاربة التقليدية إلى تصدير المنتجات الصناعية الأوروبية فيما بعد إلى أسواق الشرق ، وبذلك احتفظ الهولنديون بفائض كبير من الأموال النقدية التى ساعدت على النمو والإزدهار والتوسع ، بينما كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تنفق الكثير من السيولة .

بذلك استطاعت شركة الهند الشرقية الهولندية زيادة أرباحها واحتكارها التجارى فى بندر عباس وقشم وأصفهان ، وخلال العقد الرابع من القرن السابع عشر أحكمت الشركة الهولندية سيطرتها الاحتكارية على تجارة التوابل والبهارات فى إيران ، واحتكرت تصدير بضائعها ، وبالتالى أخضعت تجارة الخليج العربى لقبضتها الاحتكارية ، وكانت السفن الهولندية هى الأكثر فى معظم موانىء الخليج العربى وخاصة فى بندر عباس . هذا التفوق الهولندى وخسارة الوكالة البريطانية فى إيران أدى إلى الإنسحاب إلى البصرة عام ١٦٤٣ وأقاموا فيها أول وكالة لشركة الهند الشرقية البريطانية .

لإحكام السيطرة التجارية على إيران أرسل الهولنديون وكيلاً جديداً عام ١٦٤٤ مطالبين الشاه عباس الثانى تقديم مزيد من التنازلات والامتيازات لتجارة الحرير ، وعندما رفض شاه إيران ، استخدم الهولنديون القوة العسكرية عن طريق أسطولهم - مما أثار الهلع والذعر فى نفوس الشاه والإيرانيين - وهاجموا جزيرة «قشم» وبعض المواقع الأخرى وطلبوا من شاه إيران دفع مبلغ ٤٩٠٠ تومان كتعويض عن مبالغ دفعوها ضرائب جمركية بحجة أن هذه الضرائب

لم تكن مشروعة ، وبذلك نجح الهولنديون فى تخويف الشاه عباس الذى وافق على مطالبهم فى حق تصدير الحرير من إيران إلى الخارج بالأسعار والكميات والأنواع التى يرغبون فيها دون دفع الضرائب الجمركية (٢٩).

زادت هجمات اليعاربة العمانيين على السواحل والمصالح الإيرانية فى الخليج العربى مع نجاح الهولنديين فى الحصول على امتيازات تجارية ضخمة من شاه إيران بعدما أظهروا قوتهم وأشاعوا الخوف والذعر فى الأوساط الإيرانية.وتكررت اعتداءات الأسطول اليعربى على السفن والموانئ الإيرانية فى الخليج العربى حتى خشى البريطانيون على مصالحهم وبدأ بعض موظفى الوكالة التجارية البريطانية بالإنسحاب من بندر عباس وارسال ما يملكونه إلى مدينة البصرة ، لكى يكونوا بعيدين عن التهديدات الهولندية ضد المصالح البريطانية فى السواحل الإيرانية وخاصة بندر عباس . ولم يكتفوا بذلك بل تعقبوا البريطانيين فى البصرة أيضًا عندما أرسلوا فى أواخر عام ١٦٤٥ أسطولاً حربيًا من ثمانى سفن هاجمت مقر الوكالة التجارية لشركة الهند الشرقية البريطانية هناك ودمروها ورغم اتخاذ البريطانيين كافة الإجراءات اللازمة لمواجهة هجوم الأسطول الهولندى إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود وانهارت دفاعاتهم .

سيطرت شركة الهند الشرقية الهولندية على تجارة الخليج العربى وامتد نفوذهم إلى سواحل الهند الغربية بعدما طرد اليعاربة البرتغال من عمان عام ١٦٥٠ وتعقبوهم فى مقرهم فى «غوا» بساحل الهند الغربى ، واستطاع الهولنديون بعد سلسلة من الحروب مع البريطانيين أن يتفوقوا عليهم ليس فى الخليج العربى فقط ، وإنما فى معظم المناطق الأخرى. وبذلك لم تكن مهمة البريطانيين سهلة بعدما أخذوا يتذمرون من عنف الهولنديين وأساليبهم المختلفة التى أظهروا فيها إستبدادهم وطغيانهم فى البحار الشرقية ، مما أثر كثيرا على النشاط التجارى لشركة الهند الشرقية البريطانية التى تكبدت خسائر كبيرة بعدما أغرق الهولنديون بضائعهم فى إيران وأرسلوا كمية كبيرة من الأقمشة الصوفية التى يتاجر بها البريطانيون ؛ وبذلك هددوا مراكزهم ليس فى إيران وإنما فى البصرة المركز الجديد لهم .

مما زاد فى خسارة البريطانيين دخول البضائع البرتغالية عام ١٦٤٠ قادمة من مسقط إلى أسواق البصرة ، ولكنها لم تستمر نظراً لتحرير مسقط وطرد البرتغاليين منها عام ١٦٥٠ وبذلك باتت التجارة البريطانية تسقط تحت رحمة شركة الهند الشرقية الهولندية والتى بلغت من القوة ما جعل البريطانيين يخشون بأس الهولنديين ويخافون على مصالحهم ليس فى إيران

وإنما أيضًا فى البصرة . واضطرت شركة الهند الشرقية إلى إصدار تعليمات إلى ممثليها فى وكالة البصرة ليتركوا هذا الميناء وينتقلوا إلى مكان آخر يتوفر فيه الأمن والاستقرار ، ولكن لم يحددوا أى مكان بل قرروا ترك الخليج العربى والعودة إلى بلادهم مؤقتًا .

تفوق شركة الهند الشرقية الهولندية على البريطانيين :

هناك عدة عوامل أدت إلى تفوق واضح لشركة الهند الشرقية الهولندية على شركة الهند الشرقية البريطانية طوال القرن السابع عشر تقريبًا ومن هذه العوامل :

أولاً : تعرضت شركة الهند الشرقية البريطانية لمنافسة التجار الأحرار .

ثانيا : طلب الإيرانيون مساعدة البريطانيين ضد جيرانهم من العثمانيين والعمانيين من اليعاربة للإستيلاء على البصرة ومسقط ، وكان الإيرانيون يتوقعون استمرار المساعدات العسكرية البريطانية بعد طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، ولكن البريطانيين رفضوا مساعدة إيران ضد العثمانيين أو العمانيين أسوة بالهولنديين الذين رفضوا كذلك التدخل والمساعدة ضد جيران إيران بعدما أخذوا الامتيازات الكثيرة فى إيران كما أن البريطانيين لم يستطيعوا تصريف بضائعهم لمنافسة الهولنديين الشديدة لهم .

ثالثًا : تزايد كمية استثمارات شركة الهند الشرقية الهولندية فى تجارة إيران بحجم كبير فى الوقت الذى لم يعتمد البريطانيون على الاستثمارات التجارية كما ظهرت خلافات عديدة بين شركة الهند الشرقية البريطانية وإيران بشأن اعفاء شركة الهند الشرقية الهولندية من الرسوم الجمركية والذى استفاد منها الهولنديون استفادة كبيرة فى زيادة دخل حساباتهم التجارية ، فاحتج البريطانيون على هذا ألاعفاء وأصروا على أن يدفع الهولنديون نصيبهم من الجمارك حوالى ٥٠٪ .

رابعًا : برزت مشروعات شركة الهند الشرقية الهولندية ، وحققت نجاحًا كبيراً لعدم وجود حصانة لشركة الهند الشرقية البريطانية من قبل حكومتها فى الوقت الذى كانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدعمها حكومتها ، إضافة إلى امتلاكها أساطيل كثيرة سواء التجارية أو الحربية ، ولديها أموال طائلة تساعدها على التفوق التجارى ، وهذا ناتج عن الحرية التى حصلوا عليها من حكوماتهم إضافة إلى دعمها وبالتالى لايمكن مقارنة التفوق بحجم الدولة ، وخاصة هولندا صغيرة إذا ما قورنت ببريطانيا ، ولكن التضحيات التى قدمتها أكبر بكثير من بريطانيا التى لم تكن مستعدة لتحمل المخاطر من أجل التجارة فى حين كان لدى

الهولنديين استعداد لتقديم التضحية والمغامرة من أجل تحقيق مكاسب تجارية كما تفعل الولايات المتحدة اليوم بدعمها لشركاتها التجارية وفتح أسواقها بالخارج وتمارس من أجل ذلك نفوذها السياسي والاقتصادى وحتى العسكرى إذ ما اقتضى ذلك .

خامسًا : فى الوقت الذى حققت التجارة الهولندية أرقامًا قياسية بلغت ٢٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى سنويًا ، فان البريطانيين خسروا خسائر كبيرة طوال العقد السابع من القرن السابع عشر ، وتدهورت تجارتهم وتراجعت إلى حد كبير حتى أنهم اكتفوا بموظف واحد فقط فى بندر عباس ليتسلم نصيب الشركة البريطانية من الضرائب الجمركية ، وأوشكت استثماراتهم على التلاشى .

خاض الهولنديون والبريطانيون حربًا مشتركة ضد الفرنسيين فى أوروبا عام ١٦٨٨ إلا أن ذلك لم يمنع المنافسة التجارية بينهما فى الخليج العربى والتى استمرت على أشدها عندما حاول الهولنديون الاحتفاظ باحتكار المنتوجات الهندية والايرانية والحصول على حق تصدير الصوف الكرمانى دون غيرهم . وأقام الهولنديون وكالة لهم فى البصرة منذ أوائل الربع الثانى من القرن الثامن عشر ولكن اهتمامهم التجارى اقتصر فقط على الوكالة الرئيسية فى بندر عباس . ولأجل الاحتفاظ بمصالحهم وللحصول على امتيازات كبيرة قدموا مساعدات عسكرية وبحرية كبيرة لإيران لمواجهة الاعتداءات العمانية على السفن ومدن السواحل الإيرانية ، كما قام الأسطول الهولندى بقمع حركة المقاومة التى ظهرت لدى القومية البلوشية بغية استقلالها عن القومية الفارسية الحاكمة فى اقليم مكران فى عام ١٧٣٧ حيث يوجد فيها الميناء الهام بندر عباس . وحاول زعيم البلوش الملك دينار تحرير بلاده من الحكم الإيرانى، ولكن بفضل المساعدات الهولندية استطاع القائد الإيرانى محمود تقى خان تجهيز حملة بحرية وبرية ضد القومية البلوشية فى إقليم مكران ، ولكن هذه الحملة الكبيرة لم تتمكن من تحقيق أهدافها برغم اشتراك الأسطول الهولندى ، فعادت إلى قواعدها فاشلة فى بندر عباس (٣٠).

قدم الهولنديون أيضًا مساعدات بحرية وعسكرية كبيرة لإيران عام ١٧٤٠ لقمع حركة التمرد التى قام بها ملاحون من العرب الذين كانوا يعملون فى الأسطول الإيرانى نتيجة لعدم مساواتهم بالبحارة الإيرانيين ، إضافة إلى عدم منحهم رتبًا عليا كضباط وإنما أفراد من جنود البحرية (وهذا ما سوف يؤدى فيما بعد إلى الاستيلاء على بعض قطع الأسطول وبالتالى إلى إنهيار القوة البحرية الإيرانية) ولكن الهولنديين فشلوا فى قمع هذه الحركة

فاتهمهم القائد الإيرانى بأنهم لم يبذلوا الجهود الكافية لاستعادة السفن من المتمردين والتغلب على العرب رغم أن الأسطول الهولندى كان يتمتع بسمعة قوية فى الحروب البحرية ولكن لا ننسى أيضا تفوق العرب وخاصة العمانيين فى البحرية وأسطولهم القوى الذى كان الأوروبيون يخشونه بعدما نجح فى الحاق الهزائم بالأسطول البرتغالى فى البحار العالية فى المحيط الهندى ، وهذا ما سيؤدى فيما بعد إلى ظهور قوة بحرية فى مدخل الخليج العربى تحت قيادة سكان وقبائل ساحل عمان من رأس الخيمة وأبو ظبى .

أنشأ الهولنديون مقيمية فى مدينة بوشهر عام ١٧٤٧ كما عملوا على تنشيط التجارة فى البصرة ومنافسة البريطانيين الذين أرسلوا تعليمات من الهند إلى موظفيهم فى البصرة لبذل الجهود لوقف النشاط التجارى الهولندى فى هذا الميناء الذى كان يتم منه تصدير البضائع إلى كل من حلب وطرابلس وبقية مدن بلاد الشام وسواحلها على البحر المتوسط مما يعنى حصول الهولنديين على مصادر جديدة للنشاط التجارى إضافة إلى إيران ، وبذلك نجح الهولنديون فى استخدام الطريق البرى للتجارة عبر العراق وبلاد الشام إلى الخليج العربى إضافة إلى مراكزهم التجارية عبر الطريق البحرى فى جنوب افريقيا .

عندما وجدت شركة الهند الشرقية الهولندية أن بقاءها أصبح صعبًا فى بندر عباس بعدما منيت بخسائر كبيرة ، قاموا باغلاق وكالتهم فى هذا الميناء عام ١٧٥٩ فى الوقت الذى كانت وكالة شركة الهند الشرقية البريطانية أيضًا تحتضر برغم اعتمادها على دخل الجمارك لميناء بندر عباس . فى حين زاد النشاط التجارى الهولندى فى البصرة وأخذ شهرة كبيرة فى الفترة ١٧٣٠ - ١٧٥٣ . ومن بعد ذلك بدأ التدهور فى التجارة الهولندية حتى اضطروا إلى الانسحاب من البصرة وبندر عباس ، فى حين قضى العرب على آخر قواعدهم الحصينة فى جزيرة خرج عام ١٧٦٦ عندما حرر الشيخ مهنا حاكم ميناء «ريق» وجزيرة الخرج نهائيًا من الاستعمار الهولندى . وكانت هذه هى الضربة النهائية القاصمة حيث لم يعد بعد ذلك أى وجود هولندى فى الخليج العربى .

شركة الهند الشرقية الفرنسية

أدركت فرنسا أهمية التجارة مع الشرق وإن جاءت متأخرة عن الهولنديين والبريطانيين بسبب المنافسة بينهما على الخليج وانشغال فرنسا فى المشاكل الأوروبية والحروب الكثيرة التى تركت آثاراً سيئة على الاقتصاد والتجارة والمصالح الفرنسية .

جرت أول محاولة لتأسيس شركة فرنسية للتجارة مع الهند عام ١٦٠١ ، وخرجت بعثة تنصيرية فرنسية إلى إيران عام ١٦٢٧ وحظيت بحفاوة كبيرة من الشاه نفسه شخصيًا فى «أصفهان» عام ١٦٢٨ ؛ وسمح للبعثة بانشاء مراكز تنصيرية للتبشير بالديانة المسيحية فى صفوف الشعب الإيرانى المسلم . وأهم هذه المراكز كانت فى أصفهان ، ولعب الفرنسيون دوراً تبشيريًا بارزاً فى إيران يفوق النشاط التجارى .

حصلت شركة الهند الشرقية الفرنسية على إعفاء من كل الضرائب والرسوم الجمركية لمدة ثلاثة أعوام فى إيران بالإضافة إلى الامتيازات التى حصل عليها الهولنديون والبريطانيون ، وتم تأسيس وكالة فرنسية فى بندر عباس عام ١٦٦٧ بالقرب من الوكالة البريطانية ولكن التجارة الفرنسية كانت على نطاق محدود .

إذا ما كانت المنافسة الهولندية قاسية للبريطانيين فان المنافسة الفرنسية أشد قسوة لاستغراقها وقتًا أطول مقارنة بالمنافسة البريطانية - الهولندية فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، كانت أكثر خطراً على المصالح البريطانية ، ولهذا لحقت شركة الهند الشرقية البريطانية خسائر كبيرة فى صراعها مع فرنسا مقارنة بخسائرها مع هولندا .

حاولت السلطات الإيرانية فى عام ١٦٩٩ الحصول على المساعدات العسكرية الفرنسية ضد اليعاربة العمانيين بعدما رفض الهولنديون والبريطانيون وكذلك البرتغاليون تقديم مساعدات فعالة للقوات البحرية الإيرانية .

نلاحظ فى هذه الفترة المحاولات الفرنسية العديدة لإقامة قاعدة أو مركز لهم فى الخليج العربى فى أوائل القرن الثامن عشر ، وذلك من خلال النشاط السياسى الذى كان يقوم به الممثلون الفرنسيون فى إيران فى الوقت الذى كان يهدف شاه إيران إلى قيام تحالف فرنسى - إيرانى من أجل احتلال عمان ، وهذا ما كان يسعى إليه المسؤولون الإيرانيون للحد أو لقمع النشاط البحرى المكثف للأسطول اليعربى العمانى الذى كان يسبب متاعب كثيرة للإيرانيين ويشن هجمات على مدنه فى الجنوب على السواحل الشرقية من الخليج العربى[٣١].

قدم الإيرانيون امتيازات ضخمة تفوق ما قدموه للهولنديين والبريطانيين وكانت فرصة كبيرة للفرنسيين الذين رفضوا تقديم المساعدة ضد اليعاربة العمانيين . وعلى الرغم من فشل تلك المحاولات الإيرانية لاحتلال عمان أو البحرين التى كانت خاضعة للعمانيين بمساعدة فرنسا ، إلا أن الأخيرة استطاعت أن تحقق لنفسها مكاسب استعمارية كبيرة فى المنطقة .

أرسل الفرنسيون بعثة خاصة إلى إيران فعقدت معاهدة صداقة عام ١٧٠٨ ، ووافقت الحكومة الإيرانية بموجبها أن يدفع الفرنسيون رسومًا جمركية لاتتجاوز ٣٪ للصادرات والواردات وإعفاء خمسمائة جمل محملة بالبضائع من ضرائب الطرق والحماية ، وتركزت الاتفاقية على حرية رجال الدين المسيحيين الفرنسيين ومزاولة نشاطهم التبشيرى لتنصير المسلمين الإيرانيين ، وتركز اهتمام الفرنسيين على الخليج العربى كطريق استراتيجى إلى مستعمراتها فى الهند أكثر من النشاط التجارى .

لم تعلن هذه الاتفاقية بشكل رسمى إلا عام ١٧١١ ، مما أدى إلى احتجاج الهولنديين والبريطانيين ، ولكن شاه إيران لم يعير اهتماما لهذه الاحتجاجات بسبب فشله فى الحصول على مساعداتهما ضد اليعاربة العمانيين ، ولم يرد أى نص فى المعاهدة يلزم الفرنسيين بمساعدة الإيرانيين ضد العمانيين ، ولكن السفير الفرنسى وعد بتحقيق هذه المطالب ولما تأخر ذلك أرسل شاه إيران وفداً لتطبيق هذا الوعد فى عام ١٧١٥ طالبًا أن تبادر فرنسا بارسال أسطولها للقتال ولاحتلال عمان ولم تنجح هذه المحاولات ، وعلى العكس من ذلك فرض الفرنسيون توقيع معاهدة صاغوا بنودها بأنفسهم وتم التوقيع عليها فى الثالث عشر من أغسطس عام ١٧١٥ وقد جاء فيها ما يلى :

١- إعفاء التجار الفرنسيين وكل من تشملهم الحماية الفرنسية من الرسوم الجمركية ، ولهم حق المتاجرة فى جميع المنتجات الأوروبية والهندية وتصدير المنتوجات الإيرانية إلى الخارج .

٢- تمنح الحكومة الإيرانية المبانى والمساكن دون مقابل لشركة الهند الشرقية الفرنسية لتكون مقراً لها وللسفير الفرنسى فى إيران وكذلك للقنصل ليس فى أصفهان وإنما فى جميع أرجاء إيران مثل ساحل الخليج العربى الشرقى وخرسان والمناطق الشمالية .

٣- أن يكون للسفير الفرنسى فى إيران ميزة للتقدم على سفراء الدول الأخرى وقناصلها.

٤- يعفى الفرنسيون من دفع العوائد الشخصية .

٥- للفرنسيين حق تصدير الخيول العربية من إيران دون تحديد عدد معين .

٦- إذا حدث خلاف بين أحد الفرنسيين وأحد رعايا الشاه فان المحاكم الإيرانية تختص وحدها فى الفصل بينهما بشرط أن يحضر فى الجلسة القنصل الفرنسى (٣٢).

ظل النشاط التجارى الفرنسى محدوداً فى الخليج العربى مما أدى إلى إغلاق الوكالة التجارية لشركة الهند الشرقية الفرنسية فى بندر عباس فى أواخر الربع الأول من القرن الثامن عشر . وبعد نهاية حرب الوراثة الأسبانية ، حاول الفرنسيون إحياء نشاطهم التجارى فى الخليج العربى وأرسلوا فى نهاية عام ١٧٣٥ سفينة تجارية محملة ببضائع أوروبية ومنسوجات فرنسية إلى بندر عباس .

طلب شاه إيران إعادة فتح الوكالة التجارية الفرنسية فى بندر عباس ليستفيد منها نادر شاه لتحقيق أطماعه التوسعية فى المناطق العربية وإنشاء أسطول بحرى ليواجه القدرات العمانية البحرية . وما كاد الهولنديون والبريطانيون يعرفون بعودة النشاط الفرنسى حتى ثاروا وأبدوا استياءهم لدى شاه إيران . ومن الطبيعى كان لدخول الفرنسيين إلى الخليج العربى تأثير سلبى على النشاط التجارى الهولندى والبريطانى اللذين أغضبهما إعفاء شاه إيران التجارة الفرنسية من الضرائب الجمركية حيث أخذت السفن الفرنسية تتوالى على ميناء بندر عباس منذ ذلك الوقت . وبرغم أن النشاط الفرنسى فى تصريف البضائع كان محدوداً . وبرغم أن إيران كانت أكبر سوق استهلاكى فى المنطقة إلا أنها كانت تمر بمرحلة حرجة بسبب انكماش الحركة التجارية وقلة الأرباح .

بدأ الفرنسيون نشاطهم فى بغداد على شكل بعثات تنصيرية ونشاط تبشيرى قلما كان فى إيران وتمتعوا بامتيازات المعاهدة المشهورة التى يرجع تاريخها إلى عام ١٥٣٥ ، وحصلوا بمقتضاها على حرية ممارسة الحملات التبشيرية وتنصير المسلمين وإقامة الأديرة فى الولايات العثمانية . وتوثقت العلاقة بين الحكومة الفرنسية والآباء «الكرملين» الذين كانوا يتولون الشؤون القنصلية الفرنسية عام ١٧٣٩ ، وهو العام الذى دخل بعده النشاط التجارى الفرنسى إلى البصرة عندما جلبوا معهم كميات كبيرة من الجوخ عن طريق حلب من موانىء الشام على البحر المتسط وعينوا مقيمًا فرنسيًا فى البصرة فى نفس العام [٣٣].

رغم انتعاش النشاط التجارى إلا أنهم لم يهتموا بهذا الجانب ، وأهملوا مؤسساتهم التجارية إلى أن ترك المقيم الفرنسى البصرة عام ١٧٤٨ لتأخر مخصصاته وفى عام ١٧٥٥ ، أعادت فرنسا تعيين مقيم آخر الذى قام بتحسين الوضع التجارى ؛ إلا أن اهتمامه السياسى كان أكبر .

اتسمت العاقة بالود والصداقة بين الممثلين الفرنسيين والبريطانيين فى البصرة ولكنها لم تدم طويلاً فقد توترت بعد قيام حرب السنوات السبع بينهما ١٧٥٦ - ١٧٦٣ وانتقل القتال بينهما إلى مستعمراتها الشرقية ، وبذلك تكبدت فرنسا خسائر كبيرة وحرمت من جميع مستعمراتها فى الهند بموجب معاهدة باريس الموقعة بينهما فى فبراير ١٧٦٣ التى تنازلت عنها لبريطانيا . وبزوال هذا النفوذ الفرنسى فى الهند توقف التنافس الذى انعكس على الخليج العربى أثناء حرب السنوات السبع ، ولم يحاول الفرنسيون بعد ذلك أن يتصدوا للوجود البريطانى إلا عندما تجددت الحروب بينهما أثناء حرب الاستقلال الأمريكية .

الهوامش

١- د. جمال زكريا قاسم - الخليج العربى عصر التوسع الأوروبى الأول ص٦١ .

٢- د. عائشة السيار - دولة اليعاربة ص٢٣ .

٣- د. عائشة السيار - نفس المرجع ص١٩ .

٤- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٥٤ .

٥- د. عائشة السيارة - المرجع السابق ص٢٠ .

٦- د. عائشة السيار - نفس المرجع ص٢١ .

٧- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٦١ .

٨- أحمد العنانى - نفس المرجع ص٨٢ .

٩- أحمد العنانى - نفس المرجع ص٨٢ .

١٠- سليم طه التكريتى - المقاومة العربية فى الخليج العرى ص٤١ .

١٢- أحمد العنانى - المرجع السابق ص٩٦ .

١٣- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٧٥ .

١٤- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٧٧ .

١٥- د. عائشة السيار - المرجع السابق ص٢٧ .

١٦- عبد العزيز عوض - تاريخ الخليج العربى الحديث ص١١١ .

١٧- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٦٣ .

١٨- عبد العزيز عوض - المرجع السابق ص١٣٣ .

١٩- د.بدر الدين عباس الخصوصى - دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ، الجزء الأول ص٢٦ .

٢٠-د. بدر الدين عباس الخصوصى - نفس المرجع ص٢٧ .

٢١- عبد الأمير محمد أمين - المصالح البريطانية فى الخليج العربى ص١٦ .

٢٢- عائشة السيار - المرجع السابق ص٤٠ .

٢٣- عبد العزيز عوض - المرجع السابق ص٤٠ .

٢٤- د. خلدون النقيب - المجتمع والدولة فى الجزيرة العربية ص٧٠ .

٢٥- د. خلدون النقيب - نفس المرجع ص٧١ .

٢٦- د. خلدون النقيب - نفس المرجع ص٧٣ .

٢٧- عبد العزيز عوض - المرجع السابق ص٦٣ .

٢٨- د. مصطفى عقيل الخطيب - التنافس الدولى فى الخليج العربى - ص١٤٩ .

٢٩- د. مصطفى عقيل الخطيب - نفس المرجع ص١٥٩ .

٣٠- د. مصطفى عقيل الخطيب - نفس المرجع ص٢٧٤ .

٣١- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص١٧٤ .

٣٢- د. مصطفى عقيل الخطيب - المرجع السابق ص٢٥١ .

٣٣- د. مصطفى عقيل الخطيب - نفس المرجع ص٢٥٨ .

الفصل الثانى

الساحل الشمالى للخليج العربى

المقاومة العربية فى الخليج العربى

مقاومة عرب ميناء ريق للاستعمار الهولندى :

- الشيخ مهنا بن ناصر وإنهاء الوجود البريطانى من ميناء ريق .
- تحرير جزيرة الخرج من الاستعمار الهولندى .
- الحملة الإيرانية - البريطانية ضد الشيخ مهنا بن ناصر.

إمارة عربستان :

- بنى كعب .

البصرة :

- البصرة تحت حكم أفراسياب .

الإحساء :

هجرة العتوب إلى الكويت والبحرين .

رحيل آل خليفة من الكويت وفتح البحرين .

الجلاهمة .

المقاومة العربية فى الخليج العربى

نتج عن استمرار تجارة المضاربة التقليدية لشركات الهند الشرقية الاحتكارية التنافس والصراع فيما بينهم طوال القرنين السابع والثامن عشر من جهة ، وبين الشركات الأوروبية والقبائل العربية فى الخليج العربى من جهة أخرى ، والتى اتجهت إلى مقاومة النفوذ الاحتكارى وهيمنة الشركات الأوروبية . وخاصة بعدما نجحت المقاومة العربية فى تحرير عمان من الاستعمار البرتغالى وبالتالى استمرت المقاومة فى الخليج العربى ضد القوى الأوروبية الأخرى ، واتخذت بعداً جديداً فى التخلص من الهيمنة الاقتصادية الأوروبية إلى قيام كيانات أقرب إلى السياسة بعدما كانت اقتصادية تجارية محدودة أمام نشاط شركات الهند الشرقية الأوروبية .

تركزت هذه المقاومة العربية فى المدن الساحلية التجارية التى كانت تهيمن عليها القوى الاستعمارية الأوروبية فى مسقط وصحار وخورفكان ورأس الخيمة وجزيرة خرج والفلاحية والدورق وغيرها من المدن الساحلية التجارية فى الخليج العربى .

برغم التنافس بين القبائل العربية الشمالية والجنوبية أى الحجازية واليمانية ، إلا أنها كانت تتحد معًا ضد الغزو الخارجى وخاصة الاستعمار الأوروبى ، وهذا يرجع إلى التحرك الأول للقبائل العربية القحطانية منذ أن كانت الزعامة لقريش ثم للأشراف الهاشميين .

اعتنقت القبائل العمانية المذهب الإباضى ، وكانت فى غالبيتها تنتمى إلى الأزد وقضاعة وهى قبائل جنوبية يمانية تحالفت مع ناصر من كندة وتميم فى حضرموت ، ويرجع اعتناق هذه الفئات للمذهب الإباضى إلى القرن الأول للهجرة فى البصرة عندما كانت عناصرها تشترك فى الخمس نفسه من أحياء البصرة القبلية (1) . ونجحت هذه القبائل العربية فى عمان فى مقاومة الاستعمار البرتغالى ، ولم تكتف بتحريرها وإنما أخذت تلاحقها فى مستعمراتها فى الهند وشرق أفريقيا بعدما حررت معظم مناطق الخليج العربى من الاستعمار البرتغالى .

ترك الصراع الاستعمارى لشركات الهند الشرقية الأوروبية انتعاشًا اقتصاديًا فى الخليج العربى واحتكاراً من جانبها ، مما أدى إلى ظهور المقاومة العربية للنفوذ الاستعمارى الغربى طوال القرنين السابع والثامن عشر وحتى بداية التاسع عشر ، كما وجدت هذه القوى من

القبائل العربية فى مواجهة أيضًا مع القوى التقليدية فى إيران التى حاولت التعاون مع الاستعمار الأوروبى ضدها أى ضد القبائل العربية ليس فى شرق الخليج العربى وإنما أيضًا فى رأس الخيمة عندما استطاعت المقاومة العربية فى عمان بقيادة اليعاربة تحرير هذه المدينة من الاستعمار البرتغالى والغزو الإيرانى معًا وكذلك مدينة خورفكان ، برغم العقبات التى واجهتها منذ البداية ، ثم مقاومة القبائل العربية فى جزيرة خرج ضد الاستعمار الهولندى ، والقبائل العربية من بنى كعب فى عربستان ضد الاستعمار البريطانى والقوى التقليدية من العثمانيين والإيرانيين معًا ، والقبائل العربية فى ساحل عمان فيما بعد ضد بريطانيا وكذلك قبائل بنى بوعلى فى جعلان من عمان .

مقاومة عرب ميناء ريق للاستعمار الهولندى :

اعتاد الإيرانيون التحالف مع الاستعمار الأوروبى ضد العرب ، وتعاونوا مع الاستعمار الهولندى ضد القبائل العربية مثلما فعلوا الشىء ذاته من قبل مع البرتغاليين والبريطانيين ، وعندما أخذت القوات الإيرانية تساعد الهولنديين عام ١٦٩٥ على احتلال المناطق التى يتمركز فيها العرب ؛ مما جعلهم يهاجمون السفن الهولندية فى الخليج العربى دفاعًا عن النفس إلى جانب مهاجمتهم السفن الإيرانية والبريطانية بعدما بدأت شركات الهند الشرقية الأوروبية فى احتكار تجارة الخليج العربى مصدر رزق أبناء العرب فى المنطقة والذين لايستطيعون مجاراة تلك الشركات الاحتكارية الأوروبية الكبيرة التى سيطرت على أسواق إيران والهند وبقية دول آسيا التى كان عرب الخليج يتاجرون معها. ولم تقتصر سياسة تلك الشركات الأوروبية على الاحتكار التجارى وإنما بدأت تتجه إلى الاستعمار بالسيطرة العسكرية والسياسية على المدن والأقاليم العربية فى المنطقة مما أدى إلى تعاظم الهجمات العربية على السفن الإيرانية والهولندية معًا . واستغل الهولنديون تلك الحوادث لتوطيد أقدامهم فى المنطقة وعرضوا على شاه إيران عام ١٧٠٥ التحالف للرد على الهجمات العربية ولكن شاه إيران فضل التعاون مع البريطانيين لأن أسطولهم كان يقوم بمهاجمة المواقع العربية فى الخليج مما يؤدى إلى استيلاء وسيطرة إيران عليها وتصبح من أملاكها وبذلك توسعت حدود إيران الحالية فى الخليج العربى .

تدهورت أوضاع الوكالة لشركة الهند الشرقية الهولندية فى بندر عباس إلى درجة أقدم الهولنديون عام ١٧٣٠ على إغلاقها ونقلوها إلى البصرة ، وعادوا من جديد إلى إحياء

وكالتهم والحصول على امتيازات جديدة لهم فى إيران عن طريق تقديم مساعدات عسكرية وبحرية لنادر شاه الافشارى الذى تولى حكم إيران عام ١٧٣٨ .

استطاع الهولنديون إقناع شاه إيران بجدوى التحالف العسكرى معهم ضد العرب وبموجب هذا التحالف قام أسطول شركة الهند الشرقية الهولندية بمساعدة الأسطول الإيرانى فى عدة حملات مشتركة على العرب ، وقدمت الشركة الهولندية مساعدات بحرية فى الحملة الإيرانية على عمان ، كما ساعدت فى قمع ثورة الملاحين والبحارة العرب فى الأسطول الإيرانى عام ١٧٤٠، وكان الملاحون العرب قد تمكنوا من السيطرة على معظم قطع الأسطول الإيرانى ووصلت سيطرتهم إلى مداخل مخارج الخليج العربى وقام أسطول الشركة الهولندية باحباط تلك الثورة والتصدى لبعض السفن العربية فى مياه الخليج العربى وعندما ثار الحاكم العربى فى بندر عباس ضد شاه إيران عام ١٧٤٤ ، وقفت الشركة الهولندية إلى جانب الإيرانيين وبعد تشديد الخناق على التأثير العربى قاموا بهجوم مشترك عليه (٢).

حاولت هولندا إبان تغلغلها فى الخليج العربى بأن تغرى بعض شيوخ القبائل العربية وتظاهرت لهم بعدائها للبرتغاليين ومساندتهم فى القضاء على الاحتلال البرتغالى مثلما فعلت إيران واستنجدت ببريطانيا لتحرير جزيرة هرمز الذى كان حكامها من العرب تحت الاحتلال البرتغالى ، ونجحت إيران فى ذلك وتوسعت حدودها تجاه بلوشستان ، ولكنها دفعت الثمن غاليًا للبريطانيين ووقعت تحت نفوذهم ، ولهذا فان العرب رفضوا استبدال استعمار أوروبى برتغالى باستعمار هولندى جديد ، وفضلوا المقاومة بجهودهم الذاتية المتواضعة دون الاستعانة بأية قوة خارجية ونجحوا فى ذلك مثلما فعل اليعاربة العمانيون عندما حرروا بلادهم من الاستعمار البرتغالى دون أن يستعينوا بالهولنديين أو البريطانيين وأصبحوا من أقوى دول المنطقة لأنهم أصبحوا أسياد أنفسهم حتى أن الأوروبيين كانوا يعملون لهم الحساب ويخافون مواجهتهم .

عندما فشلت شركة الهند الشرقية الهولندية فى استمالة شيوخ القبائل العربية ، عمدت إلى استعمال القوة بالتعاون مع الإيرانيين ، وبذلك انتقلت شركة تجارية تريد تحقيق مكاسب اقتصادية وأرباح مالية إلى استعمار جديد فى المنطقة .

تمكنت الشركة الهولندية بفضل المساعدات العسكرية التى قدمتها لشاه إيران ضد العرب من انعاش تجارتها حتى أنها بادرت فى عام ١٧٤٧ إلى فتح وكالة تجارية جديدة فى ميناء

بوشهر ، ولكن الشركة الهولندية وجدت نفسها محاطة بالأعداء سواء من قبل السلطات المحلية التى تقع وكالتها التجارية فى دائرة نفوذهم أو من قبل شركات الهند الشرقية الأوروبية الأخرى ، لذا قررت الشركة الهولندية إغلاق وكالاتها التجارية ، سواء تلك الوكالات التى كانت قائمة فى الموانىء الإيرانية أو الموانىء العثمانية وأخذت تركز جهودها على إحدى الجزر المحصنة وهى جزيرة خرج التى تقع فى المدخل الشمالى للخليج العربى ، إذ أن موقع تلك الجزيرة على مقربة من البصرة وبوشهر مما يمكن أن يتخذها الهولنديون مركزاً للتحكم فى تجارة الخليج العربى ونقطة وثوب على البحرين أو البصرة أو غيرهما من المواقع الأخرى على سواحل الخليج العربى .

تتبع جزيرة خرج للشيخ ناصر الذى يحكم ميناء ريق ولأجل احتلال هذه الجزيرة وتحويلها إلى مقر رئيسى لعمليات الشركة الهولندية فى الشرق هو المسيو «بنهاوزن» الذى أسس أول وكالة لهذه الشركة ى البصرة ، وأقلع بنهاوزن على رأس أسطول حربى من جاكرتا مقر قيادتهم فى أندونيسيا إلى جزيرة الخرج التى لم يكن يسكنها سوى مائة صياد من صيادى الأسماك من العرب الفقراء الذين استطاعوا رغم قلة عددهم وضعف أسلحتهم البدائية التى كانوا يملكونها مقاومة الهولنديين ومنعوهم من النزول فى الجزيرة . وأمام هذه المقاومة الباسلة لعرب جزيرة خرج ، انسحب بنهاوزن ورجاله من الجزيرة .

لم يلبث الهولنديون أن عادوا إلى جزيرة خرج مرة أخرى عام ١٧٥٣ بعدما جلبوا معهم جنوداً من الإيرانيين وبعض العمال من الزنوج والعبيد واستطاعوا النزول إلى الجزيرة وبناء قلعة كبيرة حصينة ، واستطاع «بنهاوزت» أن يقنع الشيخ «ناصر بن مهنا » ويغريه بايجار سنوى كبير مقابل وجود تلك القلعة ، كما حصل على إذن من الشيخ نفسه لتأسيس وكالة تجارية لشركة الهند الشرقية الهولندية فى ميناء ريق .

لم يكن يهدف بنهاوزن إلى مجرد تأسيس وكالة تجارية لشركة الهند الشرقية الهولندية ، وإنما كان يريد إنشاء مستعمرة هولندية تجارية فى جزيرة خرج ، ولتحقيق هذا الهدف قام بانشاء قلعة كبيرة حصينة لحماية الجزيرة ، وجلب إليها فرقة عسكرية من العبيد للتغلب على طبيعة الجزيرة الجرداء وقسوة مناخها ، وهذا ما أثار قلق ممثلى شركة الهند الشرقية البريطانية فى البصرة فى أن تتعرض جزيرة البحرين وغيرها من جزر الخليج العربى إلى نفس المصير الذى تعرضت له جزيرة الخرج ، وأوردت تقارير الوكالات البريطانية فى المنطقة بأن

الهولنديين يعملون على طرد السكان العرب من الجزيرة وإحلال من هم أكثر ولاء لهم ، وتم إغراء مسيحى البصرة على الاقامة بها ووعدوا الفقراء منهم بمساعدات مالية تمكنهم من الاستقرار ، إضافة إلى الإيرانيين ، كما تمّ جلب بعض الأسر الهولندية بغرض تحويل الجزيرة إلى مستعمرة هولندية ، مما جعل البريطانيون يناصبون العداء للهولنديين الذين كان وجودهم فى الجزيرة يلحق ضرراً بالغًا على مؤخراً عام ١٧٥٩ بعد تدمير الوكالة البريطانية فى بندر عباس من قبل السفن الحربية الفرنسية (٣).

الشيخ مهنا بن ناصر ودوره فى إنهاء الوجود البريطانى من ميناء ريق :

وقع أول تصادم بين العرب والبريطانيين فى الخليج العربى فى أواسط القرن الثامن عشر، وكان أول الزعماء العرب الذين اصطدموا مع الاستعمار البريطانى هو الشيخ مهنا بن ناصر الذى قاد المعارك الناجحة ضد البريطانيين والإيرانيين والهولنديين فى الخليج العربى ، وكان الشيخ ناصر ، والد الشيخ مهنا قد وافق فى عام ١٧٥٤ على منح شركة الهند الشرقية البريطانية إذنًا باقامة مقر للوكالة التجارية للشركة فى جزيرة ريق التى كان يحكمها بالإضافة إلى جزيرة خرج ، وعينت الشركة البريطانية فى نفس العام وكيلاً لها فى ميناء جزيرة ريق وهو المستر فرنسيس رود ، غير أن الشيخ مهنا بن ناصر وبعض القبائل العربية من قومه رفضوا ما أقدم عليه والده الشيخ ناصر بن مهنا ، من منحه الموافقة على إقامة الوكالة البريطانية وأدركوا خطورة نتائجه وهو الذى كان قد كافح طويلاً فى سبيل تحرير هاتين الجزيرتين من البرتغاليين والإيرانيين .

ولهذا ثار الشيخ مهنا على أبيه فقتله وولى الحكم مكانه فى كل من جزيرتى ريق والخرج ولكن أخاه حسين الذى سبق أن تعاون مع الهولنديين ما لبث أن نازع الشيخ مهنا على السلطة وانتزع جزيرة ريق من سلطة أخيه وأظهر لرئيس الوكالة التجارية لشركة الهند الشرقية البريطانية فرنسيس رود بالغ الولاء والطاعة ، وهذا ما جعل الشيخ مهنا يقوم باغتيال أخيه ثم توجه هو ورجاله إلى مقر الوكالة التجارية للشركة البريطانية فى ميناء ريق فقتلوا حراسه ودمروا مقر الوكالة التجارية للشركة وحولوها إلى أنقاض ، وطلب الشيخ مهنا بن ناصر من رئيس الوكالة التجارية لشركة الهند الشرقية البريطانية ورجاله الذين يعملون فى الوكالة ، أن يجتمعوا على ظهر السفن البريطانية فى ميناء ريق بمغادرة المنطقة نهائيًا وعدم العودة إلى الميناء .

تحرير جزيرة الخرج من الاستعمار الهولندى :

لم يدع الشيخ مهنا بن ناصر الوقت يضيع منه بعدما دام الاحتلال الهولندى لجزيرة خرج عام واحد ، فقام بجمع رجاله من أفراد القبائل العربية ، وتوجه بهم إلى جزيرة خرج وقام بهجوم على الحامية العسكرية الهولندية وطردهم من الجزيرة ، وعلى أثرها جردت شركة الهند الشرقية الهولندية حملة بحرية كبيرة وقامت بفرض حصار حول جزيرة الخرج من جميع الجهات، وراحت تقصف بنيران مدافعها وتدمر مواقع رجال الشيخ مهنا بن ناصر ومبانى الجزيرة لاعادة احتلالها من جديد .

حدث صدى كبير لهذا العدوان الهولندى على جزيرة خرج لدى القبائل العربية فى سواحل الخليج العربى والتى قامت بمهاجمة السفن الهولندية والتصدى لها فى كل مكان وأصبحت المراكز التجارية الهولندية هدفًا للقبائل العربية حيثما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، ومن ثم هاجم العرب فى عام ١٨٥٢ إحدى السفن التابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية بين جزيرتى قشم ولافت واستولوا عليها بعدما قتلوا رجالها ونهبوا حمولتها قاموا باغراقها فى مياه الخليج العربى ، كما هاجم الشيخ عبد الله المغنى حاكم جزيرة قشم ورجاله من القبائل العربية عام ١٧٥٣ السفينة «نانسى» التابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية وبعد الإستيلاء عليها أفرغوا حمولتها ثم أسروا بحارتها واشعلوا فيها النيران . ومن تلك الحادثة لم تستطع سفن الشركة الهولندية أن تظهر فى تلك الجزيرة أو على مقربة منها ، وعندما زار المستر وود الوكيل البريطانى لشركة الهند الذى كان فى ميناء ريق ، جزيرة خرج فى أبريل من عام ١٧٥٦ وشاهد أوضاع الهولنديين فيها كتب تقريراً عن ذلك إلى الوكالة التجارية للشركة البريطانية فى بندر عباس قال فيه :

«إن قوة الهولنديين فى الجزيرة تتألف من ستين جنديًا وحوالى مائة جندى من العبيد الأفريقيين السود المسلحين بالسيوف والخناجر بالإضافة إلى سفينة كبيرة مزودة بستة عشر مدفعًا» .

ذكر مستر وود عن تجارة الهولنديين فى الجزيرة :

«إن مخزن الهولنديين هناك يحتوى على السكر وقصب السكر والفلفل والتوابل والجلود والحديد والقصدير والمنسوجات وإن الهولنديين كانوا يستعملون ثمانى سفن صغيرة لصيد اللؤلؤ ويقومون برحلات الصيد هذه بسرية تامة خوفًا من غارات العرب عليهم« .

فكر الهولنديون فى ترحيل العائلات العربية من الجزيرة وجلب عوائل من المستعمرات الهولندية فى الصين كما كانوا يطمعون فى الإستيلاء على ميناء ريق أيضًا . وبذلك أخذ الهولنديون بمن جلبوهم من عناصر سكانية أخرى فى جزيرة الخرج يمارسون الغرص على اللؤلؤ وغير ذلك من الأعمال البحرية التى أثرت سلبًا على موارد ورزق القبائل العربية فى جزيرة الخرج ، مما دفعهم للقيام بمقاومة الوجود الاستعمارى الهولندى هناك .

عرف عرب الخليج بامتلاكهم السفن وتفوقهم فى شؤون الملاحة وبذلك كانت الضربة القوية التى تلقتها شركة الهند الشرقية الهولندية فى جزيرة خرج لم تأت من قبل الشركات الأوروبية المنافسة لها وإنما جاءت تلك الضربة من القبائل العربية بزعامة الشيخ مهنا بن ناصر الذى عرف بضرباته القوية التى أخذ يوجهها ضد الهولنديين فى جزيرة خرج ، بعدما نجح فى طرد البريطانيين من ميناء ريق الواقع على مقربة من جزيرة الخرج .

تعاظمت هجمات العرب على السفن الهولندية بعد ذلك كما أعد الشيخ مهنا بن ناصر حملة كبيرة جمع فيها أفراداً من القبائل العربية فى عام ١٧٦٠ ، ونقل عدداً من القوارب تحمل أكثر من مائة من رجاله المسلحين وشنوا هجومًا على مواقع الهولنديين فى جزيرة الخرج، ولكن مدافع الهولنديين المنصوبة فى القلعة حالت دون تقدمهم وبالتالى لم ينجح الهجوم الذى قام به الشيخ مهنا بن ناصر لتحرير الجزيرة من الاستعمار الهولندى .

لم ينسحب الشيخ مهنا بن ناصر ورجاله من جزيرة الخرج إنما قاموا بوضع الكمائن وراء الصخور حتى إذا ما جاءت سفن شركة الشرقية الهولندية المحملة بالبضائع هجموا عليها وقتلوا رجالها واستولوا على ما فيها من البضائع والأموال ثم أحرقوها وأغرقوها وانسحبوا بقواربهم عائدين بالغنائم إلى ميناء ريق ، وعندما وصلت أخبار تلك الحوادث إلى جاكرتا فى اندونيسيا استدعت السلطات الهولندية حاكم جزيرة الخرج المسيو «ورهوست» للاستفسارعما حدث ،ولكن هذا الأخير خاف على مصيره فهرب إلى بندر عباس وسلم نفسه للوكالة التجارية لشركة الهند الشرقية البريطانية ثم غادر إلى أوروبا عن طريق بومباى ، وعين المسيو «بوشمان» من أعضاء الوكالة التجارية لشركة الهند الشرقية الهولندية حاكمًا على جزيرة خرج . وقد وجد هذا الحاكم الهولندى الجديد أنه لابد من الصلح مع العرب وخطب ودهم وشرع فى إقامة علاقات طيبة مع الشيخ مهنا بن ناصر الذى ظل يتحين الفرصة لتحرير جزيرته من الاستعمار الهولندى ، وأرسل وفداً من رجاله للتباحث والتفاوض مع «بوشمان»

فى بعض القضايا المعلقة وأوصاهم بأن يغتنموا فرصة وجودهم ويفتحوا ثغرة ويثبوا على الهولنديين ويستولوا على القلعة إذا ما ساعدتهم الظروف على ذلك ، ويبدو أن «بوشمان» علم عن طريق بعض أتباعه من الجواسيس المهمة الأساسية التى جاء بها الوفد العربى ولذا فانه أصدر تعليماته إلى جميع الفرق العسكرية فى الجزيرة بأن تستقبل رجال الشيخ مهنا بن ناصر بتظاهرة بحرية كبيرة لارهابهم ، وخرج الأسطول الهولندى بكامل قطعاته وفشلت الخطة التى وضعها الشيخ مهنا بن ناصر لتحرير الجزيرة من الاستعمار الهولندى (٥).

خلف فى حكم جزيرة خرج «المسيو فان هاوننغ» بعدما تم نقل المسيو «بوشمان» إلى منصب آخر ، ولم يكن هذا الحاكم الهولندى الجديد على علم بعادات وتقاليد العرب وكيفية التعامل معهم مما أدى إلى نفور العرب من الحكم الأجنبى الأوروبى لبلادهم وتطور الوضع إلى قيام خلافات كبيرة بينه وبين الشيخ مهنا بن ناصر ، واستغل الإيرانيون هذا الخلاف لصالحهم ، وأرسلوا قوات عسكرية إلى جزيرة ريق وأسرع الهولنديون لمساعدة الإيرانيين بموجب الاتفاق والتحالف معهم ، وقامت القوات القوات الإيرانية - الهولندية بهجوم مشترك على قوات الشيخ مهنا بن ناصر ، الذى لجأ إلى خدعة أمام هذا الحشد الكبير من القوات ، وأوصى رجاله بأن ينسحبوا من شواطىء الجزيرة ويغروا القوات الإيرانية والهولندية المشتركة بتعقبهم والتوغل إلى الداخل حتى إذا ما فعلوا ذلك إنقض عليهم رجال الشيخ مهنا بن ناصر بأسلحتهم بعيداً عن مرمى مدفعية الأسطول التى تحمى قوات المشاه وأرغموهم على الفرار تاركين وراءهم القتلى والجرحى وبقايا من الأسلحة .

لم يكتف الشيخ مهنا بن ناصر برد الحملة الإيرانية - الهولندية المشتركة عن ميناء ريق وتمزيقها بل اتجه إلى جزيرة الخرج وأنزل قواته فيها وحاصر القلعة التى تحصنت القوات الهولندية فيها والتى لم تجد أمامها سوى الدخول فى مفاوضات مع الشيخ مهنا بن ناصر ، الذى قبل العرض الهولندى وتوجه مع عدد من رؤساء رجاله ودخلوا القلعة للتفاوض إلا أن «فان هاوننغ» دبر لهم المكيدة فى الخفاء واعتقلهم جميعًا داخل القلعة فى حين تمكن الشيخ مهنا بن ناصر من الهرب من الأسر وعاد إلى جزيرة ريق ليبدأ المقاومة من جديد ضد الاستعمار الهولندى فى حين تم إرسال الأسرى من قبل حاكم الجزيرة إلى جاكرتا .

عندما كان يقيم الشيخ مهنا بن ناصر فى جزيرة خرج عام ١٧٦٢ حدث نزاع بينه وبين حاكم بوشهر فتحالف الهولنديون مع الحاكم بالاشتراك مع الإيرانيين وتوجهوا بقواتهم لقتال الشيخ مهنا بن ناصر الذى استخدم ذكاءه فى هذه المعركة وأمر رجاله بأن لايتعرضوا للقوات

الإيرانية - الهولندية المشتركة في الدخول إلى أعماق الجزيرة حتى إذا ما فعلوا ذلك وتوغلت القوات المهاجمة انقض رجاله ، وهكذا فر وهرب الناجون بأنفسهم تاركين قتلاهم فى أرض المعركة ولحق الشيخ مهنا بن ناصر وقواته بالفارين المهزومين وأطبقوا عليهم ، من ثم قام بهجوم كبير عام ١٧٦٥ وحاصر القلعة طويلاً قبل أن يفتحها ، واستطاع الشيخ مهنا بن ناصر أن يحقق انتصاراً كبيراً ويطردهم نهائيًا من الجزيرة التى عادت من جديد عربية محررة من الاستعمار الهولندى ويقول الرحالة «بارسونز» بأن الشيخ مهنا بن ناصر عندما دخل القلعة أجبرهم على الخروج منها ومغادرتها على ظهر إحدى السفن الهولندية إلى جاكرتا ولم يسمح لهم بأية مؤن كافية للرحلة ، وقبل أن تقلع بهم تلك السفينة كان قد انتزع منها كل مدافعها وما فيها من قذائف وبارود بالإضافة إلى حصوله على غنائم هائلة من البضائع والنقود مما يخص شركة الهند الشرقية الهولندية والممتلكات التى تخص الموظفين والخدم » .

الحملة الإيرانية - البريطانية ضد الشيخ مهنا بن ناصر :

قدم البريطانيون مساعدة عسكرية كبيرة لحكام إيران لبسط نفوذهم على الأقاليم والجزر العربية فى الساحل الشرقى من الخليج العربى والتخلص من الإضطرابات والثورات العربية التى كانت تجتاح إيران وبالتالى تؤثر على المصالح البريطانية وتجارتها فى المنطقة ، ومقابل المساعدات العسكرية البريطانية منح كريم خان الزندى شاه إيران ميناء بوشهر عام ١٧٦٣ للبريطانيين لإقامة قاعدة بحرية للأسطول البريطانى ووكالة تجارية ومقيمية سياسية فى الخليج العربى . ويمكن تسمية تلك الفترة مرحلة بوشهر التى استمرت قاعدة للنفوذ البريطانى السياسى فى الخليج العربى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية أو على وجه التحديد عام ١٩٤٦ عندما انتقلت إلى البحرين .

تغيرت الامتيازات البريطانية السابقة بعدما صادق كريم خان الزندى شاه إيران على اتفاقية إنشاء المقيمية البريطانية فى بوشهر ، وأصبح ذلك نموذجًا للتنازلات الأخرى التى منحها للبريطانيين فى المقاطعات الإيرانية الأخرى ، ويمكن القول بأن اتفاقية بوشهر أصبحت أساسًا لجميع المعاهدات والامتيازات التى استحوذ عليها البريطانيون فى إيران والتى تشبه إلى حد كبير الامتيازات التى يتمتع بها الأوروبيون فى الولايات العثمانية وإن تميزت إيران بمنحها المزيد من الامتيازات العسكرية والتجارية بسخاء كبير للأوروبيين وخاصة البريطانيين وتأكد ذلك بفرمان أصدره شاه إيران نص على منح البريطانيين الحق فى إقامة مقيمات تابعة

لهم فى جميع الأراضى الإيرانية إنطلاقًا من تقديره وصداقته للاستعمار البريطانى الذى ساعده فى القضاء على المقاومة العربية فى الساحل الشرقى من الخليج العربى ، وأصبح ميناء بوشهر منذ عام ١٧٦٣ المركز الرئيسى الأول للتمثيل البريطانى فى منطقة الخليج العربى (٦) والذى اتخذ فى البداية طابعًا تجاريًا ثم تطور بعد ذلك لكى يتخذ طابعًا سياسيًا ثم أصبحت له سلطة عسكرية بعدما أخضع الأسطول البريطانى فى الخليج العربى لإرادته فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

بذلك تحالف كريم خان الزندى شاه إيران مع أشد أعداء العرب فى الخليج العربى ألا وهو الاستعمار البريطانى الذى كان يتطلع بعدما تخلص من منافسة الهولنديين إلى توطيد أقدامه فى الخليج العربى ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد راح عدد من الخونة العرب بدافع الأطماع وباغراء من البريطانيين وجواسيسهم يستعدون للتخلص من الشيخ مهنا بن ناصر ويضعون رجالهم وأسلحتهم فى خدمة الأطماع الإيرانية والاستعمار البريطانى معًا ، علما بأن الحملات الإيرانية - البريطانية المشتركة كانت تهاجم المواقع العربية قبل ذلك التاريخ . ولكن بعد تحرير الشيخ مهنا بن ناصر جزيرة «الخرج» عام ١٧٦٥ تزايدت الحملات المشتركة ضده ، وأصبح هذا الشيخ بعد الانتصار الكبير على الهولنديين يسيطر على الملاحة فى الخليج العربى بعد أن اتخذ من القلعة التى طرد الهولنديين منها مقرًا لعملياته البحرية ضد الإيرانيين والعثمانيين والبريطانيين جميعًا .

هذا ما دفع القوى المناهضة للشيخ مهنا بن ناصر إلى توحيد جهودها للتخلص من نشاطه وخاصة أنه أثار قلق العثمانيين والإيرانيين بمطالبته بعربستان كما أثار قلق البريطانيين بسيطرته على الملاحة فى شمال الخليج العربى مما دفعهم لتوحيد جهودهم وتوقيع اتفاقية مع كريم خان الزندى شاه إيران عام ١٧٦٧ والتى نصت على مساعدة البريطانيين لإيران فى التخلص من الشيخ مهنا بن ناصر ، مقابل احتلال البريطانيين لجزيرة الخرج ، ورغم التحالف الذى كان بين البريطانيين والإيرانيين إلا أن الشيخ مهنا بن ناصر تمكن من إفشال عدة هجمات مشتركة قامت بها القوات البريطانية - الإيرانية ضده .

تعاظم الصراع بين العرب وسكان إيران فى الخليج العربى بعدما استولى كريم خان على الحكم فى إيران ، فعلى الرغم من اتباع مهنا بن ناصر سياسة التقارب والمهادنة مع حكام إيران ، فقد ظلوا وعلى رأسهم كريم خان يدعون السيادة على الجزيرة «ريق» و «خرج» وحاولوا مرات عديدة انتزاعهما من أيدى أصحابها العرب .

شنت القوات الإيرانية - البريطانية المشتركة هجومًا كبيراً على القوات العربية ووقع الشيخ مهنا بن ناصر أسيراً فى أيدى القوات الإيرانية فى عام ١٧٦٩ إلا أنه استطاع الهروب من الأسر وأن يلجأ إلى الكويت ومن ثم يعود ثانية إلى ميناء ريق ويشرع بمهاجمة القوات الايرانية والبريطانية على حد سواء . وجدد الإيرانيون محاولاتهم مع البريطانيين لاحتلال ميناء ريق مرة أخرى ، فقد أعد كريم خان شاه إيران جيشًا قويًا وأسطولاً مؤلفًا من عشرات السفن إضافة إلى الأسطول البريطانى ، وإنزال القوات إلى بر الجزيرة وأمام هذا الهجوم الإيرانى - البريطانى المشترك الكبير انسحب الشيخ مهنا بن ناصر ورجاله إلى جزيرة «خاركو» الصغيرة حتى إذا ما انسحبت القوات الإيرانية والبريطانية المشتركة ، ارتد الشيخ مهنا بن ناصر وقواته إلى جزيرة ريق فهاجموا الحامية الإيرانية والبريطانية وحرروا الجزيرة وأعادوها عربية خالصة مثلما كانت عليه قبلاً .

أمام هذه المقاومة الباسلة والإصرار الكبير من قبل الشيخ مهنا بن ناصر لمواجهة الأعداء تحركت قوات التحالف المشترك بين إيران وبريطانيا بقيادة سفن الأسطول البريطانى إلى المواقع التى يسيطر عليها الشيخ مهنا بن ناصر ، وبدأت تهاجم ميناء ريق بشدة ولكنها لم تستطع الاستيلاء عليها فتحولت القوات الإيرانية - البريطانية المشتركة إلى جزيرة خرج وحاصرتها شديداً أدى إلى موت الكثير من رجال الشيخ مهنا بن ناصر جوعًا ومن ثم نزلت القوات البريطانية - الإيرانية إلى البر فى عام ١٧٦٩ ، وأحرقت ودمرت كل ما وجدت فى طريقها .

استمر القتال فى البر والبحر لمدة سنتين ، ولكن الشيخ مهنا بن ناصر استطاع بدهائه وحنكته وبسالة رجاله من القبائل العربية أن يصمد أمام المهاجمين فى كل مكان حاولوا اقتحامه وأن يرد هجماته الواحدة بعد الأخرى مما يدل على تعلق العرب باستقلالهم وحريتهم ومدى الصمود فى الدفاع عن أراضيهم وسيادتهم مثلما كانت شجاعة شيخهم مهنا بن ناصر وحنكته فى الحرب فقد كان ينتقل برجاله من موقع إلى آخر دون أن يمكن العدو المهاجم من إحراز موطىء قدم له فى أى مكان يحاول الوصول إليه .

دفع هذا الفشل القوات المشتركة الإيرانية - البريطانية إلى انتهاج سياسة جديدة وهى زرع الفتنة بين أنصار الشيخ مهنا بن ناصر والتسلل إلى جنوده وتحريضهم ضده ، واستغل البريطانيون فى ذلك القسوة التى كان عليها الشيخ مهنا بن ناصر ، واعتمدوا على بعض

الخونة الذين اشتروهم بالمال ونجحت الخطة ، فثار رجال الشيخ مهنا بن ناصر ضده وقرروا التخلص منه ، وعندما لم يجد هذا الشيخ سبيلاً لإخماد ذلك التمرد وإطفاء نار الفتنة قرر ترك مواقعه وهرب إلى البصرة حيث كانت السلطات العثمانية تسير على ذات النهج الإيرانى فى مقاومة العرب ويأتمرون بأوامر المقيم البريطانى فى بغداد والبصرة أكثر من أوامر الباب العالى ، ولذا فقد أسرع سليمان باشا الكبير متسلم البصرة بالقاء القبض على الشيخ مهنا بن ناصر وقتله شر قتلة وسحل جثته أمام الناس فى شوارع البصرة ، وهكذا تخلص الإيرانيون والبريطانيون والعثمانيون من فارس عربى كافح وقاوم وتحدى الاستعمار وعملائه.

بادرت القوات الإيرانية - البريطانية المشتركة بالاستيلاء على جزيرة خرج ، وهكذا انتهت حياة ذلك البطل العربى الذى روع الهولنديين وكان سببًا فى رد نفوذهم نهائيًا من الخليج العربى حيث لم يعد لهم بعد ذلك أية نفوذ سياسى أو عسكرى أو تجارى فى المنطقة .

إمارة عربستان :

أسس السيد محمد بن السيد فلاح المشعشعى فى الجزء الشمالى من عربستان إمارة له وجعل عاصمته «الاحواز» عام ١٤٤١ ومن ثم امتدت إلى جنوب العراق حتى أخضع البصرة لحكمه ، وبعد وفاته عام ١٥٠٨ ضعفت الإمارة المشعشعية وحرص كل شيخ قبيلة من القبائل العربية فى عربستان أن يكون صاحب الأمر فى قبيلته ، وبعد دخول سليمان القانونى بغداد عام ١٥٣٤ قدم الشيخ مانع حاكم عربستان فى «الاحواز» الولاء والطاعة للسلطان العثمانى فأقره فى منصبه ، وفشل العثمانيون فى إخضاع إمارة عربستان تحت السيطرة المباشرة فى عامى ١٥٥٤ و ١٥٨٤ ، وسيطر شيخ عربستان على الملاحة النهرية فى شط العرب وأرغم السفن على دفع ضريبة لوكيلهم فى «القبان» ، وتمكن السيد مبارك من دخول البصرة عام ١٥٩٧ ثم إلى سواحل الإحساء مستعينًا بأعداد كبيرة من القبائل العربية ، وكان والده السيد بدر يحكم «الدورق» ، وبذلك خضعت منطقة شرق شط العرب لحكم السيد مبارك ، وكانت «الاحواز» و «مجذوم» (مقفع) و «الدورق» (الفلاحية) من أهم المناطق التابعة له .

استطاع والى البصرة فى عهد أسرة «أفراسياب» بعد عدة معارك من القضاء على نفوذ السيد بدر حاكم «الدورق» وعلى نفوذ والده السيد مبارك حاكم «عربستان» ومنعهما من أخذ الرسوم من جهات البصرة وشط العرب ، وانتزع منه «القبان» ، وتولى السيد منصور حكم إمارة عربستان بعد وفاة السيد مبارك ١٦٢٣ ثم تولى السيد محمد بن مبارك حكم فى

الإمارة . وفى أواخر القرن السابع عشر ضعف نفوذ عربستان وتزايد ضغط القبائل العربية عليها وغزاها بنو «لام» وانتزع بنو كعب «القبان» وبرغم هذا الضعف الذى شهدته عربستان إلا أن حاكمها فى العاصمة «الاحواز» المولى «فرج الله» استطاع الاستيلاء على البصرة عام ١٦٩٤ ، واستمر حكم المشعشعين لعربستان ثلاث سنوات أخرى حتى عام ١٧٠٠ .

بنو كعب :

هاجرت قبيلة بنى كعب مثل بقية القبائل العربية من اليمن إلى الخليج العربي واستقرت فى «القبان» على الساحل بين ميناء «هشور» وشط العرب ، كما هاجر فرع آخر من قبيلة بنى كعب من اليمن واستقر فى عمان ، وبلغ «بنو كعب» درجة كبيرة من القوة وارتفاع الشأن فى نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن الشابع عشر ، ووقفت بقيادة شيخها «بدر بن عثمان» للدفاع عن البصرة ضد الهجمات الإيرانية ومنعتها من دخول المدينة خلال الفترة ١٦٢٤ - ١٦٢٩ وحصلت على الجزر الواقعة فى مصب شط العرب مكافأة لها على إخلاصها . وأثناء الحكم العثمانى المباشرة للبصرة عام ١٦٦٩ استمر بنو كعب فى نفس المنطقة التى استقروا فيها فى عهد «آل افراسياب» ، وفى الربع الأخير من القرن السابع عشر دخلت قبيلة بنى كعب إلى عربستان واستقرت فى المنطقة الممتدة من «القبان» إلى «خور موسى» التى أصبحت من أولى مناطقهم فى عربستان وكانوا من رعايا الدولة العثمانية على الحدود الايرانية ، وكانوا يدفعون الضرائب والمبالغ المالية إلى الخزينة العثمانية لدى باشا البصرة (١٠).

تمكنت قبيلة بنى كعب أثناء حكم الشيخ سليمان من الاستيلاء على مدينة «الدورق» عام ١٧٤٧ وأبدلت تسميتها إلى « الفلاحية» ، وقد نجح بنو كعب فى تولى الحكم فى إمارة عربستان فى أعقاب نهاية أسرة «المشعشعى» العربية التى حكمتها منذ فترة طويلة ، وكان انتقالهم من العراق إلى عربستان جاء على أثر نشوب خلاف بينهم وبين الدولة العثمانية، وحافظت إمارة عربستان على استقلالها السياسى بين دولتين قويتين على حدودها وهما إيران والدولة العثمانية ، وكان على حكام بنى كعب أن يراوغوا الطرفين للاحتفاظ باستقلالهم ، ونجح فى ذلك الشيخ سليمان الذى حافظ على استقلال إمارته دون أن يدفع الضرائب لأى من الدولتين بعدما كانت تدفع إلى الدولة العثمانية فى السابق قبل استقلال عربستان عنها (١١).

تسابقت كل من الدولة العثمانية وإيران فى كسب ود الشيخ سليمان الذى عرف فى أوروبا بشهرته نتيجة لصراعه مع البريطانيين واستيلائه على بعض سفنهم ، فقد نجح «الكعبيون» فى تكوين أسطول بحرى كبير ساعدهم فى مد نفوذهم على المناطق المجاورة ، وقد عد أسطولهم واحداً من أهم الأساطيل العربية التى ظهرت فى مياه الخليج العربى فى القرن الثامن عشر بعد أسطول اليعاربة العمانيين ، وانقسم الكعبيون إلى قسمين الأول فى «المحمرة» و «عبدان» وتتألف عشائرهم من «المحسن» و «الدريس» و «النصار» وغيرها ، والقسم الثانى أقام فى «الفلاحية» وتتألف من عشائر «مقدم » و «العساكرة» وغيرها ، وهؤلاء الأخيرين هم الذين نشبت بينهم وبين الكويت معركة «الرقة»(١٢).

وأصبحت لبنى كعب رئاسة القبائل العربية فى الجنوب واتخذوا «الفلاحية» عاصمة لهم بدلاً من «الاحواز» . وتشمل عربستان الأراضى الرسوبية بين الجبال والبحر إلى الجنوب الشرقى من العراق وتضم سهل «ديزفول» و «تستر» و «الأهواز» ، وتمتد من نهر «الكرخة» إلى المحمرة غربًا وأعالى منابع نهر قارون شمالاً ونهر «هنديان» شرقًا وشط العرب غربًا والخليج العربى جنوبًا .

وازدهرت إمارات عربستان فى عهد الشيخ سليمان الكعبى وشهدت الرخاء وسعة النفوذ ، وتم بناء القلاع واستصلاح الأراضى الزراعية وإنشاء السدود وشق الترع والقنوات ، وارتفع مركز إمارة عربستان فى عهده سياسيًا وتجاريًا وعسكريًا فأصبح يخيف الحكام الطامعين من الإيرانيين والعثمانيين فى إمارته .

تعرض الشيخ سليمان لحصار العثمانيين وكان يساند الوالى فى البصرة «مطلب المشعشعى» الذى استمر هو ومن سبقوه ومن جاء بعده من «آل المشعشع» فى التحالف مع الإيرانيين والعثمانيين لاستعادة حكمهم لإمارة عربستان ، وتعرضت الفلاحية عاصمة عربستان لحصار جديد على يد «على باشا » وإلى بغداد الذى تحالف مع كريم خان الزندى شاه إيران ضد بنى كعب ، وعندما فشل الهجوم الإيرانى - العثمانى المشترك فى القضاء على الشيخ سليمان واحتلال عربستان وجه شاه إيران إنتقامه إلى السد الكبير الذى شيده الشيخ سليمان فى منطقة «السابلة» بالأهواز فهدمه وأغرق المناطق المحيطة به .

بعد نجاح الشيخ سليمان فى صد الهجوم الإيرانى - العثمانى المشترك بتحريض من بريطانيا ، بدأ الشيخ سليمان فى اعتراض السفن التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية

وطالبها بدفع الضرائب لجمارك عربستان عام ١٧٤٧ وهدد بوقف الملاحة فى شط العرب نهائيًا ، وفرض الشيخ سليمان سلطته على القرى والبساتين التابعة للبصرة والجزر الواقعة فى شط العرب ، وقطع طرق المواصلات مع البصرة مما سبب قلقًا لدى البريطانيين الذين كانوا يتدخلون لصالح العثمانيين ، فراح البريطانيون يحرضون شاه إيران من جهة الشرق ، والعثمانيون عن طريق متسلم البصرة ووالى بغداد من جهة الغرب ، وعلى هذا الأساس توجه الجيش الإيرانى المزود بالأسلحة البريطانية لاحتلال البصرة يساعده سفن الأسطول البريطانى، وحاصرت القوات الإيرانية «الفلاحية» عاصمة إمارة عربستان فى عام ١٧٥٧ ثم استولى عليها ، فانسحب الشيخ سليمان وقواته إلى جزر شط العرب ومن هناك بدأ حرب التحرير وشن حملات ناجحة ضد الجيش الإيرانى وألحق بهم هزائم وأرغمهم على الانسحاب من عربستان ، ونظراً لأن طبيعة المنطقة فى عربستان محاطة بالمستنقعات والأنهار أصبح من الصعب على الإيرانيين والعثمانيين وحتى البريطانيين فيما بعد القيام بعمليات عسكرية ناجحة ضد بنى كعب ، وبعد عام ١٧٦٣ أصبح بنو كعب فى نزاع مستمر مع العثمانيين الذين لم يستطيعوا مقاومتهم دون مساعدة البريطانيين(١٣) .

عاد الشيخ سليمان إلى عاصمته بعد تحريرها . ومن «الفلاحية» شرع يعزز حصونه وقلاعه وقواته ، فابتنى سفنًا جديدة وأصلح التى أصابها العطب أثناء القتال مع الإيرانيين وبذلك أصبح يشكل قوة كبيرة لها أهميتها فى شط العرب وفى الخليج العربى .

وتحالف الإيرانيون والعثمانيون للمرة الثانية ضد بنى كعب فى عربستان وأعد شاه إيران بمساعدة علنية ضخمة من البريطانيين قوات برية وبحرية كبيرة ، ونجح فى احتلال وتدمير «الفلاحية» عاصمة عربستان . وانتظر كريم خان الزندى شاه إيران وصول القوات العثمانية قبل أن يهاجم مدينة «قبان» حصن آخر لبنى كعب ولكن العثمانيين تباطؤوا فى إرسال قواتهم مما أعطى الشيخ سليمان الفرصة للهروب مع سفنه وقواته الحربية إلى مكان آخر يقع على الجانب الغربى من «عبدان» فى شط العرب حيث لايستطيع شاه إيران الوصول إليه بسهولة فى الوقت الذى تأخر العثمانيون بسبب تجهيز قوات كبيرة بكامل معداتها مما أدى إلى سحب شاه إيران قواته من عربستان قبل أن يتحرك العثمانيين فى مارس عام ١٧٦٥ وغضب شاه إيران من ذلك واعتبر العثمانيون مسؤولين عن فشله فى التغلب على بنى كعب.

بعدما أكمل العثمانيون استعدادهم خرجوا من البصرة برفقة أسطول بحرى وقوات برية ضخمة قوامها خمسة آلاف مقاتل تجمعوا عند الضفة الغربية لشط العرب ، وتحركوا بمساعدة الأسطول البريطانى إلى الجهة المقابلة لعبدان وعسكروا فيها مما سهّل عمليات الأسطول البحرى لبنى كعب الراسى فى «عبدان» والذى شن هجمات على القوات العثمانية والسفن البريطانية ، واستولى على ثلاث سفن دون مقاومة تذكر أثناء منتصف الليل ، وما أن أصبح الصبح حتى كان أسطول عربستان يمخر عباب شط العرب فوصل إلى الضفة الغربية وهاجم بعض القرى واستولى على عدد كبير من السفن العثمانية ، واستفاد بنو كعب من توقف الجيش الإيرانى عن الزحف على عربستان مما أجبر العثمانيين على وقف القتال والدخول فى مفاوضات مع الشيخ سليمان . ومن ثم انسحبت القوات العثمانية إلى البصرة بعد فشلها وبذلك انتصر بنو كعب الذين لم تتجاوز قواتهم أكثر من ألف وثمانمائة مقاتل ضد الجيشين الإيرانى والعثمانى .

قرر الشيخ سليمان أن يعزز قواته ويصفى حسابه مع البريطانيين الذين كانوا يتحالفون ضد العرب سواء بالتعاون مع الإيرانيين أو العثمانيين أو أحيانًا معهم الإثنين ضد عرب الخليج ، وكان البريطانيين مصدر تحريض ضد بنى كعب وأمدوا الإيرانيين والعثمانيين بالمال والسلاح والسفن ، لهذا اعتبر الشيخ سليمان البريطانيين خطراً على إمارته وبالتالى على العرب فى عربستان مما دفعه للقيام بأولى الهجمات ضدهم فى ١٨ يوليو ١٧٦٥ ، واستولت سفن عربستان الحربية على إثنتين من السفن الحربية البريطانية فى أثناء إبحارها من «بوشهر» إلى البصرة ، وبعد عدة أيام قامت سفن أسطول عربستان بالاستيلاء على السفينة البريطانية «فورت وليم» التى كانت تقوم بالتجارة تحت حماية أسطول شركة الهند الشرقية البريطانية مما أدى إلى صراع مرير بين بريطانيا وبنى كعب(١٤).

بعد استيلاء بنى كعب على تلك السفينة كتب وكيل شركة الهند الشرقية البريطانية فى البصرة رسالة إلى الشيخ سليمان طالبًا منه تفسير ذلك وإرجاع السفن البريطانية على الفور، إلا أن شيخ عربستان رفض ذلك واتهم بريطانيا بقطع العلاقات الودية معه وبتدخلها فى شؤونه الداخلية وإهانتها لأتباعه مما أدى إلى قيام حرب بين بريطانيا وإمارة عربستان ، وكان ذلك حدثًا مهمًا فى تاريخ الخليج العربى ليس لأنه أول صدام عسكرى مباشر بين عرب إمارة عربستان وبريطانيا وإنما لانعكاسه على علاقات البريطانيين بالعثمانيين والإيرانيين إضافة

إلى أثره على الموقف السياسى وإلى حد ما التجارى لسنين عديدة لاحقة ، وكانت مثالاً آخر على مصالح الشركة البريطانية المتزايدة فى الخليج العربى واستعدادها للقيام بأية إجراءات عسكرية وسياسية لحماية مصالحها التجارية . وأصبح من الواضح الحرب المباشرة بينهما حتمًا بعدما تم نقل الوكالة للشركة البريطانية من «بندر عباس» إلى «البصرة» والتى كانت هى النقطة الأخيرة لحماية مصالحها المتدهورة أو التى تعرضت للزوال .

وخوفًا مما حدث للهولنديين على أيدى الشيخ مهنا بن ناصر فى جزيرة «الخرج» والذى أدى إلى نهاية وجودهم ، كان البريطانيون قد بذلوا قصارى جهودهم للمحافظة على هذا القدم الأخير حتى لاتزول من المنطقة ويكون مصيرهم مصير الهولنديين فى الوقت الذى كانت تجارة البصرة فى أوج إزدهارها ، إلا أن قوة عربستان برئاسة قبائل بنى كعب المتزايدة بعد عام ١٧٦٣ شكلت خطراً حقيقيًا وتهديداً دائمًا للوجود البريطانى ، ولهذا كان البريطانيون مستعدون بالتضحية بكل شيء لأجل الحفاظ على مصالحهم ومن أجل ذلك قدموا مساعدات كبيرة لكل من الإيرانيين والعثمانيين ضد قبيلة بنى كعب فى عربستان .

عندما فشلت الحملات الإيرانية المتكررة على عربستان وكذلك الحملات العثمانية العديدة بين عامى ١٧٦١ و ١٧٦٥ برغم المساعدات والدعم البريطانى المالى والعسكرى بالسفن التابعة لأسطول شركة الهند الشرقية البريطانية إلا أنها لم تحقق نتائج حاسمة مما أدى إلى دخول البريطانيين الحرب مباشرة ضد بنى كعب حكام عربستان .

عقد رئيس الوكالة لشركة الهند الشرقية والبريطانية فى البصرة مع المتسلم العثمانى اتفاقية تنص على قيام تحالف بين البريطانيين والعثمانيين لمحاربة بنى كعب حكام عربستان على أن يقوم البريطانيون بارسال قوة بحرية من الهند لمواجهة قبائل بنى كعب من البحر بينما تتقدم القوات العثمانية البرية من البصرة لمهاجمتهم ، كتب رئيس الوكالة لشركة الهند الشرقية البريطانية تقريراً إلى مقره فى الهند أبلغهم باستيلاء قبائل بنى كعب فى عربستان على السفن البريطانية وباتفاقيته التى أبرمها مع العثمانيين فى البصرة كما أكد فى كتابه بأنه إذا لم يتم القضاء على قبائل بنى كعب فى عربستان فانه سيكون من المستحيل القيام بأى نشاط تجارى فى المنطقة (١٥).

تحرك الأسطول البريطانى من الهند ودخل مياه شط العرب فى مارس ١٧٦٦ ، وآن ذاك تقدم وكيل شركة الهند الشرقية البريطانية فى البصرة إلى شيخ سليمان حاكم عربستان بالمطالب الآتية :

١- أن يقوم بتسليم السفن البريطانية التى استولى عليها رجاله من قبل .

٢- أن يعيد حمولة تلك السفن من السلع والبضائع وأن يدفع تعويضًا عن أى نقص حدث فى تلك السلع .

٣- أن يتحمل الشيخ سليمان وحده نفقات وجود الأسطول البريطانى الراسى فى شط العرب طيلة بقائه هناك .

٤- أن يعطى الشيخ سليمان تعهداً لشركة الهند الشرقية البريطانية بعدم التعرض لأية سفينة تعود إلى الشركة أو تعمل لحسابها أو تحت حمايتها .

لم يرد الشيخ سليمان حاكم عربستان على تلك المطالب وآن ذاك توجه البريطانيون وحلفاؤهم من العثمانيين إلى قواعد بنى كعب فى شط العرب لاقتحامها بالقوة ، وتحرك الأسطول البريطانى نحو مدينة «قبان» معتقداً بوجود الشيخ سليمان الذى استطاع بذكائه سحب كامل سفنه قبل وصول الأسطول البريطانى إليها والذى كان مرتبطًا بين «قبان» و«الفلاحية» بجدول صغير حيث كان قد انتهى الشيخ سليمان من حفره ، وأن يحشد عند بلدة «الفلاحية» التى سبق له أن أعاد بناءها بعد أن دمرها الإيرانيون وأقام فيها قلعة كبيرة وحصينة . وعلى أثرها توجهت القوات البريطانية برفقة السفن الحربية للأسطول بعدما قرر البريطانيون والعثمانيون نقل عملياتهم العسكرية ضد عربستان إلى «الفلاحية» فى الوقت الذى وصلت أيضًا القوات العثمانية إلى هناك وأقامت لها معسكراً بالقرب من الفلاحية(١٦).

استمرت العمليات العسكرية البريطانية - العثمانية المشتركة ضد قبيلة بنى كعب فى إمارة عربستان قرابة ستة أشهر وبالرغم من الصعوبات التى تعرضت لها الحملة ، فقد أصر البريطانيون على متابعتها . أما العثمانيون الذين كانوا متحمسين للحرب ضد بنى كعب فقد برهنوا على ضعفهم وترددهم فقد فشلوا فى تلك الحرب ، كما لم يتمكن الأسطول البريطانى من المرور بالجدول أو القناة الصغيرة التى تؤدى إلى الفلاحية لذا رابط فى شط العرب لحماية القوات ولمنع سفن عربستان الحربية من جلب المؤن وإعاقة العلميات الحربية لبنى كعب بأى شكل من الأشكال . وفى شهر يونيو وصلت إمدادات عثمانية جديدة مكونة من ألف وخمسمائة جندى من بغداد للانضمام لقواتهم المتواجدة بالقرب من الفلاحية . كان العثمانيون يعرفون قوة القبائل العربية ولذا ترددوا فى شن أى هجوم على بنى كعب مدعين بأنهم فى انتظار وصول مزيد من الإمدادات من بغداد .

استطاع عرب بنى كعب بصمودهم واستماتتهم فى الدفاع عن أراضيهم أن يمنعوا وصول قوات التحالف البريطانى - العثمانى ، وأحرقوا العديد من سفن الأسطول المهاجم والذى كان من بينها سبع سفن من مجموع إثنتى عشرة سفينة كانت تؤلف القوة البحرية لوالى بغداد العثمانى ومن ضمنها سفينة القيادة نفسها فضلاً عن الإطباق على الأسطول البريطانى أيضًا والمؤلف من أربع سفن كبيرة وكتيبة من المشاة الأوروبيين والمدفعية ، وحاول البريطانيون الوصول إلى السفن الثلاثة التى استولت عليها قوات عربستان فى السابق ولكن قبائل بنى كعب العربية أحبطوا تلك المحاولة وأحرقوا السفن الثلاث أمام أنظار البريطانيين وحلفائهم .

أقام البريطانيون معسكراً بالقرب من القوات العثمانية للقيام بعمليات عسكرية كبيرة ولما فشلوا باقناع العثمانيين بشن هجوم كبير على الفلاحية عاصمة عربستان ، قام البريطانيون بشن الهجوم وحدهم فى سبتمبر عام ١٧٦٥ ، إلا أنهم منيوا بهزيمة كبيرة كما قتل ضابط برتبة نقيب وإثنان من الضباط وعريف وأكثر من ثمانية عشر آخرين ، بينما جرح أكثر من خمسين ، واستولت قوات عربستان على مدافع الميدان مع ثلاثة عشر صندوقًا للذخيرة ، وبذلك لحقت بالبريطانيين خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ما دفع البريطانيين الذين لم يحرزوا أية انتصارات إلى وضع حد للحرب بأى ثمن .

وما أن تلقى وكيل الشركة البريطانية فى البصرة أنباء تلك الهزيمة حتى أمر قائد القوات البريطانية عند مشارف الفلاحية الإنسحاب منها وعدم اللجوء إلى القيام بأية عمليات برية أخرى ، ولاسيما بعد أن تظاهر شاه إيران باتخاذ موقف الحياد إزاء المتحاربين بعد تردد العثمانيين ، وقد يرجع ذلك إلى تخوفه من انتقام قبائل عربستان من الإيرانيين فيما بعد أو نظراً لفشله فى هجماته السابقة التى شنها على عربستان (١٧).

تقرر إبقاء الأسطول البريطانى فى مياه شط العرب لحماية التجارة وفرض الحصار البحرى ضد عربستان على أن يتحمل العثمانيون نفقات ذلك ، وبعد الإنسحاب البريطانى بهزيمتهم من المعركة استمر الحصار البحرى لمدة عامين .

ويقول «أرنولد ولسون» الحاكم السياسى البريطانى العام للعراق فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فى كتابه «الخليج العربى» عن هذه المعارك ما يلى :

بعد الهجوم البريطانى - الإيرانى الفاشل فى عام ١٧٦٥ على جزيرة «الخرج» حدث تطور مفاجىء وجديد فى الشؤون السياسية للخليج وذلك فى أعقاب إقدام بنى كعب على أسر

ثلاث سفن بريطانية فى شط العرب ، فبعد ذلك الحادث بدأت حكومة بومباى وعلى جناح السرعة بتجهيز أكبر حملة سارت من الهند إلى الخليج العربى منذ سنتين وقد تألفت هذه الحملة من أربع سفن كبيرة وكتيبة من المشاة الأوروبيين والمدفعية .

أعقب ذلك قتال شديد شارك فيه البريطانيون والعثمانيون جنبًا إلى جنب فى البحر وفى البر ، كما جرت محاولات لاسترجاع السفن الأسيرة ، ولكن تلك السفن سرعان ما أحرقت وهى فى مراسيها ، وحين قام البريطانيون بمحاولة لاقتحام تحصينات بنى كعب فى «خور موسى» جوبهوا بمقاومة جبارة ألحقت بهم خسائر كبيرة .

وعلى أثر هذه الحملات الفاشلة قام البريطانيون بفرض حصار بحرى على الممر المائى الذى يصل إلى مواقع بنى كعب والذى كانوا يسيطرون عليه سيطرة تامة . وقد استمر هذا الحصار لمدة عامين ولكن فى نهاية هذه المدة وصلت حالة الأسطول المحاصر إلى وضع يائس فاضطر البريطانيون إلى رفع الحصار مرغمين وبقى بنو كعب غير خاضعين إلى أحد ، واستمروا فترة طويلة يشكلون شوكة فى جنب الإيرانيين والعثمانيين والبريطانيين وعلى التوالى .

البصرة :

تأثرت البصرة بالنزاعات والصراعات المحلية والإقليمية بحكم موقعها على طرق المواصلات والتجارة ولربطها بين نهرى الفرات ودجلة ونهر قارون وشط العرب والطريق البرى إلى الشام وبين مياه الخليج العربى إحدى الطرق الرئيسية للتجارة والملاحة الدولية فى تلك الفترة ، وارتباطها بالصراعات القبلية سواء من داخلها وحولها أو المناطق المجاورة منها سواء فى عربستان والكويت وبادية شمال الجزيرة العربية . وكان مجىء العثمانيين إلى بغداد سببًا فى خضوع البصرة للحكم العثمانى الإسمى عندما أعلن حاكمها الشيخ «راشد بن مغامس المنتفق» دخوله فى طاعة السلطان سليمان القانونى فى عام ١٥٣٤ .

ترك السلطان سليمان القانونى البصرة والمناطق المجاورة لها لشيوخ القبائل العربية بعدما أرسل الشيخ راشد بن مغامس ولده مانع إلى السلطان العثمانى عند دخوله بغداد عام ١٥٣٤ ليعرض الطاعة والولاء ويقدم مفاتيح البصرة ، ولذا أقر السلطان العثمانى والده على حكم البصرة بشروط منها أن تكون الخطبة والنقود باسم السلطان وأن يكون تابعًا لولاة بغداد فى المسائل المهمة كما قدم شيوخ القبائل العربية الأخرى مثل شيوخ «الجزاير» و «عربستان» ولاءهم للسلطان العثمانى .

لم تخضع البصرة للحكم العثمانى المباشر إلا فى ديسمبر عام ١٥٤٦ ، نظراً لرفض الشيخ راشد بن مغامس المنتفق التنازل عن سيادته الكاملة للعثمانيين ، فلم يذكر إسم السلطان فى الخطبة ولم يظهره على النقود حتى عام ١٥٣٨ ورفض إعادة بعض الهاربين من والى بغداد إليه ، وعندما وقف بجانب أحد شيوخ القبائل فى منطقة «الجزاير» الذى رفض الحكم العثمانى وأيده شيخ البصرة فاعتبرته الدولة العثمانية عاصيًا واعتبرت ذلك سببًا مناسبًا لاقالته ، وانتهزت هذه الفرصة فأرسلت جيشًا بقيادة والى بغداد إياس باشا الذى دخل البصرة بدون حرب ، ونظم إياس باشا والى بغداد شؤون البصرة وضم إليها وسط «الجزاير» .

قد يرجع إخضاع البصرة للحكم العثمانى ليس لتصرفات شيخها راشد بن مغامس المنتفق بقدر ما يرجع إلى رغبة الباب العالى فى الوصول إلى مياه الخليج العربى وإقامة قاعدة بحرية للإتصال بأسطولها فى البحر الأحمر وولايتها فى مصر والدخول فى صراع لمواجهة البرتغاليين الذين سبقوا العثمانيين إلى المنطقة وسيطروا عليها بعد عام ١٥٢١ .

عين الباب العالى بلال محمد باشا برتبة «بيكلر بك» وأصدر فى عام ٧٤ - ١٩٧٥ قانون نامة لولاية البصرة والتى تم تقسيمها إلى عشرين لواء وتعتبر أراضيها من إلتزام الوالى العثمانى ، ولكن الأمور لم تستقر للحكم العثمانى المباشر لضعف القوة العسكرية المتواجدة فيها مما اضطر حاكمها إلى الاعتماد على مساعدة ولاة بغداد للدفاع عنها أو لإخماد حركات التمرد كما كانت حدودها الإدارية فى تغير مستمر ؛ ففى بعض الأحيان لاتتجاوز ضواحى المدينة وفى أحيان أخرى تتسع لتشمل «المنتفق» و «العمارة» و«الإحساء» حسب قوة حاكمها وعلاقته بولاة بغداد والباب العالى (١٨).

البصرة تحت حكم افراسياب :

عجز درويش باشا الوالى العثمانى فى البصرة عام ١٥٩٦ عن إدارة شؤونها بسبب سوء الإدارة مما نتج عنه قلة الإيرادات ولم يستطع دفع أرزاق جنده ومقاطعة القبائل العربية له مما أدى إلى ضعف أمره وعدم قدرته على تدبير شؤون الولاية فباع منصبه إلى كاتب جند البصرة «افراسياب» «الديرى» «السلجوقى» بثمانية أكياس من الذهب واشترط عليه استمرار الخطبة والسكة باسم السلطان العثمانى محمد الثالث ١٥٩٥ - ١٦٠٢ .

تولى «آفراسياب» إدارة ولاية البصرة وحسنت سيرته وتوسعت تجارة البصرة وأحبه الناس ثم توسع فى حدود حكمه وضم منطقة «الجزاير» ومنع شيخ عربستان من أخذ الضرائب من سكان البصرة ونشر العلم والعدل . وبعد وفاته فى عام ١٦٠٣ خلفه إبنه على باشا وكان حازمًا كأبيه وشجع العلم ونشر الأمن وسع حدود ولايته البصرة وبعد وفاته عام ١٦٤٧ خلفه إبنه حسين باشا الذى أساء السيرة إلى تجار وأعيان البصرة ، فشكوه إلى السلطات العثمانية التى أرسلت إليه ثلاث حملات وتمكنت فى الثالثة من طرده واستعادة البصرة للحكم المباشر وذلك على أثر خلاف بين حسين باشا وبين عميه «أحمد آغا» و «فتحى بك» ولدى «افراسياب» اللذين فرا إلى الإحساء ثم إلى بغداد فالآستانة . وقدم شكوى إلى السلطان محمد الرابع ١٦٤٨ - ١٦٨٧ الذى أمر والى بغداد مرتضى باشا بطرده فجهز قواته وحاصر البصرة فى عام ١٦٥٣ ثلاثة أشهر وانتهى الأمر بهروب حسين باشا وأسرته إلى إيران .

أساء مرتضى باشا التصرف مع القبائل العربية فى البصرة وقتل أحمد اغا وفتحى بك وآفراسياب وصادر أموال الأعيان والوجهاء المؤيدين لآل افراسياب فثارت عليه القبائل العربية فى البصرة ؛ فاضطر مرتضى باشا إلى ترك البصرة بعد فترة قصيرة من حكمها واستدعى سكان البصرة حسين باشا افراسياب فدخلها فى عام ١٦٥٤ ، وأرسل الهدايا للسلطان العثمانى الذى قبل الأمر الواقع ومنحه لقب وزير . وفى عام ١٦٦٢ ضم حسين باشا ولاية الإحساء للبصرة وطرد حاكمها محمد باشا الذى كان سببًا فى تحريض وتقديم الشكوى من قبل عميه إلى السلطان العثمانى ، ولكن محمد باشا حاكم الإحساء المطرود لم يكن سهلاً أو يستسلم لحسين باشا فتوجه إلى «استنبول» واستغاث بالسلطان العثمانى الذى أمر والى بغداد ابراهيم باشا بقيادة حملة كبيرة ضمت قوات الولايات المجاورة التى تجاوزت أكثر من خمسين ألفًا من الجنود وزحفت على البصرة فى خريف ١٦٦٥ لخلع حسين باشا وإعادة محمد باشا إلى ولاية الإحساء ، فخرج حسين باشا افراسياب من البصرة وتحصن فى القرنة وعندما أدرك عدم قدرته على مواجهة الجيش العثمانى قدم الرشوة إلى القادة وكبار الضباط واعتذر لقائد الحملة ابراهيم باشا عن ضمه ولاية الإحساء . وتم الاتفاق بينهما ولكن السلطان العثمانى رفض ذلك وأمر بطرده نهائيًا وتعيين «يحيى اغا» مكانه وهو «كتخدا» وصهر حسين افراسياب ، وعندما وجد حسين افراسياب عدم إمكانية المقاومة ضد الجيش العثمانى هرب مع أسرته إلى إيران .

فى حين وجد الوالى الجديد يحيى باشا نفسه مقيداً بموظفين عثمانيين مستقلين عنه مثل «الدفتردار» و «القاضى» و «أغا الانكشارية» أخذ يجمع من حوله الأعوان . وعندما قوى طردهم وطلب من السلطان الإنفراد فى الحكم مقابل خراج سنوى ٢٠٠ كيس وبمساعدة القبائل العربية تمكن من القضاء على الإنكشارية مما أثار غضب السلطان العثمانى الذى عزله عام ١٦٦٩ وتولى «قبوجى مصطفى» باشا . ومن بعده تولى حكم البصرة فى الربع الأخير من القرن السابع عشر عدد من الباشوات العثمانيين أساء بعضهم السيرة وكان آخرهم عبد الرحمن باشا ١٦٨٢ - ١٦٨٦ الذى كان عالمًا فاضلاً فجدد بناء المساجد والمدارس ، وتعرضت البصرة فى هذه الفترة إلى غارات القبائل العربية المجاورة مثل «المنتفق» و«الجزاير» و «بنولام» وغيرها التى كانت مصدر إزعاج مستمر لولاة البصرة وتمكنت من قتل الوالى أحمد باشا الذى فرض الرسوم والضرائب الباهظة على سكانها كما قتلوا «كتخذا» ونهبوا معسكرات الجيش العثمانى فى عام ١٦٩٢ ، فاضطرت السلطات العثمانية فى بغداد إلى إرضاء الشيخ مانع زعيم قبائل المنتفق ليسمح لوالى البصرة الجديد خليل باشا باستخدام منصبه الذى حكم ثلاثة أعوام ٩٤ - ١٦٩٧ ولكنه عجز عن ضبطها وإدارتها فأبعدته القبائل العربية واختاروا حسن الجمال ليقوم بادارتها حتى وصول الوالى الجديد (١٩).

استعد الباب العالى لاستخلاص البصرة من سيطرة القبائل العربية وأرسلت عدة حملات ولم تتمكن من السيطرة على القبائل العربية إلا فى عام ١٧٠٠ عندما نجح على باشا والى بغداد بمساعدة قوات الولايات المجاورة من دخول البصرة وبناء أسطول بحرى فى «الفرات» ضم حوالى ١٢٠ سفينة متنوعة ، ولكن شيخ قبائل المنتفق «مغامس بن مانع» انتزع البصرة ثانية فى عام ١٧٠٥ حتى أخرجه منها والى بغداد حسين باشا فى ديسمبر عام ١٧٠٨ وضمها إلي ولاية بغداد ، وبذلك فشلت الولاية العثمانية فى ضبط إدارة البصرة فى هذه الفترة لسيطرة القبائل العربية وتدخلها فى شؤون ولاية البصرة .

الإحساء :

تتابع على حكم الإحساء كل من «العيونيين» و «الجبور» و «آل مغامس» ، ويرجع أول استقرار سياسى منظم فى التاريخ الحديث لشرق الجزيرة العربية فى المنطقة الممتدة بين شط العرب شمالاً وقطر جنوبًا إلى قبيلة «الجبور» فى الإحساء والمناطق المجاورة لها بعد استقلالهم عن مملكة هرمز العربية منذ بداية القرن الخامس عشر ، ووصل نفوذهم إلى البحرين

وعمان ، وبعد الاحتلال الهرمزى - البرتغالى المشترك للبحرين ومقتل شيخها مقرن بن زامل أثناء مقاومته للاستعمار البرتغالى عام ١٥٢١ مما أدى إلى تفكك زعامة قبيلة «الجبور» وحكمها فى الإحساء خاصة بعد التنافس والإنقسام الداخلى ، وتنتمى قبائل الجبور لبنى عقيل وهم أخوة المنتفق أو أبناء عمومتهم وقد استوطن الأخيرون الأقسام الجنوبية من العراق أما الجبور فقد حكموا الإحساء خلال القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر وامتد حكمهم إلى البحرين وعمان ونجد (٢٠). وتعتبر الجبور من القبائل التى هاجرت من اليمن مباشرة إلى الإحساء ومنها إلى العراق وعمان .

جاءت الضربة القوية من البصرة عندما استطاع حاكمها الشيخ راشد بن مغامس شيخ قبائل المنتفق من آل فضل السيطرة على الإحساء وضمها إلى البصرة عام ١٥٢٥ واستمر آل فضل من آل مغامس شيوخ قبيلة المنتفق فى حكم الإحساء والبصرة قرابة خمسة وعشرين عاما ١٥٢٥ - ١٥٥١ . حتى نجح الباب العالى فى انتزاع الإحساء من آل مغامس بعد سيطرة الدولة العثمانية على البصرة وإخضاعها لحكمها المباشر ، وقد ضمت ولاية الإحساء وفقًا للتقسيمات الإدارية العثمانية «القطيف» و «المبرز» و «جبرين» و «قوبان» و «الشهامية» و «عيون» وغيرها ، والبحرين فى بعض الأحيان ، أخضع الإحساء للبصرة والتى كانت تتبع بغداد أحيانًا ، وكان شيوخ الإحساء يرسلون الهدايا لحكام البصرة ويشاورونهم فى المسائل المهمة ، واستمر الحكم العثمانى فى الإحساء بمساعدة القبائل العربية من «المنتفق» ، وكانت لولاة الإحساء العثمانيين صلاحيات محدودة مثل فاتح باشا وعلى باشا ومحمد باشا وعمر باشا .

عندما أشعلت السلطات العثمانية الفتنة بين حاكم البصرة حسين آفراسياب وعميه أحمد أغا وفتحى بك ، وقف والى الإحساء العثمانى إلى جانبهما وقدم لهما المساعدة ولذلك انتقم حسين آفراسياب حاكم البصرة باستمالة القبائل العربية فى الإحساء وفى مقدمتها قبيلة بنى خالد أقوى القبائل العربية فى شرق الجزيرة العربية خلال القرن السابع عشر وشيخها آنذاك «براك بن غدير» آل حميد الخالدى الذى ساعد حسين افراسياب فى الاستيلاء على الإحساء. ولم يستمر هذا التعاون فيما بينهما فقد نشبت خلافات حادة فأرسل حسين افراسياب جيشًا كبيراً بقيادة صهره «كتخذاه» يحيى أغا الذى أوقع هزيمة فى صفوف قبائل بنى خالد فهرب شيخهم براك بن غدير وطلب سكان الإحساء الأمان من يحيى أغا وبذلك عادت الإحساء من جديد لحكم افراسياب (٢١).

بعدما تمكن الجيش العثمانى بأوامر من الباب العالى من طرد حسين افراسياب من البصرة عام ١٦٦٧ ، استطاع زعيم قبائل بنى خالد الشيخ براك بن غدير إرغام والى الإحساء العثمانى عمر باشا على الاستسلام لقواته عام ١٦٧٠ وبذلك انتهى حكم العثمانيين وظل الشيخ براك بن غدير يحكم الإحساء حتى وفاته فى عام ١٦٨٢ ، وكان براك بن غدير أول من أسس حكم بنى خالد فى شرق الجزيرة العربية بعد طرد العثمانيين منها وبعد وفاته خلفه أخوه محمد بن غدير فى الحكم .

بذلك لم يستمر حكم العثمانيين طويلاً فى الإحساء واستطاع أخوة براك وأبناؤه من بعده أن يدعموا هذا التنظيم السياسى فى شرق الجزيرة العربية والذى استمر منذ بداية النصف الثانى من القرن السابع عشر وبلغ ذروته فى النصف الأول من القرن الثامن عشر وحتى بداية غارات وغزوات النجديين عليهم .

مما ساعد الشيخ براك بن غدير زعيم بنى خالد فى الاستيلاء على الجزيرة العربية ضعف حكم العثمانيين وعدم اهتمامهم بها لقلة الدخل المتحصل منها إضافة إلى أوضاع الدولة العثمانية المتأزمة بعدما تم طردهم من اليمن وظهور العديد من المشكلات بين والى البصرة الشيخ راشد بن مغامس زعيم قبائل المنتفق وأسرة آل آفراسياب من جهة ووالى بغداد والباب العالى الذى لم يكن راضيًا عن الحكم الغير مباشر أو الحكم الرسمى للدولة العثمانية على البصرة التى كانت تريد إخضاعها لحكمها المباشر .

أستطاع براك بن غدير استغلال تلك المنازعات لصالحه وإجبار الحامية العثمانية فى الإحساء على الرحيل عنها ، وعلى الرغم من أن قبيلة بنى خالد لم تصل إلى حكم شرق الجزيرة العربية إلا فى أعقاب التخلص من السيطرة العثمانية على الإحساء فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، وأخذت تتمتع بدرجة كبيرة من القوة والنفوذ وخاصة أن انتشارها فى مقاطعات «الهفوف» والقطيف مكن لها قدراً كبيراً من الثروة نتيجة لما تشتهر بها واحاتها الخصبة ، ومما يضيف إلى رخائها الزراعى انتعاشها التجارى إذ أن موانىء الإحساء كانت تعد بدايات صالحة لانطلاق القوافل التجارية إلى وسط وشمال الجزيرة العربية ولا شك أن هذا الرخاء الاقتصادى هو الذى مكن لقيادة بنى خالد من السيطرة السياسية .

يشكل بنو خالد أحد أربع قبائل رئيسية فى شرق الجزيرة العربية إلى جانب كل من آل العجمان وآل مرة وبنو هاجر وجميعها قبائل بدوية معروفة بقوتها وشجاعتها ، من حيث

التكوين القبيلى لبنى خالد فهم ينقسمون إلى شطرين قسم استقر فى المدن والقرى وقسم آخر فضل حياة البادية ، وبعد طرد العثمانيين من شرق الجزيرة العربية أصبحت هذه القبيلة هى المتنفذة ولم يعد للوجود العثمانى فى هذه المنطقة بعد وصول بنى خالد للحكم أية آثار واضحة ولم يزد الأمر عن بعض عائلات من أصل تركى ثم انقرض خلال أعوام من القرن الثامن عشر.

تمتعت قبيلة بنى خالد بتفوقها خلال العقود الخمسة الأولى من القرن الثامن عشر حتى أن سلطانها كان يمتد على جميع أجزاء شرق الجزيرة العربية إبتداء من شبه جزيرة قطر جنوبًا حتى الكويت والبصرة شمالاً ، أى أن جميع سواحل الخليج العربى فى تلك المنطقة كانت تقع ضمن نفوذ شيوخ بنى خالد . ونظراً لانتشار هذه القبيلة انتشاراً واسعًا فى الصحراء فقد أتاح لها ذلك فرصة السيطرة على طرق القوافل التى كانت تمتد بين العراق وشمال ووسط وشرق الجزيرة العربية .

ارتبطت قبيلة بنى خالد بعلاقات قوية مع العتوب فى قطر والكويت والبحرين منذ استقرارهم فى الكويت فى القرن الثامن عشر ؛ بل ويعزى إلى بنى خالد بناء الحصن أو «الكوت» الذى أخذت الكويت اسمها منه . وفى شبه جزيرة قطر يختلف التركيب القبلى بين النعيم والبوعينين وآل مسلم ، واستطاع بنو خالد أن يحكموا قطر عن طريق أحد فروعهم من آل مسلم ، كما قدموا حمايتهم لعتوب الصباح والخليفة والجلاهمة حينما أسسوا مدينة الزبارة ولاشك أن حكم بنى خالد بما تميز به من بسط الأمن أعطى لتلك القبائل التى نشأت بجوارهم فرصة كبيرة للنمو والإزدهار كما أن نفوذ بنى خالد إمتد إلى نجد التى كان سكانها يعترفون بسيادتهم ويسعون إلى إرضائهم بالهدايا وإذا امتنع زعماء القبائل النجدية عن تقديم ولائهم لشيوخ بنى خالد كانوا يقومون بغزو مقاطعاتهم ويعودون محملين بالغنائم (٢٢).

هجرة العتوب إلى الكويت والبحرين :

شكلت التنظيمات القبلية التى أقامها «العتوب» فى كل من الكويت وقطر والبحرين حلفًا كبيراً يضم إليه أفخاذاً تنتمى لعدة قبائل هاجرت من الجزيرة العربية واستقرت فى شرقها . وقد تحالفت هذه القبائل بعضها مع البعض الآخر وتصاهرت فيما بينها وقد عرفوا «بالعتوب» بعد ارتحالهم من مواطن إقامتهم وعتبهم نحو الشمال. ولا يقتصر تكوين العتوب

على آل صباح وآل خليفة وآل الجلاهمة وإنما ضم العتوب إليهم آل فاضل وبنى وائل وتميم وقبيلة سليم التى يتفرع عنها آل بنعلى ببطونهم وأفخاذهم . ولايكاد يعرف على وجه الدقة الأسباب التى أدت إلى نزوح العتوب كما لايزال هناك خلاف بين المصادر فى تحديد الوطن الأصلى للعتوب ، فبعضهم يرجعه إلى وسط الجزيرة العربية فى حين نجد بعض المصادر الأخرى تنسبهم إلى نجران أو حمير ويذكر المؤرخ الكويتى عبد العزيز الرشيد أن هناك إهانات لحقت بهم فى وسط الجزيرة لذلك ارتحلوا من بلادهم سعيًا وروء الاستقرار والاستقلال(٢٣).

وصلت قبائل العتوب إلى قطر التى تركتها على أثر خلاف نشب بينها وبين آل مسلم حكام قطر الذين لحقوا بالعتوب بعد خروجهم من قطر واشتبكوا معهم فى معركة بالقرب من رأس تنورة تم فيها النصر لجماعات العتوب غير أنهم على الرغم من انتصارهم لم يكونوا راغبين فى العودة إلى قطر . وانتهى بهم الأمر إلى «كوت» بنى خالد فى القرين بمنطقة الكويت فأقاموا بجواره بعد أن وافق الخوالد على ذلك ، وبذلك نشأت الكويت فى ظل حماية بنى خالد ولكونهم هم أصحاب تلك البقعة من الأرض التى قامت عليها الكويت حين منحوها للعتوب وسمحوا لهم بالاستقرار فيها واقامة حكمهم وامارتهم فيها مما أتاح الفرصة للكويت فى ظل الأمن الخالدى أن تنشأ وتترعرع بدون خوف(٢٤) . واختارت العتوب صباح بن جابر عام ١٧٥٦ أول حاكم للكويت وبعد وفاته خلفه فى الحكم أصغر أبنائه هوعبد الله عام ١٧٦٢ والذى برزت الكويت فى عهده .

تعرضت الكويت لخطر الغزو من قبائل بنى كعب شيوخ عربستان الذين كانوا يزاولون نوعًا من النفوذ على بعض المقيمين على شاطىء الخليج ممن كانت تصل إليهم سفن عربستان من بنى كعب . لما قدم «العتوب» إلى الكويت رفضوا الإمتثال لحكام عربستان الذين عولوا على ربط الكويت ببلادهم فسعوا لدى الشيخ عبد الله الصباح حاكم الكويت لكى يقبل بمصاهرة حاكم عربستان غير أنه رفض ذلك وساندته القبائل العربية فى الكويت والتى خرجت لمواجهة تحدى الكعبيين الذين سيروا سفنهم الكبيرة نحو الكويت لغزوها فى الوقت الذى خرجت فيه السفن الكويتية الصغيرة لمواجهتها حيث تلاقت سفن الجانبين بالقرب من جزيرة فيلكا عند منطقة رقت مياهها لحدوث جزر مفاجىء وفى وقت توقفت فيه الرياح مما أفقد عربستان حرية الحركة فى الوقت الذى أتاح ذلك الفرصة أمام السفن الكويتية لكى تحيط بسفن بنى كعب وتشعل فيها النيران فانهزموا على هذا النحو وتمكن الكويتيون من

الاستيلاء على بعض سفن خصومهم وأسلحتهم ومن بينها بعض المدافع التى حملوها معهم إلى الكويت حيث نصبوها على ساحل مدينتهم (٢٥).

لعب موقع الكويت الجغرافى وعمق مياه مينائها أثراً كبيراً فى ازدهارها وتطورها وازدياد أهميتها التجارية وازدادت أهميتها بالنسبة لبريطانيا بعد أن أصبحت مركزاً لانطلاق بريد شركة الهند الشرقية البريطانية ومركزاً لانطلاق القوافل التجارية المتجه نحو البحر المتوسط. كما انتقلت إليها مؤقتا ولعدة مرات الوكالة البريطانية لشركة الهند الشرقية ، وكان للكويت أسطولها التجارى والبحرى القوى وعلاقاتها مع جيرانها كانت جيدة .

حصار الإيرانيين للبصرة كان له دور كبير فى النشاط التجارى على الكويت ، فمدينة البصرة التى كانت ميناء العراق والبوابة الخلفية للدولة العثمانية لم تستفق من مرض الطاعون الذى حل بها عام ١٧٧٣ حتى تعرضت الهجوم كريم خان الزند شاه إيران وكان هذا يحقد على مدينة البصرة بسبب إزدهارها التجارى وذلك بعد انتقال نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية من ميناء بندر عباس «جمبرون» ثم انهيار مركز ميناء بوشهر التجارى ولم يجد كريم خان مجالاً للتخلص من المصاعب التى تعترضه فى بلاده سوى الهجوم على البصرة والذى دام من ١٦ مارس ١٧٥٥ إلى ابريل ١٧٧٦ ، ولم يستطع العثمانيون فك هذا الحصار فاستنجدوا بسلطان عمان الذى ارسل أسطوله للمساعدة على الدفاع وهو الذى نقل إلى داخل المدينة المؤن والتموين ومن ثم فك الحصار ونجح فى طرد الإيرانيين من حول المدينة بعد قتال شديد ، وخلال الحصار قامت العلاقات المباشرة بين مختلف اجهزة شركة الهند الشرقية البريطانية وممثليها والكويت التى أصبحت فى هذه الفترة المحطة الرئيسية للقوافل التى كانت تنقل البضائع من البصرة إلى حلب .

رحيل الخليفة من الكويت :

إذا كانت معركة «الرقة» قد حمت الكويت من غزو عربستان فانها كانت سببًا من الأسباب التى أدت إلى انفراط عقد التحالف بين جماعات العتوب الثلاثة برحيل الخليفة عندما تركت الكويت عام ١٧٦٦ وقد سلكت طريق البحر نحو جزر البحرين للاقامة هناك غير أن حكامها من عرب آل مذكور منعوهم فاتجهوا نحو قطر وأقاموا فى الزبارة على مقربة من جزر البحرين وأخذوا يتطلعون منها إلى تلك الجزر لاخضاعها لنفوذهم .

أخذ شيوخ آل مذكور فى البحرين يتحينون الفرصة المناسبة لشن هجماتهم على «الزيارة» بعد أن ازدادت قوة العتوب وتحول القسم الأكبر من تجارة البحرين إليها . وقد شجع ذلك عتوب «الزبارة» على بذل المحاولات من جانبهم لإخضاع البحرين . وعلى الرغم من أن العتوب اتخذوا موقف الدفاع فى بداية المعارك التى نشبت حول البحرين إلا أنهم نجحوا فى الاستيلاء على إحدى سفن الخصوم مما اضطر هؤلاء إلى الخروج لمهاجمة الزيارة ومحاصرتها وعندما فشلوا فى ذلك أخذت سفنهم تتردد ما بين «الزبارة» والبحرين وتحرك قوات شيوخ آل مذكور حكام بوشهر والذين أيضًا كانوا يحكمون البحرين نحو «الزبارة» للاستيلاء على قلعتها غير أنها ووجهت بمقاومة عنيفة من العتوب اضطر آل مذكور على أثرها إلى الفرار بعد أن فقدوا بعض قادتهم . وبعدها شن العتوب «الجلاهمة» الخليفة بمساعدة العشائر القطرية هجومًا كبيراً على البحرين ونجحوا فى الاستيلاء عليها فى ٢٨ يوليو عام ١٧٨٣ ، وعلى الرغم من سقوط البحرين فى أيدى الجلاهمة وآل خليفة فان وجودهم فى الزبارة ظل قائمًا مما دعم نفوذهم فى المنطقة على أن تدعيم نفوذهم على هذا النحو لم يمنع القوى المناوئة من التطلع لفرض سلطانها على العتوب وخاصة سلطان عمان .

على الرغم من اهتمام سلطان عمان بالبحرين ورغبته فى إخضاعها وإعادتها لسيطرة عمان فانه وقف موقفًا محايداً من النزاع الذى كان قائمًا بين العتوب وخصومهم شيوخ آل مذكور من عرب بوشهر ، قبل سقوط البحرين ، إذ أدرك حاكم عمان أحمد بن سعيد أن إنحيازه إلى العتوب ضد خصومهم سيفقده مطالبه بسيادة عمان على البحرين ، كما أدرك أنه ليس فى إمكانه الانضمام إلى جانب خصوم العتوب لما قد ينشأ عن ذلك من تدعيم وجود هؤلاء فى منطقة يتطلع إليها باستمرار لبسط السيادة العمانية عليها ومن ثم بقى بعيداً عن منطقة النزاع خصوصًا بعد أن بلغ به الكبر حداً جعله غير قادر على المشاركة فى القتال ، وبعد وفاته عام ١٧٨٣ قام نزاع بين أبنائه على الحكم لذا لم تكن عمان فى وضع يسمح لها بالتدخل فى البحرين . وعندما أتيحت لها الفرصة لذلك شن حاكمها سلطان بن أحمد هجومه على البحرين عام ١٧٩٩ متذرعا بامتناع العتوب عن دفع ما عليهم من أموال الزكاة ، وعلى الرغم من فشله فى حملته تلك فانه لم يلبث فى العام التالى أن كرر هجومه على البحرين ونجح فى إخضاعها لسيادة عمان وأسر عدد من أعيانها حملهم معه إلى مسقط كرهائن فى حين فر آخرون إلى «الزبارة» طالبين المساعدة من العمانيين لإخراج العمانيين من البحرين[٢٧].

الجلاهمة :

بعد خروج الخليفة من الكويت إلى «الزبارة» وضع جماعتى آل صباح والجلاهمة فى ظروف اقتصادية صعبة شعرت معها جماعة الجلاهمة بعدم استطاعتها البقاء فى الكويت فغادرتها واتجهت نحو «الزبارة» حيث رحب الخليفة ببنى عمومتهم غير أن الخلاف سرعان ما دب بين الجماعتين بسبب قلة المخصصات التى كان يحصل عليها الجلاهمة من بنى عمومتهم فتركوا «الزبارة» واتجهوا شمالاً إلى منطقة قريبة تعرف «بالرويس» حيث عملوا على إعداد سفن لهم وأخذوا يشنون بها غاراتهم على ممتلكات الخليفة وقد أسفر النزاع بينهما عن مقتل جابر بن عتوبى شيخ الجلاهمة .

وإزاء الخطر المشترك الذى كان يتهدد العتوب عام ١٧٧٥ من قبل عرب بو شهر عاد التحالف من جديد بين الجلاهمة والخليفة وقد نجح فى صد الهجوم كما نجح فى اخضاع البحرين عام ١٧٨٣ . غير أن الخلاف لم يلبث أن نشب مرة أخرى بينهما لأن رحمة بن جابر الذى آلت إليه زعامة الجلاهمة بعد مقتل والده لم يقنع بالمكافآت التى قدمها آل الخليفة له ولجماعته فقرر ترك البحرين . وبعد جولات استمرت عدة سنوات استقر فى بعض موانىء الخليج العربى وخاصة فى الدمام وأخذ يشن هجمات على الخليفة فى البحرين . وخلال حربه مع خصومة الخليفة فى البحرين عام ١٨٢٦ قتل(٢٨) ولم يتحقق أمله فى إقامة كيان سياسى له ولجماعته على نحو ما تحقق للجماعتين الأخريين من جماعات العتوب من الصباح والخليفة

الهوامش

١- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص٧٥ .
٢- سليم طه التكريتى - المرجع السابق ص٦٥ .
٣- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص١٧٠ .
٤- سليم طه التكريتى - المرجع السابق ص٨٤ .
٥- سليم طه التكريتى - نفس المرجع ص٦٨ .
٦- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص١٧٣ .
٧- سليم طه التكريتى - نفس المرجع ص٧١ .
٨- سليم طه التكريتى - نفس المرجع ص٨٥ .
٩- عبد العزيز عوض - المرجع السابق ص٤٣ .
١٠- عبد العزيز عوض - نفس المرجع ص٤٨ .
١١- د. ميمونة خليفة الصباح - المؤرخ العربى العدد ٣٥ - ص٣٤ .
١٢- د. ميمونة خليفة الصباح - نفس المرجع ص ٣٤ .
١٣- عبد الأمير محمد أمين - المرجع السابق ص١٢٣ .
١٤- عبد الأمير محمد أمين - نفس المرجع ص١٤٢ .
١٥- عبد الأمير محمد أمين - نفس المرجع ص١٤٢ .
١٦- سليم طه التكريتى - المرجع السابق ص٩١ .
١٧- عبد الأمير محمد أمين - المرجع السابق ص٢٤٨ .
١٨- عبد العزيز عوض - المرجع السابق ص٣٤ .
١٩- عبدالعزيز عوض - نفس المرجع ص٤٠ .
٢٠- طارق نافع الحمدانى - بحوث عن تاريخ الخليج العربى والجزيرة العربية ص١٨٢ .
٢١- عبد العزيز عوض - المرجع السابق ص٥٠ .
٢٢- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٣٦٦ .
٢٣- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص٣٦٨ .
٢٤- د. ميمونة خليفة الصباح - المرجع السابق ص٢٢ .
٢٥- د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص١٠٦ .
٢٦- محمد عدنان مراد - صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج ص٢٧٩ .
٢٧- د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص١١٢ .
٢٨- د. بدر الدين عباس الخصوصى - نفس المرجع ص١١٨ .

الفصل الثالث

الساحل الجنوبى للخليج العربى

دولة اليعاربة ١٦٢٤ - ١٧٥٣

- القوة البحرية فى عهد اليعاربة
- مد السيطرة العمانية إلى المحيط الهندى
- امتداد السيادة العمانية إلى شرق افريقيا
- الحرب الأهلية العمانية

سلطنة عمان ١٧٥٣ - ١٨٣٩

- التنافس الأنجلو - فرنسى فى عمان

ساحل عمان ١٧٦٥ - ١٨١٨

- أولاً اتحاد قبائل رأس الخيمة
- ثانيًا اتحاد قبائل أبوظبى
- انفصال ساحل عمان عن عمان ١٧٦٥
- الصراع بين بريطانيا وساحل عمان ١٧٧٨ - ١٨١٨

دولة اليعاربة ١٦٢٤ - ١٧٥٣

حكم ملوك بنى نبهان عمان منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وأقاموا فيها حكمًا ملكيًا وراثيًا واستقروا فى منطقة الجبل الأخضر . وفى آخر عهدهم ضعفت سلطتهم واقتسمها أمراء من بنى «نبهان» و «آل عمير» و «آل هلا» واهتموا بتأكيد نفوذهم وسيطرتهم على قبائلهم فى الداخل . وتمتع الجبور بسلطة واسعة فى عمان الداخلية ومدوا نفوذهم إلى بعض المدن الساحلية ، وقد وقع الاحتلال البرتغالى للمدن الساحلية العمانية فى عهد الامام بركات بن محمد ابن اسماعيل ١٥٠٠ - ١٥٣٥ ، وفى بداية القرن السابع عشر وعندما اشتد ظلم الحكام للرعية وانتشرت الفوضى فى مختلف أنحاء عمان وزادت حدة الصراعات القبلية وانغمست معظم القبائل العمانية فيها ، اجتمع حوالى سبعين من كبار العلماء ورجال الدين فى مدينة «الرستاق» وألحوا على ناصر بن مرشد اليعربى قبول البيعة بالإمامة فقبلها فى عام ١٦٢٤، وينتسب اليعاربة إلى نعر بن زهران وهم أحد بطون بنى نبهان التى هاجرت من اليمن .

عودة حكم الأئمة اليعاربة كانت منعطفًا هامًا فى تاريخ عمان الحديث وأصبحت فى زمنهم أقوى دولة ليس فى الخليج العربى وإنما فى المحيط الهندى لها جيشها الكبير وأسطولها البحرى القوى ، وشملت الدولة العمانية أطرافًا مترامية فى آسيا وأفريقيا وضمت قسمًا من سواحل الهند وسواحل إيران والجزيرة العربية وشرق أفريقيا فى الوقت الذى كانت فيه البلاد العربية تفقد قوتها وتقع تحت سيطرة العثمانيين ومن قبلهم المماليك وغيرهم . وقد نشر اليعاربة الأمن والسلام فى ربوع المنطقة وكانت أساطيلهم مصدر الرعب للقوى الاستعمارية الأوروبية فكانت السفن العمانية بأعلامها الحمراء يتوسطها الخنجر دلالة على انتصارهم على البرتغاليين تجوب البحار وتنقل البخور والافاويه وبصورة خاصة القرنفل من زنجبار إلى أوروبا وبالعكس ، فالاستقرار الذى نعمت به المنطقة أدى إلى زيادة الانتاج وكثرة السكان ووفرة المحاصيل فكانت الأموال تنهال عليها من كل حدب وصوب وكانت عامل استقرار فى المنطقة حيث حالت دون وقوع أى جزء من الأراضى العربية تحت الاحتلال الهولندى أو البريطانى أو الفرنسى والذين كانوا يخشون من الأسطول اليعربى الذى كان يلاحق البرتغاليين فى البحار العالية ، ومن المؤسف أن العثمانيين والإيرانيين كانوا يحاولون

القضاء على هذه القوة العربية عوضًا عن التعاون معها ضد الاستعمار الأوروبى وكان اليعاربة أول من دفع ضريبة الدم دفاعًا عن العروبة والاسلام وناضل ضد الاحتلال الأجنبى الأوروبى وتعتبر دولة اليعاربة والعهود الأولى من دولة البوسعيد من أزهى عصور عمان [١].

بدأ الإمام ناصر بن مرشد عهده بتوحيد عمان وقضى على منافسة القبائل لبعضها ودخلت نزوى وسمايل وازكى وغيرها من المدن العمانية فى الدخل تحت طاعته . ثم توجه إلى الظاهرة وضم ضنك وعبرى ومقتيات ، وحظى الإمام ناصر بن مرشد بتقدير واحترام الأهالى فى عمان لعدله ونزاهته وقوة شخصيته وحياته البسيطة والبعيدة عن الترف . وبعد توحيد عمان كرس الإمام ناصر بن مرشد جهوده لتحرير المدن الساحلية العمانية من الاحتلال البرتغالى وأعلن الجهاد المقدس ضدهم وتمكن من طردهم من معظم مراكزهم المنيعة فاستولى على رأس الخيمة وخورفكان واسترد صحار فى عام ١٦٤٣ ولم يتمكن من تحرير مسقط نظراً لوفاته عام ١٦٤٩ وتم مبايعة ابن عمه سلطان بن سيف بالإمامة حيث تمكن من الاستيلاء على مسقط فى يناير عام ١٦٥٠ وانتزع صور وقريات من البرتغاليين ثم تتبعهم إلى سواحل الهند الغربية وأفريقية الشرقية وفرض الحصار على ممباسة فى عام ١٦٦٠ لمدة خمس سنوات وغنم كثيراً من أموالهم ودمر كثيراً من مراكبهم وأرسل السفن لمهاجمة مواقعهم فى ديو ودامان فى ساحل كجرات وحمل معه التحف الذهبية والفضية من القلاع البرتغالية ونجح فى تقوية مركزه العسكرى فى الخليج العربى وتمكن من تأسيس أسطول قوى ضم بواسطته عدة جزر فى الخليج العربى مثل قشم وهنجام والبحرين . أما فى الداخل فقد اهتم الإمام باجراء إصلاحات عسكرية وعمرانية ، فبنى قلعة مستديرة فى نزوى وأصلح القناة التى تصل بين ازكى ونزوى واهتم بالتجارة ، وأرسل مبعوثيه إلى حكام الهند وإيران والبصرة وقد أدى إنشغال الإمام بالنشاط الاقتصادى وخاصة التجارة إلى نفور رجال الدين منه لأنها لاتليق بمركزه الدينى من وجهة نظرهم ومهما يكن من أمر فقد ازدهرت عمان فى عهده وسادها الهدوء والاستقرار وعمها الرخاء فأمنت طرقها وزادت أرباحها التجارية . وتوفى فى عام ١٦٦٨ وتولى بلعرب بن سلطان الإمامة من بعده ونقل عاصمته من نزوى إلى جبرين وثار عليه أخوه سيف .

بلغت عمان فى عهد الإمام سيف بن سلطان أوج قوتها وازدهارها؛ فقد اهتم هذا الإمام بالزراعة لاسيما زراعة النخيل التى قدرت ثروته منها بثلث نخيل عمان . فزرع فى بركا

ثلاثين ألف فسيلة نخل وستة آلاف شجرة من جوز الهند ويبدو أنه قد استفاد من حصته فى الغنائم في بناء الحصون وامتلاك الأراضى وكذلك أصلح الأفلاج القديمة وبنى أخرى جديدة فى الرستاق والحزم وغيرها حيث أجرى فى عمان سبعة عشر فلجا . وازدهرت فى عهده تجارة عمان الخارجية بفضل أسطولها البحرى واستفاد الإمام من طموح القبائل العمانية ونزعتها الحربية فوجهها نحو الجهاد ضد البرتغاليين حتى تمت له الغلبة عليهم وتعقبهم فى ممتلكاتهم الهندية والأفريقية فهاجم ديو وامتدت هجماته إلى ساحل كجرات وبار سالور ومانجالور بالقرب من بومباى وأخذ منهم مُباسة وكيلوة وبات وغيرها من الموانىء الساحلية فى شرق أفريقيا وغزا إيران وتوفى فى الرستاق عام ١٧١١ . فبويع ولده سلطان بن سيف بالإمامة والذى اهتم بالعمران وأنفق أموالاً كثيرة عليها وبنى حصن الحزم وانتقل إليه من الرستاق وأطاعته الرعية فى عمان والبحرين وقشم ولارك وهرمز . وبعد وفاته فى حصن الحزم فى عام ١٧١٨ [٢] عمت الفتن عمان وانتشرت الفوضى واعادت العصبية القبلية إلى عمان من جديد فى عهد ابنه سيف بن سلطان الثانى ١٧٢٢ - ١٧٤٣ .

القوة البحرية فى عهد اليعاربة :

اهتمت دولة اليعاربة منذ بداية حكم مؤسسها الإمام ناصر بن مرشد فى عام ١٦٢٤ وحتى نهاية عهد حكامها بالعمل على استقرار الأمن الداخلى وتوفير الرخاء الاقتصادى وزيادة قوتها البحرية ، ويعتبر الإمام سلطان بن سيف واضع أساس البحرية العربية ، ففى عهده أصبح لعمان أسطول بحرى قوى وقام العرب فى عمان ببناء السفن لمواجهة البرتغاليين فى البحار العالية ، وقد اهتم هذا الإمام بحجم السفن وقوتها وبفضله وجهوده تملكت عمان أقوى أسطول لم نسمع من قبل عن ضخامته وقوته فى أى فترة من الفترات السابقة ، كما أن بحرية عمان صارت سيدة المحيط الهندى فى الفترة من بداية النصف الثانى من القرن السابع عشر وحتى النصف الأول من القرن الثامن عشر . وتتمثل مظاهر التفوق البحرى فى عدة عناصر منها تعدد أنواع السفن المستخدمة للصيد والتجارة والحرب . ولم يكتف العمانيون بالسفن العربية المصنوعة محليًا وإنما حاولوا أن يجاروا الأساطيل الحديثة بمحاولة تقليدها فى الصنع على قدر الوسائل المتوفرة . وأخذ العمانيون بعد ذلك يتسلحون بنوع جديد من السفن الحربية والمدفعية فقد تخلوا عن السفن التقليدية وبدأوا فى استخدام سفن كبيرة الحجم على الطراز الأوروبى . وما أن حل القرن الثامن عشر حتى جميع الأساطيل

البحرية سفنًا من الطراز الغربى بنى معظمها فى الهند وكانت مزودة بمدفعية حديثة وصارت القوة البحرية لأسطول عمان تفوق قوة أسطول أى دولة من دول ساحل المحيط الهندى على الاطلاق . ويقرر المؤرخ الانجليزى كوبلان أن قوة عمان البحرية أصبحت فى القرن الثامن عشر على درجة تخشاها الأساطيل البريطانية والهولندية فى المحيطالهندى(٣). وبذلك كان الأسطول العمانى مصدر خوف شديد بالنسبة للقوى الأوروبية الموجودة فى الخليج العربى .

تألف الأسطول العمانى من ثمان وعشرين سفينة كبيرة الحجم ، أربع وعشرين من متوسط الحجم وإحدى سفنه كانت تحمل ثمانين مدفعا ، كما أن البحرية العمانية رغم حداثة عهدها إلا أنها كانت تسير على نظام عسكرى دقيق لايقل عما كان متبعًا فى الدول الأوروبية البحرية كبريطانيا وهولندا وكانوا يراقبون تحركات قوات أعدائهم بدقة وحرص شديد ، ففى منتصف يناير ١٦٩٥ قامت قوة بحرية من خمس سفن تحمل ألفًا وخمسمائة رجل بهجوم على المركز البرتغالى فى «كونغ» وتمكنوا من إنزال هزيمة جسيمة بالعدو فدمروا المقر البرتغالى فى الساحل الإيرانى بعد أن نهبوا ما فيه ثم أسروا سفينة أرمنية كانت محملة بالبضائع وراسية فى ميناء كونغ وبلغ مجموع ما اغنمه العمانيون فى هذه المعركة أكثر من ستين ألف تومان. وانتشر نبأ الهجوم العمانى فى إيران والخليج العربى فتسرب الخوف بين سكان بندر عباس لاحتمال أن يتعرض الميناء لمثل ما تعرض له ميناء كونغ البرتغالى فى الساحل الإيرانى وكتب الإمام سيف بن سلطان إلى الشاه حسين يطلب منه أن يعطى العمانيين على الساحل الإيرانى نفس الحقوق والامتيازات التى منحها للبرتغاليين فى كونغ وحذره فى حالة رفضه بأنه سيهاجم بندر عباس ويدمرها ، ولقد كان حاكم بندر عباس فى حالة ذعر شديد من غارات مفاجئة قد يقوم بها العمانيون على الميناء .

عندما لم يكن باستطاعة السفن الإيرانية التصدى للأسطول العمانى فقد طلب حاكم بندر عباس من الوكيل البريطانى فى الميناء أن تقف القوات البحرية البريطانية إلى جانب إيران مذكراً إياه بالصداقة القديم التى تربطه بالشركة البريطانية ، كما قامت بريطانيا بطرد البرتغاليين من هرمز وتسليمها لإيران إلا أن الوكيل البريطانى رفض إجابة الحاكم الإيرانى إلى طلبه مبرراً موقفه بأن الإيرانيين لم يلتزموا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم فلم يدفعوا نصيب الشركة ٥٠٪ من عوائد جمرك بندر عباس منذ ثلاث سنوات مضت ، وفى نفس الوقت كان الوكيل البريطانى يرغب فى مساعدة إيران فبعث رسالة إل مجلس الرئاسة فى

سورات يقترح فيها أن تبيع الشركة عدداً من السفن الانجليزية الصغيرة للإيرانيين بيد أن مجلس الرئاسة قرر عدم التورط فى النزاع العمانى - الإيرانى . ولم يجد الفرس بداً من التوجه إلى البرتغاليين غير أنه لم يكن بوسع هؤلاء أن يقدموا مساعدات فعالة لأنهم كانوا يقفون من العمانيين موقف الدفاع ومع ذلك فقد أمدوا الإيرانيين بعدد قليل من السفن . ولما علم العمانيون بذلك بادروا بالانتقام من البرتغاليين فأعدوا أسطولهم وأرسلوا قسمًا منه إلى شرق أفريقيا والقسم الآخر إلى الهند ونجحوا فى انتزاع ممباسا ، أما القسم الثانى من الأسطول العمانى فقد هاجم على مانجالور ودمر القاعدة البرتغالية فيها . وإزاء هذا الخطر إضطر الشاه حسين للمرة الثانية إلى طلب النجدة من البريطانيين فخاطب وكيلهم فى أصفهان لاحتلال مسقط والقضاء على الخطر العمانى واعداً إياه فى حالة احتلال مسقط بامتيازات سخية لاتقل عن امتيازات فى بندر عباس . ولكن الوكيل البريطانى رفض ذلك خوفًا من البحرية العمانية التى كانت تتفوق على السفن البريطانية من حيث العدد إضافة إلى أن عدداً كبيراً من بحارة السفن الإيرانية كانوا من العرب وقد ينحازون إلى إخوانهم العمانيين ؛ فاتجه الشاه حسين إلى الهولنديين والفرنسيين الذين رفضوا طلبه أيضًا وازدادت ثقة العمانيين بأنفسهم بعد الانتصارات المتلاحقة التى أحرزوها فى شرق أفريقيا والهند .

بعد إخضاع البحرين للسيادة العمانية فى عهد الإمام سلطان بن سيف ١٦٤٩ - ١٦٨٨ وتحريرها من الاستعمار البرتغالى حاول الإيرانيون احتلال البحرين عن طريق مساعدة القوى الاستعمارية الأوروبية ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك فحسب بل خسروا أجزاء كبيرة من جزرهم التى استولى عليها العمانيون مثل جزيرة قشم ولافت وهرمز ولارك وغيرها . وتبعوا المدن الإيرانية على الساحل الشرقى من الخليج العربى ، وشعر الشاه حسين بحرج مركزه من جراء التهديد العمانى لممتكاته . ولما وجد أن البريطانيين والهولنديين وقفوا موقف المتفرج ولم يقدموا مساعدات ملموسة اتجه مرة ثانية للبرتغاليين الذين أعطاهم شاه إيران امتيازات تجارية واسعة فأرسل البرتغاليون من قاعدتهم فى غوا فى الهند عام ١٧١٨ أسطولاً إلى ميناء كونغ الذى تنازل عنه شاه إيران للاستعمار البرتغالى الذى حاول احتلال البحرين واسترد جزيرة هرمز التى استولى عليها العمانيون ولكن الأسطول البرتغالى فشل فى ذلك ثم أرسل البرتغاليون أسطولاً عام ١٧١٩ لمساعدة الشاه للقضاء على الأسطول العمانى واحتلال مسقط ولكنهم فشلوا فى ذلك أيضًا .

أدرك الفرنسيون أن الإيرانيين يشعرون بالضرر من نمو الأسطول البحرى العمانى ولذلك فكر المهتمون بتجارة الشرق فى تقديم مساعدات عسكرية لإيران ضد عمان فى مقابل تنفيذ معاهدة ١٧١٥ وتفسيرها لصالح فرنسا ومن أجل ذلك أوفدوا قنصلاً فرنسيًا إلى إيران وطلب من إيران تنفيذ هذه الاتفاقية وتقديم مبلغًا من المال يكفى لتموين السفن الفرنسية وثلاثين ألف جندى إيرانى ممن يجيدون القتال . ولكن الحكومة الفرنسية رفضت التدخل خوفًا من الأسطول العمانى حيث حذر المسؤولون الفرنسيون من وجود أسطول فرنسى فى مياه الخليج العربى. ذلك أن البحرية العمانية قوية جداً ويخشى أن تتعرض المصالح الفرنسية للخطر فى الخليج العربى والمحيط المحيط الهندى إذا عرف العمانيون تلك المساعدات . ويتضح مما سبق أن سكان الخليج الخليج العربى رغم رابطة الدين التى جمعت بينهم فان الصراع كان شديداً بين العرب والإيرانيين فى ذلك الوقت ولم يتردد حكام إيران فى الاستعانة بالقوات الأوروبية الاستعمارية المسيحية لمهاجمة العمانيين المسلمين . وقد يرجع ذلك ليس لاختلاف المذهبى الشيعى والسنى بقدر ما يرجع إلى الاختلاف القومى بين القومية الفارسية الإيرانية وبين القومية العربية وهو صراع قد رسم ما قبل الاسلام . وللأسف لم يتم وضع نهاية لهذا الاختلاف القومى الذى أثر فى تعميق هذا الصراع وكان الأوروبيون هم المستفيدون منه فى النهاية وإن لم يتضح ذلك إلا فى القرن التاسع عشر (٤).

تعددت شهادات المعاصرين والمؤرخين فى وصف القوة البحرية العمانية فى عهد اليعاربة ويقول لوكير فى وصفه لما شاهده فى مسقط «لقد شاهدت فى ميناء مسقط إحدى سفن الأسطول العربى وهى مجهزة بحوالى سبعين مدفعًا كما علمت أن أقل سفينة فى الحجم إنما هى مجهزة بحوالى عشرين مدفعًا» .

ركز كولب بدوره علي تفوق العمانيين فى الملاحة البحرية وأنهم غدوا قوة بحرية مسيطرة يحسب لها حسابها . كما حاولت الدول الأوروبية التى وصلت إلى بحار الهند التكتل فيما بينها رغم ما كان يقوم بينها من صراعات بهدف إضعاف البحرية العمانية ، ويقول مايلز : على الرغم من الاهتمام الكبير للإمام سيف بالأسطول إلا أنه لم يتيسر لنا معرفة عدد هذا الأسطول وإن كنا نستطيع التحدث عن نوعية تصميم هذا الأسطول فبعضها كانت على الطراز الأوروبى وبعضها على الطراز العربى أو الشرقى ولكن بلا جدال فكل السفن العربية كانت مسلحة تسليحًا ممتازاً ومعدة إعداداً رائعًا كما كانت كل سفن الأسطول العربى تستطيع تحقيق هدفين الهدف الحربى والهدف التجارى .

أبدى المسؤولون البريطانيون فى سورات قلقًا شديداً من ازدياد النفوذ العمانى فى المنطقة فقد ذكرنا الضابط البريطانى برينغواين فى بندر عباس «بأن العرب يعرقلون التجارة فى إيران وتنبأ بأنهم سيصبحون وباء فظيعًا فى الهند أشبه بوباد الجزائريين بالنسبة لأوروبا» . وقد وصف رئيس شركة الهند الشرقية البريطانية بأن العمانيين أصبحوا شديدى الغطرسة ولايوجد من يمنعهم من القيام بشن هجمات على كل السفن التجارية» . ويبدو أن مجلس إدارة الشركة الهندية فى لندن قد أدرك خطرة تزايد قوى الأسطول العمانى فى مياه الخليج والمحيط الهندى . ففى أوائل عام ١٧١٥ بعث المجلس العمانى خطابًا إلى الرئاسة فى بومباى وضح فيه الأسباب التى حالت بين الشركة وبين إرسال سفن وقواد لتطهير البحار الشرقية من القراصنة (كما أطلق عليهم) وأهم تلك الأسباب الحروب المستمرة فى أوروبا ولكنه وعد بأنه سيتخذ الاجراءات الرادعة لقلع جذور القوات العمانية عندما تضع الحروب أوزارها فى القارة الأوروبية . ولم تنج السفن البريطانية من ملاحقة البحرية العمانية لها ففى نفس الوقت هاجمت سفينتان عربيتان إحدى السفن البريطانية الخاصة بقيادة موريس وكانت محملة بالمنتوجات الهندية فى طريقها إلى بندر عباس فاستولى العمانيون على السفينة وحمولتها وأسروا جميع بحارتها . ثم أسروا بعد ذلك مباشرة سفينة أخرى كانت قادمة من بنغال فى طريقها إلى إيران وكانت هذه المرة الأولى التى تعرض فيها العمانيون لسفن البريطاينون وكان ذلك رداً على ما جاء فى خطاب رئيس الشركة البريطانيين فى لندن حيث كان العمانيون يردون مباشرة دون تأخيربأفعالهم لا بأقوالهم .

يبدو أن القوة البحرية العمانية لم تستمد من السفن المصنوعة فى عمان نفسها وإنما استمدت أيضًا من مصادر أخرى متنوعة فذكر مايلز أنه قد تم بناء بعض سفن الأسطول اليعربى فى سورات وبعضها الآخر فى نهر الاندلس بل يقرر أن بعضها قد تم بناؤه فى ترسانات لايعرف البريطانيون عنها شيئًا مما يدل على براعة العمانيين فى اختيار مصادر بناء أسطولهم وتنوعها وتمكنهم من إخفائها عن الدول الأوروبية التى يخشون من أن تعطل لهم خططهم . أما معاملة العمانيين للشعوب المغلوبة واحترامهم للأديان وحرية إقامة الشعائر الدينية فقد تحدث عنها هاملتون القائد البريطانى الذى جاء إلى مسقط عام ١٧٢١ ، أن العرب كانوا يشنون غاراتهم ضد المستعمرين البرتغاليين على الساحل الهندى يدمرون المدن والقرى ولكنهم لم يهاجموا الكنائس ولم يقتلوا أعزلاً ولا طفلاً وكانوا يعاملون أسراهم

معاملة حسنة بخلاف البرتغاليين الذين كانوا يعاملون أسراهم معاملة وحشية ويجبرونهم على الأعمال الشاقة حتى ولو باستخدام السياط ثم ذكر أن العمانيين العرب كانوا يمنحون أسراهم بدل أرزاق كتلك التى يعطونها لجنودهم (٥).

مد السيطرة العمانية إلى المحيط الهندى :

تزعم الإمام سلطان بن سيف حركة الجهاد ضد البرتغاليين وأرسل حملاته إلى المحيط الهندى قبل استيلائه على مسقط ، كما أرسل حملة عام ١٦٥٥ إلى بومباى عادت بالكثير من الغنائم ، وقاد العمانيون حملة على ديو عام ١٦٧٠ واستطاعت هذه الحملة أن تشن هجوما على البرتغاليين وحققت هدفها واستولت على كثير من الغنائم والثروات مما يعنى أن قوة العمانيين تزايدت إلى الحد الذى تمكنوا من ملاحقة الوجود البرتغالى فى أكبر مراكزه البحرية فى الشرق «ديو» ومن قيمة هذه الغنائم بنى الإمام سيف قلعة «نزو» التى استغرق بناؤها إثنى عشر عامًا ولاشك أن مثل هذه الأعمال أقلقت البرتغاليين .

أرسل إمام عمان فى فبراير عام ١٦٧٤ أسطولاً إلى إحدى مستعمرات البرتغاليين وتسمى «باسين Bassein » تقع فى منطقة « Thana » فى الهند على بعد واحد وعشرين ميلاً من بومباى حيث نزلت قوة من ستمائة محارب وقامت بهجوم عنيف على تلك المستعمرة ونهبتها وعلى الرغم من كثرة القوات البرتغالية إلا أنها لم تجرؤ على صد الهجوم العمانى أو تتبعه إلى موانئه وامتدت أعمال الإمام سيف إلى ساحل كجرات عام ١٦٩٤ وهاجم أحد الموانىء البرتغالية على خليج كامباى على الساحل الغربى للهند . ونجحت القوات العمانية فى الحصول على قدر كبير من الغنائم ثم أبحر الأسطول بعد ذلك متجهًا إلى جزيرة سالست «Salsette » وتقع شمال بومباى مساحتها مئة ميل مربع وتشتهر بمناطقها الأثرية فاستولى عليها وأسر حوالى أربعمائة أسير برتغالى ، وواصل الإمام سيف حملاته وفتوحاته ضد البرتغاليين فى المحيط الهندى فبعث بأسطول قوى إلى سواحل بومباى عام ١٦٩٥ واستطاعت قواته أن تشن هجومًا ناجحًا على بارسلور ومدينة مانجلور وهما أغنى مدينتين على ساحل مدراس وتمكن من ضم جميع هذه المقاطعات إلى ممتلكاته وعاد الأسطول بكثير من الغنائم كما قام فى نفس العام بهجوم على ميناء كنغ ، وما لبث البرتغاليون فى منطقة سالست أن استعادوا قوتهم فانتهز الإمام سيف الفرصة وأسرع بأسطوله القوى إلى تلك المنطقة عام ١٦٩٩ عند مكان يسمى « بيرسنا Persona» أنزل أفراد قواته وبدأ الهجوم

على قلعة المنطقة وكبدوا البرتغاليين خسائر فادحة مما أضطرهم إلى الفرار إلى بومباى عسى أن يجدوا فيها مأوى وبالفعل قام البريطانيون فى بومباى بحماية البرتغاليين ووقفوا بين العمانيين المهاجمين وبين البرتغاليين المفزوعين .

عاد الأسطول العمانى من سالست إلى مسقط بعد أن أستولى على كثير من المكاسب تاركًا فيها على الشاطىء حامية من ثلاثمائة جندى عمانى لمراقبة الشاطىء وحمايته من البرتغاليين إلا أن الحاكم البرتغالى الذى فر مع قواته إلى بومباى انتهز فرصة عودة القوات العمانية إلى مسقط فأعد قوة كبيرة لمهاجمة الحامية العمانية ولولا عودة الأسطول العربى للدفاع عن حاميته لكان بوسع البرتغاليين القضاء عليها. وقد أعطت البحرية العمانية درسًا قاسيًا للبرتغاليين عند عودتها لانقاذ حامية سالت ، لقد كثرت غارات العمانيين على ساحل شمال غرب الهند وحتى غوا نفسها العاصمة البرتغالية تعرضت للخطر أكثر من مرة عندما ظهر الأسطول العمانى على مقربة منها (٦). أدت هجمات الإمام سيف إلى شل حركة التجارة البرتغالية كما هاجر تجار جميع المناطق المعرضة للهجوم كما سيطروا على جزء من منطقة بلوشستان وميناء الجوادر التى تقع حاليًا فى الساحل الجنوبى لباكستان واستمرت هذه المنطقة تحت السيادة العمانية حتى عام ١٩٧١ عندما تنازلت الحكومة العمانية لجمهورية باكستان الإسلامية بعدما عقدت اتفاقية حول ذلك .

إمتداد السيادة إلى شرق أفريقيا :

لم يمض وقت طويل على التخلص من السيطرة البرتغالية فى مناطق الخليج العربى حتى بلغت أخبار هذا النجاح سكان شرق أفريقيا المسلمين الذين سارعوا بطلب النجدة من الإمام سلطان بن سيف بعدما يئسوا من العثمانيين لأكثر من نصف قرن ، وقبل أن يتم العمانيون تحرير بلادهم لم يهملوا مساندة بنى دينهم فقد ظهرت السفن العمانية أمام سواحل شرق أفريقيا فى عام ١٦٥٠ - ١٦٥٢ ، كما أرسل الإمام سفنه عام ١٦٥٥ لمهاجمة المستعمرات البرتغالية فى زنجبار وباتا فدمرتها وقتلت عددًا من البرتغاليين واستولى المهاجمون على كل ما وقع تحت أيديهم . ونتيجة لهذا النجاح المبكر اشتعلت ثورة عامة فى كل المدن الساحلية ضد الحكم البرتغالى مما أفزع حكومة لشبونة فأرسلت حملة كبيرة لقمع ثورة يوسف بن حسن بعنف عام ١٦٣١ ، وقد دفع هذا الاضطهاد والظلم الأهالى إلى الاستنجاد مرة ثانية بالإمام سلطان بن سيف الذى سارع إلى تلبية طلبهم وأعد أسطولاً عام ١٦٦٠ هاجم به مدن فازا ،

ممباسة ، واستولى عليها ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على قلعة يسوع إذ كانت دفاعتها قوية بالإضافة إلى عودة الإمام إلى عمان لحدوث القلاقل فى داخلها أثناء وجوده فى شرق أفريقيا وعين محمد بن مبارك حاكمًا ، وقد انتهز البرتغاليون فرصة عودته فاستولوا ثانية على ممباسة ١٦٦١ وفى تلك الفترة مات الإمام سلطان وخلفه إبنه بلعرب بن سلطان الذى سار على نفس سياسة والده فى محاربة البرتغاليين ، وفى عام ١٦٦٩ أبحر الأسطول العمانى إلى ممباسة ويبدو أن اتساع ثورات المسلمين فى شرق أفريقيا جعلت إمام اليعاربة يتطلع إلى شن هجوم على نقاط برتغالية أبعد فى الجنوب فاتجهوا إلى قلب موزمبيق وحاصروا قلعتها ولكن البرتغاليين استطاعوا صدها .

قام البرتغاليون بهجوم على باتا وتمكنوا من اخضاعها عام ١٦٧٨ وشجعهم ذلك على تتبع القواعد الإسلامية الأخرى . ولكن رد الفعل العمانى ظهر سريعًا فما كادت أنباء هذه الحملة تصل إلى سيف بن سلطان حتى أرسل حملة بحرية تمكنت من تحرير باتا وأسرع البرتغاليون بالانسحاب إلى موزمبيق فى يناير ١٦٧٩ ، وتمثلت أكبر مأساة للوجود البرتغالى بسقوط قلعة يسوع فى أيدى العمانيين فى ١٤ ديسمبر عام ١٦٩٨ بعد حصار طويل دام أكثر من ثلاثة وثلاثين شهراً ، وبسقوط حصن يسوع فى ممباسا تم وضع نهاية للتفوق البرتغالى فى شرق أفريقيا وكان فى استطاعة سيف بن سلطان أن يؤسس دولة عربية آسيوية- أفريقية على أنقاض الإمبراطورية البرتغالية . ويبدو أن هذه الفكرة لم تغب عن ذهنه ولكن إضطراب الأحوال الداخلية فى عمان نفسها قد أخر تأسيس هذه الدولة الآسيوية - الأفريقية حتى عهد البوسعيديين (٧) . وفى عهد الإمام سيف بن سلطان أخذت السيادة العمانية فى تزايد فى شرق أفريقيا . وما كاد القرن السابع عشر يقترب من نهايته حتى أخذت المدن الواقعة شمال رأس الجادو تتخلص من الحكم البرتغالى فقد كان لسقوط ممباسا أثر كبير فى زيادة حماس العمانيين لتطهير كل مناطق شرق أفريقيا من الاحتلال البرتغالى وإجبارهم على إخلائها . ففى العام التالى نجح الإمام فى طردهم من بمبا وكلوة وزنجبار وعين ناصر بن عبد الله حاكمًا لمدينة ممباسا كما حدثت مذبحة للبرتغاليين على طول الساحل ، وفى نهاية الدولة اليعربية بدأت المشاكل الداخلية تؤثر على شرق أفريقيا وجعلت سيادة عمان عليها إسمية أكثر منها فعلية . ففى عام ١٧٣٥ عين الإمام أحمد بن سعيد المعمورى بدلاً من صالح بن سعيد الحضرمى حاكمًا على ممباسا وفى عام ١٧٣٩ عين بدلاً منه محمد بن

عثمان المزروعي الحضرمي ومنذ ذلك الوقت حكمت عائلة المزروعية التي جاءت من حضرموت إلى ممباسا حتى عهد البوسعيديين بل أن أسرة المزروعي استغلت سقوط دولة اليعاربة وقيام أسرة جديدة ونبذوا حتى السيادة الإسمية لأسرة البوسعيد (٨) ، وأعلنوا استقلالهم عن عمان وتكوين دولة تحت أسرة المزاريع .

الحرب الأهلية العمانية ١٧١٨ - ١٧٤٣ :

توفى الإمام سلطان بن سيف الثانى عام ١٧١٨ الذى حارب البرتغاليين وبعد دفنه بمدينة الحزم تجزأت عمان إذ أعقب وفاته سنوات من الحروب الأهلية استمرت حوالى خمسة وعشرين عامًا تقريبًا وحدثت إضطرابات وثورات وقتال وأدت إلى انقسام العمانيين إلى مجموعات كبيرة وقيام حزبين من التحالفات القبلية وهما الهنادية والغافرية .

يرى البعض أنه صورة من التعصب التقليدى بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فتحزب الغافرية هى القبائل العدنانية الحجازية والتحزب الهنادية هى القبائل القحطانية اليمنية ، ومن المعروف أن الصراع كان قديمًا بين عرب الشمال والجنوب وكان عرب القحطانيين يرون أحقيتهم بالسلطة على اعتبار أنهم الأغلبية وكانوا أول القادمين إلى عمان من اليمن وأقدمهم ، ولكننا نلاحظ أن غالبية القبائل سواء أكانت فى الحزب الغافرى أو الهنائى هى من القبائل اليمانية ، فعلى سبيل المثال فان الحزب الغافرى معظم قبائله من القبائل اليمانية مثل قبائل النعيم والبوشامس وهى اخر القبائل التى جاءت من اليمن وكذلك قبائل الحبوس والطنيج وبنى قتب فى شمال ساحل عمان التى تعتبر من الحزب الغافرى هى فى الأصل قبائل يمانية .

البعض الآخر يرى أنه نوع من التعصب المذهبى فيقول بأن الحزب الغافرى هم من السنة والحزب الهنائى هم من الأباضية ولكننا لانجد هذا التعصب المذهبى فعلى سبيل المثال فان الحزب الهنائى الذى يقولون أنه من الإباضية نجد قبائل أبو ظبى الأربعة مثل بنى ياس والعوامر والمناصير والظواهر هى قبائل سنية ذات المذهب المالكى وهى قبائل يمانية .

لذلك فلا يمكننا أن نعتبر الحزب الغافرى والهنائى صورة من التعصب التقليدى بين القبائل الحجازية واليمانية أو نوع من التعصب المذهبى وإنما هى نوع من المصلحة المشتركة التى جمعت تلك القبائل فى حزب غافرى وهنائى وهناك عدة عوامل جمعت فيما بينهم وخاصة المصلحة ومنها ما يلى :

أولاً - العامل الجغرافى :

يتضح ذلك من الوضع الجغرافى الذى كان له تأثير كبير من حيث تقارب منطقة استيطانهم وتتطابق المصالح فتحزب القبائل الغافرية يسكنون فى منطقة «الظاهرة» و«البريميش و «الجوا» و «ضنك» وبعض المناطق الداخلية من عمان والمناطق الشمالية من ساحل عمان مثل رأس الخيمة والشارقة والفجيرة وأم القيوين وعجمان ، فى حين تقيم القبائل «الهنائية» فى ساحل الباطنة وبعض المناطق الداخلية وفى أبوظبى ودبى .

ثانيًا - العامل الاقتصادى :

تركيز الأفلاج فى منطقة جغرافية معينة وأساليب الرى المشتركة شكل مصالح اقتصادية لمجموعة من القبائل التى اعتمدت حياتها على مياه الأفلاج وأسهم هذا العامل الاقتصادى دوراً مهمًا فى انتماءات القبيلة لإحدى الحزبين .

ثالثًا - العامل السياسى :

تطابق العامل الجغرافى مع المصلحة الاقتصادية أدى إلى تشكيل وحدة سياسية إقليمية لمجموعة من القبائل ، وهذه بدورها شكلت اتجاهات معينة من حيث المصلحة العليا لهذه المجموعات القبلية من حيث ولائها السياسى لأحد الحزبين ، وللدفاع عن المصالح الاقتصادية لهذه المجموعة الاجتماعية فى بنية جغرافية معينة أدى إلى توحيد الآراء السياسية وبالتالى فى تشكيل الحزب الذي كان يعبر عن مجموعة قبلية تتوافر فيه تلك العوامل التى ذكرناها.

لهذا كان الانقسام فى عمان فى عمان بين القبائل الغافرية فى عمان الداخل فى الظاهرة وتحزب قبائل الهنائية في عمان الساحل فى الباطنية ، وكان هذا الانقسام أيضًا فى ساحل عمان عندما تحزبت قبائل ساحل عمان الشمالية (الإمارات الشمالية الخمسة حاليًا) ، وهى رأس الخيمة ، الشارقة ، أم القيوين ، عجمان والفجيرة مع الحزب الغافرى فى حين تحزبت قبائل أبوظبى مع الحزب الهنائى وكذلك استمرت قبائل دبى بعد انفصالها عن أبوظبى هنائية وحتى الانسحاب البريطانى عام ١٩٧١ استمر التحزب الهنائى والغافرى سواء فى عمان أو ساحل عمان حتى قيام دولة الإمارات العربية المتحدة مما يعنى أن جذورها كانت عميقة إلى هذه الفترة .

اعتمدت المجموعة القبلية «الهنائية» فى ساحل الباطنة على المجموعة الهنائية فى أبوظبى وجمعتهم مصلحة سياسية مشتركة تجاه المجموعتين الأخريين وهما مجموعة القبائل الغافرية فى عمان الداخل والظاهرة مع المجموعة القبلية الغافرية فى ساحل عمان الشمالية ، وإن كانت هذه الظاهرة السياسية لتلك المجموعات القبلية لم تتطور إلى الاستقلالية والتجزئة إلا بعد وصول البوسعيد إلى السلطة فى صحار وجعلها تبرز منذ تلك الفترة فى صورة صراعات سياسية أكثر وضوحًا تباعًا للأحداث التى أعقبت نهاية دولة اليعاربة واستمر ذلك إلى قيام دولة الإمارات العربية المتحدة فى السبعينات من هذا القرن .

جاءت تسمية التحزب «الغافرى» و «الهنائى» نسبة إلى الزعامة ، حيث أطلق الغافرية على أتباع الزعيم محمد بن ناصر الغافرى بينما أطلق على منافسه الهنائى نسبة إلى زعيم المعارضة خلف بن مبارك الهنائى .

ظهر الصراع السياسى الاقتصادى بين الغافرية والهنائية بهذه الصورة خلال نشوب الحرب الأهلية العمانية على أثر وفاة الإمام سلطان بن سيف الثانى وبعد حكم الأئمة اليعاربة طيلة هذه الفترة الطويلة إلى عامة الناس أن يخلفه إبنه سيف الذى كان لايزال صبيًا صغيراً لم يبلغ الحلم أو سن الرشد ، ولكن الخاصة من أهل الحل والعقد من رجال الدين فى عمان لم يرحبوا بذلك .

يرجح أن تلك المعارضة كانت موجهة للحكم الوراثى الذى سار عليه أئمة اليعاربة برغم العدل والاستقامة الذى ساروا عليه واشتهروا به كما كانوا علماء فى الدين وقضاة وفقهاء ، وهذا الموقف الذى وقفه رجال الدين فى عمان من المواقف الهامة التى ينبغى تسجيلها إذ كانت دوافعهم الأساسية هى رفض الإتجاه الوراثى لمخالفته نظام الإمام وإن تذرعوا بحجة شرعية أخرى وهى رفض البيعة لسيف بن سلطان الثانى بسبب صغر سنه إذ كان لايتعدى الثامنة من عمره ، وكانت حجة رجال الدين الشرعية فى ذلك قولهم أنه إذا كان لايجوز له أن يؤم الناس فى الصلاة فكيف يمكنه أن يؤمهم فى شؤون الحياة؟ وكانوا أقرب إلى مبايعة مهنا بن سلطان الذى وجدوا فيها شخصًا حائزاً على كل الشروط التى يجب توافرها فى الإمامة على عكس سيف بن سلطان الثانى الذى لايجوز له أن يتصرف فى أملاكه الخاصة ، فكيف بالعامة ؟ والتالى لاينبغى له أن يتولى الإشراف على ممتلكات الأمة وبالتالى اعتبروا ذلك خروجًا على الشريعة الإسلامية ، ومما يستلفت الانتباه لرجال الدين الذين لم يخرجوا عن

البيعة فى نطاق أسرة اليعاربة ، فقد كان مهنا بن سلطان من تلك الأسرة ، ولما كان موقف علماء الدين يتعارض مع موقف العامة ، فانهم لم يجرؤوا على مبايعة مهنا علنًا فعمدوا إلى إدخال مهنا بن سلطان إلى قلعة الرستاق وبايعوه إمامًا للمسلمين واستلم زمام الحكم فى عمان عام ١٧١٩ ، وعلى الرغم من جهوده الصادقة وانتهاجه طريق العدل والاستقامة وبناء الوطن إلا أن ذلك لم يمنع من قيام المعارضة ضد حكمه .

عرف عنه علمه بالدين إلا أنه كان أيضًا إداريًا من الطراز الأول وقام باصلاح ميناء مسقط التجارى وعمل على التنمية الداخلية وانتعش الاقتصاد الوطنى وخفض الضرائب على البضائع مما زاد فى الحركة التجارية وانعكس ذلك على النشاط الاقتصادى وزاد الإزدهار فى بداية حكمه إلا أنه لم يكن يمر عام واحد فقط على تولية حكم عمان حتى تمكن أحد المعارضين له «يعرب بن يلعرب» بفضل تأييد عامة الشعب من اجبار الإمام مهنا بن سلطان على التنازل عن الإمامة وقتله فى عام ١٧٢٠ .

انتقل يعرب بن يلعرب إلى مدينة نزوى مصطحبًا معه الصبى الصغير سيف بن سلطان الثانى ومن ثم أصبح هو الشخصية الإدارية لأمور عمان وأنه لم يطالب بالإمامة لنفسه لعدم قدرته على ذلك وعدم أحقيته لأنه لاينتمى إلى أسرة اليعاربة كما لاينطبق عليه شروط الإمامة من الناحية الشرعية وكانت الإمامة من حق سيف بن سلطان الثانى الذى أجمع عليه عامة الشعب فى عمان على اختياره إمامًا

لهذا اكتفى يعرب بن يلعرب بالوصاية على الإمام الصبى الصغير سيف بن سلطان الثانى بحضور جميع رؤساء القبائل فى الوقت الذى كان يعمل على الإنفراد بالسلطة لنفسه متجاهلاً أمر الوصاية على الصبى الصغير مما كان دافعًا لخلعه من قبل بلعرب بن ناصر الذى عقد الإمامة لسيف بن سلطان الثانى للمرة الثانية فى عام ١٧٢٣ وتولى أمر الوصاية عليه بنفسه ، ولكن الوصى المخلوع يعرب بن بعلرب عقد اتفاقًا مع محمد بن ناصر الغافرى الذى عاد إلى عمان بعد أن ترك ولاية البحرين التى كانت خاضعة لحكم أئمة اليعاربة فى عهد الإمام سلطان بن سيف الثانى ، وبعد عودة محمد بن ناصر تولى زعامة الحزب الغافرى الذى نشأ فى تلك الفترة فى عمان ، وكان يهدف ذلك الاتفاق إلى التخلص من بلعرب بن ناصر ولم تلبث الظروف أن ساعدته بموته فى عام ١٧٢٧ والذى بلغ فيه سيف بن سلطان الثانى السن القانونى الذى يؤهله لتولى شؤون الإمامة بهذه الطريقة فنودى سيف بن سلطان إمامًا للمرة الثالثة وكانت بيعته هذه فى ظل تأييد الحزب الغافرى .

برغم ذلك استمرت الحرب الأهلية قائمة فى عمان حتى راح ضحيتها زعيما الحزب الغافرى والهنائى معًا أثناء المعارك العنيفة التى دارت فى صحار عام ١٧٢٨ والتى لم يوقفها وفاة الزعيمين وإنما استمرت المعارك قائمة بين الحزبين المتخاصمين . على أنه أعقب مقتل زعيم الهنائى تخلى الحزب الغافرى عن تأييده للإمام سيف بن سلطان الثانى وأعلن بلعرب بن حمير إمامًا على عمان فى حين استبدل الإمام سيف بن سلطان الثانى التأييد لإمامته بالحزب الهنائى الذى بايعه بالإمامة وأصبح إمامًا للمرة الرابعة فى تاريخ اليعاربة .

أصبح بذلك إمامان يتنازعان وهما الإمام بلعرب بن حمير الذى يعتمد على تأييد الحزب الغافرى الذى يتواجد فى الظاهرة والمنطقة الشرقية فى صور ونزوى والمقاطعات الوسطى من عمان ، ويعتمد الإمام سيف بن سلطان الثانى على تأييد الحزب الهنائى الذى يتواجد فى الرستاق والباطنة والجبرين وأبو ظبى . ولم يستمر تأييد هذا الحزب بعد أن أثبت الإمام سيف بن سلطان الثانى عدم قدرتة على الوقوف فى وجه الإمام بلعرب بن حمير والحزب الغافرى وعدم قدرته على إدارة شؤون البلاد. وإضافة إلى ذلك فانه عرض نفسه لعداء رجال الدين بانغماسه فى الفسق والفجور وتعاطى الخمور مما أدى إلى خروج الكثيرين عليه بعد أن وجدوا فى إمامته خروجًا صريحًا على الشريعة الإسلامية وبذلك تم خلعه من الإمامة فى عمان. عندما فقد هذا الإمام تأييد الشعب رغم مبايعته له فى السابق لم يستجب لإرادة الشعب العمانى وقام بتكوين جيش من المرتزقة الأجانب من خارج البلاد وخاصة البلوش ليستعين بهم فى حكم البلاد ضد الشعب العمانى وكانت هذه هى المرة الأولى التى سجلها التاريخ العمانى الحديث لجلب تلك العناصر المرتزقة التى ظلت تشكل القوة الرئيسية المقاتلة فى الجيش العمانى حتى عهد قريب .

طلب الإمام المخلوع سيف بن سلطان الثانى فى عام ١٧٣٥ المساعدة من خانات البلوش الذين يسكنون فى بلوشستان من منطقة مكران الخاضعة حاليًا تحت الحكم الإيرانى والباكستانى تقديم قوات مرتزقة من الجنود ، وعلى الفور استجاب خان البلوشى على هذا الطلب وقاد بنفسه جيشًا من المرتزقة ونزل به مسقط وتقدم بمعاونة قوات الإمام المخلوع سيف بن سلطان الثانى إلى منطقة توام التى تقع حاليا فى منطقة العين بامارة أبوظبى فى دولة الإمارات العربية المتحدة ، فى الوقت الذى شن فيه الإمام الجديد بلعرب بن حمير هجومًا مضاداً أسفر عن مقتل خان البلوش وأدى إلى تمزيق الجيش البلوشى وهلاك عدد من أفراده مما

أدى إلى فرارهم ولجوئهم إلى بعض القرى والمدن العمانية وخاصة فى منطقة الظاهرة ومدينة المازم .

بذلك إضطر الإمام المخلوع سيف بن سلطان الثانى على التراجع أمام ضغط الإمام الجديد بلعرب بن حمير وانسحب بقواته إلى مدينة مسقط ، ولم يكتف بهذه الهزيمة والفشل الذى جلبه على نفسه باستعانته بالقوة الخارجية الأجنبية ضد شعب بلاده عندما جلب مرتزقة من البلوش وإنما من إيران فى هذه المرة عندما طلب من نادر شاه الافشارى الذى تولى الحكم فى إيران بارسال قوات من جيشه والذى لم يكن أقل حماسًا منه بل كان شاه إيران يسعى إلى توسيع مملكته . ومن ثم أسرع بانتهاز تلك الفرصة التى كان يتحينها منذ عدة سنوات ووجد فى الدعوة الموجهة إليه من الإمام المخلوع تحت ستار المساعدة فرصة لتحقيق أحلامه التوسعية بالسيطرة ليس على ساحل عمان ومسقط وإنما على عمان بأسرها .

استجابة لتلك الدعوة أرسل شاه إيران حملة بحرية كبيرة محملة بالجنود والأسلحة إلى عمان بقيادة لطيف خان رافعة العلم الإيرانى الأبيض والسيف الأحمر فى شهر مارس ١٧٢٧والتى تتكون من خمسة آلاف جندى وأكثر من ألف وخمسمائة فارس وتجمعت فى بندر عباس . ومن هناك خرجت فى اتجاهين إلى ساحل عمان (دولة الإمارت العربية المتحدة حاليًا) ، ونزلت الحملة الأولى فى خورفكان وأقامت فيها قاعدة عسكرية وكذلك فعلت الحملة الثانية فى رأس الخيمة وبعد إخضاع المنطقة الشمالية من ساحل عمان تقدمت إلى منطقة العين - البريمى ودارت معركة كبيرة وقوية استطاعت فيها القوات الإيرانية المتحالفة مع قوات الإمام المخلوع سيف بن سلطان الثانى أن تحقق انتصاراً على قوات الإمام بلعرب بن حمير وسيطرت على البلاد مستغلة أوضاع عمان الداخلية وما أصابها من الضعف نتيجة للثورات والحرب الأهلية الطاحنة .

بعد أن قضت القوات الإيرانية - وقوات الإمام المخلوع على مقاومة الإمام بلعرب بن حمير سيطر القائد الإيرانى وأعلن نفسه حاكمًا عسكريًا مطلقًا فى عمان ولم يترك شيئًا من السلطة للإمام المخلوع الذى انشغل بمقاتلة الجيوب وبقايا الجيوش الموالية للإمام بلعرب بن حمير الذى اجتمع بجمع كبير من القادة وشيوخ القبائل العمانية فى قاعدته «بهلا» والذين أبدوا معارضتهم الشديد للتدخل الأجنبى الإيرانى فى الشؤون العمانية ونظروا إلى الأمور والأوضاع التى وصلت إليها عمان ، وبعد تدارس الأوضاع فى الساحة العمانية كتب رجال

الدين إلى الإمام المخلوع سيف بن سلطان الثانى يندونه باعتماده على الإيرانيين فى تثبيت حكمه بالقوة على إرادة الشعب العمانى وبدلاً من الاستجابة لمطالب الشعب العمانى قرر التوجه إلى شاه إيران من جديد طالبًا منه قوات إضافية فوافق على الفور وأرسل قوات إيرانية أخرى بقيادة تقى خان الذى تمكن من دحر قوات الإمام بلعرب بن حمير إمام عمان واستولى على بهلا ونزوى على أنه لم يلبث أن دب الخلاف بين الإمام المخلوع وحليفه الإيرانى تقى خان .

أصبح واضحًا أن السياسة التى اتبعها الإمام المخلوع لتوطيد مركزه الداخلى واستعادة حكمه عن طريق المساعدات والقوة الأجنبية لم تكن سياسة ناجحة مما أدى إلى استياء الشعب العمانى من هذه التصرفات ولم يؤد إلى النتائج التى كان يأملها إضافة إلى ذلك حدث خلاف بين الإمام المخلوع والقائد الإيرانى تقى خان على تدهور حالة الجيش الإيرانى وسوء أوضاعه فى عمان وخاصة بعد الفشل الذى منى به الجيش الإيرانى بقيادة تقى خان فى الاستيلاء على صحار . ومما زاد فى سوء الأحوال ما قام به العمانيون من أعمال بطولية وشنوا هجومًا ناجحًا ضد القوات الإيرانية فى كل من بهلا وازكى وقتلوهم ولم يبق جندى إيرانى واحد على قيد الحياة إنتقامًا للتصرفات اللانسانية ضد الشعب العمانى مما اضطر القائد الإيرانى تقى خان إلى سحب قواته إلى قاعدته العسكرية فى رأس الخيمة ومن هناك وصلت نجدات وقوات إيرانية إضافية تمكن بواسطتها من احتلال الظاهرة والمناطق المجاورة لها .

يبدو أن الإمام المخلوع أصبح نادمًا على جلبه للإيرانيين إذ ذاك أدرك ما مدى أطماعهم التوسعية فى عمان ، ولهذا توجه إلى وادى بنى غافر واجتمع مع الإمام بلعرب بن حمير وأسفر هذا الاجتماع عن موافقة الحزب الغافرى على التنازل عن الإمامة . ويتحد العمانيون من الحزبين الغافرى والهنائى تحت زعامة الإمام سيف بن سلطان الثانى الذى قام بدور بطولى من أجل مواجهة القوات الإيرانية فى محاولة منه لتكفير الأخطاء التى ارتكبها ويظهر بمظهر المحرر والمخلص لعمان من الاحتلال الإيرانى الذى كان هو السبب فى ذلك ، وفعلاً نجح فى تحرير عمان من القوات الإيرانية وطردها ولم يكتف بذلك وإنما تتبعها فى مياه الخليج العربى وأعلن على نقل المعركة إلى داخل إيران نفسها وناشد جميع القبائل العربية فى الخليج العربى تزويده بالمقاتلين وتمكن من الوصول بقواته إلى بندر عباس واسترجع البحرين الذى كان قد تنازل عنها لشيوخ آل مذكور حكام بوشهر ، مقابل تقديم شاه إيران مساعدات عسكرية لاستعادته للحكم .

بعد أن أصبح سيف بن سلطان الثانى سيد الموقف عاد إلى حياته الخاصة وبدأ بتعاطى الخمور والفسق والفجور من جديد مما أغضب رجال الدين فثاروا عليه وهرب إلى رأس الخيمة. ويبدو أنه لم يستفد من تلك الكوارث التى جلبها على شعبه بلاده فشكل الإمام المخلوع وفداً من مرافقيه حملهم رسالة إلى شاه إيران يطلب فيها قوات لارجاعه للحكم واعداً إياه باعترافه للسيادة الإيرانية فأمر شاه إيران تقى خان باعداد حملة جديدة لاحتلال عمان ولم يتعظ الشاه بما حدث لقواته عندما تمكن العمانيون من قتلهم وإبادتهم . ،غادرت السفن الإيرانية ميناء بوشهر لتصل إلى رأس الخيمة فى عام ١٧٤٢ ، وفرض الإيرانيون الحصار الإيرانى الذى استمر قرابة سبعة أشهر كلف الإيرانيين والعمانيين الكثير من القتلى فى الأرواح والجرحى . أعلن الإمام المخلوع سيف بن سلطان الثانى انسحابه من النزاع بعد أن ندم على ما جره على بلاده من ويلات الحرب والكوارث فى حين أصيب الإمام الجديد سلطان بن مرشد بجراحات كثيرة أثناء اقتحامه من الجنود الإيرانيين ودخل الحصن عند أحمد بن سعيد والى صحار ومات بعد ثلاثة أيام متأثراً بجراحه ، ثم توفى الإمام المخلوع أيضًا عند سماعه لنبأ وفاة ابن عمته سلطان بن مرشد وبذلك تهيأت الظروف عقب وفاة الإمامين لوالى صحار أحمد بن سعيد للوصول إلى حكم عمان بعد أن طلب الإيرانيون الصلح وتأمين رحيلهم من صحار بعد فشلهم فى احتلالها وطال حصارها على أن تبقى بعض القوات الإيرانية فى مسقط وذلك فى عام ١٧٤٣ ، وعندما تدهورت حالة الحامية الإيرانية فى مسقط لنفاذ ذخيرتها وانقطاع مؤنها ورواتبها قام قائد الحامية بالاتصال بشاه إيران وأخبره بحرج الموقف فى عمان وأنه لافائدة من بقاء القوات الإيرانية المحاصرة فى مسقط واستعان من أجل ذلك بماجد بن سلطان شقيق الإمام المخلوع الذى توفى ، وبعث به إلى تبريز حيث قابل شاه إيران الذى وافق على اعادة قواته ، وأثناء انسحاب الجيش الإيرانى انقض العمانيون فى مدينة بركا انتقامًا من الإيرانيين ولم ينج من هذه المذبحة إلا من تمكن من الدخول فى معسكر أحمد بن سعيد الذى أمر بنقلهم إلى بندر عباس على السفن العمانية . وفى عرض البحر قام البحارة العمانيون بقتل الإيرانيين وإحراقهم وإغراق السفن بمن فيها وركبوا السفن الصغيرة التى كانوا أعدوها مسبقًا وعادوا إلى البر وبذلك لم يبق أحد من الجيش الإيرانى الذى جاء إلى عمان .

الإمام بلعرب بن حمير ١٧٤٣ - ١٧٥٣ :

بايع أهل عُمان بلعرب بن حمير إمامًا على عمان للمرة الثانية فى عام ١٧٤٣ وفى آخر عهده خرج عليه أحمد بن سعيد حاكم صحار وأخذ منه نزوى فى عام ١٧٥٣ وبذلك انتهت دولة اليعاربة التى اشتهرت بحكومتها القوية الحازمة قبل الحرب الأهلية وبسيطرتها على أجهزة الحكم والإدارة فيها وبمسئولياتها واهتمت بالزراعة ونظمت الرى وشقت الأفلاج الجديدة واعتنت باصلاح القديمة منها . وتمتعت عمان فى عهد اليعاربة بالرخاء والاستقرار وشهدت تقدمًا فى جميع المجالات وخاصة التجارة والزراعة وأصبح لها جيش منظم وأسطول تجارى قوى لنقل المنتوجات والبضائع وتعقبت البرتغاليين وطاردوهم فى عقر دارهم فى الهند وشرق افريقيا .

سلطنة عمان ١٧٥٣ - ١٨٣٩ :

قامت أربع وحدات جغرافية على أنقاض دولة اليعاربة بعد عام ١٧٥٣ والتى اعتبرت أكبر قوة بحرية فى الخليج العربى خلال القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر مما جعل شركة الهند الشرقية البريطانية ترسل أوامرها إلى وكيلها فى بندر عباس لوقف هجمات اليعاربة على هذا الميناء الحيوى والدفاع عنه للحيلولة دون خضوعه لسيطرة العمانيين .

غير أن قيام الحرب الأهلية العمانية التى امتدت بين عامى ١٧١١ - ١٧٤٣ أضعفت عمان وأدت إلى انقسام قبائلها إلى حزبين كبيرين وهما الهناتية والغافرية ، وكان ذلك بداية النهاية لليعاربة والتى فقدت سيطرتها على عمان بوفاة الإمام سلطان بن مرشد وكذلك الإمام المخلوع سيف بن سلطان الثانى ، وبعد استسلام الإمام بلعرب بن حمير بن سعيد عام ١٧٥٣ وظهرت بعدها أربع وحدات سياسية جغرافية فى عمان الطبيعية تنتمى إلى الحزبين الكبيرين وهذه الوحدات هى :

أولاً - ساحل عمان الشمالية : وهى رأس الخيمة وما يعرف حاليا بالإمارات الشمالية وهى الشارقة - أم القيوين - عجمان - الفجيرة .

ثانيًا - ساحل عمان الجنوبية : ما يعرف حاليًا أبوظبى ودبى .

ثالثًا - عمان الساحل : وهى مسقط وساحل الباطنة .

رابعًا - عمان الداخل : جبل الأخضر - الظاهرة - نزوى .

يعتبر أحمد بن سعيد مؤسس أسرة البوسعيد فى عمان الساحل وذلك بعدما اجتمع شيوخ قبائل الهنائية وبايعوه إمامًا على البلاد ومن ثم أخذ يعمل على توطيد حكمه والقضاء على الثورات وتزوج من إبنة الإمام سيف بن سلطان الثانى ليكسب اليعاربة لابعادهم عن مطالبتهم بالحكم ، إلا أنه لم ينجح فى ذلك الوقت ، وقامت ثورات فى عمان الداخل منذ قام اليعاربة بمبايعة بلعرب بن حمير الذى تحالفت القبائل الغافرية معه ولكن أحمد بن سعيد نجح فى القضاء عليه عليه وأزاح أكبر معارض كان يهدد كيان أسرته ولكنه لم يستطع التخلص نهائيًا من اليعاربة الذين استمروا فى ممارسة حكمهم فى عمان الداخل فى الجبل الأخضر ، وبدأ أحمد بن سعيد ينظم عمان الساحل وكون جيشًا قويًا واتجه إلى الخليج العربى فامتدت سيادته إلى الإحساء والبحرين غربًا ، غير أن أشرك أبناءه فى الحكم مما أدى إلى مشاكل واضطرابات واشعال الفتن وأوقع البلاد فى مشكلة التنازع الأسرى ، وشهدت سنوات حكمه الأخيرة مزيداً من الاضطرابات الداخلية حتى وفاته عام ١٨٨٣ (٩).

شهدت الفترة ما بين ١٧٨٣ - ١٧٩٨ أحداثًا مهمة مثلت نقطة تحول رئيسية فى تاريخ عمان لأنها أصبحت نقطة تلاق ومجابهة بين القوي السياسية التى لعبت دوراً فى تلك الفترة فقد رفض رجال الدين العلماء الاعتراف بشرعية حكم سعيد بن أحمد الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه ، وكانت سلطة سعيد بن أحمد على درجة كبيرة من الضعف واتسم عهده بالاضطرابات الداخلية والتنازع الأسرى مما أدى إلى انفصال عمان الساحل عم عمان الداخل، وعندما تولى إبنه حمد بن سعيد الحكم قرر نقل العاصمة العمانية من الداخل إلى الساحل نظراً لمعارضة رجال الدين له وجعل مدينة مسقط مقراً لحكمه الجديد لعدة أسباب :

أولاً : التخلص من الحكم الدينى ورجال الدين . ثانيًا : أن يعتمد على التجارة كمصدر دخل لدولته وعن طريق الميناء يحقق أهدافه الاقتصادية ويعزز علاقته الدولية وخاصة مع بريطانيا التى بدأت تتحالف مع أسرة البوسعيد مستغلة ظروفها الصعبة والصراع الداخلى الدائر فى عمان إضافة إلى حاجة البوسعيد لدعم خارجى لحكمه وخاصة من قبل بريطانيا ، ولهذا كانت المصلحة المشتركة بينهما دافعًا إلى التحالف وتوقيع العديد من الاتفاقيات .
ثالثا: موقع مسقط الحصين سواء بطبيعته الجبلية حيث تحيط به الجبال من جميع الجهات ما عدا البحر فى الواجهة ووجود القلعتين المنيعتين وهما الميرانى والجلالى مما جعل من الصعب اقتحامه من قبل المعارضة وخاصة رجال القبائل إذا ما تم تحريضهم من قبل العلماء ورجال الدين .

بذلك كان تفكير حمد بن سعيد بعيد النظر للحفاظ على حكم أسرته واستمراريته واستقلالها من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية مما يعزز الناحية السياسية فى علاقاته الدولية والخارجية حيث تشهد عمان الداخل الكثير من الانتفاضات والاضطرابات والفوضى بين القبائل لفترة طويلة وخاصة بعد تدخل القوى السياسية المجاورة لعمان فى شؤونها الداخلية وهذا ما قد يدفع فيما بعد سعيد بن سلطان لنقل عاصمته من مسقط إلى افريقيا الشرقية فى زنجبار .

بعد وفاة حمد بن سعيد عام ١٧٩٢ حاول والده سعيد بن أحمد أن ينتهز هذه الفرصة ليستعيد سلطته على مسقط غير أنه لم ينجح فى ذلك عندما استطاع أخوه سلطان بن أحمد انتزاع مسقط والمناطق المجاورة وأصبح الحاكم الفعلى لها مما أدى إلى تقسيم السلطنة بين الأخوة الثلاثة سعيد وسلطان وقيس فى اتفاق سمى اتفاق «برقة» الذى توزعت بموجبه السلطة بينهم على أن يحكم سلطان مسقط ويبقى سعيد فى الرستاق العاصمة الداخلية أو الدينية ويحتفظ قيس بصحار ، وهذا يعتبر البداية الحقيقية لانقسام عمان الساحل وعمان الداخل ، أى يحكم كل من سلطان وقيس عمان الساحل فى مسقط وساحل الباطنية فى صحار ، أما عمان الداخل فيحكمه رجال الدين عن طريق شيوخ القبائل أى بداية انفصال السلطنة السياسية عن الامامة الدينية وكان رجال الدين ينكرون على حكام مسقط اتصالهم بالغرب وخاصة ببريطانيا وبذلك ارتكز الخلاف بينهما من الناحية الدينية والشرعية ، كما يمثل هذا الانقسام الدور المتنامى للعلماء ورجال الدين الذين يلعبون دوراً بارزاً فى الفترة المقبلة من الصراع الداخلى فى عمان [١٠].

امتد حكم عمان فى عهد سلطان بن أحمد إلى أجزاء واسعة من الخليج العربى وشرق أفريقيا ونجح فى السيطرة على ميناء بندر عباس عام ١٧٩٤ واستولى على جزيرة قشم وهرمز ولارك وهنجام وأصبحت تحت السيادة العمانية وتم اغتياله فى عام ١٨٠٤ بالقرب من بندر عباس ، وبذلك يعتبر حمد بن سعيد المؤسس الأول للحكم المدنى لعمان الساحل برغم أن عمه سلطان بن أحمد نجح فى تعزيز حكم مسقط وجعله يبرز في المجال الخارجى ثم أكمل هذا المشوار ودعمه أكثر إبنه سعيد بن سلطان .

تخلى حكام عمان الساحل أى مسقط عن لقب الإمامة منذ تحولهم من عاصمتهم الدينية فى عمان الداخل «الرستاق» إلى ميناء مسقط التجارى الاقتصادى ، واتخذوا بدلاً منه لقب

«السيد» ويقى كذلك حتى تقسيم ممتلكاتهم بين عمان وشرق افريقيا عام ١٨٦١ حيث أصبح لقب الحاكم هو «سلطان» وساعد موقع مسقط الجغرافى فى تنمية موارد البلاد الاقتصادية عن طريق التجارة والرسوم التى كانوا يفرضونها على البضائع الأجنبية الواردة إلى عمان ، أما من ناحية الإدارة فانهم أى سلاطين عمان الساحل اتخذوا سياسة اللامركزية لاهتمامهم بالعلاقات الدولية الخارجية بعد تفكك الأسرة نتيجة للمنازعات الداخلية والانشقاقات القبلية.

وقعت عمان الساحل بعد اغتيال سلطان بن أحمد فى منازعات على الحكم إلى أن تمكن إبنه سعيد من تولى الحكم بالقوة بعدما تخلص من منافسيه الذين كان أقواهم بدر بن سيف والذى هزمه عام ١٨٠٦ . ثم انفرد بالحكم وأخذ يعمل على توحيد عمان الساحل والداخل فسيطر على الرستاق بعد وفاة عمه سعيد بن أحمد فى عام ١٨٢١ . ولكنه لم يستمر فى توحيد عمان نظراً لكثرة المنازعات الداخلية ولقوة قبائل الغافرية المعارضة لحكمه مما جعله يتجه فى سياسته التوسعية إلى الخليج العربى وشرق افريقيا واستمر فى عاصمته مسقط حتى عام ١٨٣٢ ثم نقلها إلى زنجبار فى شرق أفريقيا واستمر فى هذه العاصمة الجديدة حتى وفاته عام ١٨٥٦ .

لم تستقر الأوضاع الداخلية لسعيد بن سلطان وتعرض لكثير من الحركات الانفصالية والتمرد بالاضافة إلى تهديدات وتداخلات النجديين وغاراتهم على المناطقة الداخلية وتحريضهم للقبائل الغافرية ، ورغم تلك المشاكل الداخلية والخارجية إلا أنه نجح فى حكمه وتوسيع سلطنته لما يقرب نصف قرن ونجح فى تعزيز اقتصاد بلاده معتمداً على التجارة التى كان يشجعها ويدعمها كما كان يملك أكبر أسطول تجارى فى المنطقة فقد وصلت سفنه المحملة بالبضائع إلى موانىء فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة إضافة إلى السفن التجارية لتلك الدول التى كانت تتعامل معه وخاصة فى موانىء مسقط وزنجبار ومن وإلى الهند والبصرة مما كان يدر بالربح المادى نتيجة للضرائب والتجارة .

التنافس الأنجلو - فرنسى فى عمان :

بدأت العلاقات البريطانية - العمانية مع بداية حكم اليعاربة ، وفى الخمسينات من القرن السابع عشر جرى اتصال بينهما وتوصلا إلى إقامة مركز بريطانى فى مسقط عندما جاء وفد من شركة الهند الشرقية البريطانية إلى عمان عام ١٦٥٩ للحصول على الموافقة ولكنه فشل

لاصرار الإمام سلطان بن سيف الأول على عدم السماح بقيام أية مؤسسة أوروبية على الأراضى العمانية وهو تقليد سوف يتبعه جميع أئمة اليعاربة فى عمان من بعده حتى نهاية حكمهم ، ويرجع هذا الموقف إلى ما كان قد عاناه العمانيون من الوجود الأوروبى البرتغالى ولهذا كان الاصرار اليعربى سببًا فى ذلك الموقف من عدم دخول أو حصول المستعمرين الأوروبيين على امتيازات أو إقامة مراكز تجارية فى عمان ، ولم يترك رفض إمام اليعاربة للمطالب البريطانية بانشاء وكالة لهم فى مسقط أية آثار فى العلاقات بين الطرفين وإن كان لهذا الاتصال دوراً فى حرص العمانيين والبريطانيين على عدم الصدام فيما بينهما برغم متابعة البريطانيين بحذر شديد لتزايد القوة البحرية لأسطول اليعاربة (١١).

تغير هذا الموقف العمانى الذى اتخذه أئمة اليعاربة فى عهد البوسعيد فقد رحب حاكم عمان البوسعيدى باقامة الفرنسيين مركزاً تجاريًا لهم فى بلاده فى الوقت الذى رفض طلب البريطانيين فى نفس العام ١٧٨٥ والتى ظلت مصالحهم فى مسقط تدار من قبل وكيل وطنى حتى عام ١٧٩٨ ، ولم تتمكن فرنسا من تطوير علاقاتها مع عمان وعندما أرادوا إنشاء قنصلية فى مسقط عام ١٧٨٨ تأزمت الأوضاع الداخلية وقامت الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وأهملت انشاء هذه القنصلية رغم العروض المتكررة التى قدمها حمد بن سعيد إلى القنصل الفرنسى فى بغداد ليبعث بمندوب ليكون بمثابة وكيل تجارى ، وبرغم عدم النجاح فى توطيد العلاقات الفرنسية - العمانية إلا أنها حافظت على وضعيتها الخاصة حتى السنوات القليلة التى سبقت الحملة الفرنسية على مصر . وكان هناك فرنسيون يعملون لدى حاكم عمان مما أثار قلق الحاكم البريطانى فى بومباى الذى بعث بوفد إلى مسقط عام ١٧٩٨ لابعاد الفرنسيين والهولنديين ومن ثم عقدت اتفاقية ١٢ / ١٠ / ١٧٩٨ التى حققت نجاحًا كبيراً بسهولة للبريطانيين ويتضح من نصوصها أنها حققت الأهداف السياسية البريطانية بعرقلة النشاط الفرنسى ووضع أسس للمصالح البريطانية فى عمان وتوثيقها لأهميتها من ناحية المواصلات إلى الهند كما كانت رداً بريطانيًا موجهًا ضد النشاط الفرنسى فى مسقط مما سمحت لبريطانيا التوسع فى المجال السياسى والتجارى والعسكرى ليس فى عمان وإنما فى الخليج العربى نظراً لأهمية موقع عمان الجغرافى مما جعلها ترتكز على عمان لمواصلة نشاطها فى المنطقة .

برغم هذه الضربة القوية ضد المصالح الفرنسية إلا أن نابليون سعى لتحقيق أهدافه بمهاجمة الهند وحاول استمالة حاكم عمان وذكره بالصداقة الفرنسية التقليدية وكتب إليه رسالة من القاهرة في يناير ١٧٩٩ مما جعل البريطانيين يهتمون باعطاء فاعلية أكثر لاتفاقية ١٧٩٨ بعدما اتضح لهم بأن الفرنسيين لم يبالوا بها وحاولوا أن ينفذوا من خلال شروطها التي أصبحت غير سارية المفعول وبدأت حكومة الهند توجه اللوم لحاكم عمان الذي كان يدافع عن مسلكه الغير ودي تجاه بريطانيا وتطلب منه عقد اتفاقية جديدة وفعلاً نجحت ووقعت اتفاقية عام ١٨٠٠ التي أكدت بنود الاتفاقية السابقة لعام ١٧٩٨ وأضافت بنوداً جديدة لكن لم تحدد وقتًا لانتهائها ومن ثم تتبع مثل هذه الاتفاقيات مع ساحل عمان فيما بعد والتي يمكن أن نسميها بالمعاهدات الأبدية حيث ورد نص في اتفاقية ١٨٠٠ «تستمر علاقات الصداقة القائمة بين عمان وبريطانيا إلى أن تتوقف دورة الشمس والقمر» .

بذلك نجح البريطانيون في عقد اتفاقية ١٧٩٨ بعدما بذلوا محاولات كثيرة للسيطرة على عمان طوال الفترة الماضية واستغلوا انشغال الفرنسيين بثورتهم وكذلك انشغال العمانيين بالصراع الداخلي بين الإمامة والسلطنة التي كانت تحاول درء خطر رأس الخيمة بقيادة القواسم وغارات النجديين مما جعلها ترتمي في أحضان الاستعمار البريطاني الذي كان يترقب تلك الفرصة حتى يمد نفوذه إلى شرق أفريقيا التي كانت تحت حكم العمانيين ، ولم ينفض النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى كانت بريطانيا قد أكملت سيطرتها على الموانيء الرئيسية في عموم الساحل الجنوبي من الجزيرة العربية إبتداء من مسقط وظفار وحضرموت حتى عدن والخليج العربي وبذلك يمكن القول بأن اتفاقية ١٧٩٨ كانت البداية الأولى لموطىء قدم الاستعمار البريطاني في المنطقة العربية (١٢).

إلا أن اتفاقية ١٨٠٠ لم تحد من التقارب الفرنسي - العماني بل استمرت عمان الساحل تغير سياستها تجاه كل من بريطانيا وفرنسا تبعًا لقوة إحدى هاتين الدولتين مستغلة موقعها الاستراتيجي على رأس الطريق الواصل من بومباي إلى الخليج العربي والبحر الأحمر مما جعلها محط أنظار القوى الأوروبية الاستعمارية مثل فرنسا وبريطانيا فدار بين هاتين الدولتين تنافس من أجل إيجاد علاقات قوية مع عمان الساحل . وأرادت مسقط الاستفادة من ذلك لصالحها ولكنها لم تنجح نظراً لضعفها والمشاكل الداخلية التي أثرت على حكمها مما جعلها تعتمد على القوة الاستعمارية الأوروبية وخاصة بريطانيا لمساعدتها بل لحمايتها من الإضطرابات الداخلية التي قد تمتد إلى مسقط وبالتالي على حكم البوسعيد ومن ثم المصالح البريطانية .

فعندما رفضت بريطانيا تقديم المساعدة لحاكم عمان الساحل فى الاستيلاء على البحرين عام ١٨٠١ اتجه إلى الفرنسيين الذين انتهزوا هذه الفرصة وقدموا له الدعم اللازم مما أدى إلى تجاهل حاكم عمان لاتفاقيته مع بريطانيا لعام ١٨٠٠ وجاء هذا مع تزايد النشاط الفرنسى لاستعادة مركزها فى الشرق . وبرغم مقتل سلطان بن أحمد عام ١٨٠٤ ومجىء بدر بن سيف إلى الحكم إلا أن التقارب الفرنسى - العمانى استمر ووصلت السفن الفرنسية إلى الموانىء العمانية لتزود بالمياه والوقود مما أثار حكومة الهند البريطانية التى أوفدت الكابتن سيتون إلى مسقط ليعيد فتح دار المندوبية لإثبات وجودها وتذكير حاكمها بالإلتزامات العمانية تجاه بريطانيا .

لكن وصول سعيد بن سلطان إلى الحكم عام ١٨٠٦ جعل الصراع البريطانى - الفرنسى يشتد بعدما اغتصب سعيد الحكم بالقوة ؛ وبالتالى فانه كان بحاجة إلى دعم خارجى لحكم داخلى فتطلع إلى المساعدة من كل منهما دون إغضاب الأخرى فى الوقت الذى كانت العلاقات البريطانية - الفرنسية تمر بتوتر شديد فى بحار الشرق ، وكتب سعيد بن سلطان إلى حاكم بومباى يؤكد علاقات المودة بينهما إلا أنه لم يرد لأنه اعتقد بأن سعيد بن سلطان يريد مساعدة بريطانية ضد غارات النجديين فى الوقت الذى لم تكن بريطانيا تريد أن تتأثر علاقاتها بالنجديين من جراء مساعداتها لعمان .

هذا ما دفع سعيد بن سلطان إلى التوجه نحو الفرنسيين ولكن ما أن تخلصت بريطانيا من منافسة فرنسا فى عام ١٨١٠ حتى بدأت تفرض سيطرتها على عمان الساحل وبالتالى أصبحت الأخيرة تحت حمايتها ، وعندما أحست بريطانيا بخطر ساحل عمان (رأس الخيمة وأبوظبى) على مصالحها اتخذت من سعيد بن سلطان حليفًا ووجدت لديه رغبة فى تقديم المساعدة ضد رأس الخيمة ، كما حدث للحملة البريطانية - العمانية المشتركة ١٨٠٥ ، وبعدها اعتقد سعيد بن سلطان بأن بريطانيا ستقف إلى جانبه ضد غارات النجديين ولكنه كان مخطئ ، فما أن رفضت بريطانيا مساعدة حاكم عمان ضد النجديين حتى عمل هؤلاء على تحييد البريطانيين كمقدمة لغزو مسقط نفسها وقد توصل مطلق المطيرى نائب حاكم نجد فى البريمى إلى معاهدة وقعها مع الكولونيل سميث تعهد بموجبها المطيرى بأن لاتقف بريطانيا إلى جانب سعيد بن سلطان فى حروبه مع النجديين وبعدها قام مطلق المطيرى بالهجوم على مسقط بحجة اخلال سلطانها بتعهداته إزاء حاكم نجد ؛ فقتل أعداداً كبيرة من العمانيين

وأصبح وضع سعيد بن سلطان فى خطر دون أن تحرك بريطانيا ساكنًا برغم اتفاقية ١٧٩٨ واتفاقية ١٨٠٠ . بل اكتفت بنصح سعيد بن سلطان بأن يتجنب معاداة النجديين مما يتضح بأن بريطانيا لم تكن تهمها فى تحالفها مع عمان غير تحقيق أهدافها وحماية مصالحها دون النظر إلى مصالح حليفها حاكم عمان .

عندما استغل حمود بن عزان غياب سعيد بن سلطان فى شرق أفريقيا عام ١٨٢٩ ثار فى صحار وأخذ يهدد مسقط فعندئذ تحركت بريطانيا فأرسلت أسطولها إلى ساحل الباطنة لوضع حد لتقدم حمود بن عزان إلى مسقط . وبعد عودة سعيد بن سلطان إلى مسقط أعلن الأخير الحرب على حمود بن عزان لاستعادة صحار عام ١٩٣١ إلا أنه فشل وعقد هدنة مع حمود. غير أن ذلك لم يضع حداً للصراع بين الطرفين مما دفع سعيد بن سلطان عام ١٩٣٦ إلى طلب المساعدة من بريطانيا التى استجابت له لوضع حد لأطماع حمود التوسعية مما يعنى أنها لم تكن تريد لسعيد بن سلطان أن يكون حاكمًا قويًا لدولة قوية وإنما أداة طيعة فى يدها يسهل السيطرة عليها . وهذا ما يفسر لنا عدم تدخلها لحمايته من النجديين الذين لم يكونوا ليشكلوا خطراً يؤدى إلى انهياره وكذلك بالنسبة لثورة حمود بن عزان إلا عندما أخذ يهدد مسقط مما يعنى الإطاحة بسعيد بن سلطان فتفقد بذلك حليفًا يتمشى مع سياستها. وهذا فى الواقع كان متوافقًا مع السياسة البريطانية فى الخليج العربى القائمة على تفتيت وحداته السياسية وبالتالى فقد كانت تشجع انفصال صحار عن مسقط لتبقى على التجزئة فى صفوف العرب فى المنطقة . ومن هنا فقد بادرت فى العمل على ترسيخ هذا الانفصال فقد قامت بعقد معاهدة بين سعيد بن سلطان وحمود بن عزان فى عام ١٨٣٩ حيث تم بموجبها انفصال صحار عن مسقط وأن تستمر العلاقات التجارية بين البلدين وأن يتعهد سعيد بتقديم العون لحاكم صحار ضد أى هجوم خارجي أو يشنه أعداؤه(١٣) .

ساحل عمان (دولة الإمارات العربية المتحدة حاليًا) ١٧٦٥ - ١٨١٨ :

تتميز التركيبة القبلية لساحل عمان بقدر كبير من التعقيد بالإضافة إلى التفتيت والتميع الشديد اللذين تتسم بهما حيث ينقسم السكان فى ولاءاتهم النسبية إلى عشرات من العشائر قد لايتجاوز عدد أفراد البعض منها مائتى فرد وتتجمع العشائر الصغيرة تحت زعامة عشيرة بارزة تفرض عليها سيطرتها وهيمنتها فتوكل إليها تلك العشائر الصغيرة أمورها وتسمى المجموعة القبلية حينئذ باسم العشيرة الحاكمة ، بيد أن هذه الحالات لاتحدث عادة إلا بين

العشائر المستقرة التى تحترف الزراعة أو الصيد لأنها بطبيعتها الحياتية تكون أكثر تشبثًا بالأرض وأكثر خضوعًا للقوى العسكرية وكثيراً ما تغير العشائر الصغيرة ولاءاتها أو تستقل كليًا عن القبيلة الكبرى ولاسيما إذا ضعفت المصالح المشتركة بينها وبين المجموعة المنتمية إليها أو إذا ما انتفت الضرورات الحربية أو تدخلت عوامل خارجية .

من المفيد أن نشير إلى أن الاتحادين الكبيرين لقبائل رأس الخيمة وأبوظبى برزا إلى القوة حول منتصف القرن الثامن عشر وتقاسما السلطة السياسية فيما بينهما ؛ رأس الخيمة فى الشمال وأبوظبى فى القسم الجنوبى من ساحل عمان .ولا يعنى هذا الانقسام أن هناك خلافًا بين القبائل الغافرية والهنائية إذ أن الفروق العنصرية والسلالية تكاد تكون منعدمة فيما بينهم، وحتى إذا كانت قبائل أبوظبى الهنائية تنتمى إلى العناصر الهنائية ، فان ذلك لايميزها بسمات أثنولوجية خاصة والمفروض أن تكون الفروق بين المجموعتين فروقًا ثقافية أساسًا بحكم طبيعة الحياة التى يحياها الفريقان ولذا قد يكون من المفيد أن نعرض لهذين الاتحادين على النحو التالى :

أولاً : اتحاد قبائل رأس الخيمة :

شجع قيام هذا الاتحاد فى منتصف القرن الثامن عشر عدة عوامل من أهمها إنهيار دولة اليعاربة ، حقيقة أن دولة اليعاربة استطاعت منذ قيامها أن تعمل على تجميع القبائل العربية للقضاء على التفوق البرتغالى لكى تعيد إلى عمان وحدتها وتماسكها ، إلا أنها لم تلبث أن تعرضت لتمزق داخلى بين قبائلها الغافرية والهنائية ، وحينما وقفت قبائل الهنائية مع أحمد بن سعيد أخذت المعارضة ضد الحكم الجديد من قبل الحزب الغافرى تتجمع فى المناطق الشمالية من ساحل عمان مما كان سببًا فى نشأة اتحاد قبائل رأس الخيمة . ومما ينبغى الإشارة إليه أن هذا الاتحاد شمل عدداً كبيراً من العشائر العربية ومن بينها عشائر وقبيلة الحبوس التى يقيم أفرادها فى المناطق الجبلية من رأس الخيمة وخاصة ميناء الرمس وكذلك قبائل الشحوح والذين يتوزعون فى المناطق الجبلية من رأس الخيمة أيضًا ، وقبيلة الخواطر والبوخريبان الذين يشكلون فرعين إضافة إلى البوشامس من القبائل النعيم العمانية التى هاجرت من اليمن واستوطنت فى البريمى ، كما يضم الاتحاد قبائل بنى قتب والغفلة والطنيج وبنى نقب والشرقيين ويتزعمهم القواسم .

يتضح لنا من هذا التنوع فى هذه المجموعة من القبائل والعشائر القحطانية اليمانية لاتحاد رأس الخيمة والذين لم يكونوا قوة بحرية فحسب وإنما كانوا يتمتعون بالإضافة إلى ذلك بالقوة البرية التى كانت القبائل البدوية تشكل عمودها ؛ ومن أبرزها بنى نقب والغفلة والطنيج والحبوس وإن كانت الصفة البحرية قد غلبت عليهم نظراً لتوجيه معظم القبائل المنتمية إليه حتى أصبح هذا الاتحاد يشكل قوة بحرية متفوقة خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر (١٤).

استطاعت قبائل رأس الخيمة منذ منتصف القرن الثامن عشر أن تمتد بنفوذها من رأس مسندم حتى دبى التابعة لأبوظبى كما امتدت سيطرتهم على بعض الموانىء والجزر الواقعة على الساحل الشرقى للخليج العربى كنج ولنجة وقشم ، كما تمكنوا من تجميع أسطول كبير حيث سقطت كثير من السفن الإيرانية تحت أيديهم بالإضافة إلى ما كانوا يستولون عليه من السفن الأوروبية بسبب عملياتهم الحربية المتنامية ، وبعد وفاة رحمة بن مطر فى عام ١٧٥٨ تولى زعامة اتحاد قبائل رأس الخيمة راشد بن مطر حتى عام ١٧٧٧ . وفى عهده زادت قوتهم البحرية وتمكنوا من السيطرة على كثير من الموانىء والجزر الواقعة على الساحل الشرقى من الخليج العربى وسيطروا على جزيرتى قشم ولفت عام ١٧٦٥ كما سيطروا على شناص . وفى عام ١٧٧٢ تحالف راشد بن مطر مع سلطان عمان حمد بن سعيد ضد الإيرانيين ثم عاد وتنازع معه فى عام ١٧٧٥ . وبعد ثلاثين عامًا من الحكم تنازل لابنه صقر بن راشد الذى استمر قائمًا بالحكم فيما بين عامى ١٧٧٧ و ١٨٠٧ وفى عهده تم التحالف مع قبيلة بنى معين وهى قبيلة عربية يمنية كانت تحكم جزيرة قشم وهرمز وتزوج صقر بن راشد من ابنة الشيخ عبد الله بن معين مما أعطى رأس الخيمة قوة بحرية ضخمة تمكنوا بها من السيطرة على الشؤون التجارية والعسكرية فى الخليج العربى ، وبذلك شهد عهد بروز رأس الخيمة كقوة بحرية فى المنطقة ثم دخلت فى نزاع متصل مع البوسعيد فى عمان الساحل استمر إلى مطلع القرن التاسع عشر .

بعد اعتزال صقر بن راشد الحكم عام ١٨٠٣ تولى إبنه سلطان بن صقر الزعامة وقدر له أن يتمتع بحكم طويل استمر أكثر من نصف قرن وتوفى فى عام ١٨٦٦ ، وشهد حكمه أحداثًا خطيرة فى تاريخ المنطقة أهمها عندما ذهب إلى الدرعية فى زيارة تم سجنه من قبل حاكم نجد حتى تمكن من استرداد حكمه بعد أن فر من سجنه فى الدرعية ووصل إلى مسقط

عن طريق اليمن ، وعلى الرغم من عودته إلى الحكم إلا أنه لم يستطع أن يعيد اتحاد قبائل رأس الخيمة إلى سابق وحدتها حيث ظهرت زعامتان وانقسامان أحدهما فى رأس الخيمة برئاسة حسن بن رحمة والآخر فى الشارقة التى استقر بها سلطان بن صقر منذ عام ١٨١٦ . واستمر ذلك الوضع قائمًا حتى قام البريطانيون بحملتهم العسكرية على على رأس الخيمة فى عام ١٨١٩ وبعدها نجح سلطان بن صقر فى الانتقال إلى رأس الخيمة .

يمكن تحديد الفترة التى برزت فيها رأس الخيمة كقوة بحرية ضاربة فيما بين عامى ١٧٥٨- ١٨١٩ وفى خلال هذه الفترة لم تتوان قبائل رأس الخيمة عن مهاجمة أية سفينة تحمل العلم البريطانى سواء كانت تابعة للبريطانيين أو لرعاياهم .كما أخذ سكان رأس الخيمة على عاتقهم تحدى النفوذ البريطانى الذى بدأ يتسرب إلى المنطقة حيث تمتاز قبائل اتحاد رأس الخيمة بالصلابة والشجاعة وحب المغامرة حتى اضطر البريطانيون أن فى بداية الأمر إلى دفع ترضيات لرأس الخيمة مقابل المرور فى مياههم . وعندما شعر البريطانيون فى مقدورهم مهاجمة رأس الخيمة بعد تصفية صراعاتهم مع الدول الأجنبية وبعد تثبيت نفوذهم فى الهند ، رفضوا دفع الأموال لهم واعتبروا الدفاع عن سواحلهم ومياههم عملاً من أعمال القرصنة . وكان سكان رأس الخيمة بسبب ظروف بيئتهم القاسية يعتمدون على البحر فى كسب معيشتهم وفى البحر كانوا يمارسون معظم نشاطهم السياسى والاقتصادى حيث ساعدتهم طبيعة الساحل المعروفة بكثرة تعاريجها وخلجانها وأخوارها وألسنتها الرملية وجزرها المغمورة على إيجاد موانىء طبيعية مما جعلهم يمارسون فيها نشاطهم البحرى والعسكرى. ويرغم ذلك فان الطابع الأخير لم يكن هو الطابع المميز وإنما أرغموا على النشاط العسكرى، فمن المعروف أن سكان رأس الخيمة كانوا يمارسون أنشطة سلمية عديدة خاصة صيد اللؤلؤ والتجارة والأسفار البعيدة التى كانوا يقومون بها إلى سواحل الهند وشرق أفريقيا حيث لم يكن أمامهم إلا هامش محدود ونجحوا فى تحويل جزء لا بأس به من تجارة الخليج العربى إلى رأس الخيمة مما أضر بمركز شركة الهند الشرقية البريطانية فى بندر عباس أو لمجرد الحصول على غنائم سهلة إلى القيام بنشاط السلب ونهب السفن التجارية البريطانية والأجنبية العابرة فى الخليج العربى الأمر الذى استدعى المواجهة بين قبائل رأس الخيمة وبين بريطانيا الذين بدأوا بفرض سلطتهم على المنطقة (١٥).

يرجع سبب نشاطهم العسكرى هذا بعدما ضعف نشاطهم التجارى السلمى بعد قيام الشركات التجارية الرأسمالية الأوروبية . ولما كانت البيئة قاحلة والمنافسة التجارية غير متساوية وبدأوا يعانون منها أخذ سكان رأس الخيمة يتصدون للسفن التجارية إضافة إلى الطبيعة البحرية واعتمادهم على حرفة صيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ فى فصل الصيف وقسوة البحر فى فصل الشتاء تمنع مزاولة هذا العمل ، بينما تقل الزراعة مما يعانون ببطالة شاملة . ونتيجة لتلك الظروف البيئية أخذ سكان رأس الخيمة يسيطرون على النشاط البحرى الحربى .

ثانيًا : إتحاد قبائل أبوظبى :

شكل تحالف قبائل أبوظبى الاتحاد الثانى فى ساحل عمان إذ امتدت سيطرة قبائل هذا التحالف من جنوب قطر إلى دبى ولم يقتصر على الساحل وإنما امتد إلى الظاهرة والبريمى وليوا والكدن أى إلى عمق الربع الخالى . وبرغم أنهم يعتبرون قوة برية إلا أنهم شكلوا قوة بحرية لايستهان بها . ويتألف هذا الاتحاد من أربع قبائل رئيسية وهى بنى ياس والعوامر والمناصير والظواهر ويعتبر هذا التحالف من أضخم قبائل ساحل عمان ، ومن أكبرها التى ظهرت فى المنطقة ، ويعتقد أن هذه القبائل حديثة التواجد نسبيًا إذا ما استثنينا قبيلة العوامر التى عاشت منذ القدم فى صحراء الربع الخالى والممتدة من منطقة الثمود والأحقاق فى حضرموت حتى نزوى فى عمان و الكدن والختم والوجن فى أبو ظبى فى حين لايتعدى تواجد بقية القبائل أكثر من قرنين ونصف .

لم يكن هناك أى ارتباط بين قبائل رأس الخيمة وأبو ظبى على الرغم من الأخطار الخارجية وقد يرجع ذلك إلى انتماء قبائل أبوظبى إلى الحزب الهنائى ورأس الخيمة إلى الحزب الغافرى ؛ مما أدى إلى قيام صراعات فيما بينهم وإن كانت المصالح المشتركة حتمت فى كثير من الأحيان قيام علاقات حسن الجوار لما بين الاتحادين اللذين ظهر تفككهما مع بداية الزحف الاستعمارى البريطانى إلى المنطقة وبدأت فى ظهور تجمعات قبلية تنتمى إلى أسس إقليمية وجغرافية ولاتنتمى إلى زعامة عشائرية قوية فتحالف قبائل رأس الخيمة لم يلبث أن تفكك وظهرت على أنقاضه مجموعة من المشيخات وخاصة بعد عام ١٨٢٠ .

انفصال ساحل عمان عن عمان ١٧٦٥ :

يرجع انفصال رأس الخيمة عن عمان وظهورها كعاصمة لساحل عمان الشمالية إلى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ولكن هذا الانفصال قاد إلى منازعات طويلة مع حكام عمان من البوسعيد وذلك لانتماء قبائل رأس الخيمة للحزب الغافرى المعارض لبوسعيد ، ولاشك أن هذا الانفصال كان من أهم المشكلات التى واجهت أحمد بن سعيد ، فقد بايعت قبائل رأس الخيمة الإمام بلعرب بن حمير ١٧٤٣ - ١٧٥٣ الذى أيدته قبائل الغافرية التى كانت ترى ضرورة إبقاء الإمامة فى أسرة اليعاربة . ولذلك طلب الشيخ محمد بن ناصر الغافرى من شيخ قبائل رأس الخيمة معاونته فى الإطاحة بحكم أحمد بن سعيد وبذلك شاركت قبائل رأس الخيمة فى المعارك العنيفة التى دارت بينهما فى الوقت الذى كان راشد بن رحمة حاكم رأس الخيمة يريد كسب أراضى جديدة وتأكيد نفوذه على ساحل الشميلية وخورفكان وما يجاورها على الساحل المطل على خليج عمان وكانت هذه فرصة لتحقيق أهدافه التوسعية بضم تلك المقاطعات إلى حكمه .

لم تكن هذه المعارك فى صالح الحزب الغافرى بعدما نجح أحمد بن سعيد فى التخلص من الإمام بلعرب بن حمير عام ١٧٥٣ وشدد من قبضته على المقاطعات العمانية واتجه عام ١٧٥٩ إلى إخضاع رأس الخيمة فى معقلهم ومنع الانفصال . ودارت معركة عنيفة بينهما فى سهل الباطنة بالقرب من وادى حام . وعلى الرغم من نجاح أحمد بن سعيد فى الحصول على اعتراف بسلطته من عدد كبير من القبائل إلا أنه لم يتمكن من هزيمة قبائل رأس الخيمة واخضاعهم ، وقد يرجع ذلك إلى تخلى حلفائه عنه مما دفع حاكم رأس الخيمة فى عام ١٧٦٣ إلى إرسال حملة انتقامية وصلت إلى مدينة الرستاق عاصمة عمان مستغلاً الظروف الداخلية فى عمان وقيام النزاع بين أحمد بن سعيد وأبنائه حيث نجح حاكم رأس الخيمة بمساعدة الزعيم الغافرى محمد بن ناصر فى محاصرة الرستاق . وأصبح الموقف حرجًا فى عمان إلى درجة تبين فيها لأبناء أحمد بن سعيد يمكن أن يؤدى إلى نزاعهم مع أبيهم إلى القضاء على حكم أسرتهم ولذلك آثروا فض الخلاف مع أبيهم وسلموا له الحصن الغربى فى مسقط بينما احتفظوا بالحصن الشرقى . وما أن ذاع خبر الصلح بين أحمد بن سعيدوأبنائه حتى بادر حاكم رأس الخيمة وحليفه محمد بن ناصر الغافرى بفك حصار الرستاق وتم الصلح بين حاكم رأس الخيمة وأحمد بن سعيد الذى وافق على انفصال واستقلال رأس الخيمة عن الوطن الأم «عمان

الكبرى» أو «عمان الطبيعية» . ويمكن تحديد عام ١٧٦٥ اعتباره العام الذى أعلن فيه استقلال قبائل ساحل عمان الشمالية عن عمان الأم وأصبحت رأس الخيمة مركزاً مستقلاً(١٦) وعاصمة لتلك المنطقة .

الصراع بين بريطانيا وساحل عمان ١٧٧٨ - ١٨١٨ :

بدأ سكان رأس الخيمة يعترضون السفن البريطانية العابرة فى مياه الخليج العربى منذ عام ١٧٩٨ عندما هاجموا السفينة الحربية «فيبر - Viper » بالقرب من ميناء بوشهر الإيرانى ، واستفادت بريطانيا من الخلافات القائمة بين عمان ورأس الخيمة لكى ترسل حملتها العسكرية الأولى إلى ساحل عمان فى عام ١٨٠٥ بعدما تزايدت عمليات رأس الخيمة ضد السفن البريطانية . ففى عام ١٨٠٤ استولت قبائل رأس الخيمة على سفينتين تابعتين لشركة الهند الشرقية البريطانية . وفى العام التالى ١٨٠٥ هاجم أسطول يتكون من أربعين سفينة شراعية تابعة لرأس الخيمة سفينة حربية تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية مما دفع بحكومة بومباى إلى تنظيم حملة عسكرية حيث غادرت فى ٢٨ / ٥ / ١٨٠٥ مسقط إلى بندر عباس التى كانت تحت السيادة العمانية فى ذلك الوقت ، وتوجه الأسطول البريطانى مع العمانى إلى جزيرة قشم بعدما وصلت إليه أخبار بتجمع أسطول رأس الخيمة فى تلك الجزيرة وفى خلال ذلك الوقت استطاع حاكم عمان بدر بن سيف محاصرة أسطول رأس الخيمة فى ميناء القشم . وعلى الرغم من وقوع تلك السفن تحت الحصار العمانى - البريطانى المشترك إلا أن القائد سيتون وافق بناء على تعليمات حكومته أن يمنح رأس الخيمة هدنة لمدة ستين يومًا والتى أدت إلى توقيع أولى المعاهدات بين بريطانيا ورأس الخيمة فى عام ١٨٠٦ ، وبمقتضى تلك المعاهدة تم تهدئة الموقف نسبيًا بينهما . واحتوت المعاهدة على ستة بنود عالجت السلام فى الخليج العربى وتعهد حاكم رأس الخيمة بحماية السفن والممتلكات البريطانية التى تصل إلى موانئهم ونصت على ما يلى :

١- تعهد رأس الخيمة باحترام ممتلكات شركة الهند الشرقية البريطانية ورعاياها ووافق البريطانيون من جانبهم أن يحترم كل من الطرفين علم وممتلكات الطرف الآخر أينما وكيف يكونون .

٢- فى حالة عدم امتثال رأس الخيمة لشروط تلك الاتفاقية تفرض عليهم غرامة مقدارها ثلاثون ألف ريال نمساوى «ماريا تريزا» أما إذ أرغموا على نقض تلك المعاهدة فيتعين عليهم إخطار شركة الهند البريطانية قبل ثلاثة أشهر من نقض المعاهدة .

وفى مقابل عقد رأس الخيمة تلك المعاهدة أعلن القائد البريطانى سيتون تنازل حكومة بومباى عن حمولة السلع التى كانت على السفينة «تريمر» كما سمح لرأس الخيمة بالمتاجرة مع موانىء الهند من سورات إلى البنغال . وكانت هذه الموانىء محظورة على رأس الخيمة منذ هجومهم على السفينتين «تريمر» و «شاتون» فى أواخر عام ١٨٠٤ وقد صادق على تلك الاتفاقية نائب الملك فى الهند .

نلاحظ من شروط تلك الاتفاقية بأنها كانت متكافئة واحتوت على بنود ملزمة للطرفين دون طرف واحد ، وأنها عقدت بين الكابتن سيتون ممثلاً عن بريطانيا وعبد الله بن كروش ممثلاً عن رأس الخيمة أى أن حكومة الهند البريطانية لم تتعامل مع القوى القبلية فى ساحل عمان بصورة انفرادية كما سيحدث ذلك فيما بعد وإنما أقرت حكومة الهند بالزعامة لرأس الخيمة لساحل عمان الشمالية ، ولم تلتزم قبائل رأس الخيمة بنصوص معاهدة ١٨٠٦ لأكثر من عامين حيث عادوا إلى تكرار نشاطهم السابق ضد السفن البريطانية واستولوا على السفينة البريطانية «سيلف» وهاجموا سواحل الهند . وذكر الرحالة البريطانية موريير بأن أسطول رأس الخيمة بلغ فى عام ١٨٠٩ ثلاثًا وستين سفينة كبيرة وثمانمائة وعشرة سفينة صغيرة وعلى هذه السفن تسعة عشر ألف مقاتل ، ولعل هذا التعاظم فى قوة رأس الخيمة شجع حاكمها سلطان بن صقر بأن يطلب من حكومة بومباى البريطانية دفع مبالغ سنوية له مقابل تعهده بضمان سلامة تجارتها فى الخليج العربى وكذلك مقابل أجور الخدمات والتسهيلات التى يقدمها للسفن التابعة لها خلال مرورها بسواحله وعلى الرغم من أن هذه المطالب تعد مطالب مشروعة وفقًا للمفهوم العصرى الحديث إلا أن بريطانيا اعتبرت تلك المطالب بمثابة خدش للكرامة البريطانية ، ورد على ذلك سكان رأس الخيمة بشن هجومهم على السفينة «مينريفا» فى أبريل ١٨٠٨ وكانت آخر الضحايا فى نفس العام السفينة «داريا دولت» وبعدها اتجهت بريطانيا للقضاء على قوة رأس الخيمة وأرسلت حملة ١٨٠٩ .

تهدف هذه الحملة إلى تدمير القواعد البحرية لرأس الخيمة وتسليمها لحاكم عمان وفرض معاهدة استسلام وتحقيق التعاون بين بريطانيا وإيران وفرض سيادة الأخيرة على سواحلها الشرقية والتى كانت تسيطر رأس الخيمة على بعض موانئها ومن أهمها «لنجة» وأن تتعرف البحرية البريطانية على أنسب جزيرة تقع فى مدخل الخليج العربى لتكون قاعدة بحرية بريطانية لمراقبة الملاحة والسفن العابرة ، ولتحقيق هذه الخطة خرجت الحملة من ميناء بومباى

فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٩ وتألفت الحملة البحرية الكبيرة من فرقاطة ذات الستة وثلاثين مدفعًا وتسمى «لاشيفون» والفرقاطة «مورنجتون» ذات الثمانية والعشرين مدفعًا إضافة إلى عدة سفن حربية أخرى مثل سفن للقذائف . واشترك فى هذه الحملة فرق من مدفعية بومباى وفرق من المشاه بالإضافة إلى أربعة وخمسين وبضع مئات من الجنود وقبل أن تنقضى أربع وعشرون ساعة على خروجها من الميناء سقط قاع قاذفة القنابل «سترسيول» وغرقت السفينة ومن معها من الضباط والبحارة . وعلى كل خرجت الحملة ووصلت إلى رأس الخيمة ودارت معركة عنيفة بين الطرفين ودافعت قبائل رأس الخيمة عن عاصمتهم دفاعًا مستميتًا ولم ينسحبوا من مراكزهم إلا بعد أن أضرم البريطانيون النيران ونزلوا إلى المدينة بعدما انسحب سكانها إلى الداخل وأحرق البريطانيون كل السفن التى وجدوها فى الميناء، وكان يبلغ عددها أكثر من خمسين سفينة من بينها السفينة البريطانية «مينرفا» وعلى الرغم مما حققته الحملة من انتصارات إلا أنه لم يلبث بعد ذلك أن ساد الخوف فى نفوس البريطانيين خوفًا من قدوم مساعدات وإمدادات من القبائل العربية فى ساحل عمان .

لذلك أسرعوا إلى سفنهم واتجهت الحملة إلى الشمال قاصدة ميناء لنجة ولافت فى جزيرة قشم واستولوا عليها . ورغم الانتصار وتدمير رأس الخيمة إلا أن حملة ١٨٠٩ لم تحق أهدافها بالقضاء على قوة قبائل رأس الخيمة ونجت معظم سفن الأسطول من التدمير حيث تم إخفائها فى الخلجان قبل مجىء الحملة شبه جزيرة رأس مسندم وكانت تلك الخلجان غير معروفة لدى البريطانيين إضافة إلى أن معظم سفن قبائل رأس الخيمة كانت فى أسفار خارج المنطقة كما لم تؤد هذه الحملة إلى وقف الحملات ضد السفن البريطانية وعلى العكس فقد زادت العمليات البحرية لسكان رأس الخيمة .

الهوامش

١- محمد عدنان - المرجع السابق ص١٨٨ .

٢- عبد العزيز - المرجع السابق ص٦٧ .

٣- د. عائشة السيار - المرجع السابق ص٦٨ .

٤- د. مصطفى عقيل الخطيب - المرجع السابق ص٢٦٧ .

٥- د. مصطفى عقيل الخطيب - نفس المرجع ص٢٦٧ .

٦- د. عائشة السيار - المرجع السابق ص٧٧ .

٧- د. مصطفى عقيل الخطيب - المرجع السابق ص٢٦٤ ٨,- د. عائشة السيار - المرجع السابق ص١٠٤ .

٩- د. فؤاد سعيد العابد - سياسة بريطانيا فى الخليج العربى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ص١٥٠ .

١٠- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص,٧٨ .

١١- د. فؤاد سعيد العابد - المرجع السابق ص٦١ .

١٢- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص٧٨ .

١٣- د. فؤاد سعيد العابد - المرجع السابق ص١٦٠ .

١٤- د. جمال زكريا قاسم - دراسة مسحية لدولة الامارات العربية المتحدة ص٢٤٠ .

١٥- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص٧٩ .

١٦- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٢٧٠ .

الفصل الرابع

التنافس الانكلو-مصرى فى الخليج العربى ١٨١٨-١٨٤٠

الموقف البريطانى من الوجود المصرى فى الإحساء ١٨١٨ .

- فكرة التعاون العسكرى البريطانى مع المصريين ضد رأس الخيمة

الحملة البريطانية على رأس الخيمة ١٨١٩ .

- اتفاقية ١٨٢٠ .

الحملة البريطانية ضد بنى بوعلى .

السياسة البريطانية فى الخليج العربى .

- تدعيم النفوذ البريطانى فى المنطقة .

- اتفاقية الهدنة البحرية ١٨٣٥ - ١٨٥٣ .

- بريطانيا وتجارة الرقيق .

مصر والخليج العربى ١٨٣٨ - ١٨٤٠ .

- مقاومة بريطانيا الوجود المصرى فى الخليج العربى .

- الانسحاب المصرى من الخليج العربى .

التنافس الأنجلو - مصرى فى الخليج العربى ١٨١٨-١٨٤٠م

يرتبط تاريخ الخليج العربى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بظهور المصريين فى تلك الأجزاء ، ولأن ظهورهم هناك كان فى أعقاب نجاحهم فى تدمير الدرعية عاصمة النجديين عام ١٨١٨ ، ونجحت القوات المصرية فى إخضاع الإحساء وأقام ابراهيم باشا عدة مراكز عسكرية لقواته هناك كما أقام حامية فى القطيف تحت إمرة خليل أغا . ورتب أحوال نجد على شاكلة الإحساء وترك فيها أحد ضباطه اسماعيل بك نائبًا لحاكم الحجاز فى نجد وتوجه إلى الحجاز لإرساء قواعد الإدارة المصرية فيها قبل عودته إلى القاهرة ، غير أن الوجود المصرى فى الإحساء لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما اضطرت القوات المصرية إلى الإنسحاب فى أواخر يوليو من عام ١٨١٩ بضغط من السلطات العثمانية فى العراق التى كانت ترى فى وجود تلك القوات فى الإحساء خطراً عليها .

سواء أكان تقدم القوات المصرية نحو الإحساء نتيجة طبيعية فرضتها ظروف الفتح المصرى لنجد أو لاغراءات بنو خالد حكام الإحساء السابقين الذين قدموا إلى ابراهيم باشا وطلبوا منه فتح الإحساء على أن يكونوا نوابًا عنه هناك إلا أننا ندرك بأن زحف الجيش المصرى إلى الخليج العربى كان أمراً مقرراً فى السياسة المصرية التزم به ابراهيم باشا قبل سقوط الدرعية ومن ثم بعث بماجد ومحمد ولدى عريعر بن دجين إلى الإحساء التى خضعت لهما دون مقاومة، مما يعنى نجاح بنى خالد فى العودة إلى حكم الإحساء تحت الإدارة المصرية[1]. وفى أثناء الوجود المصرى لهذا الإقليم تعاون مع قوات إبراهيم باشا زعيم محلى مشهور قاوم القوات البريطانية ودخل معها فى حروب بحرية كثيرة هو الشيخ رحمة بن جابر الجلاهمة حيث قدم للقوات المصرية مساعدات بحرية عندما دكت مدافع سفينة قلاع ميناء القطيف انتقامًا من النجديين الذين كانوا قد هدموا حصنه المنيع فى الدمام عام ١٨١٦ .

إضطرت القوات المصرية فى العام التالى ١٨١٩ إلى مغادرة الإحساء تحت ضغط الدولة العثمانية وبتأثير مباشر من واليها على العراق الذى كان يعطف على شيوخ بنى خالد بعدما تركوا الإحساء على أثر خلاف مع الإدارة المصرية . وحاول داود باشا والى العراق إرجاع بنى خالد إلى حكم الإحساء نوابًا عن الباب العالى الذى أوعز إلى محمد على بضرورة الإنسحاب ونفذ ابراهيم باشا أوامر أبيه وعاد آل عريعر من بنى خالد ولاة من قبل الدولة العلية ويتبعون

بغداد من الناحية الإدارية . ولاغرو فى ذلك فلقد كانوا يدينون بالولاء لوالى العراق قبل وصول القوات المصرية إلى الإحساء ، وبعد انسحاب القوات المصرية من الإحساء تابعت أيضًا إنسحابها من نجد مخلية البلاد للقوات العثمانية القادمة من العراق والتى حلت محلها مما أدى إلى حالة من الفوضى وعدم الاستقرار فى نجد بعد الإنسحاب المصرى وخاصة بعد دخول القوات العثمانية الجديدة ، أما الإحساء فقد كان حظها أفضل من نجد إذ لم تدخلها القوات العثمانية وتركت الإدارة فيها لبنى خالد فشاع فى ربوعها الاستقرار (٢).

الموقف البريطانى من الوجود المصرى فى الإحساء ١٨١٨ :

حاولت بريطانيا الاتصال بالقوات المصرية الموجودة فى الإحساء لايجاد قاعدة للتفاهم والتنسيق بين الطرفين لأن بريطانيا كانت قد بدأت تهتم بشؤون الخليج العربى منذ بداية القرن التاسع عشر . وبدأ اهتمام بريطانيا لايجاد تعاون مع القوات المصرية منذ اللحظة الأولى التى وطئت فيها أقدام المصريين الإحساء أصبحوا يطلون من قاعدتهم الحربية على سواحل الخليج العربى. وكان البريطانيون يدركون أهمية الخليج العربى بالنسبة لقوات محمد على خاصة أن هذه القوات تسيطر على البحر الأحمر وأواسط الجزيرة العربية وتتخذ من نجد قاعدة خلفية ذات عمق استراتيجى لحماية وجودها على ساحل الخليج العربى . لذا أيقن البريطانيون أن السلطات المصرية إذا ما تمركزت فى الإحساء وتطلعت إلى بلدان الخليج العربى وخاصة عمان التى كانت ولاتزال تشكل مفتاح الخليج العربى إلى المحيط الهندى وبحر العرب فالسيطرة عليها ستمكن القوات المصرية فى البحر الأحمر من الاتصال بقواته فى الخليج العربى .

فمعنى ذلك أن القوات المصرية أوجدت قواعد ثابتة لها فى الخليج العربى وعلى سواحله الأمر الذى يصعب بعده اقتلاعها من هذه المنطقة الحيوية الهامة بالنسبة للوجود البريطانى الآخذ فى التزايد فى هذه المنطقة . وبما أن السياسة البريطانية المتبعة فى تدعيم وجودها مقتصرة على النشاط البحرى فى الخليج العربى وربط موانئها وسواحلها بها دون التورط فى التدخل فى شؤون القبائل العربية لأن هذا التورط سيسبب لها نزيفًا فى أموالها وجنودها إضافة إلى الكره والعداء الذى سيخلفه مثل هذا التورط فى نفوس القبائل العربية فى المناطق الداخلية كل هذه العوامل مجتمعة كانت وراء محاولة التفاهم التى تقدمت بها بريطانيا إلى السلطات المصرية فى الخليج العربى لايجاد تعاون لتسهيل المصالح المشتركة بينهما (٣).

فكرة التعاون العسكرى البريطانى مع المصريين ضد رأس الخيمة :

لقد أوضح الماركيز أوف هاستنج حاكم عام الهند فى رسالة بعث بها إلى بنيان حاكم بومباى فى ٧ نوفمبر عام ١٨١٨ طلب تأجيل الحملة العسكرية ضد رأس الخيمة لمدة عام لاعتقاده أن مثل هذا التأخير سيكون فى صالح بريطانيا ؛ فالأخبار القادمة من الجزيرة العربية تشير إلى أن فتح المصريين لنجد والإحساء سيجعل التفاهم مع ابراهيم باشا محتملاً ومن ثم دعوته للمساعدة فى عمل عسكرى مشترك ضد رأس الخيمة بأن يحدث هجوم بريطانى من البحر فى الوقت الذى يغطى فيه ابراهيم باشا هذا الهجوم من البر . ويمكن لقواته أن تعسكر فى رأس الخيمة وفيما يتعلق بالمسائل التى كانت تشغل بال «بنيان» حاكم بومباى فانه يفضل ترك اتخاذ قرار بشأنها لحين اقتراب موعد قيام الحملة . وبعد ذلك بعدة أسابيع أبلغ المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بسقوط الدرعية فى أيدى ابراهيم باشا ووصول القوات المصوية إلى سواحل الخليج العربى فى الإحساء وعندئذ قرر حاكم عام الهند تسليم كتاب إلى ابراهيم باشا يهنئه فيه بانتصاره ويلفت انتباهه إلى الأخبار السائدة فى الخليج العرى بأن ابراهيم باشا ينوى التغلب على حلفاء النجديين وبصفة خاصة قبائل رأس الخيمة أعداء البريطانيين ومن ثم يصبح لفائدة الطرفين سحق هؤلاء بعمل عسكرى مشترك منهما فاذا كان ابراهيم باشا يشاركه رأيه فعليه الاتصال ببنيان فى بومباى ، غير أن الأخير لم يكن مقتنعًا تمامًا بجدوى الاقتراح الذى قدمه حاكم الهند العام . ففى الوقت الذى أبدى فيه استعداده لقبول أية مساعدة من ابراهيم باشا لإلحاق الهزيمة بقبائل رأس الخيمة فانه لم يكن مقتنعًا بأن هدوء الأحوال فى الخليج العربى مستقبلاً يمكن تحقيقه بتأكيد سلطة القوات المصرية على طول الساحل العربى . إنما يتم تحقيق هذا الهدوء بجعل حاكم عُمان مسؤولا عن المناطق التى سيتم إخضاعها بين رأس الخيمة ورأس مسندم فضلاً عن جزيرة البحرين التى ستمكنه مواردها من تعزيز سلطته فى الخليج العربى .

-عندما عرضت تلك الآراء «لبنيان» على مجلس الرئاسة فى بومباى فى ٣ / ٤ / ١٨١٩ ووجهت بمعارضة شديدة من قبل الأعضاء بصفة خاصة من فرانسيس واردن سكرتير المجلس الذى قدم تقريراً وافيًا ركز فيه اهتمامه على النجديين باعتبارهم أساس النشاط الذى تقوم به قبائل رأس الخيمة الذين يفضلون العمل التجارى على المغامرة البحرية ، ولذا فان قيامهم بشن الاعتداءات على السفن البريطانية إنما جاء نتيجة تدخل بريطانيا دون مبرر فى شؤون

الخليج العربى لضعفه وتردده وعدم شعبيته وأن وضع ساحل عمان والبحرين تحت سيطرته سيدفع قبائل تلك المناطق إلى القتال لتحرير أنفسهم من سيطرة عمان مما قد يؤدى إلى عمليات بحرية من جديد فى الخليج العربى ولذا فان السلطات البريطانية إذا ما رغبت فى أن يكون لها حليف فى المنطقة فالأفضل اتخاذ شيخ أبوظبى أو شيخ الكويت إذ لم يسبق لأيهما ارتكاب عمليات بحرية على السفن الأجنبية وقد أوصى ورادن فى تقريره بارسال حملة محدودة يقتصر عملها على إعادة الشيخ سلطان بن صقر إلى زعامة قبائل رأس الخيمة لمقدرته على التعاون مع جميع الأطراف وحبذ قيام التعاون بين بريطانيا وابراهيم باشا فى الخليج العربى ، وقد عارض آراء بنيان أعضاء المجلس الآخرون فحبذ المستر «الكسندر بل» مشروع اشراك ابراهيم باشا لما سيترتب على ذلك من تخفيض لحجم القوات التى يزمع البريطانيون إرسالها إلى الخليج العربى (٥).

تقرر رسال الكابتن جورج فورستر سادلير إلى الجزيرة العربية لمعرفة خطط ابراهيم باشا مزوداً بتعليمات بنيان حاكم بومباى فى ١٣ / ٤ / ١٨١٩ وحاملاً معه رسائل من الحاكم العام فى الهند ومن حاكم بومباى إلى كل من حاكم عمان سعيد بن سلطان وابراهيم باشا فى نجد ، وأبحر سادلير من بومباى ووصل إلى مسقط واجتمع بحاكم عمان الذى عارض فكرة التعاون مع ابراهيم باشا وتعهد بتقديم مساعداته للحملة . ومن مسقط واصل سادلير سيره فذهب إلى بوشهر ومنها إلى القطيف التى وصلها فى ٢١ / ٦ / ١٨١٩ فى وقت كان فيه المصريون ينسحبون من شرق الجزيرة العربية . وعقب رحلة طويلة وشاقة قام بها سادلير عبر الجزيرة العربية من شرقها إلى غربها نجح أخيراً فى مقابلة ابراهيم باشا فى المدينة المنورة فى ٨ / ٩ / ١٨١٩ حيث سلمه السيف المهدى إليه وخطابات الحاكم العام فى الهند وحاكم بومباى فى اليوم التالى فقال ابراهيم باشا لسادلير أنه ليس فى استطاعته تسليمه إجابة محددة على اقتراح الحاكم العام للهند إلا بعد أن يبعث إلى والده فى القاهرة ، ولذا فعليه التوجه إلى جدة وانتظاره هناك لحين إنتهائه من أداء فريضة الحج ، فظل سادلير منتظراً رد القاهرة حتى يوم ٢٩ / ١٠ / ١٨١٩ عندما علم من ابراهيم باشا أن مهمته للحصول على تعاون عسكرى مشترك مع المصريين فى الخليج العربى قد باءت بالفشل عندما رفض محمد على التعاون أو تقديم مساعدات للاستعمار البريطانى فى احتلال ساحل عمان ولهذا انتهز فرصة وجود السفن البريطانية أمام جدة فى ٢٣ / ١ / ١٨٢٠ فرحل عليها إلى الهند .

الحملة البريطانية على رأس الخيمة ١٨١٩ :

تسجل لنا الأعوام من ١٨١١ إلى ١٨١٣ تجدد نشاط قبائل ساحل عمان الشمالية فى العمليات البحرية ونجاحها فى تحطيم عدد كبير من السفن البريطانية والإيرانية فى موانىء الخليج العربى وخاصة ميناء بندر عباس والبصرة ، وبلغ من خطورة عمليات قبائل رأس الخيمة البحرية أن فكرت حكومة بومباى تفكيراً جديًا فى ضرورة التفاوض معها لعقد معاهدة .

حدث فى نفس الوقت تطور خطير فى العلاقات النجدية - البريطانية فى عام ١٨١١ ، فبتأثير من الأمير محمد بن سعود حاكم نجد أصدر العلماء ورجال الدين الوهابيون فى الدرعية فتوى شرعية بأن البريطانيين هم من أهل الكتاب ولذلك فان الجهاد ضدهم غير واجب ، وعلى أثر ذلك بعث حاكم نجد فى الدرعية برسول فى شهر ديسمبر عام ١٨١١ إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى مدينة بوشهر عارضًا عليه وعلى بريطانيا الصداقة والتعاون حتى توصلوا فى عام ١٨١٤ إلى اتفاق بريطانيا بعدم مهاجمة السفن البريطانية إطلاقًا وكذلك عدم مهاجمة السفن الأخرى إلا بموافقة بريطانيا ذاتها ، وضع هذا الاتفاق أساس التعاون والعمل المشترك بين الوهابيين والبريطانيين منذ ذلك التاريخ كما قضى هذا الاتفاق على أى نوع من أنواع التعاون أو المساندة بين الوهابيين وقبائل رأس الخيمة . وهكذا بدأت بريطانيا مرة أخرى تعد العدة لانزال هزيمة قاضية برأس الخيمة تفوق تلك التى وجهتها ضدهم فى الحملات السابقة (٦).

على الرغم من الاتفاق الوهابى - البريطانى وفتوى علماء الوهابية بتحريم الجهاد ضد البريطانيين - فان العمليات البحرية لقبائل رأس الخيمة إزدادت ضد السفن البريطانية كما تعاظم نفوذهم ليس فى الخليج العربى فقط وإنما فى المحيط الهندى وحتى البحر الأحمر فأصبح أسطولهم يطارد السفن البريطانية عند مياه بومباى وشرقًا ومياه البحر الأحمر غربًا وعرقلوا طريق التجارة والملاحة بين الهند ومخا فى اليمن ، وفى عام ١٨١٥ وما بعدها استولت قبائل رأس الخيمة على العديد من السفن البريطانية أو التى ترفع العلم البريطانى بالإضافة إلى السفن العمانية . وفى نفس العام هاجمت قبائل رأس الخيمة أسطولاً من سفن حاكم عمان كان يقوده بنفسه عند ميناء قريات فحطموه وجرح سعيد حاكم عمان نفسه فى تلك المعركة (٧).

حين تفاقمت اعتداءات القبائل العربية فى رأس الخيمة على السفن البريطانية بعثت حكومة الهند حملة عسكرية بقيادة برجز إلى رأس الخيمة لتطلب التعويض عن السفن التى استولوا عليها ومعاقبة القائمين بذلك العمل فى أكتوبر ١٨١٥ . ولكن حاكم رأس الخيمة رفض تلك المطالب ، فقام الأسطول البريطانى بضرب رأس الخيمة بالقنابل غير أن هذا العدوان لم يرهب قبائل رأس الخيمة وتعاظم أسطولهم عام ١٨١٦ وأصبح مؤلفًا من حوالى ستين سفينة كبيرة تحمل كل واحدة منها ما بين ثمانين إلى ثلاثمائة محارب إضافة إلى أربعمائة سفينة أخرى .

يسجل تاريخ البحرية البريطانية فى الهند فى عام ١٨١٨ أضخم هجوم قامت به قبائل رأس الخيمة على السفن البريطانية التى اعترضوها على مسافة ستين ميلاً من بومباى مما شكل تهديداً خطيراً لبريطانيا . وكان هذا الهجوم العنيف هو الذى نبه السلطات البريطانية فى الهند إلى ضرورة وضع حد للقوة البحرية لرأس الخيمة ورفض أسلوب التفاوض إذ أن ذلك الأسلوب الذى لجأت إليه حكومة بومباى يعد إضعافًا لسلطة بريطانيا وخدشًا لكرامتها ، ولهذا اتجهت حكومة الهند إلى إعداد حملة عسكرية كبيرة وخاصة بعدما فشلت فى إيجاد تعاون عسكرى مشترك مع مصر ضد رأس الخيمة آخذة فى اعتبارها أن أية محاولة عسكرية لاتصل إلى ضرب قوة رأس الخيمة فى الصميم فانها ستكون عديمة الجدوى. ومن ثم بدأت حكومة بومباى باعتبارها الحكومة المختصة بشئون الخليج العربى استعدادتها العسكرية منذ صيف عام ١٨١٨ معتمدة على تقرير استخبارى وضعه الكابتن روبرت عن مواقع وموارد الموانىء الرئيسية فى ساحل عمان وعن حجم قوتهم القتالية وخلافاتهم السياسية . وصدرت تعليمات حكومة بومباى إلى وليم جرانت كير الذى اختير لقيادة الحملة بالإقلاع إلى رأس الخيمة لتدميرها ، وفى ٣ / ١١ / ١٨١٩ خرجت الحملة سراً بومباى خشية أن يصل خبر تحركها إلى ساحل عمان .

هبط جنود الحملة البريطانية فى ٣ ديسمبر ١٨١٩ فى رأس الخيمة بعد ضربها بالقنابل والمدفعية وبادر سكان المدينة بتعزيز وسائل دفاعهم وأقاموا سوراً حول مدينتهم وأخذوا يصدون الهجوم بمدافعهم ولكنهم خسروا فى هذه المعركة ما يقرب من ألف مقاتل وجريح وذلك خلال القتال الشرس الذى استمر ستة أيام فيما بين ٣ ، ٩ ديسمبر ١٨١٩ واستماتت قبائل رأس الخيمة فى الدفاع عن مدينتهم وأرسلوا نساءهم وأطفالهم إلى مزارع النخيل

بعيداً عن المدينة ولكن بعد انتصار القوات البريطانية فانها تقدمت نحو المدينة فدمرتها وتم إنزال على رأس الخيمة الأحمر ورفع العلم البريطانى واضطر شيخها أن يعلن فى اليوم التالى رغبته فى التسليم بشرط ضمان سلامة أتباعه ، وكان على قائد الحملة أن يجد نوعًا من التسوية السياسية تكفل عدم تمكنهم مستقبلاً من تهديد الأمن البحرى للسفن البريطانية . وبدأ الجنرال كير سياسة هادئة مع شيوخ قبائل ساحل عمان فاستدعى شيوخهم وقدم لهم مسودة معاهدة السلام العامة فى يناير عام ١٨٢٠ وكان قد أعدها مع بعض معاونيه وكان الهدف من هذه الدعوة التوقيع على اتفاقيات يسلمون بموجبها جميع السفن التابعة لهم باستثناء سفن الصيد وكذلك تسليم ما قد يكون لديهم من أسرى .

إتفاقية ١٨٢٠م :

بذلك استطاع الجنرال كير أن يخطو خطوة أولى نحو عقد تسوية عامة حيث طلب إلى كل شيخ من شيوخ القبائل العربية فى ساحل عمان التوقيع على اتفاقية منفردة كان يهدف من ورائها أن يفرق القبائل عن تكتلها وتكون هذه الاتفاقية المنفردة شرطًا مسبقًا لكى يتولى الشيخ مسؤولياته تجاه مكان إقامة قبيلته وتجاه بريطانيا حيث ظهرت بعدها إمارات صغيرة مجزأة فى ساحل عمان واعترفت بريطانيا باستقلال كل شيخ قبيلة بقبيلته كامارة مستقلة فى ساحل عمان ولم تعترف بالدولة الموحدة التى كانت فى ساحل عمان الشمالى وعاصمتها رأس الخيمة وإنما جزأت هذه الدولة إلى شيوخ القبائل فظهرت كل من رأس الخيمة والشارقة وأم القيوين وعجمان والفجيرة فيما بعد ، فى حين ظهرت الإمارتان على خريطة ساحل عمان الجنوبية وكادت أن تظهر إمارة ثالثة فى خور العديد لولا خوف بريطانيا من وقوعها تحت السيادة العثمانية مما حال دون انفصالها عن أبوظبى .

دمجت هذه الاتفاقيات الانفرادية فى معاهدة عامة وقعها شيوخ قبائل ساحل عمان فى ٢١ يناير ١٨٢٠ وترك الباب مفتوحًا لبقية شيوخ القبائل كما وقعه أيضًا شيخ البحرين ، وعندما اعترض الشيخ سلطان بن صقر على توقيع شيوخ القبائل مثل أم القيوين وعجمان والرمس وغيرهم باعتبارهم من رعاياه رفض القائد البريطانى هذا الطلب وقرر وضع حد لمطالب زعيم ساحل عمان الشمالية وذلك بالاعتراف بالشيوخ الآخرين كحكام مستقلين وبذلك وضع هذا الشخص الاستعمارى البريطانى اللبنة فى تجزئة المنطقة وخلق كيانات صغيرة ووضع عليها الحماية الكاملة حتى يمنعها من إعادة التوحيد مستقبلاً وبعدها بدأت هذه

السياسة تطبق على نطاق واسع وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى لتجزئة الوطن العربى وخلق كيانات سياسية مع مشاكل الحدود والتى تعانى منها الآن أشد المعاناة وذلك بعد نجاح هذه التجربة البريطانية فى ساحل عمان عام ١٨٢٠ .

لاشك أن ذلك التفكير كان بعيد النظر لأنه يضمن عدم قيام اتحاد قبائل ساحل عمان الشمالية والتى قد تعيد ليس وحدة ساحل عمان وإنما عمان الطبيعية كما كانت أيام دولة اليعاربة . وبذلك جاءت السياسة الاستعمارية البريطانية لتحطم سلطة الزعيم الأعلى لساحل عمان الشمالية على بقية شيوخ القبائل والاعتراف بكل قبيلة كقوة أو إمارة مستقلة وبذلك لايواجه البريطانيون أخطاراً من هذه الكيانات الصغيرة التى خلقوها ويدافعون عنها . وعلى الرغم من أن الشيخ سلطان بن صقر ظل يعتبر عجمان وأم القيوين تابعتين له إلا أنه لم يلبث أن أعلن عن تنازله عن السيادة على هاتين الإمارتين فى عام ١٨٣٤ بضغط كبير من بريطانيا وتهديداتها له ، وهكذا ترتب على اتفاقية ١٨٢٠ إنهيار اتحاد قبائل ساحل عمان الشمالية وظهور إمارات صغيرة مستقلة تحت الحماية البريطانية وكل شيخ قبيلة أو إمارة ينظر إلى بريطانيا على أنها دعامة حكمه وقوة بقائه فى الحكم وبذلك نجحت سياسة «كير» فى تحقيق وضمان السيطرة البريطانية بايجاد أنصار لمصالحها دون أن يكلفها ذلك جهوداً أو نفقات مالية . وهذه السياسة التى أثبتت نجاحها أيضًا فيما بعد وأدت إلى تمزيق الجزء الجنوبى من ساحل عمان عندما أيدت بريطانيا انفصال دبى عن أبوظبى واعترفت به وعارضت حكام أبوظبى عندما حاولوا إعادتها إلى الوطن الأم . وكادت بريطانيا أن تنجح أيضًا فى فصل خور العديد عن أبو ظبى لتخلق إمارة لولا أن تعارضت مصلحتها مع هذا الانفصال خوفًا من وقوعه تحت الحكم العثمانى فتراجعت .

يتضح مما سبق أن اتفاقية ١٨٢٠ أو معاهدة السلام العامة فرضت من جانب واحد وهو الجانب المنتصر فى الحرب ولم يكن أمام الطرف الآخر الذى تحطمت أسس قوته سوى الإذعان والأخطر من ذلك معاملة القائد البريطانى كير شيوخ قبائل ساحل عمان كقوى أو إمارات مستقلة بصرف النظر عن تبعيتهم لسيادة زعيمهم الأعلى الشيخ سلطان بن صقر. كما كان الأمر كذلك فى معاهدة بين بريطانيا وساحل عمان وشيخها سلطان بن صقر شيخ ساحل عمان الشمالى وكان أثره واضحًا فى تحطيم إتحاد ساحل عمان حتى أن ديباجة المعاهدة قد ركزت على هذه النقطة بالذات إذ أنها لم تشر إلى كون المعاهدة بين بريطانيا وساحل عمان وشيخها

سلطان بن صقر كما كان الأمر كذلك فى معاهدة ١٨٠٦ وإنما نصت على كونها معاهدة بين بريطانيا وشيوخ القبائل العربية دون تحديد جغرافى أو سياسى لانتمائهم أو هويتهم أو تبعيتهم لساحل عمان وإنما جاء بقولها «الذين هم أطراف فى هذه المعاهدة» ، وثمة ما يسترعى الانتباه أن حكومة الهند لم تكن تنوى أصلاً بايفادها لحملة ١٨١٩ للدخول فى اتفاقيات أو معاهدات مع شيوخ القبائل فى ساحل عمان وإنما كانت تهدف إلى القبض على شيوخها وإزالتهم من المناطق التى يحكمونها ولكن كير أثناء قيامه بتنفيذ تلك التعليمات المعطاة له قصر الحملة على المناطق الساحلية وجد أنه من المستحسن إزاء ذلك أن يصدر عفواً عن شيوخ القبائل ويشجعهم على العودة إلى مناطقهم على أساس التحالف مع الحكومة البريطانية ومصادقتها وقد أثبتت هذه السياسة الاستعمارية نجاحًا كبيراً وليس أدل على ذلك من أن معاهدة ١٨٢٠ التى استهدفت القضاء على قوتهم البحرية فى المجال الأول أصبحت هى الدعامة القوية للنفوذ البريطانى فى ساحل عمان وجعلت من أعداء بريطانيا السابقين أطوع حلفائها كما ساعدت فى الوقت نفسه على تأمين الملاحة والتجارة لسفن الشركات للسيطرة البريطانية النافذة على عرب الخليج (٨).

الحملة البريطانية ضد بنى بوعلى :

بعد الاحتلال البريطانى لساحل عمان ١٨١٩ - ١٨٢٠ وضعت بريطانيا فى حسابها تصفية آخر مراكز المقاومة العربية تمهيداً للسيطرة البريطانية الكاملة على الخليج العربى وكانت قبيلة بنى بوعلى وهى قبيلة صغيرة تمامًا تسكن فى اقليم جعلان جنوبى مسقط فى عمان وتعمل فى الزراعة والملاحة وصيد الأسماك وكان ميناء صور يقع إلى الشمال فى حين يقع ميناء الشخرة إلى الجنوب من رأس الحد. وكانت الشخرة هى حاضرة ذلك الإقليم وفيها الحصن الرئيسى لتلك القبيلة وتعاظم النزاع بين بنى بوعلى وحاكم عمان ، وكان الجنرال كير بعدما قضى على مقاومة قبائل ساحل عمان عهد إلى نائبه برونيت توميسون أمر القضاء على بنى بوعلى وتصفية المقاومة العربية بشكل نهائى فى الخليج العربى ، وطلبت حكومة بومباى من حاكم عمان المشاركة فى تلك الحملة التى كان يتطلع إليها لوضع إقليم جعلان تحت سلطته وحيث أن أفراد القبيلة يغادرون حصونهم فى الشخرة فى أواخر الصيف إلى بساتينهم لقطف التمور فان ذلك الوقت يعد من أفضل الأوقات المناسبة لضربهم .

خرجت الحملة البريطانية - المسقطية المشتركة فى شهر أغسطس ١٨٢٠ ولم يكن أحد من الموجودين فى الحملة يعرف موقع الشخرة فاستعانوا بمرشد عربى من مسقط وفى اكتوبر ١٨٢٠ وصلت الحملة وهى تحمل ستة فصائل من الجند الهنود وسبعين بريطانيا يرافقهم ثلاثمائة وأربعة من المشاة الهنود والبريطانيين ونزلت الحملة فى ميناء صور ولحقت بهم قوات حاكم عمان المؤلفة من ألف رجل مزودين بالمدفعية والإبل وحيوانات النقل الأخرى . وفى التاسع من نوفمبر تقدمت الحملة داخل بلاد بوعلى وتضاعفت قوة حاكم عمان بانضمام ألف جندى جديد ، وقرر القائد البريطانى توميسون الهجوم على الحصن الذى كانت تحميه ثمانية مدافع فى البساتين المحيطة به بالإضافة إلى القوة المدافعة عنه والبالغة أكثر من تسعمائة محارب وما أن بدأت المناوشات بين الطرفين حتى تقدم المدافعون من بنى بوعلى إلى الإمام وانقضوا على القوة التى كان يقودها سعيد بن سلطان حاكم عمان بنفسه فاثخنوها بالجراح وأصيب سعيد نفسه بجرح بليغ فى يده وفر رجاله هاربين لايلوون على شىء . وحاول القائد البريطانى توميسون أن يعيد تجميع رجاله والصمود فى مدينة صور فى حين عاد سعيد حاكم عمان برجاله المنهزمين إلى مدينة مسقط . أثار هذا الانتصار لقبيلة بنى بوعلى فزع بريطانيا وقلق المشايخ العرب الذى ربطوا أنفسهم بالاستعمار البريطانى الذى قرر أن يجرد حملة جديدة وواسعة ضد بنى بوعلى والقضاء على استقلالهم ونفوذهم نهائيًا مثلما فعلوا مع ساحل عمان ، وكانت الحملة الجديدة كبيرة جداً أمام قبيلة صغيرة لايتعدى أفرادها المحاربين ألف شخص مختلف الأصناف من وحدة كاملة للمدفعية من بينها المدافع الثقيلة المعدة لدك الحصون ولواءين للمشاة وعدة أفواج للهندسة والاستطلاع وغيرها .

غادرت الحملة بومباى فى ١٠ / ١ / ١٨٢١ إلى صور وأقامت لها معسكراً وحين عرف بنو بوعلى انتدبوا مجموعة من المحاربين لمهاجمة القوات البريطانية فى معسكراتها بصور ووصلوا إلى نقطة لاتبعد سوى مسيرة ساعة . وكانت هذه القوة بقيادة شيخها محمد بن على نفسه وكان هدفها مهاجمة المعسكرات البريطانية والحصن الأعلى فى صور وكذلك مهاجمة القوات البريطانية فى نفس الوقت ، وأغاروا على المعسكرات البريطانية ليلاً والتحموا مع أفراده فى قتال مرير وأوقعوا بهم خسائر فادحة. وفى صباح اليوم التالى وصلت إلى البريطانيين نجدة من حاكم عمان ، وفى الثانى من شهر مارس استأنفت القوة المشتركة القتال بعدما أحاطت بحصن بنى بوعلى من كل الجهات، ونصبت حوله المدافع الثقيلة وبدأت تقصف

بعنف بنيرانها لعدة ساعات اضطر المدافعون إزاء ذلك إلى رفع راية الاستسلام فاندفع البريطانيون إلى داخل الحصن وفى اليوم التالى تم تدمير ميناء الشخرة وكل الحصون المحيطة به ، وبذلك تم القضاء على ما تبقى من المقاومة العربية «بنى بوعلى» وتغلغل الاستعمار البريطانى فى الخليج العربى وسيطر على النقاط الاستراتيجية المهمة فيه وأصبحت الملاحة تحت إشرافها فبدلاً من تحالف عرب الخليج ضد المستعمرين سرى التفكك فيما بينهم واشتدت المنازعات والفتن الداخلية وذلك بعد أن استولى البريطانيون على السفن وحالوا دون قيام أساطيل عربية على غرار ما كان موجود منها سابقًا ولقد شجعت هذه الأوضاع بريطانيا أن تمعن فى إذلال الشعب العربى فى الخليج وأن تزيد من وطأة القيود الثقيلة التى فرضتها عليهم (١٠).

السياسة البريطانية فى الخليج العربى :

يتضح مما سبق ذكره بأن الصراع لم يكن صراعًا خاضته القبائل العربية فى المنطقة ضد قوى طامعة فى امتلاك ثرواتها والتى استطاعت أن تتبين أبعاد محاولات المستعمر البريطانى فى السيطرة على مقدراتها وإذلالها . وعلى ذلك قامت لتتصدى لهذه المحاولات منذ البداية بعزيمة وتصميم على أن لاتترك مجالاً لتحقيق أهداف الاستعمار البريطانى ، وعلى الرغم من الطاقات المحدودة للقبائل العربية فى ساحل عمان وجعلان آنذاك فانها أثبتت فاعليتها نتيجة لايمانها بقدرتها وحقوقها مما جعلها تثبت وجودها أمام القوة الاستعمارية المزودة بأحدث الأسلحة يعاونها فى ذلك جيش من مستعمراتها فى الهند وبعض عملائها فى المنطقة . وعلى الرغم من أن إدعاء السلطات البريطانية بأنها جاءت إلى الخليج العربى للقضاء على القرصنة وليسود الهدوء فى مياهه فان الواقع عكس ذلك فان قبائل ساحل عمان كانت تتحكم فى مدخل الخليج العربى وتتصدى للاحتكار البريطانى للتجارة مما جعل تلك القبائل تدافع عن بقائها أمام هذا الاحتكار الاستعمارى فبدأت مقاومة وطنية اعتبرتها بريطانيا قرصنة وأعمال سلب ونهب لتبرير عملية الاحتلال (١١).

لم يكن من المتوقع أن تتمكن شركة تجارية رأسمالية بريطانية اقامة مستعمرات فى الهند بهذه السهولة والسرعة وبهذه المدة القصيرة منذ أن تحولت سياستها من تجارة إلى احتلال الأرض . ولقد استطاع البريطانيون خلال هذه المرحلة إخراج كل القوى المنافسة لهم فى الخليج العربى من أوروبية ومحلية وطنية بعد صراع طويل ومرير دام سنين طويلة . أما القوى

المحلية فكانت ممثلة بدولتى إيران والدولة العثمانية التى كانت تحكم العراق ثم القبائل العربية التى تعيش فى الجزر وعلى شواطيء الخليج العربى ولكن هاتين الدولتين كانتا فى حروب مستمرة فيما بينهما وكان الإيرانيون سببها لتحقيق مطامعهم التوسعية فى العراق ، واستغلال حكامهم الحروب لفرض السيطرة والتخلص من الخصوم فى الداخل . ولو اتفق الإيرانيون والعثمانيون ضد المستعمرين وخاصة الاستعمار البريطانى ، أما القوى العربية الممثلة بالقبائل فكانت الوحيدة التى استطاعت فرض وجودها فترة طويلة وناضلت ضد الاستعمار بالرغم من وقوعها دائمًا بين نارين ، العثمانيون والإيرانيون من وراء ظهورهم على البر ونار البريطانيين أمامهم فى البحر ، ولو توحدت قوى هذه القبائل وناضلت كوحدة واحدة لما تمكن الاستعمار البريطانى من القضاء عليها الواحدة تلو الأخرى ولما تمكن الإيرانيون من السيطرة على الشاطىء الشرقى موطن القبائل العربية وخاصة بعد الاحتلال البريطانى لساحل عمان عام ١٨٢٠ (١٢).

بذلك نجحت بريطانيا فى تحقيق السياسة الاستعمارية التى وضع البرتغاليون أول فصولها ولكنهم فشلوا فى تطبيقها وذلك عندما سيطر البريطانيون على مضيق ملقا من هولندا عام ١٦٨٨ وتحكموا فى تجارة الشرق مع اليابان والصين وجنوب شرق آسيا ثم سيطروا على الهند منذ عام ١٦٩٠ وبعد تحرير الشيخ مهنا بن ناصر جزيرة الخرج وطرد الاستعمار الهولندى من الخليج العربى ولم يعد لهم إلا عدن التى نجحوا فى احتلالها عام ١٨٣٩ وبذلك سيطر البريطانيون على المضايق الاستراتيجية فى الشرق ومن ثم أكملوا هذه الحلقة بسيطرتهم على رأس الرجاء الصالح وجبل طارق ومالطا وقناة السويس وقبرص فيما بعد .

سيطرت بريطانيا على الخليج العربى باضعاف قدراتها التجارية والاقتصادية وإخضاعها لإدارتها الاستعمارية من حكومة الهند. ولتحقيق تلك الأغراض فانها لجأت إلى مختلف الأساليب والطرق لتحقيق أهدافها تحت مبررات إنسانية زائفة لتبرير استعمارها للشعب العربى فى الخليج أمام الرأى العام العالمى كما تفعل الولايات المتحدة اليوم باسم مكافحة الإرهاب لخنق شعوب العالم الثالث التى لاترضى أن تسير فى ركابها فقد أطلق على المقاومة العربية الفلسطينية بالإرهاب وكذلك على ليبيا بالإرهاب وقد سبقتهم فى ذلك بريطانيا عندما تذرعت بمحاولة القضاء على أعمال القرصنة ثم بالقضاء على تجارة الرقيق ومنع تجارة الأسلحة .

تدعيم النفوذ البريطانى فى المنطقة :

تمسكت بريطانيا بسياستها بعد معاهدة ١٨٢٠ فى معظم سنوات سيطرتها على المنطقة وكانت تهدف من وراء ذلك إلى عزل الساحل عن الداخل فى الوقت الذى كانت تعنى فيه بتدعيم سيطرتها البحرية وإن كان من الطبيعى أن تتجه إلى التخلى عن هذه السياسة على أثر اكتشاف موارد النفط فى الداخل . ومما سهل عليها السيطرة الداخلية بفضل تقدم سلاح الطيران الجوى واستخدم ذلك السلاح بالفعل منذ الثلاثينيات من القرن العشرين ، وعلى الرغم مما حققته معاهدة ١٨٢٠ من نجاح لسياسة البريطانيين إلا أن تلك المعاهدة لم تستطع أن توقف المقاومة العربية والنشاط البحرى للقبائل دفعة واحدة وإنما استمرت العمليات البحرية قائمة بصورة أو بأخرى ؛ وإن كانت عمومًا على نطاق أضيق عمًا كانت عليه من قبل ولكن المهم أن الحكومة البريطانية اعتمدت على معاهدة ١٨٢٠ فى تثبيت نفوذها بالإضافة إلى نجاحها فى عقد سلسلة من المهادنات البحرية بين شيوخ القبائل فى ساحل عمان، وسوف نشير إلى بعض الإجراءات التى اتخذتها حكومة الهند البريطانية لفرض ما أسمته بالسلام البريطانى بما يلى (١٣):

أولاً : عمليات المسح البحرى : على الرغم من أن عمليات المسح البحرى بدأت منذ عام ١٨١١ إلا أنها توسعت بعد حملة ١٨١٩ وكانت عمليات المسح هذه صعبة وشاقة وقد استهدفت ساحل عمان وقطر وخليج عمان وساحل مكران ، واتضح وجود مئات من الخلجان الصغيرة فى ساحل عمان والتى كانت مجهولة لدى البريطانيين . وكانت سفن رأس الخيمة تكمن فى انتظار ضحاياها من السفن التجارية التى تعبر مضيق هرمز كما أن عمليات المسح كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى القضاء على القوة البحرية لساحل عمان بعد أن تعرفت عمليات المسح على طبيعة الساحل الطبوغرافية والمواقع الدفاعية والهجومية التى كانت تتحصن بها سفن ساحل عمان .

ثانيًا بناء قاعدة بريطانية باسيدوة : كان من بين أهداف حملة ١٨١٩ إنشاء قاعدة بريطانية فى الخليج العربى لتشرف على مضيق هرمز حتى تتمكن من مراقبة السفن القادمة أو المغادرة . وكانت هناك جزيرتان يمكن اتخاذ إحداهما مقراً لتلك القاعدة وهما جزيرة هنجام وقشم وكانتا خاضعتين لحاكم عمان حيث كان يعين الولاة عليهما باعتبارهما تابعتين له إضافة إلى تبعية بندر عباس منذ عهد سلطان بن أحمد ولذلك لم تجد حكومة الهند

البريطانية صعوبة كبيرة فى إنشاء تلك القاعدة بحكم صداقتها لسلطان عمان ، ولكنه ثبت بعد ذلك عدم ملاءمة باسيدوة ميناء جزيرة قشم من الناحية المناخية وخاصة شدة الحرارة والرطوبة .

ثالثًا : القوة البحرية المتجولة : لجأت بريطانيا بعد انسحابها من جزيرة قشم إلى الاستعاضة عن القاعدة البحرية بأسلوب آخر لمراقبة الملاحة فى الخليج العربى وهو وجود ست سفن حربية للقيام بدوريات مستمرة فى مياه الخليج العربى. وقد وجدت بريطانيا أنه لتحقيق الاستقرار والأمن البحرى فى ساحل عمان ينبغى الاعتماد على دوريات منتظمة تقوم بها قطع من أسطول البحرية البريطانية حتى يمكنها الاحتفاظ بالمكاسب التى حققتها والتى كلفتها الكثير من الأرواح والأموال . وخصصت البحرية الهندية ستة طرادات لعملية المراقبة اتخذت ثلاثة طرادات منها جزيرة قيس قاعدة لها ورابطت بصفة مستمرة بالقرب من السواحل العربية التى تتطلب التركيز فى عمليات المراقبة فى ساحل عمان أمام موانىء كل من رأس الخيمة والشارقة وأبوظبى حيث كانت تقوم بزيارة تفتيش مستمرة لها ، أما الطرادات الثلاثة المتبقية فقد كان عليها أن تتعقب كلها أو بعضها مسار السفن البريطانية التجارية العابرة من مسقط إلى البصرة وبالعكس بهدف حمايتها وكذلك حماية البريد والبعثات البريطانية ، وصدرت التعليمات لضباط القوة البحرية المتجولة بعدم إيقاف أية سفينة ما لم يشتبهوا فى هويتها أما إذا امتنعت سفينة من السفن عن إبراز هويتها فيمكنهم فى هذه الحالة إطلاق رصاصة تحذير وبذلك أجازت بريطانية لنفسها دور شرطى المنطقة استناداً على المعاهدة العامة ١٨٢٠ التى أعطتها حق التفتيش البحرى وهو إجراء توسعت فيه بريطانيا وأدى بدوره إلى القضاء على النشاط البحرى للقوى العربية إذ كان من السهل على سفن الأسطول البريطانى أن تستوقف أية سفينة بحجة الاشتباه فى حمولتها ومن ثم فقد اتخذت بريطانيا من أسلوب التفتيش وسيلة لفرض سيطرتها الاستعمارية على المنطقة .

رابعًا : الوكالة السياسية البريطانية فى الخليج العربى : اتجهت حكومة بومباى فى أعقاب توقيع معاهدة السلام العامة ١٨٢٠ إلى إنشاء وكالة سياسية فى الخليج العربى وكانت هذه هى المرة الأولى التى ظهرت فيها صفة سياسية توصيفًا لوظيفة بريطانية استعمارية فى الخليج العربى. وتحددت مهمة الوكيل السياسى فى الإشراف على علاقات الشيوخ فى ساحل عمان بحكومة بومباى وتنظيم تلك العلاقة وأن هذا المنصب لم يستمر فترة

طويلة ثم بادرت فى عام ١٨٢٣ إلى إلغاء الوكالة السياسية فى الخليج العربى وألحقت مهمتها بالمقيمية البريطانية فى بوشهر . ولذلك شهد ذلك العام تطور اختصاصات بالمقيمية البريطانية التى كانت تجارية بريدية استخبارية فأصبحت إلى جانب ذلك لها اختصاصاتها السياسية حيث وقع على المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى بوشهر مهمة مراقبة وتنفيذ تعهدات الشيوخ والإشراف على شؤون الخليج العربى العسكرية والسياسية. وحرصت حكومة الهند البريطانية على تدعيم السلطة السياسية والعسكرية لمقيمها وجعلت له الكلمة العليا وكان ذلك نتيجة التنازع فى الاختصاصات بين المقيم السياسى وقائد أسطول البحرية الهندية ، وقد حسمت حكومة الهند هذا الخلاف وذلك بمقتضى الإعلان الذى صدر عن الحاكم العام للهند فى عام ١٨٤١ وكان مما ود به أن سلطة المقيم هى السلطة الأولى فى منطقة الخليج العربى ويتعين على قائد الأسطول البحرى الهندى أن يعمل تحت إمرته .

يرتبط تدعيم النفوذ البريطانى فى ساحل عمان بالدور الذى قام به «ماكلويد» الذى عهد إليه بالمقيمية السياسية البريطانية فى الخليج العربى خلفًا لبروس فى عام ١٨٢٣ . وبدأ ماكلويد مهام منصبه بجولة بحرية قام بها فى سواحل عمان وكان عليه أن يقوم بدراسة مستفيضة للوضع السياسى لشيوخ القبائل وأن يتحقق من مصادر الثروة وأنواع السفن وإمكانية إنشاء تمثيل دائم فى ساحل عمان وقد أقيم هذا التمثيل بالفعل حين عهدت حكومة بومباى إلى وكيل وطنى بهذه المهمة منذ عام ١٨٢٨ واختيرت إمارة الشارقة لتكون مقراً لذلك التمثيل وكانت مهمته تتلخص فى جمع المعلومات التى يستطيع الحصول عليها وإرسالها إلى المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر ليكون على اطلاع دائم بما يحدث فى ساحل عمان وكان المقيم السياسى البريطانى غالبًا ما يفد إلى المنطقة زائراً ومجاملاً أو معاقبًا ، واعتمدت حكومة الهند على تقرير لماكلويد وافتتحت فى عام ١٨٢٨ . أول وكالة للمقيمية البريطانية فى الشارقة وتم تعيين وكيل أو مسؤول عن إدارتها وهو ملا حسين تحت اسم وكيل وطنى علماً بأن جميع الوكلاء إن لم يكن معظمهم كان من خارج ساحل عمان وليسوا عربًا وإنما من الهنود والإيرانيين باعتبارهم أقرب إلى الاستعمار البريطانى وأطوع لهم من العرب ، وتحددت مسؤولياته بالعمل على رعاية المصالح البريطانية فى ساحل عمان وكان عليه أن يرفع تقاريره أولاً بأول إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى . وقد استخدمت بريطانيا الوكلاء الوطنين حتى استعاضت عنهم بوكلاء بريطانيين فى دبى فى فترة ما بين الحربين العالميتين على أثر إقامة القواعد الجوية فى ساحل عمان .

إتفاقية الهدنة البحرية ١٨٣٥ - ١٨٥٣ :

بعد أن سد الاستعمار البريطانى الأبواب فى وجه القبائل العربية فى ساحل عمان وضيق على نشاطهم التجارى كان لابد لهم من بحث عن مورد للرزق ولم يكن غير العودة إلى صيد اللؤلؤ. ومن ثم عمل البريطانيون لإثارة روح البغضاء والفرقة بين أبناء ساحل عمان وعندما تتأجج هذه الخلافات عليهم بالتوجه إلى الإدارة والسلطات البريطانية للفصل فيما بينهم تمكينًا لها من السيطرة عليهم ومن فرض ولاية جديدة عليهم باسم صيد اللؤلؤ والكف عن أعمال العداء فى مواسمه والتى كانت بريطانيا هى السبب . وبالتالى ظفرت بهذه الوصاية فى اتفاقية الهدنة البحرية الأولى عام ١٨٣٥ بين شيوخ القبائل فى ساحل عمان لمدة ستة أشهر ثم جددت مرتين فى كل من العامين التاليين لمدة ثمانية أشهر فى كل مرة ثم أخذت تجدد سنويًا حتى عام ١٨٤٣ وبعدها تم الاتفاق على الهدنة البحرية بين شيوخ القبائل فى ساحل عمان لمدة عشرة أعوام والتزم بها جميعهم ومن ثم عقدت اتفاقية الهدنة البحرية الدائمة عام ١٨٥٣ .

فقد اتضحت لبريطانيا بمرور الزمن عدم ملاءة معاهدة السلام العامة التى عقدت فى عام ١٨٢٠ من أجل الحفاظ على الأمن البحرى والبريطانى كاملاً ، فازاء النزاعات التى لاتنتهى بين شيوخ القبائل فى ساحل عمان أصبح ضروريًا أن تعيد بريطانيا النظر فى القضية من جديد لاسيما وأن معاهدة عام ١٨٢٠ م تنكر حق جميع شيوخ القبائل فى القيام بالحرب ضد بعضهم البعض عن طريق البحر لأن جميع الجهود المبذولة كانت موجهة لمقاومة الاستعمار البريطانى فى مياه الخليج العربى . وكانت القبائل العربية فى ساحل عمان الشمالى تحت زعامة واحدة فى رأس الخيمة ولكن بعد اتفاقية ١٨٢٠ أصبحت مجزأة بعدما فصلت بريطانيا شيوخ القبائل عن رأس الخيمة واعترفت باستقلالهم عنها ووقعت معهم اتفاقيات انفرادية للحماية . وبذلك لم يكن أمامهم سوى القتال فيما بينهم لتوسيع مناطق حكمهم مما أدى إلى نزاعات مستمرة وخاصة عن طريق استخدام السفن فى البحر مما أدى إلى تزايد قوة السفن الحربية من جديد وخشية بريطانيا أن يعود أسطول ساحل عمان إلى سابق عهده مما قد يؤدى إلى التعرض للسفن البريطانية لذا فكرت بريطانيا فى عقد معاهدة جديدة تحت شعار عدم الاقتتال فى البحر ، وهذا ما سوف يؤدى إلى انتقال الاقتتال إلى البر بعد منعه فى البحر خوفًا على المصالح البريطانية والتى ليس لها مصالح فى البر ، ولهذا فانها لم تتدخل فى المعارك البرية حتى اكتشاف البترول مما قد يضر بعمالها وباستخراجه فاتجهت لعمل الحدود وعدم تجاوز تلك الحدود ومن هنا ظهرت الحدود التى لا زالت إلى يومنا هذا .

كما أن بريطانيا منعت المنازعات والمعارك البرية عندما كانت هناك محاولات وحدوية كضم إمارة كبيرة للإمارات الصغيرة التى انفصلت عنها أو التى تحاول الانفصال عنها فان بريطانيا كانت تتدخل فى البر لمنع هذا الاتحاد وتشجيع الانفصال وتهدد بقصف الجهة التى تريد الاتحاد ، وقد حدث ذلك عندما حاول الشيخ سالم القاسمى توحيد ممتلكات رأس الخيمة السابقة بضم الشارقة وأم القيوين وعجمان وكذلك عندما حاول الشيخ زايد بن خليفة توحيد بعض الإمارات فى شمال ساحل عمان وغيرها من المحاولات الوحدوية التى منعتها بريطانيا بالقوة .

ومن أجل هذا دفعت بريطانيا شيوخ القبائل فى ساحل عمان إلى الالتزام بهدنة بحرية فى عام ١٨٣٥ وتعهدوا فيها بعدم الخوض فى أية عمليات عدوانية عن طريق البحر لمدة ستة أشهر وعلى اعتبار أن الحكومة البريطانية لن تتدخل فى حروبهم على البر ، وفى أغسطس ١٨٤٣ أجبر البريطانيون شيوخ القبائل فى ساحل عمان على توقيع اتفاقية جديدة أشد جوراً سميت باتفاقية الهدنة البحرية . وقد منحت هذه الاتفاقية المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى امتيازات أوسع من ذى قبل فى بسط الرقابة على الملاحة العربية وبالتالى على السفن والمصادر الأخرى التى يعيش عليها سكان ساحل عمان .

أعربت مقدمة هذه الاتفاقية المؤقتة بعشر سنوات عن «الضيق بالأحوال السيئة والاعتراف بأن منشأها العداوات القائمة بين شيوخ ساحل عمان» ، ويمكننا القول بأن بريطانيا كانت هى السبب وعملت على ذلك منذ تفتيت الوحدة فى ساحل عمان ، ويلاحظ أن الجديد فى الاتفاقية أمران : الأول الوصاية البريطانية بالنسبة للتعويض عن الاعتداء ، والثانى عدم استبعاد لفائدة استمرار الهدنة أو لاستئناف العداوات وقرب بعض الشيوخ ببعضهم طبقًا لما تمليه مآربها الاستعمارية(١٤).

رغم التوقيع على اتفاقية الهدنة البحرية إلا أن النزاع استمر بين شيوخ القبائل من وقت لآخر وتكررت الأعمال الحربية وخاصة من جانب سلطان بن صقر مما استدعى تدخلاً بريطانيًا واستعراضًا للقوة على الرغم من أن تلك المنازعات لم تكن خطيرة ، وعندما انقضت فترة السنوات العشر عقد اتفاق اكثر ثباتًا عرف باسم معاهدة الهدنة البحرية الدائمة فى مايو ١٨٥٣ . وكانت شروطه مثل شروط معاهدة الصلح العشرية السابقة وأضيفت لها شروط أخرى إضافية مضمونة بأن يراقب البريطانيون الهدنة البحرية وأن ينفذوها بالقوة إذا ما دعت

الحاجة إلى ذلك ومعنى هذا أنه فى حالة الاعتداء على أى طرف من الأطراف عن طريق البحر فان القبيلة المتضررة لا تثأر لنفسها بل تحيل الأمر إلى السلطات البريطانية فى الخليج العربى [١٥]. وهكذا استطاعت بريطانيا بعد جهد كبير أن تقضى على المقاومة العربية فى مياه الخليج العربى وأطلقت عليها اصطلاح عرف فى المصادر الغربية بالسلام فى مياه الخليج العربى ، وهو سلام تتجه طبيعته للقوة الاستعمارية البريطانية المتزايدة التى أضفتها الأسلحة الحديثة وقوة البحرية النظامية على القوى العربية المحلية فى المنطقة . وبذلك لم تمنح هذه الاتفاقية السلطات البريطانية الحق الشرعى فى مكافحة الاعتداءات البحرية كما كان الحال قبل ذلك وحسب ، بل منحتها أيضًا الحق فى أن تتدخل بحجة الحرص على السلام فى جميع الأحداث الجارية على ساحل عمان وأن تقمع بالتالى بقوة السلاح حركة التحرير والميول الاتحادية لدى قبائل وشعوب ساحل عمان .

بعد ذلك غير الاستعمار البريطانى - وعلى أثره الجغرافيون والمؤرخون الغربيون اسم ساحل عمان من (ساحل القراصنة) حسب ما كانوا ينعتونه مثلما يقولون حاليًا عن الإرهاب وسموه «ساحل الصلح العربى» أو «ساحل المهادنة» ونزعوا القناع الذى لم يبق بعد ذلك ضروريا والذى كان يستر سياستهم الاستعمارية تحت اللافتة الإنسانية الزائفة لمكافحة القرصنة وانعموا على أنفسهم شرفًا كاذبًا شرف القضاء على هذه الظاهرة التى لم يكن لها وجود بالفعل . وبما أن شعار مكافحة القرصنة قد لعب دوراً مهمًا وبما أن قسما كبيراً من الخليج العربى لم يكن قد خضع بعد فقد شرع الدعاة وأيدلوجيو التوسع الاستعمارى البريطانى يستعملون سلاحًا أيدلوجيًا جديداً [١٦] هو مكافحة «تجارة الرقيق» .

مما يستلفت النظر فى هذه الاتفاقية أن حاكم الهند العام قد وقعها بنفسها عام ١٨٥٣ على عكس جميع الاتفاقيات والمعاهدات السابقة التى كان يوقعها المقيم السياسى البريطانى نيابة عن حكومته ؛ مما يعطى لهذه الاتفاقية دلالات ومؤشرات هامة يتضح منها مدى إصرار بريطانيا على فرض سيطرتها ونفوذها على ساحل عمان وكانت هذه الاتفاقية بالفعل تشكل الأساس الذى بنيت عليه العلاقات البريطانية بالمنطقة والتى بقيت قائمة حتى الانسحاب البريطانى ، وتتميز «اتفاقية الهدنة البحرية» بأسلوب جديد وبعيد عن العنف ويعتمد على الدهاء والخداع وهو أسلوب جعل من بريطانيا حكمًا وخصمًا فى النزاعات البحرية مما أكسبها دوراً هامًا فى توجيه الأمور بما يتفق ومصالحها .

بذلك حققت بريطانيا نجاحًا فى تأكيد نفوذها على ساحل عمان دون أن تتعرض لمقاومة سكانها . ولم يكن النجاح الذى حققه الاستعمار البريطانى إلا مقدمة للإنطلاق إلى سواحل أخرى من الخليج العربى وإبعاد أى نفوذ آخر عن مياهها ولم يكلفها ذلك ماديًا أو عسكريًا ما يستحق الذكر فى الوقت الذى نجح فيه الاستعمار البريطانى فى تفتيت «ساحل عمان» إلى إمارات صغيرة مستقلة من الناحية الشكلية راضخة للنفوذ البريطانى فى الواقع . ومما لاشك فيه أن الفضل فى تحقيق الأطماع البريطانية إنما يعود إلى «هنبل» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى الذى وضع حجر الأساس لهذه السياسة ، إذ استطاع أن يحقق لحكومته أهدافها فى فرض سيطرتها وتأمين طرق مواصلاتها إلى الهند ، وعن طريق هذه الاتفاقيات استطاعت بريطانيا أن تطلق يدها فى ساحل عمان وتتخذ من المخالفات فى النزاعات حجة لفرض الغرامات الباهظة على شيوخ القبائل فى ساحل عمان لإظهار النفوذ البريطانى فى صورة الهيمنة الفعلية على مجريات الأمور وهذا ما أوصلها تحت سيطرتها الفعلية بحيث لم يعد فى مقدور شيوخها اتخاذ أى قرار دون الرجوع إلى السلطات البريطانية (١٧).

بريطانيا وتجارة الرقيق

اتخذت بريطانيا من مكافحة تجارة الرقيق وسيلة لفرض سيطرتها ونفوذها ليس على الخليج العربى فحسب ، وإنما على شرق أفريقيا التى كانت خاضعة لسيطرة عمان والتى وجدت فيها ضالتها المنشودة فى إيجاد طريقة تنفذ منها للسيطرة على شرق أفريقيا الواسعة وهى مكافحة الرق . وضغطت بريطانيا على حاكم عمان سعيد بن سلطان عام ١٨٢٢ للتوقيع على معاهدة «مورسى» التى حرمت تجارة الرقيق خارج نطاق أملاكه الأفريقية والآسيوية وبذلك منعت بيع الرقيق ، وقام الأسطول البريطانى عندئذ بأعمال الرقابة فى مياه أفريقيا الشرقية . على أن بريطانيا عاودت ضغطها على حاكم عمان سعيد بن سلطان فأرسلت خطابًا عام ١٨٤٢ تطلب فيه إلغاء تجارة الرقيق نهائيًا فى أملاكه . وتم التوقيع على المعاهدة بذلك فى اكتوبر عام ١٨٤٥ ، وتحت الضغط البريطانى وافقت إيران أيضًا عام ١٨٥٠ على توقيع اتفاقية تمنح للسفن البريطانية حق إيقاف وتفتيش أية سفينة إيرانية يشتبه بأنها تحمل العبيد. ويمكن القول بأن فعالية الاتفاقية مع إيران بشأن تجارة الرقيق من الناحية العملية كانت أكبر من تلك المعاهدات التى عقدت مع ساحل عمان خاصة بعد أن

تعاون المفوض الإيرانى ورجاله مع السلطات البريطانية التى قررت لهم مكافأة سنوية تتناسب مع عدد العبيد المصادرين (١٨).

كما حصلت الحكومة البريطانية من شيوخ القبائل فى ساحل عمان على تعهدات بالقضاء على الرقيق مع أفريقيا من ١٨٢٠ إلى ١٨٥٣ وكان أكثرها إلزامًا فى عام ١٨٤٧ . وقد تعهد الشيوخ أيضا فى عام ١٨٦٥ بتسليم السلطات البريطانية الرقيق الذى يهبطون أراضيهم وقد تأكد التزام شيوخ ساحل عمان بهذه الارتباطات مرة أخرى فى عام ١٨٧٣ كما حصلت بريطانيا على تعهدات مماثلة من شيخ البحرين فى عامى ١٨٤٧ ، ١٨٥٦ وعقد حكام عمان متتابعين عدة اتفاقيات مع الحكومة البريطانية تتعلق بتجارة الرق فى ممتلكاتهم خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٨٢٢ - ١٨٧٣ . وفى العام الأخير منع حاكم عمان تجارة الرقيق فى عاصمته بل وفى كل أنحاء السلطنة كما منح الحكومة البريطانية الحق فى البحث والقبض على السفن العمانية التى تشترك فى مثل هذه التجارة .

يمكننا القول بأن عصر الأمن البريطانى قد بدأ بعد نهاية المقاومة العربية وتوقيع اتفاقية الهدنة البحرية الدائمة ١٨٥٣ مع ساحل عمان ومن ثم اتفاقيات منع تجارة الرقيق مع كل من عمان وإيران والبحرين وبذلك نجحت بريطانيا باضعاف القدرات التجارية لأبناء الخليج العربى تحت شعار إنسانى مزيف جديد هو القضاء على تجارة الرقيق . وبموجب تلك الاتفاقيات التى تعطى للسفن الحربية البريطانية حق توقيف وتفتيش السفن التجارية المحلية الوطنية فى عرض البحر ، فان بريطانيا قامت بالإغراق المنظم لهذه السفن التجارية لمجرد الاشتباه فيها بدلاً من قطرها إلى أقرب ميناء كما تقضى الاتفاقيات بذلك . ويذكر أرنولد ويلسون أن بريطانيا أغرقت أو دمرت ثلاث عشرة سفينة تجارية خليجية فى أقل من شهر واحد عام ١٨٧٠ . وكان من نتائجها القضاء على زراعة القرنفل فى زنجبار والذى كان انتاجه يمثل أكثر من ٨٠٪ من القرنفل المباع فى المنطقة ، فقد كان الرقيق عماد الزراعة فى تلك الجزيرة والغاء الرقيق أدى إلى إخلاء المزارع من العاملين فيها فكانت نهاية لازدهار اقتصادى فى زنجبار وبداية تفكك السلطنة العمانية ونفوذها فى شرق أفريقيا وهذا لايعنى دفاعًا عن الرق فى أى شكل من الأشكال وإنما مجرد تذكير وتوضيح للنتائج الواقعية للسياسة الاستعمارية البريطانية (١٩).

بالرغم من محاولات بريطانيا المستمرة لمنع تجارة الرقيق فى موانىء الخليج العربى وشرق أفريقيا فان جميع هذه المحاولات قد باءت بالفشل . وقد رأى بعض العسكريين البريطانيين ضرورة ضرب تجارة الرقيق قرب مصادرها وإن الاجراءات المتخذة لمنع تجارة الرقيق فى الخليج العربى يجب أن توجه إلى شواطىء أفريقيا . ومع إقرار بريطانيا بوجهات النظر هذه إلا أنها لم تحرز أى تقدم فى هذا الشأن ويعزى ذلك إلى القلق الذى كان يساور البحارة فى الأسطول البريطانى فقد كان الخروج إلى السواحل العربية فى شهرى مايو ويونيو فى الصيف الحار مع شدة الرطوبة لانتظار السفن الشراعية المارة تجربة قاسية بالنسبة إلى البحارة البريطانيين إضافة إلى المطاردة اليائسة أو القتال العنيف مع بحارة سفن الرقيق والتى كانت تؤدى لموت البعض إلى جانب أن المكافأة المالية لم تكن مشجعة وكذلك الحوافز الأدبية لمنع تجارة الرقيق لم تشجع أى ضابط بريطانى بالاضطلاع بهذا الواجب المرهق وهذا يؤكد أن الدافع لمنع تجارة الرقيق لم تكن دوافع إنسانية لدى الذين يقومون بهذا الواجب بدليل أنهم لم يكونوا مقتنعين تمامًا بالواجب الإنسانى الذى تادت به حكومتهم ، وهذا أمر مهم فان نجاح أى مشروع يقضى بايمان أى فرد أو مجموعة بالفكرة التى يرغبون فى تحقيقها (٢٠).

أى أن بريطانيا التى كانت تدعى أن قيامها بمحاربة تجارة الرقيق لدوافع إنسانية ، كانت تحاول تضليل الرأى العام ولإخفاء حقيقة نواياها. وقد كشف لنا الواقع زيف هذه الإدعاءات إذ أنها كانت بذلك تعمل على تعزيز نفوذها وبسط سيطرتها على الخليج العربى من خلال الاتفاقيات التى فرضتها على الحكام العرب فيها وجعلت من تلك الاتفاقيات أداة لتدخلها فى شوونهم الداخلية ، وعلى ذلك فقد كان هذا الدور الذى لعبته يخدم أغراضها الاستعمارية وينفى الدور الإنسانى الزائف . ويمكن أن نرجع بعض العوامل التى دفعت بريطانيا لمنع تجارة الرقيق إلى الآتى :

أولاً : كانت السياسة الاستعمارية البريطانية فى تلك الفترة تتطلب ضمانات داخلية وخارجية ، فلمواجهة الانتقادات الداخلية كان على السلطات البريطانية أن تثبت بأن سياستها الاستعمارية لصالح بريطانيا والمناطق المستعمرة التى لا يمكن أن تسمح برواج الرقيق فيها .

ثانيًا : لم تكن بريطانيا تستفيد من تجارة الرقيق الأفريقية بسبب تحول الخط الاقتصادى الزراعى فيها إلى الصناعى إضافة إلى خسارتها للمستعمرات الأمريكية التى كانت المجال الأساسى لاستيراد الرقيق ، كما أنها كانت تسعى إلى تطبيق قوانينها على مستعمراتها وهى لاتستفيد إقتصاديًا من هذه التجارة كما أنها لا تحتاج إلى الرقيق فى هذه الفترة .

ثالثًا : كانت بريطانيا تعتقد بأن تجارة الرقيق بهذا الحجم وهذا المردود المادى فى المنطقة يشكل عائقًا أمام استعمارها فى الشرق ، فمن الناحية القانونية أصدرت حظر هذه التجارة ومن الناحية الاقتصادية فان المستفيدين منها سيعملون بكل الوسائل لاستمرارها وهذا بدوره يؤثر على خطط بريطانيا فى فرض سيطرتها على مناطق ذات أهمية استراتيجية كمنطقة الخليج العربى . فضلاً عن أن فشل منع تجارة الرقيق سيؤدى إلى عرقلة الجهود لبسط نفوذها فى المنطقة .

رابعًا : كان ضغط الرأى العام البريطانى باتجاه حقوق الإنسان وحريته فى أوروبا ضمن العوامل التى دفعت بريطانيا إلى اتباع تلك السياسة تجاه تجارة الرقيق .

خامسًا : دور الإرساليات التبشيرية التى نشطت فى المستعمرات البريطانية فى أفريقيا أو تلك التى كانت تخطط لاستعمارها ووقفت تلك الإرساليات التبشيرية ضد الرق وتجارته لإدخالهم فى الديانة المسيحية .

سادسًا : حل كل الإتفاقيات البريطانية مع عمان وساحل عمان والبحرين بشأن حظر تجارة الرقيق الأساس للاتفاقيات السياسية معهم وإلا تعتبر تلك الاتفاقيات تدخلاً فى شؤونهم الداخلية فى الوقت الذى كانت بريطانيا فى سياستها تجاه تجارة الرقيق تتم بالتنسيق مع حكام المنطقة خوفًا من منافسة فرنسا التى تسعى إلى النفوذ فيها ؛ وكانت تسمح للسفن الخليجية التى ترفع عملها بنقل الرقيق وتجارته وخاصة سكان المنطقة الشرقية من عمان «صور» وكان ذلك الموقف الفرنسى بسبب منافستها مع بريطانيا عل السيطرة على الخليج العربى .

إذا ما حققت الاجراءات البريطانية لمنع تجارة الرقيق بعض النجاح فان التجارة الداخلية استمرت لفترة من الزمن باعتبار أن الاتفاقية لم تتطرق إلى المناطق الداخلية وأن التهريب كان جزءاً من تجارة المنطقة وأن السياسة البريطانية لم تكن حازمة فى مواجهة هذه التجارة ، ولذلك يمكن القول بأن تجارة الرقيق كانت نشيطة حتى نهاية القرن التاسع عشر وبعد ذلك ضعفت واستمر تهريب الرقيق بصورة محدودة . واستهدفت بريطانيا منع تجارة الرقيق لتبرير تدخلها فى الشؤون الداخلية للمنطقة وأن تجارة الرقيق كانت مورداً أساسيًا فى اقتصاديات بعض المناطق مثل زنجبار وعمان ولبعض التجار وشيوخ القبائل والحكام وباعتراف المسؤولين البريطانيين فان معاملة العبد من قبل سيده فى الخليج العربى كانت تختلف عن معاملة العبد فى أوروبا وأمريكا فالعبد فى الخليج العربى كان جزءاً من العائلة ويعامل بصورة عامة معاملة حسنة (٢٢).

مصر والخليج العربى ١٨٣٨ - ١٨٤٠ :

لم تكن بريطانيا تقف ضد حركات التوحيد التى تنبعث من داخل منطقة الخليج العربى فقط؛ وإنما أيضًا وقفت ضد حركات التوحيد الخارجية ومحاولات القوى العربية الكبيرة لتوحيدها على نحو ما حدث خلال الوجود المصرى فى الجزيرة العربية عندما وضح للبريطانيين احتمال وقوف شيوخ القبائل فى ساحل عمان إلى جانب المصريين الذين لم يمض على خروجهم من الخليج العربى أكثر من إثنى عشر عامًا حتى بدأوا يخططون للعودة إليها بدوافع تختلف عن الدوافع التى أدت إلى الحملة الأولى . وكان ذلك عندما بدأ محمد على فى تحقيق حلمه باقامة «الدولة العربية» على أنقاض الدولة العثمانية تضم مصر والعراق والسودان وبلاد الشام واجتيازها الأناضول وتمكنت من هزيمة القوات العثمانية ولم يعد أمام المصرين سوى الاندفاع نحو الجزيرة العربية ، وخشى محمد على من إمكانية استخدام العثمانيين فصل بن تركى قائمقام العثمانى فى نجد للثأر من المصريين والعمل على مهاجمتهم فى سوريا أو تحريض آل رشيد أصدقاء العثمانيين التقليديين فى الجزيرة العربية للهجوم على جناح القوات المصرية المتقدمة أو الموجودة فى سوريا. وكان محمد على يضع ضم الجزيرة العربية ضمن خططه الوحدوية وخاصة الحجاز حيث مكة المكرمة والمدينة المنورة مثل الأيوبيين والمماليك والفاطميين ولما لهذا العمل من صدى لدى العالم الإسلامى الذى يحاول العثمانيون الاحتفاظ به (٢٣).

يعد وصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج العربى من أبرز الأحداث السياسية التى شهدتها المنطقة . ويكفى أن نشير إلى أن هيبة بريطانيا سقطت فى نظر سكان الخليج العربى نتيجة وصول تلك القوات إلى سواحلهم والتى كانت عاملاً فعالاً فى تجميع التيارات الصغيرة والسعى إلى تحقيق الوحدة فيما بينها تحت حكم واحد . وليس أدل من الحرص على تحقيق ذلك الهدف أن التوسع المصرى لم يتجه إلى إمارة معينة وإنما إلى إمارات شرق الجزيرة العربية نظرة شاملة فامتدت محاولات التوسع المصرى شمالاً وجنوبًا فى آن واحد. كما أن احتمال نجاح مصر فى تحقيق الوحدة بين إمارات شرق الجزيرة العربية كان أمرًا مؤكدًا ولم يقف عائقًا دون تحقيقها لذلك الهدف سوى الظروف التى طرأت على الموقف الدولى وإجبار مصر على الانسحاب من تلك الجهات وإن كان مما يسترعى الانتباه أن الجهود المصرية لم تذهب سدى وإنما سيستفيد النجديون منها إلى حد كبير فى محاولة التوسع تجاه شرق الجزيرة العربية (٢٤).

عادت القوات المصرية إلى نجد فى ديسمبر ١٨٣٨ وهناك أدرك خورشيد باشا أهمية الإحساء لمد الجيش بالحبوب من العراق بالإضافة إلى أهميتها الاستراتيجية إذ أنها ستفتح له إمارات الخليج العربى ؛ فراح يطلب من إدارته فى مصر السماح له بالتقدم إلى تلك الإمارات والبلدان وجاء ردها بأنها لاتشجع فتح الإحساء فى هذه الظروف وقواتها متفرقة وهى تفضل منح أهل الإحساء الأمان والتقدم إليهم سلمًا ووافق عباس باشا نائب محمد على على إرسال سفينتين إلى ميناء القطيف ، ولم يطل أمر مبعوث خورشيد إلى سكان الإحساء إذ عاد ومعه وفد من شيوخ قبائل الإحساء ليقدموا فروض الطاعة والولاء . ثم أرسل نائبًا عنه لحكم الإحساء وهو محمد أفندى رفعت الذى لعب دوراً هامًا فى تاريخ الإحساء والمنطقة المجاورة إبان هذه الفترة وعمل فى البداية على إقرار الأمن وضمان خضوع الإقليم لسلطته . وبعدها راح محمد أفندى يفكر فى عقد معاهدة صلح بينه وبين شيخ البحرين الذى كان فى مأزق كبير بعد تقدم القوات المصرية صوب بلاده فى الوقت الذى كان العمانيون والبريطانيون يحاولون ضم بلاده تحت سيطرتهم . وبدأ هذا الحاكم المصرى بالخطوة الأولى فزار البحرين وعرض وجهة نظره على شيخها الا وهى أن تدخل البحرين فى دائرة النفوذ المصرى بموجب معاهدة الصلح وتقدم البحرين بموجبها الزكاة التى ستفرض على بلاده واشترط لقبول حماية المصريين أن يقفوا أيضًا ضد أطماع سلطان عمان وجاء رد خورشيد مؤكداً له أن قيمة الزكاة ليست بذات بال وأن المهم هو الاتفاق والارتباط بالسلطات المصرية خوفًا من وقوع البحرين فى قبضة بريطانيا . وأكد له فى نفس الرسالة أن العلاقات المصرية مع سلطان عمان حسنة جداً وأنه لن يسمح له بالاعتداء على البحرين إذا وافقت الأخيرة على الارتباط بالسيادة المصرية (٢٥).

توجه حاكم الإحساء محمد أفندى فى ٢ / ٥ / ١٨٣٩ إلى قطر عن طريق «العقير» فوصل إلى خورحسان ودارت المفاوضات بينه وبين الشيخ عبدالله بن أحمد حاكم البحرين الذى كان يستفسر عن كل الأمور والأوضاع السياسية التى سوف تترتب على عقد مثل هذه المعاهدة ، وبعد ذلك جرى عقدها بين الطرفين ونصت هذه المعاهدة على دخول البحرين فى السيادة المصرية وتعهد الشيخ عبدالله بن أحمد حاكم البحرين بدفع الزكاة والالتزام بخط السياسة المصرية التى يتبعها خورشيد فى المنطقة ، وكان محمد أفندى حريصًا على تنظيم علاقة البحرين بالإحساء وبالسلطات المصرية هناك . وحرصًا على تنظيم علاقة البحرين بالإحساء وبالسلطات المصرية هناك وحرصًا منه أيضًا على نجاح تلك المعاهدة والأخذ بها مستقبلاً يتبعها ببروتوكول ينظم علاقات الطرفين المتعاهدين وجاء هذا البرتوكول على هيئة شروط .

بعث خورشيد بوكيله إلى كل من الكويت وعربستان فى سبيل الحصول على الغلال اللازمة لجنده . وقد استطاعوا توطيد علاقاتهم بشيوخها إذ كان المبعوث المصرى إلى ديوان شيخ الكويت الشيخ جابر قد حظى بالمقام الأول فى مجلسه واستطاع ذلك المبعوث اقناع حاكمها بأن محمد على من أقوى ملوك الأرض وراحت بريطانيا تنظر إلى ذلك المبعوث بعين الريبة والحذر فأرسلت مبعوثها الذى وصف شيخ الكويت بأنه واقع تحت تأثير المبعوث المصرى وأضاف فى تقرير رفعه إلى حكومة الهند بأن مهمة المبعوث المصرى هى مراقبة النشاط العثمانى فى البصرة ، وأنه يعمل لخدمة أهداف خورشيد العسكرية الرامية للتوسع فى جنوب العراق وأكد أن مهمة جمع الحبوب هذه لاتشكل إلاستاراً يختفى وراءه ذلك المبعوث . كما أضاف فى تقريره أن شيخ الكويت لم يستقبله الاستقبال اللائق كمبعوث لحكومة بريطانيا العظمى وأن بلاده لم ترد على تحية سفينته التى رست على الشاطىء . وإننا قد نعتقد بأن هذا المبعوث البريطانى من خلال كتابته لذلك التقرير كان فى مهمة سرية لمراقبة النشاط المصرى من ناحية ولدراسة موقع الكويت وإمكانيتها من ناحية أخرى وذلك بهدف اتخاذها مقراً للحكم البريطانى إذا ما فكرت حكومته بذلك . ولما كان النشاط المصرى فى الكويت ضئيلاً فلم يحدث ذلك الموقف المتعنت الذى وقفته بريطانيا من التوسع المصرى فى البحرين على الرغم من أن هنيل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى ومبعوثه إلى الكويت تدموند أوصيا بضرورة عدم وقوع ميناء الكويت الهام فى أيدى السلطات المصرية .

لم تكن البحرين والكويت فقط مجالاً للنشاط المصرى وللمعارضة البريطانية ، فقد صدرت أوامر خورشيد إلى سعد مطلق المطيرى الذى عين محافظًا لقلعة الدمام تمهيداً لإرساله فى حملة إلى البريمى وساحل عمان وعمان بالتحرك مع القوات المصرية إلى البريمى وساحل عمان عن طريق البحر ، فقد وصلت تلك القوات المصرية فى شهر مارس ١٨٣٩ إلى الشارقة بساحل عمان فى طريقها إلى البريمى . ومن هناك راح القائد المصرى يرسل رسلاً إلى القبائل العمانية من النعيم والبوشامس يطلب إليهم تسليم واحة البريمى ، ولكنهم رفضوا ذلك وقالوا بأن البوشامس والنعيم من رعايا عمان وكان هذا الموقف الرافض راجعًا إلى تحريض السلطات البريطانية ضد الوجود المصرى وخاصة من هنيل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى الذى زار ووعد القبائل العمانية من البوشامس والنعيم بالحماية وتقديم المساعدة اللازمة لهم فى مقاومة سعيد مطلق المطيرى والقائد المصرى ولمشاريع مصر التوسعية فى المنطقة كما أجرى هنيل اتصالات مع شيوخ القبائل فى ساحل عمان وأفهمهم رغبة بريطانيا فى عدم تقديمهم أى مساعدة لسعد مطلق المطيرى وخاصة الشيخ سلطان بن صقر الذى كان القائد

المصرى ينزل فى ضيافته . ولم يكن نشاطه مقصوراً على البريمى فقد راح يرسل رسائله إلى هلال وثوينى إبنى سلطان عمان ويطلب منهما مساعدته فى مهمته فى البريمى وعمان وعليهم إبداء الطاعة ودفع الزكاة (٢٦).

هنا راح سعيد بن سلطان حاكم عمان يطلب من محمد على الضغط على عامله سعيد مطلق لمصيرى بعدم استفزاز أبنائه وفعلاً أصدر محمد على إرادته رقم (٣٥) فى ٩ / ١ / ١٨٤٠ يأمر فيها الأمير خالد بن سعود نائب محمد على حاكم نجد بعدم إرسال مثل تلك الرسائل وبعدم الاستمرار فى إغضاب حاكم عمان وعليه أن يرسل اعتذاراً عمّا بدر منه .

مقاومة بريطانيا الوجود المصرى فى الخليج العربى :

عودة المصريين إلى الخليج العربى بعد عقدين أسفر عن نتائج بالغة الأهمية حددت المسار التاريخى لكثير من أحداث الخليج العربى خلال العقود المتبقية من هذا القرن . والغريب حقًا أن البريطانيين سعوا خلال الوجود المصرى فى المرة الأولى عام ١٨١٨ للتعاون معهم على عكس موقفهم منهم فى المرة الثانية . ولعل السبب فى ذلك يعود إلى أن البريطانيين عندما أبدوا رغبتهم فى إيجاد صيغة للتعاون مع المصريين عام ١٨١٩ فانهم كانوا يهدفون إلى الاستعانة بالقوات المصرية ضد قبائل ساحل عمان الذين كانوا يقاومون الاستعمار البريطانى والذى لم يخش على نفوذه فى الخليج العربى من المصريين على اعتبار أن ظهورهم فيها وقتى بتكليف من الدولة العثمانية ولمهمة محددة . غير أن نظرة البريطانيين تلك لم تلبث أن تغيرت عام ١٨٣٨ عندما عاد محمد على للظهور بقواته فى الخليج العربى عقب نجاحه فى ميادين القتال المختلفة إذ أدرك البريطانيون احتمال قيام المجابهة معه هذه المرة خصوصًا بعدما لمسوا خطورة النتائج التى قد تترتب على نشاط قواده ومبعوثيه لدى شيوخ الإمارات العربية فى المنطقة مما يعطينا تفسيراً لحالة الذعر التى انتابت المسؤولين البريطانيين والتى تمثلت فى إسراع هؤلاء فى الذهاب إلى الخليج العربى لمقابلة شيوخ القبائل العربية لتحذيرهم من التعاون مع المصريين وللحصول على تعهدات مكتوبة منهم بذلك والتى تمثلت كذلك فى قيامهم بدراسة إمكانيات البحرية الهندية لارسال بعض سفنها إلى الخليج العربى لاستعراض قوتها أمام القوات المصرية من ناحية وبعث الثقة لدى شيوخ القبائل العربية فى قدرة بريطانيا البحرية من ناحية أخرى (٢٧).

بذلك أثر وصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج العربى فى تطور علاقة بريطانيا بشيوخ القبائل فى المنطقة إذ لم تقتصر أهداف بريطانيا على مراقبة الأوضاع البحرية فى المنطقة وإنما امتدت أهدافها إلى أبعد من ذلك فى فرض الحماية الاستعمارية ، وتقول

المصادر البريطانية أنه بينما كانت بريطانيا تعمل على تأكيد اتفاقية الهدنة البحرية بما يكفل فرض السلام البريطانى على المنطقة أخذت الأحداث والأخطار تعم الخليج العربى بسبب التوسع المصرى الذى كان مناقضًا للضمانات التى قدمها محمد على لممثل بريطانيا فى القاهرة بأن توسعاته فى الجزيرة العربية لن تصل إلى سواحل الخليج العربى . وهذه الضمانات لم يلتزم بها محمد على أو على الأقل خورشيد قائد القوات المصرية الذى استهدف إخضاع البحرين وساحل عمان وعمان . ومن ثم اتجهت بريطانيا إلى إثارة شيوخ القبائل ضد التوسع المصرى مستخدمة الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى كما أوفدت حكومة بومباى بعض ضباطها إلى البريمى للعمل على إثارة قبائل النعيم والبوشامس العمانية ضد التحركات المصرية كما توسطت بريطانيا فى إنهاء النزاع الذى كان قائمًا بين حاكم عمان وابن عمه حمود بن عزان الذى انفصل بصحار حيث أبرم بين الطرفين بواسطة الحكومة البريطانية لمقاومة التوسع المصرى تجاه ساحل عان وعمان عام ١٨٣٩ .

أظهر التوسع المصرى تعاطفًا كبيراً لدى شيوخ القبائل فى ساحل عمان ومن المحتمل أن يكون ذلك تعبيراً عن مناهضتهم للضغوط البريطانية التى كانوا يعانون من آثارها ومن ثم فان وصول القوات المصرية جعل التعامل مباشرة مع أولئك الشيوخ ، كما نبه بريطانيا إلى خطورة الأوضاع على أحد المنافذ الحيوية الموصلة إلى مستعمراتها فى الهند ومن ثم عملت على إحكام حلقات سيطرتها على ساحل عمان والبحرين وعمان فى أعقاب انسحاب القوات المصرية عام ١٨٤٠ . حقيقة أن بريطانيا تنبهت إلى أهمية المنطقة بعد الحملة الفرنسية ولكنها لم تصل إلى توطيد علاقاتها الاستعمارية مع ساحل عمان والبحرين إلا بعد أن نبهها التقدم المصرى إلى ضرورة توطيد تلك العلاقات وهو الأمر الذى تحقق لها بعد الانسحاب المصرى ، كما تخوفت بريطايا من أهداف محمد على الذى كان يسعى لقيام دولة عربية كبيرة وأن نجاحه فى تحقيق ذلك الهدف كان يشكل خطراً كبيراً على بريطانيا لأن سيطرته على سواحل الخليج العربى والبحر الأحمر يجعله يتحكم فيهما وهما المنفذان الحيويان لبريطانيا . ولهذا فانها تصدت للقوات المصرية فى ساحل عمان والبحرين كما بذل محمد على عدة محاولات للسيطرة على المناطق التى لم تكن قد امتدت إليها السيطرة البريطانية فى السواحل الشمالية الغربية من الخليج العربى ونعنى بذلك البحرين والكويت والبصرة بل والعراق كله . كما أن التقارير التى كان يتلقاها خورشيد القائد المصرى من البصرة وبغداد كانت تكشف عن تدهور الأوضاع فى هاتين الولايتين العثمانيتين حتى أن بعض القوات العثمانية فى البصرة تمكنت من الفرار لكى تلحق بقوات خورشيد فى الإحساء (٢٨).

خشيت بريطانيا من سيطرة المصريين على جنوب العراق فراحت تعزز وجودها هناك باحتلالها لجزيرة الخرج فى ١٩ / ٦ / ١٨٣٨ كما قامت باحتلال عدن لإغلاق باب المندب أمام القوات المصرية فى البحر الأحمر ومنعها من الاتصال بقواتها المتواجدة فى الخليج العربى. ولذلك لم تكن التحركات النشطة التى قام بها خورشيد ونائبه حاكم الإحساء محمد أفندى على سواحل الإحساء والبحرين والكويت ترى فيها خطراً على وجودها هناك لأنها كانت تدرك أهداف محمد على التوسعية بعد صلح «كوتاهية» عام ١٨٣٣ لتحقيق الوحدة العربية ووصوله إلى مياه الخليج العربى وسيطرته على هذا الممر المائى الاستراتيجى من أهم الأهداف التى سعى إلى تحقيقها لإقامة دولته المنشودة .

لذا رأت بريطانيا فى محمد على منافساً خطيراً على وجودها فى الخليج العربى إذ كانت سياسته تعمل فى اتجاه معاكس تماماً لسياستها المعهودة بـ «فرّق تَسُد» فبينما كانت بريطانيا تكرس الفرقة بين إمارات المنطقة وتحوله إلى كيانات صغيرة مستقلة إسمياً تحت نفوذها كانت خطة محمد على ترمى لتوحيد هذه الإمارات فى كيان واحد ضمن دولة الوحدة التى كان يتطلع إلى تأسيسها .

أرادت بريطانيا أن تحد من تقدم القوات القوات المصرية فى ساحل عمان والبريمى ، فقد احتج هنيل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى على تحركات القائد المصرى سعد المطيرى نحو البريمى وساحل عمان وعمان فى رسالة بعث بها إلى خورشيد فى ٢٧ أغسطس ١٨٣٩ ، وقبل ذلك كان هنيل قد زار معظم موانىء الخليج العربى وأقنع شيوخها بعدم مساعدة القائد المصرى . فى ساحل عمان والبريمى أو الانقياد له وأكد على الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة بالذات أن يسارع فى ترحيل سعد مطلق المطيرى مع قواته المصرية من أراضيه واعداً إياه بتقديم المساعدة اللازمة له من إمداد بالمال والسلاح إذا هو تخلى عن سعد المطيرى القائد المصرى كما أخذ هنيل تعهدات من شيخ أبوظبى وشيخ دبى وعجمان والشارقة وأم القيوين بعدم إنضمامهم أو تأييدهم للمبعوث المصرى .

رجع سعد مطلق المطيرى مرغماً بعدما فقد أمله فى مساعدة أولئك الشيوخ ولكنه قبل عودته كان قد أرسل إلى خورشيد يطلب منه العون والإمدادات الحربية وكان الأخير قد بعث على الفور إلى وكيله ونائبه على الإحساء محمد أفندى يأمره بتجهيز حملة لمساعدة سعد مطلق المطيرى. ولكن عودته المفاجئة أوقفت تلك الحملة مما أغضب خورشيد وراح يستدعيه إلى نجد لكى يقوم بمحاسبته وعقابه على عدم الإلتزام بمهمته ورجوعه دون إذن قائده (٢٩)،

ولكن أوامر القاهرة لخورشيد بالنسحاب كانت قد صدرت إليه فى هذه الآونة فى أكتوبر ١٨٣٩ مما حال دون إخضاع ساحل عمان للسيطرة المصرية .

الانسحاب المصرى من الخليج العربى :

لم توضع سياسة استعمارية عامة وثابتة لمواجهة الأوضاع المستجدة فى الخليج العربى موضع التطبيق إلا كردة فعل لمواجهة النهضة المصرية بقيادة محمد على بخاصة بعد ضمه لسوريا وكان مؤشراً خطيراً يلحق ضرراً بالمصالح الاستعمار الأوروبية بعدما نظرت الحركة التقدمية المصرية إلى المستقبل واستهدفت الخطة الاستعمارية الأوروبية وضع سياسة خاصة بحماية الدولة العثمانية ومنع الحركة التقدمية فى مصر من تحقيق أهدافها الوحدوية تحت سياسة تأمين استقلال ووحدة أراضى الدولة العثمانية ، فى حين نظر إلى الخليج العربى والجزيرة العربية على أنها منطقة نفوذ ثابتة لبريطانيا منفصلة كليًا عن الدولة العثمانية وتشرف عليها إدارة المستعمرات البريطانية عن طريق حكومة الهند (٣٠).

تكالبت الدول الاستعمارية الأوروبية ضد الحركة التقدمية فى مصر ونجحت بريطانيا فى تأليب الدول الكبرى ضد محمد على على نحو أخذت آثاره ونتائجه تظهر فى الأفق بعد هزيمة الجيش المصرى فى بلاد الشام على أيدى قوات التحالف الدولى المشترك فى نوفمبر عام ١٨٤٠ والتى حددت نهاية مشروع الدولة الوحدوية لمحمد على فى المنطقة العربية ، فبواسطة الاتفاقات المعقودة بالاسكندرية فى ديسمبر ١٨٤٠ وافق محمد على على التنازل عن ملكيته للشام واضنة وكريت والجزيرة العربية وتسليم الأسطول التركى للسلطان العثمانى وبتخلى محمد على عن الجزيرة العربية لم يتخل عن انتصارات خورشيد باشا فى القصيم ونجد والإحساء وجهوده فى منطقة الخليج العربى فحسب ، بل سلم الحجاز والمدن المقدسة واليمن كذلك ، وهناك بعض الأسباب التى أدت إلى توقف النشاط المصرى فى الخليج العربى ولعل من أبرزها وأهمها ما يلى (٣١):

١- التحرك البريطانى السريع المتمثل فى قيام المسؤولين البريطانيين بالاتصال بشيوخ القبائل فى الخليج العربى لتحذيرهم من الاتصال بالقواد والممثلين المصريين فى الجزيرة العربية والتلويح لهم بتقديم الحماية اللازمة إزاء أية أخطار قد تتهددهم والمتمثل كذلك فى قيامهم بالاتصال بخورشيد وسعد مطلق المطيرى لتحذيرهما من الاستمرار فى تحركاتها فى المنطقة مما قد يسىء إلى العلاقات المصرية - البريطانية وتقديم النصائح لهما بوجوب الرجوع إلى السلطات الحاكمة فى القاهرة للتعرف على رأيها

أولاً بأول قبل الإقدام على الحركة هادفين من وراء ذلك إلى عرقلة نشاطهما لإفساح المجال أمام المسؤولين البريطانيين لوضع المخططات اللازمة لإحباط مهمة محمد على حصرها والقضاء عليها .

٢- الضغط البريطانى المتزايد على السلطات الحاكمة فى القاهرة الذى أسفر عن عدم تلبيتها لرغبة خورشيد فى الحصول على بعض السفن المصرية لنقل الجنود والمؤن والمعدات لتسهيل مهمته فى منطقة الخليج العربى ثم قيام البريطانيين بالضغط على شيوخ القبائل العربية فى تلك المنطقة لمنعهم من تقديم سفنهم لخورشيد مما حال دون تمكنه من نشر نفوذ محمد على فى تلك الجهات .

٣- غموض الموقف فى الجبهة الشامية - التركية بين القوات المصرية والعثمانية وتأزم الموقف الدولى ونجاح البريطانيين فى تجميعه ضد محمد على مما شغل والى مصر عن تقديم مساعداته لقائده فى الجزيرة العربية وعن إعطائه الأوامر للتحرك لمواصلة نشاطه على امتداد السواحل الغربية للخليج العربى .

أسفرت عدة نتائج عن الانسحاب المصرى من الخليج العربى ومن أهمها إتاحة الفرصة أمام عودة النفوذ العثمانى للجزيرة العربية بعد وصولهم إلى مياه الخليج العربى وامتداده على جزء كبير من الساحل الغربى منه حتى عام ١٩١٤ ، واستغلال البريطانيين فرصة الفراغ الناجم عن خروج المصريين من الخليج العربى وعجز العثمانيين عن ملء هذا الفراغ لكى يزيد البريطانيون صلتهم عن طريق التدخل فى شؤون القبائل العربية فى ساحل عمان وعمان والبحرين وإبرام الاتفاقيات المانعة .

الهوامش

١- د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص١٢٤ .

٢- د. محمد عرابى نخلة - تاريخ الإحساء السياسى ص٣٦ .

٣- د. محمد على نخلة - نفس المرجع ص٤١ .

٤- د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص١٩٨ .

٥- د. بدر الدين عباس الخصوصى - نفس السابق ص١٩٨ .

٦- سليم طه التكوينى - المرجع السابق ص١٠٩ .

٧- سليم طه التكوينى - نفس السابق ص١٠٩ .

٨- د. جمال زكريا قاسم - الخليج العربى عصر التوسع الأوروبى الأول ص٣٢٧ .

٩- سليم طه التكوينى - المرجع السابق ص١١٨ .

١٠- سليم طه التكوينى - نفس السابق ص١٢٢ .

١١- د. فؤاد سعيد العايد - المرجع السابق ص٨٥ .

١٢- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص١٩٨ .

١٣- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٣٣٦ .

١٤- سيد نوفل - الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة ص٧٤ .

١٥- سيد فاروق حسنت - مسح تاريخى للمصالح الأوروبية فى منطقة الخليج العربى ص٩٠ .

١٦- بوندار يفسكى - الغرب ضد العالم الاسلامى ص١٣٠ .

١٧- د. فؤاد سعيد العابد - امرجع السابق ص١٨٨ .

١٨- د. اسماعيل زحمد ياغى - بريطانيا وتجارة الرقيق ص١٨٧ .

١٩- د. خالدون النقيب - المرجع السابق ص٨٧ .

٢٠- د. اسماعيل أحمد ياغى - المرجع السابق ص١٨٩ .

٢١- د. عبد المالك التميمى - الكويت والخليج العربى ص٢٢٦ .

٢٢- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٢٤٥ .

٢٣- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص٢٨٥ .

٢٤- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٤٥٣ .

٢٥- د. محمد عرابى نخلة - المرجع السابق ص٧٦ .

٢٦- د. محمد عرابى نخلة - نفس السابق ص٧٦ .

٢٧- د. بدر الدين عباس الخصوصى - محمد على والخليج العربى ١٨٣٨ - ١٨٤٠ ص٩٩ .

٢٨- د. جمال زكريا قاسم - المرجع الساق ص٤٥٦ .

٢٩- د. محمد عرابى نخلة - المرجع السابق ص٩٦ .

٣٠- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص١٠٦ .

٣١- د. بدر الدين عباس الخصوصى - المرجع السابق ص٧٩ .

الفصل الخامس

التنافس الانكلو - عثمانى فى الخليج العربى ١٨٤٠-١٩١٤

الإحساء فى أعقاب الانسحاب المصرى ١٨٤٠ - ١٨٤٣ .

القائمقام العثمانى فيصل بن تركى وضم الإحساء لنجد .

اهتمام العثمانيين بالإحساء ١٨٦١ - ١٨٧١ .

الحملة العثمانية على الساحل الغربى من الخليج العربى ١٨٧١ .

التنافس الأنجلو - عثمانى فى خور العديد .

بريطانيا والاتفاقيات المانعة .

بريطانيا وعمان واتفاقية ١٨٩١ .

اللورد كيرزون والسياسة الاستعمارية ١٩٠٣ .

النشاط الروسى فى الخليج العربى

بريطانيا وألمانيا .

التنافس الأنجلو - عثمانى فى الخليج العربى

الإحساء فى أعقاب الانسحاب المصرى ١٨٤٠ - ١٨٤٣ :

حاول على رضا والى العراق العثمانى بعد الإنسحاب المصرى استمالة قائده خورشيد ليسند إليه أمر الجزيرة العربية التى أبدى الأخير مهارة فائقة فى السيطرة على قبائلها ، كما أنه كان يحظى بتأييد بعض قبائل جنوب العراق كالمنتفق الذين بعثوا إليه بعريضة يطلبون فيها انضمامهم إليه. وليس أدل على شعبية خورشيد فى جنوب العراق آنذاك من التأييد الذى أعلنته إحدى الكتائب العثمانية إذ فرت على سفن كويتية والتحقت بقوات خورشيد فى الإحساء ، وكان على رضا الذى أسندت إليه ولاية جدة بالإضافة إلى ولاية العراق يبحث عن نائب له ليعينه على تلك الولاية فرأى فى خورشيد خير من يصلح لذلك المنصب . ولكن خورشيد رفض العرض الذى قدمه والى العراق وآثر الانسحاب منفذاً لأوامر سيده مطيعًا لشرفه العسكرى .

تركت القوات المصرية المنسحبة فراغًا كبيراً ولكن الدولة العثمانية التى عادت لها السيطرة على المنطقة باسم والى بغداد لم تحسن استغلال تلك الفرصة لتقوم بتدعيم سلطاتها فى تلك الجهات ، وعملت السلطات العثمانية فى العراق على أن ترث الحكم المصرى فى الجزيرة العربية إذ برزت فى أذهان العثمانيين أهمية الجزيرة العربية بعد الإنسحاب المصرى وبدأوا يفكروا من جديد فى العودة إليها ، فراح الباب العالى يصدر فرمانًا باسناد ولاية جدة وتوابعها نجد والإحساء إلى والى العراق على رضا الذى عين من قبله نائبًا عنه ليقوم بأمور ولاية جدة . وطلب من السلطات البريطانية أن تحمل نائبه المتوجه إلى مركز عمله فى جدة على ظهر إحدى السفن الحربية البريطانية خوفًا من أن تتعرض له القوات المصرية ، ورحبت السلطات البريطانية فى الخليج العربى بذلك ونقلت نائب الوالى العثمانى إلى مقر عمله على إحدى سفنها المتوجهة إلى هناك وكانت الدولة العثمانية بذلك تعود إلى حكم الجزيرة العربية ومعها النفوذ البريطانى . ولم يحاول على رضا تغيير الأوضاع المحلية فى الجزيرة العربية فترك خالد بن سعود أميراً على نجد وترك أحمد بن مبارك يدير شؤون الإحساء [١].

على الرغم من أن خالد بن سعود لايملك القوة الكافية لتدعيم حكمه إلا أننا نراه فى أكتوبر عام ١٨٤١ يزحف إلى الإحساء ومن هناك راح يعد حملة لإرسالها إلى البريمى لاخضاعها لنفوذه؛ ولكنه واجه معارضة قوية من السلطات البريطانية فى الخليج العربى . وفى ديسمبر من عام ١٨٤١ كان قد أطيح بخالد بن سعود من قبل أحد أمراء البيت السعودى وكان ذلك عبد الله بن ثنيان. ولم يستطع خالد المقاومة بل سارع إلى الفرار تجاه الإحساء .

بمجرد استيلاء عبدالله بن ثنيان حاكم نجد على الإحساء أخذ يتطلع إلى التوسع تجاه البحرين وساحل عمان وعمان فبدأ على الفور يرسل الكتب إلى شيوخ إمارات الخليج العربى ويدعوهم إلى تأييد ومناصرة القائد الذى سيرسله إلى البريمى وساحل عمان وعمان . وكان فى طريقه لإرسال سعد مطلق المطيرى ولكنه واجه موقفًا صلبًا من بريطانيا التى بعثت مقيمها السياسى فى الخليج العربى إلى شيوخ القبائل فى ساحل عمان والذين طلب منهم أن يطلعوه على الكتب التى وجهها إليهم عبد الله بن ثنيان ولقد أعطوه إياها جميعًا إلا شيخ أبوظبى الذى رفض ذلك الطلب وأنكر حق بريطانيا فى المطالبة بذلك الكتاب وادعى أن من حقه فقط الاحتفاظ به . وبعدها أرسل المقيم السياسى البريطانى إلى عبدالله بن ثنيان رسالة احتج فيها على مخططه التوسعى فى الخليج العربى وأوضح له بأن بريطانيا لن تقف مكتوفة الأيدى تجاه مخططاته التوسعية .

تخوف بريطانيا من عبدالله بن ثنيان جعلها تتجه إلى فيصل بن تركى لإطلاق سراحه من سجنه فى مصر فقد بعث الكابتن هنيل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى برسالة إلى محمد على يرجوه فيها الإفراج عن فيصل بن تركى خاصة وأن حملة خورشيد التى وجهت ضده قد انتهت . ولهذا فان الإفراج عنه كان له هدف خاص يتصل بسياسة مصر الخارجية . ويمكن القول بأن التدخل البريطانى كان سببًا فى إطلاق سراح فيصل بن تركى من السجون المصرية ، ونحن نعلم بأن البريطانيين كانوا لايرغبون فى عبدالله بن ثنيان الذى كان متدينًا ومتعصبًا ضد الاستعمار البريطانى ويعتبره دخيلاً ومغتصبًا فى الخليج العربى وكان يريد تحرير إمارات الخليج العربى المرتبطة بالاتفاقيات مع بريطانيا .

عاد فيصل بن تركى إلى نجد عن طريق جبل شمر حيث لقى الترحيب والإكرام من صديقه القديم شيخ الشمر عبدالله بن رشيد الذى كان قد ساعد فيصل فى إعادته من الإحساء إلى حكم نجد فى عام ١٨٣٤ واليوم كذلك فانه سوف يساعده لإعادته إلى الحكم ضد عبدالله بن

ثنيان . وكان قد جرى تهريب فيصل بن تركى من قبل السلطات المصرية التى كان عبدالله بن ثنيان يناصبها العداء فموقفه من بقايا تلك القوات التى كانت مع خالد بن سعود معروف تمامًا ، وربما كان لطلب بريطانيا وقع يوافق ما فى نفس محمد على ولكنه لم يطلق سراحه علنًا خوفًا عليه من ابن ثنيان وخوفًا من أن يقف أهل نجد منه موقفًا معارضًا كما وقفوا من خالد بن سعود حيث كان فيصل مثل خالد كلاهما فى السجون المصرية ، فيتهم سكان نجد فيصل بن تركى بالعمالة لمصر ولذا راحت السلطات المصرية تهربه إلى جبل شمر . وربما كان عباس باشا هو الذى نفذ تلك العملية بصورة سرية ولكى يتمكن من أداء دوره فى حكم نجد هذه المرة ولكن دون معارضة والى مصر أو الدولة العثمانية التى أصدرت فرمانًا وعينته بموجبه قائمقام عثمانى فى نجد على أن يدفع الزكاة والضرائب إلى الأشراف فى الحجاز . كما بعث فيصل بن تركى إلى المقيم السياسى البريطانى أكثر من مرة بعد عودته من مصر يؤكد تبعيته للباب العالى كما أن ديوانه لم يخل من موفدى والى مصر (٢).

فيصل بن تركى وضم الإحساء لنجد :

عاد فيصل بن تركى بمساعدة مصر وعبدالله بن الرشيد إلى نجد فى يونيو ١٨٤٣ وزحف نحو الرياض وحاصر عبدالله بن ثنيان الذى أذعن له ، وعندما استقر له الوضع فى نجد اتجه إلى الإحساء . وكان فيصل بن تركى يعلم بأن منطقة الإحساء ما زالت تحت سيطرة قبائل البدو الأشداء خاصة العجمان وآل مرة والهواجر الذين لم يعرفوا الخضوع المطلق لأى حكم ولذا نرى فيصل بن تركى يخرج فى أوئل عام ١٨٤٤ إلى الإحساء بجيوشه غازيًا لقبائلها فأغار على المناصير وبنى هاجر وآل مرة وعمل فى تلك القبائل قتلاً وسبيًا ؛ كما أنه جردهم من أموالهم ثم انطلق بعد ذلك إلى حصن الدمام الذى كان تحت سلطة مبارك ابن شيخ البحرين فحاصره إلى أن استسلم من فيه ، وما كاد فيصل بن تركى ليستريح من عناء مقارعة القبائل العربية فى الإحساء حتى وصلت إليه أخبار مقلقة من جديد والتى تتلخص فى أن الشيخ فلاح بن حثيلين زعيم قبيلة العجمان قد خرج عليه فاهتم فيصل بالأمر كثيراً وتتبع الشيخ فلاح بن حثيلين حتى ظفر به عام ١٨٤٦ فأرسله إلى الإحساء مكبلاً بالأغلال حيث طيف به فى أسواق الهفوف ثم ضربت عنقه . إلا أن قتل زعيم العجمان وإن كان قد أرهب شيوخ القبائل الأخرى وساعد فى استقرار الأمن قد أحدث جرحًا مؤلمًا فى قلوب العجمان مما دفعهم إلى التمرد والثأر من فيصل بن تركى وفى عهد أبنائه من بعده ؛ بل جعلهم يلعبون

دوراً بارزاً فى الحرب الأهلية التى نشبت بين أبناء فيصل بعد موته إذ راح العجمان ينضمون إلى سعود بن فيصل الذى خرج على أخيه عبدالله ثائراً مما كان له أوخم النتائج على أسرة آل سعود التى عانت من الحرب الأسرية على الحكم ردحًا من الزمن عندما جاء العثمانيون ليحكموا الإحساء ونجد حكمًا مباشراً .

لم يكن العجمان وحدهم من القبائل العربية فى الإحساء الذين أعلنوا التمرد على أسرة آل سعود فهناك قبائل بنى مرة الذين لايقلون بأسًا عن العجمان والذين يمتون إلى العجمان بصلة النسب والمصاهرة والجوار. وكان هؤلاء لايتورعون بين الفينة والأخرى عن القيام بأعمال التمرد ضد أسرة آل سعود مما اضطر فيصل بن تركى إلى أن يقوم بحملة حربية لإخضاعهم فى عام ١٨٥١ . وقد استطاع أن يحقق بعض النجاح فى مهمته بل اعتبر فيصل بن تركى أول أمير يستطيع إخضاع قبائل آل مرة الأقوياء الأشداء ونجده أيضًا فى شتاء العام التالى ١٨٥٢ يغادر نجد مع ابنه عبدالله إلى الإحساء لاخضاع قبائل آل مرة لحكمه وكذلك قبائل المطير فقسم فيصل جيشه الكبير إلى قسمين : اتجه هو بقسم إلى الشمال حيث هاجم قبيلة المطير كما أن ابنه عبدالله استطاع الحاق الهزيمة بآل مرة كما أمر ابنه عبدالله بمهاجمة قبائل المناصير وبنى هاجر القطرية فقام بأداء المهمة وألحق بهم خسائر فادحة فى منطقة سلوى.

قام العجمان بتمرد آخر فى مارس ١٨٦٠ فى منطقة الإحساء مما أثار غضب فيصل عليهم من جديد بعد أن كان قد أقر زعيمهم الجديد راكان بن حثيلين السابق الذى أعدم فى الهفوف قبل سنوات بخضوعه لفيصل ، ولكن فعلة العجمان هذه تحمل معنى الثورة فجهز فيصل ابنه عبدالله بجيش قوى وأمره بأن يهاجم ويخمد هذا التمرد. وسارت جيوش آل سعود إلى أن لحقت بهم فى الوفرة داخل حدود الكويت فهاجمتهم واضطرتهم إلى الانسحاب شمالاً وتتبعتهم حيث وجدت بعض أفراد العجمان قرب آبار الصبيحية فى الكويت فألحقت بهم الهزيمة هناك . وكان راكان بن فلاح بن حثيلين زعيمهم يعسكر فى جمع من أتباعه فى منطقة ملح القريبة ، فلما علم بما جرى لقومه أخذ يعد العدة للانتقام ولكن جيش آل سعود عاجله فدارت معركة حامية الوطيس فى ٣ / ٤ / ١٨٦٠ استبسل الطرفان فى سبيل تحقيق النصر ولكن الغلبة كانت لعبدالله بن فيصل الذى احتل معسكر العجمان فى الجهراء فى الكويت وأخذ يوزع الغنائم والأسلاب بين جنده . أما العجمان وشيخهم فقد التجأوا إلى حاكم الكويت ونزلوا فى حمى شيخها آنذاك صباح الثانى بعد أن تكبدوا من الخسائر حوالى

سبعمائة قتيل وكان عبدالله بن فيصل يريد القضاء المبرم على العجمان فأرسل أحد رسله إلى شيخ الكويت يطلب منه إخراجهم واعتبر شيخ الكويت ذلك منافيًا للآداب العربية ورفض إخراج العجمان الذين نزلوا فى بلاده وطلبوا الحماية منه ، بل راح يعلن للرعايا النجديين الموجودين فى الكويت أن بامكانهم مغادرة الكويت والإلتحاق بعبدالله آل سعود إذا أرادوا ذلك ، ولما علم فيصل بن تركى بذلك أسف وأرسل مبعوثا ليعتذر عما بدر منه (٣).

تحالف العجمان مع قبائل المنتفق وأخذوا فى العام التالى يعترضون ويهاجمون مصالح آل سعود بين الإحساء ونجد فأرسل فيصل من جديد ابنه عبدالله على رأس جيش كبير لقتالهم وأسرع لمحاصرة العجمان فى الجهراء داخل الكويت . ودارت هناك معركة قاسية ومريرة هزم فيها العجمان وأجبرتهم قوات آل سعود على التراجع إلى شاطىء البحر ، فغرق منهم عدد كبير يقدر بحوالى ألف وخمسمائة رجل وسميت تلك المعركة بوقعة «الطبعة» ، وهكذا استطاع فيصل أن يقمع ثورات العجمان بعد أن استطاع كبح تمرد بنى مرة الأشداء .

أخذ محمد بن عبدالله ابن حاكم البحرين السابق فى هذه الفترة مقاومة شيخ البحرين إنطلاقًا من الدمام وحاول غزو البحرين ولكن أحبطت محاولته عن طريق الأسطول البريطانى الذى قام بطرد محمد بن عبدالله من الدمام باستخدام القوة وقصف الأسطول البريطانى موانىء الإحساء فى نوفمبر ١٨٦١ ، وأثارت تلك الأعمال احتجاج السلطات العثمانية فى العراق على أساس أن الدمام تابعة لفيصل بن تركى الذى كان قائمقام نجد وتابعًا من أتباع الباب العالى وأرضه جزء من أملاك السلطان العثمانى الموروثة .

بعد وفاة فيصل بن تركى تسلم ابنه عبدالله قائمقامية نجد العثمانى عام ١٨٦٥ ولكن أخاه سعود عارضه وفر إلى عسير طالبًا المساعدة فى سبيل الإطاحة بأخيه . ولما لم يجد مساعدة من آل عائض اتجه صوب نجران فى اليمن وهناك وفد عليه العجمان وألف منهم جيشًا مع بعض القبائل الأخرى وزحف إلى نجد . وجرت بين الأخوين معركة ففر إلى بادية الإحساء ولجأ إلى بنى مرة الذين ضمدوا جراحه ثم ارتحل إلى البريمى محاولاً إيجاد حليف له هناك ، ولجأ سعود إلى عزان بن قيس فى عمان الذى قدم له المساعدات اللازمة وشجعه على المضى فى قتال أخيه ثم غادر سعود عمان إلى البحرين وأخذ شيخه وكذلك السلطات البريطانية يشجعونه ضد أخيه وقدموا له المساعدات اللازمة وخاصة بريطانيا التى كانت تعارض عبدالله بن فيصل لميوله تجاه العثمانيين وعداؤه لبريطانيا . وتمكن سعود من الاتصال

ببعض قبائل الإحساء كالعجمان وآل مرة وبنى خالد واستطاع أن يجمع بين ألفين إلى خمسة آلاف رجل فى ثلاثة أسابيع ودارت المعركة بين الأخوين فى ٢٠ / ١٢ / ١٨٧٠ وكانت حامية واستطاع إبانها الشيخ راكان بن فلاح بن حثيلين زعيم العجمان وعدو عبدالله بن فيصل . القديم أن ينتقم ويثأر من معركة الطبعة والجهراء السابقة التى غرق فيها أكثر من ١٥٠٠ من رجاله وتم سحق جيش عبدالله بن فيصل وفى العام التالى زحف سعود إلى الرياض واستولى على الحكم فى أبريل ١٨٧١ وفر أخوه عبدالله هاربًا إلى قبائل قحطان ومن هناك بعث برسول إلى والى العراق مدحت باشا يستنصره ضد أخيه فوافق الأخير وأرسل حملة على الإحساء فى يوليو ١٨٧١ .

اهتمام العثمانيين بالإحساء ١٨٦١ -١٨٧١ :

اهتمام العثمانيين بالخليج العربى كان قد أثار مخاوف البريطانيين عندما بعث أحمد توفيق باشا والى العراق فى عام ١٨٦١ رسالة موجهة إلى كمبول القنصل البريطانى فى بغداد احتج فيها على سياسة المقيم السياسى البريطانى فلكس جونز الذى كان قد هاجم الدمام التابعة للأمير فيصل بن تركى . ولقد صرح والى العراق فى احتجاجه بأن فيصل بك قائمقام عثمانى وأن الدمام أرض عثمانية لايحق للبريطانيين مهاجمتها وكان كمبول قد أرسل نسخًا من تلك الرسالة مع تعليقه عليها إلى كل من السفير البريطانية فى اسطنبول وإلى حاكم الهند العام . وأكد فى رسالته أنه لايستطيع إنكار أن الأمير السعودى تابع للدولة العثمانية وأن منطقة الدمام تابعة له ، وهذا يعنى بأن الأمير فيصل بن تركى كان قائمقام عثمانى. ويؤكد لنا ذلك بأن فيصل بن تركى كان يدفع الضرائب والزكاة لشريف الحجاز الذى كان بدوره أيضًا تابعًا للدولة العثمانية. وبعد وفاته تولى ابنه عبدالله بن فيصل قائمقامية نجد العثمانى (٤).

عندما قصفت مدفعية الأسطول البريطانى قلعة الدمام فى فبراير ١٨٦٦ على ساحل الإحساء احتجاجًا على سياسة عبدالله بن فيصل القائمقام العثمانى الجديد فى نجد على أثر تدخله فى الشؤون الداخلية «لعمان» ، مما دفع عبدالله بن فيصل أن يبعث وفداً فى ٢٩ مارس عام ١٨٦٦ إلى والى العراق برئاسة عبدالعزيز بن سويلم ليطلب من نامق باشا العون والمساعدة لصد الاعتداءات المتكررة التى تتعرض لها سواحل بلاده من قبل السلطات البريطانية . فأرسل نامق باشا والى العراق احتجاجًا إلى القنصل البريطانى فى بغداد كمبول

على تلك الأعمال وطلب إليه أن ينقل احتجاجه إلى حكومة الهند ويطلب منه عدم تكرار الاعتداء على الأراضى العثمانية ، ونقل كمبول وجهة نظر والى العراق إلى السفير البريطانى فى اسطنبول وأخبره بأن الموفد من قبل عبدالله بن ناصر القائمقام العثمانى فى نجد سيواصل سفره من العراق إلى اسطنبول ليشرح وجهة نظره للباب العالى وحذر كمبول فى رسالته تلك من أن نامق باشا يعتزم البدء بتنفيذ سياسة جديدة تتعلق بالكويت وبعض الموانىء الأخرى على الساحل الشرقى من الجزيرة العربية هدفها تقوية الرابطة بين هذه الموانىء والدولة العثمانية . ولما كان كمبول يراقب بحذر نشاط العثمانيين فى الخليج العربى فلقد بعث فى ٢٣ يناير ١٨٦٧ رسالة إلى وزير الدولة فى حكومة الهند يخبره فيها بأن نامق باشا قد مد سلطته لتشمل الكويت والزبير. وأضاف بأن الكويت تعتمد فى ازدهارها التجارى على مينائها الحر وتجارة النقل التى تمارسها سفنها وأن الحكم الأبوى الذى يمارسه شيوخها ساعد فى إبعاد شعبها عن الاعتداء على السفن البريطانية التى كانت تتميز بها المجتمعات البحرية الأخرى فى الخليج العربى .

أوضح كمبول بأن مطالب العثمانيين لاتتعدى طلب زكاة إسمية ضئيلة ؛ ولكن إذا حاولوا استخدام أى شكل من أشكال الإدارة فربما يؤدى ذلك إلى مقاومة سلبية تقوم بها القبائل العربية فى الكويت وإذا ما خشى شيوخها أن يطبق العثمانيون ذلك بالقوة فمن المحتمل أن يطلب سكانها الحماية بلجوئهم إلى أماكن أفضل ، وقد أراد كمبول أن يلمح فى رسالته تلك إلى حكومته فى الهند لكى تبذل جهداً أكبر للاهتمام بشؤون الكويت حتى لاتقع تحت النفوذ العثمانى المباشر وحتى لاينطلق العثمانيون منها إلى المناطق العربية الأخرى فى الخليج العربى . لذا نجده يضيف فى رسالته تلك أنه سيراقب نشاط نامق باشا وإذا ما سنحت له الفرصة لمقابلته فانه سيؤكد له أن حكومة بريطانيا لن تنظر بدون اكتراث إلى تلك النوايا التى تعتزم زعزعة العلاقات بين بريطانيا وشيوخ القبائل العربية فى ساحل عمان وعمان والبحرين التى ترتبط بهم معاهدات تمتد لأكثر من خمسين عاماً .

هنا يبدو واضحاً أن السلطات البريطانية كانت قلقة من محاولات الدولة العثمانية تجديد نشاطها ومد نفوذها إلى أطراف دولتها فى الساحل الغربى من الخليج العربى . ولذا كان تعيين مدحت باشا واليًا على العراق وهو الرجل الذى عرف بمحاولاته المتكررة لإصلاح نظام الدولة ودستورها وغيرته على تجديد نشاطها حدثًا هامًا بالنسبة للعلاقات والتنافس

العثمانى - البريطانى فى الخليج العربى ، وقد حرص مدحت باشا بالفعل منذ توليه على ولاية العراق على تبنى فكرة رجال الإصلاح العثمانيين الذين كانوا يدعون إلى التوجه بأنظارهم إلى الخليج العربى لكى يعوضوا ما خسرته الدولة فى البلقان وأخذ مدحت باشا على عاتقه مد سيطرة الدولة العثمانية على الساحل الغربى من الخليج العربى لكى يحد النفوذ العثمانى المباشر بدلاً من الغير المباشر فى الإحساء ونجد .

الحملة العثمانية على الساحل الغربى من الخليج العربى ١٨٧١ :

قدم الصراع على السلطة فى نجد بين عبدالله بن فيصل وأخيه سعود فرصة سانحة لمدحت باشا لكى يحقق أهدافه وذلك عندما تمكن سعود من إقصاء أخيه عن العرش فراح الأخير يستنجد بوالى العراق الذى بدأ على الفور بالاستعداد لارسال حملة عسكرية إلى الإحساء ونجد هدفها الظاهرى إعادة عبدالله بن فيصل للحكم لأن الدولة العثمانية اعتبرته حاكمًا شرعيًا معينًا من قبلها كقائمقام لنجد وتوابعها .

أجرى مدحت باشا استعداداته بتكتم شديد وبسرعة فائقة على غير عادة الولاة العثمانيين إذ حذر مدحت باشا أتباعه من وصول المعلومات للبريطانيين فلم يعلم قنصل بريطانيا فى بغداد. وكانت السلطات البريطانية قد علمت بها فى أواخر ديسمبر ١٨٧٠ من خديوى مصر آنذاك اسماعيل باشا الذى كان الأمير عبدالله بن فيصل قد أرسل إليه رسالة يتوسل إليه فيها أن يتوسط له لدى الباب العالى لكى يساعده فى إعادته للحكم ، ولقد اتهم عبدالله بن فيصل فى رسالته تلك السلطات البريطانية فى الخليج العربى بأنها تطمع فى الاستيلاء على أحد المراكز الهامة على ساحل الإحساء كالدمام أو القطيف وأن «بلى» قد عرض عليه ذلك وعندما رفض أخذ المقيم السياسى البريطانى يقدم المساعدة لأخيه سعود حتى تمكن الأخير من طرده عن عرش بلاده ، ولقد أثبتت هذه الرسالة أيضًا اعتراف عبدالله بن فيصل بتبعيته للباب العالى وأن الأراضى التى كان يملكها تعود ملكيتها للدولة العثمانية ، فقد جاء فى نص رسالة الأمير عبدالله بن فيصل إلى اسماعيل باشا خديوى مصر ما يلى :

« .. وصل إلى طرفنا بنجد «بلى» قنصلوص الانجليز بالخليج العربى ومعه هدية وقد فهمنا أن مراده أن نعطيه مركزاً على ساحل بحر الدمام أو بعض القطع غيرها فاعتذرنا له وأرجعنا هديته حيث أن هذه الأماكن التى فى يدنا من الممالك المحروسة الراجعة إلى خليفة رسول الله السلطان .. ورجع عنا يائسًا وكان سعود قد استجلبه القنصلوص إليه فأفسده

وأغراه وأمده بما يقتضى له من الذخيرة والمهمات .. والنفوذ بواسطة البحرين ولما رأينا الأمر بهذه الصورة انتصرنا بالله ثم بدولتنا وعرضنا الحال على والى بغداد » .

حاولت السلطات البريطانية منع حملة مدحت باشا ولكنها عندما تأكدت أنه لامفر من ذلك راحت تستفسر فى هذه المرة عن وجهة الحملة وقد انتاب السلطات البريطانية قلق شديد لأنها كانت قد تلقت فى مارس من العام ١٨٧٠ تصريحًا خطيرًا لمدحت باشا اعتبرت فيه أن البحرين تابعة لنجد وأنها بدورها تابعة للدولة العثمانية ولذا أصبحت مهمة السلطات البريطانية أن تعرف قبل كل شىء إذا كانت الحملة ستتعرض للبحرين أم لا ؟ ففى ٢٢ أبريل وعندما بدأت قبل يومين سفن تلك الحملة بالإبحار من البصرة تجاه ساحل الإحساء أبرق «هربرت» إلى اليوت قائلاً :

«أنه يقال لو نجحت حملة نجد فانها ستسير لاحتلال البحرين وعمان وساحل عمان» . وبعد أن اتصل اليوت بالمسؤولين العثمانيين عاد من جديد يتصل بهربرت وبوزارة الخارجية البريطانية بأن الباب العالى أكد له أنه لايعتزم التعرض لتلك البلدان . وفى ١٢ مايو ١٨٧١ قام المستر بيسانى السكرتير الأول فى السفارة البريطانية فى العاصمة العثمانية بمقابلة الصدر الأعظم «على باشا» وقدم له مذكرة أخبره فيها بأن المعلومات الواردة إليه من بغداد تفيد بأن مدحت باشا يحاول أن يجذب إنتباه الباب العالى إلى مايحدث فى نجد وما وراءها من الأقاليم ويرغب فى بسط نفوذه الحقيقى على البحرين وعمان والقبائل العربية المستقلة فى ساحل عمان . وهذه الرغبة هى التى جعلته يقنع الباب العالى بالقيام بمثل هذه المغامرة الكبرى تحت ستار المساعدة التى سيقدمها لعبدالله بن فيصل الذى يعتبره قائمقام لنجد . ولقد أضافت تلك المذكرة أن العامل الأساسى وراء تلك الحملة هو الحسد المتزايد من قبل مدحت باشا للنفوذ البريطانى فى الخليج العربى .

واعتبر مدحت باشا بأن السلطات البريطانية قدمت مساعدات لسعود بن فيصل لتركيز أقدامه فى الإحساء ونجد ولكى يكون لها النفوذ الكامل فى مياه الخليج العربى وخاصة بعد أن عقدت معاهدة مع قطر عام ١٨٦٨ . وبذلك أصبحت الكيانات الواقعة على الساحل الغربى من الخليج العربى من عمان جنوبًا إلى البحرين شمالاً ترتبط بمعاهدات مع بريطانيا ولم يبق إلا سواحل الإحساء والكويت حيث كانت هذه الأجزاء غير مرتبطة ببريطانيا وبامكانه أن ينطلق منها لتوسيع نفوذ بلاده فى الخليج العربى . وكان مدحت باشا قد أعلن صراحة فى أبريل ١٨٧١ أن السياسة العثمانية أصبحت ممتدة لتشمل نجد وأن حملته ستزحف لتثبيت

عبدالله كقائمقام عثمانى وأكد مدحت أن الهدف من الحملة ليس الاستيلاء على نجد بل لتوثيق الروابط القائمة بينها وبين الدولة العثمانية وكبح جماح سعود بن فيصل وأعماله العدوانية . وفى ١٧ / ٥ / ١٨٧١ كانت الأنباء الصادرة من اسطنبول إلى هربرت تؤكد من جديد أن عالى باشا قد اكد لبيسانى أن الحملة لن تتدخل فى الشؤون الداخلية لأية إمارة فى الخليج العربى دون أن ينسى التأكيد بأن نجد جزء لايتجزأ من ممتلكات السلطان العثمانى وأن الأمير عبدالله بن فيصل لايحكمها حكمًا مطلقًا وإنما يمارس عمله كموظف عثمانى برتبة قائمقام بناء على فرمان سلطانى كان قد صدر سابقًا . وأضاف الصدر الأعظم بشىء من الامتعاض والتأفف لذلك الاهتمام المتزايد من جانب المسؤولين البريطانيين بشأن هذه الحملة وأكد لبيسانى أن ينقل لحكومة جلالته أنه ليست هناك أى نوايا لمد سيطرة العثمانيين على البحرين أو ساحل عمان أو عمان وأنه لايعتزم مهاجمتها أو إخضاعها . وأضاف مؤيداً تصريح مدحت باشا بأن هدف الحملة هو مصالحة الأخوين عبدالله وسعود ووقف الشغب واستعاده الهدوء والطمأنينة فى تلك النواحى .

سارت الحملة العثمانية حسب الخطة المرسومة لها فغادرت البصرة يوم ٢٠ / ٤ / ١٨٧١ تحت إمرة الفريق نافذ باشا الذى اصطحب معه شيخ المنتفق وفرقة من فرسان قبيلته تقدر بألف فارس كانوا قد تطوعوا فى الحملة . كما انضمت للحملة أعداد من مجندى القبائل الأخرى في العراق كانوا قد اجتمعوا فى بلدة الزبير ورافق الحملة محمد سعيدبن نقيب الأشراف فى البصرة وكذلك الشيخ عبدالله الصباح حاكم الكويت وأخوه الشيخ مبارك الذى قاد متطوعين من القبائل الكويتية فى هذه الحملة بالإضافة إلى استعانة العثمانيين بسفن الكويت وقواربها التى شاركت فى نقل معدات الحملة إلى ساحل الإحساء . وكانت سفن الكويت المشتركة تقدر بحوالى ثمانين قاربًا وسفينة . وبعدما وصلت الحملة مدينة القطيف راح القائد العثمانى يقرأ على سكانها إعلانًا موجهًا إليهم من الباب العالى ومما جاء فيه ما يلى :

أولاً : تعتبر نجد وملحقاتها جزءاً من الدولة العثمانية كما هو الحال فى العراق واليمن ومصر .

ثانيًا : أن سبب هذه الحملة هو تمرد سعود على أخيه عبدالله المعين قائمقام عثمانى للبلاد وأن هدف هذه الحملة إعادته للسلطة .

ثالثًا : سيصدر عفو عام عن سعود إذا استسلم واعتذر عما بدر منه من سوء تصرف .

رابعًا : إذا رفض سعود الاستسلام فستقوم القوات العثمانية بتدميره مع أتباعه وكل من يقدم له المساعدة .

بدأ العثمانيون فى شهر يوليو بتوسيع عملياتهم إلى الجنوب حتى وصلوا إلى قطر . ومن هنا ندرك أن الحملة كانت قد درست وخططت لها مسبقًا فى اسطنبول عن طريق مدحت باشا ونالت موافقة صديقه الصدر الأعظم عالى باشا لأن التقدم بالقوات العثمانية نحو قطر كان ولاشك سيخلق نوعًا من الصراع مع بريطانيا التى كانت قد عقدت معاهدة مع قطر عام ١٨٦٨ ، وكانت بريطانيا تنظر إلى توسيع أعمال العثمانيين فى مياه الخليج العربى خطراً يهدد مركزها ونفوذها فى المنطقة ، ولكى يمهد مدحت باشا لتوسيع نطاق حملته أعلن فى جريدة الزوراء الرسمية فى بغداد ، فى الشهر السابق للتقدم نحو قطر ، أنه لايوجد فى نجد قبائل مستقلة وأن هناك ثمانية بلدان تابعة لنجد منها الشارقة ودبى وأبوظبى وقطر والبحرين . وكانت السلطات البريطانية قد احتجت على ذلك الاعلان وطلب حاكم الهند من هربرت إبلاغ مدحت باشا أن معالجة مثل هذه القضايا يجب أن تسوى بين الباب العالى ووزارة الخارجية البريطانية ، إلا أن مدحت باشا استمر فى توسعه باتجاه قطر حتى رفع العلم العثمانى على الدوحة ووافق الشيخ قاسم بن ثانى على إعلان التبعية للدولة العثمانية بعدما جاء الشيخ عبدالله الصباح حاكم الكويت على رأس قوة عثمانية وأقنعه بالسيادة العثمانية.

قام مدحت باشا بزيارة إلى الإحساء فى أوائل نوفمبر عام ١٨٧١ ثم توجه إلى القطيف ومنها النقير ثم إلى الهفوف حيث أقام حوالى أربعين يومًا اطلع خلالها على أحوال الجند العثمانيين . ووضع مدحت باشا تشكيلاً إداريًا جديداً للاقليم أصبحت الإحساء بموجبه متصرفية يطلق عليها اسم لواء نجد وجعلها تابعة لولاية العراق وعين قائد حملته الفريق محمد نافذ باشا متصرفًا للإقليم . وقسم ذلك اللواء إلى ثلاثة أقضية هى الهفوف وهى مركز لتمويل الأقضية الثلاثة الأخرى وعين على قضاء قطر قاسم بن ثانى كقائمقام ويساعده قائد عثمانى يشرف على الحامية العثمانية هناك (٥). ولم تكن تبعية الكويت مباشرة للحكم العثمانى كما هى الحال بالنسبة للإحساء فلقد ترك مدحت باشا شؤون الكويت لشيخها يصرفها حسب تقاليد البلد. ولقد علل مدحت باشا عدم التدخل فى شؤون الكويت بأن هذا البلد ينعم بالاستقرار ويطبق الشريعة الاسلامية في أحكامه وأنه ليس بحاجة إلى قوة ضابطة

عثمانية ، وعاد مدحت باشا إلى بغداد عن طريق الكويت فى ٢٨ ديسمبر ١٨٧١ كما أن حملة مدحت باشا . على الرغم من أنها لم تنجح فى تحقيق كل الأهداف المرسومة لها من محاولة لبسط النفوذ العثمانى على مياه الخليج العربى ، إلا أنها نجحت إلى حد ما فى توطيد علاقتها بالساحل الغربى بين الخليج العربى وخاصة الاحساء ونجد وقطر وأثبتت أنه كان بالإمكان لو تابعت الدولة العثمانية مجهودات مدحت باشا فى هذا المجال أن تكون نداً للبريطانيين فى هذه المنطقة ، وهكذا تحكمت قبضة الباب العالى فى نجد والإحساء فى الفترة ما بين ١٨٧١ - ١٩١٣ .

التنافس الأنجلو - عثمانى فى خور العديد :

برز التنافس الأنجلو - عثمانى فى ساحل عمان بعد حملة مدحت باشا على الإحساء ١٨٧١ وكان لمشكلة خور العديد دور رئيسى فى إثارة هذا التنافس بعدما انشقت قبيلة القبيسات عن بنى ياس وسكنت فى خور العديد عام ١٨٦٩ فان الاهتمام البريطانى بهذه المنطقة اتخذ طابعاً مميزاً بعد وصول العثمانيين إلى قطر ومحاولات شيخ القبيسات ربط خور العديد بقطر مما أثار المخاوف البريطانية من أن يؤدى ذلك إلى تغلغل النفوذ العثمانى عبر العديد إلى ساحل عمان . فسارعت بريطانيا إلى مجابهة الموقف وأبلغت حاكم أبوظبى بأنها تؤيد حقه فى العديد كما أبلغت شيخ القبيسات بأنه ورعاياه يتبعون أبوظبى وعليهم أن يعلنوا ذلك حتى لايضطر حاكم أبوظبى إلى تحقيق ذلك بالقوة ، ولكن شيخ القبيسات أبلغ بريطانيا بأنهم مصممون على عدم الخضوع لحاكم أبوظبى ويعتبرون أنفسهم مستقلين .

قد تركت حملة الإحساء العثمانية أثراً كبيراً على تفكير رجال السياسة البريطانيين فى ساحل عمان والبحرين وعلى ذلك لم يترك البريطانيون فرصة دون انتهازها فى تنبيه السلطات العثمانية إلى الاتفاقيات المبرمة بين بريطانيا وشيوخ القبائل فى ساحل عمان . كما حرصت بريطانيا على منع أى نفوذ أجنبى من التقدم نحوها . ورغم ذلك كله فلم يكن الساسة البريطانيون مطمئنين لنوايا العثمانيين بل بقى الشك يخالج نفوسهم رغم التطمينات العثمانية ، وفى هذا الصدد كان جرانت مساعد المقيم السياسى البريطانى فى مهمة استطلاعية فى ساحل عمان يميل إلى الاعتقاد بأن حاكم أبوظبى قد يلبى الدعوة لزيارة الإحساء لما كان يعانى منه فى نزاعه قبائل النعيم والبوشاس العمانية فى البريمى ، وقبيلة القبيسات فى العديد وإحساسه بأن بريطانيا قد تخلت عنه فى معالجة هذه المسائل . وقد رفع جرانت تقريراً بما حصل عليه من معلومات للمقيم البريطانى روس الذى استنتج من هذا

التقرير أن الظروف التي تحيط بحاكم أبوظبى قد تؤدى به إلى الوقوع فى دائرة النفوذ العثمانى وخاصة أن السلطات العثمانية تعتبر أبوظبى والبريمى من ممتلكات حاكم نجد مما يجعلها تعمل على انتهاز أية فرصة مواتية لتحقيق هذه الادعاءات .

وصلت إلى الصدر الأعظم فى اسطنبول برقية فى مايو ١٨٧٨ من والى البصرة يخبره بأن الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبوظبى شن هجومًا على العديد فأطلع السفير البريطانى فى العاصمة العثمانية على هذه البرقية وأعرب له عن احتجاج حكومته على هذا العمل غير أن حاكم أبوظبى كان قد سارع فى عملياته الحربية حتى استطاع دخول العديد مما اضطر سكانها إلى اللجوء لمنطقة البدع فى قطر تحت حماية الشيخ قاسم بن ثانى الذى وفر لهم الحماية ورحب بقدومهم بوحى من طموحه الذى كان قائمًا منذ زمن فى أن تمتد سيادته إلى هذه القبيلة . ولهذا قام حاكم قطر بهجوم على العديد فى عام ١٨٨٧ عندما علم بتغيب حاكم أبوظبى عن العديد واستولى عليها بمساعدة سفينة حربية عثمانية مما زاد فى المخاوف البريطانية التى أيقنت بأن العثمانيين يقفون وراء تحركات حاكم قطر فاحتجت لدى السلطات العثمانية .

شهد العام التالى صراعًا رهيبًا بين أبوظبى وقطر عندما قرر الشيخ زايد بن خليفة الانتقام من قاسم بن ثانى على ما قام به من عمل عدائى ضد العديد فأرسل حملة كبيرة بقيادة ولده خليفة بن زايد فدمرت الدوحة عام ١٨٨٨ وقتلت إبنه على مما أثار حنق الشيخ قاسم وراح يجرى اتصالات مع القوى الطامعة فى ساحل عمان والمناوئة لحاكم أبوظبى مثل الرشيد والدولة العثمانية. وكتب يطلب منها العون لتجريد حملة باسم الباب العالى معربًا عن استعداده لإزاحة حجر العثرة أمام تقدم النفوذ العثمانى فى تلك المنطقة والمتمثل فى حاكم أبوظبى الذى قال عنه أنه يعتمد على بريطانيا فى مناوءة العثمانيين الذين كانوا لاشك فى سعيهم الدؤوب لإبعاد النفوذ البريطانى عن ساحل عمان ومد نفوذهم إلى هذه الجهات قد وجدوا فى هذا العرض فرصتهم فقدموا له العون والمساعدة فى هجومه على أبوظبى الذى شنه فى يناير عام ١٨٨٩ . ودارت بين الطرفين معركة طاحنة فى موقعة سميت خورة نسبة إلى قلعة أبوظبى . وقد منى الشيخ زايد بن خليفة بخسائر فادحة وبذلك حقق حاكم قطر ما كان يصبو إليه كما أنه أعطى الأمل للعثمانيين فى السيطرة على ساحل عمان .

هذا ما جعل السلطات البريطانية تحس بحرج الموقف الذى بات فى غير صالحها بل ويهدد مصالحها ونفوذها ؛ وبالتالى لم تجد بدأ من تقديم مساعدات كبيرة لحاكم أبوظبى حتى يستطيع التصدى للنفوذ العثمانى . وفى الوقت نفسه وجهت تحذيراً لحاكم قطر من التمادى فى تقدمه ، وساورت الشيخ قاسم الشكوك من تحرك حاكم أبوظبى وتوجيه ضربة انتقامية لبلاده وأطلع السلطات العثمانية على مخاوفه هذه مما جعلها تسارع فى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتحصين الدوحة وحمايتها من أى هجوم مرتقب . غير أن ذلك لم يرض الشيخ قاسم بل كان يطمع إلى دعم أكبر فأبرق للباب العالى يحثه على تقديم مزيد من العون للحفاظ على قطر كمقاطعة عثمانية . ويبدو أن الشيخ قاسم قد أصاب فى أسلوب تحريك الباب العالى الذى أصدر تعليماته لوالى البصرة بتقديم كل عون ممكن لشيخ قطر لمجابهة أى تحرك قد يقوم به حاكم أبوظبى (٦) . وفى ظل هذه الظروف أدركت السلطات البريطانية مخاطر الصدام مع العثمانيين فعملت على إيجاد تسوية سلمية بين الطرفين علها تستطيع من خلال هذه المصالحة استمالة شيخ قطر واقناعه بالابتعاد عن الولاء للعثمانيين والانضواء تحت السيادة البريطانية غير أنها فشلت فى ذلك واستمرت المناوشات بين الطرفين تثور بين حين وآخر حتى أواخر عام ١٨٩٠ حيث اكتفى الطرفان منذ ذلك العام بأسلوب الاحتجاجات الذى اتبعه العثمانيون والبريطانيون ؛ إذ لاشك أن هذا الصراع كان صراعًا عثمانيًا بريطانيًا استعملت فيه قطر وأبوظبى كأدوات فى الصراع الدامى الذى دفعتا ثمنه من دماء إبنائهما دون مبرر بل خدمة لأغراض أجنبية كانت تستتر وراء إثارة الأحقاد بين الأخوة .

يمكننا القول أن اكتفاء أبوظبى وقطر بالاحتجاجات البريطانية والعثمانية لم يكن اكتفاء ذاتيًا بل اكتفاء أملته القوتان المتصارعتان اللتان وصلتا إلى هذا الطريق بعد أن انهكتا أدواتهما فى الوقت الذى عملت السلطات العثمانية على إنشاء مخافر عسكرية فى العديد عام ١٨٩٦ فاحتجت بريطانيا على ذلك إذ اعتبرته تعديا على حقوق حاكم أبوظبى مما جعل العثمانيون يتراجعون عن هذا العمل أمام إصرار بريطانيا على عدم الاعتراف به ، غير أنهم أعادوا الكرة فى عام ١٩٠٢ بمحاولة ضم العديد إلى قطر وفشلوا فى ذلك مرة أخرى أمام الاعتراض البريطانى . عندئذ أدركت بريطانيا أنه لابد من تأكيد حق شيخ أبوظبى فى العديد فأعلنت عام ١٩٠٥ أن العديد من ممتلكات حاكم أبوظبى ولايحق لأية قوة الاعتداء على هذا الحق . بيد أن ذلك لم يضع حداً لهذه المشكلة بشكل نهائى إذ أن السلطات العثمانية لم تعترف بهذا الاعلان بل بقيت تعمل على تقويض النفوذ البريطانى حتى تمكنت من السيطرة على العديد عام ١٩١٠ . واحتجت بريطانيا بشدة على ما قام به العثمانيون دون أن يغير

ذلك من الوضع القائم شيئاً [٧] ، بل بقى الأمر كذلك حتى عام ١٩١٣ حين تم وضع مشروع الاتفاقية الانجلو - عثمانية لتخطيط الحدود فى الجزيرة العربية والذى وافقت الحكومة العثمانية بموجبه على الانسحاب من العديد .

بريطانيا والاتفاقيات المانعة :

أدركت بريطانيا أبعاد الخطر العثمانى على نفوذها فى ساحل عمان بعد حملة الإحساء ومشكلة خور العديد مما جعلها تتجه فى تفكيرها إلى زيادة القيود على ساحل عمان علها بذلك تبعد هذا الخطر الذى بات يقترب منها . وهذا الأسلوب ليس جديداً على السياسة البريطانية التى اتبعتها منذ وطئت أقدامها المنطقة وأعطت لنفسها الحق فى التدخل فى الشؤون الداخلية والخارجية لساحل عمان وعمان والبحرين . ولقد ساعدها فى ذلك التفكك الذى خلفته فى المنطقة وتشجيعها للنزاعات القبلية فأذكت بذلك مشاعر الخوف فى نفوس الشيوخ من بعضهم بعضاً ولم تترك لهم الفرصة حتى يتفرغوا للتفكير فى الخطر الحقيقى وهو الوجود البريطانى ، بل وأقنعتهم بأن كلاً منهم مدين ببقائه فى مركزه للدعم البريطانى الذى يبعد عن كل واحد منهم أطماع الأخرين من جيرانه والقوى الأخرى مثل الدولة العثمانية فى الوقت الذى درجت بريطانيا على تقييد حكام المنطقة بين حين وآخر باتفاقيات بحجة معالجة قضايا معينة على حين كانت فى واقع الأمر تنفيذ سياسة مرسومة لتأكيد سيادتها على هذه المنطقة ، ففى عام ١٨٧٣ فرضت على شيوخ القبائل فى ساحل عمان تجديد معاهدة محاربة تجارة الرقيق بحجة أنه نما لعلمها أن تجارة الرقيق ما زالت قائمة . ولم يمض وقت طويل حتى أحست بريطانيا بأن الاضطرابات التى تسود ساحل عمان بسبب هروب بعض رعايا من إمارة إلى إمارة أخرى وخاصة أولئك المدينين نتيجة للعمل فى صيد اللؤلؤ وما كان يؤدى ذلك من صراع بين شيوخ القبائل مما قد يوثر على التجارة البريطانية فوضعت حداً لذلك عام ١٨٧٩ بأن اعطت نفسها الحق فى التدخل فى كل ما من شأنه تعكير صفو الأمن البحرى عن طريق المقيم السياسى البريطانى .

بقيت بريطانيا تمهد الطريق لفرض الحماية على ساحل عمان حتى كان لها ذلك فى مارس ١٨٩٢ وقد سبقتها البحرين عام ١٨٨٠ وذلك بعد أن ازداد النشاط العثمانى مما دفع بالمقيم السياسى البريطانى تالبوت إلى حث حكومته على فرض الحماية البريطانية على البحرين وساحل عمان لمجابهة الأخطار المحدقة بالوجود البريطانى فوافقت الحكومة البريطانية على ذلك وتم توقيع شيوخ القبائل فى ساحل عمان على المعاهدة أو الاتفاقيات فى أيام مختلفة من شهر مارس ١٨٩٢ وتعهد بموجبها كل منهم عن نفسه وبالنيابة عن ورثته وخلفائه بما يلى :

أولاً : أن لايدخل فى أية اتفاقيات أو مراسلات مع أية قوة أخرى غير الحكومة البريطانية.

ثانيًا : أن لايسمح لأى وكيل لأية دولة غير بريطانيا بالاقامة فى ممتلكاته بدون موافقة الحكومة البريطانية .

ثالثًا : أن لا يوجر أو يبيع أو يرهن أو يسمح باحتلال أى جزء من ممتلكاته إلا للحكومة البريطانية .

بتوقيع هذه المعاهدة التى سميت باتفاقية «المانعة» انتقلت العلاقات البريطانية مع ساحل عمان إلى مرحلة جديدة إذ فقدت إمارات هذا الساحل كل مقومات الاستقلال وأصبحت خاضعة كلية للسيطرة البريطانية وبقيت على هذا الوضع حتى خروج بريطانيا من المنطقة عام ١٩٧١ ، كما أن معاهدة المانعة ١٨٩٢ كان لها أكبر الأثر فى تشديد القبضة البريطانية والتى أصبح لمقيمها السياسى اليد الطولى فى تسيير دفة الأمور فى هذه المنطقة ولم تجد حرجًا فى إعلان سيطرتها هذه حتى يكون معلومًا لدى الدول الأخرى وخاصة الدولة العثمانية بالوضع البريطانى الذى أصبح قائمًا ، ولاشك أن بريطانيا كانت تبغى من وراء ذلك إعطاء نفسها الحق فى التعامل مع أية قوة باسم ساحل عمان وتضفى على هذا الحق صفة رسمية وقد تحقق لها ذلك بالفعل إذ أصبحت أية دولة تحصل لها مشكلة مع إحدى الامارات ترفع الأمر لبريطانيا لمعالجته (٨). وكانت البحرين أول من وقع عليها فى عام ١٨٨٠ وتبعتها ساحل عمان ١٨٩٢ ثم الكويت عام ١٨٩٩ بينما تأخر توقيع ابن سعود حتى عام ١٩١٥ باتفاقية دارين وقطر عام ١٩١٦ .

قد يكون وصول العثمانيين إلى الإحساء وخور العديد وقطر والتخوف البريطانى من اجتياحهم وتعاطف عرب الخليج لارتباطهم بالاسلام أحد أهم الأسباب التى دفعت الاستعمار البريطانى إلى عقد هذه الاتفاقية إضافة إلى التهديد الألمانى المتمثل فى سكة حديد برلين - بغداد من أهم العوامل التى أدت إلى انضمام الكويت إلى هذه الاتفاقية رغم أنها ظلت تحت السيادة العثمانية من الناحية الرسمية وأصبح هناك ممثل رئيسى لبريطانيا للإشراف على تنفيذ الاتفاقيات المعقودة وللمقيم البريطانى الحق إذا ما دعت الحاجة فى استدعاء قطع الأسطول لمساعدته (٩).

بريطانيا وعمان واتفاقية ١٨٩١ :

قتل سالم والده السلطان ثوينى بن سعيد وتولى الحكم فى ١٨٦٦ مما جعل عزان بن قيس يتحرك من صحار فى ٢٩ / ٩ / ١٨٦٨ ويستولى على مطرح والممرات إلى مسقط فسارع «بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى مجابهة الموقف واستولى على بعض السفن الخاصة باتباع عزان ، غير أن بيلى لم يتمكن من حسم الموقف لصالح سالم فأبحر إلى بومباى لبحث الموقف وبين لحكومته فى الهند ما جرى فى مسقط . وكان يأمل أن يقنع حاكم بومباى بالموافقة على منحه صلاحية التصدى لعزان بن قيس . وفى هذه الأثناء كان قد تم إعلان الأخير إماماً على عمان ، واستطاع تركى بن سعيد أن يتخلص من الإمام عزان بن قيس بدعم بريطانى ويتولى الحكم فى عمان عام ١٨٧١ ، وخصصت له بريطانيا راتباً سنوياً وكان لهذا الراتب بالاضافة إلى ضعف شخصيته أثر كبير فى زيادة التدخل البريطانى فى شؤون عمان فى شتى المجالات وبشكل لم يعد له أية سلطة حقيقية كما أن ثوار القبائل العربية وجدوا فيه فرصتهم لتحقيق أهدافهم .

رأت سلطات الهند البريطانية أن توحى لتركى بن سعيد بأنه فى دائرة اهتمامهم فدعته لحضور احتفال تتويج الملكة اليزابيث الذى أقيم فى دلهى . ويبدو أن بريطانيا كانت ترمى من وراء مثل هذه الأمور إلى تمهيد الطريق لفرض الحماية على عمان إذ أنها بقيت تعمل على ذلك تدريجياً بعقد اتفاقات متعددة لمعالجة موضوعات جزئية فى طريقها إلى الهدف الرئيسى وهكذا عقدت مع تركى بن سعيد اتفاقية فى يناير ١٨٨٠ تم بموجبها إقامة حامية عسكرية فى مقر وكالتها فى بلاده . ولذلك أصبح تركى بن سعيد لايستطيع أن يحرك ساكناً إلا بما تمليه عليه بريطانيا حتى توفى فى عام ١٨٨٨ ، وتولى ابنه فيصل حكم عمان وكان هذا السلطان صورة مكملة لوالده مما أتاح المجال أمام بريطانيا لتستمر فى السير نحو هدفها كما وجدت فيه فرصتها لزيادة هيمنتها وسيطرتها على الحكم . وعلى ذلك فرضت عليه معاهدة صداقة وملاحة فى ١٩ مارس ١٨٩١ تعهد بموجبها بعدم التنازل أو تأجير أو رهن أى جزء من أملاكه إلا بموافقة مسبقة من الحكومة البريطانية واعتبار الهنود رعايا بريطانيين فى الشؤون القضائية مع التأكيد على الامتيازات الاقتصادية وغيرها التى حصلت عليها بريطانيا بموجب الاتفاقيات السابقة .

مما يستلفت النظر أن بريطانيا قد حاولت الإبقاء على سرية هذه المعاهدة خشية أن تثور فرنسا ضدها نظراً لما تحويه من أمور تتعارض والتصريح البريطانى - الفرنسى لعام ١٨٦٢ الخاص باستقلال كل من عمان وزنجبار. كما أن بريطانيا قد حرصت على أن لاتتعرض للمعاهدات المعقودة بين عمان وكل من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية حتى تتجنب التورط فى نزاع مع هذه القوى هى فى غنى عنه . وعلى ذلك فعندما عينت فرنسا نائب قنصل لها فى مسقط عام ١٨٩٢ لم تتدخل بريطانيا بهذا الشأن ، على أن اللورد كيرزون لم يكن على ما يبدو راضيًا بالرضوخ للرغبات الفرنسية وغيرها بل كان بصفته أحد دعاة وبناة الاستعمار يصر على ضرورة إيضاح دور بريطانيا فى عمان ولايجد حرجًا فى التصريح بأن معاهدة عام ١٨٩١ ليست إلا مقدمة لإعلان الحماية البريطانية على عمان(١٠) .

عندما اشتعلت الثورة الشعبية فى عمان عام ١٨٩٥ بقيادة القبائل الهنائية وتأججت نيرانها حتى اضطر فيصل بن تركى إلى اللجوء للقلعة يحتمى بها إذ أنه لم يتلق أى عون من بريطانيا ينقذه من ورطته على حين كانت تلك الثورة تجسد الاحساس الشعبى العارم بمدى ما وصلت إليه الأمور فى عمان من تردى من جراء السيطرة البريطانية على مقدراتها والاستهانة بمشاعر شعبها . كما أن القنصل الفرنسى «اتوافى» الذى اشتهر بدهائه السياسى قد استغل هذه الظروف لمناوئة النفوذ البريطانى فلعب دوراً هامًا فى تأليب الثوار ، على أن بريطانيا لم تستمر طويلاً فى موقفها السلبى من فيصل بن تركى بل هبت لنجدته وتداركته فى اللحظات الأخيرة وهو على وشك السقوط نهائيًا مما كان سيؤدى إلى بعث الإمامة على يد الهنائية . وفى الواقع أن فشل الثوار فى تحقيق أهدافهم لايعود إلى التدخل البريطانى فحسب بل أن السبب الرئيسى يعود إلى عدم الوفاق التام بين الحزب الهنائى والغافرى ذلك أن بعض الغافرية قد وقفوا إلى جانب السلطان (١١).

اللورد كيرزون والسياسة الاستعمارية ١٩٠٣ :

ليس أدل على مدى ما وصلت إليه السيطرة والهيمنة البريطانية على ساحل عمان من قيام اللورد كيرزون بزيارته فى نوفمبر عام ١٩٠٣ والتقى بشيوخ القبائل على ظهر سفينة تابعة للأسطول الحربى لإظهار القوة وتخويفهم . ولم يلتق بهم فى ضيافتهم وإنما طلب منهم الحضور إليه وألقى فيهم خطابًا تحت قوة مدافع الأسطول البريطانى عبر فيه عن وجهة نظره الاستعمارية إذ راح يعدد المآثر البريطانية وأفضالها فى حفظ الأمن وتخليص هذه المنطقة من

الفوضى والاضطرابات . ولم ينس فى خطابه أن يوجه تحذيراً للدولة الأخرى التى كانت تنظر بعين الحسد للمركز البريطانى فى الخليج العربى كروسيا وفرنسا وألمانيا والدولة والعثمانية من مغبة محاولة منافسة بريطانيا أو وضع العراقيل أمام خططها الرامية إلى تعزيز نفوذها فى منطقة الخليج العربى بأسره مؤكداً أن الفضل فى كل ما وصلت إليه المنطقة من هدوء ونظام يعود لبريطانيا التى كافحت طويلاً من أجل هذا الهدف وبالتالى فان بريطانيا لن تسمح بأى شكل من الأشكال لأية قوة أخرى أن توجد موطىء قدم لها فى هذه الجهات فى الوقت الذى لن تتعرض فيه بريطانيا للتجارة الدولية فى هذه المياه. وقد يكون من المناسب أن نورد هنا جزء من خطابه إذ قال فيه (١٢):

« ... لقد أنقذناكم من أن تهلكوا بأيدى جيرانكم وفتحنا هذه البحار لسفن جميع الدول ومكنا لأعلامها من أن ترفرف فى سلام ولم نأخذ أراضيكم ولم نحاول القضاء على استقلالكم بل عملنا على حماية هذا الاستقلال وبالتالى فلن نفرط الآن بما حققناه من نصر كبير طيلة قرن من العمل الدؤوب ، كما ولن نقوم بمحو هذه الصفحة الرائعة من سجل التاريخ ونحن مصممون على أن يدوم سلام هذه المياه وأن استقلالكم سيظل مكفولاً ولتعلموا بأن كلمة الحكومة البريطانية هى العليا ونفوذها هو الباقى فى هذه المنطقة ولن نتهاون أمام أى خطر قد يهدد هذا النفوذ ... » ويمكن أن نلخص هذا الخطاب فى بعض النقاط الآتية(١٣):

أولاً : تمسك بريطانيا بالمنطقة عن طريق السلطات البريطانية فى امبراطورية الهند المترامية الأطراف وتشبثها بسياستها الاستعمارية المتعلقة بالوصاية والحماية التى كفلت الأمن والحقوق للقبائل العربية فى ساحل عمان قرابة قرن من الزمن .

ثانيًا : بيان أن بريطانيا تدخلت فى هذه المنطقة بعد أن تفشت الاضطرابات والقرصنة وتجارة الرقيق وأعمال العدوان وأوضحت الحكومة البريطانيا «أنها بتدخلها هذا إنما ترمى إلى حماية مصالح أفراد رعيتها وتجارها وكذلك حماية نفوذها الشرعى فى البحار التى تلاطم أمواجها الشاطىء الهندى لأن امبراطورية الهند تقع بجواركم ومن واجبنا حماية هذه الامبراطورية » .

ثالثًا : بمقتضى المعاهدات التى تمت «والتى جعلت الحكومة البريطانية حامية للسلام بين القبائل العربية وتوثقت عرى الروابط السياسية بين حكومة الهند وبينكم وبمقتضى هذه

الروابط أصبحت الحكومة البريطانية سيدتكم وحامية لكم وليست لكم صلات بأى دولة أخرى سواها وقد آلت كل امارة من الإمارات المعروفة بالمتصالحة على نفسها ألا تدخل فى اتفاق أو مراسلات مع أية دولة أخرى وألا تسمح لمندوب أى حكومة أخرى بالدخول إلى أراضيها وألا تسلم أى شبر من أراضيها وهذه الاتفاقيات ملزمة لكل فرد منكم » .

رابعًا : أنكم لم تفقدوا استقلالكم بل حافظنا على هذا الاستقلال ولابد لنا من المحافظة على السلام فى هذه المياه .. وسيظل نفوذ الحكومة البريطانية هو السيد فى هذه المنطقة » .

خامسًا : أن حاكم الامبراطورية البريطانى تنفذ «أوامره فى كل مكان من أجزاء امبراطوريته الشاسعة بواسطة رجال حكومته وإنى أتبادل التحيات اليوم معكم بوصفى ممثلاً له فى الهند مسئولاً عن رفاهيتكم ومجدداً الضمانات القديمة لكم » .

لم تمر زيارة كيرزون دون إثارة ضجة حولها . بل أن روسيا التى كانت تراقب التحركات البريطانية بحذر قد ساءتها هذه الزيارة فشنت صحفها هجومًا عنيفًا عليها . وفى بعض هجومها هذا بينت أن روسيا لن تسمح لبريطانيا أو غيرها أن تستأثر بالنفوذ فى الخليج العربى . وردت عليها صحيفة « التايمز» البريطانية فبينت أن بريطانيا كانت قد أعلنت حتى قبل زيارة اللورد كيرزون أنها لن تتهاون أمام أى عمل من شأنه أن يؤثر فى نفوذها فى هذه المنطقة ، وأضافت أن هذه الزيارة قد جاءت لتؤكد ما كانت أعلنته الحكومة البريطانية عن حرصها على توطيد نفوذها فى الخليج العربى ، ذلك النفوذ الذى عملت من أجله قرابة قرن من الزمن حتى أثمر هذا العمل ، وبالتالى فليس من حق أية قوة أن تشكك فى حق بريطانيا بالبقاء فى هذه المنطقة أبد الدهر . وهكذا نستطيع أن نتبين من صحيفة «التايمز» أبعاد السياسة الاستعمارية البريطانية الرامية إلى تكريس نفوذها وفرض سيطرتها على هذه المنطقة أبد الدهر دون أن يكون هناك أى تفكير فى حق أصحاب المنطقة فى أن يعيشوا أحراراً يمتلكون مقدرات بلادهم بأيديهم دون تدخل أجنبى (١٤).

النشاط الروسى فى الخليج العربى :

اتجهت روسيا بخطة محكمة لفرض نفوذها فى المنطقة وبدأت بالجانب الشرقى للخليج العربى ويتمثل فى إيران وقامت بالعديد من الأنشطة لبسط نفوذها من خلال ما يلى :

أولاً - النشاط الاقتصادى : ويتمثل فى القيام بنشاط مكثف من خلال المشروعات الاقتصادية من أهمها السكك الحديدية وإقامة المصارف والبنوك ثم تلبية رغبات الحكومة الإيرانية بمنحها القروض المالية المتعددة وهذا ما أدى إلى ارتماء شاه إيران فى أحضان روسيا كليًا .

ثانيًا - النشاط العسكرى : تمثل فى قيام الضباط الروس بتدريب الجيش الإيرانى وعمل عدة فرق عسكرية من أهمها فرقة «القوزاق» إضافة إلى الأسلحة والمعدات التى تقدمها روسيا لإيران وعمل مشاريع روسية مختلفة للسيطرة على جميع مقدرات إيران.

ثالثًا - النشاط القنصلى : وتمثل فى القيام بفتح العديد من القنصليات الروسية فى المدن الهامة مثل أصفهان - كرمان شاه - بندر عباس - بوشهر - تبريز وغيرها ..

رابعًا - النشاط الطبى : كانت روسيا ترسل مجموعة من الأطباء إلى المدن الإيرانية فى سيتان وخرسان وبوشهر وغيرها من المدن الإيرانية مما أثار شكوك الحكومة الإيرانية حول الأغراض الحقيقية لهؤلاء المبعوثين .

ظلت روسيا تفرض نفوذها طوال القرن التاسع عشر فى إيران ولتحقيق ذلك شرعت فى البحث عن موضع فى الخليج العربى يصلح كقاعدة لوجودها وأدركت أنه يجب مد خطوط حديدية من روسيا إلى الأراضى الإيرانية وتسيير الخطوط البحرية إليها لترسيخ جهودها فى هذه المنطقة . هذا بالنسبة لجهود روسيا فى الساحل الشرقى من الخليج العربى أما الجانب الغربى منه فانها بذلت الجهود المتتالية لكسب ثقة شيوخ القبائل العربية وإجراء الاتصالات معهم وإرسال السفن الحربية لارهاب البريطانيين الذين كان لهم نفوذ تسلط فى المنطقة ولكن هذه المخططات لم تغب عن بال بريطانيا المسيطرة على زمام الأمور فى الهند والخليج العربى. وكانت بريطانيا تدرك الفوائد التى ستعود على روسيا إذا حصلت على قواعد لها فى الأراضى المطلة على الخليج العربى فى إيران مما يؤدى إلى تعزيز النفوذ الروسى ويزيد من قوتها الدفاعية ضد المصالح البريطانية فى المنطقة .

بدأ الروس العمل فى معاينة تنفيذ مشروع خط حديدى يمتد جنوب إيران إلى عدة مواقع على ساحل الخليج العربى ، وأهم المشروعات الحديدية الروسية والتى أثارت القلق لدى المسؤولين البريطانيين مشروع «الكونت فلاديمير كابنست» ويهدف إلى مد خط حديدى يصل

شرق البحر المتوسط بالخليج العربى من طرابلس الشام إلى الكويت على أن تمتد فروع إلى بغداد وخانقين ورأت روسيا أهمية التجارة . ولأجل منافسة التجارة الروسية ينبغى فتح مصرف روسى فى أحد موانىء الخليج . وتركز النشاط التجارى الروسى فى المناطق التى يتمثل فيها نشاط قنصلى مع إبقاء إحدى السفن الحربية الروسية بشكل دائم فى المنطقة وفتح خط ملاحى الهدف منه ضمان نقل السلع والمواد والمسافرين ما بين موانىء الخليج العربى والبحر الأسود ، وفى هذا الوقت كانت الكويت محط أنظار الروس لاتخاذها كمحطة للفحم . وصدرت تعليمات إلى المسؤولين الروس فى يناير ١٨٩٩ بالتحرك صوب الكويت لعقد اتفاق مع شيخها مبارك بن صباح والذى عقد فى ٢٣ من يناير نفس العام . وكانت روسيا مدركة لأهمية موقع الكويت كما كانت على معرفة بموقف كل من الدولة العثمانية وبريطانيا منها . وكان القناصل الروس فى كل من بوشهر وبغداد على اتصال مستمر بالشيخ مبارك للتعبير عن قلقهم من النشاط البريطانى القائم فى الكويت واستعدادهم لمعاونته إذا طلب مساعدات من القيصر الروسى وإبلاغه أن الروس يعتبرونه مستقلاً . غير أن الشيخ مبارك عبر عن تفضيله الاسمرار فى الاعتماد على البريطانيين فى حالة تعرضه للخطر وإذا كان فى حاجة إلى المساعدة فسوف يطلبها من الحكومة البريطانية . وعلى الرغم من فشل المهمة الروسية فى الكويت إلا أنهم لم ييأسوا فقاموا بمحاولات أخرى وزيارات لحاكم الكويت فى عام ١٩٠٢ ثم ١٩٠٣ و ١٩٠٤ .

لم تقتصر اتصالات الروس على شيخ الكويت إذ اتصلوا بالأمير عبد العزيز بن متعب الرشيد أمير نجد كما تطلع الروس نحو قطر فقام العديد من رجالهم بزيارتها . وفى اكتوبر عام ١٨٩٩ قام إثنان من الروس بزيارة البحرين واجتمعا بشيخها حيث عبرا له عن رغبة الروس فى الدخول فى مراسلات ودية معه . إلى جانب ذلك قام إثنان من الروس بزيارة مسقط عام ١٩٠١ ومتابعة السلطان الذى أظهر الروح الودية تجاه الروس خلال لقائه بهما ولكن ذلك لم يمنعه من الوقوف فى وجه محاولاتهما فتح قنصلية فى بلاده .

لم تنقطع زيارات المسؤولين الروس عن منطقة عربستان منتهزين فرصة الضغوط الإيرانية عليها لوضع عوائدها تحت إشراف إيران . وعلى الرغم من نجاح الروس فى تعيين وكيل لهم فى عربستان عام ١٩٠٢ إلا أن زيارات المبعوثين الروس لهذه الإمارة عام ١٩٠٤ لم تحقق ما كان مرجواً فى الوقت الذى حدثت اتصالات روسية - بريطانية حول النفط فى عربستان.

ويدأ التشدد البريطانى واضحًا تجاه التطلعات الروسية فى منطقة الخليج العربى فى العديد من التصريحات التى أدلى بها المسؤولون فى الحكومة البريطانية وخاصة تخوفهم من إخضاع بندر عباس تحت السيطرة الروسية مما قد يشكل خطراً على مستعمراتها فى الهند ، ففى الوقت الذى لاتنكر فيه بريطانيا على روسيا تقدمها فى شمال إيران فانه ينبغى أن تعترف روسيا لبريطانيا بمصالحها فى الجنوب ، وعندما نشبت الحرب الروسية - اليابانية عام ١٩٠٤ اتجهت بريطانيا للحيلولة دون استخدام الساحل العمانى لتموين الأسطول الروسى المتجه إلى اليابان لإبقاء منطقة الخليج العربى بعيدة عن العمليات العسكرية .

فقدت روسيا هيبتها بانتصار اليابانيين عليها عام ١٩٠٤ وبعدها انحازت إيران لبريطانيا واضطر الروس للتفاهم مع بريطانيا التى كانت حكومتها المشكلة من الأحرار عام ١٩٠٦ تريد الحصول على ضمان من روسيا بالإمتناع عن القيام بحركات عدائية تجاه الهند وموانىء الخليج العربى مما قد يخفف كثيراً من أعباء بريطانيا فى الهند من الناحيتين المالية والعسكرية وتعثرت المفاوضات فى بادىء الأمر بالرغم من وساطة فرنسا التى أصبحت حليفة تقليدية لروسيا وصديقة جديدة لبريطانيا خوفًا من الخطر الألمانى . وكانت بريطانيا تصر على أن ينص الاتفاق مع روسيا على اعترافها بالوضع الراهن فى حين كان الروس يرون أنه لو كانوا يعترفون بالمصالح البريطانية القائمة فى الخليج العربى فهم يعتبرون أن الإبقاء على النص المختص بالوضع الراهن فى الاتفاقية أمر لايخص بريطانيا وروسيا وحدهما ، وإنما يخص دولاً أخرى فى المنطقة كالدولة العثمانية وفرنسا ألمانيا وأن ذلك يحرج روسيا بنظر الدول الأخرى . ولذلك كان من رأى روسيا استبعاد الإشارة إلى المصالح البريطانية فى الخليج العربى من نص الاتفاقية وكان الرأى العام البريطانى يعلق أهمية كبرى على أن ينص على هذا الموضوع فى الاتفاقية. ولو أدى إلى أن تصدر بريطانيا بيانًا لاحقًا للاتفاقية بأن اعتراف روسيا بالمصالح البريطانية فى الخليج العربى أمر ينطبق عليها لوحدها غير أن حرص روسيا على علاقتها مع ألمانيا ورغبتها فى عدم إثارة الدولة العثمانية دفع بريطانيا للاستجابة لرغبة الروس . لذلك استقر رأى الحكومة البريطانية على استبعاد منطقة الخليج العربى من الاتفاقية (١٥).

وعقدت الاتفاقية أخيراً بين الفريقين بعد اعتراف روسيا بالمصالح البريطانية فى الخليج العربى وسويت الخلافات بين البلدين أثر توقيع الاتفاقية التى وافق عليها الطرفان عام ١٩٠٧ والتى قسمت إيران إلى منطقتى نفوذ روسية وبريطانية مع منطقة محايدة بينهما

وبهذه الاتفاقية تخلصت بريطانيا من المنافسة الروسية أو بالأحرى من الأطماع الروسية للوصول إلى الخليج العربى عن طريق السكك الحديدية الإيرانية وهيمنت هى على جنوب إيران . وهدأت الأمور بين الدولتين الاستعماريتين ولكن على حساب الشعب الإيرانى. ولكن فكرة الوصول إلى المياه الدافئة المفتوحة والتى خمدت منذ ذلك الوقت ستتخذ لها فى المستقبل آفاقًا جديدة (١٦). ولم تقتصر الاتفاقية على الخلافات بين الطرفين فى إيران بل ركزت على الأوضاع فى كل من التبت والأفغان . والواقع أن هذه الاتفاقية والمفاوضات مع ألمانيا حول مشروع سكة حديد بغداد والاتفاقية الانجلو - عثمانية لعام ١٩١٣ كرست مرة ثانية مركز بريطانيا فى الخليج العربى ولكن لفترة قصيرة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى حيث يظهر منافس شديد ولكن لفترة قصيرة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى حث يظهر منافس شديد ولكن من الناحية الاقتصادية ألا وهو الأمريكيون وحصولهم على الامتيازات النفطية .

بريطانيا وألمانيا :

تسوى الدول الأوروبية الاستعمارية عادة أمورها خارج القارة الأوروبية على حساب الشعوب الأخرى فى العالم الثالث . وذلك حسب المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للدولة المستعمرة والتى قسمت الجهود حسب مصالحها ، فعندما تضاربت مصالح روسيا وبريطانيا فى إيران فانهما اقتسمتاها فيما بينهما ، كما اتفقت بريطانيا مع ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى لاستغلال بترول العراق مقابل تخلى الأخيرة عن مشروع سكة حديد برلين - بغداد المقرر إيصاله إلى الكويت . وأصبحت البصرة نقطة الانتهاء بدلا من الكويت ولكن عندما تضاربت المصالح فى القارة الأوروبية اندلعت الحرب العالمية الأولى .

اتجهت السياسة الألمانية إلى الخليج العربى قبل الحرب العالمية الأولى ونظراً لسيطرة بريطانيا على البحار فانهم اتجهوا عن طريق البر بعدما قربت السكك الحديدية المسافات البعيدة ، ونظراً للتقارب بينها وبين الدولة العثمانية التى كانت تنظر لها كدولة صديقة ليست لها أطماع فى أقاليمها ، كما أنها تساعدها عسكريًا وفنيًا للوقوف فى وجه أطماع روسيا وبريطانيا فى الوقت الذى تنظر ألمانيا إلى الدولة العثمانية بأهمية موقعها الاستراتيجى واتساع بلادها وتخلفها مما يساعدها على تقوية نفوذها السياسى والعسكرى والاقتصادى . ولهذا بدأ الألمان يعملون لمنافسة بريطانيا ومد نشاطهم إلى آفاق أبعد من

أوروبا بما فيها الوصول إلى الخليج العربى ولكن ليس عن طريق الجيوش مثلما حدث مع غزاة الشرق القدامى وإنما عن طريق سكة حديد من برلين إلى بغداد - الكويت أى إلى أبواب الهند . وكانت وزارة الخارجية البريطانية قد أكدت عام ١٨٧٥ على الأهمية السياسية لكل ميل من السكك الحديدية باتجاه الهند وقد بدا للبريطانيين أن الألمان سيصبحون بعد فترة وجيزة مسيطرين على مشاريع السكك الحديدية وستلعب برلين ولندن دورهما فى الأفضلية السياسية والمالية للباب العالى .

وجد الالمان أن إيصال عاصمتهم بشكل مباشر مع الخليج العربى عن طريق ما يعرف باسم «سكة حديد برلين - بغداد» سيضمن لهم إيصال تجارتهم إلى الشرق بأقرب الطرق وأسرعها وفى الوقت ذاته يمكنهم التحرك فى أثناء الحرب والوصول إلى الخليج العربى ودفع قواتهم بأسرع ما يمكن ، ويعتبر الألمان أول من حاول استغلال السكك الحديدية لنقل الجيوش بالسرعة الممكنة . ولاشك فى أنه لم يغب عن أذهانهم استخدام هذا الخط فى حروب مقبلة والتى كان يستعد ويحضر لها غليوم الثانى امبراطور ألمانيا حيث يمكنهم من الوصول إلى الخليج العربى وتهديد المستعمرات البريطانية فى الهند دون المرور بالبحر . وكان هدفهم جعل نهاية الخط فى البصرة أو الكويت والأخيرة هى المفضلة بسبب بعدها عن مجارى المياه والأخوار فى الوقت الذى كان السياسيون البريطانيون مختلفين فى موضوع سكة حديد «برلين-بغداد» والتعاون مع الألمان بشكل عام ؛ فاللورد بلفور كان يعتبر التعاون مع المانيا خطراً على بريطانيا فى حين كان اللورد هاملتون يرى عكس ذلك فقد صرح فى ٢٧ / ٤ / ١٩٠٠ بأنه على الرغم من أنه لايحب الألمان إلا أنه يفضل التعاون معهم أكثر مما يفضل التعامل مع الروس ، ولذلك كان يصر على فتح الخليج العربى أمام التجارة العالمية وإفساح المجال أمام الألمان . وكان يرغب فى العمل على كسب صداقتهم أفضل من عدواتهم وفتح المجال أمامهم للتجارة والتعاون وبما أنهم لم يستطيعوا منع الألمان من مد خطهم الحديدى فقد عملوا على حل قضية مركز الكويت والخليج العربى الدولى (١٧).

توصل الطرفان فى ٢٩ يوليو ١٩١٣ إلى مسودة اتفاقية اعترفت فيها بريطانيا بأن الكويت جزء من الدولة العثمانية . كما أن العثمانيين وعدوا بعدم التدخل فى الشؤون الداخلية لشيخ الكويت بما فى ذلك مسألة الوراثة على أن يرفع الشيخ العلم العثمانى . وقد عين قائمقام فى الكويت لتكون له السلطة لحماية الرعايا العثمانيين والمصالح العثمانية فى

المنطقة . واعترفت الحكومة العثمانية مقابل ذلك بالاتفاقية المعقودة بين الكويت وبريطانيا عام ١٨٩٨ . بالإضافة إلى ذلك وضعت بريطانيا شيخ عربستان تحت حمايتها كما طلب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى من الشيخ مبارك الصباح تقديم ضمان مكتوب يتعهد به الشيخ بعدم التنازل عن حق التنقيب عن النفط فى منطقته إلا لشركة بريطانية ، وأعطى هذا الضمان فى ٢٧ أكتوبر ١٩١٣ . ولم تكتف بريطانيا بتثبيت نفوذها فى الخليج العربى بل ساومت ألمانيا وظلت الدبلوماسية البريطانية تعمل بهدوء حتى تم التوقيع ، فى التاسع عشر من مارس ١٩١٤ ، فى وزارة الخارجية البريطانية على اتفاق بترولى بين بريطانيا والمانيا حول حصة كل منهما فى شركة البترول التركية (ذات الخلفية الألمانية) ، وبذلك ضمنت بريطانيا حصتها من البترول العراقى . مقابل ذلك وافقت بريطانيا وأعلنت استعدادها لتوقيع اتفاقية خط برلين - بغداد وأعلنت موافقتها الأولية فى الثامن والعشرين من شهر يونيو ١٩١٤ وكان الخط يسير قدماً نحو العراق وقد اتفق على أن تكون البصرة نهايته . ومن المستغرب أن تندلع الحرب بين الطرفين وبريطانيا وألمانيا برغم التعاون الوثيق بينهما ليس فقط فى الخليج العربى والعراق ولكن أيضاً فى القارة الأفريقية ، والواقع أن مشاكل القارة الأوروبية كانت هى السبب فى اندلاع هذه الحرب [١٨] مما كان فرصة ذهبية لبريطانيا ، وأصبح المجال مفتوحاً أمامها لاحتلال العراق ووضعه تحت حمايتها بعد سيطرتها الكاملة على الخليج العربى والقسم الأكبر من إيران والساحل العربى .

الهوامش

١- د. محمد عرابى نخلة - الرجع السابق ص١٠١ .

٢- د. حمد عرابى نخلة - نفس المرجع ص١٠٩ .

٣- د. محمد عرابى نخلة - نفس المرجع ص١١٤ .

٤- د. محمد عرابى نخلة - نفس المرجع ص١٥٣ .

٥- د. محمد عرابى نخلة - نفس المرجع ص١٦٧ .

٦- د. عبد العزيز المنصور - التطور السياسى لقطر فى الفترة ١٨٦٨ - ١٩١٦ ص٧٢ .

٧- د. فؤاد سعيد العابد - سياسة بريطانيا فى الخليج العربى - ١٨٥٣ - ١٩١٤ ص٩٠ .

٨- د. فؤاد سعيد العابد - نفس المرجع ص٩٤ .

٩- سيد فاروق حسنت - المرجع السابق ص٩٠ .

١٠- د. فؤاد سعيد العابد - نفس المرجع ص٩٥ .

١١- د. فؤاد سعيد العابد - نفس المرجع ص٦٨ .

١٢- د. فؤاد سعيد العابد - نفس المرجع ص٦٨ .

١٣- د. سيد نوفل - المرجع السابق ص٧٩ .

١٤- د. فؤاد سعيد العابد - المرجع السابق ص٢٧ .

١٥- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص٣٤٦ .

١٦- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص٣٤٧ .

١٧- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص٢٦٦ .

١٨- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص٢٦٧ .

الفصل السادس

التاريخ الاقتصادى للخليج العربى

فى العصر الحديث ١٥٠٧ - ١٩٠٨

المرحلة الأولى :

تنافس شركات الهند الشرقية الأوروبية ١٥٠٧ - ١٨٢٠

- تجارة البصرة فى عهد المغامس

- تجارة البصرة فى عهد آل افراسياب

المرحلة الثانية :

فترة هيمنة الاستعمار البريطانى على الخليج العربى ١٨٢٠ - ١٩٠٨ .

- النشاط الاقتصادى التقليدى فى الخليج العربى

- بريطانيا والنشاط التجارى فى الخيج العربى

التاريخ الاقتصادى فى الخليج العربى

المرحلة الأولى :

تنافس شركات الهند الشرقية الأوروبية ١٥٠٧٨ - ١٩٠٨ :

ترجع الأهمية التجارية للخليج العربى لموقعه الجغرافى الذى ساهم فى التجارة العالمية عبر العصور لوقوعه فى قلب العالم القديم وسيطرته على الطرق البحرية التى تربط الشرق والغرب ، وكان الخليج العربى أحد المنافذ البحرية للمحيط الهندى مما جعله حلقة وصل بين الهند والدول التجارية المستوردة لمنتجاتها فى الغرب ولعب التجار العرب دور الوسطاء فى نقل هذه التجارة . كما كان عرب الخليج يمتازون بالملاحة البحرية ويعملون فى الصناعة التقليدية البدائية والزراعة البسيطة التى كانت تغطى الحاجات المعيشية فى تلك الفترة .

استمر العرب فى نقل التجارة التقليدية كما استفادوا من تجارة العبور (الترانزيت) بين المحيط الهندى والبحر المتوسط مروراً بالخليج العربى والبحر الأحمر ، وتركزت التجارة فى كل من مملكة هرمز العربية وعمان والبحرين والبصرة حتى جاء الاستعمار البرتغالى وسيطر على الطرق والمراكز التجارية منذ عام ١٥٠٧ وحتى تحرير مسقط ١٦٥٠ ، ومنع البرتغاليون مرور أية سفن تجارية فى الخليج العربى دون تصريح من قبلهم وعقدوا اتفاقيات مع التجار المحليين وحكام المنطقة وبذلك تحكموا فى تجارة البهارات والتوابل الشرقية مما كان له أبعد الأثر على التجار العرب فى المنطقة . مما أدى إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية التى اعتمدت على الحركة التجارية إلى حد كبير .

تحولت جهود عرب الخليج من النشاط التجارى إلى مقاومة الاستعمار البرتغالى طيلة فترة الاحتلال وحتى التحرير ، حيث أعقب ذلك الدخول فى منافسة مع استعمار آخر جاء أيضًا من أوروبا ألا وهو الاستعمار الهولندى والبريطانى ، إلا أن قوة عرب عمان من اليعاربة الذين طردوا البرتغاليين وأسسوا بحرية قوية كانت رادعًا للاستعمار الأوروبى الجديد من فرض الهيمنة السياسية طيلة حكم اليعاربة خشية من أسطولهم ، ومن بعدها دخل أبناء المنطقة من جديد فى مواجهة هذا الاستعمار. إلا أنه كان هناك بعض الهامش الذى من خلاله استطاع التجار العرب ممارسة نشاطهم والاستمرار فى الحركة الاقتصادية .

أتاح تدفق الذهب البرتغالى تدعم تجارتها وتوسعها فى الهند والشرق الأقصى فزاد الطلب على المنتجات اشرقية بعد أن أصبح المال متوفراً لدى أغلب طبقات الشعب وتنوعت المواد المستوردة . واستمرت تجارة المضاربة التقليدية حتى القرن التاسع عشر عندما انقلب الميزان التجارى الذى كان لايزال لصالح الشرق إلى صالح الدول الصناعية . وذلك لعدة أسباب منها سقوط الأساليب التجارية التقليدية المتمثلة بتجارة المضاربة و «الترانزيت» التى استمرت طوال فترة الوجود البرتغالى الذى تكيف مع تلك الأساليب التجارية العربية ولم يدخل البرتغاليون أية أنظمة جديدة فى الحركة التجارية والتى وصلت إلى حدود التشبع مع بداية القرن السابع عشر . وبذلك لم تستطع الأنظمة الاقتصادية البرتغالية مواجهة الأنظمة الاقتصادية الناشئة للرأسمالية فى غرب أوروبا والمتمثلة فى شركتى الهند الشرقية الهولندية ثم البريطانية فيما بعد .

لم تكن هرمز تستطيع الصمود أمام هذه المواجهة الاقتصادية الجديدة برغم أنها كانت المركز الرئيسى للتجارة التقليدية فى أوج قوتها وتوسعها، واستمرت كذلك فى عهد السيطرة البرتغالية تتمتع بمركزها المالى الكبير بل ورثت البذخ والغنى البرتغالى ، ولم تطور الأساليب التجارية فى الوقت الذى كان البرتغاليون أكبر جامعى الضرائب فى المنطقة فى تلك الفترة ولهذا انتهت من التاريخ بعد سقوطها دون رجعة .

ففى الوقت الذى كان الشرق هو المصدر وأوروبا المستهلك لم تكن المنتجات الأوربية ذات قيمة لدى الشرقيين . كان هذا التوسع شؤمًا على اسبانيا والبرتغال وميمونًا على هولندا وبريطانيا ومنها أثرى الاسبانيون والبرتغاليون بسرعة ولكنهم أخذوا يبذرون المال بسرعة أيضًا ولم يستفيدوا من الفائدة المطلوبة فى التنمية الصناعية والزراعية التى بدأ غيرهم من الشعوب الأوروبية السير فى طريقها . لذلك أصابهم الانحطاط هم والبرتغاليون قبل أن يفقدوا مستعمراتهم وكانوا يشترون منتجات الهند الشرقية والغربية بما لديهم منه ذهب وفضة رغم أنهم أول من جلبها بتدابير دعيت بالسياسة المعْدنية أو التجارية فكانت البضائع تهرب خلسة وتفرغ بسهولة .

استطاع المنتجون الأوروبيون تنمية ثرواتهم بزيادة الانتاج وتحسين نوعيته فازداد الدخل مع ازدياد وسائط الانتاج واتسعت كما وكيفما والمؤسسات التجارية الخارجية وظهرت المصارف التى تمدها بالمال رغم استعمال وسائل الاقراض التجارية [١]، وفى هذه الفترة بدأ اضمحلال أسبانيا ليحل محلها دول استعمارية جديدة ورثت كلاً من الدول الاستعمارية القديمة مثل أسبانيا والبرتغال .

لو نظرنا إلى واقعنا الحالى بالأمس القريب وما حدث لأسبانيا والبرتغال ، فنجد الدول البترولية لديها إمكانات هائلة والمال ينصب عليها دون التفكير فى ايجاد وسائل الانتاج الصناعى والزراعى بدلاً من الاستهلاك ، فهذه الدول أصبحت تستهلك وتصرف عوائد النفط دون حساب ، وقد نخشى للأجيال القادمة من نضوب النفط دون أن نجد له استمرارية الدخل، فهل هناك خطط للتنمية الصناعية والزراعية وإذا لم يكن هناك الإمكانيات البشرية والزراعية يمكن التعاون مع بقية الدول العربية لتحقيق ذلك وليس إيجاد خطط وأهداف تنموية قطرية يستفيد منها الغرب والعمال الآسيويون .

هناك سبب آخر أيضًا فى تفوق شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية على شركة الهند البرتغالية هو التنسيق والتعاون بين نشاطات الدولة الاستعمارية وبين التجار والوكلاء الذين كانوا بمثابة الرواد الأوائل للتجارة الرأسمالية والذين كانوا يقومون بتسويق البضائع وتكوين أسواق محلية وشبكة توزيع فى دول المنطقة . وهذا ما كان يفتقر إليه البرتغاليون الذين أصبحوا يتعاملون مع ممثلى أو وكلاء دولة عسكرية مدججة بالسلاح . كما كانت الأسعار محدودة بالاتفاقيات الرسمية بين الدول وأصبحت التجارة مقننة من قبل البرتغاليون دون أن تغير من واقع العلاقات الاقتصادية والسياسية على المستوى المحلى .

من هنا يمكن القول بأن الشركات الأوروبية وحكوماتها الاستعمارية كانت تنسق سياستها معًا لخدمة النظام الاقتصادى الرأسمالى بهدف الحصول على الربح بطرق عقلانية وبكفاءة عالية فى توظيف المال والموارد الاقتصادية والمادية لتوليد هذا الربح ولإحداث التراكم الرأسمالى من ناحية ثانية على عكس البطش والعنف العسكرى البرتغالى فى عدم توظيف تلك الأموال إلى إنتاج صناعى ، وإنما صرفها على البذخ الكمالى .

لم تعد الرأسمالية حكراً على أوروبا منذ بداية القرن السادس عشر علمًا بأن تجارة المضاربة التقليدية التى مارسها العرب والتى ازدهرت بين القرنين الثامن والحادى عشر كانت الثورة التجارية فى تلك الفترة قبل أن تطور من قبل النظام الاقتصادى الأوروبى وتتحول إلى النظام الرأسمالى الذى حسم الصراع لصالحها بعد الهيمنة الارستقراطية التقليدية فى أوروبا ، كما لم يشكل التجار ذلك الثقل الكبير فى نظام الحكم السياسى أو البيروقراطية العسكرية والاقطاعية التى كانت تتولى اتخاذ القرارات الحاسمة ، ولكن المزاوجة بينهما حدثت فى الظروف التاريخية للقرن السابع عشر مما كان له أبلغ الأثر فى تطور النظام الرأسمالى واستيعابه للعالمين القديم والجديد .

تمتعت السفن التجارية لشركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية والتجار المنطوين تحت لوائهما بحماية كاملة من السفن الحربية لهاتين الشركتين اللتين قامتا بتمويلها على الطرق التجارية وكانتا قادرتين على تغطية التكاليف العسكرية بسعر التكلفة سواء عن طريق الأرباح المالية من سعر البضائع أو الوكلاء والتجار أو عن طريق طرف ثالث كسلطان أو ملك أو حاكم منطقة أو مدينة ، فى الوقت الذى كان البرتغاليون يقومون بتحصيل تكاليف الحماية العسكرية من تجار المضاربة مباشرة والذين كانوا مضطرين إلى دفع هذه الأتاوات فى شكل ضرائب فى كل ميناء ومحطة حسب تقلبات الأوضاع وجشع الحكام . ولم يكن فى تصورهم القيام بالتجارة بأنفسهم وإنما يكتفى التجار بشحن البضائع عن طريق شركات الحكومة البرتغالية وتحصيل الجزية والرسوم من الموانىء التجارية . ولابد أن تكون تكاليف إتاوات الحماية كبيرة فى ظل السفن الخاصة وبتوظيف الوكلاء عل نطاق واسع من التواصل إلى السيطرة الاحتكارية بالأسعار على نطاق عالمى . وهو هدف لم يستطع تحقيقه أحد من تجار المضاربة التقليدية وقد يرجع إلى الجهود الجماعية التى قد تكون أقوى من الجهود الفردية ومن هنا كان إنشاء المؤسسات والشركات الكبرى ذات مساهمة جماعية لتحقيق السيطرة والاحتكار .

نجحت هذه الشركات عن طريق تلك السياسة التجارية التى ذكرناها فى تكوين الأصول على المدى البعيد وليس عن طريق طلب الربح السريع المباشر ، كما ضمنت مساهمة الوكلاء وشركائهم المحليين من تجار المنطقة بفكاءة عالية فى سعر الشراء والتوصيل والتوزيع . وهذا يعنى بأن التوفير الذى ترتب على حماية الشركات نفسها بحصولها على تكاليف الحماية العسكرية الكلفة وحصولها على البضائع الاستراتيجية عالية الربح وتخزينها بكميات كبيرة وعلى المدى البعيد كانت قادرة على أن تحمى نفسها من تقلبات الأسعار الحادة التى هى سمة بارزة من سمات تجارة المضاربة التقليدية ، وبذلك سيطرت على الأسواق المحلية والعلمية بكفاءة عالية ونجحت فى المنافسة المحلية والعالمية إلى حد كبير ، وعن طريق هاتين السمتين باستدخال تكاليف الحماية العسكرية وتحقيق السيطرة الاحتكارية بالسلع الاستراتيجية عن طريق تكوين الأصول فى التجارة العالمية تمثلان ابتكارات تنظيمية جديدة على المستوى المؤسس أسهمت فى التحول الاقتصادى الحاسم بشكل تزامن مع ظهور التفوق العسكرى لدى شمال غرب أوروبا هولندا أولاً ثم بريطانيا ثانيًا ، وكانت الحتمية المباشرة لهذا التحول مركز

الثقل الاقتصادى من موانىء الجزيرة العربية والشرق إلى خطوط التجارة الجديدة المارة برأس الرجاء الصالح وانتقال مركز الثقل الاقتصادى فى التجارة العالمية من البحر المتوسط كله إلى المحيط الأطلسى فى القرن الثامن عشر(٢).

إذا ما اعتبرنا سقوط هرمز العربية نهاية تجارة المضاربة التقليدية والتى استمرت منذ فترة الحكم الإسلامى وامتداداً لحكم هرمز عبر أكثر من قرنين من الزمان ، فان دخول شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية مع بداية القرن السابع عشر هى بداية النظام الاقتصادى العالمى الجديد الذى هيمنت عليه الرأسمالية الأوروبية الصادرة برغم أن تجارة المضاربة التقليدية العربية استمرت برغم سقوط هرمز ولم تنهار دفعة واحدة بل تواصلت حتى منتصف القرن التاسع عشر قبل أن تختفى نهائيًا فى المنطقة . وقد يرجع هذا التأخير بسبب الصراع الاستعمارى الأوروبى للهيمنة على المنطقة والذى بدأ بالصراع الاقتصادى والسياسى من الخليج العربى من قبل بريطانيا من جهة والقضاء على المقاومة العربية فى المنطقة واحتلال كل من ساحل عمان عام ١٨٢٠ والسيطرة على مدخل الخليج العربى واحتلال عدن عام ١٨٣٩ والسيطرة على مدخل البحر الأحمر وإبعاد النفوذ المصرى من الخليج والجزيرة العربية ١٨٤٠ ومن ثم حفر قناة السويس والسيطرة على مصر فيما بعد . وكان ذلك التنافس الاقتصادى والاحتلال العسكرى والهيمنة السياسية البريطانية فى المنطقة يسير جنبًا إلى جنب مع تصاعد الإنتاج الصناعى الأوروبى والتراكم المالى للرأسمالية الأوروبية الذى أدى إلى توسيع الأسواق الاستهلاكية مع السيطرة على المواد الخام الاقتصادية الأولية بالاحتلال العسكرى لشعوب العالم الثالث .

بذلك يمكن القول بأن النشاط التجارى فى الشرق انتقل مع بداية القرن السابع عشر من البرتغاليين إلى الشركات الأوروبية الهولندية والبريطانية دون أن تمر عبر العرب ؛ أى أن الاحتكار التجارى لم يتغير بزوال البرتغاليين وإنما استمر بوجه آخر جديد ، فى الوقت الذى ظهر النشاط التجارى العمانى فى عهد اليعاربة منافسًا لهم ولكنه لم يستمر وانتهى بنهاية الدولة اليعربية فى حين استمر الاحتكار الأوروبى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عندما جاءت الولايات المتحدة الأمريكية كشريك جديد وقوى . وقبل الانسحاب البريطانى جاءت اليابان والصين وألمانيا كشركاء أقوياء فى تجارة الخليج العربى دون أن يكون لأصحاب المنطقة القدرة فى التحكم فى النشاط التجارى من الداخل وإنما فرض عليهم من الخارج وبذلك يعتبر من أهم تحديات الحاضر .

لقد بذل التجار البريطانيون جهداً وقاموا بمحاولات عديدة للسيطرة على المراكز التجارية فى الخليج العربى لتحقيق مصالحهم من جهة وخدمة اقتصاد بلادهم من جهة أخرى ، ولما كانت الجهود الفردية لاتحقق أهداف الدول الأوروبية الاقتصادية فى الشرق فقد تأسست شركات الهند الشرقية الأوروبية منذ عام ١٦٠٠ . وكان أهمها الشركة الهولندية والبريطانية والفرنسية فيما بعد ، وقد يكون من أسباب تأسيس تلك الشركات الأوروبية هو الأهمية الاقتصادية لتجارة التوابل فى التجارة العالمية فى هذه الفترة قبل أن تتحول إلى شركات احتكارية للتجارة ثم رأسمالية استعمارية لشعوب الشرق فيما بعد .

هناك أسباب أخرى أدت لتكوين هذه الشركات منها التقارير التى كتبها بعض المغامرين والتجار الهولنديين والبريطانيين بعد جولتهم فى الشرق والتى تحدثت عن الامكانات التجارية الكبيرة للمشرق ، إضافة إلى تعدد الوسطاء مع رفع أسعار البضائع الشرقية فى أوروبا الوسطى والغربية ومعرفة أهمية التوابل للأوروبيين فى ذلك الوقت والتى كانت تستخدم فى حفظ اللحوم المقددة كما كانت التوابل تمزج بالخمور ، ولاتنسى الوجود. البرتغالى واحتكاره لتجارة الشرق ورغبة الهولنديين فى منافسة البرتغاليين بل ووراثتهم فى هذا الوجود ومن ثم منافسة البريطانيين لهم خاصة فى الخليج العربى والهند وتفوق البريطانيين على الهولنديين منذ أوائل القرن الثامن عشر ، وحصل اتصال نشط بين المناطق المنتجة للمواد الخام الأولية والأسواق الاستهلاكية الأوروبية التى تحولت إلى صناعية فيما بعد وأصبحت قوة كبرى تزود أوروبا بالبضائع فى القرن السابع عشر ممثلة فى شركات الهند الشرقية الأوروبية . وأدى ذلك إلى اشتداد المنافسة على تجارة الشرق بين قوى أوروبية لتلك الشركات فى هذه الفترة .

زاد إقبال الأوروبيين على الحرير الخام وصوف كرمان وانصب اهتمام الشركتين الهولندية والبريطانية على تصدير المواد الخام من إيران ، ولم يقتصر نشاطهما على استيراد المنتجات بل شمل أيضًا تصدير المتجات الهولندية والبريطانية مثل المنسوجات والأقمشة والقصدير والنحاس والأخشاب والأرز من أندونيسيا والهند إلى الخليج العربى .

نظراً لازدياد النشاط التجارى الذى يدفع بالهيمنة السياسية التى تجلب معها القوة العسكرية للحفاظ على تلك المصالح الاقتصادية اتجهت دول أوروبا إلى استعمار المشرق . ويمكن القول بأن المصالح الاقتصادية مع ضعف القدرة الدفاعية للشرق دفعت الشركات الأوروبية لأن تتحول إلى دول استعمارية لحفظ مصالحها فى المنطقة .

فمع تزايد التجارة بين الخليج العربى وهولندا وبريطانيا أصبحت الدولتان تفكران فى السيطرة على تجارة هذه المنطقة واستقرارها لصالحهما، بقصد الهيمنة الاستعمارية على الخليج العربى بهدف حماية امدادات الطرق التجارية والمراكز الاستراتيجية وعدم إفساح المجال أمام القوى الأخرى للمنافسة . ومن ثم اقتصرت المنافسة فيما بينهما حتى تفوقت بريطانيا وسيطرت على الخليج العربى قبل أن تستسلم للولايات المتحدة بعد انسحابها من المنطقة .

تركز اهتمام شركة الهند الشرقية البريطانية الأساسى على التجارة خلال المئة والخمسين عامًا الأولى من قيامها . ولكن نشاط الشركة لم يقتصر على التجارة بل تجاوزها إلى المجالات السياسية والعسكرية بحجة الرغبة فى توسيع النشاط التجارى وحمايته وخاصة بعدما انتشرت الأسواق للبضائع البريطانية فى المنطقة فى هذه الفترة واتسعت أسواق المواد الغذائية لشركة الهند الشرقية البريطانية . وأصبح أمراً طبيعيًا أن يكون لبريطانيا تأثير فى الخليج العربى لحماية مصالحها . وبما أن شركة الهند الشرقية مرتبطة بالاستعمار البريطانى تمكنت من اقامة أوضاع تابعة لها ولعبت دوراً أقرب إلى دور الدولة داخل الدولة فى الخليج العربى بتأثير قوتها ونفوذها . ولذلك كانت العلاقات التجارية متينة بين عمان وساحل عمان والهند على سبيل المثال وذلك بعد سقوط دولة اليعاربة ومجىء البوسعيد إلى الحكم مما زاد عدد الجالية الهندية ولعبت دوراً هامًا فى النشاط التجارى . ونشطت شركة الهند الشرقية البريطانية بين بومباى ومسقط التى أنشأت فيها محطة لاسلكية وقدمت خدمات إلى سلطان عمان(٣).

نشطت الحركة التجارية بين موانىء الخليج العربى والهند ونتج عنها امتصاص الأسواق المحلية فى الخليج العربى للبضائع المصدرة إليها من الهند . وكانت نوعية تلك البضائع تتكون من القماش القطنى والسكر والحلوى والآنية الخزفية والزنجبيل وكافور المسك والفلفل الأسود والكركم والتوابل الهندية والحديد والرصاص والخشب والقهوة والمواد الغذائية والقطن، وفى المقابل كانت تصدر موانىء الخليج العربى إلى الهند الحرير والصوف والسجاد والذهب والفضة والخيول واللؤلؤ واللبان والصمغ اللتين يتركز انتاجهما فى ظفار وحضرموت . وكانت تجارة رائجة فى المنطقة وخارجها فقد كان يصدر إلى العراق عن طريق الخليج العربى ثم إلى الشام وأوروبا وكذلك إلى الهند ، ويمكن تقسيم السلع الاستراتيجية فى هذه الفترة فى موانىء المنطقة كالتالى :

١- البهارات : جوز الطيب - الزعفران - الزنجبيل - القرفة - القرنفل . . الخ .

٢- التوابل : الفلفل على أنواعه وخاصة الفلفل الأسود والكركم .

٣- الأغذية : القمح - الأرز - التمور - الحلوى .

٤- الزيوت : وخاصة زيت جوز الهند .

٥- المنبهات : القهوة - السكر - الشاى .

٦- العطارة : اللبان - البخور- عنبر- دهن العود (زيت العود)- المسك - الصمغ - كافور .

٧- الأسلحة التقليدية : وبخاصة السيوف والرماح اليمنية - الحديد - النحاس - الرصاص - الخشب .

٨- الأحجار الكريمة : اللؤلؤ - الياقوت - الزمرد - الذهب - الفضة - الأوانى الخزفية والفخارية .

٩- الحيوانات : الخيول - الجمال - الحمير .

١٠- المنسوجات : الملابس - النيلة - السجاد - الأصواف - الأقطان التى لعبت دوراً كبيراً فى التطور الصناعى الرأسمالى على أساس كون صناعة المنسوجات المجال الأول للتصنيع .

تختلف أهمية هذه السلع بمقدار ما تدره من الأرباح بشكل تفاضلى وكذلك بمقدار الكميات المتداولة فى الأسواق المحلية وكذلك العابرة (الترانزيت) إلى المناطق الداخلية والبعيدة عن ساحل الخليج العربى . وتختلف كذلك بدرجة تأثره بالنشاطات الاحتكارية لشركات الهند الشرقية الهولندية والبريطانية ، فالحرير الصينى والفارسى تأثر بدرجة أقل من البهارات وبخاصة بعد دخول الحرير السورى مجال التبادل العالمى فى نهاية القرن الثامن عشر بعد سيطرة التجار البريطانيين والفرنسيين . وقد تأثرت الحركة التجارية العربية من جراء الاحتكارات الأوروبية واستمرت تجارة المضاربة التقليدية فى الخليج العربى وإن كانت الشركات الأوروبية نجحت فى النهاية فى السيطرة لصالحها على عمليات البيع والشراء فى السلع الاستراتيجية . ولكن تجارة التوابل والبهارات هى التى تأثرت فى فترة مبكرة لصالح الاحتكارات الهولندية والبريطانية منذ نهاية القرن السادس عشر . وأدى ذلك إلى خسارة

كبيرة للحركة التجارية العربية فى المنطقة وبالتالى لتجارة المضاربة التقليدية وخاصة بعد السيطرة الاستعمارية الهولندية والبريطانية والفرنسية فيما بعد واحتلالهم للمناطق التجارية الرئيسية فى المحيط الهندى حيث مصادر السلع التى كان تجار المضاربة العرب وسطاء رئيسيين لها(٤).

يستهلك جزء من هذه البضائع محلياً فى المدن الساحلية ويصدر البعض الآخر إلى المناطق الداخلية وخاصة من البصرة إلى الشام وتركيا ومن سواحل البحر المتوسط إلى أوروبا ، كما أن صادرات الهند إلى الخليج العربى فاقت قيمة الواردات منها وكانت التمور تحتل مركز الصدارة فى صادرات العرب بينما يحتل الأرز مركز الصدارة فى صادرات الهند إلى عرب الخليج . وقدرت القيمة الاجمالية لتجارة الخليج العربى مع الهند عام ١٨٠٠ عشرة ملايين روبية هندية . وكانت تجارة الموانىء الإيرانية تتم على أيدى التجار العرب ، وكان المسافررون والمهاجرون والتجار والحجاج فى حركة دائمة ، وكانت السفن العربية وسيلة النقل الأساسية ذات الشهرة الواسعة فى هذا النشاط وقد بنى معظمها فى منطقة الخليج العربى والبعض الآخر فى مركز بومباى لصناعة السفن . وكان عدد السفن العاملة أكثر من أربعمائة سفينة خليجية مملوكة محلياً للتجار العرب ولكن انخفض عددها إلى النصف تقريباً عام ١٨٣٠ وذلك بسبب تدمير الأسطول البريطانى للسفن التابعة لسكان ساحل عمان بعد حملاتها العديدة وخاصة عام ١٨١٩ والتى كانت معظمها راسية فى موانىء ساحل عمان مما أثر على اقتصاد ساحل عمان وكذلك على اقتصاد الخليج العربى لفترة طويلة . وكانت سفن عرب الخليج تبحر للتجارة ما بين الهند والجزيرة العربية وشرق أفريقيا وبعضها الآخر كان يعمل فيما بين موانىء الخليج العربى المحلية والسفن التى كانوا يستخدمونها تقليدية شراعية ، فالسفينة الشراعية الكبيرة كانت تحمل حوالى ٣٥٠ طناً ولكن مضايقة سفن شركة الهند الشرقية البريطانية للسفن العربية كان لها تأثير سلبى على تجارة المنطقة (٥).

استخدم العرب فى هذه الفترة سفناً صغيرة إذا ما قورنت بالسفن الأوروبية التى طوروها مع نهاية القرن السابع عشر بحيث أصبحت أسرع وأكثر حمولة من السفن العربية كما كانت السفن الأوروبية تحمل الرجال المسلحين لحماية سفنها والتى أصبحت فيما بعد تستخدم البخار بدلاً من الشراع وبذلك تقدمت على السفن العربية . وبرغم أن القوافل التجارية البرية لعبت دوراً مهماً فى النشاط الاقتصادى إلا أن القوارب النهرية والشراعية كان لها دور

أيضًا فى النشاط التجارى الداخلى مثل نهر دجلة والفرات فى العراق فقد استخدم لنقل مختلف البضائع وكانت القوارب تنقل البضائع من بغداد إلى السفن الأوروبية الراسية فى شط العرب فى البصرة (٦).

تجارة البصرة فى عهد المغامس :

ازدهرت تجارة البصرة فى النصف الأول من القرن السادس عشر أى فى عهد آل مغامس من قبيلة المنتفق وكانت عامرة بسكانها وأصبحت مركزاً تجاريًا لهم برغم الاحتلال البرتغالى لمدخل الخليج العربى فانها لم تتأثر كثيراً . ومن ثم بدأت التجارة تتسرب من هرمز نفسها إلى البصرة . وكانت البضائع تتجمع فى البصرة بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب ، فكانت تأتيها البضائع من الهند وهرمز والبحرين وتنقل منها إلى إيران وبغداد ودمشق وحلب وموانىء بلاد الشام والجزيرة العربية والأناضول ومن موانىء البحر المتوسط تنقل إلى الموانىء الأوروبية وتقصدها السفن من كل الجهات حاملة إليها البضائع الشرقية كالتوابل والبهارات والعقاقير الطبية ومختلف أنواع الأقمشة وتعود منها محملة بالتمر وغيره من المنتجات العربية.واشتغل نسبة لا بأس بها من سكان البصرة فى جمع التمور وتجفيفها وتعبئتها .

لم تزدهر تجارة البصرة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ويرجع ذلك إلى الحكم العثمانى المباشر بعد القضاء على أسرة المغامس وسوء إدارتها نتيجة لأطماع ولاة البصرة وبغداد فى أموال التجار المحليين والأجانب وفقدان الأمن والاستقرار فى بعض المناطق لعرقلة القبائل العربية المجاورة للبصرة للتجارة الداخلية والدولية إضافةإلى القبائل القاطنة على طول الطريق التجارى بين البصرة وحلب .

تجارة البصرة فى عهد آل افراسياب :

امتنع تجارة الشام عن المجىء إلى بغداد والبصرة لنقل البضائع الشرقية لفقدان الأمن وسيطرة القبائل العربية على طرق التجارة البرية التى لم تكن آمنة دائمًا بسبب تعرضها لهجمات القبائل العربية . وعلى الرغم من ذلك فان التجارة الشرقية لم تنقطع عن البصرة إلا فى بعض الحالات التى سادت فيها الاضطرابات الشديدة الطرق التجارية المؤدية إليها مما ألحق ضرراً بالغًا باقتصاد البصرة الذى اعتمد على تجارة المرور .

عادت البصرة كمركز تجارى مهم للتجارة الأوروبية فى عهد آل افراسياب الذين فتحوا أبواب البصرة وممراتها المائية أمام التجار الهولنديين والبريطانيين والبرتغاليين الذين أقاموا مركزاً تجارياً وكانوا منافسين للبريطانيين ، وشجع ولاة بغداد التجارة مع البصرة لما تُدر عليهم من الأموال عن طريق الضرائب والرسوم الجمركية مما أدى إلى ازدهار المدينة. وبدأت شركة الهند البريطانية التجارة مع البصرة عام ١٦٣٥ عندما أرسلت سفينة محملة بالبضائع الهندية هرباً من المضايقات الهولندية فى إيران . وبعد عدة سنوات أرسلت موظفيها لتسويق بضائعها وتأسيس وكالة تجارية فى البصرة بعيداً عن منافسة الهولنديين ومنح باشا البصرة قطعة أرض عام ١٦٤٢ بالقرب من مركز الجمارك لتكون مقراً للوكالة ومنعهم من بناء مساكن للإقامة أو مخازن لحفظ البضائع ، وكان لدى البريطانيين استثمارات فى تجارة اللؤلؤ والخيول العربية والتمور ، وكانوا يستاؤون من الأساليب التى يتبعها التجار العثمانيين ومن إخفاق باشا البصرة الوفاء بوعوده تجاه شركة الهند الشرقية البريطانية التى قامت بنقل وكالتها وبضائعها من جمبرون «بندر عباس» إلى البصرة فى يوليو ١٦٤٥ بعد الضغوط الهولندية بعدما لحقهم الهولنديون وأفرغوا أسواق البصرة بأسطول تجارى محمل بالبضائع الشرقية فى ثمانى سفن فى نفس العام وألحقوا ضرراً بالغًا بالتجارة البريطانية وقضى على سمعتها وتسبب فى توقفها مؤقتًا (٧).

تنوعت التجارة البريطانية فى عام ١٦٤٦ بمختلف الأصناف والجودة وزاد الطلب على الفلفل . ولكن السعر الذى عرضه التجار المحليون على الوكلاء البريطانيين كان قليلاً وتحسن الوضع لتجارى لشركة الهند الشرقية البريطانية من عام ١٦٤٨ حتى عام ١٦٥٠ بالرغم من الخسار البسيطة ، ولكن الهولنديين لم يتركوا البريطانيين ينعمون بالتجارة مع البصرة عندما سيطروا على تجارة الخليج العربى فى الربع الثالث من القرن السابع عشر حتى أصبحت الوكالة البريطانية على وشك الافلاس عام ١٦٥٧ . ثم تحسن الوضع التجارى للبريطانيين بعد عام ١٦٦١ عندما حصلوا على امتيازات وتعويضات فى عام ١٦٧٥ مما شجعهم على الاستمرار فى البصرة وعلى كل فان تجارة البصرة . فى عهد آل افراسياب ١٥٩٦ - ١٦٦٩ كانت مزدهرة لأنهم أسسوا مراكز الجمارك ونظموا الإدارة والجيش النظامى، وقصدها التجار من مختلف الأقاليم العثمانية وجا ءها الهولنديون والبريطانيون بالمنتجات الشرقية وزاد الطلب على تمرها . وازدهرت الملاحة النهرية فى شط العرب والأنهار

الملحقة فيها مثل دجلة والفرات والكارون وغيرها واتصف حكام البصرة بتشجيع الحركة العلمية والأدبية ورحبوا بالتجار الأجانب ولكن كبار التجار المحليين فى البصرة وقفوا ضدهم خوفًا من فقدان مراكزهم فى المنافسة التجارية الجديدة .

أثار هذا النشاط الازدهار التجارى حفيظة الدولة العثمانية فحرضت وساهمت فى تمويل الفتن والاضطرابات ضد آل افراسياب فى الوقت الذى وقفت القبائل العربية إلى جانبهم ضد العثمانيين نظرًا لتصرفاتهم ومعاملاتهم القاسية للقبائل العربية مما أدى إلى إعلانهم حالات التمرد. كما أبقت السلطات العثمانية السكان فى مستويات متدنية من العيش فى الوقت الذى كان نشاط الأهالى فى البصرة يشمل على تربية الخيول العربية الملاحة النهرية والزراعة والمهن الخفيفة واليدوية وبعض النشاط التجارى ، وغيرها من المهن الأخرى .

بعد استعادة الدولة العثمانية الحكم المباشر للبصرة بعد اسقاط حكم آل افراسياب عينت مصطفى باشا واليًا على البصرة ولكنه فشل فى إيجاد ميزانيته ولم يتمكن من دفع حصة الدولة ونفقات الإدارة والجند عام ١٦٧٠ ولذا فانه طلب من حكومته إعفاء البصرة من بعض الضرائب وشكل لجنة من بعض الرجال الذين يتمتعون بالكفاءة الإدارية والتجارية لتحرير دفاتر البصرة وتحديد الأراضى ورسومها ومعادلة الإيرادات والنفقات وحصل على موافقة الباب العالى على التنظيم الجديد للبصرة والمناطق المجاورة لها .

استمرت التجارة الأوروبية فى البصرة بعد سقوط حكم آل افرسياب ففى عام ١٦٩٠ سمح باشا البصرة العثمانى للبرتغاليين بالتمتع بالحرية التجارية والدينية الكاملة وبعدم دفع ضريبة أكثر من ٣٪ على بضائعهم . كما اهتمت الشركة البريطانية بالبصرة لتأمين نقل بريدها من الهند إلى الخليج العربى ثم نقله برًا بواسطة الطريق الصحراوى إلى حلب واللاذقية ثم إلى تركيا ومنها إلى موانىء اليونان وإيطاليا ثم عبر القارة الأوروبية إلى بريطانيا بعد أن تمكنت الشركة من استرضاء القبائل التى يمر البريد البريطانى بأراضيها . وتحسنت الأوضاع الاقتصادية فى البصرة خلال الربع الأول من القرن الثامن عشر فأقامت الشركة البريطانية مقرًا دائمًا لها فى البصرة عام ١٧٢٣ بادارة وكيل بريطانى يقيم فيها تحت إشراف الوكالة البريطانية فى بندر عباس واحتلت البصرة المركز الثانى من حيث الأهمية فى التجارة البريطانية فى الخليج العربى بعد بندر عباس (٨).

المرحلة الثانية :

فترة هيمنة الاستعمار البريطانى على الخليج العربى١٨٢٣٠ - ١٩٠٨ :

منذ بداية القرن التاسع عشر بعدما فرضت بريطانيا اتفاقية السلام العامة على ساحل عمان ١٨٢٠ بعد احتلالها رأس الخيمة عام ١٨١٩ وحتى الحرب العالمية الأولى نشطت بريطانيا سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا حتى تمكنت من الهيمنة الكاملة على الخليج العربى . وكانت مصالحها هى الدافع الأساسى إلى سيطرتها التجارية على المنطقة بواسطة نفوذها السياسى والعسكرى من جهة ووكلائها التجاريين فى الهند والمدن الساحلية فى الخليج العربى من جهة أخرى ، وبعد أن كانت التجارة فى المنطقة بيد تجار عرب الخليج تحولت بصورة أساسية وأصبحت تحت سيطرة الشركات والوكلاء البريطانيين والأوروبيين وهذا لايعنى بطبيعة الحال نهاية نشاط التجار العرب المحليين فى الخليج العربى وإنما استمر هذا النشاط ولكن فى نطاق محدود كما رسمتها بريطانيا وقيدتها بالاتفاقيات غير المتكافئة .

شهدت منطقتا الهند والخليج العربى هيمنة بريطانية على تجارتها وواجهت منافسة غيرها من القوى الأخرى التقليدية والجديدة وكانت العلاقات التجارية بين هاتين المنطقتين نشطة فى عمليات التصدير والاستيراد المتبادلة ولكن فى إطار ما سمحت به السياسة البريطانية المسيطرة على المنطقتين وفى حدود مصالحها التجارية والسياسية وبخاصة بعد احتلالها لرأس الخيمة وعدن مما يعنى إنهيار الاقتصاد التقليدى لتجارة المضاربة بعدما حقق الأوربيون الاحتكار الكامل للمتاجرة بالسلع عالية الربح . ولم يبق أمام التجار العرب إلا التعامل مع الشركات البريطانية الاحتكارية وهامش قليل من التجارة المحلية من موانىء المناطق التجارية التقليدية مثل الهند وشرق أفريقيا . وبذلك خسر التجار العرب دورهم كوسطاء فى التجارة العالمية ولم يستمر الانتعاش الاقتصادي لعرب الخليج بعد سقوط دولة اليعاربة بسبب الحروب الأهلية التى شهدتها الساحة العمانية والتى أدت إلى نهايتها وانقسامها إلى عدة كيانات منفصلة وخاصة فى ساحل عمان مثل رأس الخيمة وأم القيوين وعجمان ودبى وأبوظبى .. الخ ، كما فشلت محاولات العثمانيين لانعاش الاقتصاد فى منطقة الخليج العربى فى الربع الأخير من القرن التاسع ويرجع ذلك للتفوق الأوروبى عسكريًا واقتصاديًا وتنظيميًا مؤسسًا فى الأساس .

اقتصر إسهام التجار العرب بعد الاحتلال البريطانى لساحل عمان ١٨٢٠في التجارة العالمية على كونهم وكلاء أو موزعين للسلع الأوروبية المصنعة وشبه المصنعة والسلع الاستراتيجية التى تحتكرها الشركات الرأسمالية الأوروبية والاتجار بها مما نتج عنه انهيار الإنتاج الحرفى الكامل فى هذه الفترة . وكان التعامل التجارى يتمثل فى أن يقوم التجار بطلب البضاعة من الوكيل المحلى للشركة الأوروبية ضمن فترة معينة مقابل دفع عشر أو أكثر من ثمن البضاعة . وبعد وصولها يقوم الوكيل بتحصيل بقية المبلغ من التاجر مقابل رسالة بتسليم البضاعة فى الميناء ويتولى التاجر القيام بالإجراءات الجمركية وتسديد الرسوم والضرائب التى يدفع معظمها لحاكم الإمارة لتمويل الإدارة المحلية والتى تشكل جزءاً مهمًا من الدخل القومى (٩).

النشاط الاقتصادى التقليدى فى الخليج العربى :

اعتمدت اقتصاديات الخليج العربى أساسًا على البحر فى صيد اللؤلؤ والأسماك والتجارة بالإضافة إلى أنشطة اقتصادية أخرى مثل : الرعى والزراعة المحدودة فى الواحات والتجارة البرية والصناعات الحرفية التقليدية مثل صناعة السفن والجلود والخيام واحتلت التجارة البحرية مكانًا بارزاً فى اقتصاديات المنطقة مع استخراج اللؤلؤ وتجارته .

برغم كون مجتمع الخليج فى فترة الاقتصاد التقليدى مجتمعًا منتجًا ونشيطًا إلا أن اقتصاديات المنطقة كانت متخلفة وتطورها بطىء وبخاصة فى المناطق الداخلية والبعيدة عن الساحل نظراً لقلة المياه واعتمادها على الرعى فى فصل الشتاء . أما فى الصيف فكان شبه معدوم إلا فى بعض الواحات فى العين وليوا والإحساء ونزوى حيث بعض البساتين وأشجار النخيل ورغم نمو التجارة براً وبحراً إلا أنها كانت فى نطاق التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية البسيطة أو البدائية . وكان التأثير الاستعمارى أقوى التأثيرات الخارجية فقد فرض هيمنة على منطقة الخليج العربى وعمل على إبقاء التجزئة فى المنطقة وتعميقها مع فرض العزلة .

الاقتصاد البحرى :

تتميز البيئة البرية فى الخليج العربى بأنها بيئة صحراوية قاحلة شحيحة فى مصادر المياه مما ترتب عليه قلة الموارد الزراعية والرعوية التى لم تكن تلبى احتياجات السكان ، وفى الوقت الذى كانت فيه البيئة البرية بيئة طاردة كانت البيئة البحرية جاذبة فتحت ذراعيها

للسكان وعرضت مواردها بسخاء . وكانت بعض العوامل التى شجعت السكان إلى الاتجاه ناحية البحر بقصد استغلال مواردها . كما أن الأراضى العربية المطلة على الساحل الغربى للخليج العربى حيث شرق الجزيرة العربية رملية صحراوية قليلة المياه شديدة الحرارة صيفًا كثيرة الزوابع الرملية والترابية والتى يسميها سكان الكويت «الطوز» ، هذه الأراضى الفقيرة فى إنتاجها لاتمد الإنسان بمقومات حياته مما جعل سكانه يتجهون إلى البحر ويعتمدون على نشاطه للحصول على مقومات غذائية .

اعتبر البحر بالنسبة لسكان الخليج العربى الرئة التى يتنفسون من خلالها والأساس الذى يعتمدون عليه كل الاعتماد وسخروه لخدمتهم ، وتذبذب النشاط البحرى لسكان المنطقة بين مد وجزر؛ فترات ازدهار وضعف وانكماش نتيجة لتدخل الاستعمار البريطانى . وسلك سكان المنطقة عدة أنشطة بحرية أهمها : (١) بناء السفن (٢) صيد اللؤلؤ (٣) صيد الأسماك (٤) النقل البحرى والنشاط التجارى .

العوامل التى شجعت السكان إلى الاتجاه ناحية البحر :

وجود المرافىء الصالحة للملاحة والمتمثلة فى الأخوار العميقة فى سواحل الخليج العربى بداية من خور الكويت «جون الكويت» شمالاً وانتهاء بأخوار ساحل عمان ورأس مسندم جنوبًا، ودفء مياه الخليج العربى وصلاحيتها للملاحة طوال العام وضحولة مياهها وصفاؤها وأثر ذلك على وفرة الشطوط الغنية بالعوالق النباتية والحيوانية اللازمة لتكاثر الأسماك وتوافر البيئة الصالحة للؤلؤ ، وقد أدى كل ذلك إلى الحاجة إلى قيام نشاط صناعة السفن لركوب البحر واشتهر أبناء المنطقة فى صناعة السفن ، وتطورت هذه الصناعة كمًا وكيفًا مما كان له أكبر الأثر فى وصول بحارة الخليج العربى شرق وغرب سواحل المحيط الهندى ناقلين التجارة من الهند وشرق أفريقيا كتجار ووسطاء وقاموا بتوفير الاحتياجات الأساسية للسكان من غذاء وملبس ومواد بناء وغيرها .

صيد الأسماك :

تعتبر حرفة صيد الأسماك من أقدم الأنشطة البحرية فى الخليج العربى لارتباطها المباشر بتوفير الاحتياجات الغذائية محليًا للسكان فى المدن الساحلية التى عمل فيها أناس كثيرون. وقد ساعد على تطور هذه الحرفة قلة الثروة الحيوانية واستعاض عنها السكان فى

كثير من الأحيان بالأسماك التى تتنوع فى مياه الخليج العربى التى تضم أكثر من أربعمائة نوع من الأسماك يأتى فى مقدمتها الزبيدى والكنعد ، السبيطى ، البيح ، الشعم ، النقرور، الهامور والميد كما تزخر بالربيان «الجمبرى» .

تطلب هذا النشاط قديمًا قيام بعض الصناعات المرتبطة بهذه الحرفة مثل صناعة الشباك والقراقير والحظور. ويمكنك ملاحظة الحظور المنصوبة فى بعض المناطق الساحلية إلى يومنا هذا لتدرك أن هذا النشاط التقليدى ما زال معمولاً به فى معظم المدن الساحلية فى الخليج العربى.

الغوص على اللؤلؤ :

يزخر الخليج العربى بالعديد من مناطق الغوص المنتشرة فى أنحائه خاصة فى جانبه العربى . وكان التوزيع الجغرافى لهذه المغاصات يبدأ من جزيرة بنات سلامة فى رأس مسندم عند هرمز ماراً بمدينة دبى فى ساحل عمان ثم إلى الغرب متمثلاً فى جزيرة صير أبونعير ، معرجًا على طول سواحل إمارة ابوظبى وخاصة مغاصات جزيرة دلما التى كانت من أهم مراكز صيد للؤلو فى الخليج العربى ومن ثم سواحل قطر والبحرين . وتتروراح المسافة بين المغاصات هنا بين ٣٢ - ٤٧ كلم . وإلى الشمال من البحرين يبدأ نطاق اللؤلؤ فى الانحسار والضيق تدريجيًا لينتهى عند سواحل الكويت .

وعرفت مناطق الغوص على اللؤلؤ بالمغاصات ويتكون كل مغاص من عدة قطع للصيد عرفت الواحدة منها باسم الهير وجمعها هيرات ولكل منطقة من الهيرات اسم خاص عند الغواصين . ومنطقة الهير عبارة عن جزء من سطح قاع البحر يرتفع عما عداه من الأجزاء المحيطة به .

مراكز تجارة اللؤلؤ فى الخليج العربى :

١- البحرين : وقد كانت تعتبر من أهم وأكبر مراكز تجارة اللؤلؤ فى منطقة الخليج العربى قاطبة لكثرة إنتاجها من جهة واحتلالها للمركز الأول فى التصدير من جهة أخرى .

٢- جزيرة دلما : وتأتى الثانية فى الأهمية بعد جزيرة البحرين ومما عزز هذه المكانة تشديد الجمارك الإيرانية على تجارة اللؤلؤ بعد احتلالها لإمارة لنجة التابعة للقواسم على الساحل الشرقى للخليج العربى وكان معظم السكان فى الساحل الشرقى من الخليج العربى يأتون للغوص فى الهيرات بجزيرة دلما التابعة لإمارة أبوظبى .

٣- الكويت : احتلت مكانًا بارزاً فى تجارة اللؤلؤ على الرغم من إسهامها المحدود فى التصدير. وشهدت هذه الحرفة إزدهارها إبان عهد الشيخ مبارك الصباح ولاسيما فى عام ١٩١٢ ففى ذلك العام بلغ عدد سفن الغوص ٨١٢ سفينة حيث بلغ الدخل نحو ستة ملايين روبية ولذلك فقد سمى ذلك العام بعام الطفحة .

دور اللؤلؤ فى تجارة الصادرات :

شكل اللؤلؤ أهمية خاصة فى صادرات الخليج العربى واحتل مركزاً مرموقًا بين الصادرات الأخرى فيما عدا سلطنة عمان ، وقد بلغت قيمة صادرات اللؤلؤ نحو ٧٥٪ من جملة الصادرات فى عام ١٩٠٦ والتى زادت عن ٢٨ مليون روبية . ويمكن القول بأن عائدات تجارة اللؤلؤ كانت تعتبر ركيزة أساسية فى اقتصاديات إمارات الخليج العربى قبل ظهور البترول ، وتفوق عائدات هذه التجارة ما عداها من عائدات البحرية الأخرى .

عرفت تجارة اللؤلؤ منذ القدم فى الخليج العربى ومن أول النشاطات الاقتصادية التى كانت مبنية أثناء الثورة التجارية الأولى على أسس شبه رأسمالية ولكن الانحسار الاقتصادى المتمثل فى انهيار تجارة المضاربة التقليدية وازدياد الطلب العالمى على اللؤلؤ وخاصة فى أوروبا أديا إلى بروز القيمة العالية لهذه السلعة .وحتى يتضح حجم هذه التجارة فى الاقتصاديات المحلية فى الخليج العربى نورد بعض المعلومات عنها فى الجدولين (١)،(٢) مفترضين أن هذه المعلومات تشمل الفترة من النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى بداية الحرب العالمية الأولى. ويتضمن الجدول رقم (١) معلومات عن القوى العاملة المشتغلة بتجارة اللؤلؤ، بينما يتضمن الجدول رقم (٢) معلومات عن حجم التداول فى هذه التجارة . ومع إننا لانملك معلومات عن مستويات الدخل الوطنى أو مجموعه فى هذه الإمارات فى الخليج العربى فى تلك الفترة إلا أن المبالغ المدرجة فى الجدولين لابد وأن تمثل نسبة عالية من هذا الدخل بقياس تلك الفترة الزمنية ، أما سبب حساب الدخل بالروبية الهندية فهو أن تجارة الخليج العربى من اللؤلؤ كانت تتجه إلى الهند ومدينة بومباى بالذات ولكننا يجب أن ننتبه إلى أن أعداد السكان المشتغلين بصيد اللؤلؤ المذكورة فى الجدول رقم (١) لاتمثل القوى العاملة المحلية وحدها وذلك لإسهام قوى عاملة مهاجرة وبخاصة من البدو والإيرانيين فى هذا النشاط الموسمى كما أنها لاتمثل جميع الذين يكسبون رزقهم من هذه التجارة فهى لاتشمل صناع السفن وأعمال الشحن أو التجارة والطواويش وأسواق المدن[١٠].

يلاحظ فى الجدول رقم (١) الأعداد الكبيرة العاملة فى ساحل عمان وكذلك السفن ولكن الدخل لايتناسب معها إذا ما قورن بالبحرين ويرجع ذلك إلى أن الدخل المذكور يتم تسجيله عن طريق التجار والوكالة البريطانية فى الشارقة والوكلاء البريطانيين فى دبى ؛ ولكن معظم العاملين وكذلك السفن كانت من إمارة أبوظبى ويتم ذلك حول جزيرة دلما وبالتالى فهى لم تسجل بشكل رسمى فى دبى أو الشارقة إضافة إلى أن معظم البيع كان يتم فى عرض البحر وفى جزيرة دلما مباشرة .

(جدول رقم ١)

تقدير القوى العاملة فى الخليج العربى المشتغلة بصيد اللؤلؤ والدخل الناتج عنه لعام ١٩٠٦ - ١٩٠٧ :

الإمارة	إجمالى السكان	عدد السفن الغوص	عدد السكان المشتغلين بصيده	النسبة المئوية من السكان فى صيد اللؤلؤ	الدخل من تجارة اللؤلؤ بالروبيات
البحرين	٩٩,٠٧٥	٩١٧	١٧,٦٣٣	١٨٪	١٢,٦٠٣,٠٠٠
ساحل عمان	٧٢,٠٠٠	١٢١٥	٢٢,٠٤٥	٣١٪	٨,٠٠٠,٠٠٠
قطر	٢٧,٠٠٠	٨١٧	١٢,٨٩٠	٤٨٪	—
الكويت	٣٧,٠٠٠	٤٦١	٦,٢٠٠	٢٠٪	١,٣٤٧,٠٠٠

يلاحظ عدم وجود معلومات متوفرة عن الدخل من تجارة اللؤلؤ فى قطر نظراً لوقوعها تحت السيادة العثمانية ولم تكن هناك معلومات كاملة لدى البريطانيين .

يلاحظ أن هناك حوالى ٢٠٠٠ من الإيرانيين يقصدون الكويت للإسهام بصيد اللؤلؤ .

(جدول رقم ٢)

إحصاءات قيمة اللؤلؤ المصدر من مركز صيده فى الخليج العربى

الأعوام	ساحل عمان بالروبيات	البحرين بالروبيات	لنجة بالروبيات	مسقط بالدولارات الأمريكية	التقرير الاجمالى السنوى لمنطقة الخليج بالجنيه الاسترلينى
١٨٩٣-١٨٩٤	٥,٠٠٠,٠٠٠	٣,٦٩٣,٧٥٠	٤,٢٠٥,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٤٨٣,٧٦٧
١٨٩٦-١٨٩٧	٧٠,٠٠٠,٠٠	٥,١٦٧,٠٠٠	٣,٨٦٥,٠٠	٣٠,٠٠٠	٥٤٥,٥٢٠
١٨٩٩-١٩٠٠	٧,٧٤٩,٩٩٠	٦,٨٢٤,٤٣٠	٣,٣٩٩,٩٠	٥٠,٠٠٠	٦٨٩,٥٣٣
١٩٠٣-١٩٠٤	٩,٠٠٠,٠٠٠	١٠,٢٧٥,٣٠٠	٤,٩٠٥,٠٠٠	٢٢,٠٠٠	١,٤٣٩,٩٧٥
١٩٠٤-١٩٠٥	٥,٠٠٠,٠٠٠	١٠,٤٨٨,٠٠٠	٦٢٣,٨٠٠	٣٠,٠٠٠٠	١,٠٧٦,٣١٠
المتوسط لفترة ١١ سنة	٤,١٥٠,٣٩٨	٣,٨٣٧,٣٥٩	٣,٥١٢,٤٤٨	٤٥,٠٩٣	٥٦١,٣٥٣

لعبت تجارة اللؤلؤ دوراً سياسيًا بجانب دورها الاقتصادى ومرد ذلك إلى أنها مبنية على المبدأ التنظيمى البنائى المسمى بـ «الزبانة» هى علاقة «العزب» (رئيس ورب العمل) بالزبون وهذا النوع من العلاقة بينهما يراد أن تبقى خفية غير ظاهرة للعيان . ويتلخص ذلك فى أن علاقة البحارة وهم : الغواص - السيب - الرديف - التباب ، بالنوخذة وهو قائد السفينة والطواش وهو تاجر اللؤلؤ ، هى صلة دين مستديم بشكل قروض يتلقاها البحارة من التاجر ، أما كيف يعمل هذا التنظيم ، فانه فى أغلب الحالات يبدأ بالسلفية ؛ وهى مقدم نقدى فى هيئة دين يدفعه التاجر أو النوخذة (إذا كان مالكًا للسفينة) للبحارة عند بداية موسم الغوص لترتيب مصاريف الأسرة أثناء فترة غيابه فى موسم الغوص والتى تستمر عادة من شهر يونيو إلى أكتوبر ، ويحصل البحارة وهم العاملون على سفينة الغوص التى ذكرناها سابقًا فى نهاية موسم الغوص على حصتهم من بيع اللؤلؤ وتسمى «تسكام» . ولما كان أغلب عمل

الغواصين موسمياً فانهم يتعطلون ستة أشهر ولذلك يحصلون من التاجر نفسه أو النوخذة على مبلغ آخر على هيئة قرض جديد يسمى «خرجية» أو مصرف جيب مقابل العمل لدى التاجر نفسه أو النوخذة فى الموسم المقبل ، وتسجل جميع هذه الديون فى دفتر حساب التاجر. ولم يكن ٩٠٪ من البحارة يكسبون من وراء إسهامهم فى صيد اللؤلؤ ما يكفى لتسديد هذه الديون . وهذا النوع من الدين لايلغى بموت البحارة وإنما يورثه إلى أبنائه مع الفوائد التى قد تترتب على التأخير فى السداد ، وكان بعض التجار يزورون فى دفاتر حساباتهم للإبقاء على البحارة الجيدين فى دين دائم لهم ،كما أن بعض النوخذة كان يصر على الزواج بأرملة الغواص لسداد الدين وبذلك يكسب أبناءها بحارة فى سفينته (١١). ولكن يبدو أن هذه حالات خاصة وضيقة جداً فى بعض الحالات حسب نوعية التاجر والنوخذة وأخلاقياتهم .

محصلة هذا النوع من الترتيب البنائى لتجارة اللؤلؤ وعلاقة المعزب بالزبون تنشأ بين البحارة من جهة والتاجر والنوخذة من جهة أخرى وتقسم بنوع من الولاء السياسى لأسرة التاجر مقابل رعاية أسرة التاجر للبحارة الذين يتعاملون معهم ولأسرهم . وكان هذا الولاء بمثابة الرضا الطوعى بسلطة التجار والنوخذة الذى يطبع العلاقة بين المعزب والزبون على الرغم من وضوح تعارض المصالح الطبقية بينهما وسيلعب هذا الولاء دوراً مهمًا فى البيئة التجارية حتى بعد ظهور البترول ومجئ الدولة الحديثة .

برغم هذا التنظيم البنائى فقد كان الغوص على اللؤلؤ حرفة هامة مارسها قطاع كبير من سكان المنطقة لأن تجارة اللؤلؤ الطبيعى المستخرج من الخليج العربى كانت رائجة وتدر أرباحًا طائلة ، وكانت الهند من أكبر أسواق تجارة اللؤلؤ الطبيعى فى العصر الحديث إبان ازدهار التجارة التى كانت تعتمد على اللؤلؤ المستخرج من أعماق الخليج العربى .

الإنتاج الزراعى :

عدة عوامل أدت إلى وجود نمط معين من الزراعة فى منطقة الخليج العربى ومنها بعثرة مراكز الاستقرار وفقًا لموارد المياه العذبة ، وصعوبة المواصلات بين قرية وأخرى ، أو بين مدينة وأخرى، وقلة المياه مع ارتفاع نسبة الملوحة فى التربة ، كل هذه العوامل فرضت أن تزرع كل منطقة احتياجاتها من الغذاء . وبما أن النخيل هو الذى الذى يتلاءم نموه فى المناطق الصحراوية قليلة المياه وأصبح طابع الزراعة بستانيا . وكان المحصول الرئيسى هو النخيل

وبين أشجار النخيل تزرع الخضروات والبرسيم والحبوب وكانت التمور أهم أنواع الانتاج الزراعى فى المنطقة وكانت تصدر إلى الهند لأن إنتاجها يفيض عن حاجة الاستهلاك المحلى. وكانت الزراعة فى بعض أجزاء المنطقة رغم تخلفها توفر اكتفاء للسكان فى حدود متطلبات المجتمع الأساسية فى ذلك الوقت .

الرعى :

الانتاج الحيوانى فى الخليج العربى كان فى نطاق يحتاجه العمل الزراعى وما تحتاجه الأسره أيضًا . وأراضى المراعى واسعة ولكنها موسمية فى فصل الشتاء فقط وتستوعب أعداداً لابأس بها من الأغنام والإبل وكانت هناك علاقة متوازنة بين الحضر والبدو الذين يبيعون بعض ما يربون من رؤوس الماشية وانتاجه من الحليب ومشتقاته من الألبان والأجبان فى أسواق المدينة مقابل ما يشترونه من مطالب الحياة . وقد تغيرت هذه الأوضاع بعد ظهور البترول فجذبت المدن والحياة المترفة الكثير من هؤلاء الرعاة فكادت البادية تفرغ من سكانها وكانت النتيجة وجود المراعى الخالية من الرعاة كما كان الرعى مجالاً هامًا فى حياة البدو الرحل ووفرت تلك الحرفة اللحوم والصوف بالإضافة إلى النشاط التجارى فيها .

الصناعة :

قامت الصناعة اليدوية الخفيفة فى منطقة الخليج العربى وشملت بناء السفن وصناعة الفخار والسيوف والحلى الذهبية وغيرها من الصناعات اليدوية التى تلبى طلبات المجتمع فى المنطقة وصناعة الجلود وغيرها .

برع سكان الخليج العربى فى صناعة السفن واتقنوا فنون هذه الصناعة وقاموا بانتاج أنواع عديدة منها تتناسب والأغراض التى صنعت من أجلها . ولم تكن هذه الصناعة مقتصرة على نوع وإنما على عدة أنواع من السفن المستخدمة فى صيد اللؤلؤ وصيد الأسماك والتجارة فى البحار العالية . وقد عرفت صناعة السفن باسم «قلافة» وتنسب الصناعة إلى «القلاف» الذى يقوم بتسوية الأخشاب ونجارتها ويسمى رئيس القلافين بالأستاذ. وقد اعتمد سكان الخليج العربى فى بناء السفن على ما ينقلونه من الأخشاب الهندية والأفريقية .

استثماراً لموقع الخليج العربى مارس السكان التجارة كوسطاء بين الشرق والغرب كما نقل تجارها السلع والبضائع لتوفير احتياجات السكان من الطعام والملابس . وقد تطلب هذا

النشاط تطوير صناعة السفن فى المنطقة من سفن ساحلية بسيطة إلى سفن كبيرة تتحمل أهوال الرحلة عبر مياه المحيط الهندى ومن هذه السفن البقارة ، البوم والبغلة .

التجارة :

يقع الخليج العربى على طريق الهند وهو امتداد للمحيط الهندى المتصل ببحر العرب ، فرغم التطور الذى حدث فى طرق المواصلات وسائل النقل بقى الخليج العربى محتفظًا بأهميته كموقع استراتيجى هام فى التجارة العالمية والتى كانت لفترة زمنية طويلة فى أيدى القوى المحلية قبل قدوم الاستعمار الغربى وتغلغله وسيطرته على المنطقة . وقد نجحت الشركات التجارية الأوروبية فى مضايقة ومنافسة وتقليص نشاط القوى المحلية التجارية فى الخليج العربى والمحيط الهندى .

قام الملاحون العرب بدور محدود فى نقل التجارة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولكن تقلص هذا النشاط فى القرن التاسع عشر لأن سفن شركة الهند الشرقية البريطانية كانت تستأثر بنصيب الأسد من هذه التجارة لأنها وفرت عدداً من السفن الكبيرة تحمل تجارة الهند من بومباى إلى البصرة دون أن يكون لأبناء المنطقة نصيب فيها . كما وفرت الشركة البريطانية عدداً من السفن الصغيرة لارتياد موانىء الخليج العربى ، ومع ذلك استمرت التجارة العربية تحمل مختلف البضائع وكان يقوم بها تجار محليون بين موانىء الخليج العربى وخارج المنطقة مع شرق أفريقيا والهند . وبرغم أن التجارة البحرية كانت أساسية إلا أنها لم تلغ التجارة البرية فتجارة القوافل قد نشطت بين الكويت والبصرة وبين بعض أجزاء الجزيرة العربية والشام وفلسطين وكانت البضائع تنقل على الجمال كما نشطت التجارة فى الجمال نفسها بين منطقة وأخرى ، وكذلك ساهم البدو فى التجارة الداخلية .

قامت التجارة المحلية على أكتاف الأفراد والعائلات التجارية من أفراد القبائل العربية فى الخليج العربى وليس على المؤسسات . وحتى بعد قيام المؤسسات التجارية الحديثة فان الأفراد والعائلات العربية الكبيرة ظلوا يلعبون الدور الرئيسى فى إدارة التجارة ولاشك أن أسلوبها يختلف عن الأسلوب التقليدى ولكن دورها لم يتوقف بل تكيفت مع الأوضاع الاقتصادية الجديدة بعد ظهور البترول كما تطورت العلاقة بين هذه الطبقة التجارية وبين الأسر الحاكمة فى الخليج العربى حتى أصبح الحكام جزء من هذه الطبقة وأساس تلك العلاقة هى المصلحة المشتركة والمركز الاجتماعى ولكن ذلك لايعنى أن تلك العلاقة كانت تخلو من

النزاع أحيانًا؛ ولكن معارضة التجار قد انتهت بعد ظهور النفط لأنهم أكثر المستفيدين من هذه الثروة البترولية فى المنطقة ما عدا حالات فردية ومحدودة (١٢).

برغم أن التجارة العربية المحلية كانت تدار بأسلوب تقليدى إلا أنه لايمكننا أن نقلل من أهميتها فى التجارة المحلية والاقليمية فى الوقت الذى نشأت فيه شركات تجارية حديثة تستخدم العلم والخبرة الفنية فى إطار الهيمنة الرأسمالية الأوروبية على التجارة فى هذه المنطقة حتى لو سمحت بهامش من حرية ممارسة النشاط التجارى لقطاع من التجار العرب لكن هذا الهامش كان محاصراً من قبل السياسة البريطانية فى المنطقة ويخضع إلى مراقبتها حيث كان لها حساباتها الخاصة (١٣)، فهى تسند التجارة العربية إلى الحد الذى لايؤثر على مصالحها من جهة ويخدم سياستها من جهة أخرى . وتعرض نشاط التجارة العربية مع الهند إلى صعود وهبوط وامتداد وانحسار نتيجة تطور الأحداث السياسية والعسكرية .

قد أمكن تقدير قيمة التجارة التى تناولتها من موانىء الخليج العرب فى عام ١٨٠٠٠ بنحو ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني وقد استأثرت مسقط بـ ٦٢٪ من هذه التجارة أي أن ميناء مسقط كان الميناء الرئيسى على الساحل الغربى للخليج العربى . والنسبة الباقية كانت من نصيب موانىء الخليج العربى الأخرى كالبصرة والبحرين وكان صيد اللؤلؤ من أهم أنواع النشاط البحرى لإمارات المنطقة وتمثل تجارته عنصراً رئيسيًا فى تجارة الخليج العربى واقتصاد تلك الإمارات .

كان يجب على التاجر العربى التعامل مع الشركات الاحتكارية البريطانية التى أصبحت تسيطر على الموانىء التجارية التقليدية فى حين اضمحلت الموانىء التجارية القديمة وظهرت أخرى جديدة . كما احتفظت بعض الموانىء القديمة بأهميتها ليس لاعتبارات تجارية أو اقتصادية وإنما سياسية واستراتيجية . ولقد كان لبدء الخدمة المنتظمة على خطوط السفن البخارية لموانىء المنطقة أثر كبير فى الاضمحلال التجارى الذى أصاب هذه الموانىء إضافة إلى توقفها عن الاسهام فى التجارة العالمية على المنوال السابق . وقد ترسخ هذا الأثر كثيراً بفتح قناة السويس وربط المحيط الهندى بالبحر المتوسط ولكن هذا لم يمنع استمرار تجارة المضاربة التقليدية بالسلع المحلية وسلع اعادة التصدير بشكلها التقليدى المتخلف إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

صاحبت الهيمنة الاستعمارية البريطانية إلى التبدل الشامل فى العلاقات الاقتصادية السائدة فى المنطقة مما أبطل مفعول الدور الاستثنائى للواقع الموسمى للتجارة بتأثيره فى تنظيم الحياة الاقتصادية والسياسية . فتوافر السلع بكميات كبيرة وعند الطلب وخضوع عملية تكوين الاسعار لأسس وقوى أخرى خارجة عن سيطرة وحدود الأسواق التقليدية قد غير بالكامل موازين القوى الاقتصادية والسياسية الفاعلة فى المنطقة . وتحت تأثير هذه القوة الاقتصادية الاستعمارية بدأ ظهور نوع من التخصص السلعى فى الخليج العربى استجابة لمتطلبات السوق الرأسمالى العالمى بشكل أساسى؛ يعتمد على انتاج سلعة معينة أو عدد محدود من السلع التى تخصص للتصدير. واستندت الحياة الاقتصادية فى الخليج العربى على تجارة اللؤلؤ . وعندما نشير إلى التخصص السلعى لانقصد من ذلك اقتصار التجارة على هذه السلعة فحسب فقد كانت هناك دائمًا تجارة التهريب وتجارة العبور «الترانزيت» وتجارة إعادة التصدير وتجارة الرقيق .

افتتحت قناة السويس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وظهرت السفن التجارية الحديثة ورجع الخليج العربى مرة أخرى شبه بحيرة مسدودة . فقد تحولت التجارة الشرقية إلى قناة السويس ولم يصبح للملاحين العرب فى الخليج العربى دور فى نقلها كما أن السفن العربية الصغيرة لم تقو على منافسة السفن التجارية الكبيرة التى تتقاضى أجرًا أقل فى نقل السلع . ولهذا انكمشت صناعة السفن فى الموانىء العربية فى المنطقة وأصبح دور الملاحين العرب فى الخليج العربى قاصراً على النشاط التجارى المحلى ونصيب متواضع من تجارة الهند وشرق أفريقيا تحمله السفن العربية إلى موانئ المنطقة لاستهلاكها لأن القوى الشرائية ضعيفة لدى سكان الخليج العربى . وأصبحت تجارة الوارد والصادر محدودة فى موانىء المنطقة وأصبحت معظم الواردات برغم قلتها تحملها السفن التجارية الأوروبية التى تقف بعيداً عن هذه الموانىء التى لاتستطيع استقبال هذه السفن الكبيرة لأن غاطسها أكبر من أن تحملها موانىء المنطقة . وتتولى السفن العربية تفريغها وحمل بضائعها إلى الموانىء الأخرى فى المنطقة . أما صادرات الخليج العربى ومعظمها من اللؤلؤ بالإضافة إلى الأسماك والتمور والخيول والأصواف فهذه تنقلها السفن التجارية العربية إلى الجهات المصدرة إليها .

تجارة الرقيق :

شكلت التجارة نشاطًا أساسيًا فى حياة سكان الخليج العربى وكانت عصب الحياة الاقتصادية فيها وكانت تجارة الرقيق ضمن هذه التجارة المتداولة ككل . وكان العبيد يستخدمون للعمل فى النشاط الاقتصادى مثل الزراعة وصيد الأسماك والرعى والغوص والصناعات الحرفية إضافة فى خدمة المنازل واختلفت دوافع تجارة الرقيق فى الخليج العربى عن الغرب . وربما كانت قلة عدد السكان وندرة الأيدى العاملة وطبيعة الوضع الاجتماعى القبلى والعشائرى السائد فى المنطقة من الأسباب التى كانت وراء رواج تجارة الرقيق واستمرارها فى هذه الفترة ، كما أن العادات والتقاليد السائدة فى المجتمع القبلى كانت تقبل استخدام الرقيق وبيعه وشرائه فى الوقت الذى كان الكثيرين يتأففون من العمل فى بعض المجالات أو يرفضون العمل فيها مما أدىّ لرواج هذه التجارة ، وكانت مسقط فى أوائل القرن التاسع عشر أكبر مراكز العبور «الترانزيت» لتجارة الرقيق إلى الخليج العربى . غير أن هذا المركز تقلص فى النهاية عندما أخذت تنافسها مدينة صور الواقعة إلى الجنوب من مسقط .

لعبت هذه التجارة دوراً فى اقتصاديات المنطقة ليس نتيجة استخدام الرقيق فى مجالات العمل المختلفة فحسب ؛ ولكن أيضًا بالمردود المالى المباشر لهذه التجارة . وقدرت أعداد سكان زنجبار فى بداية القرن التاسع عشر بـ ٢٠٠,٠٠٠ منهم ١٥٠,٠٠٠ من العبيد الأرقاء كما قدر عدد الرقيق الذين كانوا يصدرون إلى مسقط من ٦,٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ شخص سنويًا وأغلبهم فى سن الشباب والقاصرين . ورغم منع بريطانيا تجارة الرقيق إلا أنها لم تعامل المتاجرين بها معاملة حازمة وقاسية وذلك لأن بريطانيا كانت تهدف من المنع لأغراض سياسية وليست تجارية .

بريطانيا والنشاط التجارى فى الخليج العربى :

تعتبر منطقة الخليج العربى بموقعها الاستراتيجى ذات أهمية خاصة بالنسبة للتجارة البريطانية فى وقت اشتد فيه تنافس القوى الأوروبية الأخرى على النشاط التجارى فى هذه المنطقة مع نهاية القرن التاسع عشر مثل ألمانيا وروسيا فى إيران والخليج العربى كما أن عدم الاستقرار فى جنوب إيران والنزاع بين بريطانيا وألمانيا بشأن سكة حديد برلين - بغداد كان له أثر على النشاط التجارى فى المنطقة كما تدهورت تجارة بريطانيا فى إيران نتيجة

للغارات التى كانت تتعرض لها صادراتها ووارداتها هناك . وتركز النشاط التجارى البريطانى فى شحن البضائع .

برغم أن حجم التجارة البريطانية مع عمان كانت صغيراً ومحدود التأثير لقلة موارد عمان وقلة سكانها ، ولم تكن تسعى بريطانيا فى التخطيط لعمان وحدها وإنما لمنطقة الخليج العربى كلها ، كما لم تكن فى سعيها التجارى تعتمد على هذا المجال أو تثبيت وجودها التجارى فحسب بل كانت تعمل على تحقيق أغراضها الاستراتيجية ذات الأبعاد السياسية والعسكرية . ولذلك كانت تهتم بنشاطها التجارى وغير التجارى مع المناطق التى يمكن الظن بأن عائدها الاقتصادى محدود بالنسبة إلى أهمية دور بريطانيا الاقتصادى فى العالم .

اهتمت بريطانيا بالنشاط الاقتصادى فى المناطق التابعة للدولة العثمانية فى الخليج العربى عن طريق نشاط رعاياها من التجار الهنود فى شرق الجزيرة العربية التى كانت خاضعة للحكم العثمانى ؛ وخاصة القطيف ميناء إقليم الاحساء العثمانى الذى كان يتركز على تجارة التمور المصدرة إلى الهند. وطلب التجار الهنود من السلطات البريطانية السماح لهم بالتجارة مع المنطقة فكتبت تلك السلطات فى البحرين رسالة إلى متصرف نجد العثمانى فى الاحساء بهذا الخصوص . ورد عليها برسالة بتاريخ ١٥ / ٦ / ١٩٠٣ بأنه لا مانع لديه من ممارسة هؤلاء التجار للتجارة مع الاحساء العثمانى . ويلاحظ أن النسخة العربية لهذه الرسالة موقعة بلقب متصرف الاحساء التابع للواء نجد العثمانى حيث كان العثمانيون يعتبرونك حزءآ من لوازم نجد العثمانى ، وقد رد الوكيل البريطانى فى البحرين على تلك الرسالة معربًا عن استعداده لمساعدة هؤلاء التجار فى مهمتهم . وفى رسالة من مساعد المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر إلى المقيم البريطانى بتاريخ ١٦ / ٧ / ١٩٠٣ حول السماح للهنود بالتجارة مع الاحساء يذكر فيها أن سفر هؤلاء سيكون على مسؤوليتهم الخاصة ويؤكد ضرورة مساعدتهم ؛ خاصة أنهم يسافرون إلى منطقة يسيطر عليها العثمانيون فى الاحساء ونجد الذى تعهد فيه متصرف نجد العثمانى بتوفير الأمن لهؤلاء التجار الهنود(١٥) فى رسالة إلى الوكيل البريطانى فى البحرين بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٣٢١ / ١٩٠٣ .

قدمت السلطات البريطانية الهدايا إلى متصرف نجد العثمانى وحاكم الاحساء مكافأة على تعاونه معها . ويتضح ذلك من رسالة مساعد المقيم السياسى البريطانى إلى الوكيل البريطانى فى البحرين جاء فيه بأنه أرسل مع التجار الهنود هدية هى ساعة ذهبية وسلسلة

من الذهب إلى السيد / طالب النقيب متصرف نجد وحاكم الاحساء العثمانى . وقد رد عليه الأخير باستلام الهدية وشكره لمرسلها . كما أن السلطات البريطانية فى البحرين والخليج العربى كانت تحاول أن تكون لها علاقات ودية مع متصرف السلطة العثمانية فى نجد والإحساء وكان هناك أكثر من مائة رسالة متبادلة بين السلطات البريطانية والمتصرف العثمانى فى نجد والإحساء .

شهد الخليج العربى فى نهاية القرن التاسع عشر تحولات هامة على المستوى الاقتصادى. فقد اشتد التنافس الأوروبى على اقتصاديات المنطقة ودخلت السفن التجارية للشركات الرأسمالية الأوروبية لتزاحم السفن الشراعية التقليدية المحلية فى المنطقة فى ميدان التجارة البحرية . واعتباراً من عام ١٩٠٦ بدأ الخط التجارى أمريكا - هامبورج نشاطه إلى الخليج العربى رغم الخسائر فى بداية عمله إلا أن الصادرات عن طريقه ق زادت بنسبة ١٠٠٪ خلال أربع سنوات . وكان نجاح الألمان فى ذلك ملموساً . وبدأ التجار البريطانيون يشعرون بأن هذا الخط جاء لإخراجهم من جميع أسواق المنطقة . وفى فترة قصيرة لاتتجاوز العشر سنوات نجح الألمان فى انتزاع كل تجارة السكر من البريطانيين مما استدعى عقد مؤتمر للتجارة البريطانية- الألمانية فى المنطقة فى بروكسل ١٩٠٨ وتم الاتفاق على تكاليف الشحن من أوروبا إلى الخليج العربى واشتراط عدم قيام السفن البريطانية بالشحن من الموانىء الألمانية مقابل عدم قيام السفن الألمانية بالشحن من الموانىء البريطانية . ولم يقتصر القلق البريطانى من النشاط الألمانى التجارى البحرى فى الخليج العربى وإنما أيضًا من إنجاز مشروع سكة حديد برلين - بغداد المزمع إقامته واحتمال سيطرة الألمان على تجارة البصرة بعد أن أصبحت لهم علاقات جيدة مع تجار العراق (١٦).

استهدف الألمان من مشروع سكة حديد برلين - بغداد النشاط الاقتصادى بالدرجة الأولى وهو نقل البضائع الألمانية إلى بغداد والبصرة ؛ وبذلك يمكنهم الوصول إلى الخليج العربى لمنافسة بريطانيا . وقد سبق ذلك انجاز العمل فى سكة حديد الحجاز لتوطيد النفوذ الألمانى هناك أيضًا إضافة إلى اليمن والبحر الأحمر الذى تم الانتهاء منه عام ١٩١١ حتى المدينة المنورة . لقد كان النشاط التجارى الألمانى منظمًا بصورة جيدة ولذلك كان مؤثراً فى المناطق التى دخلها ومنها الخليج العربى وكان مزعجًا لبريطانيا لأن ذلك التنظيم كان يقوم على الخبرة وعلى أسس علمية فى البر والبحر ، لقد نجح الألمان فى هذه الفترة فى أن يصبحوا

أسياد التجارة ما عدا تجارة مانشستر وواردات الهند الخاصة ، ففى واردات المنطقة المهمة مثل الزجاج والأدوية والأدوات المكتبية والملابس وغيرها سيطر الألمان أكثر من البريطانيين بالإضافة إلى تجارة السكر المهمة . وتم تصدير الحبوب من العراق إلى لندن وهامبورغ فى عام فى عام ١٩١١بمقدار حوالى ٨٠,٠٠٠ طنًا إلى أمانيا و٩٠,٠٠٠ طنًا إلى بريطانيا كان ذلك بعد خمس سنوات فقط من بدء النشاط التجارى الألمانى فى الخليج العربى(١٧)، واشتكى التجار البريطانيون من مزاحمة النشاط الألمانى لهم ، كما يتضح من ذلك أهمية العراق فى إنتاج الحبوب فى ذلك الوقت ؛ فقد كان هذا البلد العربى مصدراً للحبوب فى تلك الفترة وبكميات تجارية هامة .

الهوامش

١- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص١٥٩ .

٢- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص٧١ .

٣- د. عبد المالك التيمى - المرجع السابق ص٣٠٢ .

٤- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص٧٣ .

٥- د. عبد المالك التيمى -المرجع السابق ص٣٠٣ .

٦- د. عبد المالك التيمى - نفس المرجع ص٢٩٩ .

٧- د. عبد العزيز عوض - المرجع السابق ص٥٨ .

٨- عبد العزيز عوض - نفس المرجع ص٥٩ .

٩- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص٨٨ .

١٠- د. خلدون النقيب - نفس المرجع ص٩٤ .

١١- د. خلدون النقيب - نفس المرجع ص٩٥ .

١٢- د. عبد المالك التيمى - المرجع السابق ص٢٦٠ .

١٣- د. عبد المالك التيمى - نفس المرجع ص٢٩٠ .

١٤- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص٩١ .

١٥- د. عبد المالك التيمى - المرجع السابق ص٣٠٩ .

١٦- د. عبد المالك التيمى - نفس المرجع ص٢٦٥ .

١٧- د. عبد المالك التيمى - نفس المرجع ص٢٧٠ .

الفصل السابع

الخليج العربى فيما بين الحربين ١٩١٤ - ١٩٤٥

الأوضاع فى الخليج العربى قبيل الحرب العالمية الأولى

- الدولة العثمانية والخليج العربى .
- الوأضاع فى شرق الجزيرة العربية .
- الكويت وعربستان .

بريطانيا والحرب ضد الدولة العثمانية فى الخليج العربى ١٩١٤ - ١٩١٨ .

الخليج العربى فيما بين الحربين ١٩١٨ - ١٩٣٥ .

- بريطانيا والتسويات السياسية وقضايا الحدود .
- الأوضاع فى إمارات الخليج العربى فيما بين الحربين .
- الحركات الاصلاحية فى الخليج العربى .

الخليج العربى والحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .

الخليج العربى فيما بين الحربين ١٩١٤-١٩٤٥

الأوضاع فى الخليج العربى قبيل الحرب العالمية الأولى

شهد الخليج العربى صراعًا بين القوى الأوروبية الاستعمارية كما درسنا سابقًا حتى توقفت بريطانيا على القوى الدولية المنافسة لها مثل هولندا وفرنسا ، ثم دخلت فى صراع القوى العربية التى قاومت وجودها الاستعمارى ونجحت فى القضاء على قوى القبائل العربية فى ساحل عمان ، ثم مدت نفوذها إلى عمان وقاومت النفوذ المصرى فى الخليج العربى ثم قامت بعدها فى احتلال عدن ؛ وبذلك سيطرت على مدخل البحر الأحمر . وبعد سيطرتها على الأجزاء الجنوبية فى الخليج العربى بدأت تتطلع للسيطرة على شمالها وخاصة شرق الجزيرة العربية ولكن مجىء المصريين ثم العثمانيين أخر سيادتها الاستعمارية .

بدأت بريطانيا قبل نهاية القرن التاسع عشر تتطلع إلى الشمال وهو أمر لم يكن سهلاً نظراً لوجود الدولة العثمانية فى العراق وشرق الجزيرة العربية فى الإحساء وقطر والنفوذ الروسى فى إيران ثم تطلعات فرنسا إلى الخيج العربى . ولهذا شهدت هذه الفترة منافسة شديدة وقوية بعد دخول ألمانيا فى هذا الصراع .

اهتمت بريطانيا بجنوب الخليج العربى لفترة طويلة للحفاظ على مستعمراتها فى الهند بعدما قامت بمسح شامل ورسمت الخرائط ومدت خطوط التلغراف وعينت لها وكلاء ومعتمدين وضباطًا فى مختلف أنحاء الخليج العربى ، وهيمنت عن طريقهم على كل صغيرة وكبيرة فى المنطقة ثم فرضت اتفاقيات غير متكافئة من سياسية ومكافحة الرقيق ومنع تجارة الأسلحة ، واستغلت هذه الاتفاقيات لمراقبة سير نفوذها ؛ ومن ثم قامت بفرض اتفاقيات الحماية والتى سميت بالمانعة أو الأبدية وبذلك اصبحت المسؤولة عن كيانات جنوب الخليج العربى من الناحية الدفاعية والشؤون الخارجية أمام القوى الدولية والمجاورة . وبعد تلك السيطرة القوية لبريطانيا على جنوب الخليج العربى بدأت تتطلع نحو الشمال الذى أثار اهتمامها ليس للأسباب التقليدية (تجارية واقتصادية لتصريف بضاعتها وتأمين المواد الأولية اللازمة للصناعات والمواصلات النهرية فى عربستان والعراق) وإنما لمصالح اقتصادية جديدة تمثلت فى ظهور النفط فى عربستان والعراق مما أعطى بعداً جديداً للمنافسة الدولية فى المنطقة ولتحقيق هذه الغاية اتجهت بريطانيا شمالاً .

ويكفى أن نشير إلى السياسة البريطانية فى تلك الفترة بأن مجموع السفن التى دخلت مياه الخليج العربى فى عام ١٩٠٠ بلغت ثلاثمائة وسبع وعشرين لم يكن منها سوى ست سفن غير بريطانية وأن أكثر من ٨٠٪ من الحمولة كانت بريطانية . وقد وضعت بريطانيا سلطاتها فى الخليج العربى تحت إشراف مزدوج من قبل وزارة الخارجية وحكومة الهند البريطانية . وكان مكتب الهند حلقة الاتصال بينهما ؛ أما وزارة الخارجية فكانت مسئولة عن العلاقات مع الدولة العثمانية وقناصلها فى بغداد والبصرة كما كان الوزير المفوض البريطانى فى طهران وكذلك القناصل العامون فى المدن الإيرانية أما الوكلاء السياسيون فى كل من ساحل عمان وعربستان والبحرين والكويت فهؤلاء جميعًا كانوا مسؤلين أمام المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى بوشهر والذى يتبع حكومة الهند البريطانية .

الدولة العثمانية والخليج العربى :

تغيرت السياسة الأوروبية تجاه الدولة الدولة العثمانية فى الفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، من المحافظة على تأمين واستقلال وحدة أراضى الدولة العثمانية إلى مرحلة التنافس الفعال على اقتسام ممتلكاتها وتقطيع أوصالها، وذلك بعدما فشلت السياسة الاستعمارية الأوروبية القديمة فى إجبار الدولة العثمانية على إدخال الإصلاحات الأوروبية العصرية والتى سميت بالتنظيمات لتحويل الدولة العثمانية إلى محمية أوروبية . ولكن بعد فشل تلك السياسة والإصلاحات تغيرت السياسة الأوروبية الاستعمارية تجاه الدولة العثمانية الاسلامية إلى عدم جدوى هذه الطريقة التى سميت بالإصلاحات (وكما تسمى حاليًا من قبل الولايات المتحدة الأمريكية «بالعملية الديمقراطية» للتدخل فى الشئون الداخلية والسيطرة على الدول الضعيفة تحت هذا الشعار) ولهذا قررت الدول الاستعمارية الأوروبية بعدم قدرة الدولة العثمانية على الاستمرار فى الحياة وبالتالى تقسيمها فيما بينهم .

زرع نظم وأفكار غربية أوروبية فى بنية الدولة العثمانية ؛ مثل نظم الإدارة الحديثة والتنظيم العلمى أو العلمانى وغيرها ، لم يكن ممكنًا فى فترة قصيرة كهذه . ولهذا رأى بعض الأوروبيين بأن الدولة العثمانية إذا عادت إلى أصول ديانتها والمبادىء التى وضعها القرآن الكريم لعادت كل الأمور إلى نصابها وهذا ما كانت تعارضه أوروبا ، ولهذا قرر الأوروبيون تركها على حالها ولكن تحت رعاية وهيمنة الغرب الأوروبى المسيحى . وقد غاب عنهم أو تجاهلوا أن سبب فشل تطور الدولة العثمانية قد يرجع إلى الظروف الواقعية المادية والاجتماعية والإدارة .

نادى بعض الأوروبيين إلى إعادة الممتلكات العثمانية إلى سكانها الأصليين : فطالبوا باستقلال أرمينيا وانفصال المستعمرات اليونانية وإعادتها إلى اليونان وبتحول العرب من القانون العثمانى إلى العادات العربية . وتدعم هذا المنطق الاستعمارى الأوروبى الجديد بتداعى الأحداث بتوقيع الوفاق الثلاثى الودى بين بريطانيا وفرنسا وروسيا عام ١٩٠٤ واكتشاف النفط فى عربستان ١٩٠٥ وتأكيد وجوده فى الخليج العربى بكميات تجارية واتفاقية سكة الحديد برلين - بغداد الأولى عام ١٩٠٣ وعقد شركة دوارى النفطية عام ١٩٠١ وتحويل البحرية البريطانية إلى استعمال محركات الاحتراق الداخلى التى تعمل بالنفط بدلا من المحركات البخارية عام ١٩٠٣ . ثم توقيع اتفاقية سكة بغداد - برلين عام ١٩١٤ وتوقيع اتفاقية إعادة تنظيم شركة النفط العثمانية فى اليوم نفسه .واستمر هذا المنطق إلى قيام الحرب العالمية الأولى التى اتضحت فى سنواتها الأربع والسنوات المباشرة التى اعقبتها الملامح النهائية الكاملة لهذه الخطة الاستعمارية الجديدة فى الخليج العربى. ولكن من نكايات الزمان أن الخطة التى وضعها البريطانيون لم ينفذها كاملة سوى الامريكيون بعد الحرب العالمية الثانية . وهكذا فما تصوره البرتغاليون حققه البريطانيون وما خطط له البريطانيون نفذه الأمريكيون[1] مع الفارق فى بعض الأمور طبعًا .

الأوضاع فى شرق الجزيرة العربية :

انصرف ابن سعود فى النصف الأخير من عام ١٩١٣ إلى تسوية علاقاته مع العثمانيين على أساس ثابت . وانتهت المفاوضات بينهما إلى اتفاق تم التوقيع عليه فى الخامس عشر من مايو عام ١٩١٤ اعترف فيه ابن سعود (الملك عبد العزيز) بالسيادة العثمانية على نجد والاحساء . وارتضى بموجب المادة الثانية من الاتفاق بتعيينه واليًا عثمانيًا على نجد طيلة حياته على أن يرثه فى الحكم أولاده وأحفاده . وأشار الاتفاق بحق الحكومة العثمانية فى وضع القوات العثمانية فى بعض الموانىء كالقطيف والعقير . ووافق فى المادة السابعة على أن يستخدم العلم العثمانى . كما تعهد فى المادة التاسعة بأن لايتدخل أو يتعامل فى الشؤون الخارجية وأن لايعقد معاهدات دولية أو يمنح أية امتيازات إلى الأجانب. وقدم السفير العثمانى فى لندن مذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٩ / ٧ / ١٩١٤ تأكيداً بتعيين ابن سعود واليًا عثمانيًا فى نجد . وتقول المذكرة «صدر فرمان عثمانى بتعيين ابن سعود حاكمًا عامًا وقائداً فى نجد وليس من حق ابن سعود أن يعقد أية مواثيق أو يقيم أية

ارتباطات مع الدول الأجنبية ... وعليه فى جميع الأحوال أن يحترم جميع المعاهدات المعقودة بين الدولة العثمانية والدول الأخرى»[٢].

لم يبرم الباب العالى قط اتفاق التاسع والعشرين من يوليو الذى أقر الخط الأزرق كالحدود الشرقية لسنجق «نجد» وطال أمر المفاوضات لتسوية الخلافات بين الحكومتين البريطانية والعثمانية طيلة عامى ١٩١٣ و١٩١٤ دون الوصول إلى نتيجة مرضية . وكانت الفترة التى قررت فى الأصل لابرام ميثاق عام ١٩١٤ وهى ثلاثة أشهر قد جددت مرات عدة. ولكن الابرام لم يكن قد تم بعد عندما نشبت الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية فى ٣١ / ١٠ / ١٩١٤ . ولكن الباب العالى كان قد ارتضى كما يبدو بالخط الأزرق كالحدود الصحيحة لممتلكاته فى شرق الجزيرة العربية وذلك لأنه عقد فى ٩ / ٣ / ١٩١٤ معاهدة أخرى محدودة الأماكن التى تمارس فيها السيادة العثمانية فى الأقسام الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية . وقد تضمنت هذه المعاهدة إشارة واضحة إلى الخط الأزرق وأبرمت الحكومة العثمانية هذه المعاهدة فى ٥ / ٦ / ١٩١٤ وتضمنت المادة الثالثة من هذه المعاهدة الإشارة إلى الخط الأزرق إذ تقول [٣]:

«وفى الجنوب الغربى يسير خط حدود الممتلكات العثمانية فى شكل خط مستقيم من المكان المسمى «بلسكان الشعوب» متجهًا إلى الشمال الشرقى فى صحراء الربع الخالى مع ميل يقدر بخمس وأربعين درجة ينضم هذا الخط داخل الربع الخالى إلى خط الدرجة ٢٠ الموازى له ويسيران معًا باتجاه اليمين وإلى الجنوب إلى أن يصلا فى الجنوب إلى نقطة تقع على خليج العقير وتفصل بين أراضى سنجق «نجد» العثمانى وأراضى قطر وفقًا للمادة ١١ من الميثاق والمناطق المجاورة لها . حمل الخط الأول اللون البنفسجى كما حمل الخط الثانى اللون الأزرق على الخريطة المرفقة».

تم إبرام معاهدة ١٩١٤ بعد بضعة أسابيع من فراغ ابن السعود من التوقيع على الإتفاقية مع الباب العالى ، ولقد بات والحالة هذه ملتزمًا باحترام المعاهدة واحترام الخط الأزرق الذى اكتسب الأثر القانونى بموجب معاهدة ١٩١٤ وأصبح يمثل الحدود الشرقية لسنجق «نجد» الذى كان يحكمه كوالى عثمانى . ولم يكن ليلقى أية صعوبة فى أدائه لواجبه هذا إذ أن الخط الأزرق كان يتفق تمام الإتفاق مع حدود سلطته المطلقة فى الشرق وكان ابن سعود نفسه فى رسالته إلى كوكس المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى والمؤرخة

فى ١٣ / ٦ / ١٩١٣ قد حدد أراضى أسلافه خارج نجد بأنها الإحساء والقطيف وتوابعها. ولم يكن أى من أمراء أسرته قد مارس أية سلطة إلى الشرق من الجفورة طيلة نصف القرن الماضى(٤) من القرن التاسع عشر .

الكويت وعربستان :

برزت الكويت فى هذه الفترة كمركز سياسى هام بفضل حنكة ودهاء حاكمها مبارك الصباح الذى استطاع أن يوطد علاقات جيدة مع شيخ عربستان الشيخ خزعل وينسق معه فى اتخاذ مواقف معينة مع بريطانيا والدولة العثمانية . وفى الوقت الذى كان الشيخ مبارك يشجع خزعل على اتخاذ مواقف استقلالية عن حكم إيران كان شيخ عربستان العربى يشجع مبارك على الابتعاد عن العثمانيين . وإذا كانت العلاقات بين حاكم الكويت والأمير عبد العزيز بن السعود قائمقام نجد العثمانى قد مرت بمد وجزر فان العلاقات الكويتية مع عربستان لم تشُبها أية شائبة واستمرت قوية ووطيدة . وكان شيخ عربستان لايبخل على حليفه حاكم الكويت بالمال والسلاح . وقد عرض الشيخ مبارك على حليفه المشاركة الفعلية فى القتال ضد بعض العشائر من بنى كعب التى ثارت ضد خزعل بعد تحركات قام بها الجيش العثمانى فى البصرة من أجل السيطرة على الأهواز .

منح الشيخ مبارك لبريطانيا إمتياز التنقيب عن البترول وفى نفس الوقت أبدى ترحيبه بالإنعام السلطانى عليه بالوسام العثمانى الأول الذى توسط فى استحصاله «سليمان شفيق» والى البصرة . وقد دخل الشيخ مبارك بمراسلات خطية حول هذا الموضوع مع ولاية البصرة ومع الدولة العثمانية اكد فيها ولاءه للسلطان . وفى نفس العام جرت اتصالات عثمانية – بريطانية بتوسط من المانيا هدفها التوصل إلى صيغة مرضية للطرفين حول قضية الكويت . وتم التوقيع بالأحرف الأولى فى ١٩ / ٧ / ١٩١٣ على اتفاقية ثنائية نصت المادة الأولى فيها على الاعتراف البريطانى بأن الكويت جزء من الدولة العثمانية وتعهدت فى المادة الثانية بعدم التدخل فى الشؤون الداخلية للشيخ مبارك بما فى ذلك مسألة الوراثة ، وقد اشترطت الدولة العثمانية رفع العلم العثمانى . وقد تم فى هذه الاتفاقية تعيين الشيخ مبارك قائمقام عثمانيًا فى الكويت لتكون له السلطة القانونية لحماية الرعايا العثمانيين فى الكويت . وقد اعترفت الحكومة العثمانية كما جاء فى الفقرة الثالثة من الاتفاقية بالاتفاقية البريطانية – الكويتية المعقودة عام ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٤ وقد تعهدت بريطانيا فى الفقرة الرابعة بأن لاتقوم باعلان الحماية على الكويت .

بريطانيا والحرب ضد الدولة العثمانية فى الخليج العربى ١٩١٤ - ١٩١٨ :

استمرت الدولة العثمانية تنافس الوجود البريطانى فى الخليج العربى وازداد هذا التنافس فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى الذى اتخذ طابعًا روحيًا بعد تبنّيه لحركة الوحدة الاسلامية وهذا ما كانت تخشاه بريطانيا ليس على المسلمين فى الهند بقدر ما كانت تخشى القبائل العربية فى العراق وعربستان وشرق الجزيرة العربية . وقبيل الحرب نجحت بريطانيا فى منع أى تعاون بين القبائل العربية فى الخليج والدولة العثمانية التى حاولت بالفعل التأثير عليهم تحت شعار حركة الجهاد الدينى ضد الاستعمار البريطانى المسيحى وإعادة الخلافة الاسلامية إلى سابق عهدها . وأصبح السلطان عبد الحميد يكن كراهية شديدة لبريطانيا التى تسعى لاقتطاع أجزاء من دولته وخاصة فى الخليج العربى فى شرق الجزيرة العربية . وكان فى صراعه هذا يأمل بانضواء جميع المسلمين تحت لوائه بما فيهم إمارات الخليج العربى التى وقعت الاتفاقيات المانعة مع بريطانيا ورعاياها المسلمين فى الهند وتلبية ندائه للجهاد المقدس ضدها[٦]، ومنذ ذلك الوقت بدأت بريطانيا تفكر ليس فى احتلال شرق الجزيرة العربية فحسب ، وإنما العراق وعربستان .

لم يكتف السلطان عبد الحميد بعرقلة المشاريع البريطانية فى العراق وإنما أخذ يمد يد المساعدة بالسلاح والعتاد لشيوخ القبائل العربية فى عربستان والبصرة والكويت لمقاومة النفوذ البريطانى . ونشطت السلطات العثمانية فى المنطقة أيضًا فى محاولة كسب حكام العرب فى الخليج العربى وشجعت والى البصرة على اتخاذ الإجراءات الكفيلة بالحصول على مساندة ابن السعود ضد بريطانيا وحثها أمراء آل الرشيد على تصفية خلافاتهم مع ابن السعود كما طلبت الحكومة العثمانية من الشيخ مبارك المساهمة فى المجهود الحربى .

أخذ السلطان عبد الحميد يشجع الحركة الاسلامية فى الهند محاولاً إعادة مجد الدولة العثمانية داعيًا إلى الجامعة الاسلامية لتكون قوة سياسية ضد بريطانيا . والواقع أن السلطان عبد الحميد كان باستطاعته أن يفعل الكثير ضد الاستعمار البريطانى لو كان صادقًا فى عمله وواصل إصلاحاته الدستورية وتقرب من العرب الذين كانوا يتشككون دائمًا فى نيات الحكام العثمانيين من خلال تعاملهم عبر الفترة التاريخية الماضية والذين لم يكن همهم سوى بقاء حكمهم واستغلالهم للبلاد العربية ، وكان أسوأ ما قام به الأتراك بعد إسقاط عبد الحميد الثانى هو العودة إلى القومية الطورانية التركية وفرض اللغة التركية على

العرب (٧)،معتقدين بأن العرب سوف يرضخون للأمر الواقع . ولكن العرب تحملوا الكثير من الدولة العثمانية ولم يعلنوا الثورة أو الإنفصال باعتبارها دولة اسلامية . أما اليوم فقد توجه الأتراك إلى قوميتهم ومحاولة فرضها عليهم بالقوة فان العرب أيضًا لهم قوميتهم العريقة فتوجهوا إليها دفاعًا عن النفس وعن القومية العربية من خلال الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين فى الحجاز .

لم يكن عرب الخليج العربى وشرق الجزيرة العربية والعراق وعربستان بعيدين عن قوميتهم العربية مثل إخوانهم فى بلاد الشام والحجاز ، فقد كان الشيخ مبارك مشتركًا مع السيد طالب النقيب وهو نقيب الأشراف فى البصرة والشيخ خزعل حاكم عربستان فى زعامة فرع حزب الحرية والائتلاف وكان معارضًا لحزب الاتحاد والترقى ذى الصبغة القومية التركية . وقد تأسس هذا الفرع فى البصرة بعد وصول جماعة الاتحاديين الطورانيين إلى الحكم وإسقاط السلطان عبد الحميد وانتهاجهم سياسة التتريك على العرب . وكان شيوخ القبائل فى شرق الجزيرة العربية وعربستان وجنوب العراق يجدون فى السيد طالب النقيب خير من يتولى مصالحهم ضد تعسف الإدارة العثمانية إزاء العناصر الغير تركية .

لم تكن تخشى بريطانيا على شيوخ القبائل العربية فى ساحل عمان وعمان وشرق الجزيرة العربية بقدر تخوفها على إمارة عربستان التى كان يحكمها الشيخ خزعل الكعبى وإمارة الكويت والتى كانت لاتزال تحت السيادة الرسمية وإن كانت علاقته ببريطانيا جعلته إمارة مستقلة تحت الحماية البريطانية بموجب اتفاقية ١٨٩٩ . ولهذا كان القلق البريطانى تجاه التهديد العثمانى لإمارة عربستان والكويت وبالتالى ضياع النفوذ البريطانى وفكرت فى إرسال قوات عسكرية للتمركز فى شمال الخليج العربى لحماية مصالحها .

اكتسبت منطقة الخليج العربى أهمية كبيرة فى الفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى بسبب موقعها بين الشرق والغرب وإطلالها على القوى المتحاربة وتزايد الاهتمام بثرواتها النفطية. وفى هذه الفترة كانت الأمور قد استتبت لبريطانيا فى الخليج العربى وكان المقيم السياسى البريطانى يشرف على نفر قليل من الموظفين فقد زاد وجودهم إلى عشرين موظفًا رسميًا فى عام ١٩١٤ وكان يناط بهم الإشراف على المنارات والعوامات والدوريات البحرية وخطوط البرق ومحطات اللاسلكى . وكان نشوب الحرب العالمية الأولى وزيادة احتمال دخول الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا قد وضع حكومتى بريطانيا والهند أمام مشكلة عاجلة تتعلق بالدفاع عن المصالح البريطانيا فى الخليج العربى .

لعل أكثر المشكلات إلحاحًا كانت تتمثل فى الدفاع عن حقول النفط ومصافى التكرير فى عربستان وكذلك عن خط الأنابيب الذى يربط بينهما . وكانت بريطانيا ملتزمة ماديًا ومعنويًا بحماية شيوخ القبائل فى ساحل عمان بمقتضى المعاهدات التى تربطهم بها إذا ما تعرضت ممتلكات الحكام وأرواحهم وإذا ما دخلت الدولة العثمانية الحرب مع ألمانيا ولكن الواقع غير ذلك؛ هنا الخوف على المصالح البريطانية سواء فى الخليج العربى أو الهند إذا استطاع العثمانيون انتزاع المنطقة من أيديهم والأكثر أهمية من هذا أن بريطانيا أدركت أن التخطيط للدفاع عن الخليج العربى مرتبط بالدفاع عن الهند الأمر الذى يستدعى تأمين السيادة البحرية البريطانية فى الخليج العربى فى حالة حدوث تقدم عثمانى إلى الشمال من الخليج العربى ، كما أدركت أيضًا أهمية التعاون البريطانى الروسى لصد أى تقدم عثمانى يمكن حدوثه نحو الشرق إلى إيران أو عبر بحر قزوين عن طريق ألمانيا والدولة العثمانية إلى الهند وأفغانستان (٨).

برزت أهمية الخليج العربى باعتباره همزة الوصل بين النفوذ البريطانى القائم فى الهند والنشاط الألمانى المتزايد فى العراق ، كما أنها الطريق إلى حقول النفط فى عربستان والطريق المؤدى إلى جبهة القتال بين روسيا والدولة العثمانية . ومن هنا باتت للمنطقة أهمية استراتيجية لبريطانيا التى كانت قلقة برغم اتفاقياتها مع شيوخ الخليج العربى وخائفة من تلك الرابطة التى تربط شعوب المنطقة بالدولة العثمانية بحكم العاطفة الدينية ولذا فانها كانت حريصة أشد الحرص على كسب ولاء هؤلاء وجمع كلمة حكام المنطقة إلى جانبهاخصوصًا وقد وضح لها أن بعضهم مثل الشيخ مبارك حاكم الكويت والشيخ خزعل حاكم عربستان وطالب النقيب قد انحازوا إلى الحركة العربية وانضموا إلى حزب الحرية والائتلاف ضد جماعة الاتحاد والترقى ومن ثم كان من الطبيعى أن يحتضن البريطانيون هؤلاء الزعماء (٩).

عقد زعماء حزب «الحرية والائتلاف» فرع البصرة مؤتمرًا لهم فى مدينة المحمرة بامارة عربستان حضره كل من الشيخ خزعل والشيخ مبارك والسيد طالب النقيب وتعهد المجتمعون ببذل جهودهم لتحقيق استقلال العراق ويبدو أن هدف المؤتمر كان ترشيح أحدهم ليتولى حكم العراق بعد تخلصه من حكم الحركة القومية التركية الطورانية . ومما لاشك فيه أن الحكومة البريطانية كانت على علم بهذا المؤتمر وإن لم يكن تحت إشرافها وتشجيعها وذلك بعدما

نجحت فى إيجاد تقارب بينها وبين حكام كل من عربستان والكويت والبصرة ، ومن ثم قامت بريطانيا باحكام سيطرتها على شمال الخليج العربى لمنع تدفق القوات العثمانية إلى عربستان بارسال حملة عسكرية إلى شط العرب لمنع دعوة الجهاد الإسلامى والوحدة الاسلامية إلى جانب حماية آبار النفط فى مسجد سليمان بامارة عربستان حيث شركة النفط البريطانية لاسيما وأن الأسطول البريطانى كان يستخدم البترول المكرر فى مصافى عبدان الذى أصبح من الضرورات الهامة لكسب المعركة .

لذلك رأت القيادة العامة للقوات البريطانية أهمية احتلال البصرة والأجزاء الجنوبية الغربية من إمارة عربستان بهدف تأمين آبار النفط فى تلك الإمارة العربية ولم تلبث الخطة البريطانية العسكرية أن امتدت لتشمل احتلال العراق بأكمله ومحاولة الاتصال بروسيا فى الشمال . ولكن هزيمة الجيش البريطانى فى كوت العمارة عام ١٩١٧ وقف تنفيذ هذا الاتصال ويعتبر انتصار الجيش العثمانى بمساندة القبائل العربية فى العراق من الانتصارات العسكرية الرئيسية القليلة التى سجلها الجيش العثمانى ضد الحلفاء وخاصة ضد بريطانيا بالذات إبان الحرب العالمية الأولى [١٠] .

برغم ثقة بريطانيا فى الشيخ خزعل الذى وقف بكل قواه إلى جانب بريطانيا وتنازل عن جزيرة عبدان لشركة البترول البريطانية إلا أنها كانت تخشى من أن يتأثر مركزه ومركز الشركة البريطانية من ناحيتين هامتين وهما : الأولى احتمال تعرض الشيخ خزعل لعداء من قبائل البختيارية القاطنة فى جبال زاجروس إلى الشمال الشرقى من عربستان خاصة وأن هذه القبائل كانت تسبب له الكثير من المتاعب ولذلك اتجهت بريطانيا لتوثيق صلاتها مع هذه القبائل التى كانت على استعداد للتعاون دومًا مع أية قوة تزودها بالمال والسلاح وتحول دون خضوعها للحكومة المركزية فى طهران . والثانية تعرض إمارة عربستان لعدوان من الدولة العثمانية بعد إعلان الشيخ خزعل الكعبى وقوفه إلى جانب بريطانيا [١٢] ، ولهذه الأسباب أرسلت بريطانيا حملة عسكرية من الهند وصلت إلى شط العرب فى ٥ نوفمبر ١٩١٤ وقبل وصولها بقليل كانت الدولة العثمانية قد أعلنت الحرب على بريطانيا مما يعنى أن الحملة البريطانية كان إرسالها مقرراً سواء أعلنت الدولة العثمانية الحرب أم لم تعلنها .

برغم نشوب الحرب لم تكن الكويت ملزمة بموقف معين تجاه بريطانيا التى وجهت تبليغًا إلى الشخ مبارك بأن يعمل مع شيوخ العرب الموالين له لتحرير البصرة ومهاجمة أم القصر

وصفوان ومنع الإمدادات العثمانية من الوصول إلى البصرة وتأمين المعدات البريطانية والمحافظة على أرواح وممتلكات الرعايا البريطانيين المقيمين فى البصرة . وعلى الرغم من أن التبليغ البريطانى كان مؤقتًا بظروف الحرب وكان من المفروض أن تنتهى صفة الحماية البريطانية على الكويت عقب زوال الظروف الداعية إليها فقد استمرت بريطانيا محتفظة بذلك الوضع حتى عام ١٩٦١ . وعقب التبليغ البريطانى أخذ الشيخ مبارك يعبىء قوات من القبائل العربية ضد احتمال غزو عثمانى لإمارته وعلى الرغم من أنه لم يقم بعمليات عسكرية إيجابية إلا أن القوات الكويتية كانت مهمة فى تأمين ظهر القوات البريطانية فى المراحل الأولى من عملية احتلال العراق . وعلى الرغم من أنه لم ينجح فى الدخول إلى البصرة إلا أن وجوده على رأس قوة كبيرة من القبائل العربية حول أنظار العثمانيين عن الجيش البريطانى الذى نزل على شط العرب وزحف على البصرة كما أبدل الشيخ مبارك العلم العثمانى الذى كان يرفعه على إمارته وعلى ظهر سفنه بعلم كويتى خاص استجابة لتعليمات الحكومة البريطانية حتى يمكن لقواتها أن تميز بين أعلام الكويت الصديقة وبين أعلام العثمانيين المعادية .

وضع الشيخ خزعل جميع إمكانياته تحت تصرف البريطانيين فى مقابل تأكيد وجه له من الحكومة البريطانية عن طريق المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى جاء فيه :

«لقد أمرتنى حكومة صاحب الجلالة أن أقدم لكم مقابل هذه المساعدة القيمة وعداً بأننا إذا ما نجحنا وسننجح باذن الله فاننا لن نعيد البصرة إلى الدولة العثمانية ولن نسلمها لهم أبداً وفوض إلى أن أذكركم بصورة شخصية فى هذا الكتاب بأن حكومة صاحب الجلالة مهما طرأ من التبدل على شكل الحكومة الإيرانية وسواء كانت هذه الحكومة ملكية مستبدة أم دستورية ،مستعدة لأن تمدكم بالمساعدات اللازمة للحصول على حل يرضيكم ويرضينا معًا إذا تجاوزت الحكومة الإيرانية حدود اختصاصاتكم وحقوقكم المعترف بها ، أو على أموالكم الموجودة فى إيران . هذه التأكيدات معطاة لكم ولخلفائكم من الذكور من صلبكم وتبقى أبداً معمولاً بها وفضلاً عن ذلك فستبقى بساتين النخليل العائدة لكم فى الجانب العثمانى من شط العرب كلها تحت حيازتكم وحيازة ورثتكم معفاة من الرسوم» .

لم يؤثر نشوب الحرب عام ١٩١٤ تأثيراً ماديًا فى موقف ابن السعود ، ولقد حصر اهتمامه طيلة الحرب كلها فى إضعاف سطوة منافسه فى الشمال ابن الرشيد الذى كان يعتبر

من أشد أنصار العثمانيين نشاطًا فى الجزيرة العربية . ولقد تلقى ابن السعود فى أطماعه التوسعية هذه كل عون ومساعدة مالية وعسكرية ودعم سياسى من الحكومة البريطانية التى اخذت تدفع له مساعدة شهرية قدرها خمسة آلاف جنيه استرلينى . وكان ابن السعود يتوقع من الحرب شيئًا أكثر من هزيمة ابن الرشيد ، ويقول فلبى إنه كان يتطلع قبل كل شىء إلى ضرورة التحالف مع بريطانيا كالضمانة الوحيدة الأمينة لمصالح بلاده وشعبه حاضراً أو مستقبلاً[١٣] ، ويمكن القول بأن ابن السعود كان يريد الاعتراف به ولقد حقق ما هدف إليه فى المعاهدة المانعة البريطانية والتى عقدها السير برسى كوكس فى جزيرة تاروت المواجهة للقطيف فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ ونصت المادة الأولى من هذه المعاهدة على ما يلى :

«تعترف الحكومة البريطانية ، وتقر بأن نجد والاحساء وقطيف وجبيل وملحقاتها وأراضيها وهى موضوع البحث والتقرير فى هذه المعاهدة وموانئها على شواطىء الخليج العربى هى ممتلكات ابن السعود وأسلافه من قبله ولذا فهى تعترف هنا بابن السعود حاكمًا مستقلاً لهذه المناطق » .

تعهد ابن السعود مقابل ذلك ، كما تعهد حكام ساحل عمان والبحرين والكويت فى الاتفاقيات المانعة التى ذكرناها سابقًا وهى الحماية البريطانية ، بعدم دخول ابن السعود فى أية علاقات مع الدولة الأجنبية وبعدم التخلى عن أى من أراضيه بدون موافقة الحكومة البريطانية واستخراج العرض الذى كان قد قدمه إلى كوكس المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى عام ١٩١٣ بتحديد الالتزامات التى كان قد قطعها عبد الله بن فيصل القائمقام العثمانى فى نجد فى عام ١٨٦٦ [١٤] ، وأدرج فى المادة السادسة من المعاهدة التى أصبحت تقول :

«يتعهد ابن السعود كما تعهد آباؤه من قبله بالامتناع عن كل اعتداء أو تدخل فى أراضى الكويت والبحرين وقطر وساحل عمان لأنها كلها تحت حماية الحكومة البريطانية ولأنها ترتبط مع هذه الحكومة بعلاقات تعاهدية وهى التى ستقرر حدود ممتلكاتها فيما بعد».

بذلك نجحت بريطانيا بتوقيع اتفاقية الحماية مع ابن السعود كما ألزمته بالاعتراف بالاتفاق الانجلو - عثمانى لعام ١٩١٣ باعتباره وريثًا للدولة العثمانية وكان قائمقام عثمانى لنجد والإحساء وأهم ما اشتملت عليه بنود هذه الاتفاقية ما يلى :

أولاً : اعتراف الحكومة البريطانية بابن السعود وخلفائه من بعده كحكام مستقلين .

ثانيًا : تقرير الحماية لابن السعود ضد أى عدوان خارجى .

ثالثًا : إشراف بريطانيا على علاقات ابن السعود الخارجية .

رابعًا : يتعهد ابن السعود بأن لايتخطى ولايبيع ولايرهن أية قطعة من الأراضى التابعة له ولا يمنح امتيازات لدولة أجنبية دون موافقة الحكومة البريطانية وأن يتبع نصائحها التى لاتضر بمصلحته .

خامسًا : يتعهد ابن السعود أن يبقى طرق الحج مفتوحة وأن يحافظ على الحجاج أثناء ذهابهم لتأدية الحج .

سادسًا : يتعهد ابن السعود بأن يمتنع عن كل مداخلة فى أراضى الكويت والبحرين وقطر وعمان وسواحلها وكل الشيوخ الموجودين تحت حماية بريطانيا والذين لهم معاهدات معها .

بذلك أصبح ابن السعود مثله مثل بقية حكام الخليج العربى المرتبطين بمعاهدات الحماية مع بريطانية التى قدمت له مقابل توقيعه تلك الاتفاقية المساعدات المالية والفنية والعسكرية والضباط البريطانيين ليحاربوا مع جيش ابن السعود ومنهم النقيب شكسبير الذى قتل أثناء معارك ابن السعود ضد خصمه ابن الرشيد ، وكان ابن السعود فى حاجة ملحة إلى السلاح الذى قدمته بريطانيا لمقاتلة أعدائه السابقين من قبائل العجمان والمرة والهواجر وابن الرشيد والمساعدات المالية النقدية التى قدرت بعشرين ألف جنيه إضافة إلى ألف بندقية والأسلحة والذخائر التى أرسلت له من البحرين حتى يستطيع أن يفى باحتياجات الحملة التى وجهها ضد قبائل العجمان . وكان من نتائج توقيع معاهدة دارين لعام ١٩١٥ أن توسط المقيم السياسى البريطانى برسى كوكس مع سالم الصباح حاكم الكويت الذى خلف الشيخ جابر كى يقوم بطرد قبائل العجمان من إمارته . وقد عرف الشيخ سالم بعدائه الشديد لابن السعود الذى كان يلح فى طلب مقابلة برسى كوكس حتى يطلعه بنفسه على حقيقة الوضع الذى صار إليه واستجاب المقيم البريطانى لطلب ابن السعود وتم اختيار العقير مكانًا لعقد الإجتماع فى ١١ / نوفمبر ١٩١٦ وكان الاجتماع من أجل البحث فى الوسائل التى يستطيع ابن السعود السير قدمًا فى حملته الهجومية الى كان ينوى القيام بها ضد ابن الرشيد ، وقد

أوضح ابن السعود لبرسى كوكس المقيم البريطانى فشله فى إيقاع الضربة القاضية بغريمه بسبب حروبه المستمرة ضد آل مرة والعجمان وأنه لايستطيع أن يواصل الحرب فى جهتين فى آن واحد (١٥).

عنى اجتماع العقير الثانى بمناقشة الطرق والوسائل التى تمكن ابن السعود من تجهيز حملة قوية ضد قبائل آل مرة والعجمان وابن الرشيد كما تناول هذا الاجتماع علاقات ابن السعود وشيخ الكويت . ثم دعا برسى كوكس المقيم السياسى البريطانى ابن السعود للاجتماع الذى قررت الحكومة البريطانية أن تعقده فى الكويت بين شيوخ العرب فى الخليج العربى الذين اتخذوا جانب بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى والتى قررت خلع الأوسمة والنياشين عليهم . وقد عرف هذا المؤتمر باسم مؤتمر الكويت الثانى الذى كانت تنظر إليه بريطانيا أكثر عمقًا والذى انعقد فى ٢٣ نوفمبر ١٩١٦ وحضره إلى جانب ابن السعود وجابر وخزعل أكثر من مائة من شيوخ القبائل والعشائر العربية فى الإحساء والعراق وعربستان وكان الهدف من هذا المؤتمر هو تحقق بريطانيا من حسن نواياهم تجاهها من ناحية وحثهم على شد أزر الشريف حسين وتأييد ثورته العربية الكبرى من ناحية أخرى .

افتتح برسى كوكس المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى المؤتمر الذى انعقد برئاسته بكلمة أظهر فيها حسن نوايا الاستعمار البريطانى تجاه العرب ورغبتها فى استعادتهم لمجدهم الغابر وحرصها على جمع كلمتهم ليكونوا كتلة متماسكة تستطيع صد أى اعتداء خارجى يقع على بلادهم . ثم تطرق إلى موضوع الخلافة ووجوب انتقالها إلى العرب، وأجاب ابن السعود على خطاب كوكس ببغضه الصريح للعثمانيين وأشار إى الخلافة بأهمية إسنادها إلى الشريف حسين . وقال ابن السعود بأنه عدو للعثمانيين وهم له أعداء وأنه سيطاردهم ولو وحده لأنه لايذكر لهم سوى الشر له ولآبائه من قبل ؛ فقد قتلوا منهم ومثلوا ببعضهم أشنع تمثيل كما اتهمهم بما أصاب الاسلام من ضعف وختم حديثه بقوله بأنه لو كان فى جسمه قطرة من دم تميل إلى العثمانيين لبذل كا ما فى وسعه لإخراجها .

أعقب ابن السعود الشيخ خزعل الذى أيد الوحدة العربية واستعداد العرب لمساندة بريطانيا . أما الشيخ جابر حاكم الكويت فقد تردد فى موقفه تجاه الاستعمار البريطانى وكان ينازعه موقف المؤيد للعثمانيين باعتبارهم مسلمين وموقفه المؤيد لما يتخذه العرب من اتجاه يجمعون عليه . ولم يجد فى النهاية بدًا من أن يعلق «إننا عرب فاذا ما اجتمعت كلمة

العرب على شىء فاننا له من الطائعين» ، وكان قد عرف عن الشيخ جابر ميوله الدينية فقد أبى أن يساير مواقف ابن السعود أو الشيخ خزعل المؤيدة للاستعمار البريطانى والعدائية ضد الدولة العثمانية وأبدى من طرف خفى موقفه المؤيد للعثمانيين باعتبارهم مسلمين وكانت بريطانيا تتشكك فى مواقف شيخ الكويت ولهذا عقد المؤتمر فى الكويت .

بذل برسى كوكس المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى جهوده فى التخفيف من الشعور الموالى للدولة العثمانية من جانب الشيخ جابر حاكم الكويت إذ حرص ألا يفض المؤتمر حتى يقسم كل من ابن السعود والشيخ خزعل والشيخ جابر بتحالفهم مع بريطانيا ضد العثمانيين . وانتهى المؤتمر بتقليد بريطانيا وشاح نجمة الهند إلى كل من جابر وابن السعود وعندما أبلغ الشريف حسين بنتائج مؤتمر الكويت أبرق إلى ابن السعود يشكره على ما دار فى المؤتمر ويحثه على الاتحاد وجمع كلمة العرب ويوصيه بمراعاة حقوق جيرانه من أمراء الجزيرة العربية والإحساء وعلى الأخص شيخ الكويت . وبعد انتهاء المؤتمر توجه ابن السعود مع الشيخ خزعل إلى البصرة واجتمع مع المقيم السياسى البريطانى الذى قرر أن يسلم ابن السعود خمسة آلاف جنيه وأربع رشاشات وثلاثة آلاف بندقية مع كميات ضخمة من الذخيرة تكفى لتجهيز ما يقرب من أربعة آلاف مقاتل لمحاربة قبائل آل مرة والعجمان ومن ثم ابن الرشيد . كما حرص المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى على أن يعقد اجتماعًا بينه وبين ابن السعود الشيخ فهد حاكم عنيزة بهدف استغلال بريطانيا لحليفها ابن السعود بغية التوسط بينها وبين الشيخ فهد ويبدو أنها كانت مهمة فان بريطانيا قررت أن تزيد الاعانة التى كانت تصرف لابن السعود إلى ١٠٠,٠٠٠ جنيه سنويًا (١٦).

فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا مشغولة فى جهودها لإقناع حكام العرب الواحد تلو الآخر بالانضمام إلى مخططاتها الاستعمارية العسكرية ضد الدولة العثمانية مقابل سيل من الوعود والتعهدات حول مستقبل العرب السياسى بعد الحرب كانت بريطانيا من ناحية أخرى مشغولة فى التفاوض مع حلفائها فى أوروبا حول تقسيم الدولة العثمانية بما فيها الأقاليم العربية إلى مستعمرات خاصة بكل منها وتعكس هذه المخططات الاستعمارية إبتعاد الحلفاء عن أبسط قواعد حقوق الإنسان وانتهاكهم الصريح لحق الشعوب التى ناضلت وساندتهم فى الحرب العالمية الأولى فى العيش بحرية والعدالة وتقرير المصير .

بسبب الحرب أصبحت البحرين أكبر قاعدة بحرية بريطانية تتحكم فى الخليج العربى . أما فى الكويت فقد أخذت بريطانيا تحكم البلاد حكمًا مباشراً وبخاصة بعد فقد صديق بريطانيا الشيخ مبارك ولم تعد بريطانيا تثق بالزعامة الكويتية الجديدة التى كانت سبب الشعور الدينى والذى كانت تعطف على العثمانيين وهذا ما كانت تخشاه بريطانيا دائمًا . ولذلك أخذت فى إحكام قبضتها على الكويت باعتبارها مفتاح الجزيرة العربية وحارسة الطريق البرى نحو البحر المتوسط وبوابة العراق وقد أثبتت حرب الكويت سهولة اختراق الصحراء إلى العراق عندما تقدمت القوات الأمريكية والبريطانية إلى الناصرة وأصبحت على مقربة من بغداد .

تم تعيين موظفين بريطانيين للإشراف على واردات وصادرات الكويت بحجة الخوف من تسرب السلاح والغذاء للعثمانيين بالاضافة إلى توظيف موارد الكويت وصادراتها للمجهود الحربى لبريطانيا فى العراق . وقد رفض الشيخ سالم الصباح (١٩١٧ - ١٩٢٢) هذا العمل على أساس الصداقة التى تربطه مع بريطانيا وخضوع كل ما يدخل ويخرج من الكويت لمصادقة الوكيل السياسى البريطانى الذى أصر على موقفه وأوجد لجنة الإشراف وهدد بقصف مدينة الكويت بمدفعية الأسطول الحربى . وكانت بريطانيا تلجأ لمثل هذا التهديد بشكل دائم لكل من يحاول التملص من المراقبة والسيطرة البريطانية بالإضافة إلى التهديد بقطع المواد التموينية بخاصة الأرز القادم من الهند . وقد تدخل المقيم السياسى البريطانى برسى كوكس وقدم وساطته بين الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت والشيخ سالم الصباح واقنع الأخير بعدالة مطالب الوكيل السياسى البريطانى . فى اعتقادنا كان ذلك تحت التهديد أكثر من الاقناع وهو أسلوب استعمارى معروف ، وقرر كوكس أن تكون مهمة لجنة الإشراف مؤقتة تنتهى مع انتهاء الحرب ووعدت بريطانيا الكويت بالتعويض عن الأضرار التى ستلحق بالتجار الكويتيين بسبب الحصار الذى تزمع اللجنة فرضه (١٧).

ذاق الشعب فى الكويت الأمرين من هذه اللجنة الاستعمارية البريطانية التى كانت لاتتورع عن مهاجمة المنازل والتفتيش عن المواد الضرورية لحاجة الجيش البريطانى وكانت تصادرها وتمنعها عن السكان . وكان عام ١٩١٨ عامًا سيئًا على الكويت وهو عام البداية للاحتلال البريطانى الحقيقى للكويت .

بذلك استطاع الاستعمار البريطانى تعزيز سيطرته على الخليج العربى بصورة تفوق كثيراً ما كانت عليها قبل ذلك وخاصة بعد هزيمة ألمانيا والدولة العثمانية وتغيرت الأوضاع فى روسيا مع تسليم فرنسا بالنفوذ البريطانى والتى بادرت إلى اغلاق قنصليتها فى مسقط عام ١٩٢٠ كآخر مظهر من مظاهر النفوذ الفرنسى فى الخليج العربى وأصبحت بريطانيا تسيطر من العراق إلى الهند .

الخليج العربى فيما بين الحربين ١٩١٨ - ١٩٣٩ م :

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى كانت بريطانيا قد ركزت نفوذها فى الخليج العربى وحصلت على موافقة عصبة الأمم على أن تكون الدولة المنتدبة على العراق وفلسطين والأردن. وقد وسعت نفوذها فى عدن وسيطرت سيطرة كاملة على المضايق والجزر والمواقع الاستراتيجية فى الخليج العربى والمحيط الهندى والبحر الأحمر وعززت احتلالها العسكرى لكل من مصر والسودان ، وبدا واضحًا بعد الحرب العالمية الأولى أن بريطانيا ليست مستعدة لتنفيذ الوعود التى قطعتها على نفسها للشريف حسين حول منح الاستقلال الوطنى للعرب وكانت تصرفاتها فى تأسيس الإدارات العسكرية فى الأقطار العربية العسكرية وإخضاع هذه الأقطار مباشرة إلى المندوبين الساميين والمعتمدين والوكلاء السياسيين وضباط الارتباط تعكس السياسة الاستعمارية البريطانية التى تضع المصالح البريطانية فوق أى اعتبار آخر .

انشغلت بريطانيا بعد الحرب فى محادثات ومشاورات مع حلفائها من الدول الاستعمارية كفرنسا وإيطاليا حول تقسيم الدولة العثمانية إلى مستعمرات ومحميات تحت تسمية حديثة «الانتداب». وتعاونت مع الحلفاء على تشجيع الهجرة الصهيونية الاستيطانية إلى فلسطين وفى تقديم كل دعم ومساندة للحركة الصهيونية العنصرية . وقد عملت كل هذه الدول الاستعمارية على تمزيق الأقاليم العربية التى استولت عليها بالقوة وبث التفرقة بين أبنائها لقد كان ما يهم بريطانيا هو إخضاع هذه الأقاليم المحتلة للنفوذ والسيطرة العسكرية البريطانية المباشرة ونهب ثرواتها الوطنية ودعم الغزو الصهيونى لفلسطين وتركيزه وتوسيعه تحت غطاء الانتداب البريطانى . وكان الشريف حسين عقبة رئيسية فى طريق السياسة البريطانية فى الجزيرة العربية فقد وعدته بريطانيا بأن يكون زعيمًا على دولة عربية مستقلة تمتد من الخليج العربى إلى البحر الأحمر ومن أضنة شمالاً إلى عدن جنوبًا وقد أخذ يطالب هذه الوعود بعد أن شارك فعليًا فى الحرب ضد العثمانيين وقد تمكن من إقناع القبائل العربية

فى المشاركة بجانبه [١٨]، بالاضافة إلى الأحزاب والحركات السياسية التى كانت جميعها تضع ثقتها فى الحسين ولكن بريطانيا خذلته كما خذلت العرب .

ومن ناحية أخرى عملت بريطانيا بنصيحة حكومة الهند بدعم ابن السعود فى صراعه مع الشريف حسين كما كانت تشجع الاصطدامات العسكرية بين العشائر الكويتية والعراقية والغارات عليهما . وقررت بريطانيا تنفيذ خطة جديدة فى المنطقة بتوطيد التعاون مع ابن السعود وتقديم كافة مستلزماته من الدعم العسكرى والمالى من أجل السيطرة على الجزيرة العربية وانهاء حكم الهاشميين كليًا من الحجاز وكانت بريطانيا تعتقد أن ذلك من شأنه إنهاء موضوع المطالبة العربية بتنفيذ الوعود باستقلال ووحدة العرب التى كانت قد قطعتها للشريف حسين إبان الحرب .

من هذا المنطلق بدأت هجمات ابن السعود فى مارس ١٩٢٢ على المحافظات العراقية الجنوبية الغربية المحاذية لنجد. وكان هدفه الرئيسى من هذه العمليات إضعاف وإرهاب الملك فيصل والتقليل من مركزه أمام الشعب حتى يوافق على توقيع اتفاقية عدم الاعتداء بين الجانبين ليتسنى له بعدها إعداد هجوم على مملكة أبيه الشريف حسين ومنعه من تقديم المساعدة لأبيه فى الحجاز وهذا ما حدث فعلاً ، والواقع أن تلك الحركات والغزوات التى سببت الكثير من المآسى والدمار وقد ولدت ردود فعل عنيفة لدى الشعب العراقى الذى استنكر هذه الهجمات وما سببته من أضرار كبيرة فى الأرواح والممتلكات فى الوقت الذى كان يمارس هذا الشعب مختلف الضغوط مع البريطانيين للحصول على الحرية والاستقلال ويقاوم سيطرتها الاستعمارية واحتكاراتها النفطية وتبديد ثرواته وطالب ببناء الجيش وتعزيز قدراته الدفاعية ليتمكن من الدفاع عن أرضه فى مثل هذه الظروف . وكان المندوب السامى البريطانى يماطل فى هذه الأمور وينفذ سياسة استعمارية تهدف إلى الاعتماد عليه [١٩]، مما دفع بالحكومة والملك لطلب الوساطة البريطانية مع ابن سعود لحل الخلافات القائمة وتحديد الحدود وهذا ما كانت بريطانيا وابن السعود يسعى إليه من خلال تلك الهجمات . وفعلاً عقد اجتماع ثلاثى فى مدينة المحمرة فى إمارة عربستان وتم التوقيع على معاهدة المحمرة فى ٥ أبريل ١٩٢٢ بين العراق وابن السعود وبريطانيا كما تم التوصل إلى بروتوكول العقير فى ٢٧ ديسمبر ١٩٢٢ حول تحديد الحدود واعتبر هذا البروتوكول ملحقًا بمعاهدة المحمرة .

لم يجف حبر المعاهدة إلا وزحف ابن السعود على الحجاز بعد إعلان الشريف حسين نفسه خليفة للمسلمين واحتل الطائف وطلب من الهاشميين إخلاء الحجاز. وقد حث الملك فيصل المندوب السامى البريطانى فى العراق باتخاذ إجراءات سريعة للحيلولة دون وقوع الحجاز بأيدى ابن السعود إلا أن الأخير أبلغه رسميًا فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٤ بنص برقية وردته من حكومته أعربت فيها بريطانيا عن عدم استعدادها للتدخل فى النزاع بين ابن سعود وحاكم الحجاز الشريف حسين وأنها لن تسمح بأى تدخل فى هذا النزاع من قبل أى حكومة عربية. وفعلاً منعت بريطانيا ملك العراق وملك الأردن من تقديم مساعدة لأبيهم الشريف حسين فى الحجاز وطرد الهاشميين من ديارهم بعد حكم دام أكثر من خمسة قرون . وقد حاول الملك فيصل التدخل عسكريًا إلا أنه لقى معارضة قوية من بريطانيا فى ١٧ ديسمبر ١٩٢٥ .

بريطانيا والتسويات السياسية وقضايا الحدود :

اتخذت بريطانيا سياسة فرق تسد الاستعمارية فى المنطقة فى هذه الفترة فجزأت الأقاليم العربية إلى دول وكيانات متنازعة ورسمت لها الحدود. فقد نسيت هذه الكيانات بعد أن تحررت أن هذه الحدود قد أقامها الاستعمار المسيحى وأنها ليست سوى حدود الحبس الانفرادى والاقامة الجبرية التى فرضها الاستعمار ، ولعبت بعض الكيانات التى أقامتها أو تبنتها الإدارات الاستعمارية دوراً أساسيًا فى تهيئة المناخ الملائم للاستثمارات الأجنبية وللنهب المنظم لموارد البلاد ولجعل فكرة الوحدة العربية فكرة غير عملية وغير ممكنة فى النهاية .

لم يرد فى الخطة البريطانية إعطاء المنطقة استقلالاً ذاتيًا أو حكمًا دستوريًا أو توحيدها فى أي شكل من الأشكال بوصفها أنظمة سياسية تعامل على قدم المساواة من حيث هى دول مستقلة . ففى الوقت الذى نادى المكتب العربى فى القاهرة التابع لوزارة الخارجية البريطانية باعطاء العرب مملكة متحدة أو كونفدرالية بقيادة الشريف حسين بن على كما ورد فى وعد ماكماهون إلى الشريف ، فان حكومة الهند البريطانية رفضت ذلك ولم تعر آمال العرب القومية أى اهتمام . وركزت اهتمامها على احتلال العراق وربطه بامارات الخليج العربى وحضرموت وعدن وحكمها بأسلوب حكم الهند نفسه وهذا ما يتفق مع اتفاقية سايكس - بيكو لعام ١٩١٦ التى قسمت الشرق العربى والجزيرة العربية إلى كيانات ومناطق نفوذ ما كانت إلا أحد انعكاسات الخطة الاستعمارية ومؤشراً تاريخيًا على نمو التيار القومى فى

المنطقة . وكانت معاهدة دارين فى حقيقة الأمر قد جعلت من نجد محمية بريطانية أخرى مماثلة تمامًا لمحمياتها فى إمارات الخليج العربى . وقد منعت بنود هذه المعاهدة ابن السعود من الاعتداء على هذه الامارات ولكنها لم تطلب أى تعهد بعدم الاعتداء على الشريف حسين الذى طالب باستقلال وقيام الدولة العربية فى المشرق .

مما جاء فى الخطة الاستعمارية ضمان تجزئة العرب ومنع اتحادهم وتضمنت هذه الخطة ثلاثة عناصر أخرى ؛ تحييد إيران واستيعابها عن طريق المعاهدة الانجلو - إيرانية لعام ١٩١٩ التى بموجبها تلغى الاتفاقية الانجلو - روسية لعام ١٩٠٧ - وتقوم بريطانيا باعادة تنظيم وتدريب الجيش الإيرانى . وفى النهاية تثبيت الهيمنة البريطانية الكاملة على إيران التى تجعل منها ستارًا واقيًا من روسيا الشيوعية على الرغم من أن هذه المعاهدة لم يتم التصديق عليها إلا أنها ستنفذ عن طريق رضا خان الذى يحكم إيران فيما بعد ، ثانيًا يتضمن معاهدة السيب لعام ١٩٢٠ باقامة وتنظيم العلاقة بين السلطنة والإمامة فى عمان وقد جاءت هذه المعاهدة لترسيخ التقسيم الفعلى لعمان بين مؤسستى السلطنة والإمامة . وبذلك أنشىء كيان سياسى جديد بديلاً من بدائل الخطة إضافة إلى الحلقة الإيرانية والبديل السعودى . أما العنصر الثالث فهو ترسيخ تقسم اليمن بين ضم السعودى لشمال اليمن فى عسير واليمن العربية التى أعطيت إلى الإمام يحيى بعد الإنسحاب العثمانى عام ١٩١٨ واليمن الجنوبية وحضرموت التى قسمت إلى المحمية الشرقية والغربية .

بدأت تظهر اعتبارات جديدة فى المنطقة منها روسيا الشيوعية ومنافس استعمارى قوى وهو الولايات المتحدة الأمريكية ينادى بسياسة الباب المفتوح وسيلة للحصول على جزء من غنائم الحرب . والاعتبار الأهم هو المقاومة العربية للسياسة الاستعمارية والمطالبة بالوحدة الكونفدرالية العربية والحكم الملكى الدستورى وهما المطلبان اللذان سيوجهان الكفاح من أجل الاستقلال منذ قبيل الحرب العالمية الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية وهو ما نطلق عليه البديل القومى العربى (٢٠)، والاعتبار الأخير هو أهمية النفط الذى وجه الاستراتيجية العسكرية البريطانية كلها خلال الحرب العالمية الأولى والذى أعاد ولاية الموصل بسبب نفطها إلى العراق بدلاً من تركيا العالمية الأولى والذى أعاد ولاية الموصل بسبب نفطها إلى العراق بدلاً من تركيا أو فرنسا .

تعتبر اتفاقية العقير ١٩٢٢ من أهم الاتفاقيات المحددة فى المنطقة بين الكويت والعراق ونجد أن هذه الاتفاقية قد أدخلت ترسيم الحدود على الأرض وربطته بمفهوم السيادة الوطنية وهذه قضية لم تكن معروفة قبل ذلك فى المشرق العربى والجزيرة العربية طوال تاريخها واحتوت هذه الاتفاقية بذرة العنصر المدمر الذى سيقوض الأساس الذى بنيت عليه كل المطالب القومية منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا ، وكان مفهوم الولاء السياسى فى مجتمع الخليج والجزيرة العربية يرتبط بالبشر وليس الاقليم الجغرافى وتأتى اتفاقية العقير لتكمل ما بدأته اتفاقية الهند البحرية العامة ١٨٥٣ من تجميدها لدور القبائل العربية . فترسيم الحدود بين الكويت ونجد والعراق كان القصد منه أساسًا منع القبائل أو بقية الأفراد من التنقل بين هذه الكيانات بحرية نسبية والالتجاء إلى حاكم هربًا من ظلم حاكم آخر ؛ أحد القيدين المقيدين للسلطة وممارستها فى النظام السياسى التقليدى . ولذلك فان هذه الاتفاقية بما قامت به من تحديد لحرية الحركة السياسية وليس حركة الرعى والتنقل كانت بغرض تفويض النظام التقليدى . ولم يكن أىٌ من هذه الكيانات الثلاثة طوال تاريخه سوى إقليم ولم يمثل أى منها أمة مستقلة بحد ذاتها حسب المفهوم الحديث للأمة والدولة والوطنية التى بنيت عليها . كما أن حدود أى من هذه الأقاليم لم ترسم في يوم من الأيام على الأرض لأنه لم يكن هناك ضرورة لذلك . وليس هناك أسس جغرافية أو تاريخية أو لغوية لهذه الحدود ، تأتى اتفاقية العقير لترسم هذه الحدود ليس على أى من هذه الأسس ، لأنها غير موجودة بل تفرض أسسًا جديدة على هذه الكيانات الثلاثة حسب متطلبات السياسة الدولية وأهواء الدول الاستعمارية بكل اعتباطية واستهتار بتاريخ المنطقة وتطلعاتها القومية .

جاءت اتفاقية العقير لترسم الحدود بين الكيانات الثلاثة بطريقة اعتباطية وذلك بجرة قلم من برسى كوكس المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى . وتبدو الآن من المنظور التاريخى ، واحدة من أكثر مهازل تاريخنا الحديثة مدعاة للحزن وهل كان المشاركون فى هذه الاتفاقية يدركون الخطورة التاريخية لأعمالهم ولأبعاد ما سيترتب عليها ؟ وكان مؤتمر العقير من ضمن الخطة الاستعمارية لتثبيت مصالحها من جهة وأمن واستقرار المنطقة من جهة أخرى عن طريق محاور ارتكازية موالية لها ، ولهذا لم تكن الاتفاقية اعتباطية ولو أنه رسم الحدود بشكل اعتباطى . وإذا توقفنا عند معاهدة دراين ١٩١٥ التى بموجبها تحولت نجد إلى محمية بريطانية وجدنا أن القصد منها كان واضحًا وهو استخدام ابن السعود ورقة أو بديلاً

لحكم الشريف الحسين بن على وثقلا معادلا لوعود الحلفاء باقامة مملكة عربية موحدة فى الولايات العثمانية المحررة كما ورد صراحة فى وعد مكماهون أو ضمنًا فى اتفاقية سايكس بيكو . وخلال الفترة من ١٩١٥ إلى ١٩٢٧ استطاع ابن السعود أن يحتل الإحساء عام ١٩١٣ والحائل عام ١٩٢١ ويقضى على حكم الرشيد ويدخل الحجاز بعد رفع الحماية البريطانية عنها ويقضى على الشريف حسين ٢٤ - ١٩٢٥ ، ثم يحتل شمال اليمن فى إقليم عسير عام ١٩٢٦ . وتجىء معاهدة جدة لعام ١٩٢٧ مع بريطانيا لترفع صورة الحماية التى ترتبت على معاهدة دارين وتعامل ابن السعود بوصفه رئيس دولة مستقلة ذات سيادة وحدودة واعتراف دولى ضمنتها له الاعتبارات السياسية الدولية نفسها التى حكمت مؤتمر العقير وكانت إطاره المرجعى (٢٢).

الأوضاع فى إمارات الخليج العربى فيما بين الحربين :

الكويت :

أخذ الشيخ أحمد الجابر ١٩٢١ - ١٩٥٠ يعانى خلال حكمه من سلسلة من خيبات الأمل من البريطانيين الذين سلبوا قسمًا كبيرًا من حدود إمارته ومقاطعاته وضموه إلى حدود إبن السعود بموجب اتفاقية العقير ١٩٢٢ . وظهر الضغط البريطانى واضحًا على الكويت عام ١٩٢٩ عندما منع البريطانيون الشيخ أحمد الجابر من استغلال ثورة الإخوان لإحراج مركز ابن السعود . وكان ذلك مبعثًا آخر لاستيائه من البريطانيين . والذين لم يحترموا الوعود التى قدموها لشيخ الكويت عام ١٩١٤ والخاصة بابقاء ملكيات بعض بساتين النخيل فى الفاو والبصرة معفاة من الضرائب . وهذا ما أقنع الشيخ أحمد الجابر أن البريطانيين غير راغبين فى حماية مصالح الكويت تجاه جيرانه من العراقيين والسعوديين وكان من نتيجة ذلك أن علاقة الكويت ببريطانيا فى عهد الشيخ أحمد الجابر لم تكن بمثل هذه الدرجة من القوة التى كانت عليها فى عهد الشيخ مبارك وأن كانت قد عادت بعد ظهور النفط للمحافظة عليها من أطماع جيرانها فبريطانيا لم تكن على استعداد أن تضحى بمصالح الكويت البترولية لصالح العراق أوالسعودية لأن الكويت وإن لم تكن الجوهرة اللامعة فى التاج البريطانى فانها كانت فى طريقها لكى تكون الحصن الرئيسى لمنطقة الاسترلينى فى الشرق الأوسط نتيجة زيادة كميات النقد المكتسب من شركات النفط البريطانية الأمريكية المشتركة (٢٣).

قطر وساحل عمان وعمان

قبل حاكم قطر الحماية البريطانية عام ١٩١٦ وهى التى أنقذته من توسع ابن السعود فى حدوده الجنوبية أو ابتلاعه . وتميز ساحل عمان بالمنازعات الداخلية والحروب وخاصة بين أبوظبى ودبى حتى عام ١٩٤٨ واتخذت الخطوط الجوية البريطانية الشارقة مركزاً لها كما أن معظم شيوخ ساحل عمان وقعوا امتيازات لاستغلال النفط مع شركة البترول البريطانية ، واستبدل الوكيل الوطنى فى الشارقة بضابط بريطانى بعد إقامة قاعدة جوية فى الشارقة وزادت أهمية ساحل عمان الاستراتيجية بعدما فقدت بريطانيا مراكزها على الساحل الإيرانى ، أما فى عمان فقد نظمت العلاقة بين السلطنة والإمامة بمقتضى معاهدة السيب ١٩٢٠ إذ التزم إمام عمان بكبح جماح القبائل الخاضعة له من مهاجمة المناطق الساحلية فى مقابل تعهد السلطان بألا يتدخل فى شؤون الإمامة الداخلية ، ويرى البعض أن معاهدة السيب حوت اعترافًا من الإمام بسيادة السلطان على جميع مناطق عمان ولكن هذه السيادة رفضت تمامًا من الأباضيين عقب رفاة الإمام الخليلى فى عام ١٩٥٤ مما أبرز إلى الوجود القضية العمانية فى المجالين العربى والدولى(٢٤) .

عربستان :

تعرضت إمارة عربستان لاحتلال إيرانى فى عام ١٩٢٥ وتخاذلت بريطانيا عن مساعدة الشيخ خزعل رغم وعود الحماية التى قدمتها له أثناء الحرب العالمية الأولى . وحذرت بريطانيا الشيخ خزعل من الوقوف فى وجه رضا خان الذى نجح فى احتلال عربستان والوطن العربى وذلك بتهجير القبائل العربية من عربستان إلى المناطق الداخلية فى إيران وجلب عناصر فارسية وتوطينهم فى عربستان . ولم تكتف السلطات الإيرانية بهذا وإنما قامت بتغيير الأسماء العربية فمثلاً غيرت اسم المحمرة إلى خورمشهر وغيرت اسم عربستان واستبدالها بهوية إيرانية وهذا ما أدى إلى قيام عدة انتفاضات وطنية تمخضت فى النهاية عن تأسيس جبهة تحرير عربستان .

زادت أهمية الخليج العربى الاستراتيجية إذ أصبح مركزاً للطيران العسكرى والمدنى بين أوروبا والهند والشرق الأقصى واستراليا وأضفى النفط أهمية أكثر من الناحية الاقتصادية وذلك بامداده لدول غرب أوروبا بالوقود ، فالبحرين سبقت الامارات الأخرى فى اكتشاف البترول وأخذ سكانها يشعرون بانتعاش اقتصادى مما أدى إلى ظهور طبقة بورجوازية وضح

اهتمامها بالأوضاع السياسية ، كما أخذت تظهر استياءها من السيطرة البريطانية ومن أوتوقراطية شيوخ البحرين التى أصبحت منذ عام ١٩٢٥ تمارس إلى حد كبير بواسطة المستشار البريطانى تشارلى بلغراف مما نجم عنه استياء كبير لدى الشعب البحرينى .

الحركات الاصلاحية فى الخليج العربى

تطور الشعوب وتغيرها الاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى الخليج العربى لم يأت من فراغ بل له علاقة بالمسار التاريخى والصراع للحياة الأفضل . ولقد كانت هناك حركات إصلاحية فى الخليج العربى مثل الكويت والبحرين ودبى قبل ظهور البترول . وقد ساعدت عدة عوامل علي ذلك منها الظواهر الاجتماعية والاقتصادية التى شهدتها منطقة الخليج العربى بعد الحرب العالمية الأولى مما أحدث تغيرات فى إمارات الخليج العربى من جميع النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحتى الصناعية الخفيفة التقليدية والتعليمية مما كان له دور فى ظهور الحركات الإصلاحية والمجالس التشريعية .

الحركة الإصلاحية فى الكويت

تعرضت الكويت فى عهد الشيخ أحمد الجابر لكثير من التناقضات والضغوط بسبب بعض الممارسات السلبية التى كانت فى ذلك الوقت من قبل السلطة . وقام مجموعة من التجار والأعيان بتقديم عرائض تطالب بالاصلاح وتتعلق بالاصلاحات الإدارية وفتح المدارس وإرسال بعثات من الشباب الكويتى للخارج . وطالبوا بغلق أبواب الكويت للاجئين الأجانب وفتح باب الدخول للعرب دون قيود وظهرت فى هذا الوقت الكتلة الوطنية التى توجهت إلى الشيخ أحمد الجابر تطالبه بتأكيد (١) مبدأ الشورى (٢) إنشاء مجلس تشريعى لحكم البلاد (٣) أن يشارك الأعيان من الأهالى مع الأسرة الحاكمة فى حكم البلد (٤) تنظيم الحالة الاقتصادية فى الكويت (٥) إنشاء دائرة نظامية للشرطة والأمن العام (٦) ضرورة أن يكون الأمير على اتصال بكل طبقات الشعب وأن يسمع شكواهم (٧) إلغاء الاحتكارات الضارة للأمير وأفراد حاشيته (٨) ضرورة فتح المدارس على أوسع نطاق (٩) إغلاق أبواب الكويت فى وجه اللاجئين الأجانب وجميعهم من إيران (١٠) السماح المطلق للعرب بزيارة الكويت وعدم منع أى عربى من دخول البلاد (١١) ضرورة التعاون بين الكويت والعراق لتحقيق المشروعات الاصلاحية .

وافق الشيخ أحمد الجابر على تكوين مجلس تشريعى يتولى السلطة التنفيذية والتشريعية ويهيىء السلطة القضائية وكان نجاح المجلس لمدة ستة أشهر فى إصدار أول وثيقة دستورية وهى القانون الأساسى كما أقام إدارة مدنية فى البلاد. وقد حقق هذا المجلس بعض الاصلاحات فى المجال الاقتصادى وألغيت الضرائب المفروضة على الصادرات وألغيت الضرائب على الموارد الغذائية كما ألغيت الضريبة التى تذهب للحاكم من صيد اللؤلؤ وألغيت احتكارات المياه وبناء الحوانيت واستغنى من (الفداوية) الحرس الخاص وكون قوة نظامية من الشرطة . وبدأ بانشاء مدارس وتعاقد مع بعثة تعليمية فلسطينية وأرسل بعثات إلى بغداد والأزهر وفصل القضاة الفاسدين وإنشاء محاكم مدنية . كما وقف المجلس أمام الهجرة الأجنبية وأصلح الإدارة ولكنه لم يستمر طويلاً ويتم حل المجلس بعد ذلك وقمع مؤيديه وتشريد قادته .

الحركة الإصلاحية فى البحرين :

مرت البحرين بتغير سياسى واجتماعى كبير . فقد تم التوسع فى التوظيف وكان هناك اضطراب سياسى فى البحرين بسبب قدوم الهنود للقيام بأعمال فى البحرين وإزداد تدهور الأوضاع السياسية فى الجزيرة لشعور الناس بالحاجة إلى إصلاح الإدارة وبرزت عدة مطالب منها ما قدم للحكومة ووزعت المنشورات والملصقات . وكان الوطنيون الذين طالبوا بالاصلاح من السنة مما دعى بلجريف المستشار البريطانى إلى التحالف مع الشيعة ، وقد قامت رابطة الشباب بالقيام باضطراب . وبعد نهاية هذه الاضطرابات تم تشكيل لجنة المتابعة التى تقدمت ببعض المطالب (١) إنشاء مجلس تشريعى (٢) تصنيف وتنسيق أنظمة وقوانين البحرين (٣) إصلاح إدارة الشرطة (٤) ضرورة تعيين الحاكم وليًا للعهد (٥) عزل مفتش التعليم (٦) عزل القاضيين الشرعيين الجعفريين (٧) الأفضلية فى التعيين لأبناء البحرين فى شركة النفط .

حاولت الحركة الاصلاحية فى الفترة ٢١ - ١٩٢٣ أن تطور انتخاب المجلس البلدى وتحويله أو اقناع الشيخ عيسى الخليفة بالاعتراف به كمجلس تشريعى وإعطائه الصلاحيات التالية : (١) صلاحية اختيار القضاة الشرعيين ورؤساء الدوائر الحكومية (٢) صلاحية عزل رؤساء الدوائر غير الوطنيين (٣) صلاحية وضع حد للتدخل البريطانى فى الشؤون الداخلية (٤) صلاحية تشكيل قوة شرطة وطنية . ولما أبدى الشيخ عيسى تعاطفًا مع هذه المطالب قام البريطانيون بإحالته إلى التقاعد ورفض جميع هذه المطالب وقمع الحركة الاصلاحية فى البحرين بالقوة وقامت بريطانيا بنفى القادة الوطنيين لهذه الحركة إلى الهند(٢٥) .

الحركة الاصلاحية فى دبى :

انتعشت التجارة فى دبى وهاجر إليها كثير من الهنود والإيرانيين وكانت هناك احتكارات للأنشطة التجارية وحصل البريطانيون على امتيازات النفط وتسهيلات الطيران وكان ميناء دبى يدار عشوائيًا فكان هناك تناقض كبير فى مجتمع الميناء حيث التجار الإيرانيون والهنود تحت رعاية بريطانيا . أما العرب فلم يكن لهم أى حق مما أدى إلى قيام حركة إصلاحية فى دبى والتى طالبت بعدة مطالب هى : (١) إنشاء مجلس تشريعى (٢) إعادة تنظيم الجمارك (٣) إيجاد حرس للأسواق (٤) تحديد مخصصات مالية للحاكم وأفراد أسرته (٥) استحداث ميزانية عامة محددة للإمارة (٦) إلغاء الاحتكارات الخاصة بالأمير وأفراد أسرته المباشرة (٧) استحداث وسائل الرعاية الصحية فى مدينة دبى . وكان فشل المجلس التشريعى بسبب معارضة الحاكم وبريطانيا وافتقار المجلس إلى الموارد المالية وتأليب الحاكم للبدو على غزو مدينة دبى مما أدى إلى قتل بعض قادة الحركة الإصلاحية الإسلامية وتسليم الآخرين أنفسهم .

الخليج العربى والحرب الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ :

بعد إطلاع المسؤولين الأمريكيين على التقارير الفنية التى نشرتها أجهزة الإعلام ، والخاصة بالمسح للخليج العربى مما دفع الشركات الأمريكية للعمل بسرعة وحثت الحكومة على دعم الجهود الخاصة حيث أبدت هذه الشركات البترولية استعدادها للدخول فى خضم الاستثمارات البترولية فى المنطقة . وبعد الحرب العالمية الأولى سمحت الولايات المتحدة الأمريكية للشركات النفطية فى الدخول بمساومات ومشاركات مع شركات النفط البريطانية التى كانت قد سبقت زميلاتها الأمريكية فى العمل . وكان أول امتياز حصلت عليه شركة نفط أمريكية قد تحقق عام ١٩٢٨ عندما حصلت شركة تطوير الشرق الأدنى الامريكية على ٢٣,٧٥٪ من أسهم شركة نفط الموصل . وبعد أقل من عام حصلت شركة نفط أمريكية أخرى هى شركة «ستاندر اويل اوف كاليفورنيا» على امتياز التنقيب فى البحرين . إذا أخذنا بنظر الاعتبار حصص الشركات الامريكية البترولية المساهمة فى كل من العراق والكويت والبحرين والسعودية نستطيع القول أن هذه الحصص كانت قبيل الحرب العالمية الثانية لاتقل عن المساهمات البريطانية ؛ الأمر الذى جعل الولايات المتحدة الامريكية تبدى اهتمامًا خاصًا بمناطق الاستثمار سياسيًا وعسكريًا أيضًا . وقد أصبح واضحًا الأهمية البالغة

لنفط الخليلج العربى فى الصراعات الدولية التى أخذت تتصاعد يومًا بعد يوم احتلال ألمانيا للنمسا وضمها لمقاطعة السوديت وتحالفها مع ايطاليا. وكانت ألمانيا تمارس نفوذاً متزايداً فى إيران كما كانت ايطاليا تمارس نفوذاً أوسع فى مضيق باب المندب وخاصة بعد احتلالها للحبشة واريتريا . وتناقلت الأنباء الاتفاقية الألمانية - السوفيتية فى أغسطس ١٩٣٩ ثم الاتفاقية التالية فى سبتمبر ١٩٤١ والتى جرت سريًا لتقسيم مناطق النفوذ فى الشرق الأدنى بما فى ذلك الخليج العربى وإيران والعراق . وقد تم الاتفاق على أن تكون المناطق الواقعة جنوب بغداد وباتجاه الخليج منطقة نفوذ روسية فى حالة انهاء الصراع المسلح بين ألمانيا والحلفاء . وكان هتلر يرمى من وراء تلك الاتفاقيات إلى تحييد الاتحاد السوفيتى وإبعاده عن فكرة الانضمام للحلفاء الذين كان هتلر يأمل بالقضاء على مقاومتهم بعد دخول قواته بلجيكا وفرنسا وعلى أمل أن يتوجه بعد ذلك إلى روسيا عدوه الرئيسى[٢٦].

شملت الحرب العالمية الثانية مختلف أنحاء العالم وكان الوطن العربى من جملة هذه المناطق ثم أصبح إحدى الجبهات الحساسة التى لعبت دوراً حاسمًا فى الحرب وعملت قوات المحور للسيطرة عليه لأهميته الاستراتيجية والاقتصادية وعمل الحلفاء المستحيل لئلا يقع بيد المحور. وعلى هذا الأساس اغتنمت بريطانيا الفرصة لتوسيع امبراطوريتها فى الشرق العربى المزدهر بالموارد الاقتصادية والمواد الأولية وبخاصة النفط الذى كانت الجيوش تسير عليه . ولو استطاعت قوات المحور السيطرة على مصر وسوريا والعراق وتمكنت من الاتصال مع القوات الألمانية المتقدمة نحو القوقاز والوصول إلى إيران لتغير مجرى الحرب وبالتالى مجرى التاريخ . فهى من جهة تمنع وصول امدادات الحلفاء للسوفييت عبر إيران.ومن جهة تضع القوات الألمانية على بترول الاتحاد السوفييتى وبترول الخليج العربى[٢٧].

عندما نشبت الحرب تولت بريطانيا بمفردها مسئولية الدفاع عن مصالحها فى الخليج العربى واشتركت مع الاتحاد السوفييتى فى احتلال ايران وقسمتها كما كانت فى عهد الاتفاقيات الاستعمارية السابقة إلى منطقتى نفوذ؛ الشمالية ترابط فيها قوات سوفيتية والجنوبية تحتلها قوات بريطانيا ، وقد أدت ظروف هذه الحرب إلى تأثير اقتصادى سيء على الامارات العربية المنتجة للنفط بعد أن توقف انتاجها . وقد عانى ابن السعود بصفة خاصة من أزمة اقتصادية عنيفة على أثر توقف حركة الحج وتوقف أعمال شركة الزيت العربية - الأمريكية التى لم تكن على استعداد لتقديم العوائد لاعتبارات تجارية مما كان على ابن

السعود أن يعتمد على المساعدات البريطانية إلى حد كبير وعلى إمدادها له باحتياجاته الأساسية حتى أعربت الشركة الأمريكية عن قلقها للحكومة الأمريكية من احتمال عودة النفوذ البريطانى ، أو تحويل السعودية إلى المحمية البريطانية وبذلك يخشى على مصير الامتيازات الأمريكية الخاصة بالنفط . وكل ما فعلته الحكومة الأمريكية هو أنها طلبت من بريطانيا أن تخصص جزءاً من القروض التى تتلقاها من الولايات المتحدة لمواجهة متطلبات ابن السعود . ونتيجة لذلك بلغت القروض البريطانية لابن السعود ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى خلال عام ١٩٤٠ من مليون جنيه عام ١٩٤١ وإلى ثلاثة ملايين من الجنيهات خلال عام ١٩٤٢ . وحول نهاية ذلك العام تضخمت القروض البريطانية إلى درجة اتجهت بريطانيا إلى إنشاء بنك مركزى فى السعودية لإدخالها فى منطقة الاسترلينى (٢٨).

خشيت الولايات المتحدة أن تستغل بريطانيا الموقف فى الحصول على احتكارات خاصة بالنفط ولذلك أعلنت حكومة الرئيس روزفلت بأن الدفاع عن السعودية أمر حيوى للولايات المتحدة وبالتالى فان مساعدات قانون الإعارة والتأجير تأتى مباشرة من الخزانة الأمريكية وهذا القرار الأمريكى الذى صدر فى عام ١٩٤٠ لايحدد نهاية الدور البريطانى وبداية الدور الأمريكى السياسى فى السعودية فحسب وإنما أيضاً فى الخليج العربى .

عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية كانت مدفوعة بعوامل سياسية واقتصادية اعتقاداً منها بأن انتصار ألمانيا ينهى الوجود الأمريكى الاقتصادى المتنامى الجديد فى الخليج العربى . وخوفاً من تصفية الاحتكارات البترولية التى أخذت تتوسع بعد اكتشافات مهمة لمخازن هائلة للبترول فى السعودية . ولهذا يمكن القول أن دخول امريكا الحرب كان دفاعاً عن مصالحها واستثماراتها الاقتصادية الواسعة فى الشرق الاقصى والخليج العربى . واخذت تتبع سياسة خارجية فى المنطقة تعكس اهتمامات جديدة بعيدة كل البعد عن مبدأ «منرو» الذى سارت عليه فى السابق فاتفقت مع بريطانيا ضد القوى الوطنية فى العراق والخليج العربى . وحتى فى إيران وقفت امريكا ضد جهود الشاه للوقوف على الحياد وبالتالى وافقت على الاتفاقية البريطانية - الروسية باحتلال إيران وتقسيمها إلى مناطق نفوذ أثناء الحرب العالمية الثانية .

اكتسب الخليج العربى منذ قيام التحالف السوفيتى - البريطانى فى خلال الحرب أهمية استراتيجية خاصة ؛ اذ أصبح من أيسر سبل الاتصال بين الاتحاد السوفييتى والولايات

المتحدة نظراً إلى أن الطريق البحرى القصير فى المحيط المتجمد الشمالى كان واقعاً تحت رحمة الغواصات الألمانية كما أن أمريكا هى التى مهدت سبل الاتصال البرى عبر إيران بين الخليج العربى من جهة وبين الاتحاد السوفييتى من جهة أخرى . إذ أن إنشاء خط حديدى على هذه المسافة الطويلة كان يتطلب إمكانيات هائلة وقع عبؤها على الولايات المتحدة بعد أن صارت حليفة لروسيا وبريطانيا .

تم تسمية هذا الطريق جسر النصر الذى أصبح الطريق الرئيسى لتموين الاتحاد السوفييتى. ومن ثم ازدادت أهمية الخليج العربى الذى شكل منطقة مواصلات برية وبحرية وسلكية ولاسلكية بين مختلف القواعد البريطانية ولذلك عملت القيادة البريطانية . المسئولة عن الدفاع عن الخليج العربى كل ما فى وسعها لإبعاد كل خطر عنها مهما كان نوعه وبخاصة على كل حركة تحررية تهدد طريق المواصلات وحقول البترول التى لولاها لما استطاعت قوات الحلفاء مواصلة الحرب . وكان التهديد المباشر القوى للمنطقة يأتى من وجود القوات الايطالية الضخمة فى ليبيا والصومال والحبشة وأريتريا . وقد استطاعت الطائرات الإيطالية قصف آبار النفط فى الخليج العربى وكان الوضع البريطانى سيئاً جداً .

أخذ البرنطانيون منذ عام ١٩٤٢ يعترفون بشكل واضح وصريح بالمركز الجديد للولايات المتحدة الأمريكية فى الخليج العربى . ولم تعارض الحكومة البريطانية الاتصالات التى أجرتها الحكومة الامريكية مع حكام المنطقة واعترفت بأن السعودية تدخل فى نطاق النفوذ الأمريكى ومن جهة أخرى ساندت الحكومة الأمريكية السياسة البريطانية فى الخليج العربى وإيران وأيدت الإجراءات البريطانية فى فلسطين لصالح الحركة الصهيونية العالمية . وفى بداية الحرب وخاصة عام ١٩٤٢ جرى الاتفاق بين روزفلت وتشرشل على تحييد مناطق نفوذ كل منهما فى العالم إلا أنه بعد أن ازداد حجم الدور الأمريكى خلال الحرب وخصوصاً فى افترة ١٩٤٣ - ١٩٤٤ أخذت الولايات المتحدة تركز على السعودية . ومنذ عام ١٩٤٣ أخذت ترد على وزارة الخارجية الامريكية تقارير هامة من السفير الأمريكى فى موسكو حول مستقبل السياسة السوفيتية فى إيران وشرق أوروبا واحتمالات الصراع المقبل بين روسيا والولايات المتحدة . وكانتالنقطة الرئيسية فى تلك التقارير أن مفتاح القوة الأمريكية فى امكانية بسط النفوذ الأمريكى على السعودية التى أثبتت التقارير الفنية أنها تملك اكبر احتياطى للنفط فى العالم وكانت شركة ارامكو تلح على الإدارة الامريكية بضرورة التحرك

السريع للمساهمة بمد خط أنابيب عبر سوريا ولبنان وتقديم قروض عاجلة لابن السعود وبعدما تم ضم السعودية إلى مشروع قانون الاعارة والتأجير الامريكى تسلمت السعودية. مساعدات مالية من الولايات المتحدة بحدود خمسة ملايين دولار فى السنة وارتفعت إلى ١٢ مليون دولار فى السنة التالية ١٩٤٣ (٢٩).

استأنفت شركات البترول الأمريكية إنتاجها فى السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية وهذا ما سرت به السعودية فى الوقت الذى استمرت فيه توقف أعمال الانتاج فى كل من الكويت والبحرين مما أظهر الاستيلاء فى تلك الامارات وقد يكون الامريكيون تعمدوا إثارة هذا الاستياء بحكم مشاركتهم فى الشركات العاملة فى الكويت والبحرين بهدف إضعاف النفوذ البريطانى والتهميد للنفوذ الأمريكى الذى أخذ فى التصاعد نتيجة الإعارة والتأجير وزيادة عمليات الاستغلال تكرس نفوذها فى السعودية إلى حد طرد النفوذ البريطانى منها وبلغت كمية تصدير النفط من السعودية فى عام ١٩٤٥ حوالى ثلاثة ملايين طن وتسلمت السعودية خمسة ملايين دولا عائدات لها ولذلك كان ابن السعود غير قادر لا فى ذلك الوقت ولا بعده ، أن يظهر أية معارضة حاسمة ضد السياسة الأمريكية المؤيدة للصهيونية فى فلسطين إذ كان لايستطيع بطبيعة الحال أن يهدد ثروته الجديدة فى مقابل التمسك بأية بقايا من الزعامة العربية أو الاسلامية (٣٠).

من ناحية أخرى أخذت الولايات المتحدة تنفذ مخططاتها من أجل التغلغل فى إيران أيضًا وذلك عن طريق اتخاذ الإجراءات اللازمة لمعالجة المشاكل الناجمة من الوجود العسكرى السوفييتى فى شمال إيران والذى اعتبرته الولايات المتحدة تهديداً لمصالحها فى الخليج العربى ؛ ولهذا قدم الرئيس الأمريكى مشروعًا إلى مؤتمر القمة الثلاثى الذى عقد فى طهران فى نوفمبر ١٩٤٣ وحضره الرؤساء روزفلت وتشرشل وستالين يتعلق بالتعهد بالانسحاب العسكرى من الاراضى الايرانية فور الانتهاء من الحرب والاعتراف باستقلال وسيادة إيران .

تم فى نفس السنة تشكيل قيادة الخدمات الأمريكية فى الخليج العربى ومقرها طهران كما تم إيفاد بعثة استشارية عسكرية للإشراف على تدريب وبناء القوات المسلحة الايرانية إضافة إلى ايفاد بعثة مالية أمريكية لتقديم التوصيات بشأن الاصلاحيات المالية الإيرانية والتخطيط الاقتصادى الايرانى . وفور انتهاء الحرب مارست الولايات المتحدة جهوداً مكثفة للضغط على الاتحاد السوفييتى بضرورة الاسراع بسحب قواته من شمال إيران وعندما تلكأ الاتحاد السوفيتى لتنفيذ ما اتفق عليه فى مؤتمر طهران عمدت الحكومة الامريكية إلى حث

الحكومة الايرانية على تقديم شكوى ضد الاتحاد السوفيتي فى مجلس الأمن ووقفت مواقف حادة من الاتحاد السوفييتي . كما قدمت إلى الشاه مساعدات عسكرية فورية ، ساعدت فى مقاومة الحكومة الكردية التى أنشأها السوفييت في تبريز والتى عرفت بجمهورية مهاباد الشعبية . وقد تحقق الانسحاب السوفييتى الكامل من شمال ايران بعد بضعة أشهر من قرار مجلس الأمن الذى صدر عام ١٩٤٧ والذى طالب بالالتزام بروح إعلان مؤتمر طهران .

تحدد نهاية الحرب العالمية الثانية نهاية لعهد قديم وبداية لعهد جديد فى تاريخ الخليج العربى بعد أن انقضى ما يقرب من أربعة قرون ونصف منذ وصول الاستعمار البرتغالى إلى المنطقة فى بداية القرن السادس عشر ثم ما تبع ذلك من تركيز النفوذ البريطانى الذى استمر من بداية القرن التاسع عشر حتى النصف الأول من القرن العشرين . وهناك بعض عوامل وضعت نهاية لحقبة قديمة وبداية لحقبة جديدة فى تاريخ الخليج العربى يمكن أن نبرزها فيها يلى :

أولاً : ظهور الولايات المتحدة الأمريكية التى استطاعت تحت غطاء الحرب أن تؤكد نفوذها فى السعودية وتحت غطاء مواجهة الاتحاد السوفييتى أن تتغلغل فى إيران وفى منطقة الخليج العربى اقتصاديًا واستراتيجيًا .

ثانيًا : منافسة الاتحاد السوفييتى لكل من الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا واتجاهه للوصول إلى موارد النفط والمياه الدافئة فى الخليج العربى .

ثالثًا : فقدان بريطانيا لمستعمراتها فى الهند على أثر استقلال الهند والباكستان فى عام ١٩٤٧ . ولما كانت إمارات الخليج العربى تدار كملحقات للمستعمرات البريطانية فى الهند فقد استتبع ذلك إيجاد تنظيمات جديدة وبالتالى تأكيد ربط المنطقة بوزارة الخارجية البريطانية حتى الانسحاب البريطانى منها عام ١٩٧١ .

بذلك لم تكن الحرب العالمية الثانية كغيرها من الحروب لأنها كانت نهاية لفترة طويلة من التاريخ الحديث. وتميزت هذه الفترة بظهور الاستعمار الأوروبى وتسلطه على الشعوب واقتسام المستعمرات كما انفتحت أمام الصناعة الأوروبية الاحتياطات العالمية من المواد الأولية والأسواق الهائلة فانهالت الأموال على أوروبا مما جعلها تحقق تقدمها وازدهارها حتى الآن كما ازدادت قوتها وتشابكت مصالحها (٣٣).

يمكن القول بأن نهاية الحرب العالمية الثانية بداية لعهد جديد ليس فى تاريخ الخليج العربى فقط وإنما فى تاريخ العالم المعاصر ، ولعل من أبرز سمات المرحلة الجديدة فى تاريخ الخليج العربى المعاصر هى ظهور الولايات المتحدة الأمريكية كعامل مؤثر فى المنطقة ؛ إذ استطاعت تحت غطاء الحرب أن تؤكد نفوذها فى السعودية وتحت غطاء مواجهة الاتحاد السوفييتى أن تتغلغل فى إيران ومنطقة الخليج العربى اقتصاديًا واستراتيجيًا وعلى الرغم من أن استقلال الهند وباكستان فى عام ١٩٤٧ قضى على أهمية الخليج العربى التقليدية بالنسبة لبريطانيا باعتبارها خط الدفاع عن الهند إلا أن الخليج العربى لم يلبث أن أصبح يحتل مكانة اقتصادية بعيدة المدى لبريطانيا ولدول غرب أوروبا بصفة عامة . وقد اكتسب الخليج العربى هذه المكانة الاقتصادية الاستراتيجية الجديدة باكتشاف النفط[٣٤] على نطاق واسع فى الخمسينات وأصبح الهدف الرئيسى للوجود الاستعمارى فى الخليج العربى تأمين استغلال الثروة البترولية لصالح الشركات الرأسمالية الغربية .

الهوامش

١- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص١٠٨ .

٢- ج . ب . كيلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية ص١٧٢ .

٣- ج . ب . كيلى - نفس المرجع ص١٧٢ .

٤- ج . ب . كيلى - نفس المرجع ص١٧٣ .

٥- د. محمود الدؤاد - الخليج العربى والعمل العربى المشترك ص٦٦ .

٦- محمد عدنان - بريطانيا والعرب ص٢٥٨ .

٧- محمد عدنان مراد - نفس المرجع ص ٢٦٤ .

٨- سيد فاروق حسنت - المرجع السابق ص٩٤ .

٩- د. بدر الدين عباس الخصوصى - دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر جـ٢ ص١٨٢ .

١٠- د. محمد الدؤاد - المرجع السابق ص٦١ .

١١- د. محمود الدؤاد - نفس المرجع ص٦١ .

١٢- د. جمال زكريا قاسم - الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥ ص١٠ .

١٤- ج . ب . كيلى - نفس المرجع ص١٧٤ .

١٤- ج . ب . كيلى - نفس المرجع ص١٧٥ .

١٥- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٣٤ .

١٦- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص٣٦ .

١٧- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص٣٣٩ .

١٨- د. محمود الدؤاد - المرجع السابق ص٧١ .

١٩- د. محمود الدؤاد - نفس المرجع السابق ص٧٥ .

٢٠- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص١١١ .

٢١- د. د. خلدون النقيب - نفس المرجع ص١١٢ .

٢٢- د. خلدون النقيب - نفس المرجع ص١١٣ .

٢٣- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٤١ .

٢٤- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص٤٣ .

٢٥- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص١١٦ .

٢٦- د. محمد الدؤاد - المرجع السابق ص٢١٤ .

٢٧- د. محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص٢٦٣ .

٢٨- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٤٤ .

٢٩- د. محمد الدؤاد - المرجع السابق ص٢١٨ .

٣٠- د. جمال زكريا قسام - - المرجع السابق ص٤٥ .

٣١- د. محمد الدؤاد - المرجع السابق ص٢٢٠ .

٣٢- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٤٦ .

٣٣- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص٣٦ .

٣٤- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص١٦ .

الفصل الثامن

الخليج العربى عقب الحرب العالمية الثانية وحتى الانسحاب البريطانى ١٩٤٥ - ١٩٧١

بريطانيا والخليج العربى .

الاتحاد السوفييتي والخليج العربى .

الولايات المتحدة والخليج العربى .

الانسحاب البريطانى من الخليج العربى ٦٨ - ٧١ .

الاحتلال الإيرانى للجزر العربية .

الخليج العربى عقب الحرب العالمية الثانية

وحتى الانسحاب البريطانى ١٩٤٥ - ١٩٧١

بريطانيا والخليج العربى :

أصبحت منطقة الخليج العربى تشكل هدفًا حيويًا لأطماع الدول الكبرى وخاصة بريطانيا والاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية سواء للأهمية الاقتصادية أو الموقع الاستراتيجى إضافة إلى الموقع الجغرافى الذى كان السبب المباشر فى جعله شريانًا للمواصلات البحرية وطريقًا رئيسيٌ للتجارة ، وبالتالى أصبح بعد الحرب العالمية الثانية موقعًا للصراع المرير بين القوى الكبرى . وقد أضفى وجود النفط أهمية للخليج العربى حيث سعت الدول الغربية الرأسمالية إلى تكوين شركات نفطية للحصول على الاستثمارات الاحتكارية فى الخليج العربى الذى أصبح مركز الثقل الجديد للنفط فى العالم مع قلة السكان .

سيطرت حكومة الهند البريطانية على شؤون إمارات الخليج العربى وانتهجت سياسة استعمارية . ولكن بعد الاكتشافات النفطية وحصول الشركات الامريكية على الامتيازات البترولية ومنافستها للشركات البريطانية فى المنطقة خلق نوع من القناعة لدى الحكومة البريطانية بانتهاج سياسة جديدة بعد الحرب العالمية الثانية بأن السياسة الاستعمارية القديمة لم تعد تنفع ولم تعد قادرة على حماية مصالحها فى المنطقة وخاصة خط «الطيران البريطانى لما وراء البحار» الجديد بين بريطانيا واستراليا واحتكار امتيازات النفط . ومن المتغيرات التى حدثت فى السياسة الجديدة هى منح الهند وباكستان استقلالهما وزيادة أهمية منطقة الخليج العربى اقتصاديًا ونقل حكومة الهند إدارة شؤونها إلى وزارة الخارجية البريطانية فى لندن .

قد يرجع التغير فى السياسة البريطانية هذه إلى عدة مستجدات ظهرت فى المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية ومنها ما يلى :

أولاً : ظهور الولايات المتحدة الامريكية كمنافس جديد لبريطانيا وإثبات وجودها فى حصولها على أكبر قدر من الامتيازات النفطية وأصبح للنفط صفة استراتيجية غير القيمة الاقتصادية وممول لكثير من المشروعات الأوروبية . وقد حاولت بريطانيا اقناع حكام إمارات الخليج العربى بأن الشركات البريطانية التى تعرفها أفضل من الشركات الجديدة التى

لاتعرفها ولكن هذا لم يمنع أمريكا من حصولها على مكاسب كبيرة بسبب تعاملها بالدولار كما لعبت الولايات المتحدة دوراً بارزاً تحت ستار الحرب العالمية الثانية فى السعودية وإيران بحجة مواجهة السوفييت .

ثانياً : وثانى هذه المستجدات هى مواجهة السياسة الامريكية التى تهدف إلى تحقيق أهدافها الذاتية مثل اللجنة التنفيذية للسياسة الاقتصادية الخارجية للولايات المتحدة عن طريق تقديم مساعدات للشرق الأوسط وللمعونات فى مجالات الاقتصاد والزراعة والتجارة وهى بذلك تحاول التقليل أهمية بريطانيا .

ثالثاً : ظهور الوعى القومى العربى المتمثل فى الحركات الاصلاحية التى قامت فى بعض إمارات الخليج العربى فى الكويت والبحرين ودبى من بعض الأعيان مطالبين باصلاحات اجتماعية وسياسية واقتصادية والمطالبة بانشاء مجالس تشريعية فى تلك الامارات الخليجية ولكن السلطات البريطانية عملت على حل هذه المجالس وقامت باعتقال أعضائها ونفى بعضها إلى الهند .

رابعاً : ظهور الوعى السياسى لدى الشعب العربى فى الخليج عن طريق وسائل الاعلام وخاصة إذاعة إيران باللغة العربية كما قام قادة الحركات الاصلاحية الخليجية بعمل «جمعية الاتحاد العربى» وكان من أهم أهداف هذه الجمعية فك العزلة عن الامارات العربية فى شرق الجزيرة العربية وتطوير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتأثير قرار تقسيم فلسطين ونكبة ١٩٤٨ وتأثيره على سكان المنطقة . وتزايد تيار المد القومى وحركة القوميين العرب بعد نكبة فلسطين وظهور مفهوم جديد للاستقلال وهو «الاستقلال السياسى القطرى الوطنى» على حساب «الوحدة القومية العربية» .

لهذا اتخذت بريطانيا فى سياستها الاهتمام بالشؤون الداخلية للخليج الرعبي ولكن من وجهة نظرها الاستعمارية وليس من وجهة نظر مصلحة الشعب العربى فى إمارات شرق الجزيرة العربية كما كشف وزير الخارجية البريطانية عن قلقه بسبب قلة الجهود المبذولة فى الخليج العربى مما يؤدى إلى الهجوم على السياسة البريطانية من قبل الأمم المتحدة بسبب إهمالها للسكان العرب فى إمارات شرق الجزيرة . وفى ضوء ذلك عملت وزارة الخارجية البريطانية على توفير مستشارين لكل من قطر والكويت ومستشار تعليمى والالتزام أولاً باقناع امارات المنطقة وتقدم النصح وتعريفهم بأهمية العائدات النفطية على السكان المحليين،

والضغط على الولايات المتحدة للتعاون مع شركات النفط لتخصيص جزء من مداخيلها لتوفير الخدمات العامة وتوصية البنك الدولي بتمويل بعض المشروعات وخاصة الامارات العربية التى ليس لها دخل نفطى . وقد رد المقيم السياسى البريطانى على وزير الخارجية لإزالة قلقه فقد ذكر أنه حث شيخ الكويت على وجود استشارى بريطانى فى الكويت وكذلك فى قطر والبحرين وذكر فى رسالته عن المدخول النفطى على الخدمات والتنمية .. الخ . وذكر فى رسالته أيضًا عدة أمور من شأنها تحريك عملية التنمية والضغط على الامارات العربية المنتجة للنفط لتخصيص جزء من مدخولها للتنمية وعدم تحبيذ الضغط على الشركات النفطية ولكن يمكن الطلب منها تقديم المساعدة الفنية والمساهمة فى التعليم .

نظراً لقلة المياه فى الخليج العربى فيجب أن تكون التنمية حضرية وليست ريفية واستعانت أيضًا بالأجهزة المصرفية وقد عرضت هذه الأجهزة بعض الاقتراحات منها ما قدمه اللورد كنت مدير مصرف إيران وذلك لتعيين مستشار مالى فى الخليج العربى وأيضًا لتحسين الاقتصاد إضافة إلى مجموعة أخرى من الاقتراحات التى قدمت فى الاجتماع الذى عقد فى ١٤ / ٤ / ١٩٤٩ وهى تشجيع التنمية والتعليم وتحسين الموانىء والاهتمام بمصائد الاسماك والافادة من فوائض الشيوخ وقد بدأت الخارجية البريطانية فى تنفيذ ذلك حسب الخطة المرسومة فى إمارات ساحل عمان بانشاء مستشفى فى دبى وقوة عسكرية لحماية المصالح البريطانية وعرفت بقوة «كشافة ساحل عمان» . وظهرت ملامح تلك السياسة فى الإمارات العربية الأخرى فى شرق الجزيرة العربية مثل البحرين وقطر والكويت التى تبنى شيخها بناء على استشارة خبراء بريطانيين مشروعًا سمى بمشروع «السنوات الست» وهو مشروع للتنمية.

يمكن القول بأن هذه السياسة البريطانية الجديدة تجاه إمارات شرق الجزيرة العربية لم يأت من فراغ وأنها كانت سياسة استعمارية انتهازية وإنما غلفت بثوب جديد يتناسب والظروف الجديدة التى استجدت بعد الحرب العالمية الثانية وكانت هناك مجموعة من الدوافع وراء هذه السياسة وأنها جاءت تمشيًا مع التغير الذى حصل فى الوضع الدولى بعد الحرب واشتداد حركة التحرر الوطنى ومزاحمة السياسة الامريكية ومواجهة التيار الشيوعى . أما الدوافع المرتبطة بالخليج العربى من الداخل فهى كثيرة وإن كانت ترد فى مضامينها مظهر التدخل السياسى والاستقلال الاقتصادى ، ففى السياسة يتجلى ذلك عن طريق الضغط على الحكام بتعيين مقيمين سياسيين فى المنطقة أما الاستقلال الاقتصادى فى أن بريطانيا خرجت من الحرب مثقلة من الناحية الاقتصادية ؛ فرأت فى إمارات شرق الجزيرة العربية ونفطها مكانًا خصبًا لخدمة مشاريعها الاقتصادية وأصبحت تلك الإمارات سوقًا رائجًا ومستهلكًا لمنتجات

الشركات البريطانية كما استحوذت شركاتها على كل المشروعات وتنفيذها وقدمت اقتراحات فى استقلال أموال إمارات شرق الجزيرة العربية فى استثمارات خارجية . وعن طريق هذه السياسة الجديدة استطاعت بريطانيا استمرار نفوذها فى خضم المنافسة الدولية حتى انسحابها من الخليج العربى .

الاتحاد السوفييتى والخليج العربى :

تعتبر روسيا الدولة الثالثة من الدول المهتمة بأمور الخليج العربى وقد ركزت على التحكم فى البحر الأسود وبحر قزوين . وقد شعرت بريطانيا بخوف من روسيا إلا أن هذا الخوف تبدد بعد تدهور قوة روسيا القيصرية وخاصة بعد هزيمتها أمام اليابان ولكنها عادت من جديد بعد الثورة البلشفية وأخذ الاتحاد السوفييتى يتحين الفرصة لمحاولة إيجاد موقع نفوذ له فى هذه المنطقة وأصبحت السياسة الخارجية السوفيتية نظراً للصراع على النفوذ داخل السلطة ونتيجة للخلاف الشديد مع البرامج الاقتصادية فى العشرينات أقل مرتبة وأقل اهتماماً بشؤون الخليج العربى لأن اهتمام ستالين كان يتركز فى تعزيز قوته ونفوذه داخل الحزب والحكومة .

إيران والسوفييت :

احتلت إيران فى السياسة السوفيتية أهمية متميزة بسبب موقعها الجغرافى وقد ازدادت هذه الأهمية لأنها كانت هدفًا للدول الغربية وخاصة بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية المعادية للاتحاد السوفييتى أيديولوجيًا واستراتيجيًا . ونتيجة لهذين العاملين المهمين كانت إيران ساحة للصراع والتنافس بين الدول الغربية من جهة والاتحاد السوفييتى من جهة أخرى وأصبحت من مناطق النفوذ السوفييتى والبريطانى والألمانى والأمريكى منفرداً أو مجتمعًا ولاشك أن انعكاساتها سوف تؤثر على الأمن السوفييتى .

تأثرت السياسة السوفيتية بالتطورات التى تقع على مقربة من حدودها فى إيران . فمن السنوات القليلة التى أعقبت ثورة اكتوبر ١٩١٧ التزم القادة السوفييت بمبادىء الثورة الشيوعية فى علاقاتهم مع إيران التى حرضوها على الثورة وكذلك غيرها من البلدان الخاضعة للاستعمار الأوروبى ومن ضمنها كانت ثورة رضا خان الذى تولى السلطة فى إيران عام ١٩٢٥ وأصبح مواليًا للسوفييت الذين ركزوا سياستهم لصالح أمنهم . وأصبحت مصلحة أمن الاتحاد السوفييتى الشغل الشاغل للقيادة السوفيتية وأعطيت الأولوية لضرورات الأمن لأن حماية أمن الدولة تعنى حماية الجهاز السياسى وحماية الجهاز تعنى استمرار المبادىء وفاعليتها .

من هنا استهدفت السياسة العليا بالدرجة الأولى ضمان أمن الاتحاد السوفييتى من خلال إبعاد النفوذ الاجنبى المعادى له وإفشال أية محاولة تطويق معادية لأراضيه وبذل السوفييت الجهود عن طريق الوسائل الدبلوماسية للحصول على موقع نفوذ والعمل على إيجاد ظروف تقوية هذه المواقع . واتخذت فى ذلك عدة أساليب منها استخدام القوة ضد إيران عندما تعرض أمنه للتهديدات الأجنبية ودخلت جيوشه فى إيران أكثر من مرة ولم تنسحب منها إلا بعد حصوله على ضمانات أمنية غاية فى الأهمية ومن ذلك معاهدة ١٩٢١ السوفيتية - الايرانية والتى سميت بمعاهدة الصداقة المتبادلة . فهذه نصت فى مادتها الخامسة والسادسة على حق الاتحاد السوفييتى فى إرسال قواته إلى إيران أو استخدام أراضيها للهجوم على الاتحاد السوفييتى .

تحرك الاتحاد السوفييتى إزاء الاحداث الدولية ليرتبط بمدى تأثير هذا الحدث فى أمنه وهو يختلف من منطقة لأخرى ، لقد ازدادت أهمية موقع ايران الجغرافى للأمن السوفيتى فيما بعد الحرب العالمية وذلك بفعل التطورات التى طرأت على الساحة الدولية . وكانت السياسة التى اتبعتها الولايات المتحدة هي تطويق الاتحاد السوفييتى فى جبهته الجنوبية وزيادة القوة البحرية الأمريكية فى المحيط الهندى . من أهم هذه الأحداث ، ، فالولايات المتحدة تمتلك قوة ضاربة فى المحيط الهندى «الأسطول الخامس» تضم غواصات حاملة الصواريخ ذات الرؤوس النووية التى يصل مداها إلى الأهداف الاستراتيجية السوفيتية وفضلاً عن امتلاكها قواعد عسكرية على أبواب الخليج العربى فى جزيرة مصرية وقواعد عسكرية ضخمة فى جزيرة ديغو غارسيا .

حاول الاتحاد السوفييتى فيما بعد توسيع اطار تفسيره لمعاهدة الصداقة السوفيتية - الإيرانية لعام ١٩٢١ بهدف الحد من النشاطات العسكرية التى قد تقوم بها أية قوة أجنبية فى إيران وتشكل تهديداً للأمن السوفييتى فى الفترة ما بين ١٩٥٥ و ١٩٦٢ وهى فترة التوتر الشديد فى العلاقات السوفيتية - الإيرانية كانت بسبب إصرار السوفييت على تفسير نصوص هذه المعاهدة بطريقة من شأنها فصم روابط تحالف إيران العسكرية بالغرب . وفى عام ١٩٥٩ أعلنت إيران بقرار منفرد من جانبها إلغاءها لمعاهدة ١٩٢١ التى قالت عنها بأنها غير متكافئة ومناقضة لميثاق الأمم المتحدة وإن كان السوفييت قد أصروا من ناحيتهم على مشروعية المعاهدة ورفضوا الاعتراف بقانونية القرار الإيرانى . لقد هدف السوفييت من إصرارهم على تنفيذ بنود أحكام هذه المعاهدة وقف البناء العسكرى الضخم الذى أقامته إيران خلال حكم الشاه والذى سبب ضيقًا متزايداً للاتحاد السوفييتى .

ظهر تعاون إيران والاتحاد السوفييتي في مرحلة تطبيع العلاقات منذ منتصف الستينيات أوضح ما يكون في مجالات الطاقة وبرامج المساعدات الصناعية وخاصة مبادلة الغاز الطبيعي الإيراني بالسلع الصناعية السوفيتية وتشجيع الطرفين على تمتين أواصر تعاونهما المتبادل . إلا أن ذلك لم يمنع الاتحاد السوفييتي من انتقاد إيران بشدة وبخاصة حول سياسات التسليح التي توسعت فيها منذ بداية السبعينيات والتي اعتبرها تهديداً مباشراً لأمنه .

العراق والسوفييت :

خطا الاتحاد السوفييتي خطوة إيجابية باتجاه مياه الخليج العربي عندما أعلن عن تأييده للثورة العراقية مما أدى إلى خلق جو من التوتر في العراق أعقبه تردد في العلاقات السوفيتية - العراقية . وهذه هي الخطوة الأولى للسوفييت في الدخول إلى الخليج العربي ومن أفضل الطرق التي كان يرغب فيها الاتحاد السوفييتي لحصول على النفط عن طريق المقايضة المباشرة أي أن يقدم بضائعه المصنوعة بأسعار منافسة لمثيلاتها في الغرب مقابل الحصول على النفط .

اعتبرت العراق أكثر دول الخليج والجزيرة العربية ارتباطًا بالسوفييت قبل أن تقفز اليمن الديمقراطي في فترة لاحقة إلى مرتبة الحليف الأول ويرجع الدور التسليحي السوفييتي للعراق إلى ما بعد ثورة ١٩٥٨ . وكانت استجابة السوفييت لمطالب العراق التسليحية تنبع من رغبتهم في الابقاء عليه كدولة محايدة بعد أن تخلى عن عضويته في حلف بغداد وألغى روابطه مع الغرب ، برغم اضطهاد العراق للشيوعيين في تلك الفترة فان الاتحاد السوفييتي زاد أسلحته للعراق مع ازدياد الحرب ضد المتمردين الأكراد منذ عام ١٩٦٥ . ثم تشجع الإتحاد السوفييتي أكثر في علاقاته مع العراق عندما أقدم الأخير على قطع علاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية بعد حرب يونية ١٩٦٧ . ثم تسارعت الامدادات العسكرية السوفيتية بعد ذلك على نحو كبير . وقد يرجع هذا إلى مجيء حزب البعث إلى الحكم عام ١٩٦٨ ومع اتساع حجم المبادلات بين العراق والاتحاد السوفييتي في أمور النفط والتسلح خطت علاقاتهما خطوة واسعة إلى الأمام وتوجت هذه المرحلة بالتوسع في ٩ أبريل ١٩٧٢ أثر التوقيع على معاهدة الصداقة السوفيتية - العراقية .

الولايات المتحدة والخليج العربى :

أولت الحكومة الأمريكية عام ١٩٤٧ اهتماماً خاصاً لزيادة الطلب على النفط لبناء الصناعات المدنية الجديدة وبدأت بتطبيق مشاريع اقتصادية وسياسية استهدفت بسط سيطرتها على العالم والحلول محل الدول الاستعمارية الغربية المتدهورة مثل بريطانيا وفرنسا. وقد طرحت الحكومة الأمريكية مشاريع مارشال وترومان والنقطة الرابعة من أجل بسط سيطرتها الاقتصادية على بلدان أوروبا الغربية وتركيا واليونان وإيران ومنطقة الخليج العربى . كما بادرت لتأسيس أحلاف عسكرية للوقوف ضد الاتحاد السوفييتى وضد الحقوق المشروعة للشعوب فى الحرية والاستقلال . وهكذا نشأ الحلف الاطلسى ثم ظهر حلف بغداد وحلف جنوب شرق آسيا وحلف القارة الأمريكية وكانت كل هذه الخطوات تعول على أهمية السيطرة على موارد الطاقة وفى مقدمتها النفط ، وقد أتبعت المطامع الأمريكية فى المنطقة الاستعمارية البريطانية لها وكانت بريطانيا حتى الحرب العالمية الثانية ترعى المصالح الأمريكية فى الخليج العربى وتنفذ الخطط الاستراتيجية المشتركة فيما عدا اتصال الولايات المتحدة الأمريكية المباشر مع السعودية بواسطة شركة «ارامكو» وتأييد الصهيونية فى فلسطين .

أخذت الولايات المتحدة الامريكية منذ عام ١٩٤٧ تبدى اهتماماً أقل بوجهة النظر البريطانية حول الخليج العربى كما أخذت تبادر لاتخاذ مواقف مستقلة عن المواقف البريطانية التى ظلت تتبع الاساليب القديمة فى تطبيق الأفكار التقليدية فى السياسة الخارجية ومتجاهلة ما يجرى فى العالم . وفى يناير من نفس العام أى ١٩٤٧ قام ولى العهد السعودى الأمير سعود بزيارة رسمية للولايات المتحدة الامريكية وهاجم السياسة البريطانية المؤيدة للدولة الهاشمية ومشروع سوريا الكبرى وطلب من الولايات المتحدة الأمريكية الوقوف بجانب السياسة السعودية المعارضة لهذه المشاريع (١).

لأجل توطيد مصالح جديدة فى الخليج العربى عمدت الحكومة الأمريكية إلى تشجيع البحث العلمى حول مختلف مجالات الحياة فى الخليج العربى وذلك بالتعاون مع شركات النفط العاملة فى المنطقة . ومع البعثات والإرساليات الدينية المسيحية وساهمت الجامعة الأمريكية فى بيروت فى هذا الاتجاه . وفى نهاية الأربعينيات ظهر فى أمريكا العديد من المؤسسات التى تعنى بالبحث العلمى عن الخليج العربى وفى مقدمتها معهد الشرق الأوسط

فى واشنطن . وكذلك أنشأت الجامعات الأمريكية الرئيسية مراكز للدراسات الخليجية والعربية ومنها جامعة هارفرد وجامعة جونز هوبكنز وجامعة بنسلفانيا وجامعة برنستون وجامعة كاليفورنيا وجامعة شيكاغو وقد عُنيت هذه المراكز بتدريس اللغة العربية والتاريخ الاسلامى والاقتصاد العربى وأصدرت العديد من الدراسات عن المنطقة ساهم فيها الكثير من الاختصاصيين فى مختلفة الشؤون الخليجية . وقد أبدت معاهد الشؤون الدولية ومعهد السياسة الخارجية والكليات العسكرية العليا اهتمامات خاصة بالمنطقة وعقدت هذه المؤسسات مؤتمرات دورية لمناقشة قضايا الخليج العربى والقضايا العربية الأخرى ولازالت تلعب دوراً مهمًا فى هذا المجال وقد استقطبت هذه المؤسسات العديد من الخبراء البريطانيين والعرب والايرانيين للتدريس فيها (٢).

قاعدة الظهران الجوية الأمريكية :

عند نهاية الحرب العالمية الثانية فى أوروبا أخذ الحلفاء يعدون العدة لنقل قواتهم إلى الشرق الأقصى لمتابعة الحرب التى كانت لاتزال دائرة مع اليابان واحتاجوا بصدد ذلك إلى قاعدة جوية كبيرة فى منتصف الطريق . ووقع الاختيار العسكرى الامريكى على الظهران الواقعة على مقربة من أكبر حقول النفط فى العالم «السعودية » وما كاد يبدأ العمل فى إنشاء هذه القاعدة حتى انتهت حرب اليابان فجأة ولذلك لم تهتم الولايات المتحدة بتطويرها ولكن على أثر قيام الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتى ووقوع الصراع المسلح فى كوريا صارت الحاجة ملحة إلى القاعدة .

وقع الاختيار على الظهران فى هذه المرة أيضًا ووقع اتفاق رسمى مع السعودية فى ١٨ يونية من عام ١٩٥١ ينص على تنظيم استخدام القاعدة مقابل معونة أمريكية خصصت لتسليح الجيش السعودى وتدريبه متضمنًا الامتيازات التى يتمتع بها الجنود الامريكيون المرابطون فى القاعدة . وأصبح من المسلم به أن تستخدم قاعدة الظهران الأمريكية كما تستخدم القواعد البريطانية فى عدن والبحرين والشارقة والسويس وغيرها من قواعد الشرق الأوسط لمواجهة أى تهديد للمصالح الغربية فى المنطقة .

ترجع جذور ارتباط الاستراتيجية الامريكية بالخليج العربى عندما نظمت حكومة الولايات المتحدة خطة للتغلغل فى الخليج والشرق الأوسط عن طريق التحرك الدبلوماسى الذى اقترن بتقديم برامج المساعدات الاقتصادية والعسكرية والفنية للحكومات الصديقة أو ما يسمى

بالأنظمة المحافظة فى كل من إيران وتركيا وأثيوبيا وباكستان والسعودية والكيان الصهيونى وذلك ضمن مشروع «ترومان» الذى صدر فى مارس عام ١٩٤٧ فى أعقاب المحاولات التى بذلها السوفييت لتفكيك أوصال إيران وتجزئة كيانها الاقليمى باقامة دويلات مستقلة فى كل من أذربيجان وكردستان .

أخذ النفوذ الأمريكى يتعاظم فى إيران منذ عام ١٩٥٣ بشكل خاص بعد الانقلاب الذى دبرته المخابرات المركزية الأمريكية وقاده الجنرال فضل الله زاهدى وأدى إلى تشديد قبضة الشاه على السلطة بعد أن تمت تصفية قوى المعارضة الوطنية فى إيران والتى تزعمها محمد مصدق . وكان التصريح الثلاثى البريطانى الفرنسى الامريكى للتدخل العسكرى فى شؤون المنطقة العربية باسم حماية «إسرائيل» خطوة أمريكية أوسع وتبعها حلف بغداد الذى ضم بريطانيا وإيران وتركيا وهو الحلف الذى استهدف مواجهة السوفييت فى الشرق الأوسط والخليج العربى واحتواء قواتهم بطريقة تحول دون وصولها إلى المحيط الهندى .

يعتبر مبدأ أيزنهاور عام ١٩٥٧ نقطة تحول هامة فى السياسة الامريكية فى الشرق الاوسط بعدما أسفر فشل العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ عن تدهور مركز بريطانيا فى الشرق الاوسط وبالتالى عدم مقدرتها على القيام بالدور الذى كانت تقوم به وتحملت الولايات المتحدة الامريكية على عاتقها بشكل سافر مواجهة السوفييت والدفاع عن الشرق الاوسط بما فيها الخليج العربى عندما عبرت عنها بخطر الشيوعية الدولية .

واستمر تغلغل الولايات المتحدة فى الخليج العربى وما سمى بالتنافس الودى بين بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية إلى الحلول محلها والتعاون معها فى ألوان الوجود البريطانى العسكرى فى المنطقة . بالإضافة إلى ذلك فقد شملت هذه المحاولات الامريكية الباكستان التى انضمت إلى عضوية حلف بغداد والذى تحول إى الحلف المركزى «السنتو» بعد قيام الثورة فى العراق وانسحابها من حلف بغداد . كما تم ضم باكستان لحلف جنوب شرق آسيا «السيتو» أيضًا وفى عام ١٩٥٩ أبرمت الحكومة الامريكية مع باكستان ميثاقًا أمنيًا جديداً نص على تعهد الولايات المتحدة الامريكية بتقديم العون العسكرى الذى يلزمها فى الأحوال التى تكون فيها عرضة للهجوم الخارجى . أما بالنسبة لمنطقة القرن الأفريقى فقد ركزت الولايات المتحدة على اثيوبيا التى زودتها اعتباراً من عام ١٩٥٣ بمساعدات كبيرة فى مقابل الحصول على قاعدتين للاتصالات فى كاجينو واسمرة باعتباره سيكون عامل استقرار

وتوازن فى منطقة البحر الأحمر الذى يمثل الممر البحرى الثانى مع الخليج العربى ويشكل شريانًا حيويًا لنقل الامدادات النفطية من الخليج العربى إلى قناة السويس ومنها إلى غرب أوروبا .

يمكن القول بأن السياسة الأمريكية تجاه المنطقة فى الفترة من عام ١٩٤٨، وحتى الانسحاب البريطانى من الخليج العربى كانت على النحو التالى :

أولاً : دعم الكيان الصهيونى ماليًا وعسكريًا واعتبار شؤون الكيان الصهيونى وأمنه من الأمور الداخلية الامريكية واتبع هذه السياسة جميع الرؤساء من ترومان حتى اليوم .

ثانيًا : العمل على دعم القوى الحليفة والصديقة والوقوف ضد تطلعات الشعب العربى القومية فى الوحدة العربية وضد تطلعات الأقطار العربية التى تسعى إلى اتباع سياسة خارجية مستقلة . ومن هذا المنطق قاومت الولايات المتحدة الامريكية سياسة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وتزعمت سياسة الأحلاف العسكرية وشاركت فى حلف بغداد واعلنت معارضتها لتأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ كما أعلنت رفضها تقديم قروض لمصر لمساعدتها فى تحقيق مشروع السد العالى ، كما عارضت بقوة صفقات الاسلحة لمصر وسوريا من تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتى ، وفى الأمم المتحدة وقفت ضد قضايا العرب العادلة.

ثالثًا : حث أقطار الخليج العربى على إبقاء الأوضاع الراهنة وذلك لضمان التوسع المطرد فى المصالح الاقتصادية الامريكية وتسهيل عملية تجهيز النفط للولايات المتحدة وحلفائها دون أى توقف . واعتبرت الولايات المتحدة قضية النفط ذات علاقة وثيقة ومباشرة بالأمن القومى الأمريكى واعتبرت إيران مفتاح الاستقرار فى المنطقة وجعلها القوة الرئيسية فى المنطقة وتزويدها بجميع الأسلحة المتطورة جداً ومن مختلف الصنوف والكميات .

رابعًا : أن الخليج العربى من وجهة الإدارة الامريكية يقع على الحدود السوفيتية وعلى هذا سعت إلى توطيد مصالحها فى المنطقة من خلال تقوية النظام الإيرانى وضمان عدم سقوطه بيد عناصر مؤيدة للاتحاد السوفيتى لأن معنى ذلك وصول الاتحاد السوفيتى إلى ميناه الخليج الدافئة [٣].

استمرت السياسة الإيرانية فى الفترة من الخمسينات وحتى وفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر متخوفة من المد القومى العربى ولهذا لم تجرؤ فى هذه الفترة على أى توسع أو احتلال لأى جزء من الأجزاء العربية فى الخليج العربى ، فقد كان هناك مصدران للردع الإيرانى من

التوسع تجاه العرب وهما العراق ومصر . وكان لأطماع شاه إيران التوسعية فى شط العرب والبحرين وطموحاته فى السيطرة على منطقة الخليج العربى ومساندته العسكرية الحاسمة لحركة المتمردين الأكراد فى العراق أثرها المباشر والكبير فى تأزيم مشكلة التعاون مع العرب وحال دون إقامة ترتيب دفاعى جماعى من دول المنطقة تتحمل المسؤولية الأساسية فى تنفيذه بالنيابة عن الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت ما تزال واقعة بالكامل تحت تأثير الحرب الفيتنامية .

تخوف إيران من مصر الناصرية كان راجعًا بالأساس إلى قوتها العسكرية وإلى ارتباطها السياسى والعسكرى القوى بالاتحاد السوفيتى فضلاً عن جاذبية زعامة جمال عبد الناصر للقاعدة الواسعة من الجماهير العربية فى الوطن العربى وخاصة فى الخليج والجزيرة العربية وهو ما كان يخشى منه شاه إيران على سلامة حقول النفط الإيرانية الواسعة التى تقع فى امارة عربستان التى احتلتها إيران عام ١٩٢٥ وتقطنها أغلبية عربية . يضاف إلى ذلك أن اشارات عبد الناصر المتكررة لما كان يسميه «بالنفط العربى» كانت تسبب ضيقًا بالغًا لشاه إيران كما كان من بين عوامل هذا الضيق سياسة عبد الناصر فى الجزيرة العربية منذ الستينات وبخاصة خلافه المتصاعد مع السعودية بسبب معارضتها العنيفة لثورة ١٩٦٢ فى اليمن وكذلك التواجد العسكرى المصرى المكثف فى هذا البلد فى الوقت الذى كانت بريطانيا تخطط للانسحاب من اليمن الجنوبية مما جسم من معالم هذا الخطر الناصرى فى تصور النظام الإيرانى . ومن هنا فقد خشى شاه إيران أن تساعد هذه التطورات السلبية فى الخليج العربى على اندفاع عبد الناصر فى اتجاه تأسيس قاعدة ثورية حربية له فى هذه المنطقة وبالتحديد فى عمان واتخاذها كنقطة وثوب للسيطرة على مضيق هرمز والتقدم منه إلى خنق إيران واخضاعها لضغوط القوة الناصرية (٤).

من وجهة نظر الشاه كانت تداعيات الموقف فى هذا الاتجاه لابد وأن تنتهى بتمكين عبد الناصر من السيطرة على منطقة الخليج العربى كلها وقد تقاسمت السعودية مع إيران تلك المخاوف وهو ما يفسر تصميمها على مقاومة عبد الناصر بالقوة فى اليمن لعدم تمكينه من الوصول إلى هذه النتيجة الأخيرة .

اهتمت مصر الناصرية فى هذه الفترة فى تدعيم التعاون العربى فى نطاق جامعة الدول العربية وتحركت فى نهاية عام ١٩٥٣ ودعت الدول العربية الغنية إلى المساهمة فى نشاط الجامعة الثقافى والاجتماعى والصحى فى ساحل عمان ومنذ ذلك الحين أخذت روابط التعاون

بين إمارات ساحل عمان وسائر الأقسام العربية تنمو وتتقدم كما أخذ المعلمون والفنيون العرب يفدون على إخوانهم أبناء هذه الامارات فى ساحل عمان وفى ذات الوقت أخذت المطامع الأجنبية فى هذه المنطقة العربية تزداد وأخذت المؤامرات تدبر لعزلها عن الوطن العربى الكبير فى حين استمر التعاون الأخوى الذى أسسته الكويت مع مصر الناصرية فى إمارات ساحل عمان حتى نهاية الستينات وما كان لها من آثار قوية فى دعم المعانى القومية وتقدم المنطقة (٥).

الانسحاب البريطانى من الخليج العربى ٦٨ - ١٩٧١ :

وصلت بريطانيا إلى أقصى توسعها فى نهاية الحرب العالمية الثانية . وبالرغم من احتفالها بالنصر كأول المنتصرين وجدت نفسها أول الخاسرين بحيث أنها لم تستطع الاحتفاظ بكل هذه المستعمرات التى لاتغرب عنها الشمس من الناحية المادية والبشرية بعد أن طالبت شعوب المستعمرات بالحرية والاستقلال وكان عليها القيام بتضحيات كبيرة لايمكن أن يتحملها المواطن البريطانى ولا اقتصادها الذى كان فى الحضيض نظراً للإصابات التى منى بها . وأهمها تدمير القسم الأكبر من الأسطول التجارى البريطانى بسبب ضرب الغواصات الألمانية فهو الذى يؤمن الغذاء لبريطانيا من مستعمراتها وينقل المنتجات الصناعية لمختلف أنحاء العالم وهو الرابطة الرئيسية التى تربط بريطانيا بمستعمراتها. كما أن أسطولها الحربى لم يعد بامكانه إرهاب الشعوب وكان على السياسيين والاقتصاديين البريطانيين دراسة الفوائد التى يمكن الحصول عليها من خلال الاحتفاظ بهذه المستعمرات الضخمة ضد رغبات شعوبها مقابل المصروفات الضخمة لإعادة توزيع القوات البريطانية وتموينها وحماية قواعدها. والواقع أن مرحلة بداية النهاية لهذه الامبراطورية الاستعمارية بدأت مع بداية الحرب العالمية الثانية وانتهت بانسحاب آخر جندى بريطانى من الخليج العربى . ولم يعترف البريطانيون بالرغم من واقعيتهم بهذه النتيجة إلا بعد أكثر من عشرين عامًا من نهاية الحرب . ورغم كل الخسائر التى لحقت ببريطانيا ظلت العقلية الاستعمارية لدى سياستها هى المسيطرة واعتبرت المنطقة العربية سهلة القيادة لوجود شعوب متأخرة فيها حسب زعمها (٦). إلا أن مقاومة الشعب العربى أسواء كان فى مصر أو جنوب اليمن جعل المخططين العسكريين البريطانيين يضطرون للمرة الأولى للتسليم بالعجز عن المحافظة على النظام الاستعمارى القديم فى وجه التطلعات السياسية المتزايدة لدى الشعب العربى .

رغم كل ما تقدم كان هناك إصرار بريطانى على البقاء فى الخليج العربى تحت مبررات واهية وكاذبة بأن على بريطانيا مسؤوليات والتزامات تجاه إمارات شرق الجزيرة العربية التى ترتبط معها بمعاهدات واتفاقيات قديمة إضافة إلى مصالحها الاقتصادية الحيوية التى أرست قواعدها فى المنطقة منذ فترة طويلة .

اعتقدت بريطانيا أنها أفضل من يؤمن مصالح الدول الرأسمالية الغربية فى المنطقة وأعطت لنفسها دور الشرطى منذ فترة طويلة ودور المحامى ضد الأفكار الشيوعية القادمة من الشمال . وتلاقت استراتيجيتها مع الولايات المتحدة على أهمية المنطقة لموقعها الجغرافى وثرواتها النفطية التي أصبحت عماد الطاقة والمحرك للصناعة الرأسمالية . وكان زوال النفوذ البريطانى دون أن تحل دولة أخرى محله كابوسًا رهيبًا يقض مضاجع السياسيين البريطانيين وكذلك الاقتصاديين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على الأقل حتى أواسط الخمسينات وتسلط على ساسة حقبة إيران هذا الكابوس وهو الخوف من أن تقع الثروة البترولية فى يد رجل واحد أو مجموعة دول لاسلطة للغرب عليها ولا لبريطانيا . وكان الخوف الأكبر هو إمكانية العرب من تحقيق سيطرة سلطة عربية واحدة ولو صح ذلك وتحققت الوحدة لأصبح الضغط الاقتصادى والعسكرى أكثر فاعلية على الغرب . ولاشك أن العدوان الثلاثى على مصر كان من جملة الأساليب التى اتبعها الغرب وبريطانيا لتفتيت العرب بعد ظهور الأفكار القومية الوحدوية التى بدأ يبشر بها عبد الناصر (٧).

أعلنت الولايات المتحدة عن ارتياحها للوجود البريطانى فى الخليج العربى وكانت تؤمن بأن أى تجمع عسكرى يجب أن يكون تحت القيادة البريطانية التى كانت تسير ضمن هذا الهدف برغم أن بترول المنطقة سيطرت عليه الشركات النفطية الأمريكية بنسبة ٧٠٪ بالإضافة إلى الشركات الايطالية واليابانية والفرنسية . ولكن الهدوء الذى أشاعته بريطانيا فى فترة ما قبل الحرب لم يكن بالإمكان تحقيقه فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فلم تمض سوى فترة قصيرة حتى بدأت الصعوبات تظهر أمام بريطانيا من تأميم النفط الايرانى. وكان ذلك أشد ضربة وجهت إلى بريطانيا ولولا الولايات المتحدة التى أنقذتها بعودة نظام الشاه وبالتالى دخول الشركات الامريكية إلى إيران أيضًا . ثم كانت الثورة العراقية والإطاحة بالملكية عام ١٩٥٨ والانسحاب من حلف بغداد . وبعدها بقليل أرسلت بريطانيا جيشها لحماية الكويت من التهديدات العراقية أثناء حكم عبدالكريم قاسم ثم خروج بريطانيا

من عدن بعد حرب التحرير التى أدت إلى استقلال اليمن الجنوبية فى ٣٠ / ١١ / ١٩٦٧ وبعدها تدخلت بريطانيا فى الشؤون العمانية لحماية السلطان سعيد بن تيمور ، كل ذلك جعل بريطانيا تنظر إلى المصاريف الباهظة التى كانت تتكبدها من قيامها بدور الشرطى. لذلك كان لابد من التفكير بالانسحاب من الخليج العربى وكان عليها أن تلجأ مرة ثانية إلى الولايات المتحدة خاصة بعد خسارتها التسهيلات التى كانت لها فى السويس بعدما أمر عبد الناصر بانهاء جميع القواعد والتسهيلات التى البريطانية من مصر ، وكانت بريطانيا تنظر إلى قاعدتها فى السويس على أنها الركيزة الأساسية لقواتها العسكرية فى المنطقة جميعها والتى تعرف بشرق السويس لذلك أدت خسارتها للسويس لإضعاف قدرتها على التحرك وأصبحت على ثقة بأن ما لديها من قوات لاتصلح لأكثر من صراعات محلية .

حاولت بريطانيا تطوير سياستها الدفاعية بما يتلاءم مع متطلبات الوضع العام بتوفير المصروفات قدر الإمكان بعدما صدر الكاتاب الأبيض عام ١٩٥٧ وتحديد السياسة الدفاعية البريطانية بعد فشل العدوان الثلاثى على مصر وعن تصميمها على الوفاء بالتزاماتها الدولية والاستعمارية فى الشرقين الأوسط والأقصى عن طريق مجموعة من حاملات الطائرات والجنود ترابط فى الظروف العادية فى المحيط الهندى وتعزز بقوات احتياطية ومركزية من القوات المنقولة جواً . وترابط هذه القوات فى بريطانيا نفسها وبادرت إلى تطوير منشآت قواعدها فى عدن . ويعتبر التحول من القواعد الثابتة إلى العمليات المنقولة جواً تغيراً مرحليًا فى التاريخ العسكرى ولولا وجود الطائرات الضخمة ذات الحمولات الكبيرة لما تم مثل هذا التحول . ومع ذلك ظهرت مصاعب كثيرة أمام مثل هذه العمليات ولابد من الطريق الجوى بين بريطانيا والمحيط الهندى من المرور فوق أجواء بلاد لاتسمح للطيران البريطانى باستخدامه فهى مضطرة لاستخدام طريق طويل للوصول إلى المنطقة وهذا شىء صعب أما الطريق الجنوبى الشرقى أى من استراليا فهو أسهل ولكنه طويل جداً (٨).

أظهرت عملية الدفاع عن الكويت عندما هدد عبد الكريم قاسم بغزوها فى اليوم الأول من إعلان الاستقلال صعوبة تنفيذ القوات البريطانية لمثل هذه العمليات ويذكر أن القوات البريطانية التى أرسلت لنجدة الكويت وصلت متعبة جداً من طول الطريق وكان تغير الطقس سببًا فى إصابتها جميعًا بالزكام . ولم تصل إلى مواقعها إلا بعد مدة طويلة ثم اضطرت للانسحاب بسرعة بسبب الطقس الحار فى الكويت والتى لم تكن معتادة عليه ، وقد أفاد

الأمريكيون من هذا فى حرب تحرير الكويت من القوات العراقية عن طريق الرئيس المصرى حسنى مبارك عندما وقف إلى جانب الولايات المتحدة وسمح لقواتها القوات الغربية بعبور الأجواء المصرية إلى السعودية عن طريق قواعدها فى أوروبا وأمريكا لأن المرور عبر أجواء إيران وليبيا كان غير ممكن لمواقف هذه الدول . ولهذا كان الطريق الوحيد المفتوح هو الأجواء المصرية ، كما لم يتعظ العراق من الدرس السابق عندما أرسلت بريطانيا قواتها إلى الكويت لحماية آبار النفط والمصالح الغربية فكررت الولايات المتحدة نفس الشيء .

عاد الكتاب الأبيض الدفاعى عام ١٩٦٢ يركز على أهمية النفط على الصعيدين العسكرى والتجارى لبريطانيا وأن على الغرب الرأسمالى أن يحميه ويحافظ عليه مهما كان الثمن حتى لو أدى إلى استخدام القوة وأعلن الكتاب الثانى لعام ١٩٦٢ أن بريطانيا هى مسؤولة عن ضمان الأمن والاستقرار فى مناطق انتاج النفط فى شرق الجزيرة العربية ولحماية اتحاد الجنوب العربى ومحمية عدن فى اليمن الجنوبية .

دوافع الانسحاب البريطانى :

على النقيض من السياسة البريطانية الخاصة بالدفاع والتى جاءت فى الكتاب الأبيض الذى أصدرته وزارة الدفاع لعام ١٩٦٢ أصدرت وزارة الدفاع البريطانية كتابًا أبيضًا جديداً عام ١٩٦٧ بتخفيض قواتها العسكرية شرق السويس وذكرت فيه المبررات التى على أثرها قررت الانسحاب من الخليج العربى وتخفيض نفقاتها العسكرية والدوافع الاقتصادية التى أثرت فى تخفيض نفقاتها لمواجهة خططها الاقتصادية فى الداخل وفى نطاق السوق الأوروبية المشتركة . وفى ١٦ يناير ١٩٦٨ أعلنت الحكومة البريطانية الانسحاب قبل نهاية عام ١٩٧١ ويمكننا أن نرجع إلى عدة دوافع منها :

أولاً : دوافع الاستقرار والأمن :

يبدو أن بريطانيا اقتنعت بأن الوجود العسكرى التقليدى غير مجد بعدما فشلت فى معاركها ضد الثوار فى اليمن الجنوبية وأن التفاهم بينها وبين حكام المنطقة وتحقيق الأمن والاستقرار هو خير وسيلة لحفظ مصالحها والتخلص من الشيوخ والحكام الذين تشعر بأن وجودهم خطر حقيقى على مصالحها وبذلك تخلصت منهم واستبدلتهم بمن هم أكثر خضوعًا لمصالحها فى المستقبل .

حرصت بريطانيا على تحقيق أكبر قدر من الاستقرار فى المنطقة حتى لاتتعرض مصالحها للخطر فيما لو تجدد النزاع حول البريمى أو اطماع إيران فى البحرين . وفى سبيل ذلك اقتنعت إيران بالتخلى عن أطماعها التوسعية فى البحرين مقابل احتلال جزر ساحل عمان الثلاثة كما حاولت التخفيف بقدر الامكان من مشكلات الحدود القائمة فيما بين إمارات ساحل عمان نفسها أو بينها وبين جيرانها (٩).

ثانيًا : دوافع اقتصادية :

تدهور الأحوال الاقتصادية فى بريطانيا وخاصة عدم التوازن فى ميزان المدفوعات والتضخم المتزايد جعل من حكومة العمال تفكر جديًا باجراء عملية تقشف كبرى لاعادة الثقة للاقتصاد البريطانى المتدهور وتحقيق المصلحة الوطنية والدخول إلى السوق الأوروبية المشتركة والتغير فى ساسة الإنماء ودعم نشاطها فى حلف الأطلسى والاتجاه إلى أوروبا وكل هذا كان يتطلب تخفيفًا فى القوات والنفقات العسكرية فى شرق السويس .

لإعادة توزيع هذه القوات أو سحبها أو إيجاد طريقة ما للتخلص من مصروفاتها الضخمة كان هو أحد الأهداف الرئيسية للحكومة البريطانية للتغلب على التضخم وعلى هذا الأساس أعلن هارولد ولسون رئيس الوزراء البريطانى أن الانسحاب هو إنهاء الوجود البريطانى . وقد لقى تصريحه هذا مقاومة شديدة من حزب المحافظين الذى كان يهيىء نفسه للحكم وبرغم ذلك أخذت حكومة العمال تحضير ترتيبات الانسحاب بدءاً من تجميد مصروفات القوات البريطانية (١٠) . وأدركت بريطانيا أنها ليست الدولة الرأسمالية الوحيدة فى المنطقة التى لها مصالح اقتصادية ونفطية وإنما دخلت دول رأسمالية غيرها بدون الوجود العسكرى كفرنسا واليابان والولايات المتحدة وغيرها والتى ليست لها قوات عسكرية لحماية مصالحها كما كانت تفعل شركات الهند الشرقية الأوروبية فى الخليج العربى فلماذا تكون لبريطانيا قوات عسكرية بعدما أصبحت المصالح الاقتصادية ليست محتكرة لها وإنما لغيرها من الدول .

لم يقف الوجود العسكرى البريطانى حائلاً دون قيام اضطرابات فى أوساط العمال ضد شركات النفط . فضلاً عن أن اتجاه هذه الشركات إلى تعديل عقود امتيازاتها وتحسين أحوال العمال كان هو الضمان الحقيقى للاستقرار بدلاً من الوجود العسكرى الذى أثبت عدم فاعليته لأن وجودها فى عالمنا اليوم يعنى السيطرة على مقدرات الشعوب وهذا الوجود يؤدى إلى

الكراهية ولايمكن أن يحمى الاستثمارات النفطية بقدر ما يشكل خطراً عليها لكن هناك أساليب أخرى لاستنزاف الثروات الطبيعية بدأها الاستعمار الحديث وهو الولايات المتحدة ولهذا فان الانسحاب قد يحسن من وجه بريطانيا القبيح ولاننسى عدم قدرة الدول المنتجة للبترول على إدارة اعمالها البترولية واحتياجات تلك الدول لشركات أجنبية أكثر من اعتمادها على الحماية العسكرية . وإذا أرادت بريطانيا الاحتفاظ بقواتها لحماية مصالحها رغم إرادة الشعوب فان ذلك يعنى مزيداً من التوسع والإنشاء فى القواعد العسكرية وزيادة فى الأعباء المالية[١١] مما يعنى الازدياد فى المخاطر التى قد لاتكون فى الحسبان .

ثالثًا : تطور الاستراتيجية العسكرية :

التطور التكنولوجى العسكرى وتطور الأسلحة الاستراتيجية أدى إلى تغيرات فى السياسة العسكرية وثورة جديدة فى عالم الأسلحة المبتكرة الجديدة مما دعى إلى اعادة النظر فى إنشاء القواعد الثابتة والمنشآت العسكرية والاعتماد على الغواصات والأساطيل وخاصة حاملات الطائرات والمدمرات التى تحمل مختلف أنواع الأسلحة والقاذفات العملاقة وقوات التدخل السريع والصواريخ الذكية مما قلل الاعتماد على القواعد التقليدية والبرية فى المناطق الاستراتيجية جعل بريطانيا تعيد النظر فى سياستها العسكرية فى وجودها التقليدى الذى أصبح لامبرر له وإمكانية أمريكا القيام بهذه المهمات الجديدة عن طريق أساطيلها المنتشرة فى المحيط الهندى والبحر المتوسط وتقرر الانسحاب وتوكيل المهمة لأمريكا .

رابعًا : الدوافع السياسية :

أعلن وزير الخارجية البريطانية أمام مجلس العموم البريطانى فى ١٨ / ٧ / ١٩٦٨ أن العلاقات بين بريطانيا وإمارات شرق الجزيرة العربية هى أهم بكثير وأضمن من الوجود العسكرى الذى لن يكسبها شيء بل قد يضر بمصالحها مما يعنى أن سياسة بريطانيا الجديدة فى المنطقة هى تغير الأسلوب القديم بالانسحاب وإنهاء المعاهدات القديمة التى لم تعد مناسبة لروح العصر بالاتفاقيات الجديدة تحت مسمى جديد وهى معاهدات الصداقة التى تلائم روح العصر وتفى نفس الغرض القديم وتحافظ على المصالح الاحتكارية .

الانسحاب البريطانى وقضية ملء الفراغ والمخاوف :

أعقب إعلان الانسحاب ظهور توقعات كثيرة من الدوائر السياسية فى بريطانيا وأمريكا وحتى الدول المعنية فى المنطقة لهذا القرار البريطانى ونتائجه على الساحة الخليجية والدولية وهل يوجد فراغ ومن يملأ هذا الفراغ وغيرها من التوقعات والمخاوف التى سوف نتناولها :

أولاً : المحافظة على الأوضاع القائمة والتخوف من الأفكار الوطنية والقومية :

نتيجة للتخوف من الأفكار الناصرية القومية من جراء سياسية الانسحاب عمدت بريطانيا إلى المحافظة على أوضاع الأنظمة السائدة خوفًا من تكرار ما حدث فى اليمن الجنوبية والذى أدى إلى سقوط أنظمة السلاطين والأمراء والمشايخ وقيام جمهورية اليمن الديمقراطية ذات ميول وطنية وقومية معادية للغرب الرأسمالى .

اعتبرت مشكلة الفراغ الأمنى ناتجة من الانسحاب البريطانى والآثار التى قد تترتب عليه وكيفية سد هذا الفراغ . وقد أعربت الدوائر الأمريكية والبريطانية عن تخوفها من الأنظمة القومية والوطنية المعادية لها من التدخل إلى المنطقة لسد الفراغ وخاصة إذا ما شعرت روسيا بعدم الاهتمام من الجانب الغربى بالمنطقة فانها قد تساعد الأنظمة الحليفة لها لسد هذا الفراغ .

ثانيًا : التخوف من حدوث إضطرابات طائفية :

توقعت الدوائر الغربية حدوث إضطرابات وخلافات طائفية ومنازعات داخلية فيما بين الإمارات نفسها أو قيام مشاكل إقليمية أو صراعات قبلية أو نزاعات على الحدود والتى قد تنتج من تغيرات سياسية فى المنطقة بعد الانسحاب البريطانى الذى كان قد خلق نوعًا من الاستقرار . ونقول لهؤلاء الغربيين النسبة للنزاعات الطائفية لايمكن أن تقوم لأبسط الأسباب وهو أن الأقلية الطائفية الإيرانية ليست معرضة للاضطهاد وإنما تتمتع بامتيازات قد لاتتمتع بها الأغلبية من السكان العرب أنفسهم إلا إذا كانت هناك دولة خارجية مجاورة تحركهم كايران مثلاً والتى ليس فى صالحها أن تحرك هذه المنازعات الطائفية فى الوقت الراهن .

ثالثًا : التدخل العسكرى :

أراد معظم رجال السياسة الأمريكية إقامة وجود عسكرى أمريكى لحماية المصالح الرأسمالية ولكنهم واجهوا عدة عقبات منها تورطهم فى حرب فيتنام وأن التواجد الأمريكى

فى الخليج العربى ستعتبره الدول العربية دليلاً على استعمارها الجديد للمنطقة وتدخلاً فى شؤونها كما لقى معارضة الكونغرس ولذلك كان الأسلوب الحذر هو رفض التدخل فى تلك الظروف وإيجاد البديل والذى كان جاهزاً وهو إيران .

لم يكن من المستبعد حدوث التدخل الأمريكى - البريطانى المشترك إذا ما تعرضت مصالحهم للخطر وإذا ما حاولت دول المنطقة إيجاد وحدة أو دمج فيما بينها مما قد تشكل خطراً على مصالحها الحيوية وتفرض سيطرتها على الانتاج البترولى وهذا مالا يريده الغرب وقد دعى بعض الأمريكيين إلى ضرورة التدخل العسكرى من قبل الحكومات المستهلكة للبترول وهذا يعني أن الانسحاب البريطانى قد يعقبه العودة إليها ثانية ولكن ليس من جانب بريطانيا وحدها ، وإنما كذلك من الدول الرأسمالية المستهلكة للبترول وفى مقدمتها الولايات المتحدة إذا ما تعرضت استثماراتهم البترولية للخطر فى الخليج العربى وهذا ما حدث عندما احتلت العراق الكويت حيث المصالح البترولية الأمريكية - البريطانية المشتركة فى نفط الكويت .

رابعًا : إيجاد صيغة مشتركة بين العرب وإيران :

تحركت بريطانيا لإيجاد صيغة مشتركة بين دول المنطقة للتعايش والاستقرار وقيام دور مشترك وفى الوقت نفسه حاولت الحكومة الإيرانية القيام بفرض نفوذها على المنطقة بالقوة وحاولت بريطانيا إقامة منظمة دفاع مشترك بين كل من إيران والسعودية والكويت لسد الفراغ وللدفاع عن أمن الخليج العربى إلا أنها لم تنجح . فقد أعلنت إيران عن عدم تخوفها من الانسحاب البريطانى وقدرتها وحدها على سد الفراغ وحفظ الأمن فى المنطقة أما الكويت فقد أعلنت مقاومة أى حلف مقترح فى المنطقة وهذا ما أدى إلى تراجع بريطانيا عن خططها لاقامة الاحلاف وصرح المبعوث البريطانى جورنوى روبرتس وزير الدولة للشؤون الخارجية والذى كلف بهذه المهمة بأنه لم يقترح حلفًا مشتركًا بين العرب وإيران .

خامسًا : عدم قدرة الدويلات الصغيرة على حفظ الأمن وإيجاد الحارس البديل :

(أ) افتقار بعض الامارات إلى مقومات الدولة :

توجد مشكلة قد تكون خطيرة ومهمة وهى أن بعض إمارات الخليج العربى كانت تفتقر إلى أهم مقومات الدولة منها الطاقة البشرية والكثافة السكانية وهى عنصر هام فى القوة

والاستقرار وهذا ينطبق على العديد من إمارات الخليج العربى التى لديها المال الهائل والنقص الشديد فى السكان وهذه الإمارات تحتاج دون شك إلى كثافة سكانية معقولة وهى إما أن تكون من أبناء الشعب العربى فتحفظ كيانها وكيان المنطقة وإما أن تكون عناصر أجنبية تزيد من الآلام ومن المتاعب ومن كوارث الأمة العربية .

(ب) الحارس البديل :

ونظراً لافتقار بعض الامارات لمقومات الدولة ولعدم قدرتها على حفظ الأمن فلابد من أن تتجه أنظار السياسة الأمريكية إلى الدول الكبرى فى المنطقة وهى إيران والعراق والسعودية واليمن ونظراً لعدم تقبل الغرب للعراق واليمن فقد تم استبعاد هاتين الدولتين . وعلى هذا الضوء فان الولايات المتحدة قررت إيجاد الحارس البديل للمحافظة على مصالح الدول الرأسمالية إلى كل من إيران والسعودية .

نتائج الانسحاب البريطانى :

شرعت الحكومة البريطانية قبل انسحابها فى تدعيم مركزها لما بعد الانسحاب كما عملت مع امارات شرق الجزيرة العربية الاجراءات اللازمة لعملية الانسحاب وترتيب الأمور الأساسية لها .

أولاً : اتفاقية الصداقة :

من أجل المحافظة على المصالح البريطانية فى امارات شرق الجزيرة العربية قبل إنسحابها أعلن المستر هيث زعيم المحافظين ورئيس الوزراء البريطانى عن سياسته بقوله «إن حكومة العمال مهدت للانسحاب من الخليج العربى باقامة علاقات متينة مع حكام الامارات لتعوض سياسيًا ما سوف تخسره عسكريًا» ، وقبل مغادرة بريطانيا إمارات شرق الجزيرة العربية قامت بتوقيع اتفاقيات الصداقة مع كل من البحرين وقطر والامارات العربية المتحدة «ساحل عمان» .

ثانيًا : موقف حزب المحافظين :

عندما جرت الانتخابات فى بريطانيا فاز المحافظون على خصومهم حزب العمال الذين أصدروا قرار الانسحاب من شرق السويس وكان لديهم رأى مخالف تمامًا عن الانسحاب

وكانوا يريدون الحفاظ على المصالح البريطانيا . وقد اتهم المحافظون حزب العمال بأنهم قرروا الانسحاب دون أن يمهدوا له باقامة علاقات قوية مع شيوخ وحكام المنطقة حتى يمكن تعويض ما قد تخسره بريطانيا من جراء الانسحاب سياسيًا وعسكريًا . وهذه القرارات التى اتخذتها الحكومة العمالية السابقة خلقت موقفًا جديداً وصعبًا لأنها أثارت على السطح توتراً كان ساكنًا حتى ذلك الحين ودفعت عدداً من البلدان التى كانت تقبل فى السابق الوجود البريطانى فى المنطقة إلى أن تعلن معارضتها لاستمرار هذا الوجود .

لم تكن حكومة المحافظين تستطيع التراجع عن قرار الانسحاب الذى اتخذته حكومة العمال السابقة ولكن المحافظين استطاعوا الحصول على مكاسب عديدة بسبب موقفهم وخاصة الروابط السياسية والعسكرية مع إمارات المنطقة .

ثالثًا : دور إيران كشرطى لحفظ المصالح الغربية فى المنطقة :

فكرت الإدارة الأمريكية فى أمر توكيل إسرائيل ولكن تخوفها من تكتل العرب وقيام خط معادى لها قد يدفعهم إلى الارتماء عند السوفييت كما فكرت فى توكيل فرنسا أو الهند ولكن البعد الجغرافى أبعدهما ولذا قررت الولايات المتحدة أن يكون التوكيل من دول الخليج العربى نفسها . وكانت المباحثات السرية التى جرت بين الولايات المتحدة وإيران وبريطانيا خلال السنوات الثلاثة الماضية قد أسفرت عن حل لمشكلة الفراغ الناتج عن الانسحاب البريطانى من المنطقة وقد وافق الشاه محمد رضا خان على استقلال البحرين مقابل قيام إيران باحتلال الجزر العربية كما أن الولايات المتحدة فى النهاية قررت توكيل مهمة حفظ المصالح الغربية الرأسمالية إلى إيران بعدما كانت تريد توزيع الأدوار على كل من السعودية وإيران .

نظراً لأن إيران كانت مهيأة أكثر من السعودية من جميع الجوانب والمقاييس الاستعمارية إضافة إلى علاقاتها القوية مع الكيان الصهيونى وخاصة جهاز «السافاك» و «الموساد» وكذلك التحالف الأمريكى - الإيرانى فان اختيار الرئيس الأمريكى نيكسون وقع على إيران لمبدأه الذى يقول بأن يتولى أصدقاء الولايات المتحدة مسؤولية الدفاع عن أنفسهم وأن إيران قادرة على توفير هذه الحماية لجميع إمارات الخليج العربى بما فيها السعودية كنفس الحماية التى كانت توفرها الولايات المتحدة فى مناطق أخرى فى العالم . وقد عرض الشاه محمد رضا خان أن يدفع الفاتورة على الفور من الحساب بنفسه وأن يعرض خدماته كحارس أمريكى للدفاع عن المنطقة .

رابعًا : الولايات المتحدة والانسحاب البريطانى :

اتسم الموقف الأمريكى بمراعاة التطورات الحادثة فى الخليج العربى إلى جانب مراعاة الاستثمارات البترولية وخاصة شركاتها والاستمرار فى سياسة التخويف من الخطر الشيوعى لتبعد المنطقة عن الأفكار القومية والوحدوية . ولم يكن بوسع الأمريكيين أن يلجأوا إلى نفس الأسلوب الاستعمارى القديم الذى صار مكروهًا من المواطنين العرب . ولذلك نجدها تلجأ إلى أساليب من شأنها تدعيم الاستثمارات الاحتكارية فى مجالات النفط وتأييد الدول الكبيرة فى الخليج العربى مثل إيران والسعودية إلى جانب التواجد العسكرى الأمريكى فى المياه القريبة من المنطقة . وهذا الأسلوب غير المباشر لجأت إليه الولايات المتحدة تحاشيًا للاصطدام بالتيار القومى الوحدوى الذى يقوى يومًا بعد يوم وتعاطفت أمريكا مع الجهود التى بذلها السلطان قابوس بن سعيد للقضاء على الحركة الثورية لجبهة تحرير الخليج العربى فى ظفار ووصفت هذه الحركة بأنها معادية للاستعمار وأرسلت قواتها المسلحة لاخماد هذه الحركة الثورية ولكنها فشلت فى ذلك لأن الثوار فى ظفار استخدموا الجبال وشنوا حرب العصابات استطاعت كل من الكويت والامارات العربية المتحدة واليمن الديمقراطية بذل الجهود فى إنهاء هذه المشكلة إضافة إلى سياسة قابوس السليمة فى كسبهم وتعمير منطقة ظفار .

انتهزت الولايات المتحدة فرصة الادعاءات الإيرانية فى البحرين فتوصلت إلى اتفاقية مع البحرين تمكن الأسطول الأمريكى من الاحتفاظ بقاعدة « الجفير» التى كانت أصلاً قاعدة بريطانية . وبررت الولايات المتحدة أهمية الاحتفاظ بهذه القاعدة أنها تساعد فى سد فراغ تركه الوجود البريطانى العسكرى فضلاً عن أنها تكون عاملاً للاستقرار ، وعندما حصلت إمارات شرق الجزيرة العربية على استقلالها بعد الانسحاب البريطانى صارت هناك عدة كيانات جديدة فى المنطقة هى البحرين، قطر ، دولة الامارات العربية المتحدة «ساحل عمان سابقًا» ، سلطنة عمان ، فانها مع هذا التعدد ترتبط مع بعضها البعض ومع الكويت والسعودية بعدة روابط منها (١٢):

١- جميع هذه الكيانات منتجة للنفط بل وتمتلك جميعًا أكبر احتياطى بترولى عالمى .

٢- جميع سكان هذه الأقطار مسلمون سنّة وينتمون إلى قبائل الجزيرة العربية بقسميها العدنانى الحجازى والقحطانى اليمنى أى قبائل الشمال والجنوب .

٣-أنظمة الحياة الاجتماعية فيها محافظة والأنظمة السياسية مطلقة عدا الكويت .

٤- لايزال اقتصاد هذه الكيانات اقتصاداً نامياً رغم وجود بعض الصناعات .

٥- احتياجها للخبرات الفنية العربية والأجنبية حاضراً ومستقلاً لفترة طويلة .

٦- لاتزال هذه الكيانات تعتمد على قوى خارجية للحفاظ على أمنها .

٧- انشغال معظم هذه الكيانات بنزاعات حدودية وإقليمية فيما بينها .

٨- ما تزال هذه الكيانات عرضة للتأثير بسياسات الدول الكبرى .

أصبح على الولايات المتحدة أن تتعامل مع هذه الظروف لتلك الكيانات ووضع سياسة بما تخدم المصالح المتنامية للرأسمالية الأمريكية والمصالح الاستراتيجية . وكانت السياسة الأمريكية متفقة مع السياسة البريطانية تجاه المنطقة ويمكن أن نحدد بعض هذه الأسس(١٣):

١- حماية استقلال الكيانات السياسية العربية التى ظهرت حديثًا .

٢- الحفاظ على حرية الوصول إلى نفط الخليج من الدول الغربية .

٣- الاستقرار السياسى المستند على أيديولوجية النظم المحافظة فى الخليج العربى يعتبر ضروريًا لاستمرار تدفق النفط وابعادها عن الأفكار القومية الوحدوية .

٤- عدم الترحيب بأية حركة متطرفة ثورية سواء جاءت من الداخل أو الخارج .

٥- تأييد إيران والسعودية دبلوماسيًا وعسكريًا لضمان الاستقرار فى المنطقة .

أدركت الولايات المتحدة منذ إعلان الانسحاب بأن تكون سياستها حذرة ما أمكن وذلك عن طريق التدخل الغير مباشر وترك شعوبه تحقق مستوياتها المعيشية بنفسها غير مقيدة ولو قليلاً بأجهزة السيطرة الاستعمارية القديمة ، ومحاولة إصلاح أنظمة الحكم فى المنطقة ما أمكن إذا لم تتعرض لثورة .

خامسًا : الاتحاد السوفييتى والانسحاب البريطانى :

سوف نورد ما جاء فى إذاعة الاتحاد السوفييتى والأجهزة الاعلامية التى تمثل اللسان الناطق الرسمى للحكومة السوفيتية فى يوم ٣ / ٣ / ١٩٦٨ وبيانًا نشرته وكالة تاس جاء فيه :

١- معارضة التدخل الأمريكى والاستمرار البريطانى فى صورة جديدة .

٢- ملاحظة أن المخطط الاستعمارى الأمريكى البريطانى الجديد موجه ضد أمن الحدود الجنوبية للاتحاد السوفييتى وكانت هذه أول مرة يتحدث فيها عن منطقة الخليج العربى بوصفها حدوداً جنوبية له .

٣- بيان أن هذا المخطط يستهدف إنشاء دفاع مشترك يضم إمارات الخليج العربى ويضعف وحدة العرب ويجعل إيران فى مواجهتهم ويصرف الانتباه عن تصفية آثار العدوان «الإسرائيلى» .

أضافت «ازفستيا» السوفيتية فى يوم ٢٠ / ٣ / ١٩٦٨ أن الاحتكارات البترولية الغربية ضالعة فى هذا المخطط وفصلت ذلك فى مقال مطول يوم ١ / ٤ / ١٩٦٨ أشارت فيه إلى مبدأ واشنطن ولندن بأن من يملك البترول يملك العالم وأن ٦٧٪ من بترول الغرب يوجد فى الخليج والجزيرة العربية وأن تلك الدول الضعيفة لن تكون وحدها قادرة على الصمود ما لم تدعمها دول غربية (١٤).

الاحتلال الإيرانى للجزر العربية :

قامت إيران باحتلال الجزر العربية الثلاثة طنب الكبرى والصغرى وأبو موسى فى نوفمبر ١٩٧١ التابعة لرأس الخيمة والشارقة . وكلتا الاماراتين عضو فى اتحاد الامارات العربية المتحدة . وقد احتج العالم العربى بشدة على الاحتلال الإيرانى فقد قطعت العراق علاقاتها الدبلوماسية مع كل من بريطانيا وإيران ودعت إلى عقد مجلس الأمن الدولى للبت فى هذه المسألة كما عقدت جامعة الدول العربية عدة اجتماعات خصصت لمناقشتها ، وقامت ليبيا التى كانت تعتزم ارسال قوات مسلحة إلى الخيج العربى بتأميم حصتها فى شركة «بريتيش بتروليوم» البريطانية وسحبت أرصدتها من البنوك البريطانية رداً على عدم منع بريطانيا الاحتلال الإيرانى . غير أن كل هذه الإجراءات لم تفلح حتى الآن فى زعادة الجزر الثلاث العربية.

يرتبط تاريخ الجزر العربية بالقواسم الذين حكموا المناطق الشمالية فى ساحل عمان والأجزاء الشرقية من ساحل الخليج العربى وأقاموا إمارة لنجة فى جنوب إيران منذ القرن الثامن عشر حتى قامت إيران باحتلالها عام ١٨٨٧ . وعندما حاول قواسم ساحل عمان

إرسال مساعدات إلى لنجة فان الأسطول البريطاني وقف أمام سواحل رأس الخيمة والشارقة ومنعهم من ذلك وهدد بقصف مدنهم إذا ما حاولوا استعادة إمارة لنجة من الاحتلال الإيراني مما يعني تواطؤ بريطانيا مع إيران .

لم تكتف إيران باحتلال إمارة لنجة التابعة للقواسم وتواطؤ بريطانيا الذى دفعها إلى المزيد من التوسع فى احتلال الأجزاء العربية وبدأت تتطلع لاحتلال الجزر فبدأت بجزيرتى صرى وهنجام مستغلة فرصة سقوط القواسم تحت الاحتلال البريطانى واستيلاء البريطانيين على أسطولهم الحربى . وفى نفس العام أى ١٨٨٧ قامت باحتلال جزيرة صرى ورفعت العلم الايرانى فوقها. ورغم أن الحكومة البريطانية عارضت احتلال إيران لهذه الجزيرة إلا أنها قررت الاذعان للأمر الواقع بصمت وذلك بالرغم من أن القواسم لم يتخلوا قط عن المطالبة بحقهم فى جزيرة صرى . وفى عام ١٩٠٤ انزل موظفو الجمارك الإيرانيين الأعلام العربية بالقوة فى جزر أبو موسى والطنب ورفعوا العلم الإيرانى بدلاً منها ووضعوا قوة حراسة فى هذه الجزر إلا أن بريطانيا أرسلت سفن أسطولها الحربى وأنزلت العلم الإيرانى وطلبت من قوة الحراسة الانسحاب من الجزيرة . وبذلك رجعت الجزر الثلاث إلى السيادة العربية وفى عام ١٩١٣ أكدت بريطانيا مجدداً دعمها لحق القواسم على هذه الجزر وذلك عندما بنت حكومة الهند منارة لارشاد السفن فى جزيرة الطنب .

استولت إيران على كمية من الأكسيد الأحمر فى عام ١٩٢٥ من جزيرة أبو موسى التى تحتوى على مخزون كبير من الأكسيد الأحمر . وبعد صدور تحذيرات من الوزير البريطانى فى طهران تراجعت الحكومة الإيرانية وأمرت موظفى الجمارك لديها بعدم التدخل فى شؤون جزيرة أبوموسى . فالحكومة الإيرانية كانت تتصرف بشكل ينسجم مع سياستها التوسعية الرامية إلى احتلال أكبر قدر من الأجزاء والأقاليم فى الخليج العربى أما العرب فقد كانوا عاجزين عن المقاومة ليس بسبب عدم توفر قوة عسكرية لديهم ، بل بسبب ارتباطهم مع بريطانيا بمعاهدات تمنعهم من استخدام القوة مع الآخرين وتفويض بريطانيا بالدفاع عن سيادة ساحل عمان ولهذا كان على العرب أن يعتمدوا على دعم بريطانيا وموافقتها لهم فى شن أى هجوم على أية قوة تهاجمهم .

طردت إيران فى شهر مايو ١٩٢٨ شيخ هنجام . وهى جزيرة تقع مقابل الشاطيء الجنوبى لقشم وجميع عرب من قبيلة بنى ياس وكانوا يقومون بصيد اللؤلؤ وقد استقر بنو ياس جزيرة

هنجام فى أوائل القرن التاسع عشر عام ١٨٢٦ باذن من سلطان عمان الذى كان يحكم جزيرة هنجام وقشم وبندر عباس . وطالبت ايران بالسيادة على هنجام بانشاء مكتب جمركى ومكتب للبريد فيها وبذلك تحولت العلاقات بين سكان الجزيرة من بنى ياس وبين الايرانيين من سىء إلى أسوأ. وفى عام ١٩٢٧ اشتكى شيخ هنجام من أن وضع موظفى جمارك إيرانيين فى الجزيرة كان تعديًا على حقوقه . وكان أحمد بن عبيد بن جمعة شيخ هنجام هو والد زوجة حاكم دبى الشيخ سعيد بن مكتوم وكان مواطنوه على صلات حميمة مع ساحل عمان وخاصة دبى وأبوظبى كما كانت تربطه به روابط وثيقة . وقد وصل سخط الشيخ أحمد على الحكومة البريطانية إلى ذروته فى شهر ابريل ١٩٢٧ عندما احتجز موظفو الجمارك الإيرانيون مركبًا شراعيًا يخصه مما أغضب الشيخ أحمد فهاجم مكتب الجمارك الإيرانى فى الجزيرة وأثناء القتال الذى دار بينهم قتل مدير مكتب الجمارك الإيرانى .

أرسلت إيران قوة عسكرية فى مايو ١٩٢٨ وطردت الشيخ أحمد من جزيرة هنجام إلى ساحل عمان حيث تعاطف معه عرب المنطقة وزاد سخطهم ضد الإيرانيين وتطلع السكان إلى بريطانيا آملين بالحصول على دعم منها ، وقد أوصى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بتقديم نوع من المساعدة محاولاً أن يبرهن بأن العلاقات البريطانية مع ساحل عمان ستتدهور إذا اتخذت حكومته موقفًا حياديًا . لكن كلاً من وزارة الخارجية فى لندن وحكومة الهند كانتا تعارضان أى تدخل مباشر لصالح الشيخ أحمد وقررتا أن ممارسة الضغط السياسى على إيران هو الحل الوحيد . وقد كان ذلك مفيداً ففى شهر سبتمبر ١٩٢٨ قام مبعوث إيرانى من هنجام بدعوة الشيخ أحمد وأتباعه فى ساحل عمان للعودة إلى الجزيرة وقبل الشيخ أحمد هذا العرض(١٥) ولكن الاحتلال الإيرانى استمر لجزيرة هنجام إلى يومنا هذا .

قام زورق لمكتب الجمارك الإيرانى فى يوليو ١٩٢٨ باحتجاز مركب «جالبوت» فى جزيرة طنب يقل ركابًا بينهم نساء وأطفال وهو تابع من دبى كان متجهًا إلى خصب وأجبر المركب على مرافقة الزورق الإيرانى إلى لنجة حيث سلبت الحلى من النساء وصودرت نقود الركاب وما لديهم من أمتعة ، وتحول الشعور بالسخط الشديد فى ساحل عمان إلى إرسال قوة بحرية لاطلاق سراح النساء والرد على القرصنة الايرانية . ولكن بريطانيا منعت من اجراءات انتقامية ضد إيران وفى النهاية أفلح الضغط البريطانى على إيران وأطلق سراح المركب

والمسافرين بعد أن تمت مصادرة أموالهم والبضائع هذا مع العلم بأن ممثل القواسم فى جزيرة طنب محمود سلمان كان من بين المسافرين الذين احتجزوا ، وقد مات بعد إطلاق سراحه مباشرة من شدة تعذيب رجال الشرطة الإيرانيين مما دعى قائد الأسطول البريطانى أن يرسل تقريراً عن هياج الأهالى فى ساحل عمان وبخاصة فى دبى حيث كان الحاكم يتعرض لضغط شديد . وبالكاد استطاع أن يهدىء من ثورة غضب مواطنيه الذين اعتبروه مسؤلاً عن النقص الواضح فى دعم بريطانيا لموقفهم . وقد علق وزير الهند قائلاً إن هذه الحادثة لابد أن تجعل حتى وزارة الخارجية فى لندن تحمر خجلاً ، وفى النهاية تم التوصل إلى حل وسط فكل من حكومة الهند والحكومة البريطانية فى لندن قررتا أن تساهما بمبلغ خمسة آلاف روبية كتعويض للعرب المتضررين من الحادثة على أمل أن يكون لهذا الإجراء تأثير فى تهدئة خواطر العرب (١٦).

فشل بريطانيا فى حل مشكلة المتنازع عليها بأية طريقة عسكرية أو دبلوماسية أو بالإثنتين معًا كان مؤشر سلبى للسياسة البريطانية تجاه عرب المنطقة إذ أن ضعف امرات الخليج العربى جعلها غير ذات أهمية فى مفهوم سياسة القوة كما أنه لم تكن هناك بعد أية دلائل تشير إلى وجود مصالح . ولو أن بريطانيا اهتمت بالأمر بما فيه الكفاية للجأت إلى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بتأكيد ملكية العرب بشكل نهائى للجزر المتنازع عليها وهذه النقطة الأساسية بالنسبة لهذه المسألة ويمكننا هنا ذكر مثالين واضحين على جهود السلطات البريطانية التى كانت تبذلها لدعم مطالب حكام إمارات الخليج العربى فى السيادة الاقليمية عندما كانت هذه المطالب تخدم المصالح البريطانية فى المنطقة المثال الأول هو مسألة البحرين والثانى الخلاف على الحدود بين السعودية وكل من أبوظبى وسلطنة عمان فيما يعرف بأزمة «البريمى» ، أما بالنسبة لمسألة جزر طنب وأبو موسى فلم تكن لبريطانيا فيهما مصالح. ولذلك نرى بأن بريطانيا لم تتخذ أية تدابير لحل مشكلة هذه الجزر عندما أعلنت فى يناير ١٩٦٨ بأنها ستسحب قواتها نهائيًا من الخليج العربى بنهاية عام ١٩٧١ . ولم يكن من المأمول اكتشاف النفط فى أى من رأس الخيمة أو الشارقة ولذلك لم يحسب لهما حساب فى أثناء المفاوضات التى جرت بعد إعلان الانسحاب المرتقب . وكان حاكم الشارقة الشيخ خالد بن محمد القاسمى قد توصل فى آخر لحظة إلى اتفاقية مع الحكومة الايرانية يقبل بموجبها إنشاء نقطة عسكرية إيرانية فى جزيرة أبوموسى مقابل تلقيه مبلغ ثلاثة ملايين دولار سنويًا ولفترة تزيد على تسع سنوات ، كما نصت الإتفاقية على أن تتقاسم الدولتان بالتساوى أية عائدات نفطية فى حالة اكتشاف النفط فى الجزيرة مستقبلاً .

رفض الشيخ صقر بن محمد القاسمى أن يوقع اتفاقية مماثلة مع إيران وقد جاء الاحتلال الإيرانى لجزيرتى طنب عنيفًا ومفاجئًا إذ حدث قبل يوم واحد من الانسحاب البريطانى وانتهاء مدة كل المعاهدات والاتفاقيات السابقة . ولهذا فان بريطانيا كانت ملزمة قانونيًا بحماية رأس الخيمة من هذا الهجوم البحرى الإيرانى ، فقد كانت بريطانيا تدرك أنه لولا وجود اتفاقياتها التى فرقت بين إمارات ساحل عمان منذ القرن التاسع عشر وحولتها إلى جيوب صغيرة للمستعمرات البريطانية لوجدت هذه الامارات متسعًا من الوقت للاتحاد فيما بينها أو عادت إلى عمان الأم بحيث تشكل وحدة لها حجمها كما كان الحال فى عهد دولة اليعاربة القوية . فقد تركت بريطانيا هذه المشيخات متفرقة وعرضة للخطر فى وجه أعدائها الكبار والأقوياء نسبيًا . وعلى نفس الدرجة من الأهمية لم تفعل بريطانيا شيئًا منذ أن بدأت إيران احتلال لنجة وجزيرتى صرى وهنجام ومن ثم أخيراً طنب الكبرى والصغرى وأبوموسى . وليس من المهم إذا كانت بريطانيا تعرف مسبقًا بأمر الاحتلال الإيرانى أم لا وإذا كانت قدتواطأت أو لم تتواطأ مع إيران لقد كان أمام بريطانيا أربعون عامًا لحل هذه المسألة منها خمسة وعشرون عامًا على الأقل كانت تستطيع خلالها أن تفرض السلام بالمفهوم البريطانى على هذه الجزر دون أن تلقى مقاومة تذكر وكونها لم تفعل ذلك يؤيد الرأى القائل «بأن خطيئة اللامبالاة بالجريمة تفوق خطيئة إرتكابها » (١٧).

خذل الموقف البريطانى الشعب العربى عامة وحكام الإمارات العربية رغم الاتفاقيات المعقودة بين أولئك الحكام وبريطانيا ومسؤولية بريطانية فى حماية هذه الجزر فقد نصت تلك الاتفاقيات على أن بريطانيا مسؤولة عن الشؤون الدفاعية والخارجية للمنطقة ولايتم الاتصال أو التفاوض مباشرة مع القوى الخارجية بدون موافقة بريطانيا فأين هى من تلك الالتزامات ؟

الهوامش

١- د. محمد الدؤاد - المرجع السابق ص٢٢٢ .

٢- د. محمد الدؤاد - نفس المرجع ص٢٢٦ .

٣- د. محمد الدؤاد - نفس المرجع ص٢٢٧ .

٤- د. اسماعيل صبرى مقلد - أمن الخليج وتحديات الصراع الدولى ص٣٣ .

٥- د. سيد نوفل - المرجع السابق .

٦- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص٣٩٣ .

٧- محمد عدنان مراد - نفس المرجع

٨- محمد عدنان مراد - نفس المرجع ص٣٩٥ .

٩- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٣٩٨ .

١٠- محمد عدنان مراد - المرجع السابق ص٣٩٨ .

١١- أمل الزياتى - البحرين من سنة ١٧٨٣ إلى ١٩٧١ ص١٣٧ .

١٢- د. رأفت غنيمى الشيخ - العلاقات العربية - الأمريكية فى التاريخ الحديث والمعاصر . ص١٢٠

١٣- د. رأفت غنيمى الشخ - المرجع السابق ص١٢٥ .

١٤- سيد نوفل - المرجع السابق ص٢٥ .

١٥- د. روزمارى سعيد - النزاع حول الجزر العربية فى الخليج العربى ص١٧ .

١٦- د. روزمارى سعيد -نفس المرجع ص١٩ .

١٧- روزمارى سعيد - نفس المرجع ص٢٨ .

الفصل التاسع

الخليج العربى من الإنسحاب البريطانى حتى قيام مجلس التعاون

أمن الخليج العربى .

- الولايات المتحدة وأمن الخليج العربى .
- الاتحاد السوفييتى وأمن الخليج العربى .
- إيران والعرب وأمن الخليج العربى.

التغيرات الأمنية والسياسية فى الخليج العربى ١٩٧٩ - ١٩٩٠ .

- السوفييت وجمهورية إيران الاسلامية .
- الحرب العراقية - الإيرانية .
- قيام مجلس التعاون الخليجى .

أمن الخليج العربى

يعتبر أمن الخليج العربى ذا أهمية فائقة فى الاستراتيجية الدولية وخاصة لدى الولايات المتحدة الأمريكية وذلك لما تتمتع به هذه المنطقة من قيمة استراتيجية وجيوبوليتيكية واقتصادية متميزة وبالصورة التى تجعلها ركيزة رئيسية من ركائز التوازن العالمى . وكان الاتحاد السوفيتى قبل سقوطه يتاخم الخليج العربى ولذا كان أكثر حساسية للتأثيرات المباشرة والغير مباشرة التى تعكس مجريات الأحداث فى الخليج العربى ولهذا طلب بتحديده وعزله عن صراعات القوى الدولية الخارجية . ولم يكن يعنى هذا كهدف لذاته وإنما يستخدمه لتدمير مصالح الولايات المتحدة الأمريكية ويفصم عرى التحالف مع دولها وبالتالى إزالة تهديدات القوة الغربية من على مقربة من حدوده الجنوبية أو على الأقل تقطيعها واحتوائها ، وتعتبر الولايات المتحدة وأوروبا واليابان نفط الخليج العربى من المصالح الاستراتيجية التى لاتحتمل المساومة بين الشرق والغرب وكانت ردودها متفاوتة بين الحياد واتقاء مخاطر الانقياد وبين التحالف والانحياز بصورة مباشرة أو غير مباشرة وقد ساعد على ذلك بعض المتغيرات التى حدثت فى المنطقة منذ أواخر السبعينات .

الولايات المتحدة وأمن الخليج العربى :

عملت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الانسحاب البريطانى على وضع الخليج العربى تحت سيطرتها وحدها وأخذ الاستراتيجيون الأمريكان يعكفون على وضع الخطط السياسية والعسكرية ومعالجة قضايا أمن الخليج العربى مباشرة وربطت الاستراتيجية الأمريكية بين أمن الخليج العربى والمحيط الهندى ومصالحها . وقد أسست قاعدة دياغو غارسيا لتكون مركزاً لقوات جوية ضاربة(١) بالاضافة إلى احتفاظها بأسطول ضخم فى المحيط الهندى وهو الأسطول السابع . وبهذا كان من الطبيعى أن تتقدم الولايات المتحدة الأمريكية لتحاول أن تملأ الفراغ الذى سينشأ عن هذا الانسحاب .

استقر رأى الإدارة الأمريكية على عدم الحلول كبديل مباشر لبريطانيا وارتكز هذا التوجه الاستراتيجى الجديد على بضعة مبادىء رئيسية تمثلت فيما يلى :

أولاً : الامتناع عن التدخل فى الشئون الداخلية للدول فى الخليج العربى للتخفيف من الحساسية ضد الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب الفيتنامية .

ثانيًا : تشجيع مشاريع ومحاولات التعاون الاقليمى .

ثالثًا : تقديم الدعم اللازم للدول الصديقة فى المنطقة لتعزيز مجهوداتها فى محاولات الأمن والتنمية .

رابعًا: تشجيع الجهود المبذولة للتخفيف من حدة المواجهات الدولية تمشيًا مع الإعلان الأمريكى - السوفييتى الصادر عن قمة موسكو فى مايو ١٩٧٢ .

خامسًا : تشجيع علاقات التبادل الاقتصادى والتجارى والتكنولوجى بين هذه المنطقة والدول الأخرى .

وسعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تنمية التجارة مع دول الخليج وقد بلغ حجم التجارة مع هذه الدول عام ١٩٧٢ حوالى ١,٢ بليون دولار ذهبت نصفها إلى إيران ولايشمل هذا الرقم حجم مبيعات الأسلحة الأمريكية أو عوائد الإيرادات النفطية للشركات الأمريكية العاملة فى الخليج العربى . ودعت الإدارة الأمريكية الشركات الصناعية الكبرى للقيام بنشاطاتها فى المنطقة وطلبت من ممثلياتها الدبلوماسية العمل على إقناع حكومات الخليج العربى بأفضلية البضائع والتكنولوجيا الأمريكية وترغيبهم فى الدخول فى مشاريع مشتركة وعمل استثمارات فى الولايات المتحدة وذلك بهدف امتصاص قسم كبير من عوائد النفط التى تحصل عليها دول المنطقة ، وقد اتبعت الحكومة الأمريكية دبلوماسية معينة فى معالجتها للجوانب السياسية لعلاقاتها مع الأقطار العربية فى المنطقة فأكدت ضرورة فصل النفط عن السياسة وعدم ربط القضايا السياسية بما فى ذلك القضية الفلسطينية [٢] بموضوع احتكارات النفط الرأسمالية واستمرار تدفق النفط إلى الغرب ونجحت الإدارة الأمريكية فيها إلى حد كبير ولهذا لم يؤثر قرار قطع النفط العربى عن الغرب . عام ١٩٧٣ نتيجة لحرب اكتوبر لأنها كانت اسمية أكثر منها فعلية أو عملية .

اتضحت السياسة الأمريكية بصورة أكثر بعد عامين من استقلال أقطار شرق الجزيرة العربية حيث جاء على لسان جوزف سيسكو وزير الدولة للشون الخارجية الأمريكية أمام لجنة الشؤون الخارجية فى الكونجرس الأمريكى فى صيف عام ١٩٧٣ أثناء مناقشة شؤون جنوب شرق آسيا والشرق الأدنى ما يلى [٤]:

١- مساندة الجهود المحلية الاقليمية المشتركة لتحقيق الاستقرار وتشجيع التطوير التدريجى دون تدخل خارجى .

٢- الحل السلمى للمنازعات الاقليمية وفتح مجالات أفضل للاتصال بين هذه الاقطار .

٣- استمرار الوصول إلى مصادر البترول فى الخليج العربى وبأسعار معقولة وبكميات كافية .

٤- توسيع مصالح الولايات المتحدة الأمريكية التجارية والمالية فى المنطقة .

وأضيفت إلى هذه الأسس بنود أخرى جاءت على لسان نائب مساعد وزير الدفاع الأمريكى وكانت :

(أ) ضبط القوة العسكرية السوفيتية داخل حدودها الحالية .

(ب) الحفاظ على منفذ للوصول إلى بترول الخليج العربى .

(جـ) استمرار تحرك سفن وطائرات الولايات المتحدة بحرية داخل وخارج المنطقة .

تزايد اقتناع الولايات المتحدة الأمريكية بأن مبدأ نيكسون يمكن أن يجد فى الاستعداد الإيرانى امكانية مناسبة لتطبيقه فى الخليج العربى وأن الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة كانت بمثابة التطبيق المباشر لأفكار «مبدأ نيكسون» والتى قامت على محاولة توزيع الأدوار بين إيران والسعودية بحيث تؤهل إيران للدور العسكرى الرادع ، أما السعودية فتؤهل لممارسة النفوذ السياسى بالأساس داخل الشرق الأوسط وشمال أفريقيا . كما لجأت الولايات المتحدة إلى تدعيم أسطولها فى المحيط الهندى والاعتماد على القوى الاقليمية لتحقيق أمن الخليج العربى ، وفى هذا الاطار كانت السعودية إلى جانب إيران هى سند الاستراتيجية الأمريكية فى تحقيق أمن المنطقة وابعادها عن النفوذ السوفييتى . ومن هنا اكتسب تسليح السعودية إلى جانب إيران أهمية كبرى فى هذه الاستراتيجية وقد تزامن هذا مع الطفرة التى حدثت فى أسعار النفط عام ١٩٧٣ مما وفر لإيران والسعودية موارد نقدية هائلة مكنتها من شراء كميات كبيرة من الأسلحة . وهو تطور كان يتفق فى النهاية مع تخطيط الولايات المتحدة لاستراتيجيتها الدفاعية غير المباشرة على أمن الخليج العربى . بمعنى آخر فان هذه الاستثمارات الأمنية كانت ستتحمل أعبائها وتكاليفها المادية بالأساس هاتان الدولتان النفطيتان الثريتان من دول الخليج العربى نفسهما وأن الخط الذى بدأت أمريكا تنتهجه فى

نفس العام ١٩٧٣ للحفاظ على مصالحها ومصالح حلفائها النفطية فى الخليج العربى اتسم بقدر واضح من التطرف وبالميل إلى التهديد باستعمال القوة والعنف العسكرى إذا لزم الأمر (٥)، ويبرهن على ذلك سيل من التصريحات المتكررة التى صدرت عن المسؤولين الأمريكيين فى هذه الفترة والتى عكست هذه الحقيقة بمنتهى الوضوح .

أعلن وزير الدفاع الأمريكى فى ٦ يناير ١٩٧٤ أن الدول العربية تواجه مخاطر . وتتنامى ضغوط الرأى العام الأمريكى باستخدام القوة ضدها أما عن رد الفعل الخليجى من هذه التصريحات والتهديات الامريكية فقد جاء فى عمومه رافضًا ومستنكراً لها بل ومحذراً من عاقبة التمادى فيها . وقد تمثل ذلك الرفض الخليجى فى صورة البيانات العديدة والهامة التى صدرت عن دول المنطقة وأبرزت مفهومها وكذا تصورها لما يخدم الأمن الخليجى إزاء هذه المستجدات الطارئة .

تحولت المبادىء العامة للتوجه الأمريكى لعام ١٩٧٢ إلى سياسة محددة المعالم والأهداف منذ عام ١٩٧٤ طبقتها الولايات المتحدة الأمريكية على الخليج العربى وكان مخططها أيضًا هو جوزيف سيسكو الذى صاغ توجهاته على النحو التالى (٦):

أولاً : دعم الجهود الاقليمية وتوجهها نحو إقامة نظام للدفاع عن الأمن ولتحقيق التنمية فى جو من الاستقرار بعيداً عن التدخلات الدولية الخارجية وكان موجهًا ضد التدخل السوفييتى .

ثانيًا : تشجيع صيغة الحل السلمى للمنازعات التى تثور بين دول المنطقة .

ثالثًا : توفير منفذ دائم إلى نفط الخليج العربى بأسعار معتدلة وبكميات تكفى الاحتياجات المتزايدة للولايات المتحدة واحتياجات حلفائها الأوروبيين والآسيويين .

رابعًا : تنمية مصالح أمريكا التجارية والمالية فى منطقة العربى .

حققت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٥ مرتبة الدولة الأولى من بين جميع الدول التى قامت بتصدير السلاح إلى الخليج العربى التى بلغت نسبة وارداتها من الأسلحة ما يربو على ستين بالمائة من اجمالى المعدات العالمية من الأسلحة ، ولمبيعات الأسلحة الأمريكية العديد من المزايا والفوائد ؛ فمن الناحية الاقتصادية فان عائد بيعها كان يساهم بدور فعال فى تصحيح العجز فى الميزان التجارى الأمريكى خاصة بعد أن تضاعفت أسعار النفط على

المستوى العالمى كما أنها بحصيلتها المالية الضخمة كانت تساعد فى تخفيف عبء تطوير الأبحاث المتعلقة بانتاج الأسلحة الأمريكية لاسيما وأن تلك الأبحاث كانت تستهلك ميزانيات باهظة يصعب اقناع الكونجرس باعتمادها والموافقة عليها . يضاف إلى ذلك التأثير العسكرى الخاص الذى كان لابد أن تحصل عليه أمريكا من بيع أسلحتها المتطورة إلى دول الخليج العربى وهو تأثير كان أوضح ما يكون فى دول مثل إيران والسعودية وتمثل هذا فى وجود عدد كبير من الفنيين والخبراء العسكريين الأمريكيين الذين يشرفون على استعمال هذه الأسلحة وصيانتها . ومن ناحية ثانية فان اعتماد هذه الدول الخليجية على الأسلحة الأمريكية كان من عوامل ربطها ببعضها ضمن الاطار الاستراتيجى العام الذى وضعته الولايات المتحدة للدفاع عن أمن هذه المنطقة الهامة بالنسبة لمصالحها ومصالح حلفائها (٧).

الاتحاد السوفيتى وأمن الخليج العربى :

لم يغفل الاتحاد السوفيتى يومًا عن حقيقة أن الخليج العربى منطقة حيوية للغاية للمصالح الامريكية والغربية . وهذا هو السبب فى أنه لم يعمد ولفترة طويلة إلى تصعيد صراعاته فيها ضد الغرب أبعد من الحدود الضرورية التى يقتضيها الدفاع عن أمنه وأغلب الإجراءات السياسية والعسكرية التى نفذها السوفييت فى هذه المنطقة وما اقترن بها من حذر واضح ومن حسابات هادئة جاءت مستوعبة لهذه الحقيقة الأساسية تمامًا . فقد حاول أن يخلق بالتدريج ظروفًا تكون أكثر ملاءمة لمصالحة الأمنية مع تجنب الإنزلاق إلى مخاطر الاشتباك أو المواجهة العسكرية المسلحة ضد الغرب وقد انطبق هذا الحرص بشكل خاص على السياسة السوفيتية فى الخليج العربى ، وكان الهدف الرئيسى للاستراتيجية السوفيتية فى المنطقة خلال العقد السبعينى وخاصة فى المرحلة التى أعقبت الانسحاب البريطانى عام ١٩٧١ محاولة كسر احتكار الغرب للقوة والنفوذ فى هذه المنطقة بحيث يكون للاتحاد السوفييتى صوت فيها ومنفذ إليها هو الآخر إلا أن الموقف الذى كان دائمًا فى الخليج العربى لم يكن يساعد كثيراً على تحقيق السوفييت لهدف النفوذ المتكافىء هذه لعدة أسباب منها (٨):

أولا: وجود احتياطى كبير للقوة العسكرية الغربية فى المنطقة كما فى السعودية وعمان وإيران .

ثانيًا : قدرة الغرب على الوصول إلى العديد من التسهيلات الاستراتيجية فى الخليج العربى والاستفادة منها فى أية مواجهة عسكرية تقع مستقبلاً ضد الاتحاد السوفييتى كما فى قاعدة «جفير» فى البحرين و «مصيرة» فى عمان .

ثالثًا : العلاقات التجارية والمصلحة الكثيفة التى تربط معظم دول الخليج العربى بالغرب وهى ميزة حاسمة يفتقر إليها الاتحاد السوفييتى فى علاقته بالدول الخليجية .

رابعًا : أن الدول المحافظة والموالية للغرب تشكل الأغلبية فى منطقة الخليج العربى . وقد حاولت هذه الدول تحت شعار استبعاد القوى الخارجية من المنطقة الحفاظ على الوضع السياسى القائم الذى يرتبط بالنفوذ الغربى مع تصفية كل أثر لتواجد السوفييتى فيها . وبرغم كل هذه العوائق والصعوبات فان الاتحاد السوفييتى لم يشأ أن يذعن للأمر الواقع لما يحمله من أضرار لأمنه .

بالغاء النظام العسكرى فى أفغانستان ومجىء الضباط الموالين للاتحاد السوفييتى بامكان أى نظام معاد لهم فى إيران أن يخلق المشاكل لأفغانستان مثلما كانت باكستان عاملاً مهمًا فى الصراع الصينى - السوفييتى الأمر الذى يجعل الاتحاد السوفييتى الأمر الذى يجعل الإتحاد السوفييتى يسعى لإقامة أفضل العلاقات مع إيران سوف يحتل مرتبة خاصة فى علاقاته الدولية مهما كانت طبيعة الأنظمة الموجودة هناك حتى وإن كان هذا التعامل على حساب مصير الحزب الشيوعى الإيرانى «توده» والمنظمات الموالية له ومستقبل علاقاته مع دول المنطقة .

أشد ما أثار استياء السوفييت من الأفكار الأمريكية أساسًا هو أنها حاولت أن تستثمر مفهوم التهديد السوفييتى الذى لم يكن له وجود فى الخليج العربى لتكتيل دول المنطقة فى الحلف العسكرى المقترح وذلك فى الوقت الذى كانت فيه هذه المنطقة تعج بالقواعد والتسهيلات العسكرية التى يستخدمها الغرب بحرية كاملة وبالدول الصديقة له والذى كان هو المزود الرئيسى لها بالسلاح . ولم يهدىء من تلك المخاوف السوفيتية حل حلف «السنتو» فى عام ١٩٧٩أو تحول إيران بعد ثورتها الاسلامية فى اتجاه بعيد عن الارتباط بالغرب حيث ظل السوفييت على اعتقادهم بأن اقامة حلف عسكرى خليجى كان يأتى على قمة أولويات الاستراتيجية الأمريكية فى الخليج العربى . وعلى ضوء هذه الاعتبارات مجتمعة طالب الاتحاد السوفييتى بحل مشكلة الأمن فى الخليج العربى على أساس (٩):

أولاً : تخفيض الميزانيات التى تنفق على التسلح فى المنطقة .

ثانيًا : حل جميع المحالفات القائمة وتصفية القواعد العسكرية فى الخليج العربى .

ثالثًا : عقد ميثاق عدم اعتداء مع دول الخليج العربى الساحلية يقوم على التعهد باحترام السيادة الوطنية .

رابعًا : إقامة نظام أمن جماعى آسيوى يبنى على احترام مبدأ المساواة من جانب كل الأطراف المشاركين فيه مع التعهد بعدم استخدام وسيلة القوة العسكرية فى العلاقات المتبادلة والعمل على إنهاء التدخلات الأجنبية فى الشؤون الداخلية لهذه الدول وهى المبادئ التى قال السوفييت إنها تتناقض على طول الخط مع الأسس التى تقوم عليها المحالفات السياسية والعسكرية التى يعقدها الغرب مع دول الخليج العربى .

إلا أن الاقتراح السوفييتى وبخاصة فى جانبه الأخير والمتعلق بانشاء نظام أمن جماعى آسيوى ظل يجذب الأطراف المهمين إليه طوال عقد كامل .

إيران والعرب وأمن الخليج العربى :

على أثر التقارب العربى مع إيران بدأت إيران تخفف من علاقتها مع إسرائيل بالاضافة إلى تنديد الشاه شخصيًا باحتلال إسرائيل للأراضى العربية فى الخامس من يونيو عام ١٩٧٦ حتى تتقرب إلى العرب أكثر وأكثر . وذلك فى الوقت الذى دعمت فيها موقفها وعلاقاتها القوية مع أمريكا والحلف المركزى بينما لم تجد محاولات جدية لاستئناف العلاقات الدبلوماسية من قبل الدولتين لتحسين علاقاتها . ويقول رمضانى المؤيد لوجهة النظر الإيرانية لموقفها حول علاقاتها مع العرب ومصر بالذات بأنه (فقد بدت الحرب لطهران أنها سوف ترسخ القوة السوفيتية لدرجة أكثر عمقًا فى مصر وأكثر من ذلك فان ما سمى بحرب الاستنزاف بين مصر وإسرائيل) ، قد بدت لإيران أنها تعزز القوة والنفوذ السوفييتين فى الشرق الأوسط (١٠).

رغم أن إيران حاولت تحسين علاقاتها مع العرب إلا أنه كانت هناك اختلافات أساسية فى مواضع عدة منها (أ) البحرين (ب) الجزر العربية (جـ) تسمية الخليج العربى (د) شط العرب . وكانت التصريحات الرسمية للعرب حول عروبة الخليج ومسئولية الدفاع عنه تقع على عاتق العرب . وكانت هناك المساعى الكويتية السعودية لقيام الاتحاد . وكل هذا أعاد ردود فعل لدى إيران وشنت الصحف الإيرانية حملاتها على عروبة الخليج والمساعى الكويتية السعودية وغيرها من المواضيع التي تهم الخليج . ثم جاءت تصريحات السفير الباكستانى فى طهران فى فبراير عام ١٩٦٨ بخصوص التأييد الباكستانى وتعاطفها مع إيران فى إدعاءاتها على البحرين . وكل هذا جعل السعودية تتحرك لتعلق على دفاعها على عروبة البحرين والخليج وخاصة بعد التأييد الذى لقيته الحكومة السعودية من الرئيس جمال عبد

الناصر والدول العربية الأخرى ومساندتهم لها فى الدفاع عن الحق العربى وعن عروبة جزر الامارات والخليج العربى . وكان الرئيس عبد الناصر رغم انشغاله مع اسرائيل فى حرب الاستنزاف وكون جميع موارده موجهة ضد هذه الحرب قد أعلن هذا فى ٥ فبراير عام ١٩٦٨ أمام الرئيس اليوغسلافى تيتو الذى كان يزور معه أسوان وبشأن ما كان يجرى فى الشرق الأوسط .

وقد رفضت السعودية الاعتراف بحكومة قحطان الشعبى فى عدن . ويهمنى أن أشير إلى نقطة هامة أننا لم نسحب قواتنا من هناك إلا بعد ما تأكد لنا خروج الانجليز من عدن وجنوب اليمن .

وفى الوقت نفسه نحن أبلغنا السعودية أننا نقف معها فى الخليج العربى ونقدم لها أى مساعدة مطلوبة ضد أطماع إيران هناك . رغم أنه سبق للسعودية الاتفاق مع إيران ضدنا فى إطار الحلف الاسلامى ولكن الموقف تغير بعد قرار بريطانيا وسحب قواتها من المنطقة فظهرت على الفور الخلافات بين السعودية وإيران ونحن بالنسبة لهذه الخلافات نقف مع السعودية كدولة عربي شقيقة ضد إيران (١١).

حدث تنسيق سعودى - كويتى مشترك فى أبريل ١٩٦٨ بشأن الخليج العربى واتفق الجانبان على ضرورة اقناع إيران بالتخلى عن إدعاءتها على البحرين بالطرق الدبلوماسية . وفى مايو ١٩٦٨ صرح الملك فيصل بأن مسؤولية حفظ الأمن والاستقرار فى الخليج العربى تقع على عاتق الدول العربية ، ومن الضرورى أن تتعاون وفقًا لتحقيق هذا الهدف وأن لإيران مصالح فى الخليج العربى أيضًا وأن على إيران أن تحافظ على مصالحها . كما أننا سنحافظ على مصالحنا . وهذا يعنى واضحًا عروبة الخليج والاعتراف بمصالح إيران وعدم التعرض لها وأن العرب يهمهم أيضًا حسن الجوار مع إيران .

تطور التفاهم السعودى - الإيرانى ، وتم توجيه الدعوة إلى شاه إيران لزيارة الرياض فقبلها محمد رضا . ولكن قبل زيارة الشاه قام حاكم البحرين بزيارة للرياض وأثارت التصريحات التى صدرت بعد الزيارة بين الجانب السعودية والبحرين بعض السخط لدى إيران فكثفت الصحف الإيرانية حملاتها على الزيارة والتصريحات التى أعقبت الزيارة وكل هذا أدى إلى تأجيل زيارة الشاه إلى الرياض . ولقد تدخل الملك الحسن ملك المغرب ونجحت الوساطة وبعدها زار الشاه الرياض فى نوفمبر ١٩٦٨ .

أثناء زيارة الشاه إلى الرياض حاول محمد رضا اقناع السعودية باقامة تنسيق عسكرى أو حلف دفاعى بعد الانسحاب البريطانى نظراً للأخطار المحيطة بالخليج العربى وخاصة من العناصر اليسارية وملء الفراغ الذى يحدثه الانسحاب . ولكن المفاوضات لم تكن تشمل سوى المباحثات بين الجانبين لأن أى تحالف لم يكن مقبولاً فى المنطقة وبخاصة مع معارضة العراق والكويت لإقامة أية أحلاف عسكرية فى المنطقة ، كما أن قيام الأحلاف لم يعد مناسبًا فى العصر الحالى نظراً لسمعة الأحلاف الغير مقبولة لدى الشعوب . ولذا جرت المناقشات حول المسائل الثنائية بين البلدين مثل التنسيق المشترك حول الخليج العربى بالإضافة إلى الإهتمام الأمريكى بهذه المفاوضات كما تم إعلان بيان مشترك على أثر انتهاء لزيارة جاء فيه أن خلافات السعودية وإيران قد انتهت مع ضرورة اقامة تعاون مشترك لأجل أمن واستقرار الخليج العربى وأن الشاه تخلى تقريبًا عن مطالبته بالبحرين مقابل قيام تعاون وثيق ومشترك مع السعودية . وقد جاء فى البيان الذى أدلى به الشاه فى نيودلهى حين قال «إن بلاده لن تستولى على أرض بالقوة وإلا غدت سياستها توسعية استعمارية » ، وبناء على هذا التصريح أصبح مفهومًا أن مشكلة البحرين سوف تنتهى قريبًا وأن إيران لم تعد متصلبة فى موقفها كما كانت فى السابق .

كان هذا يعنى بأن إيران تتنازل عن البحرين مقابل احتلالها الجزر العربية لكى تأخذ دورها الجديد المرسوم من قبل الولايات المتحدة وهو دور شرطى الخليج لسد الفراغ وتحدد اختيار إيران كوكيل رسمى لأمريكا بصورة أساسية ومسبقة عبر مواقف الحكام المعنيين . ففى حين كانت الزعامة السعودية معنية بشكل كبير بشئون الحكم والقضايا العربية الداخلية ، كان الشاه قد أثبت منذ فترة طويلة دور إيران كحارس للخليج العربى ، وكان شاه إيران يعمل فى اتجاه تعزيز قواته العسكرية الذاتية بأسلوب التوسع فى برامج ومشاريع التسليح. وهو الاتجاه الذى بدأه فعلاً فى غام ١٩٦٨ عندما شرع فى استيراد كميات هائلة من الأسلحة والتجهيزات العسكرية المتطورة من الولايات المتحدة .

فشلت إيران فى اقناع السعودية بأن تشارك بلاده فى الدفاع عن أمن الدول الصغيرة فى الخليج العربى . وعندما لم تظهر السعودية تجاوبها مع هذا الاقتراح أعلن الشاه أنه سيتحمل وحده عبء الدفاع عن أمن الخليج العربى وأنه سيعمل بالتدريج على توسيع إطار مسئوليات إيران الدفاعية بحيث تشمل منطقة المحيط الهندى . وفى عام ١٩٧٢ أصدرت الحكومة

الإيرانية تصريحًا أعلنت فيه استعدادها لضمان سلامة باكستان الاقليمية وفى ديسمبر ١٩٧٣ أرسلت إيران قوات عسكرية كبيرة إلى عمان لمقاتلة الثوار فى منطقة ظفار وإخماد حركة تحرير الخليج العربى .

المتغيرات الأمنية والسياسية فى الخليج العربى ٧٩ - ١٩٩٠ :

حدثت تغيرات سريعة ومتتالية منذ أواخر السبعينات فى الخليج العربى ولعبت دوراً هامًا فى أمنه مما كان له مضاعفات وانعكاسات فى علاقات دوله مع بعضها البعض ومع الدول الكبرى المعنية فى المنطقة من حيث المصالح والاحتكارات الرأسمالية ولهذا سوف نوجز باختصار أهم هذه المتغيرات التى حدثت فى المنطقة فيما يلى :

أولاً : الثورة الاسلامية فى إيران فبراير ١٩٧٩ :

قامت الثورة الإيرانية الاسلامية فى فبراير عام ١٩٧٩ ونسفت ركيزة أساسية من ركائز الاستراتيجية لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى منطقة الخليج العربى بأسرها ودمرت ترتيبات الأمن التى أقامتها منذ الخمسينات ليس فى الخليج العربى وإنما فى الشرق الأوسط وأبعاد الخطط الأمريكية الرامية إلى تطويق الاتحاد السوفييتى التى تجاور حدودها ، مما أوجد فراغًا أمنيا من الاستراتيجية الأمريكية التى لم تكن تعمل له حساب أو احتمال ربما لأنها بالغت فى تصوير قوة نظام الشاه واستقرار خلاقًا للواقع الشعبى . وكانت هذه صدمة قوية لأمريكا مما دفعها إلى تشكيل قوة الانتشار السريع وسياسة التدخل العسكرى الفورى.

ثانيًا : التدخل العسكرى السوفييتى فى أفغانستان ديسمبر ١٩٧٩ :

جاء التدخل العسكرى السوفييتى فى أفغانستان فى شهر ديسمبر عام ١٩٧٩ بمثابة زلزال سياسى مما فسرته الولايات المتحدة على أنه نذير خطر جديد يكشف النوايا العدوانية السوفيتية فى الخليج العربى للاقتراب من ثرواتها النفطية وامكانياتها الاستراتيجية .

ثالثًا : «مبدأ كارتر» يناير ١٩٨٠ :

حدثت تغيرات فى المنطقة جعلت الولايات المتحدة الأمريكية تعيد حساباتها بالنسبة لسياستها فى الخليج العربى وتعيد صياغة وسائلها واستخدام أساليب جديدة لتحقيق سياستها الاستعمارية وخاصة بعد الثورة الاسلامية فى إيران ، وفى يناير ١٩٨٠ أعلنت الحكومة الأمريكية عن المبدأ الجديد الذى عرف باسم مبدأ «كارتر» الذى جاء كرد فعل

مباشر للتدخل العسكرى السوفييتى فى أفغانستان . وبصدور هذا المبدأ بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الصراع على منطقة الخليج العربى والشرق الأوسط .

عبرت الولايات المتحدة فى هذا الصدد وبصورة رسمية عن قلقها الشديد إزاء الخطر الذى يواجهها هى وحلفاءها فى الخليج العربى كما أكدت تصميمها على أن تقاوم وبكل الوسائل الممكنة بما فى ذلك استخدام القوة المسلحة ضد أى محاولة من جانب أى دولة خارجية للسيطرة على هذه المنطقة الاستراتيجية وكانت هذه هى جذور فكرة إنشاء قوات للتدخل السريع فى منطقة الخليج العربى بهدف مقاومة نزعة التوسع السوفييتى حسب التفسير الأمريكى وتأمين إمدادات النفط الخليجى إلى الولايات المتحدة وأوروبا واليابان وأن قوة التدخل السريع هى الضمان الفعال لانتظام وصول هذا النفط إليهم .

رابعًا : الحرب العراقية - الإيرانية سبتمبر ١٩٨٠ :

إندلعت الحرب العراقية - الإيرانية منذ سبتمبر ١٩٨٠ والتى كانت من أطول حروب الإستنزاف الاقليمية وأكثرها تكلفة وإن كانت أسبابها المباشرة ترجع إلى خلافات فى مصالح الدولتين وفى توجهات أنظمة الحكم فيها ولعبت القوى الكبرى لتغذيتها واستمرارها لتوظيفها مستقبلاً فى خدمة مصالحها .

خامسًا : قيام مجلس التعاون مايو ١٩٨١ :

قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية فى أبو ظبى ٢٥ مايو ١٩٨١ جاء فى مثل توقيته والملابسات التى صاحبت قيامه بمثابة رد على بعض التحديات الجديدة التى سبقت الاشارة إليها وأضاف بدوره عنصراً جديداً وهامًا إلى المحاولات السياسية فى المنطقة وطرح بعض التساؤلات وهى :

هل يوفر المجلس إمكانية ذاتية يمكن الاعتماد عليها وتكفل له تسوية المنازعات التى تثور بين أطرافه بغير حاجة إلى التدخلات الخارجية ؟ وهل يمكن أن يتطور المجلس بحيث تكون له فعالياته العسكرية المؤثرة والتى يستطيع بواسطتها أن يتصدى للتهديدات التى تتعرض لها دوله . وهل يستطيع أن يلغى الحاجة إلى المظلة الأمنية الأجنبية بحيث يستطيع تحقيق القدرة العسكرية الذاتية التى تكفى للقيام بهذا الدور المستقل مستقبلاً وخاصة بعد تحرير الكويت ؟ وهل تتطور علاقات أطرافه ببعضهم أكثر فى اتجاه اقامة كيان إقليمى على

النمط الفيدرالى؟ أو أن تحذو حذو دولة الامارات الاتحادية على الأقل فى المرحلة المقبلة وذلك بعد مرور أكثر من ثلاثة عشر عامًا على قيامه وبحيث يكون هذا الكيان الجديد نواة تغير وتحريك للأوضاع فى الوطن العربى بدلاً من «اللاتحرك» وهذه التوقعات الوحدوية أو الاتحادية أمر وارد وضرورى .

سادسًا : الغزو العراقى للكويت أغسطس ١٩٩٠ :

أدى الغزو العراقى للكويت فى ٢ أغسطس ١٩٩٠ إلى تدمير البنية التحتية للبلدين ومن إفرازات ومضاعفات على الصعيد المحلى الخليجى من جهة . وكذلك على الصعيد العربى من جهة أخرى . وشرخ كبير فى العلاقات العربية - العربية إضافة إلى تزايد السيطرة الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة فى الخليج العربى وانفراد اسرائيل بفرض حلولها ليس فقط على الفلسطينيين والدول المجاورة وإنما تعدى ذلك إلى بقية الدول العربية الأخرى وخاصة بعد تطبيق الحكم الذاتى الفلسطينى فى غزة وأريحا واللقاء الأردنى - الاسرائيلى فى واشنطن فى شهر أغسطس ١٩٩٤ .

سابعًا : تراجع أسعار النفط مطلع عام ١٩٩٤ :

الأزمة الحادة التى تعرضت لها منظمة الأقطار المصدرة للنفط «أوبيك» والتى ترجع بأسبابها إلى الاختلاف حول سياسات التسعير وحصص الانتاج وخاصة بعد هبوط أسعار البترول فى بداية عام ١٩٩٤ حتى بلغ حوالى عشرة دولارات للبرميل . ولم يحدث من قبل أن نزلت الأسعار بهذه الصورة والذى يرجع إلى اختلاف أعضائه حول سياسة خفض الانتاج وتوزيع الحصص وعدم التنسيق مما قد يترتب عليه إضعاف هذه المنظمة وتضامنها مما يخلق مشكلات ذات أبعاد غير مرضية إن لم يتم تداولها بصورة مرضية وعقلانية فى المستقبل. والأسئلة كثيرة حول ظروف مرحلة ما بعد انتهاء منظمة «أوبيك» إذا استمرت خلافات أطرافها فى تفاقم وتعذر عليهم أن يجدوا مخرجًا من هذا الوضع المعقد الذى وجدت المنظمة نفسها واقعة فيه وإلى أى مدى يخدم انهيار «أوبيك» مصالح القوى الغربية الرأسمالية التى تعتمد على استيراد النفط (١٣).

السوفييت وجمهورية إيران الاسلامية :

جاءت أحداث الثورة الاسلامية فى إيران فى فبراير ١٩٧٩ لتحمل معها بعض عوامل التغيير الجذرى فى ظروف الأمن الخليجى ؛ فايران لم تعد القوة الاقليمية الأولى التى يعتمد

عليها الغرب فى تنفيذ استراتيجيته الدفاعية فى الخليج العربى وإنما كان لأصداء هذه الثورة وتداعياتها آثارها السياسية البعيدة المدى إقليمياً ودولياً . أن الثورة التى تفجرت مقدمتها فى إيران فى منتصف عام ١٩٧٨ أخذت الاتحاد السوفييتى بالمفاجأة ووضعته أمام الاختيار الصعب فهو إذا أيد المعارضة الإيرانية الاسلامية فانه كان يجازف بفقدان فرصة ثمينة كان بمقدوره استثمارها لاحداث نكسة مؤلمة للسياسة الغربية فى إيران مما كان سيساعده بالتالى على تنمية النفوذ السوفييتى فى دولة ضعيفة كايران فى مرحلة ما بعد الشاه .

ربما لهذا السبب امتنع الاتحاد السوفييتى عن القيام بأى هجوم مباشر على نظام الشاه وفضل الانتظار الذى لم يكن ليخسر من ورائه شيئاً خاصة وأن الثورة جاءت كرد فعل عنيف ضد انسياق إيران الشاه وراء الغرب فى محالفاته وسياساته . ولم يتخل السوفييت عن حذرهم إلا بعد أن تصاعد الموقف السياسى ضد الشاه وبعد أن أصبح فى حكم المؤكد أن نظام حكمه قد دخل مرحلة التهاوى والسقوط ، ففى ١٨ ديسمبر ١٩٧٨ أدلى الزعيم السوفييتى ليونيد بريجنيف بتصريح هام عكس فيه اهتمام الاتحاد السوفييتى البالغ بما كان يجرى فى إيران وذلك عندما قال : يجب أن يكون مفهوماً بوضوح أن أى تدخل وبالأخص أى تدخل عسكرى فى شؤون إيران الداخلية وهى دولة لها حدود مشتركة مع الاتحاد السوفييتى سوف يفسر من جانبها على أنه يعنى المساس بالمصالح الأمنية السوفيتية . وكان رد فعل الولايات المتحدة لهذا التحذير السوفييتى هو إنكار وجود أى نية من جانبها للتدخل العسكرى فى إيران كما حدث بعد انقلاب مصدق لإعادة الشاه عن طريق المخابرات الأمريكية . كما أن المزايا التى كان يمكن أن تؤول إلى الاتحاد السوفييتى من وراء نجاح الثورة الاسلامية فى إيران تمثلت فيما يلى (١٤):

أولاً : إنهيار حليف قوى للغرب فى الشرق الأوسط مع السمعة السيئة التى كانت ستصاحب ذلك من أن الغرب قد خذل هذا الحليف وتركه يواجه نهايته وهو ما كان يحمل معه تحذيراً لكل الأنظمة الحليفة والصديقة للغرب .

ثانياً : أن تحول إيران من توقع التحالف مع الغرب إلى الحياد دمر الأساس الذى بنى عليه الغرب تخطيطه لمسألة الأمن الغربى فى منطقة الخليج العربى وبرهن على سطحية نظرية العمودين التى قامت عليها الاستراتيجية الأمريكية فى حفظ الأمن فى الخليج العربى فى مرحلة ما بعد فيتنام .

ثالثًا : أن فقدان الغرب لكل قدراته فى التصنت والتجسس والتى مارسها من الأراضى الإيرانية وضياع قواعده العسكرية تمثل صعوبات جديدة فى ظروف الدفاع عن الأمن والمصالح الغربية فى الخليج العربى ضد تحديات القوة السوفيتية .

رابعًا : أن ضعف إيران وعدم استقرارها زاد من فرص احتمالات تنمية النفوذ السوفييتى.

خامسًا : مضاعفة فرص الاتحاد السوفييتى فى الوصول إلى الخليج العربى والمحيط الهندى .

سادسًا : مع تمزق المظلة العسكرية الإيرانية فان العديد من دول الخليج العربى الصغرى كانت ستفقد الحماية العسكرية التى وفرها الغرب لها من خلال قوة إيران كانت أنظار الاتحاد السوفييتى مركزه على عمان بشكل خاص .

على أن الإيجابيات كان يقابلها على الجانب الآخر بعض السلبيات التى لم تخل من الأهمية ، فأولاً كان هناك قرار الحكومة الإيرانية الاسلامية الجديدة بتخفيض انتاج النفط بنسبة الثلث والذى استتبعه بتخفيض مماثل فى حجم انتاجها من الغاز الطبيعى وبالتالى تخفيض الكميات التى تصل إلى الاتحاد السوفييتى ثم يأتى القرار الآخر بايقاف بناء الخط الثانى إلى الاتحاد السوفييتى والذى كان من المقرر أن ينتهى فى عام ١٩٨١ وبعدها تقرر الغاء المشروع كله . ولم تكتف الحكومة الايرانية بقراراتها السابقة وإنما أعلنت عن نيتها فى إعادة التفاوض حول أسعار الغاز الطبيعى المصدر للاتحاد السوفييتى عن خط النقل الحالى ومن السلبيات الأخرى لهذه الثورة على أمن الاتحاد السوفييت ومصالحه ما يلى [١٥]:

أولاً : أن عدم استقرار الأوضاع السياسية فى إيران قد يتحول إلى عبء كبير على هذه المصالح السوفيتية نفسها .

ثانيًا : الخوف من أن تقوم حكومة الثورة فى إيران بتوسيع إطار مساعدتها للجماعات الاسلامية والمجاهدين ضد النظام الشيوعى فى أفغانستان كما أن وجود الجمهورية ذات النظام الاسلامى على الحدود السوفيتية قد يشكل عامل جذب وتحريك للشعب المسلم فى الاتحاد السوفييتى وهو وضع لم يكن من المتصور أن يقبل السوفييت بآثاره السلبية عليهم .

ثالثًا : أن الثورة الاسلامية فى إيران تقدم نموذجًا عمليًا للدول المجاورة فى التغير تحت راية الاسلام وتطبيق الشرعية الاسلامية لقلب نظم الحكم التى لا ترغب فيها الشعوب. ومن هنا تفقد الأيديولوجية الماركسية جاذبيتها وتأثيرها . وكان هذا واضحًا فى أفغانستان قبل التدخل العسكرى السوفييتى وكذلك فى تركيا قبل انقلاب كنعان افرين ذى الدعم الأمريكى . وحتى لاتتحول تركيا أيضًا إلى جمهورية اسلامية على غرار إيران كما كان هناك أيضًا الخطر الشيوعى على العراق والذى كان من المحتمل أن ينتهى هو الآخر بظهور الخطر الشيعى على العراق والذى كان من المحتمل أن ينتهى هو الآخر بظهور نظام إسلامى معاد للسوفييت والولايات المتحدة معًا . يضاف إلى ذلك أن تنامى الفوذ الاسلامى كقوة تغير أساسية فى المنطقة سوف يكون عائقًا رئيسيًا أمام التقدم السوفييتى فيها .

رابعًا : أن الثورة الإيرانية بممارساتها القائمة على التحرك النشط فى الدول المجاورة لها قد تتسبب فى حدوث صدام بين النظام الإيرانى وبين مصالح الاتحاد السوفييتى ومصالح حلفائه فى الخليج العربى وبالأخص العراق .

خامسًا : أن الخلافات العراقية التى كان من المحتمل تمامًا أن تطفو على السطح مع الضعف فى سلطة الحكومة المركزية فى إيران «الأكراد» - «التركمان» - «العرب» بمطالبهم فى استقلال إمارة عربستان أو الحكم الذاتى قد تؤدى فضلاً عن تفكك إيران وانهيار وحدتها القومية إلى التأثير المباشر فى أوضاع الدول المجاورة كتركيا وباكستان والعراق وأفغانستان بتغذية التزعات الانفصالية لدى الأقليات العرقية فيها وقد يمتد ذلك التأثير الانفصالى إلى الاقليات القومية فى داخل الاتحاد السوفييتى نفسه .

سادسًا : أن تأثير الثورة الإيرانية على الشرق الأوسط وآسيا والعالم الغربى كان كبيراً للغاية . فعلى الرغم من أن هذه الثورة أدت إلى تقويض دعائم الاستراتيجية الأمريكية فى إيران وأفقدت التحالفات الغربية مصداقيتها بشكل عام إلا أنها من الناحية الأخرى أثارت رد فعل غربى وكذلك رد فعل اقليمى نشط وليست قوات الانتشار والتدخل السريع إلا بعضًا من نتائج ذلك الخوف الذى تولد عن هذا الحدث الهام .

سابعًا : أن التحديات الناتجة عن هذه الثورة الإيرانية ساعدت كثيراً على التقريب فى وجهات النظر بين بعض دول المنطقة الرئيسية كالسعودية والعراق مدفوعين فى ذلك باعتبارات الأمن المشترك وهذا التقارب كان يجعل تحركات الدبلوماسية السوفيتية على الخليج العربى أكثر صعوبة من ذى قبل .

الحرب العراقية - الإيرانية :

تزايدت الخلافات بين العراق وإيران منذ بداية السبعينيات وبالتحديد فى أعقاب الانسحاب البريطانى وتجاه شاه إيران الذى سعى إلى تنصيب نفسه شرطيًا للخليج العربى. وهذه التحركات أثارت حفيظة العراق وحركت مخاوفها وهى المخاوف التى تأكدت باقدام الشاه على احتلال الجزر العربية . ثم إزداد الأمر سوءًا مع معاهدة الصداقة والتعاون التى عقدها العراق مع الاتحاد السوفييتى فى أبريل عام ١٩٧٢ واستمر التوتر بين الدولتين حتى انتهى باتفاقية ٦ مارس ١٩٧٥ فى الجزائر وتعهدت إيران بانهاء دعمها العسكرى للمتمردين الأكراد ما أدى إلى انهيار هذه الحركة والقضاء عليها . ومنذ ذلك التاريخ طرأ بعض التحسن الواضح على العلاقات العراقية - الإيرانية واستمر ذلك حتى وقعت الثورة الاسلامية فى إيران فى فبراير ١٩٧٩ . إذ ما لبثت أن دبت الخلافات بين الدولتين من جديد وتفاقمت بسرعة .

ولم تجد المحاولات التى بذلت لتطويقها واحتوائها ثم وصلت تلك الخلافات نقطة الذروة مع اندلاع الحرب المسلحة فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠ لتصبح بذلك أطول حروب الاستنزاف الاقليمية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وذلك فيما إذا استثنينا الحروب الاقليمية التى خاضتها أو شاركت فيها قوى دولية كبرى كالحرب الفيتنامية . وكانت بداية الاحتكاك المباشر بين الطرفين فى الفترة التى تلت وقوع الثورة الإيرانية الاسلامية هى الاتهامات التى أخذت تكيلها الحكومة الإيرانية للعراق حول موقفه الداعم لجبهة تحرير عربستان وكان رده على تلك الادعاءات هو اعترافه بتضامنه مع شعب عربستان الذى كان يدافع عن قضيته العادلة فى مواجهة الظلم والقهر المفروضين عليه . وفى إحدى تعليقاتها قالت صحيفة «الثورة» العراقية أن إيران اختارت سياسة حمام الدم فى معالجة مشكلة عربستان ويمكن أن تكف عن مضايقة العراق على طول الحدود بينهما .

تدهور الأمر أكثر عندما أعلنت السلطات العراقية عن اكتشافها مؤامرة تخريبية واسعة النطاق ضد العراق تساندها إيران وبعض العناصر الداخلية فى العراق وفى مقدمتها حزب الدعوة الاسلامى وترتب على إحباط المؤامرة تنفيذ حكم الاعدام فى زعيم الشيعة الإمام محمد باقر الصدر .

تمثل الحرب العراقية - الإيرانية أخطر ظاهرة فى الخليج العربى وكلفت الدول الخليجية والأطراف فيها الكثير من الخسائر المادية والاقتصادية والبشرية وأوجدت التوتر فى الدول الخليجية الأخرى وفرضت تحديًا قويًا لوحدتها الوطنية ولأمنها القومى وأدت إلى تزايد الوجود العسكرى الأجنبى فى المنطقة وما ترتب عليه من زيادة فى عوامل عدم الاستقرار وجاءت هذه الحرب نتيجة لصراع طويل بين العراق وإيران وله مسببات عديدة منها :

أولاً - الناحية التاريخية :

أصبح العراق منذ القرن السادس عشر وحتى سقوط الدولة العثمانية مسرحًا للصراع مع الدولة الصفوية الإيرانية قامت فيها إيران باحتلال أجزاء كبيرة من العراق حتى استطاعت اتفاقية الجزائر ١٩٧٥ أن تنهى نزاع الحدود بينهما ولكنها لم تستطع أن تنهى الصراع بينهما فساد التوتر بين الدولتين عام ١٩٧٩ وبدأت الحرب بشكلها الموسع أواخر سبتمبر ١٩٨٠ .

ثانيًا - الناحية القانونية :

عدم تقيد إيران بمعاهدة «أرضروم الثانية» وكذلك بروتوكول «طهران» لعام ١٩١٣ وكذلك معاهدة ١٩٣٧ حيث ألغتها من جانب واحد عام ١٩٦٩ وفرضت تقسيم شط العرب ومن ثم اتهمت إيران العراق بتجاهل معاهدة الجزائر عام ١٩٧٥ التى فرضها شاه إيران مستغلة ظروف العراق وفى عام ١٩٨٠ رأى العراق إعادة النظر واسترداد السيادة على شط العرب .

ثالثًا - الناحية السياسية :

أعطت إيران لنفسها دور شرطى لمنطقة الخليج العربى واحتلت الجزر العربية فى حين طرح العراق مطالبه الاقليمية والتى تمثلت فيما يلى :

(أ) الاعتراف الكامل بسيادة العراق على أراضيه الوطنية .

(ب) إنهاء الاحتلال الإيرانى للجزر العربية .

(جـ) عدم التدخل فى الشؤون الداخلية للعراق والدول الأخرى فى منطقة الخليج العربى .

رابعًا - الناحية القومية :

ينتمى السكان فى كل من العراق وإيران إلى قوميات مختلفة بيد أنه يوجد فى كل دولة منها جماعة قومية تشكل غالبية السكان ، ففى العراق يشكل العرب ٨٥٪ والباقى من الأكراد فى حين يشكل الفرس ٥٥٪ من سكان إيران والباقى ينتمون إلى عدة قوميات منها الأكراد العرب ، البختياريين ، الأذريين ، التركمان ، البلوش ، الأتراك والأرمن .

خامسًا - الناحية المذهبية :

تصل نسبة الشيعة فى إيران إلى حوالى ٦٥٪ والباقى من السنة ، أما العراق ٨٠٪ سنة فى حين الشيعة يشكلون ٢٠٪ ومعظمهم من أصول عربية بسبب وجود المقدسات الشيعية فى العراق حيث ضريح الإمام على فى النجف والإمام حسين والعباس فى كربلاء والإمام كاظم وغيرهم من أئمة أهل البيت أضرحتهم موجودة لزيارة هذه المزارات الشريفة .

سادسًا - نظام الحكم :

انتهجت إيران فى عهد الشاه نظام الحكم الرأسمالى العلمانى فى حين انتهج العراق نظام الحكم البعثى الاشتراكى العلمانى. وبعد قيام الثورة الإسلامية فى إيران قضى على المعالم العلمانية الغربية وحل محلها النهج المسلم المحافظ بالشريعة الإسلامية . وبذلك كان هناك تناقض بين نظامين .

نتائج الحرب العراقية - الإيرانية :

أدت هذه الحرب إلى نتائج وخيمة قد تستمر لفترة طويلة من المآسى والأحزان وشملت معظم الجوانب المادية والمعنوية فى البلدين وبعض آثارها فى الدول المطلة على الخليج العربى، ومن بعض هذه النتائج ما يلى :

أولاً - الاقتصادية :

دمرت الحرب معظم الهياكل الأساسية للمنشآت الاقتصادية فى كل من العراق وإيران وخصوصًا المنشآت النفطية وبلغت خسائر الحرب بين الدولتين فى الفترة من ١٩٨٠ - ١٩٨٥ فقط حوالى ٤١٦,٢ بليون دولار وهذا الرقم يفوق العائدات النفطية فى حين تقدر عائدات النفط ب ٥٢ بليون دولار وهنا تكمن خطورة هذا الرقم .

ثانيًا - اجتماعية :

قدرت مصادر المعلومات الأمريكية عدد ضحايا الحرب من مدنيين وعسكريين حوالى مليون قتيل غير الجرحى والأسرى والمفقودين واليتامى والأرامل .. الخ .

ثالثًا - السياسية :

أدت الحرب إلى مزيد من التعنت السياسى فى كلا الدولتين وصار الشعار التالى : حرب ... حرب حتى النصر متردد فى الدولتين العراق وإيران . ولكن لم يحقق أى منهما النصر وبرغم انتهاء الحرب إلا أن العلاقات السياسية حتى الآن غير واضحة بينهما .

مجلس التعاون الخليجى :

برز مجلس التعاون لدول الخليج العربية كأحد التجمعات العربية الإقليمية فى عالم اتسم بالمتغيرات الحادة وبروز تجمعات اقتصادية وسياسية كبيرة وانتهاء دور الكيانات الصغيرة وجاءت هذه التجربة بدورها وليدة عدة اعتبارات سياسية واستراتيجية واقتصادية كما عرفت قيام عدة مؤسسات واستهدفت تحقيق اندماج اقتصادى اقليمى يصب فى التجربة العربية القومية .

الاتجاه الوحدوى فى الخليج العربى له جذور عميقة سابقة على إنشاء مجلس التعاون الخليجى . كان أهمها خلال الفترة الواقعة بين ١٩٦٨ - ١٩٧١ التى شهدت مسيرة العمل الوحدوى بين الإمارات التسع . وعلى الرغم من إخفاق تلك التجربة فى قيام دولة اتحادية تساعية وظهور دولة اتحادية سباعية وهى دولة الإمارات العربية المتحدة إلى جانب البحرين وقطر إضافة إلى عمان فان الأمل لم يفارق شعوب المنطقة على الإلتقاء فى وحدة أشمل وتعاون أفضل وظلت الاتصالات مستمرة ولكن بشكل منقطع من أجل التفاهم والوصول إلى الصيغة المقبولة لتحقيق فكرة التعاون بين هذه الأقطار .

أدركت هذه الأقطار بعد استقلالها وتحررها من الاستعمار أهمية تجمعها كسبيل لبقائها ولمواجهة التهديدات المحيطة بها فضلاً عما يتيحه لها ذلك التجمع من كيان أكثر قوة لما تتمتع به من موارد اقتصادية ومركز استراتيجى يسهل اتصالها بالعالم الخارجى اقتصاديًا. ويجب الإشارة إلى ما يجمع تلك الكيانات من تشابه فى أنظمة الحكم والخلفية التاريخية وانحدار أبنائها من أصول واحدة تنتمى إلى القبائل العدنانية الحجازية والقحطانية اليمانية

وقوة إحساسهم بالإنتماء والمصير المشترك والدين الإسلامى واللغة العربية وما يجمع بينهم من قيم وعادات وتقاليد مشتركة مما يجعل تجمعهم قوة متماسكة وأهمية التركيز على المصالح المشتركة التى تضمن لذلك النفط التجمع قوته واستمراريته ومن الخصائص التى تمتاز بها هذه الأقطار التى تمتاز بها هذه الأقطار بأنها متجانسة لم تعرف الحدود السياسية الفاصلة بينها من وتمتاز هذه المنطقة بالتواصل الجغرافى كما تمر هذه الأقطار بمرحلة متماثلة من النمو الاقتصادى وتشابه فى التركيبة الاقتصادية بحيث تعتبر اقتصادياتها أحادية الإنتاج وما زال النفط يشكل المصدر الرئيسى لهذه الاقتصاديات . وقد بدأت هذه الأقطار بوضع خطط فى مجال التنمية الزراعية والصناعية لتخفيف التبعية للخارج والتنسيق فيما بينها فى هذه المجالات مما يجعلها أكثر التجمعات العربية امتزاجًا .

هناك عدة دوافع أدت إلى تأسيس مجلس التعاون ومنها ارتباطه بالأوضاع السياسية والأمنية التى سيطرت على المنطقة فى الثمانينات وكرد فعل لقيام الثورة الإيرانية الإسلامية وللتدخل السوفييتى فى أفغانستان ولمواجهة مخاطر الحرب العراقية - الإيرانية ولعب تقارب العوامل السوسيو إقتصادية (١٦) بين كيانات المجلس دوراً كبيراً .

ترتب على هذه الأحداث دفع مسيرة التعاون الخليجى وخاصة بعد الثورة الاسلامية الإيرانية حين أخذت أقطار المجلس تستشعر بالأخطار التى تهددها إثر تجدد الإدعاءات الإيرانية على البحرين والجزر العربية واتجاه جمهورية إيران الإسلامية إلى تصدير ثورتها الإسلامية واستمرار سياستها التوسعية الإقليمية واتخاذها بعداً قوميا . كما ترتب على نشوب الحرب العراقية - الإيرانية تزايد المخاوف من احتمالات تعرض هذه الأقطار لمخاطر أمنية بسبب مجاورتها لمسرح العمليات العسكرية وما يعنيه ذلك من امتداد الحرب إلى أراضيها وتهديد مصالحها . وظهر ذلك واضحًا حين أخذت الكويت تتعرض لسلسلة من الإعتداءات الإيرانية وما أدت إليه تداعيات تلك الحرب من تهديد الملاحة فى الخليج العربى ورفع ناقلات النفط الكويتية أعلام كل من الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتى حتى لاتتعرض للقصف من قبل إيران إضافة إلى تخوف أقطار المجلس من انتصار أحدهما والقيام بدور الهيمنة السياسية والعسكرية على المنطقة .

شكلت الدوافع المحلية بدورها عوامل رئيسية أيضًا فى تأسيس مجلس التعاون. وقد ارتبطت تلك الدوافع بالإدراك المتزايد لدى أقطارها بما يتعرض له العمل المنفرد لكل منها من مواجهة العديد من التحديات والصعوبات . ويمكننا أن نتبين تصاعد هذا الإدراك من

استعراضنا للعديد من الخطوات الموحدة التى اتخذتها تلك الدول فى السنوات السابقة لقيام المجلس مما أدى إلى تعميق فكرة التعاون المشترك فيما بينها فى العديد من المجالات الاقتصادية والإنمائية والثقافية والإعلامية ، فمنذ أن خرجت هذه الأقطار إلى الساحة الدولية حرصت على عقد العديد من الاتفاقيات الثنائية فيما بينها وكانت الكويت هى الرائدة فى الكثير من تلك الاتفاقيات التى تطورت من ثنائية إلى جماعية . ولم تلبث أن شهدت أواسط السبعينيات المؤتمرات الوزارية لهذه الأقطار فى مجالات التخطيط والاقتصاد والتربية والتعليم والثقافة والإعلام وغيرها . كما ظهرت العديد من المؤسسات والمنظمات المتخصصة فى تلك المجالات لعل من أبرزها مكتب التربية العربى لدول الخليج . ومقره الرياض ومؤسسة الانتاج البرامجى المشترك ومقرها الكويت وجامعة الخليج فى البحرين هذا بالإضافة إلى بعض المؤسسات الاقتصادية المشتركة كبنك الخليج الدولى وشركة طيران الخليج وشركة الخليج للصناعات البتروكيماوية وشركات النقل البحرى المشترك ومنظمة الخليج للاستشارات الصناعية فى الدوحة .

لاشك فى أن الدوافع الاقتصادى كان من من أهم الدوافع وخاصة أن هناك تماثلاً فى البنية الاقتصادية لتلك الأقطار من حيث اعتمادها على مصدر واحد للانتاج وعلى الاستيراد الخارجى مع وجود فائض فى ميزان مدفوعاتها . هذا بالإضافة إلى ما تعانى منه من مشكلات خاصة بالعمالة الوافدة وقلة الكوادر الفنية والإدارية الوطنية وكلها أمور تستدعى التخطيط المشترك من أجل تنويع مصادر الدخل وتوسيع الطاقة الاستيعابية وتقليل الاعتماد على الخارج وإيجاد سوق اقتصادية واحدة أكبر حجمًا من السوق المحلية لكل دولة أو قطر آخر مجاور له للتخلص من الإزدواجية التى تؤدى إلى إهدار الأموال والطاقات الخليجية (١٧) .

بذلك أسهمت العوامل الداخلية أو الخارجية سواء أكانت إقليمية أو عربية فى تدعيم واستمرارية مجلس التعاون الذى لم تنشأ فكرته من فراغ وإنما سبقتها بعض الخطوات التى ذكرناها سابقًا مثل فكرة السوق الخليجية المشتركة أو التعاون فى مختلف المجالات الثنائية والجماعية من النواحى الثقافية والاقتصادية حتى إذا شعرت تلك الأقطار بالخطر الداهم من خلال الثورة الإسلامية فى إيران أوالحرب العراقية - الإيرانية خطت الخطوات الرئيسية للإعلان عن قيام هذا المجلس (١٨). عقد وزراء خارجية قطر والكويت والبحرين والسعودية وعمان والإمارات العربية المتحدة فى ٤ / ٢ / ١٩٨١ مؤتمراً فى الرياض وقعوا فى ختامه على وثيقة إعلان مجلس التعاون الخليجى .

شهدت مدينة أبوظبى العاصمة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة فى ٢٥ / ٥ / ١٩٨١ ميلاد مجلس التعاون الخليجى وذلك بتوقيع رؤساء الأقطار الخليجية الست على النظام الأساسى لمجلس التعاون . وقد شكل ذلك التاريخ بداية قانونية لقيام هذا المجلس كشخصية اعتبارية مستقلة لكن أحكام النظام الأساسى لاتتضمن نصًا يقضى بانشاء اتحاد فيدرالى أو كونفيدرالى بين الأقطار الأعضاء فيه . إلا أن الوحدة العربية لشعب هذه المنطقة هى أساس لقيام مجلس التعاون إذ أن قيامه يعطى نموذجًا يحتذى به فى عملية الانتقال من مرحلة التمنى والرغبة تجاه فكرة الوحدة إلى مرحلة العمل الجاد والدؤوب وانتهاج أفضل السبل العملية لتحقيقها أو على الأقل الاقتراب منها أكثر فأكثر باعتبار أن شعب هذه المنطقة وقد ارتضى صيغة للتعاون فيما بينه وقرر مواجهة مشكلاته داخليًا وخارجيًا واقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا وأمنيًا مواجهة جماعية وهذا هو طريق نحو الوحدة بوصفها الهدف المنشود لمجلس التعاون (١٩).

صدر عن مؤتمر أبوظبى لمجلس التعاون النظام الأساسى وورقة العمل المشترك والبيان الختامى الذى نوه بما يربط بين هذه الأقطار من علاقات خاصة وسمات مشتركة نابعة من عقيدتها المشتركة وتشابه أنظمتها ووحدة تراثها وتماثل تكوينها السياسى والإجتماعى والسكانى وتقاربها الثقافى والحضارى . وللمجلس عدة أجهزة ومؤسسات تشرف على أداء وظائفه وهى : المجلس الأعلى ، المجلس الوزارى ، الأمانة العامة وإذا كانت اهتمامات المجلس أظهرت إتجاهًا عامًا بين أقطاره نحو إقامة شبكة دفاعية على مستوى الخليج العربى، فانها أظهرت كذلك رغبة أكيدة فى تطوير التعاون الاقتصادى والتبادل التجارى ، وفى هذا الصدد عقدت الأقطار فى مجلس التعاون اتفاقية اقتصادية موحدة وبذلك ظهر مجلس التعاون كنوع من أنواع العمل العربى المشترك على المستوى الاقليمى من أجل الوصول إلى الاندماج الاقتصادى العربى المنشود (٢٠).

يعتبر مجلس التعاون تنظميًا دوليًا وإقليميًا منذ قيامه رسميًا بتوقيع رؤساء الأقطار الستة الأعضاء على النظام الأساسى للمجلس فى اجتماعهم بأبوظبى ٢٥ / ٥ / ١٩٨١ وبايداع وتسجيل نسخ من هذا النظام لدى الجامعة العربية والأمم المتحدة بقرار من المجلس الوزارى .

الواضح من النظام الأساسى لمجلس التعاون أنه لم يستطع أن يتخلص من مبدأ الإجماع فى اتخاذ القرارات والذى كثيراً ما أعاق بل وعطل عمل جامعة الدول العربية . وكان من

الواجب فى نظرنا أن يخطو النظام الأساسى خطوة أكبر بالنص على الاكتفاء بأغلبية الأصوات فى الموضوعات التى لاتمس أعمال السيادة فى كل قطر من الأقطار ، فمثلاً نجد أن القرارات المتعلقة بشؤون التربية والتعليم والإعلام وبتنظيم الشؤون الصحية والزراعية والشؤون المدنية والتجارية والاقتصادية والبيئة والرسوم الجمركية وشؤون الطيران فى الدول الأعضاء هى قرارات لايمس تنظيمها أمور السيادة فى أى قطر من الأقطار وكان يمكن الاكتفاء بشأنها بأغلبية الأصوات فقط دون أن يشملها مبدأ الإجماع عند التصويت عليها كما يمكن توسيع قاعدة الأغلبية فى اتخاذ القرارات من قبل المجلس الأعلى فى أمور موضوعية أخرى لتزداد مرونة وفاعلية هذا المجلس ، لقد تكررت كلمة «شعوب» فى أحكام النظام الأساسى ولو اختيرت كلمة «شعب» بالمفرد لأنها تقرب مفهوم وحدة هذا الشعب الواحد الذى مزقه وجزأه الاستعمار البريطانى وتم توزيعه من قبله فى مختلف أقطار مجلس التعاون .

يتكون الهيكل التنظيمى لمجلس التعاون من الأجهزة التالية : المجلس الأعلى والمجلس الوزارى والأمانة العامة ، والمجلس الأعلى هو الجهاز العام الذى يمثل السيادة والسلطة العليا فى مجلس التعاون ويتمتع باصدار القرارات النافذة والملزمة لأعضائه ، أما المجلس الوزارى فهو جهاز تحضيرى وتنفيذى لقرارات المجلس الأعلى بينما تعتبر الأمانة العامة بمثابة الهيئة الإدارية المركزية للمجلس ومقرها الرياض ، وأما عن هيئة تسوية المنازعات فهى هيئة تتبع المجلس الأعلى الذى يقوم بتشكيلها فى كل حالة على حدة حسب طبيعة الخلاف ومقرها الرياض وتختص بما يحيله إليها المجلس الأعلى من منازعات بين الدول الأعضاء والخلافات حول تفسير وتطبيق النظام الأساسى لمجلس التعاون .

لعل التجربة الأوروبية فى إنشاء السوق الأوروبية المشتركة هى الأمل الذى كان يراود رؤساء الدول الموقعين على النظام الأساسى لمجلس التعاون وينشدون تحقيقه مستقبلاً فى المنطقة العربية ، ومع ذلك فان الفارق كبير بينهما وخاصة أن الجمعية العامة للمجموعة الأوروبية الاقتصادية هى بمثابة برلمان يتكون من ممثلين منتخبين يمثلون شعوب الدول الممثلة فى المجموعة الأوروبية الاقتصادية ومهمتها مراقبة أعمال الأجهزة التنفيذية للمجموعة ، كما أنها تناقش وتقرر التقرير السنوى للمجموعة وكل الأمور الأخرى التى ترى أن لها مصلحة للنظر فيها . وأما من جهة السلطات التنظيمية فان أهم فارق بينهما يتمثل فى سلطة الهيئات المنشأة بموجب اتفاقية المجموعة الاقتصادية الأوروبية فى اتخاذ قرارات تصبح نافذة

بالأغلبية لا بالإجماع ناهيك عن غياب التمثيل الشعبى لمواطنى دول مجلس التعاون فى شكل برلمان أو مجلس شورى مشابه .

يعتبر مجلس التعاون بموجب نظامه الأساسى تنظيمًا دوليًا إقليميًا محدود العضوية وهو تنظيم حكومى بمعنى أنه على الرغم من أنه يترجم روح الوحدة إلا أن المجلس فى حد ذاته من الناحية القانونية الدستورية تنظيمًا حكوميًا بحتًا حيث حددت المادة السادسة من نظامه الأساسى أجهزة المجلس وقصرتها على (١) المجلس الأعلى (٢) المجلس الوزارى (٣) الأمانة العامة ، وهى أجهزة حكومية وليس لها طابع شعبى يتمثل فى مجلس نيابى أو شورى يضم عدداً من المواطنين فى كل قطر من الأقطار والأعضاء سواء بالانتخاب أو التعيين أو بالإثنين معًا وذلك لتقديم المشورة والرأى للمجلس الأعلى فيما يتعلق بمصالح مواطنى المجلس ، والتجربة النيابية سوف تقوى مجلس التعاون نتيجة لتشكيل المجالس النيابية كمجلس الأمة فى الكويت حيث استطاع المواطنون المنتخبون من الشعب أى «النواب» أن يعبروا بآرائهم عن كافة الموضوعات التى تمس بلدانهم أو التى يختص بها المجلس وأن يقيموا هذه التجربة التعاونية لدولهم . ويجب العمل على إنشاء برلمان خليجى موحد وممثل لشعب المجلس يتبع مجلس التعاون على غرار الجمعية العامة للمجموعة الاقتصادية الأوروبية أو على الأقل على غرار البرلمان الأوروبى [٢١] ، أو ما يعرف بالجمعية الاستشارية لمجلس أوروبا ، وحتى يكون العمل فى مجلس التعاون الخليجى قائمًا ومعبراً حقيقيًا لنبض الجماهير العربية الخليجية التى يمثلها نواب الشعب الخليجى .

يجب أن يكون التكامل الاقتصادى الغاية والهدف المنشود لمجلس التعاون ليشكل خطوة على طريق التكامل والوحدة خاصة وأن ظروف أقطار المجلس مؤهلة للتكامل الاقتصادى الاقليمى، لقد بات واضحا لقادة أقطار مجلس التعاون أنه لايمكن للتنمية الوطنية فى بلادهم أن تسير إلا بتنمية اقتصادية شاملة للدول الأعضاء فى المجلس ، ذلك أنه لايمكن لهم على ضوء ميثاق مجلسهم تحقيق تنمية مثلى إلا عن طريق تعاون قومى وجوهرى شامل .

نصّت المادة الثانية من الاتفاقية الموحدة على الجانب الإجرائى حيث قالت : «تتفق الدول الأعضاء على القواعد التنفيذية الكفيلة بمعاملة مواطنى دول مجلس التعاون فى أى دولة من هذه الدول نفس معاملة مواطنيها دون تفريق أو تميز فى المجالات التالية : (١) حرية الانتقال والعمل والإقامة (٢) حرية التملك والإرث والإيصاء (٣) حرية ممارسة النشاط الاقتصادى (٤) حرية انتقال رؤوس الأموال» .

لو طبقت أحكام ونصوص هذه الاتفاقية الاقتصادية الفريدة تطبيقًا سليمًا فى أقطار الدول الأعضاء فى المجلس لتحققت أهداف النظام الأساسى لدول مجلس التعاون فى قيام وحدة أو اتحاد خليجى اقتصادى متكامل وحينذاك سيصبح قيام الوحدة السياسية أو الاتحاد السياسى الفيدرالى أو الكونفيدرالى بين دول المجلس أمراً لايحتاج إلى أكثر من قرار سياسى يصدره المجلس الأعلى ويصادق عليه شعب دول هذا المجلس ممثلاً فى مجالسه الوطنية حسبما تقتضيه الأوضاع السياسية فى كل قطر من أقطار الأعضاء فى مجلس التعاون .

غير أن هذا المشروع الاندماجى لم يخل بدوره من عدة نواقص ومشاكل وينبغى أن نأخذ فى الاعتبار أن تحقيق الإندماج الاقتصادى يتطلب التنازل من الأطراف عن جزء من سيادتها إذ أن تحقيق مفهوم السيادة بشكلها التقليدى أو المطلق قد لاتتفق ومتطلبات عالم اليوم الذى تتجه فيه الدول الكبرى ذاتها إلى نوع من الإندماج السياسى والاقتصادى. فهناك الكثير من المشروعات رغم أهميتها تواجه صعوبات فى التنفيذ مثل مشروع توحيد النقد أو ربط دول المجلس بشبكة من الخطوط الحديدية وقصور فاعلية تنفيذ التشريعات والقوانين الخاصة بالمواطنة الخليجية أو حرية مزاولة الأنشطة التجارية والصناعية وتملك العقارات بين مواطنى دول المجلس بعيدة عن مجال التطبيق الفعلى . ولايزال كثير من تلك التشريعات والقوانين الخاصة بالمواطنة الخليجية أو حرية مزاولة الأنشطة التجارية والصناعية وتملك العقارات بين مواطنى دول المجلس إذ لاتزال كثير من تلك التشريعات والقوانين بعيدة عن مجال التطبيق الفعلى ، ولايزال المجلس يواجه تحديات فى مجال الاستقرار والأمن الداخلى ، ولم يستطع المجلس أن يقف موقفًا صلبًا إزاء النزاع بين إيران ودولة الإمارات حول جزر طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبوموسى . فعلى الرغم من دعمه المطلق لدولة الإمارات فانه لم يتخذ قرارات حاسمة ضد إيران ويرجع ذلك إلى عدم رغبة بعض دول المجلس فى تصعيد الخلاف نظراً لعلاقات الصداقة التى تربطها بايران ولذلك لم تحبذ أسلوب المقاطعة السياسة أو الاقتصادية وإنما كانت حريصة على تهدئة النزاع (٢٢).

لاشك أن التحدى الكبير الذى واجهته دول المجلس كان يرتبط بالعدوان العراقى على الكويت وما أظهره ذلك العدوان من أن التوسع فى حجم التسليح لم يقف أمنًا حقيقيًا وأن ترتب عليه إهدار الامكانات المالية مما يتعين اتخاذ إجراءات أكثر إيجابية لتعزيز القدرات الدفاعية الذاتية . وقد يكون ذلك بتشكيل قوة خليجية موحدة تستطيع حماية دول المجلس

والحفاظ على سيادتها الإقليمية ، ولعل من الأمور التى ستلفت الانتباه أنه لايوجد حتى الآن مؤسسة عسكرية واحدة يمكن أن يعهد إليها بتنفيذ تلك المهام . ومن ناحية أخرى لابد من التوصل إلى حلول جذرية لما تعانيه القوات المسلحة فى دول المجلس من الافتقاد الواضح إلى الكوادر البشرية المدربة مما يضطرهم إلى الاستعانة بالخبرات الأجنبية داخل صفوفها وأن الاعماد على التحالف الغربى وإن كان ضرورة حتمتها الظروف فى مرحلة معينة من أجل تحقيق الحماية للمنطقة إلا أنه لن يكون على المدى البعيد عاملاً فى تحقيق الأمن أو ضمان الاستقرار (٢٣).

لم تستطيع القيادات العسكرية فى أقطار مجلس التعاون أن تنشىء سوى قوة صغيرة لاتستطيع أن تجابه لوحدها الفراغ الأمنى فى المنطقة وكان يجب على مجلس التعاون أن ينظر إلى الجانب العسكرى نظرة أكثر جدية فى خضم هذه الصراعات الدولية فى المنطقة فيتجه إلى إنشاء جيش خليجى موحد يضم وحدات برية وبحرية وجوية منظمة ومستقلة عن جيوش الدول الست الأعضاء فى المجلس أو الأخذ باقتراح عمان وتشكيل قوة لاتقل عن مائة ألف جندى .

لعل من أهم المشاكل وجود أعداد كبيرة من العمالة الاسيوية فى أقطار المجلس مخلفة عدة آثار سيئة . فعملية التحديث التى طرأت على المجتمعات الخليجية تمت بصورة أساسية دون الاعتماد على قوة العمل المحلية . ولم تكتسب هذه الأخيرة مهارة وخبرة جديدة تمكنها من السيطرة على تكنولوجيا الانتاج المستخدمة فى أقطارها فقد أصبحت أقطار المجلس تعتمد اعتماداً شبه كامل على الخبرات والقوى الأجنبية سواء فى التخطيط أو تنفيذ الخطط التى تشمل مجالات الإنتاج والإنشاء والخدمات وأصبح الشباب فى أقطار المجلس يمارس أعمالاً إدارية وخدماتية بعيدة عن الإنتاج . نضيف إلى هذا العامل المعيق للوحدة فبعض النزاعات التى تقع أحيانًا بين أقطار المجلس من جراء تداخل الحدود الجغرافية لمعظم هذه الأقطار نتيجة لقيامها على الأساس الاعتباطى الذى أقامه الاستعمار البريطانى وعمل على تكريس هذا الوضع يضمن استمرار الخلافات بما يحول دون قيام دولة قوية فى المنطقة حيث مشكلات الحدود بين أقطاره كالنزاع البحرينى - القطرى حول جزيرة حوار وفشت الديبل والنزاع السعودى - القطرى حول مركز الخفوس وبين أبوظبى والسعودية حول البريمى وموضوع التسلح والاستعداد العسكرى والنفسى لمواجهة تهديدات الثورة الإسلامية فى إيران (٢٤).

يبدو أن طابع الحذر والبطء والحرص هو السمة الأساسية لتحرك أقطار مجلس التعاون حتى الآن فى المجال الاقتصادى . وقد يرجع إلى عدة عوامل منها أن اقتصاديات أقطار المجلس متناقضة وليست متكاملة فى قطاعاتها المختلفة فهناك مشاكل خاصة بالعمالة الأجنبية ، ونقص الكوادر الوطنية وهناك مشاكل خاصة بالتعليم وأخرى اجتماعية . وكذلك هناك اختلافات على مستوى التعامل النقدى بالإضافة إلى محدودية قدرات وامكانيات النمو الاقتصادى لاقتصاديات تلك الأقطار لأنها اتبعت نمط التنمية قصيرة الأجل والطابع الاستهلاكى . كل هذه الاعتبارات وضعت قيوداً موضوعية على حدود التكامل الاقتصادى والاجتماعى الذى تسعي إليه دول المجلس . ويمكن القول عبر سياسة المؤتمرات التى نهجها المجلس وحكومات أقطاره الست هى أنها ذات طبيعة استراتيجية أكثر ما هى خطوة نحو خلق سوق خليجية عربية يمكنها أن تصب فى مشروع السوق العربية المشتركة . ويبدو هذا الطرح منطقيًا عندما ندرك أن قيام هذا التكتل جاء متزامنًا مع تقوية التوسع الإيرانى فى المنطقة وتهديدات إيران بغزو بعض أقطار المجلس بل الأكثر من ذلك أنه جاء وليد هذا التوتر بالأساس وكاستراتيجية دفاعية (٢٥)، ولقد غلب على مشروعى الوحدة والإندماج فى كل من المغرب العربى والمشرق العربى الطابع السياسى والاستراتيجى وليس الطابع الموضوعى .

نجد كل واحدة تختلف عن الأخرى حسب مميزاتها ومشاكلها ولكنهما يتفقان على كونهما وليدتى ظروف سياسية واعتبارات استراتيجية كما يغلب عليهما الطابع الرسمى وليس الطابع التمثيلى الشعبى ، ولكن كيف يمكن لمجلس التعاون الوصول إلى طريق الوحدة الاقليمية ثم العربية .

يمكن التغلب على ذلك بالرغبة الصادقة والعزيمة القوية ونظراً لوحدة المصير والهدف السياسى المشترك بين الأعضاء فى المجلس فانه يمكن اجتياز تلك المعوقات أو السلبيات فى مسيرة المجلس وتحقيق الهدف المنشود واستكمال التكامل الوحدوى سواء فيما يتعلق بانشاء السوق الخليجية المشتركة والتكامل الاقتصادى أو فيما يتعلق بتحقيق الهدف السياسى الأكبر وهو الوحدة أو الاتحاد السياسى لأقطار المجلس ، أما الخطوات الإيجابية المطلوبة من مجلس التعاون فتتمثل فى اتفاق دول المجلس على تطبيق وتنفيذ أحكام الاتفاقية الاقتصادية الموحدة فى أقطارها فى المجالات التالية التى صدرت بشأنها قرارات ملزمة من المجلس الأعلى وهى (٢٦):

١- حرية تنقل المواطنين بين دول مجلس التعاون بواسطة البطاقة الشخصية أو ما يماثلها دون أية إجراءات وتخفيف الإجراءات الجمركية .

٢- إلغاء أية قيود على تنقل البضائع ووسائل النقل بين الدول الأعضاء .

٣- إلغاء الرسوم الجمركية تدريجيا بين الدول الأعضاء .

٤- توحيد التعريفة الجمركية لأقطار المجلس فيما يتعلق بالتجارة الخارجية .

٥- السماح لمواطنى دول مجلس التعاون بممارسات اقتصادية وتجارية واسعة فى كل الأقطار الأعضاء مع رفع القيود المتعلقة بضرورة الإقامة لممارسة بعض الحرف فى الأقطار الأعضاء الأمر الذى يقتضى توحيد وتعديل التشريعات فى أقطار المجلس فى مجالات التجارة والشركات والوكالات التجارية والاستثمار وقواعد تنظيم الملكية .

٦- العمل على توحيد النظام النقدى بين الأقطار الأعضاء فى المجلس وإنشاء وحدة نقدية وبنك مركزى خليجى . إن هذه الخطوات الايجابية تشكل الأساس والقاعدة لإقامة سوق خليجية متقاربة من حيث الشكل والمضمون للسوق الأوروبية المشتركة .

الهوامش

١- د. محمد الدؤاد - المرجع السابق ص٢٣٠ .

٢- د. اسماعيل صبرى مقلد - المرجع السابق ص٤٦ .

٣ د. محمد الدؤاد - المرجع السابق ص٢٣٠ .

٤- د. رأفت غنيمى الشيخ - المرجع السابق ص١٢٦ .

٥- د. اسماعيل صبرى مقلد - المرجع الساب ص٤٠ .

٦- د. اسماعيل صبرى مقلد - نفس المرجع ص٢٧ .

٧- د. اسماعيل صبرى مقلد - نفس المرجع ص٤٩ .

٨- د. اسماعيل صبرى مقلد - نفس المرجع ص٧٩ .

٩- د. اساعيل صبرى مقلد - نفس المرجع ص٨٣ .

١٠ د. ر . ك . رمضانى - إيران والصراع العربى - الإسرائيلى ص٢٢ .

١١- مجلة الدستور اللندنية الصادرة فى يوم الاثنين ٢٧ / ٨ / ١٩٧٨ - العدد ٣٩٣ .

١٢- . جمال زكريا قاسم - الخليج العربى دراسة لتاريخه المعاصر ص٣٤١ .

١٣- د. اسماعيل صبرى مقلد - المرجع السابق ص١٧ .

١٤- د. اسماعيل صبرى مقلد - نفس المرجع ص ٨٧ .

١٥- د. اسماعيل صبرى مقلد -نفس المرجع ص٩٠ .

١٦- د. د. حسن علكيم - مسألة الأمن فى الخليج - رؤية قومية ص١٠ .

١٧- د. جمال زكريا قاسم - مجلس التعاون دوافع تأسيسه ص٧ .

١٨- د. صلاح العقاد - مجلس التعاون الخليجى فى إطاره الاقليمى الدولى ص٢ .

١٩- د. حسين أحمد البحارنة - مجلس التعاون الخليجى ودوره فى تحقيق الوحدة الخليجية ص٣ .

٢٠- حسن علكيم - المرجع السابق ص١٠٠ .

٢١- د. حسين أحمد البحارنة - المرجع السابق ص٢٤ .

٢٢- د. جمال زكريا قاسم- المرجع السابق ص١٨ .

٢٣- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص١٩ .

٢٤- د. حسن علكيم - المرجع السابق ص١٠٠ .

٢٥- د. حسن علكيم - نفس المرجع ص١٠١ .

٢٦- د. حسين أحمد البحارنة - المرجع السابق ص٣٩ .

الفصل العاشر

التاريخ الاقتصادى للخليج العربى ١٩٠٨ - ١٩٩٠

اكتشاف النفط وأهميته

التجارة فى الخليج العربى ١٩٠٨- ١٩٢٨

صناعة النفط

- مرحلة المناصفة بين الحكومة والشركات البترولية ١٩٥٠ - ١٩٦٠
- مرحلة المساهمة فى العمليات المتكاملة ١٩٦٠- ١٩٧٣
- قيام منظمة «الأوبيك»
- مرحلة التأميم والصناعة والتسعيرة ١٩٧٣- ١٩٩٠

اكتشاف النفط وأهميته

يعتبر اكتشاف النفط فى عربستان مرحلة هامة فى تاريخ البشرية لأنه أوقف احتكار النفط من قبل روسيا والولايات المتحدة . وبسبب الاكتشافات التى تمت فى الخليج العربى فقد أصبح متيسراً لمختلف أنحاء العالم كما أنه أدخل المنطقة فى مرحلة جديدة قلبت الأوضاع فيها رأساً على عقب وجعل من بريطانيا تنظر للخليج العربى نفس نظرتها للهند. وكان العراق قريباً من آبار النفط فى عربستان وكان من المتوقع أن يوجد فيه لأنه فى بعض المناطق يخرج على سطح الأرض ويحترق بنيران دائمة فلم يكن غريباً أن يتوقع ظهور النفط . لذلك أدخلته بريطانيا فى خط الدفاع عن مستعمراتها فى الهند وخاصة بعد محاولات الألمان الوصول إلى الخليج العربى بعد أن أعطى لهم السلطان عبد الحميد الثانى الضوء الأخضر للعمل ليبعدا بريطانيا عن كل تعاون ، والواقع أن بريطانيا لم تكن تتعجل إنهيار الدولة العثمانية خوفاً من أن يسبب إنهيارها وضعاً لاتتوقعه وغير مستعدة له ويجعلها فى مأزق أمام الدول الأخرى الطامعة فى تركة الدولة العثمانية وحتى لاتضطر للجلوس مع روسيا وإيطاليا وفرنسا لتعطيهم نصيباً مما كانت تعمل له . لهذا لم تتعجل الإنهيار بل كانت تستغل كل مناسبة لضم بلد أو منطقة أو ثورة حتى استطاعت أن تسيطر على ما خلفته الدولة العثمانية من أرض وثروة بترولية (١).

نجح أحد رجال الأعمال الاستراليين ويدعى دارسى فى الحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى عربستان فى السنوات الأولى من القرن العشرين . وقد اعتبر هذا أول امتياز للتنقيب عن النفط فى منطقة الشرق الأوسط . وعلى أثر اكتشاف النفط فى عربستان عام ١٩٠٨ أصبح من المتوقع اكتشافه فى الساحل الشرقى من الجزيرة العربية وكانت دلائل وجود النفط معروفة فى العراق وكذلك الكويت إلا أن قيام الحرب العالمية الأولى عرقلت أعمال الشركات فى مواصلة مسح تلك المناطق .

لدينا أول ذكر لوجود النفط فى الكويت فى رسالة بعث بها الشيخ مبارك إلى برسى كوكس المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى ٢٧ أكتوبر ١٩١٢ جاء فيها استعداده لتسهيل اطلاع من سيرسله إلى المكان الذى به القار فى البرقان ويعده بألا يعطى امتياز استخراج الزيت لأحد إلا لمن توافق عليه الحكومة البريطانية ، وفى العام التالى

١٩١٤ استطاعت الحكومة البريطانية أن تصل إلى تعهد من شيخ البحرين على غرار التعهد الخاص من شيخ الكويت ولم يكن التعهد خاصًا بمنع الأجانب من استغلال الزيت فحسب بل وبحرمان البريطانيين الذين لاتوافق عليهم الحكومة البريطانية . وأكثر من ذلك تعهد الشيخ عيسى بن خليفة حاكم البحرين بألايقوم باستغلال الزيت بنفسه أو بأية صورة من الصور دون موافقة الحكومة البريطانية ، وقد وعده البريطانيون بعائدات فى مقابل ذلك . ولدينا تعهدات مشابهة وقعت من قبل حاكم قطر فى عام ١٩١٦ وسلطان عمان فى عام ١٩٢٣ وكذلك شيوخ القبائل فى ساحل عمان .

على الرغم من احتمالات وجود النفط فى تلك المناطق من شمال الخليج العربى إلا أن شرق الجزيرة العربية استمرت لاتثير اهتمامات المنقبين فى هذه الفترة إذ كان مركز الثقل واضحًا فى عربستان بعد أن توصل إلى اكتشاف النفط بكميات تجارية فى مسجد سليمان وتكونت شركة النفط البريطانية الفارسية . وقد أضفى تحول الأسطول البريطانى من استخدام الفحم إلى استخدام النفط أهمية كبيرة على إمارة عربستان فيما يختص بزيادة انتاجها وكانت بريطانيا أول دولة أدركت أهمية النفط قبل الحرب العالمية الأولى . وبدأت فى استخدامه منذ عام ١٩١٠ وساهمت الحكومة البريطانية بـ ٧٠٪ من أسهم شركة النفط البريطانية – الفارسية . وكان الهدف من ذلك فى بداية الأمر ضمان الوقود اللازم للأسطول البريطانى وإن كان قد ترتب على ذلك نتائج استراتيجية على درجة كبيرة من الأهمية إذ تركزت الاستراتيجية خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية الأولى فى شمال الخليج العربى أى عربستان وجنوب العراق والكويت على حماية آبار النفط فى مسجد سليمان ومعامل التكرير التابعة لها فى عبدان بامارة عربستان ، أما من الناحية السياسية فقد ترتب على مساهمة الحكومة البريطانية فى أسهم الشركة (٢) أن أصبحت طرفًا فى جميع المنازعات التى نشبت بعد ذلك بين الشركة وإيران وخاصة فى عهد رضا خان الذى احتل إمارة عربستان فى حين وقفت الشركة إلى جانبه وكذلك بريطانيا أضحت صديقه المخلص الذى وقف معه فى الحرب من أجل حماية مصالحها البترولية المتمثلة فى الشركة البريطانية ولكنها خسرت فيما بعد عندما قام محمد مصدق بتأميم الشركة البريطانية للنفط عام ١٩٥١ .

نظرًا لأهمية النفط فى إمارة عربستان لم تلبث أن فكرت بريطانيا جديًا عندما نشبت الحرب فى إقامة قواعد ثابتة لها فى الخليج العربى وخاصة فى البحرين . كما أن المحافظة

على آبار النفط كانت من الأسباب التى دفعت بريطانيا إلى إرسال حملة عسكرية إلى جنوب العراق فى نوفمبر ١٩١٤ ومن ثم يتضح لنا كيف أن هدف بريطانيا من استغلال نفط الخليج العربى لم يكن مقصوراً على الناحية الاقتصادية واعنى بذلك استثمار رأس المال فى مشروع مربح وإنما صار ينطوى أيضًا على أهداف حيوية تتضمن إدارة آلة الحرب من جهة ثم استخدام الوقود فى الأغراض المدنية الاستهلاكية من جهة أخرى .

دخلت الولايات المتحدة الأمريكية كمنافس على التنقيب واستغلال النفط فى الخليج العربى ، فقد كان رائدها الأول هو استثمار رأس المال بقصد الربح ولم تكن فى ذلك الوقت بحاجة إلى نفط الخليج العربى للاستهلاك المحلى نظراً إلى أنها كانت حينذاك من أكبر الدول المصدرة للنفط. ولكنها كانت تعانى من تكدس رؤوس الأموال وضيق مجالات العمل فرأت فى مشروعات استغلال النفط ميدانًا خصبًا لاستثمار رؤوس الأموال والخروج من أزمتها وبينما ارتكزت الاستثمارات الأمريكية على القطاع الخاص دخلت الحكومة البريطانية كقطاع عام وساهمت فى شركة النفط البريطانية - الفارسية كما أسهمت فى شركة نفط العراق (٣)، وأصبحت الشركتان تبحثان عن امتيازات النفط فى المنطقة قبل أن تنفرد الشركات الأمريكية فيما بعد بنصيب الأسد .

رغم عودة الولايات المتحدة إلى سياسة العزلة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، إلا أنها تشبثت بمبدأ الباب المفتوح فيما يتعلق بالحصول على امتيازات النفط ، فالشركات كانت بغض النظر عن جنسيتها لها حق التنافس فى هذا المجال ، وكانت الولايات المتحدة مدفوعة فى ذلك بعاملين : الأول وجود فائض كبير فى رأس المال والثانى هو المحافظة على الاحتياطى المخزون فى أراضيها وعدم استهلاكه فى وقت قصير ، وقد بحث مجلس الشيوخ فى عام ١٩١٩ هذا الموضوع وطلب من الحكومة الأمريكية أن تحتج لدى بريطانيا لمنعها بعض الشركات الأمريكية من الحصول على امتيازات تنقيب فى العراق وفلسطين واستطاعت أن تفرض وجهة نظرها وإن تحوز قصب السبق فى امتيازات الخليج العربى مستندة إلى خبرتها الطويلة فى عالم استغلال البترول وإلى امكانيتها الهائلة فى اتفاق الأموال التى كثيراً ما تضيع عبثًا أثناء مرحلة التنقيب (٤).

يسجل لنا عام ١٩٢٢ أول محاولة للحصول على امتيازات للتنقيب فى شرق الجزيرة العربية . ويرتبط ذلك بظهور فرانك هولمز وهو مهندس بريطانى نجح فى الحصول على عدة

امتيازات فى كل من الكويت والبحرين والإحساء أما امتياز المنطقة المحايدة بين إمارة الكويت وإمارة نجد فان الشيخ أحمد الجابر لم يجار ابن سعود فى الامتياز الذى منحه لهولمز بسبب احتجاجه على اتفاقية العقير ١٩٢٢ واعتباره المنطقة المحايدة تابعة له وعدم قبوله مناصفة الاستغلال فيها بينه وبين ابن سعود إلا بعدما تدخلت بريطانيا ومارست ضغوطًا كبيرة على حاكم الكويت والسعودية والتى اقتطعت بريطانيا أراض واسعة جداً من الكويت وأعطتها للسعودية بدون وجه حق .

يعتبر امتياز الإحساء الذى حصل عليه عام ١٩٢٧ أول امتياز منح للتنقيب عن النفط فى شرق الجزيرة العربية وقد تحدد أجل الامتياز للتنقيب بسبعين عامًا ولكنه فشل فى التنقيب عن البترول كما نجح هولمز فى الحصول على امتياز للتنقيب فى البحرين عام ١٩٢٥ ولكنه أيضًا فشل وتعرض لخسائر كبيرة مما اضطره إلى بيع الامتياز للشركات البريطانية التى رفضت عرضه فعرض الامتياز على الشركات الأمريكية ونجحت شركة ستاندر أويل كاليفورنيا فى الحصول على الامتياز فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٨ .

لاشك أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تهدف إلى توسيع آفاق مصالحها التجارية الخارجية عقب الحرب العالمية الأولى ولذلك وجهت نظرها صوب الخليج العربى لامكانياته البترولية ولكن بريطانيا منعتها . وظلت وزارة الخارجية الأمريكية تمارس سياسة الضغط فى سبيل الحصول على اعتراف بالحقوق المتساوية لشركات النفط الأمريكية العاملة فى الأراضى الخاضعة للانتداب البريطانى حتى نجحت فى عام ١٩٢٧ فى أن تضمن مشاركة الشركات الأمريكية فى شركة البترول العثمانية إذ أخذت ما يقرب من ٢٣,٧٥٪ من مجموع أسهمها وكان ذلك أول بداية لدخول الرأسمالية الأمريكية فى المنطقة .

بذلك حصلت الشركة الأمريكية على جزء من الامتياز الذى ممنوحًا فيما مضى لشركة ألمانية لاستغلال نفط العراق تحت اسم «الشركة العثمانية» . وجاء تكوين شركة نفط العراق عبارة عن ائتلاف عدة مصالح رأسمالية دولية هى شركة البترول البريطانية الحكومية (٢٣,٧٥٪) وشركة شل البريطانية - الهولندية ٢٣,٧٥٪ وشرك البترول الفرنسية ٢٣,٧٥٪ وشركة نيوجرسى الأمريكية ٢٣,٧٥٪ وحصل الرأسمالى الارمنى جولنكيان على الـ ٥٪ المتبقية . وهكذا سلمت بريطانيا بمبدأ المساواة فى المجال الاقتصادى بينها وبين الدول الاستعمارية الأخرى فى المناطق التى كانت تعتبرها احتكاراً مشروعًا لها على حساب الشعب العربى .

طلبت الولايات المتحدة فى مارس ١٩٢٩ من الحكومة ابريطانية أن تصدر بيانًا عن سياستها المتعلقة بالامتيازات فى الإمارات الواقعة على الخليج العربى وأجابت وزارة الخارجية البريطانية على ذلك بأن لايترتب على المصالح الأمريكية أى إخلال بالمركز السياسى الذى تتمتع به بريطانيا فى هذه المنطقة .

بعد فشل هولمز فى اكتشافه النفط فى البحرين فانه تنازل لشركة كاليفورنيا عام ١٩٢٨ وهكذا يعد هولمز مسؤولاً عن تدخل الشركات الأمريكية فى الخليج العربى إذ أنه بانتقال امتياز البحرين إلى الشركات الأمريكية يمكن تسجيل أول تدخل للشركات الأمريكية فى المنطقة التى كانت حكراً على بريطانيا وحدها بعد مشاركة شركاتها مع البريطانيين والفرنسيين فى شركة نفط العراق .

أثارت وزارة المستعمرات البريطانية مسألة الاتفاقيات المعقودة بين شيوخ البحرين والحكومة البريطانية حول شركة كاليفورنيا التى تشترط موافقتها على امتياز نفطى . ويبدو أن وزارة الخارجية البريطانية كانت أكثر إدراكًا لاهتمام الولايات المتحدة بهذا الموضوع وأحرص على عدم إثارة الخلافات معها بسبب التنقيب عن البترول ؛ ومن ثم أصدرت الوزارة فى عام ١٩٢٩ تصريحًا أعلنت فيه عدم مخالفتها لسياسة الباب المفتوح إلا أنها اشترطت أن تعلن لبريطانيا مسبقًا بما يتم من اتفاقيات حول البترول . والواقع أن الولايات المتحدة كانت تقدر المركز المتفوق لبريطانيا فى المنطقة ولذا رأت أن تحل هذا التنافس حلاً وسطًا فأسس فرع مستقل من شركة كاليفورنيا سجل فى كندا وحمل جنسية إحدى دول الكومنولث وصار يعرف باسم شركة نفط البحرين بابكو وتعهدت الشركة الجديدة باختيار معظم موظفيها من الرعايا البريطانيين .

اكتشفت شركة نفط البحرين فى مايو ١٩٣٢ أول حقل بترولى فى منطقة عوالى وبذلك كانت البحرين أول إمارة فى شرق الجزيرة العربية يتم اكتشاف النفط بها . وفى عام ١٩٣٤ وقعت اتفاقية بين شركة بابكو وشيخ البحرين بهدف تحديد العلاقة بين الطرفين وجاء اكتشاف النفط فى البحرين فى الوقت المناسب؛ فقد كانت تعانى من أزمة اقتصادية بسبب كساد صناعة اللؤلؤ كما تعرضت لهزة اجتماعية عندما قام الغواصون بحركة إضراب هى الأولى من نوعها فى تاريخ البحرين. وبذلك أوجد النفط مجالات جديدة للعمل ولاشك أن وجود البترول بكميات تجارية فى البحرين كان نقطة تحول بالنسبة لبقية الساحل الشرقى من الجزيرة العربية فقد أقبلت الشركات البترولية الكبرى من جديد تتسابق فى الحصول على امتيازات التنقيب[٥].

حصل هولمز على امتياز النفط فى الكويت وعندما فشل باعه لشركة أمريكية أخرى عرفت باسم شركة بترول الخليج «غولف أويل» التى اشتركت مع شركة دارسى التابعة لشركة النفط البريطانية - الفارسية فى تأسيس شركة نفط الكويت المحدودة ونالت هذه الشركة حق الامتياز فى ٢٣ ديسمبر ١٩٣٤ للتنقيب فى الكويت . وللمرة الثانية دخلت الشركات الأمريكية مشاركة للشركات البريطانية فى استغلال بترول شرق الجزيرة العربية .

عندما فشل هولمز الذى وقع اتفاقية ١٩٢٣ مع ابن سعود حاكم إمارة نجد فى اكتشاف النفط فقد تنازل عن هذا الامتياز فتقدمت شركة نفط كاليفورنيا لتحل محلها بعد أن أغراها اكتشاف النفط وقدمت قرضًا لابن سعود حاكم إمارة نجد بنصف مليون جنيه وحصلت على الامتياز لمدة ستين عامًا . وفى ٧ / ٧ / ١٩٣٨ تم التصديق على الامتياز وتغير إسم الشركة عام ١٩٣٩ إلى شركة «الزيت العربية - الأمريكية » ويتكون من «ستاندر أويل أو كاليفورنيا» و «تكساس أويل» و «استاندارد أوف نيوجرسى» ويختصر باسم «أرامكو» .

التجارة فى الخيج العربى ١٩٠٨ - ١٩٢٨ :

انشغلت بريطانيا قبل الحرب العالمية الأولى فى الخليج العربى بالمنافسة الألمانية سواء فيما يتعلق بمشرع سكة حديد بغداد أو حجم الصادرات والواردات الألمانية ومدى الضرر الذى انعكس على التجارة والنفوذ البريطانى وأن روسيا التى سببت قلقًا لبريطانيا فى السابق لم يعد لها نشاط مؤثر فى المنطقة بعد تحطيم أساطيلها فى الحرب الروسية - اليابانية. لقد مر الوضع الاقتصادى بتغيرات أساسية فى هذه الفترة فى الخليج العربى كما أن إقامة الاقتصاد الذاتى فى إيران والغاء الامتيازات للأجانب قد أضعف التأثير البريطانى فى إيران . وكانت هناك صعوبات بالنسبة لبريطانيا التى لم تستطع مقاومة النشاط الألمانى الروسى فى إيران وكان النشاط التجارى البريطانى فى موانىء إيران على الخليج العربى يشكل الجزء الأساسى فى التجارة البريطانية هناك وأن بريطانيا كانت تكسب كثيراً من تجارة الهند وبلغت قيمة التجارة البريطانية مع البحرين بالنسبة للواردات حوالى ١,٢١٠,٣٢٣ جنيهًا استرلينيًا وبلغت من الساحل الشرقى للجزيرة العربية ٢٠٩,٦٨٤ جنيهًا فى عام ١٩٢٦ . ولم يكن لروسيا وألمانيا والولايات المتحدة أى نشاط فى تلك السنة قياسًا على السنة السابقة التى بلغت قيمة الواردات التى أعيد تصديرها إلى المناطق الأخرى من شرق الجزيرة العربية والهند ١,١٥٤,٧٧٧ جنيهًا . وكانت التجارة بين البحرين وموانىء الخليج العربى الأخرى وبينها

وبين الهند المصدر الأساسى للدخل فى البحرين والتى كانت سفنها تحمل البضائع من وإلى تلك الموانىء . والسبب فى ذلك النشاط المحلى هو سيطرة السفن التجارية ذات الحمولة الكبيرة على التجارة فى المحيط الهندى والتابعة للشركات البريطانية إلى المناطق المجاورة(٦) لكن قيمة الواردات إلى البحرين فى الفترة ما بين ١٩١٦ - ١٩٣٠ قد شهدت إنخفاضًا وأن استخراج اللؤلؤ كان يلعب دوراً مهمًا فى تجارة البحرين فى تلك الفترة .

بلغت تجارة الكويت لعام ١٩٢٥ أكثر من مليون جنيه موزعة بين الاستيراد وإعادة التصدير مع الهند والعراق وإيران وشرق الجزيرة العربية . ولم يستمر هذا المستوى فى العامين التاليين ١٩٢٦ و ١٩٢٧ بل انخفض إلى ٤٤,٠٠٠ جنيه ويرجع السبب إلى تدهور صيد اللؤلؤ . وشمل الاستيراد من الهند المنسوجات والأرز والشاى والسكر ، أما التصدير الأساسى أو إعادة التصدير فقد شمل الأرز والسكر والمنسوجات والشاى إلى موانىء الخليج العربى الأخرى بواسطة السفن الصغيرة وإلى المناطق المجاورة براً . وبلغ عدد السفن البريطانية إلى الكويت عام ١٩٢٦ - ١٩٢٧ أربعًا وثمانون سفينة وواحدة ألمانية إضافة إلى ألف سفينة كبيرة وصغيرة بينها سفن شراعية عراقية وإيرانية وكويتية مما يكشف النشاط التجارى الكبير فى ميناء الكويت . وتركزت تجارة عمان مع الهند وفى عام ٢٦ - ١٩٢٧ بلغت حوالى ٢٩,٠٠٠ جنيهًا كما بلغت صادراتها إليها ١١١,٠٠٠ جنيهًا . وكانت تجارة مسقط مع بريطانيا محدودة فقد بلغت وارداتها عام ٢٦ - ١٩٢٧ حوالى ٩,٤٠٥ جنيهات وكانت واردات مسقط الأساسية من الهند وشملت الأرز والمنسوجات القطنية والقهوة . أما صادراتها الأساسية فقد كانت التمور والأسماك المجففة كما كانت تجارة عمان مع الأقطار الأخرى خارج المنطقة محدودة ، فالولايات المتحدة كان لها نشاط تجارى مع عمان وكانت تستورد منها التمور وبلغت قيمتها ٣٨,٧٤٨ جنيهًا فى عام ٢٤ - ١٩٢٥ وانخفضت هذه الكمية فى الأعوام التالية . أما نقل تجارة عمان فقد كانت أساسًا على السفن البريطانية والسفن العمانية الشراعية واهتمت بريطانيا بصادراتها إلى منطقة الخليج العربى بعد الحرب العالمية الأولى والجدول التالى يوضح لنا قيمة تلك الصادرات فى عام ١٩٢٧ (٧) :

اسم الدولة	الواردات البريطانية من المنطقة بالجنيه الاسترلينى	الصادرات البريطانية للمنطقة بالجنيه الاسترلينى	إعادة التصدير بالجنيه الاسترلينى
إيران	٩,٤٤٩,٠٠٠	٢,٢٤٧,٠٠٠	١٧٠,٠٠٠
العراق	١,٧٠٨,٠٠٠	٨,٦٨٠,٠٠٠	١٤٢,٠٠٠
عمان وساحل عمان	٩,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١,٠٠٠
بقية الأقطار العربية	٦,٠٠٠	١٤٧,٠٠٠	١,٠٠٠

يتضح من هذا الجدول أن حجم التجارة البريطانية الأساسى استيراد أو تصدير مع العراق وإيران وأن قيمة صادرات بريطانيا إلى العراق كانت كبيرة قياسًا على صادراتها إلى إيران وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن العشرينات قد شهدت فرض الانتداب البريطانى على العراق واستقرار الوضع السياسى فيه لصالحها يمكننا تفسير ذلك التطور . وإذا قارنا قيمة الواردات البريطانية من العراق وإيران فى هذا العام بقيمة وارداتها فى العام الذى سبقه ١٩٢٦ وبخاصة من النفط الخام والمكرر والسماد والشعير فقد كانت متقاربة . وكانت المواد المستوردة آنذاك من العراق هى التمور والجلود والسجاد. أما الموارد المصدرة إليه فقد كانت الملابس القطنية المصنوعة والحديد المصنوع والمكائن وبصورة عامة كانت التجارة البريطانية مستقرة نسبيًا فى المنطقة فى العشرينات من القرن العشرين ويرجع السبب إلى استقرار الأوضاع السياسية لصالحها فيها .

شملت الصادرات البريطانية إلى العراق وإيران فى عام ١٩٢٦ المنسوجات القطنية المصنعة والصناعات الحديدية والالآت والبضائع الأخرى الاستهلاكية وكانت قيمة هذه الصادرات مهمة للاقتصاد البريطانى بعد الحرب وأيضًا لبناء قاعدة اقتصادية بريطانية فى المنطقة ولمنافسة تجارة القوى الأخرى فيها . فقد حققت البضائع الروسية فى ذلك الوقت رواجًا على الحدود الشمالية لإيران لعدة سنوات واستفاد منها الاتحاد السوفييتى فى الوقت الذى راجت فيه البضائع البريطانية فى جنوب إيران . وكانت هناك اتفاقية تجارية بريطانيا

مع إيران ، وفى عهد الإنتداب وقعت بريطانيا اتفاقية تجارية مع العراق عام ١٩٢٢ بنيت على أساس أن تجارتها أصبحت مضمونة فى العراق . وواصلت بريطانيا سياستها ومتابعة تجارتها فى المنطقة بابعاد القوى الأخرى المنافسة لها قبل وبعد الحرب العالمية الأولى لأهمية الخليج العربى لبريطانيا من الناحية التجارية التى كانت لها مردود وتأثير مباشر على اقتصادها وذلك بتوفير بعض المواد الهامة لاقتصادها من جهة وترويج بضائعها المصنعة فى المنطقة أو مروراً بها من جهة أخرى . ولذلك كانت تكثف من وجودها فيها على جميع المستويات(٨) ولم يقتصر الأمر على مسألة التجارة فى البضائع فى الفترة ما بين الحربين فقد شهدت منافسة غربية على امتيازات النفط فى المنطقة التى أصبحت من أهم المصادر الاقتصادية وخاصة بعدما دخلت الولايات المتحدة منافسًا لبريطانيا على امتيازات النفط فى الوقت الذى تقلص فيه نشاط الألمان وقد كان الفرنسيون وغيرهم يسعون حثيثًا فى حينها ليكون لهم نصيب من نفط المنطقة .

جعلت الأهمية الاستراتيجية للخليج العربى مجالاً هامًا للنشاط التجارى وللتنافس الدولى . وكانت التجارة القادمة من الشرق فى طريقها إلى الغرب تمر بالخليج العربى واشتركت معظم الدول الاستعمارية الأوروبية فى هذا النشاط . ولم يقتصر الأمر على النشاط التجارى بل تعداه إلى مجالات سياسية وعسكرية لأن أهمية التجارة فى المنطقة قادت إلى التنافس بين تلك القوى . وترتب على ذلك نشاط سياسى وعسكرى فالعقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين شهدت تنافسًا تجاريًا دوليًا فى الخليج العربى أبرزه التنافس البريطانى - الألمانى على تجارة المنطقة . وقد حققت الدولتان مصالح هامة فى هذا المجال ، لقد انهى التنافس الألمانى وغيره الاحتكار البريطانى للتجارة فى المنطقة والذى استمر طوال القرن التاسع عشر ورغم أن موارد المنطقة كانت محدودة وعدد سكانها محدود أيضًا إلا أن النشاط التجارى والدولى فيها كان كبيراً كمنطقة مرور للتجارة ، لقد ارتبط هذا التنافس بمشاريع للمواصلات مثل بناء السكك الحديدية وترتبت على ذلك نزاعات سياسية انعكست على أقطار المنطقة وكان التركيز على التجارة فى المواد الغذائية والملابس والسلاح. وكانت إيران والعراق من الدول المصدرة لبعض المحاصيل الأساسية مثل الحبوب والتى أصبحت فيما بعد مستوردة لها وتقلص النشاط التجارى الألمانى بعد الحرب الأولى بعد تقسيم البلاد العربية بين الاستعمار البريطانى والفرنسى وأصبح الخليج العربى تحت

الهيمنة البريطانية الكاملة ، وكان ذلك هامًا بالنسبة لبريطانيا خاصة فى مسألة النفط وأن مسألة التنافس التجارى الاستعمارى على الخليج العربى لم ينته فى نهاية العشرينات وإنما استمر بعد ذلك التاريخ (٩)، ولم يكن بسبب النفط فحتى لو لم يكتشف النفط فى المنطقة فان التنافس الاستعمارى والدولى على الخليج العربى سيستمر لأهمية موقعها الاستراتيجى .

صناعة النفط :

تم استثمار النفط وقامت صناعة استخراجه وتكريره برؤوس أموال أجنبية وخبرات فنية وتقنية أجنبية وتوفرت فى أقطار الخليج العربى مقومات قيام الصناعة من رؤوس أموال حجمها يساعد على الاستثمار الصناعى وكذلك وجود طاقة رخيصة ومادة أولية من الغاز والبترول ثم يد عاملة ماهرة وافدة رخيصة وتوج هذا كله عزم أقطار المنطقة على إنشاء الصناعات الحديثة التى تمكن هذه الدول من تنويع مصادر الانتاج فيها بدلاً من اعتمادها على مورد واحد وهو البترول . ولكن للأسف لايوجد تخطيط سليم ومتكامل بين أقطار المنطقة ومعظم المشاريع متشابهة وقطرية ومتعارضة أكثر منها متكاملة .

ازدهر اقتصاد الخليج العربى بعد اكتشاف البترول واستثماره وتغيرت الحالة الاقتصادية إلى الأفضل بشكل كبير . ويعتبر الخليج العربى حوضًا نفطيًا كبيراً إذ تمتد حقول النفط من أقصى الشمال فى العراق وعربستان والكويت حتى أبوظبى وعمان فى الجنوب وتشمل حقول النفط على اليابسة كما تمتد إلى مياه الخليج العربى وتسمى بالحقول المغمورة . ولم يستثمر النفط فى وقت واحد فى حوض الخليج العربى بل أنتج فى أوقات متباعدة حينًا ومتقاربة حينًا آخر فأولى الحقول كانت فى مسجد سليمان بعربستان عام ١٩٠٨ ثم فى العراق ثم فى البحرين عام ١٩٣٤ وأحدثهم أبوظبى فى الستينات .

انتشرت الحقول النفطية فى أقطار الخليج العربى وأهم هذه الحقول فى دولة الكويت هو حقل برقان ومناقيش والأحمدى والمقوع والروضتين وهناك حقول فى الإحساء تعتبر أكبر الحقوق فى العالم . أما فى قطر فيوجد حقل دخان والعد الشرقى وفى أبوظبى يوجد عدة حقول منها مربان وزارة وزركم وأم الشيف وفي البحرين حقل عوالى وفى عمان حقل ناطح والفهود.

وتحول موقف الاحتكارات النفطية من التردد إلى الصراع فيما بينها بعد أن أدركت حكومات هذه الشركات أن هذا الصراع لن يستفيد منه سوى الدول المالكة للموارد النفطية فتوصلت إلى التفاهم فيما بينها . وتحول المتنافسون إلى التعاون فيما بينهم وشكلوا فى بعض البلدان فريقًا متعاونًا وتمكنوا من الحصول على اتفاقيات الامتيازات المجحفة بحق الدول المضيفة . ولقد نصت تلك الاتفاقيات على التزام الشركات بأتاوة ثابتة تدفعها الدول المضيفة عن كل طن يتم إنتاجه وتراوحت الأتاوة بين ٣,٥,٣ روبية بالنسبة لامارات شرق الجزيرة العربية ما عدا السعودية أربعة شلنات . وبموجب هذه الاتفاقية احتفظت الشركات لنفسها بحق التصرف فى جميع الأمور المتعلقة بالاستكاشافات والإنتاج والتكرير والتسويق وشمل ذلك الحق المطلق فى إدارة شؤونها دون تدخل الدول المضيفة أودفع أية ضريبة على أرباحها لصالح هذه الدول .

تميزت عقود الامتيازات الأولى للبترول بصفة الاجحاف تمشيًا مع روح العصر الاستعمارى حيث لم تكن شعوب العالم الثالث ومنها الشعب العربى فى الخليج العربى واعية بقيمة الثروة النفطية الطبيعية التى تملكها وغير قادرة من الناحية الفنية على استغلالها ونظراً للنفوذ الذى تمتعت به بريطانيا فى الخليج العربى فقد كانت أسبق من غيرها إلى استغلال نفطه ثم تبعتها الشركات الأمريكية .

توصلت شركات النفط إلى تقديرات واضحة لحجم الاحتياطى النفطى الذى تم اكتشاف أغلبه فى الفترة ما بين الحربين وبدأت شركات نفط العراق والبحرين وعربستان قبل الاحتلال الإيرانى الانتاج ومباشرة التصدير عن طريق المجمعات البحرية وأنابيب النفط . ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية التى اندلعت فى صيف ١٩٣٩ وما نتج عنها من نقص فى الحديد والصلب أثنا ءها أدت إلى توقف التنقيب ثم الانتاج .

ترتب على انتاج النفط زيادة كبيرة فى الدخل الوطنى بشكل ضرائب ريعية لحكام المنطقة من شركات النفط وتطور نسبة الضرائب من ١٦٪ من الربح الصافى للشركات عام ١٩٣٣ إلى أربعة شلنات ذهب للطن الواحد وفيما يلى مراحل تطور السياسة السعرية للنفط فى المنطقة :

المرحلة الأولى ١٩٣٠ - ١٩٥٠ : أربعة شلنات ذهب للطن تحصل من الشركات الحائزة على امتيازات التنقيب وفى بعض الأحيان حد أدنى من الربح وحصته كنسبة من الأرباح الموزعة على المساهمين .

المرحلة الثانية ١٩٥٠ - ١٩٦٠ : توزيع صافى الدخل مناصفة بين الحكومة والشركات المنتجة .

المرحلة الثالثة ١٩٦٠ - ١٩٧٣ : المساهمة فى العمليات المتكاملة - اتفاقيات توزيع العائدات فى ظل الأوبيك .

المرحلة الرابعة ١٩٧٤ - ١٩٩٠ : التأميم بالكامل والثورة السعرية حتى ١٩٨٢ ثم انهيار تسعيرة الأوبيك والأزمات السعرية ١٩٨٢ - ١٩٩٠ .

هذه المراحل المختلفة على الرغم من الإجحاف فى حصة البلدان المنتجة حتى عام ١٩٧٤ كانت مصحوبة بنضال وجهاد ومفاوضات مطولة مرهقة . كما أن حكومات المنطقة لم تحقق التأميم الكامل لشركات النفط إلا تحت ضغوط شعبية امتدت ربع قرن من الزمان فى حين توجد بعض الأقطار فى المنطقة لم تؤمم النفط وبعضها بشكل صورى وليس حقيقى . وكان ميلاد «الأوبيك» تعبيراً عن كفاح الدول المنتجة فى سنواته الأولى على الأقل للحصول على حصة عادلة من دخل النفط وصناعته ، وتأثير تطور السياسة السعرية نحو العائدات النفطية التى تمثل أكثر من ٩٠٪ فى المتوسط من الدخل الوطنى لهذه الأقطار فى الأعوام الماضية نتبين أن الفترة من ١٩٦٠ و ١٩٧٤ ، ١٩٨٤ تمثل نقاط تحول رئيسية فى هذا المجال ، ففى المرحلة الثانية (١٩٦٠) وهى بداية استعمال أسلوب المناصفة فى الربح الذى بدأته «أرامكو» فى السعودية فى بداية الخمسينات وأجبرت الشركات البريطانية والغربية الأخرى على اتباعه فى ما بعد يمثل هذا التوسط قفزة كمية كبيرة فى العائدات النفطية وفى عام ١٩٧٤ هو بداية تأثير السياسة السعرية الجديدة والمقاطعة النفطية لأمريكا عام ١٩٧٣ . يمثل هذا المتوسط ثورة سعرية حقيقية إذا ما قورن بالسنوات السابقة ، وفى المرحلة الأخيرة منذ ١٩٨٢ يمثل المتوسط بداية اتجاه أسعار النفط إلى الانحدار بسبب إنهيار تسعيرة الأوبيك وإغراق الأسواق العالمية بالنفط السعودى (١٠)، مما أدى إلى الأزمات السعرية التى شهدها العالم حتى نهاية الثمانينات .

حسمت المواقف التنافسية بين القوى الاستعمارية الغربية على بترول المنطقة باتفاقية «الخط الأحمر» عام ١٩٢٨ لتحديد المناطق التى كانت تابعة للدولة العثمانية وتقسيمها بين المتنافسين . وهذه الاتفاقية شبيهة باتفاقية دارسى التى عقدت فى عام ١٩١٤ بين المانيا وبريطانيا والبنك القومى التركى لاستثمار نفط العراق وكان ممثلو تلك الدول يشكلون أطراف شركة البترول العثمانية صاحبة أول امتياز للنفط فى العراق وفى العقود المبرمة مع السلطات المحلية فى منطقة الخليج العربى .

توقفت جميع أعمال الشركات الأمريكية العاملة فى السعودية خلال الحرب العالمية الثانية بعد أن قصفت الطائرات الإيطالية منطقة الظهران ودمرتها. وبعد نهاية الحرب استؤنفت عمليات الحفر فى بقيق واكتشفت حقل القطيف والفوار وتم بناء خط التابلاين فى عام ١٩٤٦ إلى لبنان على البحر المتوسط وانتهى العمل به عام ١٩٥٠ . وعقب الحرب العالمية الثانية إزداد التنافس بين الشركات الأمريكية والبريطانية بسبب سقوط اتفاقية «الخط الأحمر» فى عام ١٩٤٨ وظهور مشكلات الحدود بين قطر والسعودية . وعقب محاولة الحكومة الإيرانية فى عهد محمد مصدق تأميم النفط فى عام ١٩٥١ وبعدما أعادت المخابرات الأمريكية شاه إيران إلى الحكم بعد انقلاب مضاد ظفرت بنفوذ أوسع مما كان لها من قبل وذلك حينما دخلت الشركات الأمريكية ميدان استثمار وتسويق البترول الإيرانى بعد أن حل اتحاد شركة نفط إيران محل شركة النفط البريطانية - الفارسية .

أصبح المجال مفتوحًا أمام الولايات المتحدة للتدخل فى الخليج العربى بصورة أكبر مما كانت عليه من قبل وقد استغلت مشروع ترومان للتغلغل الفنى والاقتصادى . وهذه بداية تدخل الاستعمار الحديث وخاصة الأمريكى والسوفييتى فى الفترة ما بعد الحرب علمًا بأن الاقتصاد والمصالح الاقتصادية تتبعها مصالح سياسية ولحماية المكاسب الإقتصادية والسياسية يأتى التدخل العسكرى . وقد وصل الخلاف بين الولايات المتحدة وبريطانيا إلى أقصى ذروة له حينما احتدمت مشكلة البريمى فى عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ بين السعودية من جهة وعمان وأبو ظبى من جهة ثانية . وكان منطق الولايات المتحدة مساندة السعودية لوجود مصالح كبيرة فيها بعد الاكتشافات البترولية لشركاتها وفى عام ١٩٥٧ تم التقارب بين وجهات النظر الأمريكية - البريطانية عقب البيان الذى أصدره جون فوستر دلاس وزير الخارجية الأمريكى والذى نص صراحة على حرص الحكومتين البريطانية والأمريكية على تصفية خلافاتهما فى سبيل الهدف الأكبر وهو منع السوفييت من التسلسل إلى الشرق الأوسط . وقد أصبحت السياسة الأمريكية والبريطانية منذ ذلك الوقت منسقة تنسيقًا أساسيًا واستراتيجيًا لحماية مصالحهما المشتركة فى المنطقة .

تنطوى كلمة الامتياز بعدم المساواة كأنما حصلت الشركة على حق قد يضر بمصالح الدولة المانحة للامتياز فى الوقت الذى كانت الشركات تحصل على أرباح خيالية مع المغالاة فى بعض شروط الامتيازات التى تحصلت عليها الشركات ؛ من ذلك حصولها لسنوات طويلة المدى على مساحات كبيرة بل أن هناك من الامتيازات ما يشمل الدولة بأسرها بما فى ذلك

جزرها ومياهها الاقليمية كما أن العائدات كانت واهية للغاية إلى جانب الاعفاءات الضريبية التى تتمتع بها الشركات وذلك فى المرحلة الأولى فى الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٥٠ .

مرحلة المناصفة بين الحكومة والشركات البترولية ١٩٥٠ - ١٩٦٠ :

أدخلت تعديلات كثيرة على عقود الامتيازات الأولى لصالح الدولة المانحة للامتياز فى المرحلة الثانية فى الفترة من ١٩٥٠ وحتى ١٩٦٠ . ولعل أبرز هذه التعديلات الأخذ بمبدأ مناصفة الأرباح وقد بدأت به الشركات الأمريكية فى السعودية وقد يكون ذلك كرد فعل لعملية تأميم النفط الإيرانى الذى قامت به حكومة الدكتور محمد مصدق عام ١٩٥١ ثم تبعتها الكويت فالبحرين فقطر . بل إن هناك من الاتفاقيات ما يزيد عن مناصفة الأرباح لصالح الدولة ولعل أبرز هذه الاتفاقيات الامتياز الذى الذى تحصلت عليه الشركة العربية - اليابانية التى تعمل فى المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية .

ولاينبغى أن نفرط فى حسن الظن وإنما أن نتشكك فيما إذا كانت مناصفة الأرباح هى فعلاً الأرباح التى تتحصل عليها الشركة !! ولاشك فى أن التيارات القومية التى شهدتها المنطقة فى الخمسينات كان لها أثر كبير فى إجبار الشركات على تعديل شروط امتيازاتها بعد أن عانت من اضطرابات عمالية كبدتها خسائر فادحة . ففى عام ١٩٥٣ قدمت لجنة العمال فى الظهران عدة مطالب خاصة بزيادة الأجور كما نظمت إضرابًا آخر بشركة «أرامكو» تسبب فى إلحاق ضرر بالغ . ولاشك فى أن هذا الإضراب كانت تحركه الدوافع القومية أكثر من مجرد الاحتجاج على الأجور وربما يظهر ذلك أكثر وضوحًا فى الإضراب الذى نظمته الجبهة الوطنية فى البحرين عام ١٩٥٦ . بهدف التخلص من تشالس بلجغريف المستشار البريطانى لحكومة البحرين والذى كان أقرب إلى المندوب السامى ، وقد بلغت الاضطرابات أوجها خلال العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦ ويبدو أن الانتفاضات التى شهدتها مناطق النفط فى السعودية والبحرين والكويت قد أكدت حقيقة هامة وهى أن العلاقة بين الشركات والدول المانحة للامتياز لم تعد كافية فى حد ذاتها بعد أن دخل عنصر جديد وهو انتشار الفكرة القومية العربية التى تحاول بعض الشركات بمؤازرة حكوماتها التغلب عليها وذلك باثارة المصالح الاقليمية الأخرى المناهضة للقومية العربية . وانعكس رد الفعل الوطنى فى الحملات الوطنية على الشركات الاحتكارية إذ نادى الوطنيون بمبدأ مناصفة الأرباح وفرض ضرائب لصالح الدولة إلى جانب مطالبة الشركة ببعض التشريعات الاجتماعية لصالح العمال وفرض الرقابة الحكومية على حسابات الشركة والسيطرة على تيار الهجرة الأجنبية (١١).

زاد الطلب على البترول باطراد لعدة عوامل منها تحول الولايات المتحدة عن سياسة التصدير إلى الرغبة فى الاحتفاظ بما لديها من مخزون أطول وقت ممكن ومنها الطفرة فى نظام الإنتاج الصناعى وحلول النفط بالتدريج محل الفحم ومنها تيسير وسائل النقل سواء بالأنابيب أو الناقلات الكبيرة . لهذه الأسباب كلها احتدم التنافس من جديد بين الشركات الكبرى مع احتفاظ الأمريكيين بالتفوق فى مجال الاستثمار وحتى نهاية الخمسينات انحصر التنافس بين ثمان شركات تقريبًا خمس منها أمريكية وإثنتان بريطانيتان وواحدة فرنسية . ومما زاد من حدة التنافس سقوط اتفاقية الخط الأحمر أوجد هذا التنافس بالإضافة إلى زيادة الطلب على البترول مما أوجد فرصًا أفضل للدول المنتجة كى تعدل شروط امتيازاتها إلى مبدأ المناصفة فى الأرباح وتضاعف دخل الكويت والسعودية فى الخمسينات أضعافًا عديدة . ويرجع ذلك إلى الأخذ بمبدأ المناصفة وازدياد الانتاج كتعويض عن نفط إيران الذى توقف انتاجه ما يزيد عن سنتين ، وان نظام المناصفة لم يخل من عدة ثغرات منها أن الشركات كانت تحقق أرباحًا من أعمال فرعية كالتكرير والنقل والتسويق . ولاتدخل أرباح هذه الأعمال ضمن الأرباح العامة التى تدفع عنها ٥٠٪ للدولة المنتجة كذلك لوحظ أن بعض الدول المتخلفة لاتستطيع أن تخضع حسابات الشركات لرقابتها كما أن الشركات النفطية كانت تحسب أرباحها بعد خصم الضرائب التى تقدمها للدولة المسجلة فيها . كما لوحظ أنها تبالغ فى منح التخفيضات للمشترين مما جعل الدول المنتجة تتشكك فى حقيقة هذه الخصومات لذلك ستسعى لإلزام الشركات بالحساب على أساس الأسعار المعلنة وستخضع الشركات لهذا المطلب . وأخيراً استغلت بعض الشركات تطبيق مبدأ المناصفة وحصلت فى مقابل ذلك على تمديد لأجل الامتياز فمثلاً [(١)] استطاعت شركة نفط الكويت أن تضيف سبعة عشر عامًا إلى مدة امتيازها الأصلية أى أن امتياز الكويت سوف ينتهى عام ٢٠٢٦ ولو استمر بالفعل إلى هذا الأجل فربما نضب معين البترول قبل انتهاء أجل الامتياز .

تركزت مطالب الحكومات فى سعيها إلى رفع عائدها المالى وكان مبدأ تطبيق ضريبة الدخل على أرباح الشركات هو أهم ما طرحته هذه الدول . وكان الهدف من ذلك هو امتلاك بعض الدول صناعة النفط وتوجيه عمليات انتاجه بما يحقق أقصى الفوائد الممكنة وكانت مسألة السيطرة لهذه الدول على ثرواتها الطبيعية أمراً صعبًا آنذاك ولم يكن لديها من الكفاءات الوطنية القادرة على نجاح عملية امتلاك وقيادة صناعة متطورة من النفط وفشل

التأميم الإيرانى عام ١٩٥٣ مما أثر على مسألة امتلاك الدول المنتجة لصناعتها النفطية وبالتالى انحصرت الفرص المتاحة للدول المنتجة فى السعى لزيادة عائداتها المالية فى الوقت الذى حثت الحكومة المالكة للشركات على زيادة الانتاج وتعارض فى الوقت نفسه تخفيض أسعار النفط وهذا المنعطف الجديد المتمثل فى اقتسام العائد المالى لانتاج النفط بين الشركات العاملة والدول المنتجة أصبح المحور الرئيسى لاهتمام الحكومات المنتجة وتحددت مسائل النزاع مع الشركات فى النفاط التالية (١٣):

أولاً - السعى لزيادة حجم الانتاج :

سعت جميع الدول المنتجة إلى تشجيع الشركات وحثها على زيادة معدلات إنتاجها لعدد من العوامل :

١- ضخامة الاحتياطات النفطية المتوفرة فى عدد من الدول كانت تبرر للحكومات المطالبة بزيادة نصيبها من الانتاج .

٢- الوسيلة الوحيدة السريعة للحكومات لزيادة الدخل تتركز فى زيادة الانتاج .

٣- كانت الشركات تستخدم مستويات الانتاج كوسيلة للإغراء والضغط على الحكومة وإرغامها على الحد من التقدم بالمزيد من المطالب .

٤- احتكار الشركات للمعلومات الفنية وافتقار الحكومات لمثل هذه البيانات اللازمة لتحديد الحجم الأمثل للانتاج .

٥- افتقار الدول المنتجة لأى سياسة مدروسة للمقارنة بين الفائدة التى يحققها عائد النفط فى الوقت المراد الانتاج فيه والفوائد التى يمكن أن يحققها تأجيل إنتاج لنفط إلى وقت آخر .

ثانيا - المطالبة برفع أسعار النفط :

بعد تعديل اتفاقيات الامتياز القديمة وتطبيق مبدأ مناصفة الأرباح أصبحت مسألة السعر المعلن للنفط قضية هامة وبالتالى سعت الحكومات إلى تحقيق أسعار مناسبة له . وبالرغم من اعتراض الحكومات على معادلة الأسعار إلا أن الشركات لم تعرها آذانًا صاغية بل إنها عملت على إغراق السوق بالنفط وخفضت أسعاره بشكل مستمر وكان الاعتراض الأساسى ينصب على تسعيرة النفط .

ثالثًا - الاهتمام بتخفيض تكاليف الانتاج :

بعد أن أصبحت الحكومات شريكة فى أرباح الشركات كان طبيعيًا أن تهتم بتكاليف الانتاج وطريقة احتسابها . فبالرغم من أن كلفة انتاج النفط فى الخليج العربى تبلغ عُشر كلفته فى الولايات المتحدة إلا أنها لم تكن تحتسب مصاريف تشغيل تحميل على المصاريف الجارية كما أن الشركات كانت تستهلك القسم الآخر من الأصول الرأسمالية مما يؤثر على الأرباح المتحققة بالإضافة إلى أن الشركات الأم تحمل الشركات العاملة فى الخليج العربى كثيراً من النفقات التى لم تكن تتعلق بعملياتها بل أنها أحيانًا تحملها من الضرائب التى تدفعها لبلد أجنبى .

رابعًا - العمل على رفع معدل الإتاوة ونسبة الضريبة :

لقد كان السعى لزيادة انتاج النفط ورفع سعره وتقليل تكاليف انتاجه يهدف إلى تحقيق أعلى مستويات الربح لعمليات الشركات المنتجة من البلد المضيف ولتتمكن الحكومة من حصيلة ضريبة تتناسب مع الأرباح المتحققة . وأخذ موضوع معدلى الأتاوة والضريبة وطرق احتسابها يحظيان باهتمام الدول المنتجة ويشكلان إحدى مسائل الصراع الرئيسية مع الشركات .

هذه القضايا الأربع الرئيسية هى التى استحوذت على جهد الدول المنتجة للنفط طوال الفترة الماضية سعيًا لزيادة الإنتاج ورفع أسعاره وضبط التكاليف والحصول على نصيب أوفر من الدخل

مرحلة المساهمة فى العمليات المتكاملة ١٩٦٠ - ١٩٧٣ :

وجود الفائض فى النفط من المرحلة السابقة وهى مناصفة الأرباح ساعد على اجتياز مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقات بين الدول المنتجة والشركات ونعنى بذلك تأسيس الشركات الوطنية العاملة فى حقل صناعة النفط . واستهدفت حكومة الكويت انتهاج سياسة نفطية وطنية وتدريب العمال المحليين واستغلال الغاز الطبيعى وإنشاء صناعات بتروكيماوية إلى جانب تشجيع شركات النفط الوطنية . وقد تأسست فى عام ١٩٦٠ شركة نفط الكويت الوطنية ساهمت فيها الحكومة الكويتية بـ ٦٠٪ من أسهمها بينما اشترى المواطنون بقية الأسهم من رأس المال . وبذلك اتجهت السياسة الوطنية الكويتية إلى مشاركة الحكومة فى

عمليات بعض الشركات المستغلة للنفط والاهتمام بتتبع ما يجرى فى الدول البترولية الأخرى من تغيرات أو تعديلات فى العقود إلى جانب النص فى الامتيازات الجديدة على ضرورة إنشاء معامل التكرير لما يؤدى إليه ذلك من انتعاش اقتصادى . كما أسست السعودية شركة «بترومين» الوطنية .

بدأت هذه الشركات الوطنية أعمالها فى أضيق نطاق فلم تتجاوز أبسط عمليات صناعة البترول ألا وهى توزيع البترول ومشتقاته داخل أراضى الدولة صاحبة الشركة إلتى أخذت تتوسع رويداً رويداً فشملت أعمالها بناء الناقلات ومد خطوط الأنابيب الداخلية الصغيرة وقد أسهمت الشركة الوطنية الكويتية فى عام ١٩٦٨ ببناء مصفاة الشعيبة الكبيرة ومع تطور الوعى لدى شعب الدول النفطية تهيأ الجو السياسى فى أوائل الستينات لادخال تعديلات هامة جديدة على علاقة الشركات بالدول المنتجة ، واتخذ العراق إجراء هامًا عندما سحب جميع الأراضى غير المستغلة من شركة نفط العراق واعتبر الشركة الوطنية العراقية هى صاحبة الحق فى استغلال بترول البلاد ولها أن تتفق مع الشركات الوطنية الأخرى على أسس جديدة للاستغلال . وكانت الكويت أسبق الدول فى الجزيرة العربية إلى تعديل نظمها فقد اتفقت مع الشركة الأصلية على أن تتنازل عن نصف مساحة الكويت الذى كان داخلاً بأكمله فى عقد الامتياز . وبالتدريج أخذت الشركة تتخلى من تلقاء نفسها عن مساحات أخرى ثم شرع مجلس الأمة الكويتى منذ عام ١٩٦٤ يطالب بتعديل نظام المناصفة واستطاع أن يفرض على الشركة إعطاء الكويت جزءاً من الانتاج يقدر بـ ١٢,٥٪ لتسويقه لحسابها . ولاشك أن وجود مجلس نيابى فى الكويت كان من شأنه تحسين شروط الامتياز ويختلف الأمر فى ذلك عن بعض دول الخليج العربى المتخلفة حيث ما زال النفط يعتبر ملكًا للحاكم ويتم الاتفاق بينه وبين الشركات مباشرة (١٤).

نشأت مشكلة بين قطر والشركة صاحبة الامتياز فيها التى اعتبرت نفسها مالكة لجميع المساحة براً وبحراً فى حين لم يكن البحر داخل الامتياز . ورفعت قطر الخلاف إلى التحكيم الذى قضى لصالح قطر بالاضافة إلى العوامل السياسية التى ذكرناها والتى أدت إلى تطوير نظم الاستغلال فهناك عامل اقتصادى ساعد على نفس الاتجاه وهو دخول شركات جديدة صغيرة إلى مجال المنافسة وبعضها أمريكية مثل «جيتى» و «امن اويل» غير أن معظم الشركات الجديدة تحمل جنسيات يابانية والمانية ويقال أن الرأسمال الأمريكى يستتر وراء بعض هذه الشركات وخاصة اليابانية .

قيام منظمة أوبيك :

لاحظنا كيف كانت الشركات الكبرى تنسق أعمالها وتكون الاتحادات الاحتكارية بينما افتقدت الدول المنتجة كل وسائل التنسيق فيما بينها . ولا أدل على ذلك من تعثر إيران فى محاولة التأميم عام ١٩٥١ فقد استطاعت الشركات أن تعوض النقص رغم حاجتها إلى مزيد من الانتاج بسبب حرب كوريا . ووجدت فى العراق والكويت والسعودية مورداً سهلاً لسد النقص وقد حدث فى عام ١٩٦١ أن خفضت بعض شركات النفط أسعارها دون أن ترجع فى ذلك إلى الحكومات المانحة للامتيازات .

احتجت كل من السعودية والعراق وإيران والكويت وفنزويلا وأنشأت ما عرف بمنظمة الدول المصدرة للنفط عام ١٩٦٠ «أوبيك» ثم انضمت إليها كل من قطر وليبيا وأندونيسيا الأمر الذى لاشك فيه أن مشكلات النفط مهدت لبعض دول الخليج العربى الفرصة لضمان المصالح الخاصة بها كما أن انشاء منظمة أوبيك يعد خطوة هامة فى تاريخ علاقة الشركات بالدول المنتجة ثم فيما بعد بالدول المستهلكة .

وتم إعطاء الأولوية فى الشركات النفطية الكويتية لعمل المواطنين ثم أبناء العرب إلى جانب تحديد توظيف الزجانب وعدم السماح بتجديد عقودهم إلا إذا كانت الوظيفة تتطلب نوعاً معيناً من الخبرة أو المؤهلات . ومع ذلك كانت هذه النصوص شكلية ، ومع تصاعد المد القومى بدأ الصدام مع الشركات البترولية وقدمت حكومة الكويت فى أواخر عام ١٩٦١ مطالب إلى جميع شركات النفط العاملة فى أراضيها والمنطقة المحايدة جاء فيها ملاحظتها علي بعض التأخير فى تنفيذ الشركات توجيهاتها والتهاون فى تطبيق بعض الأمور الصادرة فى نصوص وتنفيذها إلى جانب أن تحظر الحكومة تجديد عقود الموظفين الأجانب الذين لايوجد من يحل محلهم وينبغى على الشركات تشجيع الأسواق المحلية بأن تعلن فيها عن مناقصاتها وإن كان للشركات الحق فى أن تستورد مباشرة الآلات الثقيلة التى لايمكن للتجار المحليين القيام باستيرادها [١٥].

تطلب تعديل نظام الاستغلال مع الشركات النفطية الكبرى قدراً أكبر من التضامن بين الدول النفطية . وللمرة الأولى فى تاريخ الخليج العربى تقوم دولها بالتفاوض جماعياً مع الشركات فى مؤتمر عقد فى طهران أوائل عام ١٩٧٢ . وقد انتهى هذا المؤتمر بوضع مبادىء جديدة لنظم الاستغلال ففى الحالات التى يقل فيها نصيب الدولة المنتجة عن ٥٥٪ من

الأرباح فانه يرفع فوراً إلى تلك النسبة وعلى الشركات أن تزيد من أسعار البترول المعلن بنسبة متفاوتة تصل إلى ٢٢ سنتا للبرميل . وتطبق هذه النسبة بالتدريج حسب نوع النفط وسهولة نقله وتلتزم الدول المنتجة بقبول الأسعار الجديدة مرة كل خمس سنوات وتعهدت . الدول الموقعة على اتفاقية طهران بألا تدعم المطالب الأخرى التى قد يتقدم بها أعضاء آخرون فى منظمة «الأوبيك» للحصول على تعديلات جديدة ولكن إذا حصلت ليبيا أو غيرها على زيادة فى السعر من نفس الشركات العاملة فى الخليج العربى فلدول المنطقة أن تطلب زيادة السعر مع ملاحظة فرق النقل والتكلفة . وثبتت اتفاقية طهران الآجال الأصلية المنصوص عليها فى العقود ولعل ذلك أهم كسب حققته الشركات ، أما الدول فقد حققت أيضًا زيادة فى نصيبها من الأرباح وتعرضت هذه الاتفاقية لانتقادات عديدة من بعض الأقطار الأخرى والتى قطعت شوطًا أبعد فى سبيل السيطرة على نفطها مثل الجزائر وليبيا . وانصبت اتفاقية طهران على زيادة نصيب الدول المنتجة من الأرباح واشتراكها فى تحديد الأسعار(١٦)، ولكنها لم تمس نظم الامتياز ذاتها وحتى فيما يتعلق بمسألة التسعير فانها لم تزل الخلافات .

فى الوقت الذى كانت دول النفط تخوض معركة الأسعار مع الشركات اتجهت إلى السيطرة على صناعة النفط بوسيلة أخرى ألا وهى تطبيق نظام المشاركة وهو الزام الشركات النفطية الكبرى صاحبة الامتيازات التقليدية على أن تتنازل عن جزء من رأس المال لصالح الشركات الوطنية بنسبة ٥١٪ مما يسمح للشركات الوطنية بالسيطرة على إدارة أعمال الشركات العاملة لديها وذلك نتيجة لتوصية منظمة الأوبيك فى ديسمبر ١٩٧٠ . والفرق بين المشاركة والتأميم الجزئى هو أن النظام الأول يتم نتيجة اتفاق بين الطرفين أما التأميم فيتحقق بقرار منفرد تتخذه حكومة الدولة المنتجة وقد تتم المشاركة نتيجة تنازل اختيارى من الشركة الأجنبية . أما الشركات الكبرى فقد قاومت فى بداية الأمر فكرة المشاركة وقد وكلت دول الخليج العربى أحمد زكى اليمانى وزير النفط السعودى مهمة التباحث باسمها مع الشركات . وتم التوصل إلى الاتفاق فى اكتوبر عام ١٩٧٢ على النحو التالى : تسهم الدول العربية الموقعة على الاتفاق وهى السعودية والكويت وقطر وأبوظبى تدريجيًا فى رأس مال الشركات حتى تصل نسبة المساهمة إلى ٢٥٪ عام ١٩٧٨ ثم ترتفع هذه النسبة بمعدل ٥٪ سنويًا حتى عام ١٩٨٢ لتصل إلى ٤٥٪ ثم ترتفع الدفعة الأخيرة بمعدل ٦٪ عام ١٩٨٣ لتصبح ٥١٪ ، وترك لكل دولة أن تحدد على انفراد كيفية التعويض عن نقل ملكية رأس

المال . وعند مقارنة هذا التعهد باتفاقيات المشاركة السابقة يلاحظ أن الدول المنتجة فى الماضى هى التى كانت تأخذ على الشريك الأجنبى تعهداً بأن يسوق نصيب الشريك الوطنى أما الاتفاق الجماعى الذى وقع فى نيويورك عام ١٩٧٢ فقد عكس الآية وتعهدت الدول المنتجة بتزويد الولايات المتحدة بحاجتها من البترول (١٧)، ولعل ذلك الموقف هو الذى جعل الشركات الكبرى تخضع لنظام المشاركة علماً بأن الولايات المتحدة اشتركت فى المباحثات الجماعية بعد أن كانت تترك مثل هذه الأمور لشركات القطاع الخاص .

يتيح نظام المشاركة للشريك الوطنى فرصة المشاركة فى جميع مراحل صناعة النفط من الانتاج إلى النقل والتسويق كما أن رؤوس الأموال العربية ستفتح آفاقًا جديدة للاستثمار فى أوروبا وأمريكا . ويقضى نظام المشاركة باخضاع الشركات الأجنبية للتشريع المحلى فى حالة وقوع نزاع بينها وبين حكومة الدولة المنتجة أما إذا كان النزاع بين المؤسسة الوطنية وبين الشركة الأجنبية فانه يخضع للتحكيم . ومن مميزات المشاركة أنها تتيح الفرصة أمام الدولة المنتجة لتكوين جيل من الخبراء فى شتى مراحل صناعة البترول وفوق ذلك كله فان المشاركة خطوة إيجابية نحو التأميم بل هو تأميم جزئى يتحقق بدون إثارة المشكلات التى قد يحدثها التأميم الشامل دفعة واحدة نظراً لتعقيد تجارة البترول العالمية . ومن المآخذ على نظام المشاركة أنه قد يؤدى إلى تقليل نسبة الأرباح وخاصة بعد أن رفعت اتفاقية طهران هذه النسبة إلى ٥٥٪ كما أن الجانب الوطنى قد يضطر إلى منح تخفيضات تزيد على تلك التى تمنحها الشركات الكبرى المتحكمة فى الأسواق ومنها أيضًا أن نظام المشاركة يكلف الجانب الوطنى بنصيبه من نفقات التنقيب (١٨)، وهى تستلزم أولاً دفع الضرائب والرسوم وذلك على العقد الجديد وليس الشركات القديمة التى انتهت من مرحلة التنقيب .

بالرغم من الصراع الذى خاضته الدول المنتجة مع الشركات البترولية طوال تلك الفترة والذى ينحصر فى مسألة نظم الاستغلال والمشاركة فانه يمكن القول بأنه مع بداية السبعينات بدأت تتغير الظروف التى حاولت شركات النفط فرضها وحملت هذه التغيرات ثلاثة مجالات رئيسية وهى :

أولاً : لم يعد المعروض فى بداية السبعينات يكفى لسد احتياجات الطلب الذى خلفته تلك الأسعار المتدنية التى فرضتها الشركات وتحول السوق النفطى إلى سوق بائعين وفاقت الأسعار المعلنة فمعدل الاحتياطى المؤكد من النفط أخذ فى الإنخفاض بشكل واضح فبلغ عام ١٩٧٠

نصف معدله عام ١٩٦٠ ولقد زاد من حدة هذا النقص العام من عرض النفط للطلب عليه أنباء نضوب الموارد النفطية الحالية لعدد من الدول المستوردة وخاصة الولايات المتحدة .

ثانيًا : لم تعد ملكية صناعة النفط حيث الانتاج والنقل والتكرير والتسويق شبه احتكار مطلق لشركات النفط السبع الكبرى «الشقيقات السبع» لقد تزايد عدد الشركات الوطنية المستقلة العاملة فى صناعة النفط وأخذت حصة الوافدين الجدد تتزايد بالرغم من المنافسة الخطرة . ولم تقتصر هذه المنافسة على مجال تسويق المنتجات ونقلها بل تعدت إلى إنشاء معامل التكرير والدخول فى عمليات الانتاج المباشرة للنفط وأدى إلى انخفاض نصيب الشقيقات السبع عام ١٩٦٩ - ١٩٨٠ .

ثالثًا : تزايد الوعى فى الدول المنتجة وتوفر الإدارة السياسية المؤمنة بضرورة امتلاك صناعتها النفطية وكذلك نحو القدرة الذاتية على تشغيل صناعة النفط الوطنية وتطويرها قد جعل تملكها أمراً ممكن التحقيق . وهكذا صاحب مطلع السبعينات نضوج عدد من الظروف يمكن ايجازها فى تزايد النقص بصورة مخيفة فى امدادات النفط بالنسبة للطلب عليه . وتزايد الوعى وتوفر الإرادة السياسية فى الدول المنتجة ونمو كفاءتها التقنية والإدارية بما يكفى لتنمية قدرتها الذاتية على إدارة صناعتها النفطية .

فبعد أن امتلكت الدول المنتجة صناعتها النفطية فان أمر التخطيط لها وتوجيهها ومراقبة سلامة سيرها أصبح مسؤولية الإدارة دون غيرها فعلى الإدارة الوطنية أن ترتفع بأساليب عملها وكفاءتها وأن تتبنى نظم وأساليب الإدارة العلمية فى القيام بمهمة التخطيط الاقتصادى الشامل والاعتماد على النفس يتمثل بقدرة صناعة النفط الوطنية على استمرار اتصالها بالتطور التقنى المستمر ومرونتها فى ملاءمة أساليب الأداء يوجب مثل هذا التطور، واستمرار صناعة النفط فى الخليج العربى بالتطور التقنى يشكل أحد التحديات الرئيسية وأن قدرة الإدارة الوطنية على استخراج النفط وتسويقه والحصول على إيرادات أعلى يجب ألا تحجب عن ناظرها مجابهة المهمة التى تتصدى لها .

النتائج السياسية لاستغلال النفط :

ترك النفط آثاراً بعيدة فى حياة إمارات شرق الجزيرة العربية وتمكينها من إقامة أجهزة دولة عصرية وسنتناول أهم ظاهرتين سياسيتين نشأتا عن استغلال النفط فى الخليج العربى وهما الاستقلال وتدعيم الكيانات المحلية فيما يلى :

أولاً – البترول كعامل للاستقلال :

مرت إمارات شرق الجزيرة العربية خلال الفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فى حالة بدائية صعبة وكان لابد من مضى الوقت حتى تتوفر لدى هذه الإمارات الامكانيات لتستطيع إقامة أجهزة عصرية من جيش وشرطة وإدارة منظمة وحتى إذا تم لها ذلك صارت بريطانيا تفضل رفع يدها عن التدخل المباشر بشرط أن تكون أنظمتها من النوع المحافظ التى تميل إلى صداقة بريطانيا من جهة ومسايرة أحوال المجتمع القبلى فى مرحلة تطوره الأولى نحو المجتمع الحديث من جهة أخرى لأن أى نظام غير ذلك قد يؤدى إلى نوع من الفوضى والاضطراب لأن المجتمع غير مهيأ لهذه الطفرة مما يضر فى نهاية الأمر بمصالح الشركات البترولية الرأسمالية الغربية . إذن فقد كانت بريطانيا تشجع التطور ولكن فى إطار محدود وكانت بريطانيا تتدخل بطريق غير مباشر لتبديل أوضاع إمارات النفط فى شرق الجزيرة العربية كى تصبح تلك الإمارات أقرب إلى السياسة الغربية وخاصة البريطانية مثلما حدث لحاكم الشارقة الشيخ صقر بن سلطان عندما خلعته لحسه القومى العربى الوحدوى ولتعاطفه مع الجامعة العربية فى الستينات وغيره من الحكام فى المنطقة .

منذ أن اتخذت بريطانيا قرار الانسحاب عام ١٩٦٨ وهى تعد الترتيبات التى تضمن بقاء النظم الصديقة لها ؛ ففى ساحل عمان «دولة الامارات حاليا» كان من الصعب ترك البلاد وهى مجزأة إلى وحدات صغيرة لايتجاوز سكان بعضها خمسة آلاف نسمة ومساحة بعضها بضعة كيلومترات دون ترتيب نظام اتحادى يضمها فى كيان سياسى واحد ولهذا فقد توسعت بريطانيا فى المباحثات الطويلة الشاقة بين الامارات التسع ثم السبع حتى تم الاتفاق على قيام النظام الاتحادى المعمول به حاليا فى دولة الامارات العربية المتحدة . ومن بين الترتيبات التى اتخذتها بريطانيا قبل الانسحاب تأمين وضع إمارات شرق الجزيرة وعدم تعرضها لمطالب اقليمية من الدول الكبيرة المجاورة فأعلنت الحكومة الإيرانية عن قبولها مبدأ تقرير المصير فى البحرين وتراجعت عن ادعاء الضم الذى كانت تنادى به من قبل . كما توقفت المطالبة السعودية الاقليمية فى بعض الأقطار مثل أبوظبى وعمان ويتضح من ذلك أن البترول كان عاملاً فى بلوغ الإستقلال وتمكين بعض الإمارات الفقيرة من تحقيق استقلالها بعد اكتشاف النفط وأوضح دليل على ذلك هو هذه الإمارات فى شرق الجزيرة العربية كانت تتلقى معونة مالية بريطانية فى مقابل خضوعها لنظام الحماية .

ثانيًا - تدعيم الكيانات المحلية :

دعم البترول النزعة الإقليمية لدى الدول وشعوبها . واستمرار وضع التجزئة جعل الشركات تطمئن على أوضاعها وخاصة فيما يتعلق باجراءات التأميم فالامارة الصغيرة أقل قدرة على اتخاذ مثل هذا الإجراء . وتزداد هذه النزعة الاقليمية قوة لدى الدول الصغيرة قليلة السكان محدودة المساحة حتى يمكن استخدام مصطلح «اقليمية النفط» . وهى تلائم طابع الأنانية التى هى غريزة انسانية والغرائز أقوى من الأفكار المثالية مثل فكرة القومية العربية والوحدة العربية . واخفقت جميع الجهود لاقامة هيئة اقتصادية مشتركة أو صندوق عربى للتنمية تساهم فى تمويله الدول المنتجة للبترول حسب دخلها وظروفها المحلية . وآثرت هذه الدول البترولية أن تقدم المساعدات لشقيقاتها العربيات عن طريق الاتفاقيات الثنائية إلى حكامها وليس إلي شعوبها وعندما يتغير الحاكم تتغير السياسة تجاه هذه الدول البترولية. وكان من الأجدر أن تقدم المساعدات إلى الشعب العربى فى الأقطار الفقيرة مباشرة وليس إلى الحكام لأن الشعب هو الباقى فى حين الحكام مصيرهم الزوال وإن طال حكمهم الاستبدادى .

أثار النفط منازعات بشأن الحدود التى لم تكن معروفة من قبل فى شبه جزيرة العرب وخاصة شرقها الغنى بالبترول إبتداء من الكويت وحتى عمان وحضرموت . وبدأت هذه المشاكل تظهر منذ دخلت الشركات الأمريكية إلى السعودية كما أنها لم تقتصر على البر بل أثار البترول مشاكل جديدة من نوعها تتعلق بالمياه الاقليمية وإمكان امتدادها إلى مسافات بعيدة حتى مائتى ميل بحرى تقريبًا وذلك بعد اكتشافات البترول فى قاع البحر .

تمحورت هيكلية الاقتصاد الخليجى حول النفط بشكل واضح فشكلت الصناعة الاستراتيجية ونظمت النشاطات الاقتصادية حول الأساليب الحديثة فى الانتاج السلعى والخدمات فى تنظيم العلاقات الاقتصادية داخل المجتمع بعكس العلاقات التقليدية التى كانت قائمة قبل النفط ويدخل ضمن هذا الاقتصاد الحديث الصناعة التحويلية وقطاع الزراعة والخدمات المصرفية والمالية والتى تمت بشكل سريع حتى وصلت إلى كل مدينة وقرية وحققت الدول النفطية فى الجزيرة العربية إنجازات كبيرة فى نشاط هياكل البنية الأساسية وقد تجلى ذلك فى شبكات الطرق البرية وخدمات الكهرباء والمياه وشبكات الاتصال السلكية واللاسلكية . وتضاعف عدد الطلبة فى مجال التعليم إلى أربعة أضعاف أو أكثر ووصل نصيب الطالب فى الانفاق حوالى ١٤٢٢ دولارًا سنويًا فى الكويت مثلاً . وزاد عدد الأطباء

والمستشفيات فى مجال الخدمات وارتفع العمر المتوقع للأفراد كما أنه انخفض معدل الوفيات عند الولادة بين الأطفال .

من أبرز المتغيرات النفطية إزدياد عدد الوافدين وخاصة من آسيا بحيث وصلت نسبتهم إلى أكثر من ثلثى عدد السكان الأصليين المواطنين وهذا يؤثر على القوى العاملة . ونجد القوى العاملة للدول العربية فى الخليج العربى أقلية كما أنها لاتزال فى قطاعات اقتصادية معينة كما أدت الطفرة النفطية إلى زيادة الاستهلاك المحلى وخاصة الكماليات بحيث أصبح يضاهى الدول المتقدمة الرأسمالية وتحول بعض الأبحاث أن تحدد ما مدى السلبيات التى أصابت الفرد فى هذه الدول الخليجية نتيجة لهذا النمط .

تزايد الصراع الدولى على بترول الخليج العربى كان من أبرز المتغيرات النفطية فى المنطقة. ويرى تقرير لمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية فى جامعة جورج واشنطن عام ١٩٦٩ أن البترول هو الدافع للسياسة الأمريكية فى المنطقة إذ يقول لقد أحدث قرار الحكومة البريطانية بالانسحاب آثاراً عميقة على الوضع السياسى هناك . وقد تمثل ذلك فى محاولات بعض الدول الغربية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة أن ترث الدور الذى كان يلعبه الوجود البريطانى فيها بدافع المحافظة على المصالح البترولية الضخمة فى المنطقة . وللدلالة على أهمية البترول لأقطار الخليج العربى تكفى الإشارة إلى أن عائداتها بلغت فى عام ١٩٦٩ حوالى ٢٩,١٢٦ بمليون دولار وأن باقى الدول العربية بلغت عائداتها ١٥,٢٣٧ بمليون دولار وأن بترول إيران بلغت عائداته نحو ١,١٠٠ مليون وإن منطقة الخليج العربى تحتوى على ثلثى احتياطى البترول العالمى [٢٠].

لاريب أن عائدات الولايات المتحدة والدول الأوروبية واليابان واستراليا وهى المستخرجة والمستمدة من النفط العربى تبلغ أضعاف ذلك من الاستخراج والنقل والتسويق والصناعات البتروكيماوية ، وأن هذه العائدات جميعًا تتزايد بتزايد أسعار البترول واستهلاكه وأن أهمية البترول العربى بالنسبة للولايات المتحدة تتزايد للنضوب المستمر فى بترولها لاستهلاكها الكبير ولاعتمادها الكلى على البترول العربى خاصة والأجنبى عامة فى الاستهلاك والاستثمار ، وتحصل بريطانيا على ٥٠٪ من احتياجاتها البترولية من الخليج العربى وغيرها من الدول الأوروبية . ولاريب أنه ما دامت الدول العربية لاتمارس دوراً فعالاً فى الاستخراج والتسويق والنقل والصناعة.وما دام العالم فى حاجة إلى البترول العربى فيظل هذا البترول مصدراً للصراع الدولى حول هذه المنطقة [٢١].

مرحلة التأميم والصناعة والتسعيرة النفطية ١٩٧٣ - ١٩٩٠ :

وضعت الدول المنتجة سياستين لتحقيق سيطرتها على صناعة وانتاج البترول الخام من أراضيها وهما (أ) سياسة المشاركة (ب) سياسة التأميم التدريجي . وأثناء فرض الدولة المنتجة هذه السياسة قام رأس المال العالمى بفرض استراتيجية جديدة فى مجال البترول والطاقة . وكان من أهم أهدافها السماح بارتفاع أثمان البترول وعلى الرغم من تشابك سياسات الدول المنتجة ورأس المال العالمى أصبح من الصعب على المرء التمييز بين أسباب ونتائج ومظاهر التغيرات التى شهدها السوق العالمى وأرجعت الأسباب إلى عدة عوامل منها : (أ) سيطرة الدول المنتجة على مصادرها البترولية (ب) الاستراتيجية الجديدة لرأس المال العالمى (جـ) التغير فى اتجاهات التكاليف . وأخذت الدول المنتجة بسياسة المشاركة منذ النصف الثانى من السبعينات مع الشركات العاملة الأجنبية على أراضيها فى إنتاج البترول الخام وأنها بعد ارتفاع أسعار البترول حصلت على إيرادات ضخمة .

اهتمت معظم الدول المنتجة مع النصف الثانى من السبعينات بزيادة العوائد البترولية عن طريق تحسين أسعار البترول وتحقيق نوع من السيطرة على المصادر الهيدروكربونية . وبعد ظهور سياسة التأميم والمشاركة تبنت الدول المنتجة هذه السياسة وقامت بالتفاوض مع ممثلى الشركات العالمية لوضع هذه السياسة موضع التنفيذ إلا أن التطورات السريعة التى شهدها السوق العالمى أدت إلى امتلاك بعض دول المنطقة للشركات العاملة فى أراضيها وقبول هذه الدول المشاركة مع رأس المال العالمى فى العمليات اللاحقة لانتاج البترول الخام . كان هذا هو المبدأ الذى انطلقت منه السياسة البترولية للدول المنتجة وكانت سياسة المشاركة أمراً فرضته ظروف الوعى القوى والسياسى لشعوب الدول المنتجة للبترول واتبعت بعض هذه الدول سياسة اقتصادية وخاصة دول الخليج العربى وتهدف إلى :

١- تنويع التكامل الرأسى للصناعات البترولية والغازية وزيادة منتجاتها للتصدير إلى الأسواق العالمية .

٢- تنويع مصادر الانتاج والدخل وتقليل الاعتماد على الصادرات البترولية وذلك بتحقيق تكامل أفقى بين قطاع البترول المتكامل وبين قطاعات الاقتصاد الوطنى الأخرى .

٣- تدريب وتطوير الموارد البشرية فى عملية التصنيع .

٤- تنمية الموارد الهيدروكربونية والمدنية واستغلالها بما يؤدى إلى زيادة القيمة المضافة لهذه الموارد .

٥- الاستمرار فى برامج التصنيع والتحديث المعتمدة على المنتجات البتروكيمائية والصناعية باستخدام العوائد كمصدر للتمويل لاحداث تغير فى البنية الاقتصادية .

يمكن تحقيق هذه السياسة باستخدام عدة وسائل منها استخدام البترول والغاز كمادة أولية وكمصدر لتنمية قطاعات الانتاج السلعى داخل الحدود الوطنية واستخدام العوائد النفطية على نطاق واسع كمصدر لتكوين رأس المال والاستثمار فى مشروعات تطوير البنية الأساسية وتطوير للقطاعات الانتاجية السلعية فى البتروكيميائيات والزراعة والصناعة ودعم أنشطة التسويق العالمية وتنميتها لتصريف منتجات الصناعات ذات الحجم الكبير وتشجيع الاستثمارات الخاصة ودعمها مع قيام الدولة بالاستثمار المباشر فى قطاعات الانتاج فى الصناعات الأساسية داخل الحدود الوطنية واستمرار تشجيع اشتراك رأس المال الأجنبى واستخدام التقنية الحديثة فى المشروعات الصناعية بالتعاون مع المستثمرين الوطنيين .

تحديد سعر النفط كان وما زال من القضايا المهمة فى التجارة الدولية . ومنذ عام ١٩٧٣ طرأت زيادة على الأسعار الثابتة من ٢,٥٩ دولار إى ٥,١٢ دولار وفى عام ١٩٧٤ قفز إلى ١١,٦٥ دولار . وأسرعت الولات المتحدة لعقد مؤتمر فى واشنطن مع الدول الصناعية لمجابهة ارتفاع أسعار النفط ولتخفيض الواردات منه فى حين اكدت منظمة الأوبيك فى اجتماعاتها الدورية اتفاقها على سياسة تحديد الأسعار وتبنت سعراً موحداً وهو ١٠,١٢ دولار لبرميل النفط الخام على أن يبدأ سريان هذا السعر فى ١ / ١ / ١٩٧٥ وقامت حملة من الدول الصناعية ضد منظمة الأوبيك لأنها أثرت بقرار زيادة سعر النفط فى مشاكلها الاقتصادية ولكن لاتوجد أدلة اقتصادية تؤيد أن ارتفاع سعر النفط هو السبب لما تعانيه الدول الرأسمالية من مشاكل اقتصادية . وكانت هناك عدة عوامل تؤثر فى أسعار النفط فى التجارة الدولية قبل تحديد الأسعار من قبل منظمة الأوبيك وهى كما يلى :

١- تحكم الشركات الاحتكارية الكبرى فى تحديد أسعار النفط ولم تكن لمنافسة قوى العرض والطلب أى اعتبار .

٢- ظهور تفاوت فى أسعار النفط وخاصة خليج المكسيك وبين نفط الشرق الأوسط فقد أخذ فى الإتساع مما أدى إى تدهور نفط الشرق الأوسط .

٣- لم يكن انتاج النفط موجهًا لخدمة المصالح الاقتصادية للدول المنتجة فى الخليج العربى ، فالتطور الاقتصادى لهذه الدول يعتمد على تمويل واستبدال مواردها الدفينة إلى أشياء منتجة تساعد على تنويع مصادر الدخل .

٤- تهتم الدول المنتجة بحصة الحكومة فقط وهو نصيبها الذى تحصل عليه من السعر المدفوع من النفط .

٥- لقد كان نفط المنطقة يباع بسعر رخيص فى الأسواق الدولية .

نظرًا لاستغلال نفط المنطقة لفترة طويلة فأن الدول المتخلفة لن يكون بامكانها التغلب على هذا التطور فى أسعار النفط بدون مساعدة خارجية . ولكن نظام المشاركة وقيام منظمة الأوبيك أدى إلى ارتفاع فى أسعار النفط وبالتالى إلى زيادة العوائد المالية وخاصة بعد عملية التأميم فى بعض الدول البترولية .

لم يكن بعض الحكام يرغبون فى مضايقة شركات النفط بالإلحاح على زيادة حصة بلدانهم ولم تكن هناك صلة بين انتاج النفط كنشاط اقتصادى وقطاعات الاقتصاد الوطنى ولا من حيث اعادة توظيف الفائض من الدخل محليًا حتى بداية الثمانينات عندما ظهرت بعض الصناعات التحويلية والاقتصاد والوطنى للدول النفطية فى الجزيرة العربية لايعتمد مباشرة على النفط بل يعتمد عليه بطريق غير مباشر وهو طريق مصروفات الدولة أو الانفاق العام الذى يتحول إلى قناة لضخ دخل النفط . وهذا يبرز الدور المركزى الذى تلعبه الدولة من حيث كونها المستلمة لدخل النفط في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان ولكن بشكل مغاير للدول الأخرى التى تعتمد على الضرائب والقطاعات الانتاجية والخدمية فى الاقتصاد الوطنى. والدخل من النفط يجعل الدولة مستقلة نسبيًا عن مصادر القوة والسلطة المتعارف عليها في الدول الأخرى . ولذلك فانها تتمتع بمرونة فى العمل وحرية فى المناورة تفوق إلى حد كبير الأحوال الإعتيادية التى تحصل فيها الدولة على دخلها من الضرائب أو العلمية الانتاجية وهناك ثلاثة أبواب للانفاق العام لهذه الدول فى الميزانية العامة وهى الإنفاق الرأسمالى والتعويضات العامة والاستهلاك العام أما الانفاق الرأسمالى فيتضمن كل أوجه الاتفاق على العمل والمواد اللازمة لانتاج السلع والخدمات تقدم مجانًا أو بأسعار رمزية . أما الاستثناءات كشركات الطيران الحكومية أو الكهرباء والماء والبريد والهاتف .. الخ . فهى تعتمد على التمويل الذاتى أو على دعم الدولة ولا بد فى الحالة الأخيرة من التمييز بين

الانفاق الرأسمالى والاستهلاكى العام أما الخدمات التى لاتمول نفسها ذاتيًا كالصحة والتربية والخدمات البلدية فلابد من اعتبارها ضمن الاستهلاك العام وهو الباب الذى مولت من خلاله برامج ما يسمى بدولة الرفاهية الضخمة (٢٢). وباب التعويضات العامة وفى العادة هى مجموعة من المبالغ الكبيرة التى تدفع من الميزانية العامة على شكل فوائد على الدين العام، والضمان الاجتماعى واستخدام الدعم التموينى والتعويضات المختلفة .

استخدم هذا الباب أيضًا لخلق طبقة عقارية طائلة الثراء وتحويل قطاع الاستيراد والتصدير إلى أكثر قطاعات الاقتصاد دينامية وكل ذلك من ميزانية الدولة ويتم ذلك عادة عن طريق ما يسمى بالتثمين أو استهلاك الدولة للأراضى العقارية بحجة إقامة مشاريع عامة أو طرق عليها . وقد أفادت فئات واسعة من السكان من هذا النوع من التعويضات ولكنها إفادة أشبه ما تكون بفتات المائدة لأن المستفيد الأعظم منها كان العائلات التجارية وأن ضخ هذه المبالغ الكبيرة من رأس المال وتدويره فى الاقتصاد الوطنى أعطى الانطباع بالرفاء والازدهار الاقتصادى من دون أن يحدث أى توسيع فى القاعدة الانتاجية للاقتصاد عن طريق التصنيع والتنويع فى مصادر الدخل وأن الدولة التى تملك فوائض كبيرة من رأس المال تؤدى إلى مزيد من التدخل فى الاقتصاد من خلال احتكار تحويل وإنشاء وضمان كل أو أغلب المشروعات الصناعية والتجارية . كما أن أكثر قطاعات الدولة حركة ونشاطًا كالاستيراد والتصدير والبناء والمقاولات تعتمد اعتماداً رئيسيًا على مناقصات الدولة ولذلك فما أن ينخفض معدل الانفاق العام حتى تبدأ عجلة الاقتصاد بالتوقف وبالتالى تؤدى أساليب الانفاق العام تحت هذه الظروف عادة إلى نتائج عكسية تعوق عملية تقدم وتطور النظام الاقتصادى والاجتماعى وذلك لأسباب عدة منها أن الرخاء أو الازدهار الاقتصادى الظاهر ليس مؤشراً على كفاءة أداء الاقتصاد الوطنى أو مستوى تطور المجتمع أو درجة تصنيعه بل إن الرخاء السطحى يؤدى إلى اعاقة التنمية ودفع السكان إلى الاكتفاء باقتسام المنافع الآنية المتأتية من الانفاق الحكومى المتولد من النفط (٢٣).

إزدهار قطاع الاستيراد والتصدير وقطاع البناء والتوسع فى قطاع الخدمات والارتفاع الكبير فى مستوى الأجور ، كلها عوامل جذب للعمالة الوافدة والأجنبية فى القطاعين العام والخاص ولكن هجرة هذه العمالة وصلت حداً من انعدام التخطيط والتخبط جعل من أبناء الشعب العربى فى الدول الخليجية أقليات فى بلدانها إضافة إلى الضعف الملحوظ لاسهام

القوى العاملة المحلية فى النشاط الاقتصادى وأن نسبة الوافدين إلى مجموع السكان لاتقل عن ثلث السكان فى عمان والبحرين . وترتفع إلى أكثر من النصف فى الكويت لتصل إلى ثلثى السكان فى قطر وإلى ثلاثة أرباع السكان فى دولة الامارات العربية المتحدة وأن مساهمة سكان هذه الدول فى النشاط الاقتصادى محدود جداً . وأغلب هذه المساهمة فى القطاع الحكومى والعام بشكل بطالة مقنعة بنائية أى تشير إلى خلل بنائى فى الاقتصاد عمومًا وأن العمالة الوافدة تزداد فى القطاع الخاص الاستهلاكى الذى يعتمد على التوريد إلى القطاع الحكومى وفى هذا الوضع يلعب الانفاق الحكومى أو الاستهلاكى العام دوراً مركزيًا فى النظام الاقتصادى للدولة مما يعطى الانطباع بالرخاء والازدهار الاقتصادى مع أن الحقيقة هى أن حدة الفوارق فى حدة الدخل بين فئات السكان تتزايد باستمرار وتتسع الهوة بين الغنى المفرط والفقر النسبى . هذا فى وقت تتسع الهوة بين الدول النفطية والدول الرأسمالية المتقدمة من حيث إمكانات وفرص التنمية الحقيقية التى تهدر فى الدول النفطية يومًا بعد يوم ولكن الانفاق الحكومى يخفف من حدة الوضع مما يؤجل التغير السياسى وضرورة معالجة النقص فى التنظيمات الاجتماعية والترتيبات المؤسسية القائمة .

الهوامش

١- د. محمد عدنان مراد - المراجع السابق ص٢٦٣ .

٢- د. جمال زكريا قاسم - الخليج العربى - دراسة لتاريخه المعاصر ص٤٥٢ .

٣- د. صلاح العقاد - التيارات السياسية فى الخليج العربى ص٣٢٠ .

٤- د. صلاح العقاد - نفس المرجع ص٣٢٢ .

٥- د. صلاح العقاد - نفس المرجع ص٣٢٢ .

٦- د. عبد المالك التميمى - المرجع ص٢٧٧ .

٧- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٢٧٩ .

٨- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٢٨١ .

٩- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٢٨٤ .

١٠- د. خلدون النقيب - المرجع السابق ص١٢١ .

١١- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٥١٥ .

١٢- د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص٣٣٣ .

١٣- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٥١٧ .

١٤- د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص٣٣٦ .

١٥- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٤٩٨ .

١٦- د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص٣٣٧ .

١٧- د. صلاح العقاد - نفس المرجع ص٣٣٥ .

١٨- د. صلاح العقاد - نفس المرجع ص٣٤١ .

١٩- د. صلاح العقاد - نفس المرجع ص٣٤٣ .

٢٠- سيد نوفل - المرجع السابق ص٣٦ .

٢١- سيد نوفل - نفس المرجع ص٣٦ .

٢٢- د. خلدون النقيب - نفس المرجع ص١٢٤ .

٢٣- د. خلدون النقيب - نفس المرجع ص١٢٦ .

٢٤- د. خلدون النقيب - نفس المرجع ص١٣١ .

الفصل الحادى عشر

التاريخ الاجتماعى لشرق الجزيرة العربية

«الساحل الغربى للخليج العربى»

التاريخ الاجتماعى قبل عصر النفط فى شرق الجزيرة العربية

- علاقة الانتاج بالمجتمع.
- العلاقات الاجتماعية.
- البناء الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية .
- النظام القانونى.
- النظام السياسى.
- النظام التعليمى.
- المرأة .
- القيم والعادات - النظام الدينى.

التاريخ الاجتماعى فى عصر النفط فى شرق الجزيرة العربية .

- التغير الاجتماعى.
- الطبقات الاجتماعية.

أ- الطبقة التجارية.

ب- الطبقة الوسطى.

جـ- طبقة العمال ..

- وضع الأسرة والمرأة .
- العمالة الوافدة .
- أسباب انتشار العمالة الوافدة.
- الآثار الاجتماعية المترتبة على السكان.
- آثار العمالة الوافدة على التأليف الاجتماعى.
- آثار العمالة الوافدة على الثقافة العربية . -البناء الاجتماعى والتحديات المعاصرة.

التاريخ الاجتماعى قبل عصر النفط فى شرق الجزيرة العربية

يعتبر المجتمع فى الخليج العربى امتداداً طبيعيا للمجتمع فى الجزيرة العربية ويتكون من عدة قبائل عربية وترجع أصولها إلى مجموعتين الأولى قبائل عربية فى الشمال وهى عدنانية حجازية والثانية فى الجنوب وهى قحطانية يمانية أى عرب العاربة فى الجنوب وعرب المستعربة فى الشمال . ولابد لأى قبيلة فى الخليج العربى أن ترجع إلى هاتين المجموعتين وإلا فلا تعتبر عربية ومعظم هذه القبائل فى المنطقة احتفظت بمجموعاتها من التراث والتقاليد والعادات واللهجات دون أن تختلط ولا زالت تحافظ إلى يومنا هذا برغم قوة الغزو الفكرى والتغيرات السياسية والاقتصادية وافرازات الحضارة الغربية والصناعية وهى تحاول الإحتفاظ بالجذور مع المسايرة فى الركب الحضارى الحديث دون أن يتغير جوهرها . وهى معادلة صعبة ولكنها أثبتت نجاحها حتى الآن واستطاعت أن تتكيف مع المعطيات الجديدة المعاصرة والحفاظ على طابعها العربى - الإسلامى بعادات وتقاليد وموروثات قديمة تتناسب مع الواقع الجديد . ولابد أن تكون هناك بعض الشواذ فى القاعدة ولكنها قليلة لاتذكر ومما سوف يضمن بقاءها فى المستقبل ظهور الحركات السياسية - الدينية وخاصة الحركات الأصولية التى تحاول الرجوع إلى الأصول الأصلية للإسلام والعروبة .

أقامت التجمعات القبلية كيانات سياسية فى الخليج العربى قبل مجىء الاستعمار البرتغالى إلى المنطقة فى العصر الحديث . ومن أهم هذه التجمعات القبلية التى ذكرنا فى الفصل الأول وهى الجبور فى الإحساء والبحرين أو المنطقة الشرقية فى الجزيرة العربية وبنى نبهان فى عمان إضافة إلى القبائل العربية فى مملكة هرمز . ولم تتوقف الهجرات العربية سواء كانت من القبائل الحجازية العدنانية أو القحطانية اليمانية إلى سواحل الخليج العربى منذ تلك الفترة حتى يومنا هذا برغم وجود الحدود السياسية المصطنعة التى أقامها الاستعمار وللأسف تم تكريسها من العرب أنفسهم . ومن ضمن هذه الهجرات ، هجرة العتوب إلى كل من قطر والكويت والبحرين مثل آل صباح والخليفة والجلاهمة أثناء حكم قبائل بنى خالد فى شرق الجزيرة العربية . وفيما بعد خروج قبائل المعاضيد والعلى إلى كل من قطر والبحرين وقبائل المناهيل والصيعر والكثير والمناصير إلى أبوظبى وقطر . ومن أحدث هذه القبائل قبائل النعيم بفروعها الثلاثة وهى البوشامس والبوخريبان والخواطر من اليمن إلى البريمى فى

عمان إضافة إلى القبائل الموجودة فى الامارات العربية المتحدة (ساحل عمان سابقًا) مثل بنى ياس والعوامر والحبوس والطنيج والشرقيون وبنى قتب وبنى نقب ، والقبائل الغافرية والحناوية فى عمان وقبائل العوازم والعجمان والمطيرى والرشايدة وغيرهم فى الكويت وبنى مرة والهواجر والسبيع والعجمان وغيرهم فى الإحساء وهناك قبائل أخرى لم نذكرها هنا جاءت إلى شرق الجزيرة العربية من ضمن المجموعات القبلية العدنانية والقحطانية .

أنشأت هذه القبائل العديد من الكيانات السياسية فى العصر الحديث ولم يكد يشرف القرن الثامن عشر على الإنتهاء حتى كانت تلك الكيانات قد ثبتت وجودها فى المناطق التى نزلت التجمعات القبلية فيها وأخذت تلعب دوراً هامًا فى أحداث منطقة الخليج العربى مما دفع بالقوى الاستعمارية الأوروبية إلى الدخول فى علاقات مع بعض تلك الكيانات وإلى الاصطدام العسكرى معها فى بعض الأحيان مثلما حدث بين الاستعمار الهولندى وقبائل ميناء ريق وجزيرة الخرج والاستعمار البريطانى ضد قبائل بنى كعب فى عربستان وضد قبائل ساحل عُمان .

شكلت القبيلة أساس الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومحورها السائد للتنظيم الاجتماعى فى المنطقة . والقبيلة وحدة قرابية تقوم على الانتماء إلى سلالة واحدة وكانت القبيلة محور النشاط الاقتصادى والعسكرى والسياسى والوجود الشرعى عرفًا للتنظيم الاجتماعى . كما أن العلاقات التجارية مع الخارج فى السابق لم تؤثر أو تعمل على إضعاف التماسك القبلى بل أدت إلى تقوية الروابط القبلية فى محاولة للحفاظ على الذات أمام التيارات التى قد تؤثر على هذا الوجود وهذا أمر طبيعى وتلقائى لم يأت عنوة أو مخططًا له وكان التاريخ السياسى للقبائل الصراع فيما بينها . ويتزعم القبيلة شيخ له السلطة السياسية والقانونية ومركز الشيخ كان مقتصراً على الفروع والبطون والفخوذ داخل القبيلة ذات النفوذ والقوة كما أن المجتمع القبلى يتكون من طبقات اجتماعية متباينة من حيث السلطة والثروة والقبائل كانت على أساس الأقوى والأضعف والأغنى والأفقر المسلحة وغير المسلحة وطبيعة تركيب القوى الاجتماعية فى المنطقة لم تكن بعيدة عن الاستغلال . وأن القوى العائلية والقبلية المسيطرة صاحبة النفوذ الاقتصادى والسياسى كان لايمكن لها أن تبقى فى مراكزها الاجتماعية دون استغلال تلك القوى المنتجة فى المجتمع ولكن نوعية الاستغلال ووسائله كانت تختلف عنها اليوم لاختلاف طبيعة البنية الاقتصادية وكذلك القوى الاجتماعية وما

طرأ عليها من تغيير وتأثير وهناك فترات تاريخية مرت على هذا المجتمع عاش فيها فى ركود بفعل ظروف داخلية وخارجية أضعف من نشاطه الفكرى والمادى فى التأثير على الهياكل الأساسية والتركيبة الداخلية لهذا المجتمع .

أخذت القبيلة مكانها فى الخليج العربى كسلطة سياسية وتتفاوت درجة التماسك داخل القبيلة من قبيلة لأخرى وأن تاريخ المنطقة وأصول المجتمع هى امتداد لتراث البدو والقبيلة قد تكون مقيمة حضرية أو مترحلة بدوية . فالقبائل الحضرية كانت أكثر ميلاً للالتفاف حول إدارة مركزية قوية وصاحب ظهورها إقامة بعض المستوطنات وهى نواة المدن الحالية على ساحل الخليج العربى . وأدى تمركز القبائل القوية إلى تزايد سلطة الحكم الفردى فيها ولذلك كانت القبائل تمثل قوة مؤثرة فى أوضاع المنطقة عبر تاريخها لذا فقد اتجه تعامل القوى الخارجية مع المنطقة إلى شيوخ هذه القبائل وحكام مقاطعاتها عن طريق عقد الاتفاقيات والنفاذ إليها سياسيًا واقتصاديًا منذ بداية القرن التاسع عشر وبخاصة بريطانيا التى عقدت معهم الاتفاقيات السياسية والاقتصادية مما أدى بمرور الوقت إلى شكل إمارات خاضعة للسلطة البريطانية وأن المجتمع فى الخليج العربى كان قائمًا على الأساس القبلى والعشائرى وكانت الفروقات القبلية والاجتماعية والمصلحية تؤدى إلى الصدامات بين القبائل وكان داخل كل قبيلة تمايز اجتماعى سواء كانت حضرية أم بدوية .

علاقة الإنتاج بالمجتمع :

كافح سكان الخليج العربى مع الطبيعة القاسية من أجل لقمة العيش ونظراً لقلة الأمطار وفقر الأرض فانهم اتجهوا إلى البحر غوصًا على اللؤلؤ فى قاعه وصيداً للأسماك على شواطئه أو بحراً فوق موجه إلى أقاصى البلاد بحثًا عن رزقه وهو النشاط الانتاجى السائد إضافة إلى الزراعة فى الواحات والتجارة الداخلية أو الخارجية . وهذا الواقع الاقتصادى أفرز واقعًا اجتماعيًا فكريًا لم ينته بانتهاء ذلك الاقتصاد التقليدى ما قبل النفط وإنما لا زالت مجتمعات المنطقة فى شرق الجزيرة العربية تحمل منه الكثير نظراً لأن التغيرات فى العلاقات والقيم والمفاهيم لاتتناسب سرعتها مع التغيرات فى الواقع الاقتصادى فهى تبقى لفترة أكبر وتؤثر لمدة أطول . ومن هنا تأتى أهمية العلاقات الانتاجية وما صاحبها من علاقات اجتماعية فى المجتمع ما قبل النفط لفهم الفترة الحالية بعد اكتشاف النفط وتفسير الكثير من العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القائمة اليوم فى مجتمعات شرق الجزيرة العربية المعاصرة.

منذ أن نشأت التكوينات لمجتمعات المنطقة فى التاريخ الحديث بعد الهجرات للقبائل العربية العدنانية والقحطانية إلى السواحل الشرقية للجزيرة العربية منذ نهاية القرن الثامن عشر لابد وأن نقف على العلاقات الاقتصادية التى صاحبت هذا النوع من النشاط الإنسانى وأن علاقات الإنتاج لم تكن ثابتة على مر العصور وأن أساس العلاقات الإنتاجية كان متشابهًا على الأقل وخاصة مهنة الغوص على اللؤلؤ التى توارثتها الأجيال كمصدر رزق أساسى لها وهى فى فصل الصيف تقريبًا مما يجعل من قوة العمل الرئيسية مشغولة فقط ربع العام وبعدها يعيشون الغواصون فى بطالة تامة أو شبه تامة إلا من توفر له بعض الأعمال على اليابسة ، ورغم أن محصول الغوص هو الدخل الرئيسى لقطاع كبير من سكان المجتمع الساحلى . إلا أن هذا الدخل هو ناتج من ربع السنة كان المفروض أن يعول الغواص وعائلته لمدة سنة كاملة ، فرغم قساوة العمل الذى يقوم بها أود الغواص فى البحر وهو المنتج الرئيسى فى هذا النوع من العمل إلا أن تقسيم الفائض وطريقة تمويل حملة الغوص تعود بالفائدة على صاحب رأس المال ومع أنه لم يكن هناك اقطاع فى النظام القبلى بالمعنى المتعارف عليه فى شرق الجزيرة العربية إلا أننا يمكن أن نتحدث عن اقطاع وقنانة فى هذه الصناعة التى حولت عامل الغوص إلى شبه عبد للممول ومالك وسيلة الانتاج .

تميل علاقة الانتاج بين العاملين على سطح الأرض لصاحب رأس المال أيضًا فلم يكن الزراع فى المجتمع الاقتصادى التقليدى فى شرق الجزيرة العربية يعرفون ملكية الأرض بالمعنى الاقتصادى من حيث هى تتضمن الحقوق الدائمة فى السيادة وحرية التصرف . فقد كان الأهالى يتمتعون فقط بالحق فى استغلال الأرض دون أن يكون لهم حرية التصرف فيها وكانت الزراعة فى الواحات والأراضى القليلة الصالحة للزراعة الموسمية فى المرتبة التالية بعد الغوص والتجارة . وكانت ملكية الأرض الزراعية إقطاعية قبلية أى أن الأرض هى ملك شيخ القبيلة كما كانت معظم الأراضى فى المنطقة مملوكة عمومًا بوضع اليد للشيوخ يتصرفون فيها كما يشاؤون أو لكبار الملاك .

تثير ملكية الأرض فى المجتمع الخليجى كما هى فى المجتمعات العربية الأخرى كثيرًا من المشاكل حول كونها نوعًا من الملكية أو هى مجرد حيازة تتمثل فى وضع اليد والاستغلال دون اعتراف رسمى من الدولة أو من المجتمع بهذه الملكية باعتبار أن الملكية الحقيقية تكون للدولة أو لشيوخ القبائل مما يعنى بأن ملكية الأرض هى خاصة بالحاكم أو لشيخ القبيلة

السائدة المستقرة فى مجتمع شرق الجزيرة العربية . والأرض الزراعية إما أن تكون للشيوخ أو موهوبة منهم لكبار التجار أو مشتراة من الآخرين . لذلك فان الأرض الزراعية كانت تضمن أيضًا حيث تعطى لمتعهدين فى الأسر الفلاحية التى تقوم بزراعة الأرض مقابل تعهدها بمردود مالى أو عينى ، ويقوم شيخ القبيلة بتعهد الأرض للمزارع على أسس وأعراف متفق عليها فالعامل فى الأرض تنحصر حقوقه فى الانتفاع بهذه الأرض حسب الشروط التى يضعها المالك وهى غالبًا ما تكون على أسس فردية وليست حقوقًا عامة لجميع أعضاء الوحدة القرابية ولقد ظهر فى بعض المناطق الزراعية الخصبة نسبيًا شكلاً من أشكال القنانة فى العلاقات الاقتصادية الزراعية فمستغل الأرض يضمن نسبة معينة من الإنتاج وهو ضمان فيه كثير من المغامرة ويضطر لها المزارع كى يحصل على قوته وغالبًا ما يفشل فى تحقيق ما ضمن لصالح مالك الأرض فتصادر ممتلكاته الخاصة وفاء لذلك الضمان . وقد انتشرت هذه الممارسة فى البحرين وظاهرة تلزيم الأرض إلى ملتزمين يضمنون غلتها للمالك ولم تكن مقصورة على الأرض فقد كانت موارد المجتمع الأخرى تلزم أيضًا كما كان جاريًا فى مداخل الموانىء . فقد كان الحاكم يلزم دخل الموانىء فى إمارته إلى وكيل من التجار يقوم هو بفرض الرسم باسم الحاكم نتيجة تعهده مبلغ من المال سنويًا لذلك الحاكم وفق ما يراه مناسبًا من الضريبة على مستخدمى الميناء والمستوردين ليفى بالمبلغ المقرر عليه ويفيض له(٢) مبلغ آخر.

العلاقات الاجتماعية :

نجد أن علاقات الانتاج القائمة على الملكية الفردية لوسائل الانتاج كالسفن والأرض وآبار المياه .. الخ ، قد خلقت علاقات اجتماعية منسجمة معها فانقسم المجتمع إلى عدة فئات حسب تضافر أو تنافر مصالحها . وتكونت بذلك مجمل العلاقات الاجتماعية الأخرى وعلى الرغم من أن وحدة الصراع الطبقى لم تكن ظاهرة ملحوظة حيث أضعف من حدتها مجموعة من العناصر على رأسها صغر المجتمع وعدم وجود خيارات أخرى للفئة الكبيرة من السكان والعاملين فى الغوص والزراعة وعلى السفن التجارية وضعف الوعى الاجتماعى وعدم وجود التعليم. ومن مجمل علاقات الانتاج السائدة فى تلك المجتمعات كان من المتوقع أن نحصل على علاقات اجتماعية شاملة ومتسقة مع تلك البنية التحتية الاقتصادية التى تم وصفها وهذه العلاقات الاجتماعية العامة متعددة وكثيرة ومتشابكة لايمكن حصرها ولكن يمكن تناول بعض العلاقات الأساسية كأسرة والنظام القانونى والسياسى والنظام التعليمى والقيم والعادات .

البناء الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية :

تعتبر القبيلة هى المجموعة الاجتماعية السائدة فى مجتمعات شرق الجزيرة العربية قبل النفط وكلما تقادم وجودها فى الاستقرار فى الواحات وفى المدن الساحلية على امتداد الخليج العربى كلما ضعف بناؤها الاجتماعى ودخلت فى علاقات الانتاج السائدة . ومن أهم مكونات القبيلة الأسرة الممتدة أى الأسرة المكونة من الجد والأبناء والأولاد وهى جزء من بناء قبلى وقرابى أوسع ، هذه الأسرة كانت تشكل قاعدة الانتاج الاقتصادى والاجتماعى وكذلك تتحكم فى الضبط الاجتماعى فى مجتمعات شرق الجزيرة العربية التقليدية والأسرة تملك أو تستأجر وسيلة الانتاج كأن يكون رب الأسرة يملك أو يشرف على تشغيل سفينة نوخذا أو يكون المتعهد الرئيسى فى الزراعة . ويقوم أفراد الأسرة الرجال منهم فى حالة الغوص على اللؤلؤ أو بمشاركة النساء فى القطاع الزراعى والرعوى بتقديم قوة العمل لذلك نجد أن رب العائلة تتركز فى يده السلطة الاقتصادية والاجتماعية . ويحدد نظام الزواج التقليدى داخل الأسرة وذلك من أجل الحفاظ على وسيلة الانتاج وإبقائها فى إطار الأسرة وفى قطاع العاملين بالبحر وهم الأغلبية فى مجتمعات تقليدية ؛ فالأسرة وسلطة الأب مطلقة على أفرادها وتصنف الأسر نفسها بين أصيلة وبيسرية وهو تقسيم اجتماعى أساسه اقتصادى ذابت أصوله الاقتصادية وبقيت مظاهره الاجتماعية ولايحدث تزاوج بين هذه الأسر . وينشأ الأبناء فى الأسر على الطاعة لرب الأسرة ويتشربون من خلال التنشئة الاجتماعية قواعد وأعرافًا اجتماعية تصبح ملزمة لهم (٣).

النظام القانونى :

لم يكن هنك نظام قانونى بالمعنى المتعارف عليه فى تلك المجتمعات وأول قوانين صدرت كانت فى العشرينات من القرن الحالى وهى قوانين خاصة بالغوص وعلاقاته وهى ذات طبيعة طبقية ؛ فهى قد قننت الواقع ولم تغيره فقانون الغوص الذى وضع من قبل فئة النوخذة يدافع عن مصالحهم . ومن مطالعة قانون الغوص الذى صدر فى الكويت نتبين طبيعته والشريحة الاجتماعية التى يخدمها ففى المادة الثالثة مثلاً يقول «يلزم جميع البحارة امتثال أوامر النواخذا فى مدة موسم الغوص براً وبحراً وليس لهم الحق فى مخالفة أوامره» ، وهذه القوانين التى صدرت فى الكويت والبحرين فى العشرينات والثلاثينات ما كانت إلا إلى وسط القرن العشرين ما كتبه أمين الريحانى فى هذا الخصوص فهو يشير إلى نوع الحكم فى الكويت فيقول :

«أما نوع الحكم فقد كان قبل الصباح بن جابر الثانى شوريًا يشترك فيه رؤساء العشائر فلايقوم الحاكم على أمر مهم قبل أن يستشيرهم وهم يستشيرون الجماعات ولكن هذه الشورى بدأت تضعف فى عهد الصباح الثانى حتى تقلص ظلها تمامًا فى أيام ابن مبارك الذى حكم بأمره » ، أما فى البحرين فيلاحظ نفس الكاتب «أمين الريحانى» حيث يقول :

«سألت عن شكل الحكومة عندما كنت هناك فى البحرين فعلمت أنها ثلاثة أشكال وطنية وأجنبية ومختلطة كان الشيخ عيسى بن على يدير الأولى والبليوسى المعتمد البريطانى يدير الثانية ورئيس البلدية إيرانى صاحب الكلمة النافذة فى الثالثة » ، ويصف الكاتب قبل ذلك مفهوم العدل وتطبيقاته فيقول «أما العدل فقد كان غالبًا معززًا فى عهده» ، أى عهد الشيخ عيسى بن على ، ولكن لاينبغى ما كان يحدث من المظالم فى دوائر أحكام البحرين وأن أسدل عليها ستار من التمويه .

تبدو لنا بوضوح من دراسة نظام الحكم فى المجتمع التقليدى فى شرق الجزيرة العربية حالة كلاسيكية لتطور تقسيم العمل من المشاعية «الملكية القبلية المشاعية» إلى تقسيم عمل محدد يستفاد منه طبقيًا ويحقق بروز طبقة سادة من عائلات تستولى على وظائف اجتماعية وتستغلها من أجل تركيز المزيد من الثروة فى أيديها لذا فان الأفراد غير المنتجين لأجل القيام بوظائف اجتماعية معينة فى ظروف تقسيم العمل وفى ظروف الملكية الخاصة أخذوا يغتصبون الوظائف العامة الاجتماعية ويحولونها إلى وظائف وراثية . فبالتحول من القبيلة إلى الدولة فى هذه المجتمعات نتيجة لتقسيم العمل الناتج عن نمط الانتاج غير المعروف لدى القبائل فى البادية تحولت القبائل بالتحالف مع كبار التجار إلى السيطرة السياسية . واعتمدت هذه السيطرة فى البدايات الأولى على المجتمعات القبلية والعائلية ثم ما لبثت أن تحولت إلى سلطة محتكرة تقوم من خلال التعهد والسيطرة على تحرير مصالحها الطبقية فتلاحظ أنه فى الجماعات المستقرة هناك شيوخ للمناطق لهم سلطة منوطة من الحاكم فيصدرون الأوامر ويؤجرون الأرض ويفصلون فى المنازعات ويقوم السكان بتقديم جزء من فائض الانتاج لهم فصفات الحكم هنا هى صفات ما قبل الدولة المعروفة أى الاعتماد على الأعراف والتقاليد وعلى جهاز قمع أولى هو «الفداوية» فى تسيير أمور المجتمع [٥]، ومن هنا أيضًا يمكن تفسير الصعوبات الشديدة التى تواجهها مجتمعات المنطقة اليوم لايجاد مؤسسات سياسية حديثة .

النظام التعليمى :

لم يكن من المتوقع أن تكون هناك مبادرة من السلطة السياسية بتركيبتها السابقة التى ذكرنا سابقًا والمصالح التى تمثلها أن تبادر إلى وضع أسس للتعليم فى هذه المجتمعات بجانب أن فهمها لأهمية التعليم محدود ولهذا كان هناك نوع واحد من التعليم مسيطر لفترة زمنية طويلة يقوم على أساس تحفيظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والكتابة والقراءة البسيطة عن طريق المدرس والمدير ويستخدم منزله لهذه الغاية حيث يقصده التلاميذ لتلقى العلم ولذا فقد لعب الكتاب «المطوع» الشكل الأساسى فى التعليم .

عندما لم تعد المنازل ملائمة للقيام بتلك المهمة لتزايد الطلب على هذا النوع من التعليم الذى لايوجد سواه أو بديل عنه اضطر هؤلاء «المطاوعة» أن يحولوا هذا النوع من التعليم من كونه عملاً خيريًا إلى حرفة لكسب الرزق مما أدى بهم إلى استقبال تلاميذهم فى أماكن خاصة فى أحد المنازل أو فى زوايا احدى الدكاكين أو أروقة فى فصل الصيف . ومما يلفت النظر عند استعراض هذا النوع من التعليم نجد أنه كان مختلطًا حيث كانت الفتاة تجلس إلى جانب الفتى للتعليم رغم محافظة المجتمع الشديدة آنذاك . وهذا لايعنى أنه لاتوجد نساء يقمن بدور المعلم «المطوع» ولكن عددهن كان ضئيلاً والبرنامج التعليمى هو حفظ القرآن الكريم وقليل من القراءة والكتابة . وعندما كان التلميذ أو التلميذة يختم القرآن ويحفظه كان والده أو والدها وأصدقاؤه يشتركون فى احتفال شعبى بديع يعرف «بالختمة» وهو احتفال أشبه ما يكون باحتفالات التخرج هذه الأيام بل أكثر أهمية . لقد كان التلميذ يختم هذا النوع من الدراسة فى سنة أو سنتين وربما أكثر لبعض التلاميذ ولم يكن هناك امتحان فى هذا النوع من الدراسة والشىء الوحيد الذى كان يعتبر دليلاً على أن الولد قد تعلم هو حفظه القرآن بأكمله . وكان يتبع هذا المستوى من الدراسة القراءة والكتابة بشكل عام ولكن هذه المرحلة كانت مرحلة عالية لم يكن يحضرها سوى القليل من المتفوقين الطموحين وعندما يصبح التلميذ ماهرًا فى الكتابة على اللوح الخشبى يسمح له بالكتابة على الورق حيث كانت تعتبر المرحلة الأخيرة وبعدها كان الناس يعتبرونه شخصًا متعلمًا .

يعتبر «المطوع» الآمر الناهى فى «الكتاب» ولكونه عادة من رجال الدين فان الثقة به كاملة ولم يكن أحد من التلاميذ يستطيع المناقشة المعارضة أو الشكوى حيث أنه كان يأمر وعلى التلاميذ جميعًا أن يمتثلوا لأمره ودورهم الوحيد هو التلقى . كما كان «المطوع» يعامل تلاميذه بشىء من الغطرسة والعقوبة كانت غاية فى القسوة وقد كان يعتقد أن الضرب

ضرورى لتعويد تلاميذه على النظام وكثيراً ما كان يردد هذا البيت من الشعر الشعبى : «رحم الله من بكانى - لانه هو الذى ربانى» ، ولم تكن هذه العقوبة تؤثر أو تمس التلاميذ أبناء الأغنياء أو الشيوخ فقد كانت من نصيب الفقراء فقط . وقد كان المطوع يبرر هذا السلوك بالاستشهاد بالمثل التالى : «إضرب أبناء العامة يتأدب أبناء الخاصة» ، وتفسير ذلك إما تقربًا من الأغنياء للحصول على قدر مناسب من المال والهبات أو خوفًا منهم لقد كانت العقوبة بالغة القسوة فقد تؤدى أحيانًا إلى المرض . و «المطوع» كان يميل إلى العقاب الصارم إعتقاداً منه بأنه سيقنع أولياء الأمور بحرصه على مصلحة أبنائهم ودخل «الكتاب» يأتى من الأجور التى يدفعها الآباء نقداً أو عينًا فى مناسبات دينية أو عند دخول أبنائهم «الكتاب» أو إنتهائهم منه (٦).

بدأ تعليم الحساب بعد اتساع فئة «الطواويش» واحتكاكهم بالخارج فبرزت أهمية التعليم الحديث ولذلك فقد نشأت البذرة الأولى للتعليم فى قطاع النوخذا والتجار المتنورين الذين أحسوا أن تنظيم عملهم بشكل أفضل واتساع علاقاتهم مع الأقطار الخارجية وانفتاحهم على مجتمعات أخرى يحدو بهم إلى إنشاء نوع أولى من التعليم . وكان أن بدأت المبادرة من تلك الفئة التجارية التى جمعت بعض المال من أجل افتتاح المدارس على النمط الحديث وحدث ذلك فى الكويت والبحرين ودبى وهى المراكز التجارية والبحرية الرئيسية فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن . ولقد واجهت هذه المبادرات مقاومة من بعض الفئات الاجتماعية التى استشعرت خطر التعليم عليها . ويصف لنا كل من الريحانى والقناعى مدى المقاومة التى واجهها التعليم الحديث فى شرق الجزيرة العربية حتى يقف على رجليه وينمو فقد وجدت قطاعات من المجتمع أن التعليم بهذه الصيغة كمالى أكثر منه ضرورى للمجتمع ولكن السبب الرئيسى لهذه المقاومة هو ما يجلبه التعليم عادة من تغير فى البناء الاجتماعى الذى كانت الفئات المستفيدة تريد الحفاظ عليه لذلك استمر التعليم حتى ظهور النفط محدوداً ومضيقًا عليه وهذا يفسر لنا أيضًا استمرار تفريغ التعليم من محتواه فى هذه المجتمعات بعد اكتشاف النفط ووجود التعليم كضرورة حياتية لملء الوظائف العامة الجديدة لاغير .

توصف المرأة بأنها نصف المجتمع ولم تكن معطلة عن العمل المنتج فى فترة ما قبل النفط إذ عانت المرأة فى شرق الجزيرة العربية مع الرجل قسوة الحياة وساهمت بشكل إيجابى حسب موقعها الاجتماعى التقليدى فى النشاطات الانتاجية المختلفة وخاصة المرأة الفقيرة . لقد كانت زوجة الغواص تساهم مساهمة فعالة فى حياة الأسرة وأيضًا فى حياة مجتمعها الصغير

البسيط فهى بسبب حاجتها وندرة مصادر الدخل كانت تساعد زوجها فى العمل فكانت تقوم بأعمالها المنزلية . بجانب ذلك كانت تقوم ببعض الأعمال التى تدر عليها ربحًا كأن تقوم بخياطة الملابس لنساء الحى أو المتاجرة بسلع بسيطة أو تربية الماشية والأغنام . لقد كانت علاقات الانتاج المختلفة فى المنطقة كثيراً ما تؤثر على وضعها فقد كانت عائلة البحار «الغواص» تعانى الكثير بسبب غيابه فى موسم الغوص الذى يمتد لعدة أشهر فهى التى ترعى شؤون العائلة وتدبر أمورها المعاشية ثم تتحمل التضحية عندما يقع زوجها أو عائلتها فى الديون ولايتمكن من سدادها .

لم تكن هذه المرأة بعيدة عن المعاناة وتلك الحياة كانت بمرارتها فى كثير من الأحيان تنعكس عليها . أما وضع المرأة فى المناطق الزراعية فلم يكن أقل شأنًا فقد كانت تعمل مع الرجل فى الحقل وتشاركه فى أعمال الفلاحة وغيرها عدا تلك النشاطات التى تتطلب قوة جسدية لاتتناسب مع طبيعتها كامرأة ، والمرأة البدوية فى الصحراء بالإضافة إلى أعمالها المنزلية وتربية الأولاد تقوم برعى الغنم والماشية والإبل ، ورغم مساهمة المرأة فى الحياة بالإيجابية فى تلك الفترة القاسية إلا أن التعسف كان يلاحقها اجتماعيًا فقد كان الرجل هو السيد وصاحب الرأى فى كل شىء فى بيته وزواج بناتها يتم فى الغالب دون مشورتها كما أن الزواج بأكثر من امرأة واحدة كان عرفًا سائداً. لقد كان المجتمع بسيطًا يحكمه العرف الاجتماعى وحاجاته بسيطة ومحدودة والمرأة كانت عنصراً فعالاً فى ذلك المجتمع فكان نشاطها الدائب طوال النهار لايهدأ فى منزلها أو مساعدة زوجها ولكن طبيعة العلاقات الاجتماعية لم تجعل لها مكانتها التى تستحقها وفى ظل تلك الأوضاع لم تحظ بنصيبها من التعليم التقليدى الذى كان سائداً إلا بشكل محدود جداً (٧).

القيم والعادات :

تعتبر القيم والعادات جزءاً من البناء القومى للمجتمع فى شرق الجزيرة العربية ومن المتوقع أن تنتشر قيم وعادات وتقاليد تساير أسلوب الانتاج السائد وملكية الانتاج وتكون مرتبطة بها فشجرة النخيل فى البيئات المعتمدة على الزراعة مثلت محوراً لحياة الجماعة ومن حولها صيغت الكثير من العادات وكذلك البحر والسفينة . وقد ارتبطت السفينة بممارسات قيمية ومثلت شجرة النخيل بالأم الحنون وكذلك الإبل بسفينة الصحراء ووسيلة النقل الرئيسية مع العالم الخارجى . فشبكة القيم والعادات فى مجتمعات شرق الجزيرة العربية كونت ستاراً

يحمى الممارسات الاقتصادية الشبه «فنية» فى الوفاء بالدين وقول الحقيقة والأمانة وكلها قيم رسخت فى عقيدة الطبقة العاملة «المزارعين والغواصين» من أجل استمرار العلاقات الاقتصادية والكرم والعطف لدى القطاعات السائدة التى تحدد التوازن القيمى فى المجتمع .

النظام الدينى :

لايمكن التحدث عن العلاقات الاجتماعية السائدة دون الحديث عن أثر الدين الاسلامى التى لعبت مبادؤه دوراً مهمًا فى توازن البنى الاجتماعية . وهنا نحصل على فكرة التأثير من عنصر قوى فى البنية القومية على العلاقات الاقتصادية فى البنية التحتية فكثير من النواخذة المتدينين كانوا لايرضون بمضاعفة الفائدة على الغواص أو بأخذ أية فائدة «ربوية» من الأموال المقترضة كما أن المبادىء الدينية كانت تشكل مانعًا نفسيًا لدى بعض أصحاب رأس المال ومالكى وسائل الانتاج من الاستغلال الكبير للعاملين معهم . وكذلك استمرار نظام التعليم الدينى ووجود الوعاظ جعل من قراءة القرآن الكريم ومحاولة التشبث بنصوصه ممارسات يومية يتقيد بها الكثيرون كالوفاء بالدين ولو طال أمده وعدم ارتكاب المحرمات . وهذا ما يفسر لنا الاهتمام بالقيم الاسلامية الأساسية لدى قطاعات واسعة من مجتمع مجلس التعاون الخليجى المعاصر اليوم .

يمكن القول بأن الواقع الاجتماعى لمجتمعات شرق الجزيرة العربية قبل النفط كان يعتمد على الفائض الاقتصادى المحدود وعلى ضيق شبكة توزيع هذا الفائض مما جعل من مجتمعات المنطقة «مجتمعات راكدة» بالمعنى الاجتماعى تسيطر عليها شبكة علاقات اجتماعية وقيم قليلة المرونة عن علاقات إنتاج شبه جامدة ورغم وجودها كباب تجارى للداخل إلى الجزيرة العربية إلا أن الفقر فى الداخل كان عائقًا أمام تكون سوق ديناميكية متحركة[٨] ، لذلك فان صدمة البترول أو الانتاج الجديد والعلاقة الاجتماعية الناشئة أحدثتا ردود فعل مختلفة فى قطاعات المجتمع المتعددة فى مجلس التعاون الخليجى وما زالت تفعل ذلك .

التاريخ الاجتماعى فى عصر النفط فى شرق الجزيرة العربية :

نظراً لتزايد مردود النفط فى مجتمعات شرق الجزيرة العربية ولقلة عدد السكان وصغر المساحة فقد انعكس ذلك على هذا المجتمع وأثر فيه كثيراً . ولكن هذه الثروة وظفت إلى حد كبير بشكل عشوائى وغير مخطط فى كثير من الأحيان والأحوال كما أن الأساليب

الاستثمارية لم تتجه إلى إقامة المشاريع الانتاجية لتساعد الاقتصاد الأحادى المعتمد على النفط فى الحاضر والمستقبل .كما أن منطقة الخليج العربى خلال مسيرتها النفطية تعتمد اعتماداً شبه كامل فى سد احتياجاتها على السلع الاستهلاكية وعيرها عن طريق الاستيراد الخارجى . هذه النهضة بسلبياتها وإيجابياتها استدعت استقدام الأيدى العاملة العربية والأجنبية الماهرة مما نتج وسينتج عنها مشاكل وسلبيات كثيرة تتعلق بعروبة المنطقة والكثافة السكانية غير المنتجة والخطر الذى تشكله الأعداد الهائلة من الأجانب خاصة الآسيويين فى المنطقة . وأن التجزئة الاستعمارية لهذه المنطقة بخلق كيانات ودول صغيرة لاتلغى الوحدة التاريخية للمنطقة جغرافيًا وثقافيًا واقتصاديًا واجتماعيًا . لكن تلك التجزئة لاشك أنها أدت وخاصة بعد ظهور البترول إلى نوع من الاقليمية التى سيكون لها تأثيرها فى وحدة المنطقة والاستعمار الغربى اليوم بثقله الثقافى والاقتصادى والسياسى ولربما العسكرى ليس فقط للحفاظ على التجزئة القائمة فهذا جزء من مهمته ولكن أيضًا لتعزيز وجودها وتطوير وتحديث أساليبها وتمكين الأنظمة من البقاء والاستمرار بحجة المحافظة على الاستقرار تارة عن طريق التهديد والتخويف وتارة عن طريق الإغراء والتقرب (٩).

تجرى الهجمة الاستعمارية الغربية الثقافية والاقتصادية والسياسية والغزو الفكرى فى المنطقة مكثفة وخطرة دون أية مواجهة فعلية وهى بلا شك جزء من الهجمة الغربية التى يعيشها الوطن العربى فى مغربه ومشرقه والتى تهتم بأن لاتكون لعملية التنمية الاقتصادية أبعاد اجتماعية وذلك بتغير النمط والتركيب الاجتماعى القائم حيث سيمتد التأثير إلى قطاعات شعبية واسعة كانت هامشية فى الوضع الاقتصادى وأن يتطور الأمر إلى المشاركة فى القرار الاقتصادى والسياسى عن طريق أسلوب الديمقراطية فان هذا يؤثر على الأوضاع الأوتوقراطية مما يجعل الحكومات القائمة لاتتحمس بل وتعارض إعطاء أهمية للأبعاد الاجتماعية والمشاركة الشعبية بمعناها الحقيقى .

أدى انتشار المراكز الحضرية ذات التقاليد التى هى مزيج بين القديم والحديث إلى غلبة التقاليد الحديثة يومًا بعد آخر . وأدى ذلك إلى فرص أكثر للعمالة الدائمة كما أدى ذلك إلى تغير فى بعض القيم والتقاليد ، مما دفع رجال القبائل للالتحاق بالاعمال التى وفرتها الإدارة الحكومية لأنهم أدركوا أن ذلك يشكل ضمانًا أكبر ويحقق لهم ولأبنائهم امتيازات فى الوضع المادى والتعليمى والرعاية الصحية .. وازداد نمو الوعى نتيجة التعليم والاحتكاك بالعالم

الخارجى وأن ظهور النفط كان السبب الرئيسى الذى أدى إلى تغيير أنماط الحياة وإلى اعادة ترتيبها لابل تغيير فى العلاقات الاجتماعية أدى إلى ازدياد سلطة الحكومات التى كانت أصلاً قبلية آخذة بالأساليب الحديثة فى الإدارة وغيرها بعد التطور الاقتصادى والسياسى الذى طرأ على المنطقة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، لقد تحولت الوحدات القبلية إلى إمارات ثم إلى دويلات . هذا التحول لم يقطع جذوره بالسلطة القبلية سلوكًا ولا بالعقلية بل أصبح الوضع مزيجًا من استمرار العقلية القبلية فى ظل سلطات سياسية وإدارية حديثة ذلك. يعنى أنه على الرغم من أن الدولة قد حلت محل القبيلة كوحدة سياسية إلا أنها لاتزال تعتمد فى عدد من مكوناتها على النظام القبلى وأبرز الأمثلة على ذلك الواقع ما تعيشه كل دولة خليجية متمثلاً فى احتكار فئة قليلة للوضع الاقتصادى والسياسى وأن للثروة النفطية تأثيراً كبيراً على الوضع الاجتماعى صحية وتعليمية بل أن ترقى إلى مستوى تكون معه قادرة على مواجهة مثل هذه المشكلات وحلها والنظر إلى الإنسان الخليجى من خلال المناخ الحر الذى يوفر له قدرة على التفكير والمشاركة والإبداع (١٠).

التغير الاجتماعى :

ظاهرة التغير الاجتماعى فى أى مجتمع عملية مستمرة تتوقف حدتها وسرعتها على عدد العوامل التى تمارس تأثيرها على ذلك المجتمع ، ومن هذه العوامل تطوير الإدارة والدخل الكبير من عائدات النفط والتى أدت إلى توسيع الخدمات الادارية والاجتماعية والتعليم الحديث كما أن هذه التغيرات لم تحدث كلها فى وقت واحد وكذلك ليس بمعدل ثابت . إذ أن التغيرات الاجتماعية أدت إلى نتائج مختلفة على الفئات المتعددة فى المجتمع الخليجى فبعض هذه الفئات رحبت بالتغير وبعضها الآخر عارض بشدة لأن هذا التغير يمثل تهديداً لمصالحها بينما قاومت بعض الفئات الأخرى وذلك لأسباب تتعلق بطبيعتها المحافظة إذ أنها لاترى أى سبب يدعو لتغير الوضع وبعض فئات المجتمع لم تكن عرضة لأى تغير اجتماعى عميق لأنها لم تكن على اتصال مباشر بعوامل التغير . إلا أن عدداً مثل هؤلاء قد قل فى الوقت الحاضر كما أن عمق التغير الاجتماعى يختلف بين المدن والقرى والمحاضر البدوية فى الصحراء والواحات وبين الأغنياء والفقراء وحتى بين المتعلمين وداخل الأسرة الواحدة لأن لكل فئة مشكلاتها الخاصة بها .

تختلف درجة التفاوت فى كثير من الأحيان ففى الستينات فى بعض الإمارات فى شرق الجزيرة العربية كانت هناك بنوك وعمليات تبادل تجارى نقدى فى المدن بينما لم تستخدم بعض القرى النظام النقدى المالى الحديث بل كانت عملياتها التجارية بنظام المقايضة فى حين شهدت بعض الإمارات الخليجية كالكويت والبحرين بداية التحولات الكبيرة عندما شعر المجتمع بعمق التأثيرات الاجتماعية قبل غيرها من الإمارات فى ساحل عمان مثلاً .

اعتمد المجتمع الخليجى فى انتاجه على صيد اللؤلؤ والأسماك والزراعة وبعض الأنشطة التجارية ولكن بعد اكتشاف النفط تغير نمط الحياة نتيجة للأنشطة الاقتصادية الجديدة وبدأ اتجاه سكان الأرياف والمحاضر فى الصحراء للهجرة إلى المدن وخاصة الساحلية الأمر الذى نتج عنه انخفاض عدد سكان الأرياف والمحاضر وارتفاع عدد سكان المدن بشكل فجائى وكبير . وكان هناك تحول فى مراكز التجمع السكانى إذ أن فرص العمل وشروط المعيشة فى المدن كانت أفضل بكثير منها فى القرى ، ولهذا كانت المدن مناطق جذب السكان إليها من الداخل وخاصة لوجود فرص العمل فى الإدارات الحكومية أو فى صناعة النفط والمهن الأخرى وقد أدى هذا التجمع فى المدن نتيجة لتزايد عوائد النفط إلى الإسراع فى عملية التغير الاجتماعى بعدما أصبحت الأموال وفرص العمل متوفرة فى المدن مما أدى إلى بروز الطبقات الاجتماعية الجديدة مثل طبقة العمال خاصة عمال النفط والطبقات المتوسطة وغيرها من الطبقات الجديدة .

الطبقات الاجتماعية :

لم تكن الطبقات الاجتماعية فى شرق الجزيرة العربية محددة من قبل بشكل واضح على أساس حالتها المادية ، إلا أن التركيب الطبقى على أساس العشائر والقبائل هو الذى كان سائداً أكثر . وهذا النظام له جذوره فى القبائل الحاكمة وحلفائها الذين كانوا يمتلكون معظم الثروة والأراضى فى المنطقة وقد شكل هؤلاء إضافة إلى شيوخ القبائل النخبة التقليدية فى المجتمع الخليجى ، أما بقية أفراد القبائل والقبائل الصغيرة فقد كانوا مجبرين على العمل كغواصين وصيادى أسماك وغيرها من الأعمال لكى يكسبوا قوتهم . وقد شكل هؤلاء مع سكان القرى والواحات الزراعية أقل الطبقات شأناً فى المجتمع العربى التقليدى بشرق الجزيرة العربية وفيما بعض هذه الطبقات :

(أ) الطبقة التجارية : هذه الطبقة لها جذورها فى المجتمع التقليدى قبل النفط حيث أنها لعبت دوراً عندما كان الخليج العربى مركزاً لاستخراج وتجارة اللؤلؤ . وبعد ظهور النفط كانت هذه الطبقة هى الأقدر على ممارسة الدور الاقتصادى حيث استثمرت أموالها فى المؤسسات التجارية وحصلت على أراضى شاسعة معظمها بشكل منحة من الأسر الحاكمة أو عن طريق وضع اليد لذلك من الطبيعى أن تتسع قاعدتها عما كانت عليه . لقد أصبح لها نفوذ سياسى حيث منها ينتقى كبار موظفى الدولة ويتمتعون بامتيازات كبيرة رغم قلة أفراد هذه الطبقة قياسًا على بقية أبناء السكان كما أن هذه الطبقة تشكل وحدة أساسها المصلحة المشتركة رغم عدم تجانسها القومى فمنهم القبائل العربية ومنهم الإيرانيون الذين هاجروا بعد اكتشاف النفط فى عهد شاه إيران وأصبحوا يشكلون طبقة تجارية . وقد كانوا يجيدون القراءة والكتابة كما كان لهم علاقات بالأوروبيين وعندما تزايد الطلب على البضائع بعد اكتشاف النفط دفع المزيد منهم الى الهجرة إلى المجتمعات الخليجية لممارسة التجارة وتطوير الأعمال التجارية وكان لكثيرين من هؤلاء التجار الجدد إتصال ببعض الأوروبيين الذين كانوا يعملون فى الجهاز الإدارى الحكومى وفى شركات النفط الأمر الذى مكنهم من معرفة الأنواع المعينة من البضائع المطلوبة وقد لجأ الكثير من هؤلاء التجار إلى استخدام الخبرة التى اكتسبوها من عملهم مع شركات النفط فى الدخول إلى حقل النشاط الصناعى بينما نجح بعضهم فى التنبؤ بالطلب المتزايد على أنواع معينة من البضائع الاستهلاكية التى لم تكن من متطلبات الحياة التقليدية .

(ب) الطبقة الوسطى : برزت فئة جديدة ضمن الطبقة الوسطى وهذه طبقة واسعة غير متجانسة ماديًا وثقافيًا وتتكون من موظفى الحكومة والشركات الأهلية والأجنبية وصغار التجار وأصحاب المهن والحرف اليدوية التقليدية ، وهى تشمل مواطنين ووافدين عرب وأجانب ومع أنها تشكل أغلب السكان العاملين إلا أن انتاجيتها محدودة ونتيجة للتعليم الذى حصل عليه عدد لابأس به من أفراد هذه الطبقة ، استطاعت أن تلعب دوراً فى الحياة السياسية والاجتماعية وكان لعدد من أفرادها دور هام فى الحركة الوطنية لتمتعهم بوعى ثقافى وطموحهم لقيادة المجتمع . وجمعت المصالح المشتركة بين بعض التجار وكبار المسؤولين الإداريين من الطبقة الوسطى مما أكسبهم نفوذاً سياسيًا واستغلوا مراكزهم الحكومية لمصالحهم الذاتية .

(جـ) طبقة العمال : وبرزت طبقة اجتماعية نتيجة للتحولات الاقتصادية وهى طبقة العمال الجديدة ولقد كان التحول الاقتصادى الذى طرأ على هذا المجتمع هو عامل رئيسى فى نشوء هذه الطبقة ، ذلك التحول الذى حول عامة السكان من الكادحين فى مرحلة ما قبل النفط إلى عمال يأخذون أجراً أسبوعيًا لقاء عملهم لدى شركات النفط أو الحكومة أو الصناعات التى نشأت حديثًا . فقد كانت الطبقة العاملة فى المجتمع التقليدى قبل النفط تتكون من البحارة «الغواصين» ومن البنائين والحدادين وصيادى السمك وهذه التركيبة لايمكن أن نطلق عليها الطبقة العاملة بالمعنى الحديث ولكنها هى الطبقة المنتجة فى المجتمع آنذاك وبعد ظهور النفط والثروة التى ترتبت عليه ووجود الشركات البترولية والتجارية ومجالات العمل المختلفة .

ظهرت طبقة عمالية جديدة فى تركيبها وخصائصها وحتى هذه الطبقة التى ظهرت بعد اكتشاف النفط لم تأخذ مفهوم الطبقة المتعارف عليه حيث أنها ليست طبقة عمالية صناعية ولازراعية وإنما هى عاملة فى الشركات البترولية والتجارية والخدمات الحكومية كما أن الصراع الطبقى فى المجتمع ليس حاداً وقد انعكس ذلك عليها نتيجة وضعها الاقتصادى وطبقة التركيب الاجتماعى الذى تنتمى إليه وهذا التحول الاجتماعى كان تدريجيًا ولايزال مستمراً إذ لم يكن هناك وعى طبقى واضح فالإضطرابات الصناعية لم تكن بعد أصبحت صراعًا من أجل الوصول إلى مستوى المعيشة الأفضل الذى حققه أبناء البلدان الأخرى بل كانت موجهة ضد العناصر الأجنبية فى المنطقة فى الخمسينات والستينات .

لم يتخذ العمل النقابى العمالى شكلاً علنيًا إلا فى الكويت ، ففى البحرين بعد الإضطرابات التى حدثت فى أواخر الستينيات تم تأسيس جمعية تأسيسية تقدمت عام ١٩٧١ بمطالب معينة بصدد تشكيل «اتحاد للعمال» شمل كذلك المستخدمين الحكوميين والفئات المستقلة مثل الأطباء والمحامين وصغار التجار . وحققت الحركة النقابية فى الكويت انجازات هامة على مستوى البناء النقابى والثقافة العمالية والمشاركة فى الأحداث الوطنية والقومية ولكن دور الطبقة العاملة النقابى فى المنطقة بعضه يأخذ أشكالاً سرية وبعضه غير منظم ولايزال غير مؤثر فى الحياة من خلاله ممارسة دورها النقابى والاقتصادى والسياسى. ومن ثم كون أعداد كبيرة من أفراد هذه الطبقة من الوافدين العرب والأجانب وفى أكثر أجزاء الخليج العربى لا تتمتع هذه الطبقة بحقوقها الأساسية(١١) .

وضع الأسرة والمرأة :

تأثر وضع الأسرة والمرأة فى المجتمع فى شرق الجزيرة العربية نتيجة لتطوير فى الإدارة والتحولات الاقتصادية التى حصلت إلا أنه لم يأخذ سبيله بنفس الدرجة فى مختلف الطبقات الاجتماعية أو فى الوضع التقليدى للأسرة والمرأة فى بعض الفئات القبلية التى بدأت بعض التحولات فى الأواصر العائلية فى الأسرة الممتدة والقبيلة لتحل محلها الروابط الأسرية الفردية الصغيرة نتيجة لتغير النظام الاقتصادى ضمن الأسرة حاليًا. إذ أنه أصبح من المألوف أن يكون أحد الأبناء هو ذو الفاعلية الاقتصادية الرئيسية فى العائلة وبذلك يكون الإبن مستقلاً ماليًا عن أبيه الذى لم يعد أفراد الأسرة ينظرون إليه على أنه مصدر القوة الوحيدة فيها . فان مؤثرات الوضع الاقتصادى الجديد فرضت على الجيل الأكثر جيل الآباء أن يقبل باختياره أو كرهه الأفكار والممارسات الجديدة والدور الجديد الذى قلل من أهميته فى الحياة العادية للأسرة .

لاتزال هناك نخبة فى المجتمع العربى في شرق الجزيرة العربية تتمسك بالدور التقليدى الذى اعتادت أن تلعبه بالمشاركة فى الحياة الأدبية فترعى الأدب وترسخ القيم الاجتماعية والخلقية التقليدية فى المجتمع . وكان دور المرأة فى المجتمع قبل ظهور نتائج التحولات الاقتصادية الجديدة مقتصراً على المنزل وكان العمل الذى يمكن للمرأة أن تؤديه خارج المنزل هو مساعدة الزوج فى بعض أعماله كبيع السمك لزوجة صياد الأسماك أو بعض الأعمال فى الحقوق وبيع المحصول . وفى بعض القطاعات الأخرى فى المجتمع كان عمل المرأة فى تدبير أمور المنزل وتنشئة الأطفال وبدأت المرأة تأخذ مكانتها فى مختلف قطاعات الحياة بعدما تعلمت وتخرجت من المعاهد العليا والجامعات وأخذت تعمل فى كل المجالات .

بذلك تميزت منطقة شرق الجزيرة العربية بوجود مجتمعات تقليدية ذات أصول بدوية . فعلى الرغم من التقدم الاقتصادى والعمرانى فى هذه المنطقة من العالم إلا أن التقاليد الاجتماعية ما زالت قوية جداً حيث التركيز على القبيلة والأسرة الممتدة تكون العلاقات بين أفرادها مترابطة فالاختلاط والزواج والعلاقات الاجتماعية الأخرى تكون محصورة داخل نطاق الأسرة الواحدة . وكذلك هناك رفض لكل ما هو جديد أو غريب . لذلك واجهت الأيدى العاملة الوافدة فى بداية الأمر صعوبة فى التكيف الاجتماعى لكونهم غرباء ينظر إليهم نظرة تختلف عما ينظر أفراد القبيلة لبعضهم البعض . وعلى الرغم من تطور العلاقات الاجتماعية

قليلاً إلا أن هناك شعور عام بين المواطنين إلى عدم إشراك الوافدين فى حياتهم الاجتماعية لأسباب عديدة فهناك عوامل قبلية وطائفية وعرقية داخل هذه المجتمعات تشكل حجر عثرة بين المواطنين فلا غرو أن نجد التباعد الاجتماعى قائم بين المواطنين والوافدين (١٢).

العمالة الوافدة :

نجم عن استغلال النفط على نطاق واسع عملية تحول اجتماعى سريع فى خلال فترة قصيرة وتضاعف عدد السكان لأكثر من عشرة أمثال وتحول النشاط الاقتصادى كلية عن نشاط محدود يقوم على استغلال الاقتصاد التقليدى إلى اقتصاد ضخم يغلب فيه قطاع الخدمات ويكاد اعتماده على العالم الخارجى يكون شبه تام ، ومنها العمالة الخارجية التى نمت فى المنطقة لتشكل أكثر من ثلاثة أرباع قوة العمل الكلية إن لم يكن أكثر . وترتب على ارتفاع سعر النفط فى السبعينات نقلة نوعية فى عملية التحول الاجتماعى - الاقتصاد وتراكمت عوائد النفط بمعدلات كبيرة فعلى الرغم من ضخ كميات ضخمة من العوائد فى برامج الانفاق العام كانت هناك فوائض كبيرة وأن هذه الزيادة فى الفترة بين ١٩٧٥ - ١٩٧٧ حفزت موجة نمو اقتصادى كان لها آثار جوهرية على أوضاع السكان وقوة العمل فى المنطقة إلى جانب عملية التحديث التى أدت إلى تدفق الأيدى العاملة العربية والأجنبية . فبالإضافة إلى الحاجة الماسة لهذه الأيدى العاملة ، فان نسبة كبيرة منها غير ماهرة ومما ساعد وفسح المجال أمام الكثير منها بالعمل وربما فوق الحاجة المطلوبة أن المواطنين كانوا يطلبون وضعًا مميزاً وربما طفيليًا .

أحدثت هذه الهجرة تغيرات فى الخريطة السكانية بالإضافة إلى الهجرة الداخلية وانتقال البدو الرحل وشبه الرحل نحو المدن وضواحيها بمعدلات عالية . وإلى فترة ليست قصيرة سوف تبقى المنطقة بحاجة إلى الأيدى العاملة الوافدة ولكن الفنية الماهرة من الآن فصاعداً وأن فتح الهجرة لتنشيط الحركة التجارية فى المنطقة حيث أنها طاقة استهلاكية أمر يجب أن لايكون مبرراً لعدم وضع ضوابط خاصة بالنسبة لهجرة الأجانب الآسيويين حيث يشكلون ثقلاً سكانيًا له أخطاره المستقبلية . وأن تأثير الهجرة على البناء السكانى فى المنطقة كبير ذلك أن الأعداد الوافدة تفوق فى بعض المناطق عدد السكان المحليين . ولابد من الإشارة هنا أننا لانعتبر هجرة العرب إلى المنطقة تشكل أى نوع من الخطر مهما كانت أعدادهم ولكن تزايد عدد الأجانب يشكل خطراً حقيقيًا ذا زبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية فى المستقبل

وخاصة فى دولة الإمارات المتحدة حيث يفوق عددهم عدد العرب الوافدين . وهنا يجب أن نلاحظ أن معظمهم غير مؤهلين علميًا وفنيًا ويعتبر موضوع الهجرة إلى المنطقة وتقويم أوضاعهم والآثار المترتبة على وجودهم مستقبلاً من التحديات التى تواجه أبناء المنطقة ولابد من تحليلها ودراستها والضغط باتجاه الحد منها ودراسة أوضاع الموجودين فى المنطقة (١٣).

يجب معرفة العناصر الغير مؤهلة علميًا وفنيًا والموجودة بصفة غير شرعية حيث تشكل عبئًا يجب معالجته ثم هناك حد أقصى تستطيع المنطقة استيعابه من هذه الأعداد . إذ يجب أن يوضع بالحسبان بالإضافة إلى الآثار الاجتماعية والسياسية المترتبة على وجود الأعداد الهائلة من الأجانب أن الهجرة تعد المصدر الوحيد لتغير حجم السكان وتعتبر عاملاً مؤثراً فى نمو السكان وخصائصهم الديموغرافية والاقتصادية لأنها توفر الأيدى العاملة وتقوم بتنشيط الاقتصاد المحلى وتؤثر ثقافيًا فى المجتمع ولكن أيضًا لها جوانبها السلبية ولذا يجب أن يخطط لها وأن تكون مدروسة . أنه وإن كان وضع العمالة الوافدة إلى المنطقة جاء بشكل عشوائى ومكثف فى الفترة السابقة فقد آن الأوان لدراسة الأمر والتركيز على أمرين هما الاستفادة من الأيدى العاملة العربية من جهة وتأهيل الأيدى العاملة المحلية فنيًا من جهة أخرى ، والحد من الهجرة الأجنبية من جهة أخرى . وسوف نناقش أهم أسباب ظاهرة العمالة الوافدة وآثارها .

أسباب انتشار العمالة الوافدة :

من البديهى أنه لايمكن أن تنشأ ظاهرة فى مجتمع ما بدون أن تكون لها جذور قوية فى التشكيلة الاجتماعية - الاقتصادية فى هذا المجتمع ، وعلى الخصوص فى سلوك الفئة الفاعلة فى هذه التشكيلة .

إن تاريخ العمالة الوافدة إلى الخليج سواء العمالة الآسيوية أو العربية تاريخ واحد وهو تاريخ الهجرة الاقتصادية إلى أقطار الخليج العربى منذ اكتشاف النفط ، وقد سمحت عائداته لهذه الأقطار بتبنى خطط إنمائية اهتمت أساسًا بتحسين وتوسيع المرتكزات الاقتصادية والاجتماعية الأساسية كالمدارس والسكن والمستشفيات وتوفير المياه ومد الطرقات .

إلا أن قلة السكان والشح فى القوى العاملة الوطنية ، بالإضافة إلى ظهور البطالة المقنعة بسبب ميول المواطنين إلى العمل فى قطاع الخدمات ، جعل أقطار الخليج العربى عاجزة عن

تنفيذ خططها إذا ما اعتمدت على قدراتها البشرية ، فاضطرت إلى فتح أبوابها أمام الأيدى العاملة العربية والأجنبية على حد سواء ، وبكل أصنافها حتى أصبح الوافدون «عرب وأجانب» يحتلون المكانة الأساسية فى تركيب القوى العاملة بأقطار الخليج العربى .

وبالإضافة إلى أن الأيدى العاملة الوافدة تفى بالحاجة فانها تتسم بمزايا أخرى عديدة تشجع على توريدها ومنها :

- الأيدى العاملة الوافدة ترد جاهزة ولاتكلف أى نفقات للبلدان المستقبلة .
- أجورها منخفضة وأيام عملها طويلة .
- سرعة دورانها عالية مما يسمح باستغلالها فى فترة انتاجها القصوى .

وتسمح هذه المرونة بتخفيض كلفة الانتاج ، وهى اعتبارات حددت تيارات الهجرة الاقتصادية وأصبحت مبدأها الأساسى ، والهجرة إلى الخليج العربى ليست حالة خاصة بل تتدرج فى هذا المفهوم للهجرة الاقتصادية المعاصرة ، ومن هنا يمكن التأكيد على أن الهجرة الآسيوية والعربية تتسمان بالخصائص نفسها للمشاركة فى الهجرة إلى أقطار الخليج العربى .

الآثار الاجتماعية المترتبة على السكان :

من الملاحظ أن نسبة كبيرة ومتزايدة من قوة العمل الوافدة هى من الأجانب ، أساسًا آسيويون من شبه القارة الهندية وأن كان قد لحق بهم حديثًا آسيويون آخرون من جنوب شرق آسيا - خاصة فى صورة مجمعات وإن كان التيار الحديث من الهجرة الآسيوية أقل ميلاً للاستقرار بالشكل الفردى أو الأسرى ، عن التيار التقليدى من الهند وباكستان ، فانه يدخل إلى التشكيلة الاجتماعية للمنطقة عنصراً جديداً وغريبًا ومنظمًا بدرجة تثير الشبهات . ويقدر أن الأجانب كانوا يشكلون أكثر من ثلث قوة العمل الوافدة وحوالى ٢٩ بالمائة من السكان الوافدين لدول الخليج العربى وأصبح لهم تأثير سلبى واضح على الثقافة العربية ، ولايستبعد احتمال نشوء اضطرابات اجتماعية -سياسية، فى المستقبل نتيجة لثبوت أقدام هذه الفئات الأجنبية ومطالبتها بنصيب أكبرفى تسيير المجتمعات التى تقيم فيها وتشكل قوة العمل بها .

ولا شك فى أن هناك أوضاعًا اجتماعية - اقتصادية معينة تحكم العلاقة بين المواطنين والوافدين وتفرق بينهم فى نواحى عديدة ، مما يترتب عليه أن يوجد لكل طرف من أطراف

هذه العلاقة تحفظات على الفئات الأخرى مؤداها أن تعيش هذه المجتمعات منقسمة داخليًا بدون امكانية للإندماج أو حتى التفاعل الصحى بين الفئات المختلفة المكونة لها وينشأ عن هذا الحال ضعف التماسك الاجتماعى وانخفاض الانتاجية الكلية من منظور مساهمة الأفراد فى مجتمع ما فى مشروع وطنى للتنمية ، يكون العامل الحاسم فى تحديد مستوى الانتاجية الاجتماعية هو الشعور بالانتماء للمجتمع .

آثر العمالة الوافدة على التآلف الاجتماعى :

التآلف الاجتماعى يحوى عدة مصطلحات منها الاستقرار ، التماسك والانسجام ، التوازن .. الخ ، وعلى الرغم من تباين هذه المصطلحات ، فانها تباينات ظاهرية تنطلق تقريبًا من فكر واحد وهو أن توازن المجتمع الإنسانى واستقراره حقيقتان وغايتان أساسيتان لاستمرار المجتمع .

هناك اتجاهات نظرية أخرى فى العلم الاجتماعى ترى أن «واقع المجتمع وجوهر حركته يرتبطان بوجود تناقضات أساسية داخل البنية الاجتماعية ومع وجود تباينات بين هذه الاتجاهات فانها تلتقى عند «تناقض المصالح» ، الذى تصاحبه تناقضات أخرى أقل منه جوهرية كتناقض القيم وصراعها (١٤).

توجد دراسات وتحليلات ربطت بين الهجرة وصراع المصالح الاجتماعية والتى منها الصراع على مياه الشرب ، والسكن ، وخلل التوزيع والتضخم والبطالة المقنعة ، وزيادة الطلب على الاستيراد وصراع القيم ، كما أن الهجرة قد تشوه المنظر الجماعى لأى مدينة ، فالزحام فى الشوارع والطرقات وكذلك حجم العمالة الوافدة الذى توضحه الاحصاءات والبيانات الرسمية وتغلغلها غير كثيراً من أبعاد البنية الاجتماعية للمجتمعات الخليجية ، فى العمل ، فى الأسرة ، وفى غيرهما ، يمكن لذلك أن يمثل ضغطًا على هذه البنية الاجتماعية التى لابد بعد اعتمادها الواضح على هذه العمالة وعدم قدرتها على الاستغناء عنها من أن ترضخ لهذا الضغط .

فالعامل الوافد أتى أولاً إلى الخليج ليعمل ، حمل معه ثقافة ، وواجه ثقافة ، خرج من إطار تفاعل اجتماعى ، وترابطات اجتماعية ، وأتى إلى مجتمع الخليج الذى قيد حركته ، وحجم تفاعله ، وجعله أكثر عرضة لإثبات السلوك الإنحرافى فضلاً عن أن الاغتراب ينمى الصراع القيمى وصراع الأدوار ، الذى له آثار سلبية فى ظل الظروف البنائية لمجتمعات

الخليج والتى من أهمها ندرة السكان ، فان بعد حجم العمالة الوافدة مقابل انحسار حجم العمالة المواطنة عبر نسيج البنية الاجتماعية ، كل هذا يشجع على حسم الصراع الثقافى والقيمى مستقبلاً لمصلحة العمالة الوافدة .

آثار العمالة الوافدة على الثقافة العربية :

يبدو أن قلة الاهتمام بالآثار الثقافية والاجتماعية تعود إلى أن الآثار غير المادية لأى عمليات وتطورات مجتمعية يختلف ظهور نتائجها ، وبالتالى ملاحظتها ورصدها وتحليلها مقارنة مع الآثار المادية ، لأن المادية مباشرة وملموسة ويمكن تحديدها واحصاءها كميًا ، يضاف إلى ذلك صعوبة تحديد مسببات المصاحبات أو الآثار الثقافية والاجتماعية السلبية ، لذلك ظلت دراسة المصاحبات غير المادية خارجة عن دائرة اهتمام أغلب الباحثين فى هذا المجال أو يتعرضون لها على عجالة رغم أنها أكثر الظروف المرتبطة بالعمالة الوافدة وضوحًا، فهى تصدم العربى القادم إلى منطقة الخليج منذ نزوله فى المطار مروراً بسائقى سيارات الأجرة ، والفنادق والسوق والمنازل ، وفى المؤسسات الاقتصادية الخاصة ، ويعانى منها الزائر العربى أو الوافد المقيم لانعدام أدوات التفاهم والاتصال والمعاملة ، وعليه أن يتعايش مع هذا الوضع الشاذ الذى أصبح وكأنه القاعدة والوضع الطبيعى ، وقد وصل الشك باللغة والاختلاف مدى بعيداً بحيث لم نعد قادرين على تمييز بعض الكلمات عربية هى أم أجنبية .

حقيقة توجد مشكلة تمثل خطراً واضحًا تظهر شدته أو ضعفه من خلال زيادة حجم العمالة الأجنبية عدداً ، ومن خلال طول إقامة هذه العمالة زمنيًا فى المنطقة وتجذرها تدريجيًا فى المجتمع الخليجى ، حتى لو استمرت أوصافها الاجتماعية مهترئة وذلك بسبب الاعتماد الكلى عليها فى الأعمال الصعبة فى المنازل والتزاوج «رغم محدوديته الآن» (١٥).

فهناك خطورة من هذه الهجرة قد لانشعر بها فى يومنا هذا لكن من المتوقع ما سوف يحصل بعد عشر سنوات أو عشرين سنة يتولد من هذه الجاليات جيل أو أجيال فى المستقبل وتشارك عرب الخليج قرارهم السياسى أو يكون هذا القرار بصبغتها بشكل لا يخدم المصلحة الخليجية أو مصلحة الأمة العربية .

يمكن القول أن العمالة الآسيوية خاصة تؤثر بصورة مباشرة على ثقافة المجتمع العربى فى مجلس التعاون من خلال تفوقها العددى فى مجالات العمل والعلاقات الاجتماعية ، ولذلك يجب الحد منها بطريقة سليمة ومنظمة .

لذا لانجد هناك تأثيراً لهؤلاء فى المنطقة لأن التأثيرة الايجابى هو للعرب الوافدين حيث أنهم ساهموا ولايزالون فى قطاع التعليم والصحافة وغيره وأن الهجرة العربية تعد رافداً ثقافياً هامًا لمصلحة المنطقة وتطويرها ، أما الهجرة الأجنبية إن لم تكن فنية فهى ضارة ولتفكيرها وثقافتها تأثير غير مباشر تظهر نتائجه مستقبلاً ، إضافة إلى مزاحمة هؤلاء للعمال العرب وتحويل الأجانب الأموال الطائلة إلى بلادهم وأن الاسيويين يحولون أكثر من ألفى مليون دولار سنويًا إن كثيراً من دول العالم تفرض على الأجانب العاملين فيها شروطًا بحيث يصرف جزءاً من المبلغ فى البلاد ولكن مثل هذه القوانين غير موجودة فى المنطقة ، وجاء هؤلاء الأجانب من بلدان مختلفة لها تأثير اجتماعى وسلبيات يجب الوقوف عندها ، ولاشك أن هؤلاء الأجانب يتأثرون بأوضاع بلادهم السياسية ولهم مواقف سلبية أو إيجابية من حكوماتهم تنعكس على أوضاعهم وتفكيرهم وممارستهم . ويرغم أن قدومهم للرزق إلا أننا لايمكن أن نغفل الحقائق الأخرى فوجود هذه الأعداد الكبيرة ومكوثها فترة زمنية طويلة تشكل خطراً على عروبة المنطقة وثقافتها ، وكل دول العالم المتقدمة اليوم أدركت ذلك وتعمل على الحد من هذه الظاهرة حسب الحاجة الضرورية للأيدى الفنية والمؤهلة علميًا فقط وبنسبة معينة سنويًا حيث لاتؤثر بذلك فى البنية البشرية للمجتمع مستقبلاً .

البناء الاجتماعى والتحديات المعاصرة :

برغم أن مجتمع المنطقة ذو بناء اجتماعى عميق فى تقليديته لكنه لم يكن سداً منيعًا أمام تأثير التحديات الاقتصادية والثقافية والسياسية التى واجهتها المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية . وأحدث النفط تغيرات سريعة وشديدة من مختلف النواحى ولكن توظيف العائدات النفطية لم يكن لصالح الجميع ويبدو أن نصيب الأجيال القادمة منها ضئيل إن لم معدومًا إذا استمرت عجلة استغلال هذا المورد كما هى عليه كما أن الآثار التى ترتبت على ظهور النفط كانت إنقلابًا فى أوضاعها الاقتصادية الاجتماعية وأن معظم أفراد المجتمع يعيشون بصورة هامشية لأن الاستقطاب الاجتماعى لم يكن شاملاً وعميقًا ويمثل إهمال الأبعاد الاجتماعية للتنمية وتعتبر موطن الضعف الهام للاستراتيجية الاقتصادية كما أن المشاركة الشعبية فى اتخاذ القرار وتطبيقه شبه معدومة ، وانعدام المشاركة الشعبية الحقيقية أعطى الفرصة لتركيز الاستغلال السياسى والاقتصادى فى يد طبقة التجار والمنتفعين . ولايمكن أن تكون هناك تنمية حقيقية بدون وجود الديمقراطية السياسية والاجتماعية

والثقافية وأن تأثير الاستعمار الغربي اقتصاديًا وثقافيًا وسياسيًا كان ولايزال قائمًا في المنطقة يمارس الاحتكار والسيطرة بطرق مباشرة وغير مباشرة ، وهذه الهجمة أوجدتها طبيعة الحد الاستعماري من جهة والوضع الاقتصادي في المنطقة من جهة أخرى وأن التغيير النوعي للبنية الإجتماعية لا يمكن أن يحدث بدون وجود العقلية المنسجمة مع هذا التغيير حيث أن الحلول لاتخدم الطبقات الشعبية عند وعي الواقع ومعرفة وتحديد الأهداف والعمل من أجلها حيث أن مجرد المطالبة بالأفضل لا يحدث التغيير الاجتماعي المطلوب (١٦).

هناك احتمالات مستقبلية لمستوى النشاط الاقتصادي في دول مجلس التعاون وحجم وطبيعة نشاط التشييد ، فمن المتوقع أن لايستمر النشاط الاقتصادي في المنطقة بالمعدلات التي سادت في فترة السبعينات ، وإنما يرجح أن تمتد السياسات الانكماشية التي اتبعت في عقد الثمانينات فقد انخفض الانفاق الحكومي في بعض دول مجلس التعاون فلقد تعرضت دولة الإمارات لهزة اقتصادية خطيرة في سنة ١٩٧٧ تبعتها سياسات انكماشية واضحة ، كذلك تحاول السعودية تخفيض معدلات النمو الاقتصادي بها من مستوى زاد عن ١٥ بالمائة في السنوات الأخيرة من السبعينات إلى معدل في حدود ٦ بالمائة في الثمانينات (١٧).

وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن هذه السياسات الانكماشية الأصلية تعود بقدر كبير لاعتبارات تتعلق بتركيب السكان وقوة العمل ، والآثار الاجتماعية والسياسية الناجمة عن مركبة وافدة كبيرة في قوة العمل والسكان ، أما فيما يتعلق بمستوى نشاط التشييد فقد كف عن النمو في السنوات الأخيرة ومن المتوقع أن يستمر الاتجاه الانخفاضي في نشاط التشييد في الكويت للأسباب التالية (١٨):

(أ) بسبب التوجهات الانكماشية في الاقتصاد ككل .

(ب) كان عماد قوة التشييد في النصف الثاني من السبعينات مجموعة من مشروعات البناء التحتي الأساسية «مطار ، توسيع الموانيء ، مجمع الوزارات ، شبكات طرق ، جسور .. الخ » ، ولايحتمل أن تتكرر مثل هذه المشروعات .

(جـ) يؤدي تناقص معدل نمو السكان الوافدين ، وقلة اصطحاب عائلاتهم ، إلى تناقص أسرع في الاحتياجات السكنية والخدمية الجديدة للوافدين مما ينعكس سلبيًا على نشاط التشييد .

تعانى منطقة الخليج العربى تخلفًا عمليًا وتنظيميًا وثقافيًا واقتصاديًا على صعيد الفرد والمؤسسة وكذلك على صعيد العلاقات الاجتماعية السائدة . فالمرأة على سبيل المثال وهى نصف المجتمع لاتزال بعيدة عن المشاركة الحقيقية فى مجالات العمل المختلفة فى كثير من مناطق الخليج العربى كما أنها محرومة من حقوقها السياسية ومع أنها واكبت الرجل فى الحصول على العلم ودخلت فى بعض أقطار المنطقة مجالات عمل مختلفة أثبتت جدارتها فان النظرة لها لاتزال قاصرة ومتخلفة كما أنها هى نفسها تتحمل جزءًا من المسؤولية فى التحرك والعمل واثبات وجودها من أجل الحصول على حقوقها كما أن دور الحركة الوطنية فى عملية التطور والتنمية هام جداً فعليها دور مواجهة المد الاستعمارى الغربى وركائزه بكل أشكاله وصوره والعمل من أجل تغيير الواقع وإعادة بنائه من جديد . تلك مسؤولية كبيرة لم تضطلع بها الحركة الوطنية بعد وهى غير قادرة حتى الآن على تجاوز سلبياتها لتأدية هذا الدور والعوامل التى تشل قدرتها على ذلك بعضها ذاتية وبعضها تتحكم به ظروف الواقع المحلى والأوضاع العربية بشكل عام [١٩].

الهوامش

١- د. عبد المالك التميمى - الخليج العربى دراسة فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ص٢١

٢- د. محمد الرميحى - الخليج ليس نفطًا ص٢١ .

٣- د. محمد الرميحى - نفس المرجع ص٢٤ .

٤- د. محمد الرميحى - نفس المرجع ص٢٥ .

٥- د. محمد الرميحى . نفس المرجع ص٢٧ .

٦- د. عبد المالك التميمى - المرجع السابق ص٢٦ .

٧- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٢٥ .

٨- د. محمد الرميحى - المرجع السابق ص٣٩ .

٩- د. عبد المالك التميمى - المرجع السابق ص٣٢ .

١٠- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٣٢ .

١١- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٣٥ .

١٢- أحمد جمال ظاهر - العمالة فى دول الخليج العربى ص٣٣ .

١٣- د. عبد المالك التميمى - المرجع السابق ص٣٧ .

١٤- نادر فرجانى - العمالة الأجنبية فى أقطار الخليج العربى ص٢١٣ .

١٥- نادر فرجانى - نفس المرجع ص٢١٤ .

١٦- د. عبد المالك التميمى - المرجع السابق ص٤٢ .

١٧- نادر فرجانى - نفس المرجع ص١٣٨ .

١٨- نادر فرجانى - نفس المرجع ص١٣٨ .

١٩- د. عبد المالك التميمى - المرجع السابق ص٤٢ .

الفصل الثانى عشر

التاريخ الثقافى لشرق الجزيرة العربية «الساحل الغربى للخليج العربى»

- التاريخ الثقافى قبل عصر النفط فى شرق الجزيرة العربية .
- الأدب الشعبى .
- الحركة الفكرية .
- التاريخ الثقافى فى عصر النفط فى شرق الجزيرة العربية .
- الغزو الفكرى الغربى لشرق الجزيرة العربية .
- الاستعمار الثقافى فى شرق الجزيرة العربية .
- التعليم الغربى الحديث وتأثيره .
- كتابات المستشرقين .
- العلاقة بين التنمية الشاملة والثقافة .
- علاقة التعليم بالثقافة فى مجلس التعاون الخليجى .
- نتائج التعليم الثقافية .
- الاتصال الجماهيرى .
- واقع الثقافة فى مجلس التعاون الخليجى.
- الفئة المثقفة والتعليم والوعى السياسى .
- أزمة الثقافة والمثقف فى مجلس التعاون الخليجى .
- الثقافة وظاهرة الإقليمية فى مجلس التعاون الخليجى .

التاريخ الثقافى لشرق الجزيرة
والساحل الغربى للخليج العربى

التاريخ الثقافى قبل عصر النفط فى شرق الجزيرة العربية

يعتبر أبناء شرق الجزيرة العربية امتداداً لواقع عربى إسلامى يحملون كل السمات الروحية والفكرية التى حملها أجدادهم العرب المسلمون فهم جزء من الثقافة العربية الإسلامية العميقة وإلى جانب حملهم لعناصر الثقافة العربية الممتدة عبر التاريخ ونظراً لوقوع المنطقة بمحاذاة ثقافات إسلامية وغير عربية أو غير إسلامية ، فقد تأثر أبناء المنطقة بدرجة أو بأخرى بهذه الثقافات التى يشارك أبناؤها العرب فى الإسلام والعلاقات الإنسانية والاقتصادية . لذلك نجد أن السمات الروحية والعاطفية والفكرية «الثقافة» فى شرق الجزيرة العربية تقليدياً هى السمات العربية الإسلامية المشتركة مع شبه القارة الهندية والساحل الأفريقى الشرقى ، وذلك نتيجة لعلاقات التجارة والسفر مع هذه المناطق وهذا التبادل المادى هو الذى أنتج هذا المزيج الثقافى . والتقسيمات السياسية الحديثة نسبياً لم تكن عائقاً بين أبناء مشرق الجزيرة العربية أنفسهم إلا فى أوقات قصيرة جداً وكانت العلاقات مفتوحة بين التجمعات السكانية المطلة على الساحل الشرقى من الجزيرة العربية والمناطق الداخلية . هذا التفاعل بجانب النشاط الاقتصادى المتماثل أو المشترك كالغوص على اللؤلؤ أو التجارة أو الزراعة فى بعض الواحات عزز من الوحدة الثقافية المشتركة لأبناء شرق الجزيرة العربية .

إذا قلنا أن الثقافة هى نتاج المجتمع المادى والفكرى ، فان تجمعات شرق الجزيرة العربية كانت تعيش على حد من الفائض الاقتصادى من خلال الجزيرة العربية كانت تعيش على حد أدنى من الفائض الاقتصادى من خلال مواسم صيد اللؤلؤ والزراعة المحددة والتجارة فقد وجدت لديها بعضاً من الوقت خاصة المستقرة فى القرى والمدن الكبيرة على الساحل أو فى الداخل انتاج ثقافة متميزة ومجدولة بموروثات الثقافة العربية ومجلوبات الثقافة الهندية والأفريقية . ونلاحظ ذلك على طريقة تشييد المبانى والزدوات المستخدمة فى حياة الإنسان اليومية كالأسرة وخزانات الملابس استخدم فيها المزيج من المواد الأولية المحلية والأفكار فى التشكيل والتصنيع التى جلبها المهاجرون أو التجار من تلك البلاد المجاورة ، والنتاج الفكرى فى تلك الفترة كان يتوا ءم مع الإنتاج المادى فأغانى الغوص والسفر وأغانى الاستعراضات الحربية وأغانى العمل فى الزراعة أو البناء كانت جزءاً من الانتاج المادى ، فالتهام صاحب

الصوت الشجى الذى يغنى على سطح السفينة حاثًا الغواصين على العمل لم يكن عمله مستقلاً فهو بجانب ذلك أو قبله «غاص» أو «سيب» [١]، إذ هو جزء من الانتاج المادى[٢].

تقوم فرقة الاغانى والأهازيج فى القبيلة بأداء رقصات الحرب «العرضة» أو «العيالة» ليست جزءاً متخصصًا فى القبيلة وإنما يقوم بها من يستطيع من الرجال كجزء من أعمالهم العامة والثقافة التقليدية فى هذه المجتمعات كانت أساسًا تدور حول الانتاج المادى والحياة بأشكالها المختلفة ومعتمدة على موروثات الثقافة العامة كالتعليم الدينى وقرض الشعر - الفصيح أو العامى - شعر «النبط» ولم تكن هناك حدود تفصل هذا النتاج بعضه عن بعض وكان الشعر هو الرباط المشع من الماضى إلى الحاضر وهو قائد الإحياء الثقافى فى العصر الحديث فى شرق الجزيرة العربية .

الأدب الشعبى :

مرت الثقافة أو الأدب الشعبى فى مجتمع شرق الجزيرة العربية البسيط بصعوبات وظروف ومراحل مختلفة فرضتها طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية . والأدب الشعبى أكثر إلتصاقًا بمشاكل وهموم ومعاناة الإنسان العادى فقد تحدث الشعر وتحدثت الأغنية عن الغوص والبحر والفقر والطبيعة والغزل والسياسة وكان هناك الشعر العمودى الفصيح والشعر باللهجة العامية وهو نوعان : الشعر النبطى «شعر البادية» ، و «شعر المدينة» والشعر الشعبى بالفعل سجل صادق لتاريخ المنطقة الاجتماعى . لقد تحدث عن معاناة الغواص فى أعماق البحر وعن حالة الفقر التى عاشها المجتمع وعن الفلاح وهذه الصفة عامة فى شرق الجزيرة العربية ولم يكن الأدب فى هذه المنطقة ترفًا إلا فى حدود ضيقة ، إنما كان معبراً عن معاناة أبناء المنطقة وهو اللغة الصامتة التى تحدثت بصدق عن الوضع الاجتماعى والاقتصادى والحياة العامة بدون نفاق أو تزلف أو تجارة بل بصدق وواقعية وعمق فعندما يقول الشاعر الشعبى البحرينى هذه الأبيات عن الغوص تحس عمق المعاناة وقسوة الحياة والتعبير الصادق والشفافية الصافية :

تشكى العرى والجوع ويا المذلة
وتركض فى خدمتهم مثل البنايس[١]
وين القماش[٢] اللى من الدر جبنا

١- البنايس : العبيد الذين يجلبون من «ممباسة» فى شرق أفريقيا .

٢- القماش : اللؤلؤ .

الله عليهم وان كلوا من تعبنا

قماشنا بالهند والله طايع

وحنا تمدينا بين شانى[١] وصايح[٢]

هذه السنة صار علينا فضايح

أنتم تبنون فلوس وحنا مفاليس

وضرب الشاعر الكويتى فهد راشد بورسلى مثلاً رائعًا على معايشة مشاكل البسطاء والتعبير عنهم بعفوية صادقة فيقول :

حجة العاجز يقول

دوم الله كريم

القوى غضب تخضع له

ليه ضرب وجهك بنعله

عاش هذا الشاعر الكويتى الشعبى فى الفترة ما بين ١٩١٨ - ١٩٦٠ وهى فترة هامة شهدت مرحلتين هامتين من تاريخ المنطقة قبل ظهور النفط وفترة من عصر النفط ولم يتغير شعره ولم يتحول بل بقى حتى وفاته وفيًا لالتزامه بقضايا الناس معبراً عنها وتحدث فهد راشد بورسلى فى شعره باللهجة العامية عن قضايا اجتماعية كثيرة منها مشكلة المياه فى الكويت وتعليم المرأة وعن الاستعمار البريطانى وعن مقاطعة البضائع الأجنبية كذلك تحدث عن الفقر وأوضاع البحارة وقد وصف البحارة وهم يقفون لأخذ مستحقاتهم كأنهم يقفون لأخذ الصدقة وهذا تعبير صادق وواضح عن حالة البؤس التى كان يعيشها هؤلاء المنتجون الحقيقيون فى المجتمع آنذاك . كما كان الفُلكور يمثل الثقافة الشعبية باللهجة العامية والتى تشمل الشعر الشعبى والأغانى والرقصات والعادات الشعبية والأمثال العامية وهناك خطورة فى الإغراق بالتأكيد على الثقافة الشعبية باللهجة العامية حيث أن التوجه لها يجب

١- شانى : الحالة السيئة .

٢- صايح : المدين .

أن لايكون على حساب الأصالة العربية واللغة الفصيحة لأن المبالغة فى إبراز الثقافة الشعبية باللهجة العامية قد تؤدى إلى ترسيخ الإقليمية وتؤثر على فكرة الوحدة العربية بطريق غير مباشر .

باستثناء قلة من الشعراء فى الثلث الأول من القرن العشرين يمكن أن يشار إلى مكان استقرارهم فى أقطار أو إمارات شرق الجزيرة العربية بدقة ، نجد الأغلبية تتجاذبها مجتمعات المنطقة ذات الفائض الاقتصادى أينما كان ومنهم عبد الجليل الطبطبائى نجد له تأثير فى الكويت والبحرين وقطر ، ومحمد بن مانع من داخل الجزيرة العربية جاء إلى الدوحة وأسس المدرسة الأثيرية عام ١٩١٣ وعبد العزيز الرشيد «الكويت» و «البحرين» وقاسم المعاودة «البحرين» و «قطر» وعيسى القطامى بحار كويتى يؤلف عن عمان ويعمل فيها قاضياً ويتوفى هناك ومحمد بن عثيمين «نجد» و «قطر» وخالد الفرج «البحرين» «الإحساء» «الكويت» والشاعر عبدالله بالخير «حضرمى» عاش فى «الحجاز» «الإحساء» «البحرين» وآخرون غيرهم كثيرون وحتى الجيل المخضرم من الأدباء والمثقفين وقادة الإدارة فى المنطقة اليوم لانستطيع أن ننسبهم بدقة إلى هذا الإطار السياسى الحديث أو ذاك فمثلا عبدالله الطائى وهو من أدباء عمان عاش فى الكويت ثم أصبح فى بداية قيام حكومة أبوظبى وكيلاً لوزارة الإعلام قبل أن تصبح اتحادية فى دولة الإمارات العربية المتحدة . كما كان البعد العربى حاضراً فى الخليج العربى يتمثل فى شخصيات أمثال حافظ وهبة «مصر» والشيخ يوسف ياسين «سوريا» وأحمد السقاف «اليمن» وآخرين من العراق والحجاز واليمن أثروا الحياة الثقافية فى شرق الجزيرة العربية وأثروا فيها .

الحركة الفكرية :

عندما بدأ التعليم ينتقل تدريجيًا من شكله التقليدى «الكتاب» أو «المطوع» إلى بدايات التعليم الحديث كمدرسة الأحمدية لابن دلموك فى دبى عام ١٩١٣ والمدرسة المباركية فى الكويت ١٩١٤ ومدرسة الهداية فى البحرين ١٩١٩ ومع بدء حركة النشر المحدودة كصدور مجلة الكويت لعبد العزيز الرشيد ١٩٢٨ فى الكويت وجريدة البحرين لعبدالله الزايد ١٩٣٩ وجدت هذه الحركة الفكرية الجديدة بيئة صالحة نسبيًا لدفع أفكارها التنويرية فى ظهور المدارس التى أخذت جزئيًا بالنظام الحديث فى التعليم وكذلك كان ظهور المطبوعات الحديثة «مجلة الكويت» و «جريدة البحرين» يعنى تطوراً مهمًا لمسار الثقافة فى هذه المنطقة

ويعنى أيضًا تأثر فئات جديدة من الشباب فى ذلك الوقت بالتيار الاصطلاحى الجديد الذى بدأ ينتشر فى الوطن العربى وخاصة فى سوريا ومصر ، فبرزت المؤسسات الثقافية التى تكونت هى النوادى الأدبية والثقافية والمكتبات الأهلية منذ العشرينات تقريبًا فى المنطقة وكان «للديوانيات» فى الكويت والمجالس الشعبة فى الإمارات الأخرى فى شرق الجزيرة العربية دوراً فى بلورة القضايا العامة حيث كانت ملتقى أهل الرأى لتداول شؤونه العامة ومنها انطلقت فكرة تأسيس النوادى الثقافية مثل «النادى الأدبى» فى البحرين و «النادى الأدبى» فى الكويت و «المنتدى الإسلامى» فى البحرين وكان تجمع الشباب فى وقتها يناقش ما تحتويه المطبوعات والجرائد العربية ومتابعة تطور النضال السياسى ضد الاستعمار .

لعبت النوادى والمدارس والمطبوعات دوراً طليعيًا فى إدخال عناصر ثقافية جديدة مستمدة من التاريخ العربى والإسلامى إلى هذه المجتمعات الصغيرة فى شرق الجزيرة العربية وقد ساعد فى ذلك الفائض الاقتصادى الذى مكن بعض الشرائح الاجتماعية فى هذه المجتمعات من تعليم أبنائها فى الخارج وخاصة فى الهند من أبناء التجار الذين وجدوا لهم نصيبًا حتى فى الإدارة البريطانية للهند وتبنى هؤلاء المتنورون تياراً إصلاحيًا ولكن لقى معارضة شديدة من التقليديين الذين وقفوا ضدهم عن جهل وكذلك السلطات الاستعمارية التى وجدت أن هذا النوع من الأفكار يضر بموقفها على المدى الطويل لذلك نجد أن نواة النوادى والمجلات الثقافية ما لبثت أن حوصرت إلى أن ماتت فى مهدها أما التعليم فقد وجه باتجاهات تبغى احتواءه إلا أن هذه البدايات الأولى كانت ركيزة للتطور اللاحق . فلقد وضع جيل النشأة بذور التطور الثقافى الجديد فى هذه المجتمعات(٤) . .

تميزت المنطقة بالحياة الفكرية وظهر منهم شخصيات عديدة ساهمت فى نشر الأدب والشعر وساهمت فى إثراء الحياة الفكرية فى المنطقة واتسم أبناء شرق الجزيرة العربية بالشعر العربى لأنهم اقتبسوا من حياتهم القبلية الصافية وانتاجهم وعملهم ومثل الشعر تفاعل الوحدة المتشابكة للمنطقة العربية وتعتبر القاعدة الأولى للحركات الأدبية والفكرية التى شهدتها سائر أجزاء المنطقة على مر الفترات الزمنية التاريخية وأن هذا التفاعل العضوى هو دليل وحدة الفكر والشعور والألم والأمل أما الوحدة على صعيد الحركات الأدبية فهى لاتظهر فى حياة الأفراد من رجال الأدب بل أنها تتغلغل إلى الباطن لتربط بين الحركات والتيارات فى الثقافة والأدب متجاوزة المصير الفردى والنشاط الشخصى والتفاعل الأدبى والثقافى الوثيق

الذى حدث فى الكويت والبحرين فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وأقبلت خلالها إمارات شرق الجزيرة العربية على التعليم الحديث والتنظيم الإدارى والخدمات الاجتماعية العامة والتجديد فى سائر نواحى الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية .

عانت المدارس التى أنشئت فى تلك الفترة مثل الأحمدى فى دبى والمباركية فى الكويت والهداية فى البحرين من قلة الاقبال لأن معظم الآباء لم يكونوا قد اقتنعوا بعد بفائدة التعليم الحديث وكان البعض يفضل أن يشارك أبناؤه فى الغوص أو صيد السمك والزراعة وأعمال البناء كما كان البعض يرسل إبنه لمدة أسبوع أو أسبوعين ظنًا منه أنه سوف يتعلم خلال هذه الأيام بالاضافة إلى ذلك كان أصحاب الكتاتيب يهاجمون المدارس الحديثة لأنها أخذت تنافسهم فى مهنتهم التى يتعيشون منها وقد كان حضور التلاميذ إلى المدارس موسميًا ولكن مع مرور الوقت عرف الناس فائدة التعليم والمدارس الحديثة مما أدى إلى زيادة فى الإقبال على المدارس بعد أن كانت تعانى من قلة الإقبال وقد ساهمت فى تخريج رجال أثروا الفكر والأدب فى المنطقة وكان للشعر الفضل فى المحافظة على التراث الأدبى العربى الأصيل مما أدى إلى ظهور جيل متعلم للشعر والأدب فواصل فى المحافظة على هذا التراث وأضاف إليه بعض التجديد والتطوير .

شهدت المنطقة نشاطًا مسرحيًا بمبادرة من هواة التمثيل من المواطنين فى الكويت أقيم أول عمل مسرحى عام ١٩٣٦ قدمه تلاميذ ومدرسو إحدى المدارس ثم تبعته خطوات أخرى وكانت المسرحيات تعتمد على الأسلوب المرتجل وكانت هذه الأعمال عبارة عن نقد للظواهر السلبية فى المجتمع وباللهجة المحلية واستمر هذا الوضع حتى بداية الخمسينات عندما بدأت الحركة المسرحية تتخذ طابع التخطيط والدراسة وتكونت فرقة المسرح الشعبى عام ١٩٥٦ وهى أول فرقة مسرحية فى الكويت وشرق الجزيرة العربية .

الثقافة فى شرق الجزيرة العربية بعد الحرب العالمية الثانية :

يستطيع المجتمع أن يغير نظامه الاقتصادى ونظامه السياسى ولكن لا يستطيع إلا أن يعتمد عى عناصر الثقافة المستمدة من تاريخه القديم ينقلها إلى حاضره . فالثقافة عامل شامل يحيط بالمنطقة وبالمجتمع الذى بدأت فيه بعد الحرب العالمية الثانية تغيرات اقتصادية اجتماعية جزئية وبطيئة . وكانت بعض أقطاره متأخرة عن البعض الآخر زمنيًا إلا أن سرعة التغير ومحتواه واتجاهاته ما لبثت أن تقاربت بل وتوحدت فى بعضها حاليًا فى مجلس

التعاون الخليجى وعلى الرغم من العزلة الرهيبة التى فرضها المستعمر خاصة فى النصف الأول من القرن العشرين عندما تعاظمت مصالحه وتناقضت مع توجهات أبناء المنطقة ، على الرغم من هذه العزلة التى ضربت حول الشخصية العربية فى شرق الجزيرة العربية كالتفرقة والحكم المطلق والتجزئة والقبلية والطائفية فقد تمكنت هذه الشخصية من تجاوز هذا العزل من خلال التحاقها بأهلها العرب وبلورة ذاتها العربية الإسلامية والتعرف على ذاتها كمشروع لايكتمل بالتجزئة ولاينهض ولايتقدم من خلال أشكال الحكم المطلق ولازال بالطبع هناك الكثير مما يستحق المعاناة والنضال من أجله فى هذا الإطار .

شهدت الخمسينات نهوضًا ثقافيًا من خلال النوادى الثقافية والمجلات الأدبية الثقافية التى صدرت من جديد خاصة فى الكويت «البعثة» وفى البحرين «صوت البحرين» وأسهمت فى الأخيرة أقلام عربية من خارج المنطقة ومن داخلها وظهرت مجلة «البعثة» التى أصدرتها البعثة التعليمية الكويتية فى القاهرة ١٩٤٩ - ١٩٥٤ وهى ثانى مجلة كويتية بعد مجلة «الكويت» التى احتجبت عام ١٩٣٠ كما نجد فى هذه الفترة كتابات لفتيات وسيدات من المنطقة منهن من كتبت باسمها الصريح فى شؤون السياسة والاجتماع والأسرة والمرأة ومنهن من استعاضت عن ذلك باسم مستعار .

الغزو الفكرى لشرق الجزيرة العربية :

تعرض الخليج العربى للغزو الفكرى الغربى وخاصة مجتمعات شرق الجزيرة العربية إبتداء من الكويت شمالاً إلى عمان جنوبًا منذفترة طويلة ولازال يتعرض لهذه الهجمة ولكنه صامد وهذا راجع لجذوره العربية الإسلامية القوية والتى لايمكن لأى غزو فكرى أو ثقافى أجنبى مهما كانت قوته أن يسلخ شخصيته الثقافية أو يصل إلى جذوره الفكرية الثقافية الثابتة فى العروبة والإسلام وخاصة فى شرق الجزيرة التى هى امتداد طبيعى للجزيرة العربية مهد الحضارة العربية - الإسلامية ولكن سوف نوضح المجالات التى حاول الغرب الغزو عن طريقها ومنها التبشير والتسلل الاستعمارى الثقافى والاستشراق وغيرها .

الاستعمار الثقافى لشرق الجزيرة العربية :

تغلغل الاستعمار الثقافى نوع من أنواع السيطرة على عقل الإنسان بغية تمهيد السبيل إلى أنواع السيطرة الأخرى يبقى مؤثراً تحت مظلتها أو بدونها وهو لاشك أخطر أنواع

الاستعمار ومن الصعوبة محاربته أو انتزاعه من عقل الإنسان وسلوكه . فهو تأثير يقود عقل الشعب باتجاه خدمة الاستعمار وتمارس عملية الترويض لهذا العقل لقبول سياستها وتبريرها لتحقيق مصالحها الاقتصادية وأهدافها الاستراتيجية ومنذ مجيء الاستعمار الغربي كان التأثير الثقافي مواكبًا لكل خطواته لابل سابقًا عليها وباقيًا بعدها لأنه بدون التأثير الثقافي تصبح مصالحه مهددة .

تناضل الثقافة العربية من أجل الحفاظ على أصالتها وتطورها وتعبر عن طموحات شعبها في حين تحاول ثقافة الاستعمار الغربي التسلل إليها والتأثير عليها والثقافة العربية لاتملك الوضوح والتحديد في كل المجالات وليست متسلحة حتى الآن بما يحميها من هذا التسلل الثقافي الغربي وأن هذا الغزو الثقافي لايبدو مؤثراً إلا في مرحلة التخلف ويبدأ في الإنحسار والتقهقر عندما يبدأ الوعي الحقيقي . والثقافة القومية تؤكد ذاتها وأصالتها وعصريتها عندما يصبح كشف أغراض وأهداف الغزو أمراً سهلاً ومن ثم مواجهته ولكن في حالة القلق وعدم الوضوح الذاتي يكون المجال مفتوحًا والجو خصبًا للتأثير الثقافي الغربي الذي كان نشيطًا ولايزال يمهد السبيل لتنفيذ السياسة الاستعمارية الغربية وترويض العقلية العربية على السكوت وقبول سياساته ويبذل جهداً كبيراً لإعاقة نحو الثقافة العربية الجادة والجيدة . كما أن تسرب الفكر الغربي إلى عقولنا بطرق مباشرة وغير مباشرة يؤدي إلى تكوين اتجاهات ضارة لدى من يتلقاها ويتأثر بها تجب مواجهته من خلال الوسائل الإعلامية المحلية في بلادنا من أجل نقل أفكاره لتحقيق أغراض مرسومة مقدمًا وأن عملية التخلف الثقافي وإعاقة نموه ليست سببها الثقافة الغربية المتسللة فقط ولكن أيضًا القوى المحلية المختلفة ودورها السلبي في هذا الميدان له تأثيره الكبير (٥).

أولاً : المصالح للرأسمالية والبرجوازية تحاول جاهدة أن تعمم فكرها لتحقيق مصالحها الطبقية ولهذه القوى بما أنها تملك القوة الاقتصادية والنفوذ السياسي فهي تلتقي مع الاستعمار الغربي في الأهداف المصلحية بشكل مباشر أو غير مباشر .

ثانيًا : بعض القوى التقليدية المتخلفة التي ترفض التطور والانفتاح على الثقافات الإنسانية بحجة تخريب التراث وتتمسك بالتراث خيره وشره وهذه بدورها تريد المجتمع راكداً محافظًا يقبل ثقافتها التقليدية دون نقد ودون اعتراض ودون الأخذ بالاعتبار تطور العصر والفكر الإنساني .

ثالثًا : ونتيجة لهذه الأوضاع ولأغراض ودوافع شتى جرى السعى وراء الغزارة فى الإنتاج الثقافى دون مراعاة النوع ربما لأغراض تجارية أو سياسية أو لضحالة فكرية ثم أن غياب حركة النقد الجيدة قد فتح المجال لهذا السبيل من الانتاج الكمى . إن هذا النوع من الانتاج يفسح المجال أمام الثقافة الغربية المدروسة كى تتسلل وتؤثر فى عقول أبناء المنطقة بالإضافة إلى القوى المحلية التى لاتريد لفكرنا أن يرقى إلى مستوى العمق والوضوح والتحديد .

التبشير فى الخليج العربى :

نشط المبشرون الغربيون وخاصة الأمريكان فى الخليج العربى منذ نهاية القرن التاسع عشر وفى عام ١٨٨٩ حمل مجموعة من الرواد المبشرين الأمريكان لواء تحويل سكان الجزيرة العربية إلى المسيحية . واتسع نشاطهم وفتحوا العديد من المحطات الرئيسية فى البصرة والبحرين ومسقط والكويت ومحطات فرعية فى العمارة فى العراق ومطرح فى عمان وأصبح المبشرون حملة ثقافة غربية استعمارية يبشرون بها بالإضافة إلى مهمتهم الدينية . وكان هؤلاء الرواد الأول للاستعمار الثقافى الغربى فى الوطن العربى عامة والخليج العربى خاصة وعمل المبشرون والمستعمرون فى ميدان واحد ورأى المبشرون بأن الحضارة الغربية حضارة مسيحية يحمل لواءها الاستعمار إلى العالم ويجب التحالف معه لتحقيق هذا الغرض . والاستعمار هو الوسيلة التى بامكانها نشر هذه الرسالة المسيحية فى العالم وأن كثير من المبشرين يتحركون بعقلية صليبية وكانوا استعماريين يقومون بدور مزدوج فى التبشير وخدمة مخططات دولهم الاستعمارية مثل الجنرال البريطانى هيج الذى قال إن الجزيرة العربية مفتوحة للنشاط التبشيرى . ودعى إلى التوجه إليها ، وقد نشط المبشرون فى مجال التعليم الذى يكمن فيه النشاط الثقافى الغربى الحقيقى (٦).

حدث تغير فى تكتيك المبشرين فى هذا الميدان بعد مؤتمر المبشرين فى القدس عام ١٩٢٤ حيث تم الاتفاق بألا يقتصر التعليم على الناحية الدينية والتوجيه المباشر ، وحتى يتمكن من الاستمرار وتحقيق أهدافه عليه الانسجام مع الأوضاع الجديدة فى الأقطار العربية . ومنذ ذلك الحين بدأ تحديث التعليم على أساس غربى وبما أن المبشرين فى الخليج العربى كانوا ممثلين فى هذا المؤتمر فقد كانوا ملزمين بقراراته واتجاهه الجديد. ويقول جون موتو بهذا الصدد «إن التعليم الغربى لابد أن يسعى ليلعب دوراً أوضح فى توجيه التعليم والدراسات العلمية فى البلدان المختلفة أبعد من الدور الذى لعبه حتى الآن» .

التعليم الغربى الحديث وتأثيره :

بدأ اهتمام التعليم الغربى بتاريخ المنطقة وديانتها وغيرها من الموضوعات إضافة إلى أهمية تعليم الفتاة . وكان الغرض من هذه السياسة التعليمية إقناع الناس فى المنطقة باهتمام المبشرين والمستشرقين بتاريخهم ودينهم لتجنب ردود الفعل تجاه عملهم ككل ولتوجيه هذا النوع من التعليم فى هذه الميادين لصالح الفكر الغربى . ورغم ذلك فانه لم يكن مؤثراً وناجحًا فانه ساهم فى تقديم التعليم الحديث للمنطقة بأفكار غربية ويرجع ذلك إلى أن نشأة التعليم وتطوره كان فى ظروف استعمارية لوقوع المنطقة تحت سيطرته وأن المبشرين الذين كانوا قائمين على التعليم آنذاك كان لهم دور سياسى بالإضافة إلى نشاطهم التبشيرى سواء كان تعليمى أو طبى أو غيره كما أن التعليم الذى نما وتطور فيما بعد فى المنطقة على أيدى العرب من بعض الأقطار العربية كان يحمل فكراً غربيًا بشكل مباشر أو غير مباشر .

لايعنى هذا أن التعليم الغربى كله سىء بل له جوانبه الإيجابية ويشكو التعليم من سلبيات كثيرة ولايزال الفكر المتخلف يحويه فى كثير من جوانبه . وتقع على العاملين فى هذا الميدان اليوم مهمة تنقيحه وتطويره بما يتفق والأهداف القومية والاجتماعية وأن الشعور العام لدى المبشرين الغربيين أن هذه المنطقة تعيش تخلفًا فى جميع المجالات وأن الإنسان فيها يعانى أزمة ثقافية وروحية وأن الديانة المسيحية والحضارة الغربية هى المطلوبة لهؤلاء الناس والمبشرين والمستشرقين هم الذين يتحملون مسؤولية تأدية هذه الرسالة من خلال هذا الفهم والسلوك الذى مارسه المبشرون وأنصارهم من المستشرقين والسياسيين الغربيين ورجال أعمال وغيرهم. ونفذت عقلية غربية إلى واقعنا وإنسانيتنا ربما فى أحيان كثيرة بشكل مباشر بحيث أصبح الإنسان يمارسها وينهل منها ويتأثر بها دون إدراك لسلبياتها ، أن المحاولات المحلية فى بعض إمارات شرق الجزيرة العربية فى ميدان التعليم الحديث والتى شكلت بداياته منذ العقد الثانى من القرن العشرين خاصة فى الكويت والبحرين كانت لسببين (٧):

الأول : أنها رد فعل لنشاط المبشرين التعليمى والذى ولد إحساسًا بالخطر على الثقافة والتراث العربى مما أدى إلى مبادرات ذاتية لدى بعض الأفراد والجماعات فى هذا الاتجاه .

الثانى : حاجة تجار المنطقة إلى كتبة لتسيير أمورهم التجارية فى وقت كانت تجارتهم تمتد إلى الهند وشرق أفريقيا وتطورها يحتاج إلى سجلات وحسابات لم تعد الطرق التنفيذية قادرة على استيعابها وتنظيمها .

عندما بدأت الحكومات المحلية فى المنطقة تهتم بالتعليم الحديث عن طريق جلب المدرسين والمناهج من بعض الأقطار العربية وكون المنهج الدراسى فى شرق الجزيرة العربية وضعه العرب المتعلمين الذين وفدوا مبكراً للإشراف على التعليم منذ الثلاثينات فقد كان نسخة عن المناهج التى كانت تعلم فى مدارسهم . وإذا رجعنا إلى الأصول التى استمد منها المنهج مادته العلمية فانه مما لاشك فيه أن التعليم الحديث عندما جاء على أنقاض التعليم التقليدى الكتاتيبى لم يقطع علاقته نهائيًا مع هذا النوع من التعليم بل كان له عليه تأثير معين وإلى فترة ليست قصيرة من الزمن تعنى بتلك الصبغة الدينية وأسلوب التحفيظ للقرآن الكريم الذى كان له دور كبير فى الحفاظ على الثقافة العربية ولاننسى التعليم الغربى وتأثيره إما عن طريق القلة التى تمكنت من الدراسة فى الدول الغربية أو فى المدارس الأجنبية فى تلك الأقطار العربية سواء كانت تبشيرية أو غير تبشيرية ، كما أن واقع المجتمع فى تلك الأقطار العربية عند صياغة تلك المناهج وتأثير أوضاعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على فكر المنهج بشكل عام فوصلنا المنهج ودرسناه لفترة ليست قصيرة من الزمن وهو مزيج من هذه المصادر الثلاث .

أثناء فترة الاستعمار الأوروبى للأقطار العربية كان المنهج يوضع بمحتوى معين يخدم السياسة الاستعمارية ومصالحها الاقتصادية وغيرها وربما بطريق غير مباشر كان على أبناء منطقة الخليج العربى أن يتعلموه لأسباب عديدة منها أن هذه المنطقة لم تكن أحسن حظًا من غيرها بل كان الاستعمار يسيطر عليها وله تأثيره الثقافى وأنه ليس أمامها خيار آخر غير الاستفادة من هذه المناهج الغربية فى بناء صرح تعليمى حديث منها كما لم تكن هناك قدرات محلية قادرة آنذاك على وضع منهج يتناسب مع المجتمع ومتطلباته العصرية مع الحفاظ على الطابع الحضارى العربى - الإسلامى والمحلى . بالإضافة إلى ذلك لم تكن الظروف السياسية تسمح بمثل هذا التطور حتى لو توفرت تلك القدرات المحلية .

فى ظل هذه الظروف تم وضع المنهج الدراسى فى الأقطار العربية والذى وصل إلى إمارات شرق الجزيرة العربية وتشربه جيلها المتعلم فى البداية والذى على أكتافه قامت وتقوم النهضة التعليمية فى المنطقة ، هذا المنهج كان يحمل ثقافة متخلفة وعقلية غربية بشكل غير مباشر فى كثير من الأحيان غرضها خدمة مصالح الغرب الاقتصادية والسياسية من خلال خدمة القوى المسيطرة والمرتبطة به وأن بروز المثقفين وعملية التعليم التى نجمت عن الإتصال المتزايد

بالغرب الرأسمالى المسيحى أدى إلى دخول قيم جديدة إلى المنطقة ثم اتسعت الهوة بين القيم التقليدية والقيم الجديدة ، لقد تشربت الأجيال الجديدة وأصبحت مزيجًا من قيمه التى ورثها ومن القيم التى اكتسبها عن طريق التعليم ، لا بل أصبح تأثير الثقافة الجديدة تيارًا عارمًا مؤثرًا ونتج عن ذلك الاغتراب الاجتماعى والثقافى وتعلم بعض الأبناء ومكوثهم فى الدول الغربية فترة من الزمن تمتد لسنوات لابد من خلالها من تأثير ثقافى معين على عقول بعض هؤلاء الدارسين وحلمهم فى نقل الحياة الغربية وأنهم يقارنون . بما يرونه فى الغرب بما هو قائم فى بلادهم . ومع تزايد عوائد النفط فى أقطار التعاون الخليجية إزدادت البعثات التعليمية وفتحت أمامهم أبواب المدارس والجامعات فى الغرب لتحقيق هدفين هما(٨) :

الأول : علمى وثقافى بمعنى أن الدراسات والبحوث التى يقوم بها هؤلاء سوف تخدم من الناحية العلمية والاقتصادية الحضارة الغربية بالدرجة الأولى ذلك أنها لاتخرج عن نطاق السياسة التعليمية المرسومة ، وثقافى أن تأثيرًا ثقافيًا غربيًا لابد منه ليكون ركيزة لهذه العقلية فى المنطقة العربية فيما بعد خاصة وأن هؤلاء المتعلمون فى الدول النامية سيحتلون مراكز قيادية فى مرحلة تخلفها ونموها .

الثانى : الهدف الثانى هو اقتصادى ويتجلى فى تزايد أعداد المبعوثين فى الجامعات الغربية ومن منطقة غنية قادرين باستمرار على سداد الرسوم الجامعية وفى ما يساهمون به فى الحياة الاقتصادية عن طريق الصرف فى المجالات المختلفة مما يبلغ حد الإسراف . كما أن هناك غرض سياسى دعائى ذلك أن هذه الدول الغربية تريد أن تظهر للرأى العام العالمى دعمها للعالم الثالث عن طريق تعليم أبنائه وتطويره والوفاء بالدين الذى للدولة على الغرب نتيجة استعمارها فترة طويلة .

استفادت دول العالم الثالث ومنها أقطار مجلس التعاون من عملية التعليم هذه رغم سلبياتها وأن الجامعات فى الغرب تخضع لتأثير سياسى وأن الإدارة الأمريكية ومخابراتها ترى أنها فرصة تاريخية عندما يتوفر لديها فى بلدها وجامعاتها عقول من العالم الثالث لتلقى العلم حيث تمارس شتى أنواع التأثير لكى تسود العقلية الرأسمالية الاستعمارية وبتأثير بعضهم ليكونوا أداة للاستعمار فى بلادهم وللعمل على أمركة المؤسسات العلمية فيها ليس فنيًا وعلميًا فحسب بل أيضًا سياسيًا .

كتابات المستشرقين :

اختلفت الكتابات الغربية عن الخليج العربى من كاتب إلى آخر ومن جهة إلى أخرى حسب الدوافع والأهداف لهذه الكتابة . وهى تنقسم إلى ثلاثة أنواع كتابات المستشرقين والمبشرين والرحالة والسياسيين وسوف نتناول الاستشراق لأهميته على الثقافة ولأنه واكب التدخل الغربى الاستعمارى فى المنطقة وانتجت هذه الجهود العلمية معرفة تم توظيفها فى نشاطات سياسية واقتصادية وثقافية وأن فئات عديدة من الغربيين اشتركوا فى هذه الجهود من علماء ورحالة ودبلوماسيين سبقوا أو رافقوا التدخل الغربى بأشكاله المتعددة هذه الجهود فى الاستشراق والتى إنصب اهتمامها على دراسة تاريخ وعلوم وفلسفة وعادات وتقاليد الشعب العربى والشعوب الشرقية الأخرى أوجدت مؤسسات ثقافية محلية ولدت بمرور الزمن مواطنين متأثرين بشكل أو بآخر بالثقافة الغربية . وفى تقييم الجهود المبذولة فى الاستشراق نجد أن كلها ليست جيدة ولا كلها سيئة بعضها له سلبياته الكثيرة وبعضها خدم القضية العالمية وكان منصفًا فى البحث عن الحقيقة وقدم للعالم تراثنا وثقافتنا وحضارتنا كما يجب أن يكون وبعضهم ساهم بشكل فعال فى تقديم السلاح لأعداء الغرب الذين يحاربون به وفى عملية البحث عن دوافع الاستشراق يمكن تحديد بعض النقاط التالية (٩):

أولاً : محاولة توظيف الثقافة فى المؤسسات وتأثيرها فى العلاقات الاجتماعية فى إطار السياسة والثقافة الاستعمارية فقد كان الهدف من بعض هذه الكتابات إيجاد معرفة عن المجتمعات العربية وغيرها بهدف العمل الذى يحقق الأغراض الاستعمارية خاصة وأن هذا النشاط قد واكب تصاعد المد الاستعمارى فى القرن التاسع عشر .

ثانيًا : القضية العلمية والبحث عن الحقيقة إذ فيه أن الدافع العلمى كان وراء بعض كتابات المستشرقين وهى قليلة بالطبع والتى كان لها تأثير فى فهمنا لتاريخنا وتعريف الآخرين به .

ثالثًا : الغرض الدينى ، لقد سعى البعض لدراسة الاسلام ومقارنته بالديانات الأخرى وخاصة المسيحية إلى درجة امتزاج النشاط مع جهود المبشرين المسيحيين الذين كانوا يعملون ضد الاسلام وإساءة فهمه وتشويه صورته بطريقة علمية حتى تظهر أقرب إلى الحقيقة وهى الحقيقة مزورة .

العلاقة بين التنمية الشاملة والثقافة :

حدثت فى أقطار الخليج العربى المنتجة للنفط تنمية شاملة ولكنها لم تحقق أهدافها بعد ولكن أصبح هناك نمو اقتصادى واجتماعى وإلى حد ما سياسى من جراء هذه الثروة المتدفقة من النفط بدءًا من الستينات . وتعاظم هذا النمو فى العقد الأخير من السبعينات وبداية الثمانينات ومن خصائصه الرئيسية لأقطار مجلس التعاون الخلجيى تزايد النمو السكانى وتضاعف سكان بعض الأقطار إلى ثلاث مرات على الأقل ، هذا المؤشر الدال على التغيير الديموجرافى نجد هناك مؤشرات فرعية لها دلالة بالغة على التوازن الثقافى المحلى وداخل منها نسبة تواجد أجانب من أصول ثقافية غير عربية وغير إسلامية . كما أن مؤشراً آخر يجب أن نضعه فى الاعتبار وهو مهم أيضًا فى إطار التغير الثقافى ونعنى به النسبة الكبيرة الشابة من السكان فيما بين سن ٦ سنوات إلى ٢٣ سنة أى أن ذلك المجتمع المتوقع سيكون شابًا يفرض مسؤولية ثقافية محددة وسيتركز هذا المجتمع فى تجمعات مدنية ضخمة أى فى مراكز مدنية تلعب فيها أنواع معينة من وسائل الثقافة دوراً بارزاً ومميزاً . ومن المؤشرات الواجب النظر فيها والتى لها علاقة وطيدة بالثقافة بمعناها الشامل فرص الحياة الأطول ووقت الفراغ الأكبر المتوقعان فى مجلس التعاون الخليجى فى المستقبل ففى السعودية مثلاً كان متوسط العمر هو ٥٣ سنة عام ١٩٧٨ بالمقارنة بـ ٣٨ سنة قبل خمس عشرة عامًا ماضية وفى الكويت أصبح متوسط السن ٦٩ سنة عام ١٩٧٨ بالمقارنة بـ ٦٠ عامًا فقط قبل ١٨ عامًا .

تلك هى بعض المؤشرات الاجتماعية المهمة التى واكبت النمو الاقتصادى فى أقطار مجلس التعاون الخليجى منذ الستينات وهى مؤشرات تجعل المجتمع فى حالة خصبة للتلقى الثقافى ففتوة السكان وتعدد أماكن قدومهم وتطور التعليم بأشكاله المختلفة ومراحله المتعددة والوفرة الاقتصادية الناتجة من تدفق عائدات النفط والوقت الأكبر المتاح للترفيه والفراغ وتقدم تقنيات وسائل الاتصال المسموعة والمرئية والمكتوبة مع ظهور هذه الحياة الجديدة ساعد على تحرير الانسان العربى فى مجلس التعاون الخليجى من كثير من معاناته الاقتصادية السابقة وأعطاه الوقت للتعرف على ذاته مما يعنى أن هناك عبئًا خاصًا يلقى على الشكل الثقافى المراد فى المستقبل . ومن المتعارف عليه أن هناك علاقة وطيدة بين الثقافة وبين التربية وعلوم الاتصال الجماهيرى وعلى الرغم من أن الأخيرتين جزء لايتجزأ من الثقافة بمعناها الواسع إلا أنه من أجل مدخل عقلانى لفهم الثقافة فى أقطار مجلس التعاون الخليجى اليوم لابد من الحديث عن التربية والاتصال الجماهيرى .

علاقة التعليم بالثقافة فى مجلس التعاون الخليجى :

شهدت أقطار مجلس التعاون تطوراً فى التعليم منذ الخمسينات صعوداً حتى الثمانينيات ويوجد أكثر من إثنى عشرة جامعة عدا عشرات الكليات والمعاهد العالية . ومن المتفق عليه أن التعليم هو وسيلة مهمة لنقل القيم الثقافية القومية والعالمية إلا أن التعليم لا زالت تحوطه وجهات نظر بالغة الاختلاف ولم تصل إلى محصلة تركيبية تحدد هذه الوسيلة المهمة والأساسية فى نقل الثقافة ولا زالت تشهد نقاشًا مطولاً حول المواءمة بين نظم التعليم كنظم ناقلة للمعرفة التقليدية وبين النقل وأعمال العقل وأن المعضلة هى فى كيف يساعد التعليم على تمثيل المعارف والعلوم والتكنولوجيا لدى المجتمع دون المساس بمعتقدات ذلك المجتمع وقيمه . ولازال التعليم العالى أو الجامعى فى مجلس التعاون مشروعًا غير مكتمل وكيف نوائم بين الحقيقة التى مؤداها أنه بغير الثورة العقلية والصناعية التى شهدها ويشهدها الغرب بكل اجتهاداته السياسية وثورته العقلية التى زادت فكر الإنسان إنضباطًا وزودته بنظم ومناهج وأدوات بحث واستقصاء أكثر دقة فى سبيل خدمة الإنسان ، كيف نوائم بين ذلك وبين واقع التخلف والتبعية التى تعيشها المنطقة وبين استيعاب العلوم والتكنولوجيا مع مواءمتها بمعتقداتها وقيمنا العربية والإسلامية .

يجب بحكم العقل ومواءمة العلم والدين وديمقراطية التعليم الذى هو المفتاح الرئيسى لحل المعادلة فى مساعدة التعليم الحديث على تمثيل العلوم والتكنولوجيا ووضعه فى خدمة المجتمع وأن صياغة جيل متعلم تعنى الابتعاد عن جيل المدارس المفرغ «جيل دنلوب» كما سماه محمد محمود شاكر عندما قال «جاءنا دنلوب (وهو بريطانى) فى ١٧ مارس ١٨٩٧ ليضع للأمة (مصر) نظام التعليم المدمر الذى لانزال نسير عليه مع الأسف إلى يومنا» . نقد شاكر لجيل «دنلوب» المستمر معنا حتى الآن كما يقول يفسره بقصوره فى المزاوجة بين تراثنا ونظام التعليم الحديث ، هذه النقطة لم تفت كثيرين منهم طه حسين نفسه عندما كتب : «معاهد العلم ليست مدارس فقط ولكنهما قبل كل شىء وبعد كل شىء بيئات للثقافة بأوسع معانيها وللحضارة بأوسع معانيها من هنا قلت أن الجامعة بيئة لايتكون فيها العالم وحده وإنما يتكون فيها الرجل المثقف المتحضر وإن قصرت الجامعة فى ذلك فإنما هى مدرسة متواضعة» . كما قال طه حسين أيضًا : «التعليم عندنا على أى نحو قد أقمنا صروحه ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضى على النحو الأوروبى الخالص ما فى ذلك من شك

ولانزاع نحن نكون أبناءنا فى مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكوينًا أوروبيًا لاتشوبه شائبه» . ولابد من القول أن «دنلوب» ليس الملام وحده فقد أساءت إلى التعليم فى بلادنا أجيال بعد «دنلوب« نتيجة لعيوبها الذاتية ، ولا يتأتى الحل بنقد النظام وإنما بنقد محتوى النظام وبشجاعة لقد تركنا جيل «دنلوب» يتحكم فينا ردحًا طويلاً من الزمن وأخلدنا طويلاً فى الأعوام الماضية لعالم الحاجات والخدمات وأصبحت مطالبنا فى الترف وقطف ثمار حضارة متقدمة هى طابع الجيل ، لقد تركنا تطور التعليم للزمن ففرض علينا كثيراً من الغزو الفكرى الغربى وافترشنا شاطىء الأمان .

نتائج التعليم الثقافية :

نتيجة لهذا التعليم وذلك التغير الاجتماعى على الثقافة حدثت تغيرات شتى منها الأصيل الذى عبر عن روح المجتمع الجديد فى صدامه مع التقليد والجمود والموروث ومنها ما هو زبد استفاد من ظاهرة الاستهلاك السلعى كى يسحبها على الاستهلاك الثقافى فأصبح بجانب الانتاج الثقافى التقليدى والشعر «الفصيح أو العامى» وأشكال من التعبير كالقصة القصيرة والرواية والمسرحية والكتابات الاجتماعية والاقتصادية وتطورت فى بعض أقطار مجلس التعاون حركة مسرحية وثقافية عامة ونشأت روابط الأدباء والكتاب والمثقفين وتعددت الدراسات الجامعية العليا ، إلا أن ما يميز هذه المرحلة من الستينات وحتى الآن انتشار ثقافة «الرمز الأدبية» كالقصة القصيرة والشعر والأغنية وإلى حد ما الرواية والمسرحية لأن الفكر بمعناه الحديث لم تتوفر له فرصة النمو ولم تكن له أرض خصبة . ومن الصعب وضع حد فاصل ودقيق فى الثقافة الشاملة بين الفكر كنشاط عقلى متميز وبين الاهتمامات الأدبية إلا أننا اليوم متعاملون بالرموز فى الوقت الذى لانكاد نحصل فيه إلا على بضعة أسماء إن وجدت نطلق عليها لقب «مفكر» .

لقد شح وجود المفكرين لأسباب موضوعية فكلما زادت الثروة وأثرت عوامل التحديث فى المجتمع زادت حدة الصراع ويمكن للأدباء فى هذا الجو أن يعبروا بالرمز عن مشكلات مجتمعهم إلا أن المفكر الذى يحتاج أن يقول رأيه مباشرة فى شؤون وشجون المجتمع تضيق أمامه فرص التحرك ويتقلص هذا الإطار الثقافى نتيجة لذلك . وحتى الآن لم تظهر فى أقطار مجلس التعاون الخليجى مذاهب فكرية واضحة يقودها مفكرون مبدعون ولاحتى مفكرون ذوو «توكيلات فكرية» وهذا النوع من النشاط «الفكر» يحتاج إلى أرض

صالحة ينبت فيها ولم تتوفر هذه الأرض حتى الآن فى المنطقة ولقد تلازم ذلك مع تضييق شديد للرقابة البيروقراطية على الثقافة بأشكالها المختلفة خاصة الفكرية وأصبح الرقيب أقرب إلى المنع منه إلى السماح للنتاج الثقافى الفكرى ذى المنشأ الداخلى قبل الخارجى[١١].

الإتصال الجماهيرى :

لم تعد المدرسة والجامعة الموزع الوحيد للمعرفة فأصبحت الثقافة تعنى فى بعض معانيها الاتصال الجماهيرى بوسائله الأساسية المعروفة «الإذاعة المسموعة والمرئية» (التلفاز) والصحف والكتب وما وقع فى إطارها وأصبح هناك تنافس مكشوف تشهده المجتمعات العالمية بين النظامين التربوى والإعلامى ومنها أقطار مجلس التعاون ، فوسائل الإعلام الحديثة لاتقوم فقط بنشر الثقافة التقليدية ولكنها أيضًا تحمل بذوراً ثقافية خاصة بها فهى تساعد على إشاعة الثقافة الشفهية فى بعض وسائلها فى إطار جديد خاصة الإذاعة والتلفزيون واللتين أصبحتا الوسيلة الثانية بعد المدرسة والجامعة للتطور الثقافى ووسيلة أساسية لتوزيع الثقافة والتغير الثقافى . وقد أثر عاملان فى زيادة قدرة التلفاز فى أقطار مجلس التعاون على التأثير أولهما نسبة الأمية الكبيرة وثانيهما طبيعة الحياة الحديثة التى وفرها النفط والجو الاجتماعى ويعتبر التلفاز وسيلة أساسية للترويح مع وجود وقت الفراغ .

تتصدر الولايات المتحدة ومصر للبرامج التلفازية فى أقطار مجلس التعاون الخليجى ويفرض وكلاء توريد لأشرطة التلفاز أذواقًا معينة على الجمهور ويساعد التلفاز فى أقطار مجلس التعاون على إشاعة الثقافة الاستهلاكية بطريق غير مباشر أو مباشر وذلك عن طريق الغزو الثقافى الأمريكى للبرامج التلفازية التى تبيع برامجها بأقل من أسعار التكلفة إلى الخارج لأنها تكون قد حصلت على أرباحها من البيع الأول فى السوق الأمريكية . وهذا بحد ذاته يعطل من محاولات الانتاج المحلية ويفقدها المنافسة ، كل ذلك من أجل تسويق «نمط الحياة الأمريكية» وتشير الدراسات إلى أن المثقفين المتعلمين فى العالم الثالث أكثر استهلاكًا للبرامج الأمريكية من الفلاحين وعديمى التعليم . وهناك ارتباط طردى بين التعليم الغربى والإعلام الغربى وأصبح الاتصال الجماهيرى فى العالم يخضع لصناعة الثقافة التى تملكها شركات متعددة الجنسية فى ثقافة تسيطر عليها التكنولوجيا المتقدمة وإذا كانت هناك إشكالية فى التربية والتعليم فهناك إشكالية أخرى فى وسائل الاتصال وخاصة التلفاز .

واقع الثقافة فى مجلس التعاون الخليجى :

حينما ترك الاستعمار البريطانى الخليج العربى فى الستينات وبداية السبعينات كان بعض أجزائها بلا مدرسة ثانوية واحدة ناهيك عن معاهد وكليات جامعية لذلك كانت بدون كوادر بشرية مدربة للاضطلاع بأعباء الإدارة والخدمات والإنتاج وبعض أقطار مجلس التعاون التى حصلت على بعض التطور قبل الاستقلال مثل الكويت والبحرين وقطر كان ذلك مرجعه إلى اكتشاف واستقلال النفط فى وقت مبكر وساهم فى هذا التطور أقطار عربية أخرى مثل مصر فى عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عندما تنبى السياسة الوحدوية القومية تجاه إخوانه العرب فى المشرق والمغرب .

تواءم الناتج الثقافى لسكان المنطقة قبل النفط مع مقوماتها المادية لصياغة ثقافتها المعاصرة والمتأمل فى وضع النشاط الثقافى وتكوين المؤسسات الثقافية فى المنطقة قبل النفط يلاحظ أنها كانت شعبية وقامت على جهد تطوعى شعبى . وكان الفن والفكر والأدب وطرائق الحياة كلها مرتبطة بالحياة نفسها ولم يكن يبدعها فنان متخصص وإنما هى احتياج الحياة ذاتها . كانت هناك مكتبة عامة للثقافة إن صح التعبير وكان المنتج الثقافى متواكبًا مع البيئة معبراً عنها تظهر فيها صورة الحرمان المادى والمعنوى كما تظهر فيها الأشواق إلى حياة أفضل ، وهذا الطابع جعل منها وجوداً نوعيًا مؤثراً فى حياة المجتمع إمتد تأثيره إلى العصر النفطى ولذلك كانت سائدة آنذاك لكن المجتمع فى العصر النفطى وبعد تكوين الإدارة الحكومية وتسلمها عائدات النفط الكبيرة أصبحت هى الجهة الرئيسية فى الإنفاق على مجالات الحياة المختلفة منها المجال الثقافى فان تكوين المؤسسات الثقافية وتقنين نشاطها والتحكم فيه والصرف عليه أصبح بيد الحكومة فقد زادت المؤسسات الثقافية وزادت ميزانيات الصرف على النشاط الثقافى وزاد عدد المثقفين ولكن الانتاج النوعى والإبداع ظل مخدوداً لابل تم تدجين أصحابه أو تستطيع المستوى والمحتوى .

اختلط الاغتراب الثقافى بالجهد المبذول لانماء الثقافة فأصبحت صورة الثقافة على شاكلة المجتمع فيه الإدعاء وفيه الأصالة وإن دراسة التاريخ الثقافى فى المنطقة يتطلب الأخذ بعين الاعتبار الفارق الزمنى فى التغير الذى نتج عن الثروة النفطية من إمارة إلى أخرى فى الوضع الثقافى والتحديث وتأثير الوافدين فى الثقافة والاتجاهات الثقافية وطريقة الحياة وخاصة العرب الذين لا يختلفون من ناحية الثقافة عن المحليين إلا أن المجتمعات العربية

التى قدموا منها كانت قد سبقت أقطار مجلس التعاون فى التحديث فانتقلت بعض مظاهره إليها . وكان الفكر السائد قبل نهاية الستينات هو الفكر القومى وكانت الأفكار امتداداً لتلك التى تبنتها مجموعة التجار والمتعلمين فى الثلاثينات فى التخلص من السيطرة الاستعمارية البريطانية والمشاركة فى السلطة . ومنذ النصف الثانى من السبعينات أى من الطفرة النفطية حتى الآن أصبح الفكر الأكثر انتشاراً بين الأغلبية هو الفكر الدينى . ويمكن القول أن توجه النشاط الثقافى فى المنطقة فى الخمسينات والستينات وحتى منتصف السبعينات كان توجهًا سياسيًا ثم أصبح حتى الآن دينيًا ومهما كانت سلبيات المرحلتين فان قبسات الإبداع كانت ولاتزال تخترق جدار الحصار وتجد طريقها ببطء وسط ركام الضمور والضعف ويقول قاسم حداد :

«لاتستطيع الجزم بأن التدفقات المالية التى أفرزها النفط فى المنطقة قد حققت تحولاً فى المجتمعات بالمعنى الحضارى ، فالفئات التى اتصلت بمعطيات النفط قد استفادت اقتصاديًا لكن البنية الذهنية ظلت متخلفة سواء فى نظرة المجتمع أو السلطة أو حتى المثقفين أنفسهم إلى الثقافة والإبداع» ، أما فؤاد زكريا فيقول :

«إن المجتمعات النفطية التى قفزت خلال حياة جيل واحد من صعوبة العيش إلى الثراء الهائل لم لم يكن فى وسعها أن تتجنب سيطرة القيم الاستهلاكية والبحث الدائم عن المزيد من الترف ولكن الإشعاع الثقافى الذى ينشره واحد من أصغر هذه المجتمعات النفطية أعنى الكويت يمثل نقطة مضيئة وعلامة هامة على طريق الإفادة من الثروة النفطية فى ما هو أبقى وأنفع من المتع الزائفة والملذات العابرة » . ويقول غسان سلامة :

«أدى الريع النفطى إلى تغيير جوهرى فى هوية المثقف العربى ووظيفته . الثروة النفطية سلاح ذو حدين فى الواقع العربى المعاصر من ناحية وأصبح بالإمكان الصرف على الثقافة ومؤسساتها ومن ناحية أخرى أصبح سلطانًا على الثقافة كما أصبحت الثقافة ترفًا لدى المجتمعات النفطية وأدت إلى توجيه الثقافة وشراء الذمم» .

نجد من هذه الآراء التى قيلت فى علاقة النفط بالثقافة أن قاسم حداد أثار التشكك فى الاستفادة الثقافية بالمعنى الحضارى وأن الذهنية لم تتطور حتى لدى المثقفين وهو ينطلق من فهمه ونظرته إلى المثقف العضوى وإلى الدور المهم والأساسى للثقافة فى تطور المجتمع لكن فؤاد زكريا يرى أن هناك إفرازات إيجابية فى مجال الثقافة على مستوى الكويت وأن هناك

استفادة حقيقية فى هذا المجال ويأتى رأى غسان سلامة بأن هناك جانب لتوفير الثروة النفطية وبامكانية الصرف على الثقافة(١٣) ومؤسساتها وهناك جانب سلبى إذ أصبح المال سلطانًا على الثقافة والمثقفين .

يمكن القول بأن التميز الثقافى الذى عاشته الكويت فى بعض مراحل تاريخها المعاصر قد ارتبط بجو الحرية والديمقراطية الذى ساد المجتمع من بعد الاستقلال ولازال حتى حيث كانت حرية القول والكتابة والنشر وتداول الكتب متوافرة . فقد وفرت الديمقراطية مجالاً خصبًا للنشاط الثقافى ونموه وأصبحت المجالات الثقافية والدوريات العلمية التى تصدر فى الكويت تصل إلى جميع الأقطار العربية ويتم طباعة عشرات الآلاف من بعضها «مجلة عالم الفكر» وسلسلة كتاب «عالم المعرفة» ومجلة «العربى» وكتب التراث ومجلة «العلوم الإنسانية » ومجلة « دراسات الخليج والجزيرة العربية» وغيرها .

الفئة المثقفة والتعليم والوعى السياسى :

مع بداية التعليم الحديث فى المنطقة كانت الطبقة المتعلمة هى الطبقة المثقفة وبعد انتشار التعليم وتعميمه إثر استقلال أقطار المنطقة وتوفر الثروة النفطية وتحول المجتمع من منتج إلى مستهلك تحول التعليم من نوعى إلى كمى فضعفت الثقافة فى التعليم وأصبح فى الإمكان فرز طبقة مثقفة محدودة العدد فى وسط هذا العدد الهائل من المتعلمين وأنصاف المتعلمين وإذا فهمنا «الانتيلجنسيا» بأنها الفئة المتعلمة فذلك صحيح ولكن إذا فهمنا على أنها الفئة المثقفة فذلك غير صحيح لأن تكوين الفئة المثقفة لاعلاقة له بظهور النفط فى المنطقة فوجودها قد سبق النفط . وكان للتعليم تأثير أساسى فى تكوين فئة مثقفة لأن التعليم الحديث فى المنطقة بدأ جيداً . لقد كانت الكتب المدرسية فى الأربعينات والخمسينات والستينات تجمع بين المعرفة والثقافة العامة وكذلك كان المعلم وكانت القبسات الحضارية فى كتب التاريخ واللغة العربية خصوصًا ذات حس قومى وحضارى . أما اليوم فيقوم التعليم على الكم المعرفى والتجزئة الثقافية ولأن الثقافة مسطحة فلا يتلقى التلاميذ شعراً رفيعًا ولايستفيدون منه كما يدرسون التاريخ على أساس قطرى إقليمى .

تمتد جذور الوعى السياسى فى شرق الجزيرة العربية إلى الثلاثينات من القرن العشرين فى خضم صراع سياسى بين القوى الوطنية والاستعمار من أجل الاستقلال وعبر ذلك الوعى عن نفسه فى حركات اصلاحية سياسية شهدتها كل من الكويت والبحرين ودبى ولكن ذلك الوعى

كان بين الفئة المتعلمة والمثقفة ولم يتجذر شعبيًا . فقد كانت هذه الفئة محدودة العدد حتى نهاية الخمسينات وبداية الستينات عندما اتسعت قاعدة المثقفين سياسيًا لأسباب عديدة منها توسيع التعليم الحديث وانتشاره ثم المد القومى الذى صاحبه ظهور الزعامة الناصرية وتأثيرها فى الوطن العربى وظهور التنظيمات والأحزاب السياسية فى المنطقة . يضاف إلى ذلك واقع المنطقة المجزأ والمتخلف رغم النهضة التى شهدتها فيما بعد فى ميادين مختلفة . لقد تكونت الفئة المثقفة التى تتمتع بوعى سياسى نتيجة لتأثير ظروف داخلية وخارجية فقد انقسمت إلى تقدمية ومحافظة تقليدية ، والتقدمية سواء كانت حزبية أو مستقلة كانت تنتقد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى المنطقة وتتطلع إلى الأفضل والفئة المحافظة تجمع المتدينين والسطلة السياسية ، وكلا الطبقتين التقدمية والمحافظة أصبح لهما امتدادت شعبية فى مراحل معينة ولكنهما إنكفأتا على نفسيهما وعادتا فى إطار الطبقة المثقفة ، وبصورة عامة لعبت الطبقتان دوراً فى نهضة المجتمع فى المرحلة النفطية وهى التى ساهمت فى استمرارية تكوين أجيال جديدة من المثقفين رغم السلبيات التى رافقت مسيرتها والتى لابد من تسجيلها تاريخيًا ويؤكد «خلدون النقيب» على دور الناصرية فى المنطقة فيقول(١٤):

«لقد مست الناصرية بتحالفها مع القوى التقدمية الحياة الاجتماعية والسياسية فى الخليج والجزيرة العربية مسًا فقد احتضنت قوى المعارضة فى جميع بلدان الخليج العربى» . وان تطور الأوضاع فى شرق الجزيرة العربية رغم خصوصيتها لم يحدث بمعزل عن الأوضاع العربية بصورة عامة وتأثيرها فيها فبعد هزيمة ١٩٦٧ حدث ولا يزال تراجع على المستويات الوطنية والقومية والثقافية» .

يمكن أن نميز تيارين أساسيين فى إطار الثقافة بمعناها الشامل اليوم فى مجلس التعاون الخليجى تيار ينحو نحو الفكر الليبرالى المفتوح ذى التوجهات الإنسانية والذى يعتمد العلمية فى تحليل مشكلات المجتمع وتحت هذا الإطار يدخل الأخلاقيون والجذريون والمتدينون المتنورون على حد سواء ، وفكر آخر يمكن أن يوصف بفكر «الغلاة» وهو فكر جامد يتوجه إلى النصوص بشكل مفرط يتبنى المعاملات قبل العقيدة وجوهرها السمح تأخذه تفاصيل اهتمامه بالفروع وليس بالأصول . والمأزق الذى يقع فيه هذا النوع من الفكر هو أنه كلما إزداد تمسكا بنصوص الفروع على ظاهرها ضعفت قدرته على مسايرة العصر وكلماساير العصر إنكمش المجال الذى يمكن أن نطبق عليه نصوص الفروع ونجد أن الثقافة اليوم فى

مجلس التعاون الخليجي تتجاذبها تيارات متعددة هي أيضًا انعكاسات لتيارات تموج بها الساحة العربية ولازالت الثقافة بعيدة عن التأثير في الواقع وما السلبية التي يواجه بها المواطنون الحوداث التي تمر بها أمتهم إلا إنعكاس للغربة الثقافية المنتشرة (١٥).

أزمة الثقافة والمثقف في مجلس التعاون الخليجي :

يتحدد دور المثقف في المنطقة حاليًا بتحليل حاضر المجتمع وتحديد مشكلاته بوعي تاريخي وتوعية الناس بتلك المشكلات وتحديد أهداف المجتمع وبلورة وعيه حول تلك الأهداف وإشاعة وتأصيل الثقافة الجادة ووحدتها وإقامة المؤسسات الثقافية وتنشيطها وحمايتها والتفاعل مع القضايا العربية المصيرية والقضايا الإنسانية والعمل على عقلنة المجتمع بعقلنة السلوك والحياة اليومية والمؤسسات الثقافية وتنشيطها وحمايتها والتفاعل مع القضايا العربية المصيرية والقضايا الإنسانية والمؤسسات والفكر ومواجهة سلبيات الواقع ونقدها وإلى مدى يمكن أن يقوم المثقف بهذا الدور ؟ إن المثقف في المنطقة سلبي وضعيف وهامشي في هذه القضايا المشار إليها لأنه في أزمة حقيقية بعض أسبابها ذاتية والأخرى موضوعية فالأغلبية تهرب إلى تفصيلات الحياة اليومية والإغراق فيها وهروب البعض إلى الماضي وعدم تواصل المثقفين وتفاعلهم وتعاونهم فيعيش بعضهم في عزلة عن الآخرين ولايلتقون في ندوات ومؤتمرات ويناقشون نتاجهم وهمومهم ومشكلات مجتمعهم . وليس هناك تبادل للكتب والدوريات الثقافية وليس هناك تفاعل علمي وثقافي بين كليات الإنسانيات في المنطقة ولعل الأسباب كثيرة منها السلطات التي تنظر إلى النتاج الثقافي الجاد كأحد الممنوعات الخطرة والتيارات الدينية والسياسية تتنازع فيما بينها كما نشأت طبقة من «التكنوقراط» وأشباه المثقفين أو مدعي الثقافة تتطلع للمناصب وتعادي كل نشاط ثقافي جاد كي يظفر بمنصب قيادي أو تحقيق مصالح خاصة أخرى . وأصبح دور هؤلاء تبرير التخلف والتراجع الثقافي وكثير منهم من حملة الشهادات الجامعية والدكتوراه لكن عند التعمق في بحث أحوالهم وقدراتهم تجد هذا الباحث قد جند بالمال من يكتب له أبحاثه وكتبه ويعيش أزمة علمية وثقافية لايكاد يعرف أو يستوعب حتى الأبحاث التي تنشر باسمه كما تجد ثقافته العامة ضحلة إلى حد الرثاء كما أن السلطات استطاعت أن تدجن عدداً من المثقفين وتحولهم إلى موظفين يبحثون عن المناصب القيادية في أقطار مجلس التعاون الخليجي وتحول بعضهم إلى منظرين للسلطة بدلاً من نقد ممارستها (١٦) . وهناك دراسة نشرت في الكويت تقول :

إن أبرز المشكلات التى يعنى منها الشباب هى (١) الخوف من الغد (٢) الجهل بالمستقبل (٣) توقع المفآجات غير السارة (٤) عدم وضوح الأهداف (٥) عدم الثقة بالنفس. إذا كان الشباب هو عماد المستقبل وهو القوة البشرية الأساسية فى المجتمع وهو المتعلم وهو الذى سيتولى إدارة قطاعات المجتمع المختلفة وهو يعيش أزمة نتيجة تلك المشكلات التى توصلت إليها الدراسة فكيف نستطيع أن نتصور حال المجتمع فى مجلس التعاون الخليجى فى المستقبل ؟

قد يكون أحد الأسباب هى الأوضاع المادية الناتجة من عوائد النفط والتى قلبت الموازين وغيرت القيم وأوجدت قيمًا جديدة واهتمت بالجوانب المادية الاستهلاكية للحياة وأن التعليم وما يعانيه فى مراحله المختلفة مسؤول إلى حد بعيد عن تلك المشكلات التى يعانيها الشباب فى المنطقة وعدم وجود الوعى المجتمعى لدى هؤلاء الشباب بسبب أزمة الثقافة والمثقفين فى المنطقة لأن من مهمات المثقفين تحديد أهداف المجتمع وعدم ترك الشباب يعانى أزمة ثقافية حقيقية . وأن ظهور تلك المشكلات وغيرها دليل علي أن مجتمع أقطار مجلس التعاون الخليجى يعيش أزمة فى عصره النفطى وأن وجود الثروات الطائلة لم تمكنه من حل تلك المشكلات بل خلقت مشكلات جديدة فاذا يسرت الثروة سبل الحياة المعيشية فانها خلقت أيضًا فئات إشكالية وأن مسؤولية المثقفين كبيرة فى الحاضر والمستقبل فى نقد الواقع وبناء الثقافة الجادة التى تقوم على أساس عقلى وعلمى .

ساعدت وسائل الاتصال الحديثة على تزييف الثقافة كما ساعد تفريغ التعليم من محتواه على تسطيحها ، لقد أصبحت ظاهرة الأغانى الهابطة والمسلسلات الرديئة تقف جنبًا إلى جنب مع ظاهرة «البترو - دكتوراه» وتراكمت على بذور الثقافة الإبداعية الناشئة أتربة الإدعاء فاختلط الحابل بالنابل . لقد تزايد الاغتراب الثقافى في مجلس التعاون الخليجى اليوم ومن مظاهر الاغتراب الإزدواجية بين القيم الموروثة والقيم العصرية التى تلح على الناس من خلال أجهزة الإعلام ويتشربونها من خلال السياحة مما يخلق تمزقًا فى شخصية الإنسان فى أقطار مجلس التعاون . ولقد أصبح إيثار كل ما هو سهل وغير معقد والابتعاد عن المجردات والجهد العقلى وتفضيل القيم المادية على القيم العقلية سمة من سمات التمزق الثقافى البارز فى مجتمع مجلس التعاون اليوم (١٧).

بذلك يمكن القول بأن المجتمع فى مجلس التعاون الخليجى تطور ماديًا ولم يتطور ثقافيًا بما يواكب التطور المادى وظل متخلفًا فكريًا رغم كل تلك التطورات والتحولات التى شهدها هذا المجتمع فى تاريخه المعاصر . ويتحمل المثقفون جزءًا مهمًا من مسؤولية عدم نمو الثقافة وتطورها كما أن الثقافة بفعل تأثيرات عديدة قد انتزعت من التعليم ليقتصر على المعارف ولم تشهد هذه الفترة حركة نقدية للانتاج الثقافى ولذلك خدع الكثيرون بأن هناك ثقافة حقيقية فى الوقت الذى تتجه فيه إلى التسطيح والكم والمعالجات الهامشية . كما توهم بعض المتعلمين ومنهم حملة الشهادات العليا بأنهم جميعًا مثقفون وهم فى حقيقة الأمر ليسوا كذلك على الإطلاق ويعيشون حالة من الأمية الثقافية ولعبت الوسائل الإعلامية دوراً سلبيًا فى مسألة الثقافة فى تهميش الثقافة وتسطيحها وغرست الروح الاقليمية لدى المواطنين وأن الفئة المثقفة فى مجلس التعاون الخليجى تعيش أزمة حقيقية فهى فى ظل الوضع الاقتصادى الناتج من النفط غير قادرة على تجاوز محنتها فى الإبداع والتأثير فى الواقع وخلق ثقافة جادة حقيقية . وإذا كانت لها مساهمات وأنشطة فانها تفتقر إلى تحديد أهدافها وإلى تأثيرها فى واقع المجتمع ومؤسساته وبناء ثقافته التى تحدد مسيرة المجتمع ومستقبله لاتعيش على هامش التطورات والأوضاع وتبقى مهلهلة وغير واضحة ولاتجرؤ على نقد الانتاج الردىء فى الثقافة أو مواجهة محاولات تخريب الثقافة ومؤسساتها ومهما قلنا من أن هذه الأزمة عامة وشاملة فى الوطن العبرى فان ذلك لايبرر التأخر الثقافى فى أقطار مجلس التعاون الخليجى ، إن واقع الثقافة فى المنطقة يفرض على المثقفين فيها أن يتحركوا جديًا لتنشيط الثقافة وحماية مؤسساتها وأن يعملوا للاستفادة من الثروة النفطية بأقصى درجة ممكنة إنطلاقًا من حقيقة أن لهذه الثروة النفطية وجوداً مرحليًا مؤقتًا من جهة وأن التطور الحضارى يقاس أساسًا بالتطورات الثقافى من جهة أخرى(١٨).

يعانى المثقف من أزمة حقيقية تكاد تكون أزمة وجود من جانب يعيش حالة خصام مع السلطة القائمة تصل أحيانًا إلى حد الصدام من جانب آخر يعيش حالة مقاطعة من جانب الشعب سواء كان ذلك بسبب تردى الحالة الثقافية للمجتمع نفسه أو بسبب الهوة الثقافية بين الفئة المثقفة والعامة من الناس أو الجدل والخلاف الفكرى بين المثقفين والتيارات الثقافية والفكرية المختلفة وبذلك يجسد حالة من التفسخ وعدم الرضا عن الدور الذى يلعبه المثقف أو الذى يريد أن يلعبه فى الواقع الاجتماعى أو السياسى أو الفكرى والأيديولوجى . رصد الظاهرة لاينفى الجهود المبذولة لتجاوزها خاصة من قبل المثقفين أنفسهم لكن هذه الجهود

محل خلاف بينه وبين أداء دوره الاجتماعى الثقافى . هذه القيود تفرضها المؤسسات المختلفة مثل الأجهزة الإعلامية التى لاتفتح منافذها للمثقفين إلا بشكل محدود لأنها تابعة للنظام السياسى الذى هو فى حالة رفض وصدام مع المثقفين ومن هذه القيود أيضًا تقييد حرية الكتابة وتعقيد إجراءات الرقابة (١٩).

يؤدى بعض المثقفين دورهم بشكل ضعيف ولايستطيع أن ينهض فى كثير من الأحيان بالدور الذى يرى أن من واجبه القيام به ويرى البعض أن الثقافة العربية ثقافة تقليدية ، فهى إما تابعة للثقافة الغربية أو تابعة لمذاهب إسلامية قديمة وأنه بذلك ليست هناك ذاتية لدى بعض المثقفين فى حين أن هذه الذاتية هى التى تخلق الفكر المستقل وتحدد ملامح الشخصية القومية وتحدد للثقافة إطارها الوطنى وكان الخلفاء الراشدون حذرونا من التقليد وطالبونا بالاجتهاد . والمثقف بشكل عام يجب أن يستخدم عقله فيما يريد الوصول إليه ويسير تبعًا لأسس فكرية وفلسفية نابعة من ذاته وثقافته هو ويحاول جاهداً أن يتغلب بفكره المستنير على العقبات التى تقف أمامه سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية لأن المثقف الذى يحرم من أداء دوره فهذا يكون بسببه هو وليس بسبب القيود الخارجية التى يستخدمها كشماعة يعلق عليها تكاسله وعدم اجتهاده وأن المثقف عندما يحرم نفسه من أداء دوره الثقافى فهذا يتوقف عليه أولاً وعلى مدى إدراكه للقضية التى يريد معالجتها لأن المثقف بشكل عام فى كل زمان ومكان له دور اجتماعى ونضالى وتثقيفى واسع ومتشعب على جميع الجبهات . وأيضًا من الطبيعى أن يجد المثقف أمامه الكثير من العقبات السياسية التى تقف حائلاً بينه وبين وصول أفكاره إلى المجتمع ولهذا يجب أن يقف صامداً أمام كل العقبات التى تقابله ويحاول أن يبدع ويكشف أسلوبًا جديداً للتعامل مع هذه العقبات (٢٠).

الثقافة وظاهرة الاقليمية فى مجلس التعاون الخليجى :

ساهمت القطرية التى أعقبت استقلالية الأقطار العربية فى تعميق الاقليمية وأن يكون ذلك الواقع مستمراً بحيث يكرس التشبث فى القطرية ويعادى الوحدة العربية ويتحول إلى ظاهرة إقليمية تتربى عليها الأجيال . ومما زاد فى تعميق هذه الظاهرة أن الكيانات التى قامت فى الخليج العربى كيانات صغيرة من جهة وتملك ثروات نفطية ن جهة أخرى ونلاحظ أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية الراهنة فى تلك الكيانات أدت إلى نمو الروح الإقليمية واستمرار حالة التجزئة التى تعيشها أقطار مجلس التعاون يجعل من الصعب تحقيق أمن المنطقة أو امتلاكها لمتطلبات القرار السياسى المستقل . وأن خطر هذه الظاهرة الاقليمية

يكمن فى غرسها فى عقول الناشئة فى مراحل التعليم المختلفة وفى النشاط الاعلامى الرسمى وحتى فى الفكلور والأغانى واستشرت إلى درجة الخلط بينها وبين المفاهيم والروابط الأخرى الدينية والقومية فمثلاً نجد إنسانًا متدينًا لكنه إقليمى التفكير وكذلك نجد قوميًا عربيًا فى ممارسته وفكره إقليمى . هناك بالفعل مشكلة إما فى الثقافة التى يحصل عليها هؤلاء وإما فى تكوينهم الاجتماعى والسياسى والسلوكى وربما فى الإثنين معًا . لاننكر صلة الناس وارتباطهم بوطنهم وأرضهم ووطنيتهم المطلوبة وأن هناك خصوصية لكل قطر عربى يجب القفز فوقها لكن ذلك لايعنى بأى حال أن ظاهرة القطرية القائمة فى المنطقة وفى الوطن العربى حتمية وأن الوحدة القومية العربية غير ممكنة . أن القطرية التى يتحدثون عنها لم تكن موجودة فى الأساس وإنما جاءت بفعل الوجود الاستعمارى والنضال من أجل الاستقلال . ولنقرأ معًا كتب التاريخ والتى هى مهمة فى تربية الناشئة وطنيًا وقوميًا وروحيًا فهو يربى الانتماء ويخلق الوعى السياسى والحس الوطنى والقومى والروحى وأن أغلب مؤلفى هذه الكتب التاريخية المدرسية ركزوا على الاقليمية ورسوخها وفصلوا بين العروبة والإسلام فى كتاباتهم وتخرج الشباب من المدارس والجامعات فى مجلس التعاون الخليجى متشربًا ذلك الفكر ومتعلمًا ذلك المنهج فى دراسة التاريخ الذى ركز على الجانب الإخبارى المعرفى أكثر من الجانب الثقافى فلم يتكون تكوينًا علميًا وثقافيًا جيداً فأخذ هؤلاء الشباب بدورهم بنقل ما تعلموه إلى الأجيال الجديدة ويتحمل المثقفون مسؤولية مواجهة مثل هذه الظواهر وبلورة ثقافية حقيقية تتجاوز الحدود القطرية وتكون أبعادها قوميّة وإنسانية فى آن واحد [٢١].

نلاحظ أن معطيات تطوير الثقافة واحدة وكذلك تعويقها واحد ففى الوقت الذى نشهد فيه إنبثاق مؤسسات ثقافية موحدة إعلامية وتربوية تدخلت أكثر من أى وقت مضى نجد أن الصعوبات تكبر بازدياد حجم الطموح وهناك محاولات جادة لدى بعض المثقفين فى هذا المجتمع تقاوم التعسف البيروقراطى الرقابى كما تقاوم الانخراط فى نموذج ثقافى موحد يحل من خلال الصناعة الثقافية العالمية وترى أن الاستقلال والوحدة لايكتملان إلا بثقافة وديمقراطية هى وسيلة الانسان فى مجلس التعاون الخليجى للتعبير عن نفسه والتعرف على ذاته واعادة صياغتها كمشروع متكامل فى إطار الثقافة العربية-الاسلامية و الإنسانية[٢٢].

الهوامش

١- جمعه «سيوب» أى الرجال الذين ينتشلون الغائص من البحر بواسطة الحبل .

٢- د. محمد الرميحى - المرجع السابق ص١٩٤ .

٣- د. عبد المالك التميمى - المرجع السأبق ص٢٢ .

٤- د. محمد الرميحى - المرجع السابق ص١٩٦ .

٥- . عبد المالك التميمى - المرجع السابق ص٤٩ .

٦- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٥٠ .

٧- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٥٢ .

٨- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٥٤ .

٩- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص٥٥ .

١٠- د. محمد الرميحى - المرجع السابق ص٥٥ .

١١- د. محمد الرميحى - نفس المرجع ص٢٠٧ .

١٢- د. محمد الرميحى - نفس المرجع ص٢٠٩ .

١٣- د. عبد المالك التميمى - المرجع السابق ص٢١٢ .

١٤- د. عبد المالك التميمى - نفس المرجع ص١٣٢ .

١٥- د. محمد الرميحى - المرجع السابق ص٢١٣ .

١٦- د. عبد المالك التميمى - المرجع السابق ص١٤٤ .

١٧- د. محمد الرميحى - المرجع السابق ص٢١٣ .

١٨- د. عبد المالك التميمى - المرجع السابق ص١٤٣ .

١٩- جريدة الأنباء الكويتية - السبت ٥ أغسطس ١٩٩٣ العدد «٦١٩٣» .

٢٠- جريدة الأنباء الكويتية - ٥ / ٨ / ١٩٩٣ .

٢١- د. عبد المالك التميمى - المرجع السابق ص,١٣٧

المراجع

١- أحمد جمال ظاهر - العمالة فى دولة الخليج العربى - ذات السلاسل - الكويت .

٢- أحمد مصطفى أبوحاكمة - «دكتور»- تاريخ الكويت الحديث - ذات السلاسل- الكويت ١٩٨٤ .

٣- إسماعيل صبرى مقلد - «دكتور» - أمن الخليج وتحديات الصراع الدولي - شركة الربيعان - الكويت - ١٩٨٤ .

٤- أمل الزياتى - البحرين من سنة ١٧٨٣ إلى ١٩٧١ - مطابع دار الترجمة والنشر لشؤون البترول - بيروت ١٩٧٢ .

٥- بدر الدين عباس الخصوصى - «دكتور» - دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر - الجزء الأول - ذات السلاسل - الكويت ١٩٧٨ .

٦- بدر الدين عباس الخصوصى - «دكتور» - دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعصر - الجزء الثانى - ذات السلاسل - الكويت .

٧- بوندار يفكسى - الغرب ضد العالم الإسلامى - دار التقدم - موسكو ١٩٨٥ .

٨- جمال زكريا قاسم- «دكتور» - الخليج العربى عصر التوسع الأدبى الأول - در الفكر العربى - القاهرة ١٩٨٥ .

٩- جمال زكريا قاسم - «دكتور» - دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥ - دار الفكر الربى - القاهرة ١٩٧٣ .

١٠- جمال زكريا قاسم «دكتور» - الخليج العربى - دراسة لتاريخه المعاصر - معهد البحوث والدراسات - القاهرة ١٩٧٤ .

١١- جى . بى .كيلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية - بيروت ١٩٧١ .

١٢- خلدون النقيب «دكتور» - المجتمع والدولة فى الخليج والجزيرة العربية - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٧ .

١٣- رأفت تميمى الشيخ «دكتور» - العلاقات العربية - الأمريكية فى التاريخ الحديث والمعاصر .

١٤- ر . ك . رمضانى - إيران والصراع العربى - الإسرائيلى - منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة الصرة - البصرة ١٩٨٢ .

١٥- سيد نوفل «دكتور» - الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة - القاهرة ١٩٧٢ .

١٦- سليم طه التكريتي - المقاومة العربية فى الخليج العربى - وزارة الثقافة والإعلام - دار الرشيد - بغداد ١٩٨٢ .

١٧- صلاح العقاد «دكتور» - التيارات السياسية فى الخليج العربى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٤ .

١٨- عبيد طوبرش - الصراع حول مضيق هرمز .

١٩- عبد المالك التميمى «دكتور» - الكويت والخليج العربى المعاصر - مؤسسة الشراع العربى - الكويت - ١٩٩٢ .

٢٠- عبد الأمير محمد أمين «دكتور» - المصالح البريطانية فى الخيج العربى - مركز دراسات الخليج العربى - البصرة ١٩٧٧ .

٢١- عائشة السيار - دولة اليعاربة - وزارة الإعلام - دولة الإمارات العربية المتحدة - أبوظبى ١٩٧٥

٢٢- عبد العزيز عوض «دكتور» - تاريخ الخليج العربى الحديث - عمان .

٢٣- عبد العزيز المنصور «دكتور» - التطور السياسى لقطر فى الفترة ١٨٦٨ - ١٩١٦ - ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٠ .

٢٤- فردها ليداى - المجتمع والسياسة فى الجزيرة العربية - دار الوطن - الكويت ١٩٧٦ .

٢٥- فؤاد سعيد العابد «دكتور» - سياسة بريطانيا فى الخليج العربى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر - ذات السلاسل - الكويت ١٩٨١ .

٢٦- فؤاد سعيد العابد «دكتور» - سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ١٨٥٣ - ١٩١٤ - ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٤ .

٢٧- محمد عدنان مراد - صراع القوى فى المحيط والخليج - دار طلاس - دمشق .

٢٨- محمد عدنان مراد - بريطانيا والعرب - دار طلاس - دمشق ٩٨٩ .

٢٩- محمد عرابى نخلة «دكتور» - تاريخ الإحساء السياسى ١٨١٨ - ١٩١٣ - ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٠ .

٣٠- محمد الرميحى «دكتور» - الخليج العربى ليس نفط - دار الكاظمة - الكويت .

٣١- محمود الدواد «دكتور» - الخليج العربى والعمل العربى المشترك - مركز دراسات الخليج العربى - جامعة البصرة - البصرة ١٩٨٠ .

٣٢- مصطفى عقيل الخطيب «دكتور» التنافس الدولى فى الخليج العربى ١٦٢٢ - ١٧٦٣ - المكتبة العربية - بيروت ١٩٨١ .

الدوريات

١- أحمد عبيدلى - الحملة العسكرية على رأس الخيمة ١٨١٩ - ١٨٢٠ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد (٣١) .

٢- أحمد العنانى - الوثيقة - العدد الرابع لعام ١٩٨٤ .

٣- إسماعيل أحمد ياغى «دكتور» - بريطانيا وتجارة الرقيق - رسالة الخليج العربى - العدد الثامن عشر السنة السادسة ١٩٨٦ .

٤- بدر الدين عباس الخصوصى «دكتور» - محمد على والخليج العربى - ١٨٣٨ - ١٨٤٠ - المؤرخ العربى .

٥- جمال زكريا قاسم «دكتور» - مجلس التعاون ودوافع تأسيسه - الندوة العلمية الرابعة لمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - الكويت ١٥ - ١٧ نوفمبر ١٩٩٣ .

٦- حسن عليكم «دكتور» - مألة الأمن فى الخليج - رؤية قومية - مجلة الوحدة - العدد ٥٣ .

٧- حسين أحمد البحارنة - مجلس التعاون الخليجى ودوره فى تحيق الوحدة الخليجية - الندوة العلمية الرابعة لمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - الكويت - ١٥ - ١٧ نوفمبر ١٩٩٣ .

٨- روزمارى سعيد «دكتورة» - النزاع حول الجزر العربية فى الخليج العربى - دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد(٦) .

٩- سيد فاروق حسنت - مسح تاريخى للمصالح الأوروبية فئ منطقة الخليج العربى - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد (٥) .

١٠- صلاح العقاد «دكتور» - مجلس التعاون لخليجى فى إطاره الاقليمى والدولى - الندوة العلمية الرابعة لمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - الكويت ١٥ - ١٧ نوفمبر ١٩٩٣ .

١١- طارق نافع الحمدانى «دكتور» - بحوث عن تاريخ الخليج العربى والجزيرة العربية - جامعة البصرة - ١٩٨٥ .

١٢- ميمونة خليفة الصباح «دكتورة» - مؤرخ العربى العدد (٣٥) .

الصحف والمجلات

١- مجلة الدستور - الصادرة فى يوم الإثنين ٢٧ / ٨ / ١٩٧٨ - العدد ٣٩٣ .

٢- جريدة الأنباء - السبت ٥ أغسطس ١٩٩٣ - العدد ٦١٩٣ .

فهرس الموضوعات

إهـــداء ٣

تــقــديم ٥

الفصل الأول

الاستعمار الأوربى فى الخليج العربى ١١

الفصل الثانى

المقاومة العربية فى الخليج العربى ٥٥

الفصل الثالث

الساحل الجنوبى للخليج العربى ٨٩

الفصل الرابع

التنافس الأنجلو - مصرى فى الخليج العربى ١٢٧

الفصل الخامس

التنافس الأنجلو - عثمانى فى الخليج العربى ١٦١

الفصل السادس

التاريخ الاقتصادى فى الخليج العربى ١٩١

الفصل السابع

الخليج العربى فيما بين الحربين ٢٢٣

الفصل الثامن

الخليج العربى عقب الحرب العالمية الثانية
وحتى الانسحاب البريطانى (١٩٤٥-١٩٧١م) ٢٥٩

الفصل التاسع

أمن الخليج العربى ٢٩١

الفصل العاشر

التاريخ الاقتصادى للخليج العربى ١٩٠٨ - ١٩٩٠ .... ٣٢٣

الفصل الحادى عشر

التاريخ الاجتماعى لشرق الجزيرة العربية والساحل الغربى للخليج ٣٥٧

الفصل الثانى عشر

التاريخ الثقافى لشرق الجزيرة العربية والساحل الغربى للخليج ٣٨٥

المراجع ٤١٢

رقم الإيداع ٩٦/٣٠٩٠

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 5487 - 43 - 9

طبع بمطابع دار روتابرينت

تاريخ الخليج العربي
الحديث والمعاصر

للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES